

اللَّطَائِفُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمَلَكُوتِيَّةُ
وَالْحَقَائِقُ الْإِحْسَانِيَّةُ الْجَبْرُوتِيَّةُ

فِي
رِسَالِ الصَّارِفِ بِاللَّهِ
السَّيِّدِ أَحْمَدَ بْنَ عَمَّيَّةَ الْحَسَنِيِّ

- ١- شَرْحُ ضَمِيمَةِ ابْنِ الْفَاضِلِ
- ٢- شَرْحُ نُونَةِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ
- ٣- شَرْحُ صَلَاةِ الْقُطْبِ ابْنِ مَسْنُونِ
- ٤- شَرْحُ وَصِيَّةِ 'يَا مَسْمُومٌ' لِلْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ
- ٥- مَعَارِجُ النَّفْسِ إِلَى حَقَائِقِ الْتَقْوَى
- ٦- شَرْحُ صَلَاةِ الشَّيْخِ الْأَكْبَرِ ابْنِ عَرَفِيٍّ
- ٧- سُلُوكُ الدُّرَرِ فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ
- ٨- شَرْحُ بَعْضِ مَقْطَعَاتِ الشَّافِعِيِّ
- ٩- شَرْحُ الْأُبَيَّاتِ الْمَدَنِيَّةِ لِلْجُنَيْدِ

صَلَّيْهَا وَمَعَهَا رَدِّهَا عَلَيْهَا
السَّيِّدُ الْأَكْبَرُ عَاصِمُ بْنُ أَحْمَدَ الْكَلْبَالِيِّ
الْحَسَنِيُّ الشَّافِعِيُّ الدَّرَقَاوِيُّ



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kitab Al-Islamiyyah

DKI

أُنشِئَتْ مِنْ بَحْثِ بَحْثٍ سَنَةِ ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م
Est. by Muhammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Muhammad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

اللطائفُ الإيمانية المملوكية
والحقائقُ الاجسانية الجبروتية
فِي

رسائل العارف بالله الشيخ أحمد بن محمد الحسيني

- ١ - شرح خمرة ابن الفاضل
- ٢ - شرح نونية الإمام الشستري
- ٣ - شرح صلاة القطب ابن مسيس
- ٤ - شرح قصيدة "يامه تعاظم" لإمام الرفاعي
- ٥ - معراج السنون إلى حقائق التصوف
- ٦ - شرح صلاة الشيخ الأكبر ابن عربي
- ٧ - ملك الدرر في ذكر القضاء والقدر
- ٨ - شرح بعض مقتطفات الشستري
- ٩ - شرح الأبيات الثلاثة للجنيدي

ضبطها وصححها وعلّق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيلاني
الحسيني الشاذلي الرفاعي



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

**Title: Al-Ḥaṭā'if al-ʿImāniyyah al-Malakūtiyyah
wal-ḥaqā'iq al-ʾiḥsāniyyah al-Jabarūtiyyah
fi rasā'il al-ʾarīf bi-Allāh al-ṣayḥ
Aḥmad ben ʿAjīb al-Ḥasanī
(9 Sufistic works of Ibn ʿAjīb)**

Author: Aḥmad ben ʿAjīb al-Ḥasanī

Editor: Dr. ʿĀsim Ibrāhīm Al-kayālī

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 328

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

**الكتاب: اللطائف الإيمانية الملكوتية
والحقائق الإحسانية الجبروتية
في رسائل العارف بالله
الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني
المؤلف: ابن عجيبة**

المحقق: الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 328

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4602-5



9 0000

9 782745 146021

منشورات محمد كاظم الخراساني



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved ©
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
جزئاً أو تسجيله على أي وسيلة ميكانيكية أو إلكترونية أو
أو برمجته على أي أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite
et exposerait le contrevenant à des poursuites
judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م ١٤٢٧ هـ

منشورات محمد كاظم الخراساني

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكات
Ramel Al-Zarif, Bohatory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣١١٣٨ - ٣١١٣٥ (١ ٩١١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

ص.ب ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصالح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

هاتف ١١ / ٣١١٣٨ - ٣١١٣٥
فاكس ١١ / ٣١١٣٨ - ٣١١٣٥

<http://www.al-ilmiyah.com>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الأول والآخر والظاهر والباطن احتجب عن العقول والأبصار وتجلى للأرواح والبصائر، ليس كمثله شيء من حيث ذاته، وهو السميع البصير من حيث أسماؤه وصفاته، أثبت الأكوان بقيوميته ومحاهم بأحدثه، كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

والحمد لله المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، والغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، خالق الخلق من العدم على غير مثال سبق بقدرته على وفق ما خصصته إرادته وكشفه علمه.

والصلاة والسلام على مجلى الوجود الحقي ومادة الوجود الخلقي، أحدي الكمال وواحي الجلال والجمال، الأول بروحه والآخر بجسده، قرآن الذات، وفرقان الأسماء والصفات، باب الحضرة ومنتهاها، والرحمة المهداة لعوالم الملك والملكوت، والمتحقق بسر الجبروت، الإنسان الكامل والخليفة الحقيقي، والقُدوة الحسنة للأنموذج الإنساني في أرض ملك جسمه وسماء ملكوت قلبه، وجبروت سر روحه، بما بعث له به من الدين الكامل: الإسلام والإيمان والإحسان.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس وهم الأغيار المتحقيقين بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ وَبَّيْنَهُ وَبَيْنَكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وعلى أصحابه الأخيار المتخلقين بأنوار مقامات وأحوال رسول الله ﷺ، فكانوا نجوم الاقتداء والاهتداء مصداقاً لقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وبعد ففي إطار نشر كتب التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وضبطها وتصحيحها وتنسيقها والتعليق عليها خدمة لمقام الإحسان المكوّن للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل بعد ركني الإيمان والإسلام، نقدم للقراء الكرام مجموعة من مؤلفات الأستاذ الكبير المربي العارف بالله تعالى والوارث المحمدي الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني جمع فيها الكثير من اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية . وهذه المؤلفات هي التالية :

١ - شرح خمرة سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض قدس سره .

٢ - شرح نونية الإمام أبي الحسن الششتري قدس سره .

٣ - شرح صيغة صلاة القطب عبد السلام مشيش على النبي ﷺ .

٤ - شرح قصيدة يا من تعظم للقطب أحمد الرفاعي قدس سره .

٥ - معراج التشوّف إلى حقائق التصوف .

٦ - شرح صيغة صلاة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي قدس سره .

٧ - شرح سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر .

٨ - شرح بعض مقتطفات الإمام أبي الحسن الششتري .

٩ - شرح أبيات الإمام الجنيد: تَوْضُأُ بِمَاءِ الْغَيْبِ . . .

هذا ونشير إلى أن الفضل في جمع ونشر هذه التآليف لأول مرة يرجع إلى الأستاذ الفاضل عبد السلام العمراني الخالدي الذي صحب أكابر بني عجيبة وجمع من مؤلفات الشيخ أحمد بن عجيبة ستة وعشرين ما بين شريعة وطريقة وحقيقة، طرائق إيمانية ملكوتية، وحقائق إحسانية جبروتية، من تآليف العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني .

وفي الختام لا بدّ من الإشارة إلى أن كتب التصوّف تساعد المُريد على الإطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلّع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] . كل ذلك بإشراف

ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، والشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ بِغُرْفٍ مُّأْتَرَةٍ﴾ [الحج: ٢٣]، ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني(*)

(... - منتصف القرن ١٣)

هو الشريف الحسيب، قطب دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقتين، وعمدة الفريقين، ولي الله الأكبر، وغوثه الأشهر، سيدنا ومولانا أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي.

كان رضي الله عنه من أهل التمكين، تلقى في بدايته العلوم الشرعية.

وكان رضي الله عنه يلبس الملابس الحسنة، ومال إلى طريق التصوف فأخذ أنوار الطريقة، وتلقى أسرار الحقيقة من أستاذه فرد هذه الطائفة سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، ولقنه العهد، والأوراد، والذكر، وقال له: يا أحمد، يا ولدي، شروط الطريق عندنا الصدق والمحبة. وقال رضي الله عنه: فقلت له: يا سيدي، نحب أن تكتب لنا ذلك في كاغد^(١). قال: فكتب لي بذلك، ولما خلوت بنفسي، نظرت إلى الكاغد، وقرأت ما فيها، ففتح علي في الحسين، وصرت من أهل الحقائق والتمكين.

وبلغ رضي الله عنه وأرضاه مقامات العارفين بصدقه وحبّه، فخلع ما كان عليه من الثياب، لما فتحت له الأبواب، وناداه منادي الأحياء: ما هذا الحال يا ابن عجيبة؟ فأفيضت عليه الأنوار، فارتدى مرقعة وإزاراً، وعلق سبخته وقِرابه^(٢) في عنقه كما هو شأن الأخيار، وصار يمر في الأسواق معلقاً قِرابه في

(*) مقتبسة من كتاب (طبقات الشاذلية الكبرى) المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية للشيخ محمد الكوهن الفاسي المتوفى سنة ١٣٤٧هـ.

(١) الكاغد: القِطاس (ورق الكتابة) فارسي معرب، والجمع كواغد، (القاموس المحيط).

(٢) القِراب: غمد السيف والسكين والجمع قُرَب وأقربة.

عنقه، لابساً لمرقعته وسبحته، وهو يقول بأعلى صوته: الله الله، أش هادي الغريبة؟ لو كان العلم يغني عن الحال، ما يعلقُ القرابُ ابنُ عجيبة.

واستمرَّ على هذا الحال حتى نال ما نال، وتكلَّم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسراراً عجيبة، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها، وتبرَّكوا بتقبيل يديه، وأقبلت الوفود عليه، وكان قدس سره نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى معه مَنْ يَعْرِفه يرقيه في ميدان «حسنات الأبرار سيئات المقربين»^(١)، حتى كثرت على يديه الأبتاغ والمريدون.

ومن يطالع شرحه على «الحكم» يعرف قدره ومكانته عند ربّه، وكان شرحه لهذه «الحكم العطائية» يأمر مَنْ لا تسعه مخالفته فرد الطائفة الشاذلية أستاذه وموصله بسلسلة الأنوار سيدي محمد البوزيدي، قال قدس سره: وجلُّ هذا الشرح الذي نقيده إنما هو مواهب؛ لأنني أكتب الحكمة ولا أدري ما أكتب، فأقف مفتقراً إلى ما عند الله.

وله تأليفٌ وشروحٌ كثيرة، منها: كتاب «قواعد التشوف في حقائق التصوف»، وله تفسيرٌ للقرآن^(٢) في الظاهر والباطن، قال قدس سره: إذا أردتُ أن نتكلَّم في التفسير أو غيره نشرع في الكلام، ثم نغيب، فكنت نحسُّ بالكلام يخرج مني من غير اختيار، كأنه السحاب، فتصدّر مني علومٌ وحكم، ولقد حضر معنا ذات يوم رجلٌ كبير السن، فسمع ذلك، فقال: واللّه، لقد حضرتُ مجالسَ العلماء والصالحين، واللّه، ما رأيتُ مثلَ هذه الجواهر واليوافيت التي تخرجُ من سيدي أحمد بن عجيبة، وذلك كله ببركة صحبة أسياننا، فجزاهم الله عنا أحسنَ جزائه.

ومن تفسيره عند قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] وأما كونها - أي الصلاة - تقوم مقام الشيخ في دخوله مقام الفناء

(١) أورده علي القاري في الأسرار المرفوعة [١٨٦]، والهروي في المصنوع، [١١٠/١] والعجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (١١٣٧) [٤٢٨/١].

(٢) انظر: الأعلام ٢٤٥/١.

والبقاء حتى تعتدل حقيقته وشريعته، فلا تنقطع رعونات^(١) النفس إلا بآمرٍ وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما تُوصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ إن لم يظفر بالشيخ الفناء في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، وتظهر له كراماتٌ وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء، تكون شريعته أكبر من حقيقته، هذا ما ذقناه وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناها يستعملونها، وأخذنا عنهم أنهم يأمرُونَ المريد إن رآه أهلاً للتربية أن يلتزم الاسم المفرد، ويفنى فيه حتى تتعدم عوالمه، فإذا تحقّق فناؤه، وغاب عن نفسه ورسمه، رُدّوه إلى مقام البقاء، وحينئذٍ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ؛ لتكون صلاته عليه كاملة، يُصلي على روحه وسرّه بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما شاهد ربّه.

أقول: ولهذا كانت الطريقة الشاذلية بدايتها نهاية غيرها، ونهايتها تحقيق فافهم.

وتأليفه قدس الله سرّه، ونفعنا به عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكُمل، فإنه أعطي رضي الله عنه ناطقةً أسرارِ أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربّهم، حتى عُدَّ قطبَ الزمان، وواحدَ الأوان.

وكلامه قدس الله سرّه عالٍ، حلّ مشكلات القوم، وفكّ طلاسَم أسرارهم، وتكلّم بما أبهرَ عقولَ الأعيان.

توفي قدس الله سرّه في منتصف القرن الثالث عشر^(٢)، ومقامه بالمغرب مشهورٌ يُتوسَّلُ به إلى الله في قضاء الحاجات، ودفع الكُربات، أمداً الله بمدده، ونفعنا به، وجعلنا على أثره. آمين.

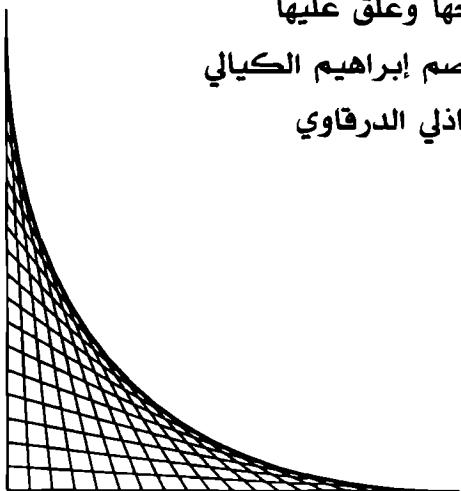
(١) الرعونات: الخُمق. ومفردها: الرعونة.

(٢) في طبقات الشاذلية الكبرى لمحيي الدين الطعمي ص ٤١: توفي بقبيلة بني سلمان الغمارية عند شيخه البوزيدي في حياته عام ١٢٢٤ ودفن بالزيميج من القبيلة الأنجرية.

شرح خمريّة ابن الفارض
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه

ضبطها وصحّحها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شَرَحُ خَمْرِيَّةِ ابْنِ الْفَارِضِ: الحمد لله الذي سقى قلوب أجيائه، مِنْ مُدَامَةِ حُبِّهِ. فَأَصْبَحُوا مِنْ سَكْرِ مَحَبَّتِهِ مُتَوَلِّهِينَ. غَيَّبَهُمْ عَنْ شُهُودِ غَيْرِهِ بِدَوَاعِي شُهُودِ سِرِّهِ فَأَضْحُوا فِي رِيَاضِ مَلَكُوتِهِ مُتَنَزِّهِينَ. جَذَبَ أَزْوَاحَهُمْ بِحَضْرَةِ قُدْسِهِ، فَصَارُوا فِي خَلَوَاتِهِمْ بِهْ أَنْيْسِينَ. وَهَيَأَ أَسْرَارَهُمْ لِحِفْلِ أَعْبَاءِ مَغْرَفَتِهِ، فَخَاضُوا فِي بَحَارِ جَبَرُوتِهِ بِسُفْنِ أَفْكَارِهِمْ سَابِحِينَ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اِمْتَدَّتْ مِنْ سِرِّ نَاسُوتِهِ الْأَكْوَانُ. وَأَشْرَقَتْ مِنْ نُورِ لَاهُوتِهِ حَقَائِقُ الْعِزْفَانِ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْكَرَامِ. أَمَا بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ وَقَبْلَهُ فَعِلِمُ التَّوْحِيدِ مِنْ أَجْلِ الْعُلُومِ وَأَحَقُّ مَا تَنَفَّقَ فِيهِ نَتَائِجُ الْفُهُومِ. وَكَيْفَ لَا وَمَوْضُوعُهُ الذَّاتُ الْعَلِيَّةُ، وَأَوْصَافُهَا السَّنِيَّةُ وَأَسْمَاؤُهَا الزُّكِّيَّةُ. وَبِهِ يَقَعُ الْخُلُودُ فِي نَعِيمِ الْجَنَانِ. وَالْفَوْزُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْكَرِيمِ الْمَنَانِ، وَهُوَ مُنْقَسِمٌ عَلَى قَسْمَيْنِ: تَوْحِيدِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، وَهُوَ لِعَامَّةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَتَوْحِيدِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ، وَهُوَ لَخَوَاصِّ أَهْلِ الْإِحْسَانِ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ وَالْوُجْدَانِ شَرِبُوا كُؤُوسَ الْمَحَبَّةِ، فَسَكَرُوا وَغَابُوا عَنِ الْوُجُودِ. ثُمَّ صَحُّوا مِنْ سَكَرَتِهِمْ فَتَمَتَّعُوا بِحَلَاوَةِ النَّظَرَةِ وَالشُّهُودِ. فَيَا لِلَّهِ مِنْ شَرَابٍ مَا أَغْدَبُهُ وَمِنْ مَنَهْلٍ مَا أَحْسَنُهُ، يَبِيعُ الثُّقُوسَ فِي إِذْرَاكِهِ حَقِيرَ، وَبَذَلَ الْأَرْوَاحَ وَالْمُهْجَ فِي تَبْلِهِ تَزَرُّ يَسِيرَ. وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ:

إِنْ كَانَ سَفْكَ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةُ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِي

وَمِمَّنْ أَخَرَزَ السَّبْقَ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ وَكَانَ لَهُ مِنْ هَذَا السَّرِّ الْحِظْوَةِ وَالشَّانِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَعْظَمُهُمْ فِي ذَلِكَ سَيِّدُ الْأَنَامِ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ. إِذْ مِنْ بَحْرِ سِرِّهِ فَاضَتْ أَسْرَارُهُمْ، وَمِنْ شَمْسِ نُورِهِ انْفَلَقَتْ أَنْوَارُهُمْ، وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ.

ثم ورث عنهم ذلك خواص أوليائه، وصفوة أحبائه. جاهدوا نفوسهم بأنواع الرياضات، وكابدوا في طلب محبوبهم أقصى الغايات. صدقوا ربهم في المعاملات، ورَفَضُوا الحُظُوظ والشَّهَوَات فَحَصَلَ لَهُم الميراث العظيم بعد تحقيق نسبة القَرَابَةِ المعنوية، بينة شهوده عقد المحبة، وأحكام رابطة الصَّحبة، وبرز نطفة العناية مِنْ صُلْبِ الْوِلَايَةِ، وعلوقها في مَشِيمة الإرادة، وظهور جنين السَّعادة، ثم تربيته في عَشْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بين أبيي المراقبة والمجاهدة. ثم تغذيته بلبن علم اليقين إلى أَوَانِ فِطَامِهِ بِشُهُودِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الْموروث عن الأنبياء عليهم السلام، لَا التوحيد الذي يُنتِجُهُ الدَّلِيلُ والبُزْهَانُ وَيَغْتَرِيهِ الزِّيَادَةُ وَالتَّقْصَانُ، إذ قد تعرض له الشكوك والأوهام، التي هي محالٌ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَمَنْ تَحَقَّقَ بِهَذَا الميراث الرفيع، والسر البديع، سلطان العشاق، وإمام الحذّاق العارف الرُّبَّانِي والحبرُ الصمداني شرف الدين أبو جعفر عُمَرُ بن علي بن المرسف المعروف بابن الفارض السُّعْدِي الْأَصْلُ الْمِصْرِي الدَّارُ والمولد والوفاة. كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعجوبة زمانِهِ وَفَرِيدَ عَصْرِهِ وَأَقْرَانِهِ. وَلِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وخمسماية بالقاهرة، وتوفي بِهَا سَنَةَ اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ. وَدُفِنَ بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ خَارِجَ مِصْرَ، وَعَلَيْهِ قَبَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِزَارَةٌ شَهِيرَةٌ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ. قَالَ فِي الدِّيَوَانِ نَاقِلًا عَنْ وَلَدِ الشَّيْخِ؛ كَانَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْتَدِلَ الْقَامَةِ، جَمِيلَ الْوَجْهِ، مَشُوبًا بِخُمْرَةٍ، وَإِذَا اسْتَمَعَ وَتَوَاجَدَ وَعَلَبَ عَلَيْهِ الْحَالُ، يَزْدَادُ وَجْهُهُ جَمَالًا وَنُورًا، وَيَنْحَدِرُ الْعَرَقُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى يَسِيلَ إِلَى الْأَرْضِ. وَكَانَ عَلَيْهِ نُورٌ وَجَلَالَةٌ وَهَيْبَةٌ، وَكَانَ إِذَا حَضَرَ فِي مَجْلِسٍ يَظْهَرُ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ سَكِينَةٌ. وَكَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسُهُ أَكَابِرُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ، وَالْوُزَرَاءِ، وَالْقُضَاةِ، وَرُؤَسَاءِ النَّاسِ، وَهُمْ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَدَبِ وَالِاتِّصَاعِ لَهُ، وَإِذَا خَاطَبُوهُ كَأَنَّمَا يَخَاطَبُونَ مَلِكًا عَظِيمًا. وَإِذَا مَشَى فِي الْمَدِينَةِ يَزْدَجِمُ النَّاسُ عَلَيْهِ، يَلْتَمِسُونَ مِنْهُ الْبَرَكَاتِ وَالْدُّعَاءَ. وَيَقْصِدُونَ تَقْبِيلَ يَدِهِ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ ذَلِكَ بَلْ يُصَافِحُهُ، وَكَانَتْ ثِيَابُهُ حَسَنَةً، وَرَازِحَتُهُ طَيِّبَةً، وَكَانَ يَنْفِقُ عَلَى مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِ نَفَقَةً مُتَّسِعَةً، وَيُعْطِي مَنْ يَدِهِ عَطَاءً جَزِيلًا، وَلَمْ يَكُنْ يَتَسَبَّبُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَحْصِيلِ الدُّنْيَا، وَلَا

يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا. وَبَعَثَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ أَلْفَ دِينَارٍ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ. وَسَأَلَهُ أَنْ يُجَهِّزَ لَهُ قَبْرًا عِنْدَ أُمِّهِ، فِي قُبَّةِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمْ يَأْذِنْ لَهُ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُجَهِّزَ لَهُ مَكَانًا يَكُنْ مَزَارًا يُعْرَفُ بِهِ، فَلَمْ يَنْعَمْ لَهُ بِذَلِكَ.

قال رضي الله عنه: كُنْتُ فِي أَوَّلِ تَجْرِيدِي، أَسْتَاذَنُ وَالِدِي، وَأُطْلِعُ إِلَى وَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِالْجَبَلِ الثَّانِي مِنَ الْمَقْطَبِ وَأَوِي فِيهِ، وَأُقِيمُ فِي هَذِهِ السِّيَاحَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى وَالِدِي مِنْ أَجْلِ بَرِّهِ، وَمِرَاعَاةِ قَلْبِهِ، وَكَانَ وَالِدِي يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةُ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَارِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فَيَجِدُ سُورًا بِرُجُوعِي إِلَيْهِ، وَيُلْزِمُنِي الْجُلُوسَ مَعَهُ فِي مَجَالِسِ الْحُكْمِ وَمَدَارِسِ الْعِلْمِ، ثُمَّ أَشْتَاقُ إِلَى التَّجْرِيدِ، وَأَسْتَاذُنُهُ، وَأَعُودُ إِلَى السِّيَاحَةِ. وَمَا بَرِخْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، إِلَى أَنْ سئَلَ وَالِدِي أَنْ يَكُونَ قَاضِي الْقَضَاةِ، فَامْتَنَعَ وَنَزَلَ عَنِ الْحُكْمِ وَاعْتَزَلَ النَّاسَ وَالسِّيَاحَةَ، وَسُلُوكَ طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ، فَلَمْ يَفْتَحْ لِي شَيْئًا، فَارْجَعْتُ مِنَ السِّيَاحَةِ يَوْمًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَدَخَلْتُ الْمَدْرَسَةَ الْيُوسُفِيَّةَ فَوَجَدْتُ رَجُلًا شَيْخًا بَقَالًا عَلَى بَابِ الْمَدْرَسَةِ، يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا غَيْرَ مُرْتَّبٍ، غَسَلَ يَدَيْهِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ. فَقُلْتُ لَهُ يَا شَيْخُ: أَنْتَ فِي هَذَا السَّنِّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ فَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتَ تَتَوَضَّأُ وَضُوءًا خَارِجًا عَنِ التَّرْتِيبِ الشَّرْعِيِّ، فَتَنْظُرُ إِلَيَّ وَقَالَ: يَا عَمْرُ أَنْتَ مَا يَفْتَحُ عَلَيْكَ بِمِصْرَ، وَإِنَّمَا يَفْتَحُ عَلَيْكَ بِالْحِجَازِ، فِي مَكَّةَ شَرَفَهَا اللَّهُ، فَاقْصِدْهَا. فَقَدْ آلَ لَهُ وَقْتُ الْفَتْحِ. فَقَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَسْتَرُّ بِإِظْهَارِ الْجَهْلِ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي أَيْنَ أَنَا وَأَيْنَ مَكَّةُ؟ لَا أَجِدُ رُكْبًا وَلَا رُفْقَةً فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَتَنْظُرُ إِلَيَّ وَأَشَارَ وَقَالَ: هَذِهِ مَكَّةُ أَمَامَكَ فَتَنْظُرُ مَعَهُ فَرَأَيْتُ مَكَّةَ شَرَفَهَا اللَّهُ فَتَرَكْتُهُ وَطَلَبْتُهَا فَلَمْ تَبْرَحْ أَمَامِي إِلَى أَنْ دَخَلْتُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَجَاءَنِي الْفَتْحُ حِينَ دَخَلْتُهَا، وَتَرَادَفَ وَلَمْ يَنْقَطِعْ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ شَرَعْتُ فِي السِّيَاحَةِ فِي أَوْدِيَّتِهَا وَكُنْتُ أَسْتَانِسُ بِالْوُخْشِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَأَقُمْتُ بِوَادِ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُجِدِّ، وَكُنْتُ آتِي مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَأُصَلِّي فِي الْحَرَمِ الشَّرِيفِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَمَعِيَ سَبْعُ عَظِيمٍ، يَصْحَبُنِي فِي ذَهَابِي وَإِيَابِي، وَيَنْخُ إِلَيَّ كَمَا يَنْخُ بِجَمَلٍ وَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي أَزْكَبُ، فَمَا رَكِبْتَهُ قَطُّ. ثُمَّ بَعْدَ خَمْسَةِ

عَشْرَ سَنَةٍ، سَمِعْتُ الشَّيْخَ الْبَقَّالَ يُنَادِي: يَا عُمَرُ، تَعَالِ إِلَى الْقَاهِرَةِ، إِحْضِرْ وَفَاتِي، فَأَتَيْتُهُ مُسْرِعًا، فَوَجَدْتُهُ قَدْ اخْتَضَرَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَنَاوَلَنِي دَنَائِيرَ ذَهَبٍ. وَقَالَ: جَهِّزْ لِي بِهِذِهِ وَافْعَلْ كَذَا وَكَذَا... . وَاغْطِ حَمَلَةَ نَعْشِي إِلَى الْقَرَاةِ كُلِّ وَاحِدٍ دِينَارًا، وَاتْرَكْنِي عَلَى الْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَيْهَا فَلَمْ تَزَلْ بَيْنَ عَيْنِي أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ الْقَرَاةُ عِنْدَ مَجْرَى السَّيْلِ تَحْتَ الْمَسْجِدِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَرْضِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَرَاعِ مُوسَى، بِسَفْحِ جَبَلِ الْمُقَطَّبِ. وَانْتَظَرْتُ قُدُومَ رَجُلٍ يَهْبِطُ إِلَيْكَ مِنَ الْجَبَلِ وَصَلَّ أَنْتَ وَهُوَ عَلَيَّ، وَانْتَظَرْتُ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ فِي أَمْرِي. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا تَوَفَّيْ جَهَّزْتَهُ كَمَا قَالَ، وَطَرَحْتُهُ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ كَمَا أَمَرَنِي، فَهَبَّطَ رَجُلٌ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يَهْبِطُ الطَّائِرُ الْمُسْرِعُ لَمْ أَرَهُ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ، فَعَرَفْتُهُ بِشَخْصِهِ، كُنْتُ أَرَاهُ يُصْفَعُ قَفَاهُ بِالْأَسْوَاقِ. فَقَالَ: يَا عُمَرُ تَقْدَمُ، فَصَلِّ بِنَا عَلَى الشَّيْخِ. فَتَقَدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ إِمَامًا، وَرَأَيْتُ طَيورًا خَضِرًا وَبَيْضًا صَفُوفًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَرَأَيْتُ طَائِرًا مِنْهُمْ أَخْضَرَ عَظِيمَ الْخَلْقَةِ، قَدْ هَبَّطَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَابْتَلَعَهُ، وَازْتَفَعَ إِلَيْهِمْ وَطَارُوا جَمِيعًا، وَلَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّنْسِيحِ إِلَى أَنْ غَابُوا عَنَّا. فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ؟ هُمْ شُهُدَاءُ السُّيُوفِ. وَأَمَا شُهُدَاءُ الْمَحَبَّةِ، فَكُلُّهُمْ، أَجْسَادُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ. وَهَذَا الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَا عُمَرُ. وَأَنَا كُنْتُ مَعَهُمْ. وَإِنَّمَا وَقَعَتْ مِنِّي هَفْوَةٌ، فَطُرِدَتْ عَنْهُمْ. فَأَنَا أَصْفَعُ قَفَايَا نَدْمًا وَتَأْدِيبًا عَلَى تِلْكَ الْهَفْوَةِ. ثُمَّ ارْتَفَعَ الرَّجُلُ إِلَى الْجَبَلِ كَالطَّائِرِ إِلَى أَنْ غَابَ عَنِّي. قَالَ وَلَدُهُ: وَفِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ، دَفَنَ الشَّيْخَ حَسَبَ وَصِيَّتِهِ. وَضَرِيحُهُ بِهَا مَعْرُوفٌ. قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ. قَالَ حَفِيدُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ قُلْتُ فِي ذَلِكَ أَيْيَاتًا:

جُزْ بِالْقَرَاةِ تَحْتَ ذَيْلِ الْعَارِفِ وَقُلِ السَّلَامَ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الْفَارِضِ
أَبْرَزْتَ فِي نَظْمِ السُّلُوكِ عَجَائِبًا وَكَشَفْتَ عَنْ سِرِّ مَصُونٍ غَامِضِ
وَشَرِنْتَ مِنْ بَخْرِ الْمَحَبَّةِ وَالْوَفَا فَرَوَيْتَ مِنْ بَخْرِ مُحِيطٍ غَامِضِ

قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ. فَقَالَ لِي: يَا عُمَرُ، لِمَ تَنْتَسِبُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى بَنِي سَعْدِ،

قبيلة حلیمة السعدية مُرضعتك فقال ﷺ: لَا بُدَّ أَنْتَ مِنِّي. وَنَسَبَكَ مُتَّصِلٌ بِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي أَخْفِظُ نَسَبِي عَنْ أَبِي وَجَدِّي إِلَى بَنِي سَعْدٍ. فَقَالَ: لَا - مَاذَا بِهَا صَوْتُهُ - بَلْ أَنْتَ مِنِّي. وَنَسَبَكَ مُتَّصِلٌ بِي. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. مَكْرَرًا لِذَلِكَ. وَهَذِهِ النِّسْبَةُ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسْبَةُ الْأَهْلِيَّةِ؛ أَوْ نِسْبَةُ الْمَحَبَّةِ. وَنِسْبَةُ الْمَحَبَّةِ أَشْرَفُ مِنْ نِسْبَةِ الْأَبَوَّةِ؛ وَهِيَ الَّتِي قَرَّبَتْ بِلَالًا وَصُهَيْبًا، وَسَلَمَانَ الْفَارِسِيِّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ. وَأَبْعَدَتْ أَبَا طَالِبٍ وَأَبَا جَهْلٍ. وَإِلَى هَذَا، أَشَارَ الشَّيْخُ فِي قَصِيدَتِهِ الْيَائِيَةِ، حَيْثُ قَالَ:

نَسَبٌ أَقْرَبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى بَيْنَنَا مِنْ نَسَبٍ مِنْ أَبَوَيْ
فَقُلْتُ: وَقَدْ رُمِيَ الشَّيْخُ ابْنُ الْفَارِضِ، بِمَا رُمِيَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ. كَالشُّشْتَرِيِّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، مِنَ الْحُلُولِ وَالْإِتْحَادِ. حَتَّى أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الظَّاهِرِ نَهَى قِرَاءَةَ تَائِيَّتِهِ؛ الَّتِي سَمَّاها: أَنْفَاسُ الْجَنَانِ، وَنَفَاسُ الْجَنَانِ. ثُمَّ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: سَمِّهَا نَظْمَ السُّلُوكِ، فَسَمَّاها بِذَلِكَ. ثُمَّ امْتَحَنَ النَّاهِي بِمُصَيِّبَةٍ، فَتَابَ وَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ. فَقَالَ حَفِيدُهُ: وَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ مِنَ الشَّيْخِ أَنْ يَمِيلَ فِي قَصِيدَتِهِ إِلَى الْحُلُولِ. وَقَدْ نَزَّهَ عَقِيدَتَهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ فِيهَا:

وَكَيفَ بِاسْمِ الْحَقِّ ظَلَّ تَحْقِيقِي تَكُونُ أَرَاخِيفُ الضُّلَالِ مُخِيفَتِي
وَهَا دَخِيَّةٌ وَاقِي الْأَمِينِ نَبِيَّنَا بِصُورَتِهِ فِي بَدْءِ وَخِي الثُّبُوءَةِ
أَجْبِرِيلُ قُلْ لِي كَانَ دَخِيَّةٌ إِذْ بَدَأَ لِمُهْدِي الْهُدَى فِي هَيَاةٍ بَشَرِيَّةٍ
وَفِي عِلْمِهِ عَنْ حَاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ بِمَاهِيَةِ الْمَرْءِ مِنْ غَيْرِ مَزِيَّةٍ
يَرَى مَلَكًا يُوجِي إِلَيْهِ وَغَيْرُهُ يَرَى رَجُلًا يُدْعَى إِلَيْهِ بِصُخْبَةٍ
وَلِي مِنْ أَتَمِّ الرُّؤْيَيْنِ إِشَارَةٌ تُنْزَلُ عَنْ رَأْيِي الْحُلُولِ عَقِيدَةٌ

وَمَعْنَى كَلَامِ الشَّيْخِ: أَنَّ الْكُونَ كُلُّهُ كُصُورَةُ جِبْرِيلَ، حِينَ تَصَوَّرَ عَلَى صُورَةِ دَخِيَّةٍ. فَظَاهِرُهُ دَخِيَّةٌ، وَبَاطِنُهُ جِبْرِيلَ. فَإِذَا حَقَّقْتَ، لَمْ تَجِدْ إِلَّا جِبْرِيلَ. وَلَا حُلُولَ وَلَا إِتْحَادَ. إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ. وَكَذَلِكَ الْكُونَ مَعَ نُورِ الْحَقِّ، اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. فَافْهَمْ. قُلْتُ: وَلِلشَّيْخِ قَصَائِدُ كَثِيرَةٌ، جَمَعَهَا حَفِيدُهُ فِي دِيْوَانٍ مُسْتَقِلٍّ. وَأَشْهَرُهَا وَأَنْفُسُهَا تَائِيَّتُهُ: نَظْمُ السُّلُوكِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذَكَرْهَا. كَانَ

يقول فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه القصيدة الغراء. والفريدة الزهراء. لم يَنْسُجْ على مِثْوَالِهَا. وَلَا يُسَمِّحْ خاطر بمِثَالِهَا. تَكَادُ تَخْرُجُ عن وُسْعِ طَوْرِ الْبَشْرِ. وَحَكَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ كَانُوا يَصْحَبُونَ الشَّيْخَ وَيُبَاطِئُونَهُ: إِنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ نَظْمَهَا عَلَى حَدِّ نَظْمِ الشُّعْرَاءِ. بَلْ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ جَذَبَاتٌ، يَغِيبُ فِيهَا عَنْ حَوَاسِهِ الْأَيَّامُ، نَحْوُ الْأُسْبُوعِ وَالْعَشْرَةِ. فَإِذَا أَفَاقَ أَمْلَى مَا يُفْتَحُ عَلَيْهِ مِنْهَا مِنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ وَالْخَمْسِينَ بَيْتًا. ثُمَّ يَدْعُ، حَتَّى يُعَاوِدَهُ ذَلِكَ الْحَالُ. قُلْتُ: وَيَقْرُبُ مِنْهَا قَصِيدَتُهُ الْمِمْيَةِ الْخُمْرِيَّةُ. الَّتِي أَرَدْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا. بَلْ هِيَ أَغْدَبُ مِنْهَا لَفْظًا، وَأَسْلَسَ مِنْهَا نَظْمًا. لَا يَنْطِقُ بِهَا إِلَّا لِسَانٌ مَلَكُوتِي. وَقَلْبٌ جَبْرُوتِي. بَالَعَ فِيهَا فِي مَذْحِ الْخُمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. وَأَبْدَى فِيهَا أَسْرَارَ الْحَقِيقَةِ الْغَيْبِيَّةِ، كَشَفَ فِيهَا رِذَاءَ الصُّوْنِ عَنْ أَسْرَارِ جَبْرُوتِيَّةِ. وَأَنْوَارِ مَلَكُوتِيَّةِ. فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَحْسَنَ الْجَزَاءِ. لَقَدْ قَرَّبَ الْمَدَارِكَ. وَبَيَّنَّ الْمَسَالِكَ فِي أَوْجَزِ عِبَارَةٍ. وَأَزْشَقِ إِشَارَةٍ. فَأَرَدْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ أَنْ نَضَعَ لَهَا تَقْيِيدًا مُخْتَصَرًا، يُبَيِّنُ أَلْفَاظَهَا، وَيُجَلِّ مَعْنَاهَا. بَعْدَ الِاسْتِخَارَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالِإِشَارَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ؛ وَهَذَا أَوَّانُ الشُّرُوعِ فِي التَّقْيِيدِ الْمَذْكُورِ. مُعْتَمِدًا عَلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وَمَا يَفْتَحُ بِهِ الْحَقُّ تَعَالَى مِنْ مَوَاهِبِ مِثَّتِهِ. فَأَقُولُ، وَبِهِ أَحْوَلُ وَأَصْوَلُ.

قال الشيخ رضي الله عنه:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْكَرْمُ
قُلْتُ: الْمُدَامَةُ وَالْمُدَامُ: اسْمٌ لِلْخُمْرِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَحِبُّ دَوَامَهَا عِنْدَهُمْ. فَسَمَّوْهَا بِهِ تَفَاؤُلًا. وَالْكَرْمُ: شَجَرُ الْعِنَبِ. وَالْعِنَبُ نَفْسُهُ.
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَرِبْنَا عَلَى إِثْرِ ذِكْرِ الْحَبِيبِ بِالْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ خُمْرَةً صَافِيَةً فِي مَقَامِ الصِّفَا. سَكِرْنَا بِهَا، فَغَبْنَا عَنِ الْإِحْسَاسِ. وَرَأَيْنَا أَنْوَارَ الْحَبِيبِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، فَغَبَّيْنَا السُّكْرَ عَنْ ظُلْمَةِ الْأَكْوَانِ الْحَادِثَةِ، وَأَبْصَرْنَا أَنْوَارَ الْقَدَمِ الْبَاقِيَةِ. قُلْتُ: وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي عَيْنِيَّتِي فَقُلْتُ:

سَكِرْنَا فَهَمَّنَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ وَغَبْنَا عَنِ الْإِحْسَاسِ وَالنُّورِ سَاطِعِ
تَبَدَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ وَأَشْرَقَتْ فَلَمْ يَبْقَ ضَوْءُ النُّجْمِ وَالشَّمْسُ طَالِعِ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَعَ لَنَا هَذَا السُّكْرُ بِالْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ. قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْكَزَمُ؛ الَّتِي تَكُونُ مِنْهُ الْخَمْرَةُ الْحَسِيَّةُ. إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، أَشَارَ الشُّشْتَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

لَا شَرَابَ الدُّوَالِي إِئْهَا أَرْضِيَا
خَمْرَهَا دُونَ خَمْرِي خَمْرَتِي أَرْزِيَا

فَقَوْلُهُ: سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْكَزَمُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّكْرُ بَعْدَ ظُهُورِ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ. وَأَنَّ الزَّوْجَ سَكَرَتْ عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ بِخَمْرَةِ أَرْزِيَّةِ. قَبْلَ ظُهُورِ الْعَبِّ الَّذِي تَكُونُ مِنْهُ الْخَمْرَةُ الْحَسِيَّةُ الْأَرْضِيَّةُ. وَالْمُرَادُ، أَنَّهُ سَكَرَ بِخَمْرَةِ مَعْنَوِيَّةٍ قَبْلَ ظُهُورِ مَادَّةِ الْخَمْرَةِ الْحَسِيَّةِ؛ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّكْرُ لِلرُّوحِ فِي الْأَزْلِ، فِي عَالَمِ الْأَزْوَاجِ، قَبْلَ ظُهُورِ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْكَزَمُ، عَلَى ظَاهِرِهِ. أَيْ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ مَادَّةُ الْخَمْرَةِ الْحَسِيَّةِ. وَيُؤَيِّدُ قَوْلَهُ فِيمَا يَأْتِي: فَعِنْدِي مِنْهَا نَشْوَةٌ قَبْلَ نَشَأَتِي - الْبَيْتِ -. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَالِاخْتِمَالُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَسُمِّيَتِ الْعَيْنَةُ فِي اللَّهِ سُكْرًا. لِاشْتِرَاكِهَا مَعَ السُّكْرِ الْحَسِيِّ فِي الْعَيْنَةِ عَنِ الْحَسِّ. فَإِنَّ نُورَ الْعَقْلِ، كَمَا يُسْتَرُّ بِالظُّلْمَةِ الطَّبِيعِيَّةِ؛ وَهِيَ النَّشْوَةُ النَّاشِئَةُ عَنِ الْخَمْرَةِ الْحَسِيَّةِ. كَذَلِكَ يُسْتَرُّ بِالْأَنْوَارِ الْمَعْنَوِيَّةِ، الْمَفَاجِئَةِ لَهُ مِنَ الْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ. فَيَغِيبُ عَنِ الْإِحْسَاسِ. فَلِذَلِكَ سَمَوْا تِلْكَ الْعَيْنَةَ سُكْرًا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَهَا هُنَا إِضْطِلَاحَاتٌ لِلْقَوْمِ. نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُ كَلَامِ النَّاطِمِ مِنْهَا: الذُّوقُ، وَالشُّرْبُ، وَالسُّكْرُ، وَالصُّخُوفُ، وَمِنْهَا الْحَسُّ وَالْمَعْنَى. وَمِنْهَا الْقُدْرَةُ وَالْحِكْمَةُ. وَمِنْهَا الْوُجْدُ وَالْوُجْدَانُ، وَالْوُجُودُ. وَمِنْهَا الْجَمْعُ وَالتَّفَرُّقُ.

أَمَّا الذُّوقُ؛ فَهُوَ بَرُوقُ أَنْوَارِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ عَلَى الْعَقْلِ. فَيَغِيبُ عَنِ رُؤْيَا الْحُدُوثِ، فِي أَنْوَارِ الْقِدَمِ. لَكِنْ لَا يَدُومُ ذَلِكَ. بَلْ يَلْمَعُ تَارَةً. وَيَخْفَى أُخْرَى، فَإِذَا لَمَعَ غَابَ عَنْ جِسْمِهِ. وَإِذَا خَفِيَ رَجَعَ إِلَى جِسْمِهِ؛ وَرُؤْيَا نَفْسِهِ. فَهَذَا يُسَمَّى عَنْدهُمْ ذَوْقًا.

فَإِنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ الثَّوْرُ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ فَهُوَ الشُّرْبُ. وَإِذَا اتَّصَلَ وَدَامَ فَهُوَ السُّكْرُ. وَمَرْجِعُهُ إِلَى فَنَاءِ الرُّسُومِ، فِي شُهُودِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ. وَالْعَيْنَةُ عَنِ الْأَثَرِ،

فِي شُهُودِ الْمُؤَثِّرِ. وَيُسَمَّى أَيْضاً بِالْفَنَاءِ.

فَإِنْ رَجَعَ إِلَى إِبْتِنَاتِ الْأَشْيَاءِ بِاللَّهِ، وَقِيَامِهَا بِهِ. وَرَأَى ثَوْرًا مِنْ أَنْوَارِهِ، لَا وُجُودَ لَهَا مَعَهُ. فَهُوَ الصُّخُو. وَيُسَمَّى أَيْضاً الْبَقَاءُ؛ لِإِنْقَاءِ الْأَشْيَاءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا بِنُورِ الْبَصِيرَةِ فِي اللَّهِ. وَقَدْ أَشَارَ صَاحِبُ الْحِكْمِ الْعَطَائِيَّةِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: شَمَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَ الْحَقِّ مِنْكَ. وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لَوْجُودِهِ. وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَ الْحَقِّ. لَا عَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

وَقَالَ أَيْضاً فِي بَيَانِ السَّكْرِ وَالصُّخُو، وَبَيَانِ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ. فَقَالَ بَعْدَ كَلَامٍ: وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ: غَابَ عَنِ الْخَلْقِ بِشُهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ. وَفَنِيَ عَنِ الْأَسْبَابِ، بِشُهُودِ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ. فَهَذَا عَبْدٌ مُوَاجِهٌ بِالْحَقِيقَةِ. ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ. قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى مَدَاهَا، غَيَّرَ أَنَّهُ غَارِقُ الْأَنْوَارِ. مَطْمُوسُ الْأَثَارِ. قَدْ غَلَبَ سَكْرُهُ عَلَى صُخُوهِ، وَجَمَعَهُ عَلَى فَرْقِهِ وَغَيْبَتِهِ عَلَى حُضُورِهِ. وَأَكْمَلَ مِنْهُ رَجُلٌ شَرِبَ فَازْدَادَ صُخُوًا، وَغَابَ فَازْدَادَ حُضُورًا. فَلَا جَمْعَهُ يَحْجُبُهُ عَنِ فَرْقِهِ، وَلَا فَرْقُهُ يُخْجِبُهُ عَنِ جَمْعِهِ. وَلَا فَنَاؤُهُ يَصُدُّهُ عَنِ بَقَائِهِ، وَلَا بَقَاؤُهُ يَصْرِفُهُ عَنِ فَنَائِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي قَسْطٍ قَسْطَهُ. وَيُوفِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَأَمَّا الْوُجُدُ فَهُوَ وَارِدٌ يُحَرِّكُ الْقَلْبَ وَيُزْعِجُهُ. إِمَّا شَوْقٌ مُقْلِقٌ، فَيُثِيرُ بَسْطًا وَسُرُورًا. وَإِمَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ فَيُثِيرُ قَبْضًا وَحُزْنَ.

وَأَمَّا الْوُجُدَانُ فَهُوَ: دَوَامُ حَلَاوَةِ الشُّهُودِ، وَاتِّصَالِهَا لِلوَاجِدِ مَعَ غَلْبَةِ السَّكْرِ وَالذَّهْشِ.. فَإِنْ اسْتَمَرَّ مَعَ ذَلِكَ، حَتَّى زَالَتِ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ، وَصَفِيَتِ الْفِكْرَةُ وَالنَّظَرَةُ فَهُوَ الْوُجُودُ. وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: وَجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ، بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَثَارَ الْوُجُدِ، هُوَ سَمَاعُ خُطَابِ الْمَحْبُوبِ. وَمَثَارُ الْوُجُدَانِ، هُوَ شُهُودُ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ. وَقَدْ يَغْلِبُ عَلَيْهِمَا الْحَالُ، فَتَضْطَرِبُ الْأَشْبَاحُ، وَتَرْقُصُ تَبْعًا لِاضْطِرَابِ الْقَلْبِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ الطِّفْلُ فِي الْمَهْدِ، فَإِنَّهُ يَسْكُنُ إِذَا تَحَرَّكَ بِهِ الْمَهْدُ. وَبِكَيْي إِذَا سَكَنَ. كَذَلِكَ الْقَلْبُ يَزْتَاحُ إِذَا تَحَرَّكَ الْقَلْبُ. وَإِلَّا بَقِيَ يَضْطَرِبُ. فَرُبَّمَا يَخْرُجُ عَنْ طَوْرِهِ.

وَأَمَّا صَاحِبُ الْوُجْدِ فَهُوَ سَاكِنٌ مَتَمَكِّنٌ قَدْ اسْتَأْنَسَ بِالْحَضْرَةِ. فَرُبَّمَا يَخْرُجُ عَنْ طَوْرِهِ. وَأَمَّا صَاحِبُ الْوُجْدَانِ فَهُوَ سَاكِنٌ مَتَمَكِّنٌ، قَدْ اسْتَأْنَسَ بِالْحَضْرَةِ، وَزَالَتْ عَنْهُ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ؛ فَهُوَ كَالْجَبَلِ الرَّاسِيِّ. قِيلَ لِلْجَنِّيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا لَكَ؛ كُنْتَ تَتَوَاجَدُ عِنْدَ السَّمَاعِ ثُمَّ صَرْتَ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْكَ شَيْءٌ؟ فَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وشاهد ذلك، صَوَاحِبُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَمَّا فَاجَأَهُنَّ بِبَاهِرِ جَمَالِهِ: غِبْنَ عَنْ إِيحْسَاسِيهِنَّ ﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، [يوسف: ٣١] وَزُلَيْخَا لَمَّا اسْتَمَرَّتْ مَعَهُ، لَمْ تَضَعْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. كَذَلِكَ أَزْبَابُ الْوُجْدَانِ. لَمَّا اسْتَشَرُّوا عَلَى نُورِ الْحَضْرَةِ، دَهَشُوا وَعَابُوا عَنْ إِيحْسَاسِيهِمْ. فَإِذَا تَمَكَّنُوا مِنْ شُهُودِهَا، وَأَنَسُوا بِهَا، لَمْ يَحْرَكْهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَنْوَارِهَا. وَقَدْ يَغْلِبُ عَلَى الْعَارِفِ شُهُودُ الْجَمَالِ فَيَرْقُصُ وَيَطْرُبُ، لَكِنَّهُ نَادِرٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الْجَمْعُ وَالتَّفْرِقَةُ: فَالْجَمْعُ عِبَارَةٌ عَنْ تَلَاشِي الْحَادِثِ فِي إِثْبَاتِ الْقَدَمِ. أَوْ تَقُولُ: عِبَارَةٌ عَنْ ضَمِّ الْفُرُوعِ إِلَى أَصُولِهَا. فَيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. وَالتَّفْرِقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ وَالْحِكْمَةِ قِيَامًا بِرِسْمِ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَدْبًا مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ. فَالْجَمْعُ مَحَلُّ الْبَوَاطِنِ. وَالْفَرْقُ مَحَلُّ الظَّوَاهِرِ. إِذِ الرُّبُوبِيَّةُ بِلَا عُبُودِيَّةٍ نَقْصَانٌ. وَالْعُبُودِيَّةُ بِلَا رُبُوبِيَّةٍ مُحَالٌ. فَلِذَلِكَ قَالُوا: الْجَمْعُ بِلَا فَرْقٍ زَنْدَقَةٌ، لِإِبْطَالِهِ الْأَحْكَامَ وَالْحِكْمَةَ. وَالْفَرْقُ بِلَا جَمْعٍ فَسَقٌ؛ لِإِخْرَاجِ صَاحِبِهِ عَنْ حَدِّ الْكَمَالِ. وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا عَيْنُ الْكَمَالِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَ شَيْخِنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَوْمٌ تَشْرَعُوا وَلَمْ يَتَصَوَّفُوا، وَقَوْمٌ تَصَوَّفُوا وَلَمْ يَتَشَرَّعُوا. وَقَوْمٌ جَعَلُوا الشَّرِيعَةَ بَابًا. وَالْحَقِيقَةَ أَبْوَابًا. ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وَهَذَا أَوَّلُ كَلَامٍ سَمِعْتُهُ مِنْهُ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِ، وَقَالَ لِي: وَأَنْتَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ. حَقَّقْنَا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَزَرَقْنَا الْأَدَبَ مَعَهُمْ آمِينَ.

وَأَمَّا الْحُسْنُ، فَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا تَكْتَفٍ وَظَهَرَ مِنَ الْأَثْوَانِ. وَالْمَعْنَى: عِبَارَةٌ عَنْ الثَّوْرِ اللَّطِيفِ الْبَاطِنِ فِيهَا.

وَأَمَّا السُّرُّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْأَشْيَاءُ. فَالْحُسْنُ ظَرْفٌ لِلْمَعْنَى. فَلَا تُكُونُ أَوَانِي، حَامِلَةً لِلْمَعْنَانِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَالْقُدْرَةُ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ مِنَ الْأَفْعَالِ. كَانَ عَلَى وَفْقِ الْعَادَةِ أَوْ خَارِقًا لَهَا. وَالْحِكْمَةُ: عِبَارَةٌ عَنِ رَبْطِ الْأَسْبَابِ بِمُسَبِّبَاتِهَا، وَالْعَوَائِدُ بِمَا تَعَوَّدَتْ بِهِ؛ فَهِيَ رَدَاءٌ لِلْقُدْرَةِ وَسِتْرٌ لَهَا. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ رَدَاءِ الْحِكْمَةِ، كَانَ مَخْجُوبًا عَنِ شُهُودِ الْقُدْرَةِ. وَمَنْ حُجِبَ عَنِ الصِّفَةِ، حُجِبَ عَنِ الْمُرْصُوفِ، لِمَتَلَاظِمِ وَجُودِهِمَا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. فَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، تُعَيِّنُ عَلَى فَهْمِ الْقَوْمِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَهَا الْبَذْرُ كَأَسْ وَهِيَ شَمْسٌ يَدِيرُهَا هِلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُرِجَتْ نَجْمٌ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِهَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ: كَأَسْ، وَهِيَ قمر التوحيد الخاص. فمن كَانَ مشركاً بشئ من السُّوَى، أَوْ بِرُؤْيَا الْأَشْيَاءِ مَعَ الْمَوْلَى. فَلَا يَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ الْهَوَى. أَوْ نقول: مَنْ كَانَ قَلْبُهُ مَشْحُونًا بِحُبِّ الْأَشْيَاءِ، أَوْ مَفْتُورًا بِنَيْلِ الدُّنْيَا، فَلَا يَذُوقُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحُمَيَّا: «أَيَّ الْخَمْرِ». وَهَذِهِ الْخَمْرَةُ هِيَ شَمْسُ الْعِرْفَانِ، فَإِذَا أَشْرَقَتْ فِي أَفْقِ سَمَاءِ الْجَنَانِ، غَطَّتْ وَجُودَ الْأَكْوَانِ، وَوَقَعَ الْعَيَانُ عَلَى فَقْدِهِ الْأَغْيَانِ. يُدِيرُهَا عَلَى الشَّارِبِينَ، هِلَالُ السَّعَادَةِ، فِي طَالِعِ سَعْدِ الْإِرَادَةِ إِذَا شَرِبَتْ صَرْفًا غَابَ التَّشْوَانُ عَنِ الرُّسُومِ. وَلَمْ يَبْقَ فِي نَظَرِهِ إِلَّا أَنْوَارُ الْحَيِّ الْقَيُومِ. فَإِذَا مُرِجَتْ بِالصُّخْرِ وَالسَّلُوكِ، صَارَ كَامِلًا مَكْمَلًا. فَكَمْ يَبْدُو لَهُ حِينئِذٍ مِنْ نَجْمِ الْعُلُومِ. وَكَمْ يَفْتَحُ لَهُ مِنْ مَخَازِنِ الْفُهُومِ. فَإِذَا أُذِنَ لَهُ فِي التَّغْيِيرِ، وَقَعَتْ فِي مَسَامِعِ الْقُلُوبِ عِبَارَتُهُ. وَجُلِيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ.

قال الشيخ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ عَلَى الْمَحَبَّةِ: الشَّرَابُ هُوَ الثَّوْرُ السَّاطِعُ مِنْ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ. وَالْكَأْسُ هُوَ اللَّطْفُ الْمَوْصَلُ ذَلِكَ، إِلَى أَفْوَاهِ الْقُلُوبِ. وَالسَّاقِي: هُوَ الْمَتَوَلَّى ذَلِكَ لَخُصُوصِ الْكِبَرَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ. وَهُوَ اللَّهُ الْعَالَمُ بِالْمَقَادِيرِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ. فَمَنْ كُشِفَ لَهُ عَنْ ذَلِكَ الْجَمَالِ أَوْ حُطِّيَ شَيْءٌ مِنْهُ، نَفْسًا أَوْ نَفْسَيْنِ، ثُمَّ أُرْخِيَ عَلَيْهِ الْحِجَابَ؛ فَهُوَ الذَّائِقُ الْمَشْتَاقُ. وَمَنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارِبُ حَقًّا. وَمَنْ تَوَالَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَدَامَ لَهُ الشَّرْبُ، حَتَّى امْتَلَأَتْ عُرُوقُهُ وَمَقَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ الْمَخْزُونَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الرَّيُّ. وَرَبَّمَا غَابَ عَنِ الْمَخْسُوسِ وَالْعُقُولِ. فَلَا

يَذَرِي مَا يَقَالُ، وَلَا مَا يَقُولُ. فَذَلِكَ هُوَ السُّكْرُ. وَقَدْ تَدَوَّرَ عَلَيْهِ الْكَاسَاتُ، وَتَخْتَلَفَ لَدَيْهِمُ الْحَالَاتُ، وَتَرْدُونَ إِلَى الذَّكْرِ وَالطَّاعَاتِ وَلَا يُخَجَّبُونَ عَنْ الصِّفَاتِ حَتَّى تُزَاحِمَ الْمَقْدُورَاتِ. فَذَلِكَ وَقْتُ صَحْوِهِمْ، وَاتْسَاعِ نَظَرِهِمْ، وَمَزِيدِ عِلْمِهِمْ. فَهُمْ بِجُودِ الْعِلْمِ، وَقَمَرِ التَّوْحِيدِ يَهْتَدُونَ فِي لَيْلِهِمْ، وَبِشُمُوسِ الْمَعَارِفِ يَسْتَضِيئُونَ فِي نَهَارِهِمْ. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [المجادلة: ٢٢] انتهى كَلَامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ كَلَامِ النَّازِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال:

وَلَوْلَا شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِخَانِيهَا وَلَوْلَا سَنَاهَا مَا تَصَوَّرْتُهَا الْوَهْمُ
قلت: الشَّدَا: التَّسِيمُ الطَّيِّبُ. وقال في القاموس: الشذا: قُوَّةُ ذَكَاءِ الرَّائِحَةِ. وَالْخَانُ: دَارٌ يُبَاعُ فِيهَا الْخَمْرُ، أَوْ يُشْرَبُ فِيهَا. وقال في القاموس: الْخَانُ: الْحَانُوتُ أَوْ صَاحِبُهُ. وَخَانُ التَّجَارِ. وَالسَّنَا بِالْقَفْرِ؛ هُوَ: الضُّوءُ وَالتَّوَرُّ. وَالْوَهْمُ: الْخَاطِرُ. أَطْلَقَهُ هُنَا عَلَى الْعَقْلِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّهُ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ رَفِيعَةُ الْقَدْرِ، عَالِيَةُ الشَّانِ، لَطِيفَةُ خَفِيَّةٍ. لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ وَلَا سَبَبٍ. فَلَوْلَا تَسِيمُهَا الطَّيِّبُ الَّذِي يَهْبُ عَلَى الْقُلُوبِ، فَتُسْتَشْفَقُ الْأَرْوَاحُ، وَتُنَجَذُ إِلَى حَضْرَةِ عَلَامِ الْغُيُوبِ. مَا اهْتَدَيْنَا لِمَحَلِّهَا، وَلَا تَوَجَّهْنَا إِلَى طَلَبِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَاحَ لَنَا هِلَالُ الْهَدَايَةِ، فِي طَالِعِ سَابِقِ الْعَيْنَايَةِ، هَبَّ عَلَى قُلُوبِنَا نَسِيمُ الْخُصُوصِيَّةِ مِنْ حَضْرَةِ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَمَا زِلْنَا نَقْفُوا أَثَرَهَا، وَنُسْتَشِيقُ نَشْرَهَا، حَتَّى أَفْضَتْ بِنَا إِلَى شُهُودِ أَنْوَارِ الْحَبِيبِ. وَمُنَاجَاةِ الْقَرِيبِ مِنْ مَحَلِّ الْمَشَاهِدَةِ وَالْمُكَالَمَةِ، وَالْمُصَالَحَةِ، وَالْمُوَاجَهَةِ. فَقُلْنَا فِي ذَلِكَ الْحَالِ:

لَكَ الدَّهْرُ طَوْنُوعٌ وَالْأَنَامُ عَبِيدُ فَعِشْ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِكَ عَيْدُ
قال الشيخ أَبُو الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَثَلُ ابْتِدَاءِ الْمَحَبَّةِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ شَمَّ رَائِحَةَ الْمِسْكِ عَلَى بُغْدٍ، فَلَا يَزَالُ يَتَبَّعُ بَلْكَ الرَّائِحَةِ، وَهِيَ تَتَزَايَدُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَدْخُلَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْمِسْكُ. فَإِذَا دَخَلَهُ غَمَرَتْهُ الرَّائِحَةُ، فَلَا يَجِسُّ بِهَا. فَالْمَعْنَى كَذَلِكَ طَالِبُ الْحَقِّ، لَا يَزَالُ يَنْجَذِبُ قَلْبُهُ إِلَى الْحَضْرَةِ؛ وَيتَعَطَّشُ إِلَيْهَا

وَيَتَوَجَّهْ إِلَيْهَا بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ؛ وَهِيَ خَلَاوَةُ الْمُعَامَلَةِ، حَتَّى يَغْرَقَ فِي أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ؛ وَهِيَ حَضْرَةُ الْمُشَاهَدَةِ، فَيَسْكُنُ حَالَهُ، وَيَزُولُ عَطَشُهُ بِحَصُولِ الْوُضُوءِ إِلَى الْحَبِيبِ. فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَدَبُ وَالتَّرَقِّي فِي الْمَقَامَاتِ. هَذَا مَحَلُّ الشُّطْرِ الْأَوَّلِ.

وقوله: وَلَوْلَا سَنَاهَا مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ يَغْنِي أَنَّ هَذِهِ الْخُمْرَةُ خَفِيَّةٌ عَنِ الْأَوْهَامِ خَارِجَةٌ عَنِ مَدَارِكِ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ. فَلَوْلَا أَنْوَارُهَا الَّتِي تَشْرُقُ عَلَى الْقُلُوبِ، بَعْدَ صَفَائِهَا مِنَ الْأَغْيَارِ، وَتَطْهِيهَا مِنَ الْأَكْذَارِ، مَا تَصَوَّرَهَا الْعَقْلُ، وَلَا أَذْرَكَهَا الْفَهْمُ. إِذْ لَا تُذْرِكُ بِالْعُقُولِ، وَلَا يَتَخَصَّصِلُ الثُّقُولُ. وَإِنَّمَا تُذْرِكُ بِصُخْبَةِ الرُّجَالِ. أَهْلُ التَّحْقِيقِ وَالْكَمَالِ؛ لِأَنَّهَا أَذْوَاقٌ فَلَا تُذْرِكُ مِنَ الْأَوْرَاقِ. كَمَا قَالَ ابْنُ الْبَنَّا فِي مَبَاحِثِهِ:

إِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ أَنْ تَحُوزَهُ مِنْ دَفْتَرٍ أَوْ شِغْرِ أَوْ أَزْجُوزَةٍ
وقال أيضا:

مَا نَالَهَا ذُو الْعَيْنِ وَالْفُلُوسِ وَإِنَّمَا تَبَاعُ بِالْثُفُوسِ
فَمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لَشَيْخٍ كَامِلٍ حَكَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ الْمَعَارِفِ. وَأَذْرَكَ مِنْ مِثْنِ اللَّهِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَضْفٌ وَاصِفٍ. وَإِلَّا أَتَعَبَ نَفْسَهُ وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ. هَذَا هُوَ الْغَالِبُ وَالثَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.
ثم قال رضي الله عنه:

وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا الدَّهْرُ غَيْرَ حُشَّاشَةٍ كَأَنَّ خَفَاَهَا فِي صُدُورِ النَّهْيِ كَثْمٌ

قلت: الْحُشَّاشَةُ: بَقِيَّةُ الرُّوحِ، فِي الْمَرِيضِ فِي آخِرِ الرَّمَقِ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ. وَالنَّهْيُ بِالضَّمِّ جَمْعُ نَهْيَةٍ؛ وَهُوَ الْعَقْلُ؛ وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. أَيْ أَهْلُ النَّهْيِ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَهَبَتْ هَذِهِ الْخُمْرَةُ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ. وَانْدَرَسَتْ بِذَهَابِ أَهْلِهَا. وَمَاتَتْ بِمَوْتِ أَرْبَابِهَا. وَانْسَلَّتْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ كَانْسِلَالِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا الزَّمَانُ إِلَّا نَظْفَةٌ ضَعِيفَةٌ، كَبَقِيَّةِ الرُّوحِ مِنَ الْمَيِّتِ فِي آخِرِ رَمَقِهِ؛ وَهَذِهِ الْخُمْرَةُ الَّتِي ذَكَرَ الشَّيْخُ هِيَ: اخْتِمَارُ الْقُلُوبِ بِأَنْوَارِ الْمَحْبُوبِ، فَيُحْتَجَبُ عَنِ الْأَغْيَارِ، بِرُؤْيَا الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْخُمْرَةُ فِي الْقَدْرِ الْأَوَّلِ، ظَاهِرَةً أَنْوَارَهَا، بَادِيَةً أَسْرَارَهَا عَلَى أَرْبَابِهَا. فَيَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ. وَيَتَكَلَّمُونَ

عَلَيْهَا بِأَلْطَافِ الْعِبَارَاتِ. وَأَنْوَاعِ الْإِشَارَاتِ، ثُمَّ انْدَرَسَتْ. وَقُلْتُ: فَخَفِيَتْ
أَنْوَارَهَا، وَبَطْنَتْ أَسْرَارَهَا. فَكَأَنَّ حَفَاءَهَا وَبُطُونَهَا كَثُمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا عَنْ غَيْرِ
أَهْلِهَا. وَذَلِكَ لَاسْتِيْلَاءِ الْعَقْلَةِ عَلَى النَّاسِ، وَانْصِرَافِ الْهِمَّةِ إِلَى الدُّنْيَا. فَلَمَّا رَأَى
الْحَقُّ تَعَالَى النَّاسَ حَادُوا عَنْ بَابِهِ. وَلَاذُوا بِغَيْرِ جَنَابِهِ. حَجَبَ ذَلِكَ السَّرَّ فِي
قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وَحَجَبَ أَوْلِيَائَهُ فِي عِبَادِهِ. وَمَا قَالَهُ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ قِلَّةِ
وُجُودِ هَذَا الْعِلْمِ وَانْدِرَاسِهِ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُرَابِهِ
وَعِزَّتِهِ.

قَالَ الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلِمْنَا هَذَا الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ، قَدْ طَوِيَ بِسَاطِهِ
مُنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً. وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي حَوَاشِيهِ. وَكَانَ أَيْضًا يَقُولُ: كُنْتُ أَجَالِسُ قَوْمًا
سَنِينَ، يَتَجَاوَرُونَ فِي عِلْمٍ لَا أَفْهَمُهَا، وَلَا أَذْرِ مَا هِيَ. وَمَا بُلِيَتْ بِالْإِنْكَارِ
قَطُّ. كُنْتُ أَتَقَبَّلُهَا وَأَحِبُّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَهَا. وَكَانَ أَيْضًا يَقُولُ: كُنَّا نَتَحَاوَرُ مَعَ
إِخْوَانِنَا قَدِيمًا فِي عِلْمٍ كَثِيرَةٍ، مَا نَعْرِفُهَا فِي وَقْتِنَا هَذَا. وَلَا سَأَلْنِي أَحَدٌ عَنْهَا؛
وَهَذَا بَابٌ كَأَنَّهُ أَغْلَقَ وَرَدَعَ.

وَقَالَ فِي الْقَوْتِ: قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: أَنَا أَعْرِفُ لِلْمُتَقَدِّمِينَ سَبْعِينَ عِلْمًا،
كَانُوا يَتَحَاوَرُونَهَا وَيَتَعَارَفُونَهَا فِي هَذَا الْعِلْمِ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا الْيَوْمَ عِلْمٌ وَاحِدٌ.
وَأَعْرِفُ فِي زَمَانِنَا هَذَا عِلْمًا كَثِيرَةً، مِنْ الْأَبَاطِيلِ وَالْغُرُورِ، وَالِدَّعَاوَى ظَهَرَتْ
وَسُمِّيتْ عُلُومًا. ثُمَّ قَالَ: وَكَانَ إِمَامُنَا سَهْلٌ يَقُولُ: بَعْدَ سِتَّةِ وَثَلَاثِمِائَةٍ لَا يَحِلُّ
أَنْ يُتَكَلَّمَ بِعِلْمِنَا، هَذَا، يَغْنِي لِقَلَّةِ أَهْلِهِ. لِأَنَّهُ يُخَدِّثُ قَوْمَ يَسْتَمْعُونَ الْخَلْقَ،
وَيَتَزَيُّونَ بِالْكَلامِ. يَكُونُ مُوَاجِدُهُمْ لِبَاسُهُمْ وَمَعْدِنُهُمْ بِطُونُهُمْ. وَحِيلَتْهُمْ كَلَامُهُمْ.
وَقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي صَدْرِ رِسَالَتِهِ:
اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، انْقَرَضَ أَكْثَرُهُمْ. لَمْ يَبْقَ فِي
زَمَانِنَا هَذَا مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِلَّا أَثَرُهُمْ. وَفِي مَعْنَاهُ قِيلَ:

لَا وَالَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ إِلَّا بَكْنِيْتُ أَحْبَبْتِي بِفَنَائِهَا
أَمَّا الْخِيَامُ فَلِئَلَّا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ هَذَا فِي زَمَانِهِ. حَيْثُ أَذْرَكَ

مَنْ تَزَيْنَ بِزَيِّ الْقَوْمِ، خَالَفَهُمْ فِي بَاطِنِهِمْ. وَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا خِيَامَ وَلَا نِسَاءَ. وَقَالَ
الشيخ أَبُو مَذِينٍ فِي قَصِيدَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ وَقَالَ فِي الْمَبَاحِثِ:

يَا سَائِلًا عَنْ سُنَنِ الْفَقِيرِ سَأَلْتُ مَا عَزَّ عَنِ التَّخْرِيرِ
إِنَّ الَّذِي سَأَلْتُ عَنْهُ مَاتَ وَصَارَ بَعْدُ أَغْظَمَ رُفَاتًا
إِلَّا رُسُومًا رُبَّمَا لَمْ تَغْفُ وَذَلِكَ مَا نَتَّبَعُهُ وَتَثْفُفُ
وَهَبَكَ أَنْ تَظْفَرِ بِالْأَوْطَانِ مَا السُّرِّ وَالْمَغْنَى سَوَى الْقُطَانِ

وَكَانَ شَيْخُ شيوخنا سيدي علي العمراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مِنْ شَكِّ
تُونُسَ، إِلَى وَادِي تُون، لَا تَجِدُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْعِلْمِ، إِلَّا رَجُلًا أَوْ رَجُلَيْنِ.
كِتَابِيَّةٌ عَنْ قَلْبِهِ وَجُودِ الْمُحَقِّقِينَ. وَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى انْقِطَاعِهِمْ. فِي كُلِّ زَمَانٍ
رِجَالٌ، يَرْحَمُ اللَّهُ بِهِمْ عِبَادَهُ. فَالْعَدَدُ الْمَعْلُومُ لَا يَنْقُطِعُ، حَتَّى يَنْقُطَعَ الدِّينُ.

قَالَ فِي لَطَائِفِ الْمَنَنِ: سُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ عَنْ أَوْلِيَاءِ الْعَدَدِ، أَيْتَقُصُونَ فِي
زَمَنِ؟ فَقَالَ: لَوْ نَقَصَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ، مَا أَرْسَلَتِ السَّمَاءُ قَطْرَهَا. وَلَا أَبْرَزَتِ
الْأَرْضُ نَبَاتَهَا. وَفَسَادُ الْوَقْتِ لَا يَكُونُ بِذَهَابِ أَعْدَادِهِمْ. وَلَا بِنَقْصِ أَمْدَادِهِمْ.
وَلَكِنْ إِذَا فَسَدَ الْوَقْتُ. كَانَ مُرَادُ اللَّهِ وَقُوعُ اخْتِفَائِهِمْ. فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الزَّمَانِ
مُغْرَضِينَ عَنِ اللَّهِ. مُؤَثِّرِينَ سِوَى اللَّهِ. لَا تَنْجَحُ فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ، وَلَا تُمِيلُهُمْ إِلَى
اللَّهِ التَّذَكُّرَةِ. لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا لظُهُورِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِيهِمْ. وَلِذَلِكَ قَالُوا: أَوْلِيَاءُ اللَّهِ
عَرَائِسُ. وَلَا يَرَى الْعَرَائِسُ الْمَجْرُمُونَ ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحَا
مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَقَلْبُكَ بِخَوْنَةِ نَفْسِكَ»^(١).
فَسَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَثَرُوا الْخَفَاءَ، بَلْ أَثَرَهُ اللَّهُ لَهُمْ مَعَهُ أَنَّهُ لَأَنَّ مِنْهُمْ،
أَنْ يَكُونَ فِي الْوَقْتِ أَثَمَةُ ظَاهِرُونَ، قَائِمُونَ بِالْحُجَّةِ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا

(١) رواه ابن ماجه في سننه، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا...، حديث رقم (٤٠١٤)

[١٢٣٠/٢] والترمذي في سننه، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨) [٥/

٢٥٧] ورواه غيرهما.

تَرَا لَ طَائِفَةً مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَن خَالَفَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ^(١). وقال سَيِّدُنَا عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: اللَّهُمَّ لَا تُخْلِ الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لَكَ بِحُجَّتِكَ. أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا. قُلُوبُهُمْ مَعْلُوقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى. أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ. آه. آه. أَوَاشُقُّوهُ إِلَى رُؤْيَيْهِمْ. قُلْتُ: وقد وجدت هذه الأئمة في زماننا هَذَا. وظهروا ظُهُورَ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ عَلَى مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْعَيْنَاةِ. ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِمَعْرِفَتِهِمْ وَصَحْبَتِهِمْ. فوجدناهم من أَهْلِ التَّوْبَةِ النَّبَوِيَّةِ. سَالِكِينَ الطَّرِيقِ. عَارِفِينَ بَعَيْنِ التَّحْقِيقِ. سَلَكُوا بِلَادَ التَّجْرِيدِ. وَخَافُوا بِحَارِ التَّوْحِيدِ. دَاعِينَ إِلَى اللَّهِ بِالْهِمَّةِ وَالْحَالِ. عَارِفِينَ الْإِضْطِلَاحَ وَالْمَقَالَ. يَنْهَضُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْحَالِ. وَيَدُلُّونَ عَلَى اللَّهِ بِالْمَقَالِ. سَلَكُوا مَقَامَ الْجَذْبِ وَالْفَتَاءِ. وَرَجَعُوا إِلَى مَقَامِ الْبَقَاءِ. قَدْ هَدَى اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْجَمَّ الْغَفِيرَ. وَتَخَرَّجَ عَلَى أَيْدِيهِمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلشَّمْسِ مِنْ سَحَابٍ.. وَلِلْحَسَنَاءِ مِنْ نِقَابٍ. فَسَتَرَ اللَّهُ سِرَّهُمْ بِبَغْضِ مَا يَظْهَرُ مِنْ بَغْضِ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْأَحْوَالِ الظُّلُمَانِيَّةِ، وَالْأَفْعَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ وَهُمْ مُبَرَّؤُونَ مِنْهَا. يَحْذَرُونَ دَائِمًا مِنْ فِعْلِهَا. وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمِنْ بَيْنِ أَخْشَاءِ الدُّنْيَانِ تَصَاعَدَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اسْمُ قُلْتُ: هَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي اتِّصَالِ هَذَا الْبَيْتِ بِمَا قَبْلَهُ لِلْمُنَاسَبَةِ. وَلَعَلَّ النَّاسَ أَخْزَهُ عَنْ مَحَلِّهِ. وَالْأَخْشَاءُ، جَمْعُ حُشْوَةٍ بِالضَّمِّ وَهُوَ مَا فِي الْبَطْنِ مِنَ الْأَنْعَاءِ. وَالذُّيَّانُ، جَمْعُ دَنْ، بَفَتْحِ الدَّالِ، وَشَدِّ الثَّوْنِ. وَهُوَ فَخَّارٌ كَبِيرٌ، أَسْفَلُهُ رَقِيقٌ، لَا يَجْلِسُ حَتَّى يَحْفَرُ لَهُ. وَيُقَالُ لَهُ الرَّاقُودُ. يُخْزَنُ فِيهِ الْخَمْرُ وَالْخَلُّ. وَأُطْلِقَهُ هُنَا عَلَى الْقُلُوبِ، أَوِ الْأَشْبَاحِ لِأَنَّهَا أَوَانِي لِلْخَمْرِ الْأَزَلِيَّةِ. وَتَصَاعَدُ الشَّيْءُ ارْتَفَعَ. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ ارْتَفَعَتْ هَذِهِ الْخَمْرَةُ، وَتَصَاعَدَتْ مِنْ

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب قوله ﷺ لا تزال...، حديث رقم (١٠٣٧) [١٥٢٤/٣] والترمذي في سننه، باب ما جاء في الشام، حديث رقم (٢١٩٢) [٤٨٥/٤] ورواه غيرهما.

أَجَوَافِ النَّاسِ، وَمِنْ بَيْنِ أَخْشَاءِ الصُّدُورِ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، إِلَّا اسْمٌ بِلاَ مَسْمًى. وَرَسْمٌ بِلاَ دَارٍ. وَكَذَلِكَ عَلِمَ التَّصَوُّفُ الْحَقِيقِيُّ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا التَّشَدُّقُ بِاللِّسَانِ، مَعَ خَرَابِ الْجَنَانِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ:

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوْا صَارَ التَّصَوُّفُ مَخْرَفَةً
صَارَ التَّصَوُّفُ رَتْعَةً وَسَجَّادَةٌ مُزَوَّقَةً
صَارَ التَّصَوُّفُ سُبْحَةً وَتَوَاجُدًا وَمِنْطَقَةً
كَذَّبْتُكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذِي سَنَنِ الطَّرِيقِ الْمُلْحَقَةً
وَفِيمَا تَقْدَمُ قَبْلَ هَذَا كِفَايَةٌ. وَالْبَرَكَةُ لَا تَنْقَطِعُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الْحَيِّ أَضْبَحَ أَهْلُهُ نَشَاوَى وَلَا عَارَ عَلَيْهِمْ وَلَا إِنْ

قُلْتُ: الْحَيُّ: الْقَبِيلَةُ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ. وَالنَّشَاوَى جَمْعُ نَشْوَانٍ، كَسَكْرَانٍ، وَزَنَا وَمَعْنَى.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْخَمْرَةُ، ذَكَرًا حَقِيقِيًّا بِالْعِلْمِ وَالْحَالِ فِي قَبِيلَةٍ أَوْ مَدَشِيرٍ، أَوْ بَلَدٍ. أَصْبَحَ أَهْلُ ذَلِكَ الْقَبِيلَةِ سُكَارَى وَالْهَيْنَ مِنْ ذِكْرِ الْحَبِيبِ، غَالِبَ عَنْهُمْ الْجَذْبُ إِلَى الْحَضْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. لَكِنْ بِشَرَطٍ أَنْ يَكُونَ ذَاكِرَهَا غَالِبًا عَلَيْهِ السُّكْرُ وَالْجَذْبُ مَعَ طَرَفٍ مِنَ الصَّخْوِ وَأَنْ يَذْكُرَهَا مَعَ أَهْلِهَا. فَإِنْ كَانَ كَمَا قُلْتُ، فَلَا شَكَّ فِي سُكْرِ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ. وَانْجِدَابِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ وَإِشْرَاقِ أَنْوَارِهَا عَلَيْهِمْ. قُلْتُ: وَقَدْ شَهِدْتُ هَذَا الْمَعْنَى، حِينَ خَرَجْنَا إِلَى قَبِيلَةِ أَنْجَرَةَ وَالْفَخَّصِ، فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ مِنْ مُلَاقَاةِ الشَّيْخِ، حَيْثُ كَانَ السُّكْرُ غَالِبًا عَلَيْنَا، فَكُنَّا إِذَا بَتْنَا فِي مَنْزِلٍ يُضْبِحُ أَهْلُهُ جِلْهَمَ سُكَارَى، يُلْهَجُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ. وَقَدْ رَأَيْتُ الصَّبْيَانِ، وَالرُّعَاةَ وَالْحَرَّائِينَ يَتَّبِعُونَا، وَهُمْ يَبْكُونَ. فَمَا كُنَّا نُرْذَهُمْ إِلَّا بِجَهْدٍ جَهِيدٍ. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي فَخْصِ طَنْجَةٍ، أَصْحَابَ الْمَخْزَنِ، وَأَرْبَابَ الدَّوْلَةِ عُلُقُوا التَّسَابِيحَ، وَتَابُوا، وَتَرَكُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ. فَحَقَّقْنَا هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ عِيَانًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. وَقَوْلُهُ: وَلَا عَارَ عَلَيْهِمْ. . إلخ. . . تعريفًا بِالْخَمْرَةِ الْحِسِّيَّةِ. فَانْشَغَلُوا فِيهَا فِيهَا الْعَيْبُ وَالْإِثْمُ مِنْ قَبْلِ الشَّرْعِ. لِتَغْيِيبِ الْعَقْلِ وَتَلْفِهِ فِي الظُّلْمَةِ. فَتَشْغَلُهُ

عن ذكر الله، وعن الصلاة بخلاف هذه. فإن العقل يغيب في نور الحبيب، وبهائه وحسن جماله. ففي تركها العار والإثم، لا في تعاطيها، كما يأتي عند قوله:

وقالوا شربنا الإثم كلا وإنما شربنا التي في تركها عندي الإثم
وبالله التوفيق.

ثم قال رضي الله عنه:

وإن خطر يوماً على خاطر امرئ أقامت به الأزواج وارتحل الهم

يقول رضي الله عنه: إذا خطر هذه الخمرة الأزلية؛ وهي المعرفة الحقيقية؛ على قلب امرئ مؤخذ مطهر من الأغيار، سالم من خيالات صور الآثار. ودائم ذلك الخطور، بحيث لا تخلله فتور. أقامت: أي سكنت في ذلك القلب، بسبب شهود تلك الخمرة، الأفراح والسرور. والابتهاج والحبور. وارتفع عنه الأخران والهموم. بمشاهدة الحي القيوم؛ لأن تلك الخمرة، هي معرفة الذات الأزلية. على ما يأتي في تفسيرها إن شاء الله. وجئة المعارف، أخطى عند العارفين من جنة الزخارف؛ لأن من دخل جنة المعارف، لم يشق إلى جنة الزخارف. وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ لِآلِهِ بِشَيْءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. أي في الدارين. وقال تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١). ولم يفيد ذلك في الدنيا ولا الآخرة. فهو حاصل لهم في الدارين. وأيضاً: إنما تطرق الفهوم والأخران، بسبب وجود الإنسان. وأما من تحقق له الزوال. فلا يرى إلا غاية الكمال ما تجده القلوب من الأخران. فلما منعت من الشهود والعيان، كما قال صاجب الحكيم: «أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، قل للصديقين: بي فليفرحوا. وبذكري فليتمتعوا، أي لا

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب ما جاء في صفة الجنة... حديث رقم (٣٠٧٢) [١١٨٥/٣] ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة... حديث رقم (٢٨٢٤) [٢١٧٤/٤] ورواه غيرهما.

يَضْفُو الْفَرْحَ وَلَا يَكْمَلُ النَّعِيمَ . إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: ٥٨] أَيْ لَا بَغْيِيرَهُ . فَفَضْلُ اللَّهِ مَعْرِفَتَهُ ، وَرَحْمَتُهُ : هِدَايَتُهُ . وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أَنْتُمْ سُرُورِي وَأَنْتُمْ مُشْتَكِي أَلَمِي وَأَنْتُمْ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ أَقْمَارِي
فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمْ وَإِنْ صَمَمْتُ فَأَنْتُمْ عِقْدُ إِضْمَارِي
وقال آخرُ :

إِنْ عَرَفْنَا ذِي الْجَلَالِ لَعَزُّ وَضِيَاءُ وَبَهْجَةُ وَسُرُورُ
وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءُ وَعَلَيْنِهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورُ
فَهَنِئَا لِمَنْ عَرَفَكَ إِلَهِي هُوَ وَاللَّهُ دَهْرُهُ مَسْرُورُ
وقُلْتُ فِي تَائِيْتِي الْخُمْرِيَّةِ :
فَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا سُرُورٌ وَغِبْطَةٌ وَخَيْرُ حَيَاةٍ فِي نَعِيمٍ وَبَهْجَةٍ
وقلتُ فِي عَيْنِيَّتِي :

وَلِي لَوْعَةٌ بِالرَّاحِي إِذْ فِيهِ رَاحَتِي وَرُوحِي وَرَنَحَانِي وَخَيْرُهُ وَاسِعُ
وإنما قَيَّدْنَا كَلَامَ الشَّيْخِ بِدَوَامِ خُطُورِ تِلْكَ الْخُمْرَةِ ؛ لِأَنَّ مَطْلُقَ الْخُطُورِ
وَالْمُرُورِ ، لَا يُوجِبُ دَوَامَ السُّرُورِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَبْرَقُ سَرَى . فَإِذَا انْسَدَلَ الْحِجَابُ ،
بَرَفَعَ ذَلِكَ الثُّورَ ، زَالَ الْفَرْحُ وَالسُّرُورُ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْمَقَامِ ، صَاحِبَ تَلَوْنٍ .
وَصَاحِبَ التَّلَوْنِ مَا زَالَ فِي السَّيْرِ مَعَ السَّائِرِينَ ، وَالسُّفَرِ قِطْعَةً مِنَ الْعَذَابِ ، فَلَا
يَسْتَرِيحُ مِنَ التَّعَبِ ، وَلَا يُفَارِقُهُ النَّصَبُ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَقَامِ التَّمَكُّينِ . فَحِينَئِذٍ
يَسْكُنُ فُسَيْحَ الْجَنَانِ . وَتَضَمَّحَلَّ عَنْهُ الْهُمُومُ وَالْأَخْزَانُ ، كَمَا تَقَدَّمَ . وَبِاللَّهِ
التَّوْفِيقُ .

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَلَوْ نَظَرُ التُّذْمَانُ خَتَمَ إِنَائِهَا لِأَسْكَرَهُمْ مِنْ دُونِهَا ذَلِكَ الْخَنَمُ
قُلْتُ : التُّذْمَانُ ، يَكُونُ مُفْرَدًا وَيَكُونُ جَمْعًا كَمَا فِي الْقَامُوسِ . وَالْمُرَادُ هُنَا
الْجَمْعُ . بِذَلِكَ جَمْعُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ : لِأَسْكَرَهُمْ ، وَهُمْ الْجَمَاعَةُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ
عَلَى الْخَمْرِ فِي مَجْلِسِهِ . وَخَتَمُ الْإِنَاءِ : مَا تُسَدُّ بِهِ .

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في تشبيه الخمرة الأزلية، بالخمرة الحسية، أو بالزحيق المختوم في الجنة، فإن هذه الخمرة الأزلية، مخزونة في أوانيها. مختوم عليها بختام الحفظ والضيانة. فلو نَظَرَ القاصدون لشربها. إلى ذَلِكَ الخَتْم، لسكروا قبل الشُرْبِ. فما بالك بالشُرْبِ. فما بالك بالزِّي.

قلت: وأواني هذه الخمرة؛ هي: بواطن العارفين. وَخَتْمُهَا هي ظواهر بشريتهم. فَكُلُّ من قَصَدَهُمْ بِالتَّعْظِيمِ وَالْأَدَبِ، ونظر إليهم بالخضوع والإنكسار، والذُّلَّة والافتقار. جَازِمًا بوجود خصوصيتهم، سَكِرَ لمَجَرَّدِ رُؤْيَتِهِمْ، قبل أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمْ وَيَضِجِبَهُمْ. وقد شهدنا هَذَا السَّرَّ من أنفسنا، ومن أسياننا. فكثير من الْمُرِيدِينَ، حَصَلَ لَهُمُ الْجَذْبُ وَالسَّكْرُ، قبل أَنْ يَتَلَقَّوا الْوِزْدَ، بل لمَجَرَّدِ الرُّوْيَةِ. وقد رَأَيْتُ بعض النَّصَارَى بشعر سبته^(١)، حين قَدِمْنَا عَلَيْهَا، لَمَّا عَقَدْنَا حلقة الذكر. انجذبوا وتبعونا إلى منتهى الحَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. وَبَقُوا مَبْهُوتِينَ واقفين خَلْفَنَا. لما أَشْرَقَ عَلَيْهِمُ من نور الْخَمْرَةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال القطب مَوْلَانَا ابن مشيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا المعنى - لَمَّا تَكَلَّمَ على المحبة - فَمِنْهُمْ من يَسْكُرُ بشهودِ الْكَأْسِ. ولم يَذُقْ بعد شيئا. فَمَا ظَنُّكَ بَعْدَ بِالدُّوْقِ، وَبَعْدَ بِالشَّرْبِ. وَبَعْدَ بِالرَّيِّ. وَبَعْدَ بِالسَّكْرِ بِالمَشْرُوبِ. ثم الصحو بعد ذَلِكَ على مقادير شئى. كما أَسْكُرُ أَيْضًا كَذَلِكَ. وَالْكَأْسُ: مِغْرَفَةُ الْحَقِّ، يُغْرِفُ بِهَا ذَلِكَ الشَّرَابُ الطَّهَوْرُ الصَّافِي لِمَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ الْمُخْصُوصِينَ من خَلْقِهِ. فتارة يشهد الشارب تِلْكَ الْكَأْسَ صَوْرَةً، وتارة يشهدا معنوية. وتارة يشهدا علمية. فالصورة حَظُّ الْأَبْدَانِ وَالْأَنْفُسِ. والمعنوية حَظُّ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ. والعلمية حَظُّ الْأَرْوَاحِ وَالْأَسْرَارِ. فَيَا لَهُ من شَرَابٍ مَا أَعْدَبَهُ؛ فَطَوَّبَى لِمَنْ شَرِبَ وَدَامَ ولم يقطع عَنْهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ من فَضْلِهِ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ①﴾ [الجمعة: ٤].

وقد تجتمع جماعة من المحبين فَيُسَقُّونَ مِنْ كَأْسٍ وَاجِدَةٍ. وقد يُسَقُّونَ مِنْ كُؤُوسٍ كَثِيرَةٍ. وقد يُسَقَى الْوَاحِدُ بِكَأْسٍ وَيَكُؤُوسُ. وقد تختلف الأشربة حسب

(١) سبته: مدينة مغربية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

عدد الأكواس. وقد يختلف الشرب من كأسٍ واحدة. وإن شرب منه الجَمُّ الغفيرُ مِنَ الأَجَبَةِ. انتهى كلامه رضي الله عنه.

وقوله: فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، أي يشهدا حسية. ويشرب منها خُمراً حَسِيّاً. على وَجْهِ الْعَادَةِ. يكون هَذَا فِي حَالِ الْبِدَايَةِ فِي الْجَذْبِ الْأَوَّلِ. وقد أَخْبَرَنِي أَخِي، أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ فِي قِمِهِ طَعْمَ الْخَمْرِ-الْحَسِيِّ. ورائحته الحسية، فِي جَذْبِهِ الْأَوَّلِ. وتارة يَشْهَدُهَا مَعْنَوِيَّةٌ. يَغْنِي يَشْهَدُ حَلَاوَةَ الْمَعَامِلَةِ. ولذِذِ الطَّاعَةِ. فيغيب قلبه فِي حَالَةِ الذِّكْرِ. إِنْ كَانَ مَسْدُوداً عَلَيْهِ الْحِجَابُ.

وقوله: تارة يشهدا علمية، أي يشهدا بِالْعِلْمِ. والمراد بِهِ عِلْمُ الْوَحْدَةِ بِرَفْعِ الْحِجَابِ. فيسكر فِي شُهُودِ أَنْوَارِ الْحَبِيبِ، ثُمَّ يَضْحُو مِنْ سُكْرِهِ.

وقوله: فالصورة حظ الأبدانِ والأنفس؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون لأهل البدايات، فأبدانهم كثيفة. ونفوسهم قوية. فلا يؤثر فيها إِلَّا الشَّيْءُ الْمَحْسُوسُ. وَأَيْضاً مِنْ نَوْعِ الْكَرَامَةِ الْحَسِيَّةِ، فَيَتَقَوَّى بِهَا الْمَبْتَدِئُ دُونَ الْمُنْتَهَى.

وقوله: والمعنوية حظُّ القلوب والعقول. إنما كَانَتْ الْمَعْنَوِيَّةُ حِظَّ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون لِلْمَتَوَسِّطِينَ السَّائِرِينَ. قَدْ انْقَلَبَتْ مُعَامِلَتُهُمُ الْبَدَنِيَّةُ، قَلْبِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ. فلا يَسْقُونَ إِلَّا مِنَ الْمَعَانِي اللَّطِيفَةِ، وَإِنْ كَانُوا مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ مُسْتَشْرِفُونَ عَلَيْهَا، قَدْ لَاحَظَتْ عَلَيْهِمْ أَنْوَارُهَا، وَأَشْرَقَتْ عَلَيْهِمْ أَسْرَارُهَا.

وقوله: والعلمية حظُّ الأرواح والأسرار؛ لأنَّ الرُّوحَ وَالسِّرَ هُوَ مَحَلُّ الشُّهُودِ وَالْعِلْمِ بِالْوَحْدَةِ. فلا تَسْقَى إِلَّا مِنْ مَادَّةِ الْعِلْمِ. فالوحدة، حتى تفرق فِي عَيْنِ بَخْرِ الْوَحْدَةِ. وَلَا تَسْمَى رُوحاً وَلَا سِرّاً، حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنْهَا الْحِجَابُ. تدخل مع الْأَخْبَابِ. وَإِلَّا فَيُقَالُ فِيهَا النَّفْسُ وَالْعَقْلُ، وَالْقَلْبُ. الْمَوْضُوعُ وَاحِداً. وقد قُلْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَصِيدَتِي الرَّائِيَّةِ الَّتِي أَنْشَدْتُهَا فِي الرُّوحِ، وَتَقْلِبَاتِ أَطْوَارِهَا، فَقُلْتُ فِي بَعْضِهَا:

هِيَ النَّفْسُ ثُمَّ الْعَقْلُ وَالْقَلْبُ تَالِيَا لَهَا الرُّوحُ ثُمَّ السِّرُّ فِي صَفَاءِ التَّبَرِّ
فَإِنْ أَخْلَدَتْ أَرْضُ الْهَوَى وَتَظَلَّمَتْ فَتَنْفَساً تُسَمَّى ذَاكَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ

وَأِنْ عَقَلْتُ أَيْدِي الْهَوَى بِأَرْمَةٍ
وَأِنْ سَكَنْتُ لِلْخَيْرِ لَكِنْ خَوَاطِرُ
بِذَاكَ تُسَمِّي الْقَلْبَ مَالِكَ أَمْرَهَا
وَأِنْ لَحَظْتُ رُوحَ الْوِصَالِ يَوْمُهَا
فَرُوحاً تُسَمِّي فِي نَشَاءِ أَضْلِلَهَا
فَإِنْ صُقِلَ الْجِزَاءُ عَنْ عَيْنِ حِسِّهِ
انتهى المقصود منه.

قوله: وَقَدْ تَجْتَمِعُ جَمَاعَةٌ... الخ يعني. قد تسقى جماعة على يَدِ شَيْخٍ واحدٍ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْكَأْسِ.

وقوله: وَقَدْ يُسْقَى مِنْ كُؤُوسٍ كَثِيرَةٍ. أي كل واحد يشرب من واسطة شَيْخِهِ. وقوله: وَقَدْ يُسْقَى الْوَاحِدُ بِكَأْسٍ وَبِكُؤُوسٍ. يَغْنِي أَنَّهُ يُسْقَى أَوَّلًا مِنْ كَأْسٍ شَيْخٍ، ثُمَّ يُسْقَى مِنْ شَيْوِخٍ أُخْرَى. إِذَا أَدِنَ لَهُ شَيْخُهُ فِي مُلَاقَاتِهِمْ. وَقَدْ يَكُونُ لِلْمَجْذُوبِ نَحْوُ أَرْبَعِينَ شَيْخًا. كُلُّهُمْ عَرَفَ مِنْهُمْ. إِلَّا أَنَّ هَذَا نَادِرٌ. أَوْ يَكُونُ بَعْدَ التَّرْشِيدِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وقوله: وَقَدْ تَخْتَلِفُ الْأَشْرِبَةُ، يعني يكون بعضها ممزوجاً بالصُّخْرٍ؛ وَهُوَ الْكَامِلُ مِنَ الشَّرَابِ، وَبَعْضُهَا يَكُونُ جَذْبًا صِرْفًا ثُمَّ يَصْخُو. وَبَعْضُهَا الْجَذْبُ غَالِبٌ. وَبَعْضُهَا السُّلُوكُ غَالِبٌ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَشْرُوبِ. وَعَلَى عَدَدِ الْكُؤُوسِ.

وقوله: وَقَدْ يَخْتَلِفُ الشُّرْبُ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. أي مِنْ يَدِ شَيْخٍ وَاحِدٍ. فَيَكُونُ الْمَاءُ وَاحِدًا. وَالزَّهْرُ أَلْوَانًا. فَالْخَمْرُ وَاحِدًا، وَالْأَوَانِي مُخْتَلِفَةٌ. فَبَعْضُهَا صَلْبَةٌ قَوِيَّةٌ وَاسِعَةٌ. لَا يَغْلِبُهَا السُّكْرُ. وَبَعْضُهَا رَقِيقَةٌ لَطِيفَةٌ، أَوْ ضَيْقَةٌ؛ أَقَلُّ شَيْءٍ يُوَثِّرُ فِيهَا. وَالْمَاءُ وَاحِدٌ وَهُوَ الصَّحْوُ لِكَمَالِ السَّاقِي. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ لَمَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

قُلْتُ: النَّضْحُ: الرَّشُّ. وَالتَّرَى: التَّرَابُ. وَانْتَعَشَ: انْتَهَضَ وَازْتَفَعَ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخُمرة الأزلية؛ وهي الحقيقة الإلهية لها قوة عظيمة. وتأثير قوي في قَلْبِ الحقائق، خَرَقَ العوائد الحسية والمعنوية. فلو رَشَّ أصحابها منها رشة على قَبْرِ مَيِّتٍ، لَنَهَضَ وازتفع من قَبْرِه بإذن رَبِّهِ. ويقوى تأثيرها بقدر تحقيقها. وحصولها في قَلْبِ صَاحِبِهَا. حتى يكون من تحقق بها. أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ. ولذلك كَانَتْ الأنبياء والرُّسل، تنفعل لهم الأشياء، وتخرق لهم العوائد أكثر من غَيْرِهِمْ. فَكَانَ سَيِّدُنَا عيسى عليه السلام، يحيي المَوْتَى، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَكَانَ نَبِيُّنَا عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُطْعِمُ الْجَمَّ الْغَفِيرَ مِنْ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، ويسقي الجيش الكثير من بِنِنِ أَصَابِعِهِ الشَّرِيفَةِ ﷺ. وقد أَحْيَا المَوءُودَةَ، وَخَيَّرَهَا فِي الرجوع أو البقاء، فاختارت الرجوع إلى ربِّها. وَأَخْيَا أَبَوَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَا عَلَى قَوْلٍ. وَرَدَّ عَيْنَ قتادة بعد أن انتثر في يده. فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْحَصِرُ. وَكرامة الأولياء من هذا المَعْنَى متواترة، لَا يَمَكِنُ حَضْرَهَا.

ويحتمل أَنْ كَلَامَ الشيخ، على سبيل المجاز والإشارة. فيريد بَرَى قَبْرِ المَيِّتِ، بشرية الجاهل أو الغافل. وبانتعاش رُوحِهِ: حياتها وارتفاعها بالمعرفة والعِلْمِ. أَي وَلَوْ نَضَحَ العارفون من خُمرة هِمَّتِهِمْ على ظَاهر من ماتت رُوحه بِالْجَهْلِ وَالْعَقْلَةِ، لَحَيَّيْتُ وَانْتَهَضْتُ إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ. وَارْتَفَعْتُ بِالْعِلْمِ وَالذِّكْرِ مِنْ سَاعَتِهَا. وَهَذَا الْأَمْرُ مجرَّبٌ عند أهل الصِّدْقِ. وفي بعض الأثر: «إِنَّ لِلَّهِ رَجَالاً مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا».

وَكَانَ الشيخ أَبُو الْعَبَّاسِ المرسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «وَاللَّهُ مَا بَنِي وَبَيَّنَ الرَّجُلُ إِلَّا أَنْ أَنْظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وقد شهد له بذلك شَيْخُهُ. فَقَالَ: نَعَمْ. الرَّجُلُ أَبُو الْعَبَّاسِ؛ يَأْتِيهِ الْبَدْوِيُّ يَبُولُ عَلَى سَاقِيهِ. فَلَا يُنْسِي إِلَّا وَهُوَ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. ولقد سمعتُ شَيْخَنَا الْبُوزِيدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِذَا كَانَ الشيخ أَبُو الْعَبَّاسِ، يُغْنِي بِالنُّظْرَةِ. فَلَقَدْ بَقِيَ فِي زَمَانِنَا هَذَا، مَنْ يُغْنِي بِالنُّظْرَةِ كَالْشيخِ أَوْ أَكْثَرَ. وسمعتُ شيخه مَوْلَايَ الْعَرَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لقد بقي العارفون في زماننا هذا، كَالشَّاذِلِيِّ وَأَمْثَالِهِ - يُشِيرُ إِلَى نَفْسِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهذا أَمْرٌ

شهير عند أهل الذوق وأهل الصدق.. كل من قصدهم بالصدق ربح من ساعته. وحيي بعد موته. وهذا الاحتمال عندي أقرب، لتحقيق هذا الأمر للعارفين بخلاف الأول. فإنه من باب الكرامة الحسية. وهم لا يلتفتون إليها. وقد لا تظهر لهم. فكم من عارف كامل، أخيا الله على يده الجم الغفير من أموات النفوس والقلوب. ولم يظهر على يديه شيء من الكرامات الحسية إلا القليل. كإحياء الموتى الذي ذكره الشيخ. وأيضاً: علمنا كله إشارة وألغاز، فلا يُحْمَل على ظاهره إلا من لم يعرف مقصدهم. والله تعالى أعلم.

ثم قال رضي الله عنه:

وَلَوْ طَرَحُوا فِي فَيءٍ حَائِطٍ كَرَمِهَا عَلِيلاً وَقَدْ أَشْفَى لِفَارَقِهِ السُّقْمُ
قلت: الفئء: ظل الشيء بعد أن كان شمساً. والحائط: البستان. وأشفى
على الموت: أشرف عليه.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية، لقوة تأثيرها تشفي الأسقام
وألعلل. قيل ظهورها من موادها. فلو طرح عليل، وقد أشرف على الهلاك في
ظل بستان أشجارها قبل أن تعقر بل قبل أن يظهر عنبها. لشغله الله. وفارقه
السقم من ساعته. وهذا يَحْتَمَلُ أَنْ يكون مُبَالِغَةً فِي مَذْجِهَا. وَأَنَّهَا لو كانت
حسية وجعل ذلك، لكون الأمر كما قال.

ويحتمل أن يريد به العليل سقيم القلب. وبالحائط، بستان العارفين. فكل
مَنْ دَخَلَ فِي ظِلِّ محبتهم، شفاؤه الله مِنْ مَرَضِ قَلْبِهِ، ولو أشرف على الهلاك
بالشكوك والخواطر، والذنوب والجرائم. وهذا أيضاً مجرب. إذ المَرءُ على دين
خليله. ومن تحقق بجلالة، لا يَخْلُو حَاضِرُوهُ مِنْهَا. وفي الخبر: «تَعَلَّمُوا اليقين
بمجالس أهل اليقين»^(١). والله ما أفلح من أفلح؛ إلا بصُحْبَةِ مَنْ أَفْلَحَ. وفائدة
الصُحْبَةِ وثمراتها. أمر شهير لا يحتاج إلى دليل. وجرب. ففي التجريب علم
الحقائق. ولأين عبَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَظْمِ الْحِكَمِ:

إِنَّ التَّوَّاحِي فَضْلُهُ لَا يُنْكَرُ وَإِنْ خَلَا مِنْ شَرْطِهِ لَا يُشْكَرُ

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وَالشَّرْطُ فِيهِ أَنْ تَوَاجِي الْعَارِفَ عَنْ الْحُطُوطِ وَاللُّحُوطِ صَارِفًا.
مَعَالُهُ وَحَلَالُهُ سَيَّانٍ مَا دَعُونَا إِلَّا إِلَى رَحْمَنِ أَنْوَارِهِ الدَّائِمَةِ السَّرِيَا
فِيكَ وَقَدْ حُفَّتْ بِكَ الرِّعَايَةُ

وقال سيدي إبراهيم التازي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «زِيَارَةُ أَرْبَابِ الثَّقَى مَرْهَمٌ يُبْرِئُ
وَمِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْهِدَايَةِ وَالْخَيْرِ. وَتُحَدِّثُ فِي قَدْرِ الْخَلْقِ إِزَادَةً».

وَنَشْرَحُ صَدْرًا فَاقَ مِنْ سَعَةِ الْوِزْرِ وَتَنْصُرُ مَظْلُومًا وَتَرْفَعُ خَامِلًا
وَتَكْسِبُ مَعْدُومًا وَتَجْبُرُ ذَا كَسْرِ فَكَمْ خَلَصَتْ مِنْ لَجَّةِ الْإِثْمِ فَاتِكَا
فَأَلَقَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ. إِلَى أَنْ قَالَ:

وَلَا فَرْقَ فِي أَحْكَامِهِ بَيْنَ سَالِكٍ مُرَبٍّ وَمَسْجُودٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ
وَذِي الزُّهْدِ وَالْعُبَادِ فَالْكُلُّ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ وَلَكِنْ لَيْسَتْ الشَّمْسُ كَالْبَذْرِ
ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ خَائِنِهَا مُقْعَدًا مَشْيًى وَتَنَطَّقُ مِنْ ذِكْرِي مَذَاقَتَهَا الْبُكْمُ
قُلْتُ: تَقَدَّمَ أَنَّ الْخَانَ: هُوَ حَائِثُ الْخَمَارِ أَوْ دَارُهُ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَوْ قَرَّبُوا مَحْبُوسًا عَنِ الْمَشْيِ. مِنْ مَحَلِّ هَذِهِ
الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. لَانْطَلَقَتْ رِجْلَاهُ لِلْمَشْيِ سَرِيعًا. قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى مَجْلَهَا. فَمَا
بَالُكَ لَوْ دَخَلَ خَدْنَهَا أَوْ شَرِبَ مِنْهَا. وَكَذَلِكَ لَوْ ذَكَرْتَ حَلَاوَةَ مَذَاقَتِهَا عِنْدَ
الْأَبْكَامِ لَنَاطَقَ سَرِيعًا مِنْ بَرَكَتِهِ ذِكْرَهَا. فَمَا بَالُكَ لَوْ ذَاقَهَا بِلسَانِهِ. وَهَذَا الَّذِي
ذُكِرَ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، فَإِنَّ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، مِثْلَ هَذَا أَوْ أَكْثَرَ.
كَقِصَّةِ الْجَارِيَةِ الَّتِي كَانَتْ مَقْعَدَةً سِنِينَ. فَلَمَّا بَدَتْ عِنْدَ أَهْلِهَا رَجُلًا صَالِحًا
تَوَسَّلَتْ بِهِ. فَقَامَتْ مِنْ حِينِهَا. إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى يَدِ الْأَوْلِيَاءِ، مِنْ
الْكَرَامَاتِ الْحَسِيَّةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا. فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْمُقْعَدِ؛ مَنْ حُسِسَ
عَنِ الْخَيْرَاتِ. وَأَقْعَدَهُ الْكَسَلُ عَنِ الطَّاعَاتِ. وَحَبَسَتْهُ الشَّهَوَاتُ، عَنِ النُّهُوضِ
إِلَى الْمَقَامَاتِ. فَإِذَا قَرَّبَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ؛ وَهُمْ الْعَارِفُونَ، انْطَلَقَتْ قِيودُهُ.
وَنَشِطَ إِلَى السَّيْرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ الْأَبْكَامُ: وَهُوَ مَنْ أَخْرَصَتْهُ
الْعَقْلَةُ، وَعَقَدَ لِسَانَهُ الْجَهْلُ وَالْبِدْعَةُ. فَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا لَا يَغْنِي. وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا

في الحسّ فإذا صحب العارفين، تَجَوَّهَرَتْ نَفْسُهُ. وانطلق لسانُهُ. فيتكلم بالحكم والعلوم اللدنية. وفي الخمار: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ»^(١) أَوْ كَمَا قَالَ. وقال أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا ابْتَعَدَتِ النَّفْسُ عَنْ تَرْكِ الْآثَامِ جَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا بِطَرَائِفِ الْعُلُومِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا عَالَمٌ عَلِمْنَا.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ عَبَقَتْ فِي الشَّرْقِ أَنْفَاسُ طِبِيهَا وَفِي الْمَغْرِبِ مَرْكُومٌ لَعَادَ لَهُ الشَّمُّ

قلت: عبقت الريح: إذا هبَّت وقال في القاموس: عَبَقَ عَبْقًا وعباقة: برق. وَلَا يُنَاسِبُ هُنَا. وَالْأَنْفَاسُ جَمْعُ نَفْسٍ بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ الرِّيحُ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ هَبَّتْ أَنْفَاسُ طِبِي هَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ. وَفِي الْمَغْرِبِ مَرْكُومٌ أَي مَرِيضٌ بِالزُّكَامِ. وَهُوَ الَّذِي لَا يَشُمُّ شَيْئًا. ثُمَّ وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَنْفَاسُ تِلْكَ الْخَمْرَةِ؛ أَي نَسِيمِهَا الطَّيِّبِ، لَعَادَ لَهُ الشَّمُّ. وَهَذَا صَاحِبًا مِنْ بَرَكََةِ طِبِيهَا. وَقُوَّةِ ذِكَايَتِهَا.

وهذا يحتمل أيضاً أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ مُبَالِغَةٌ فِي مَدْحِ نَسِيمِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ لَوْ ظَهَرَ لِلْحَسِّ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمَرْكُومِ: مَنْ لَا يَشُمُّ شَيْئًا مِنْ رَائِحَةِ الْخَمْرَةِ. مَرِيضٌ بِالْإِنْكَارِ عَلَى أَهْلِهَا. فَإِنَّهُ لَوْ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ هِمَّتُهُمْ، وَعَبَقَتْ أَنْفَاسُ خَمْرَتِهِمْ نَحْوَهُ وَلَوْ كَانَ بَعِيداً مِنْهُمْ فِي الْمَسَافَاتِ؛ لَزَالَ عَنْهُ الْإِنْكَارُ. وَلَشُمَّ رَائِحَةُ الْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ، وَبَادَرَ إِلَى صَحْبَتِهِمْ وَخِذْمَتِهِمْ، حَتَّى يَنْخَرِطَ فِي سِلْكِهِمْ، وَيَجْلِسَ عَلَى بِسَاطِ الْقُرْبِ وَالْمَوَاسَّةِ فِي مَجْلِسِهِمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لَامِسٍ لَمَّا قَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النُّجْمُ

قلت: خُضِبَتْ كَفُّهُ: لَوْنُهَا بِالْخَضِيبِ. وَلَمَسَهُ يَلِمَسُهُ وَيَلْمَسُهُ: مَسَّهُ بِيَدِهِ.

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع ونقل الذهبي في سير أعلام النبلاء [١٠٩/٨] عن ابن وهب عن مالك قال بلغني أنه ما زهد أحد في الدنيا واتقى إلا نطق بالحكمة.

وَقُلْ يَفْلَ بالكسر والفتح: ضاع وتلف. قاله في القاموس:

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: لَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِ هذه الخَمْرَةِ الأَزَلِيَّةِ كَفَ مَنْ مَسَّهَا لِأَشْرَقَتْ يَدُهُ، وَصَارَ نَجْمًا يَهْتَدِي بِهِ فِي ظِلْمَةِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وتصير يده، كَيْدَ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ ضَمَّهَا إِلَيْهِ. فإذا سَارَ فِي اللَّيْلِ، اهْتَدَى. فلا يَضِلُّ عن الطريق. كَمَنْ فِي يَدِهِ نَجْمٌ يُضِيءُ لَهُ الطَّرِيقَ.

وهذا أيضاً يحتمل أن يكون على ظاهره، مبالغة في تأثرها في خرق العوائد الحسية. ويحتمل أن يريد بخضب الكف منها، مُبَاشَرَتِهَا الْقَلْبَ. واتصالها بِهِ. فإنها لو توقفت إليه، لأضاء له نُورٌ يَهْتَدِي بِهِ فِي حل مشكلات بَرِّ الشرائع. وغامض بَحَرِ الحقائق. فلا يَضِلُّ فِي سَبِيلِهِ إِلَى عَيْنِ التَّحْقِيقِ. وفي قلبه هذا التور العظيم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾. [الأنفال: ٢٩] أي نوراً يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. وفي كَلَامِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الشاذلي رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، ما يوافق هذا الإحتمال؛ أعني: إطلاق الحس على وصول علم الحقيقة إلى القلب. فإنه قال: المحبة: آخذة من الله، قلب عبده، عن كُلِّ شَيْءٍ سِوَاكَ. فترى النفس ملائكة متحضنة بِمَعْرِفَتِهِ. والروح آخذة في حَضْرَتِهِ. والسر مغموراً في مشاهدته. والعبد يستزيد من حُبِّهِ. فيزيد، ويفتح بما هو عَذْبٌ مِنْ لَذِيذِ مُنَاجَاتِهِ. فيكسى حِللَ التَّقَرُّبِ. على بساط القربة. وَيَلْمَسُ أَبْكَارَ الْحَقَائِقِ، وَثَبَاتِ الْعُلُومِ. المراد منك. فَأُطْلِقَ الْمَسُّ عَلَى وَصُولِ الْعِلْمِ إِلَى الْقَلْبِ. وجعل عِلْمَ الْحَقَائِقِ كَالْأَبْكَارِ. وعلم الشرائع كَالثَّبَاتِ. لصعوبة إدراك الأول دون الثاني. إِذْ قَدْ يُدْرِكُهُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ مِنَ الْعُقْدَةِ، وَقُضَاةِ الْجُورِ. واللّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ جُلِيَتْ سِرّاً عَلَى أَكْمِهِ عَدَا بَصِيراً وَمِنْ رَأُوقِهَا تَسْمَعُ الصُّمُّ قُلْتُ: جُلِيَّ الأمرُ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ: كُشِفَ وَانْجَلَى. وَالْأَكْمَةُ: الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى. وَالرُّوْقُ: لَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْقَامُوسِ بِالْهَمْزِ. وإنما ذَكَرَهُ بِالْوَاوِ فَقَالَ: وَالرَّأُوقُ: الْمُصَفَّاتُ؛ أَيِ الْخَمَرِ الْمُصَفَّاتِ وَالْبَاطِنَةِ. وخمر: الشراب الَّذِي يَزُوقُ بِهِ وَالْكَأْسُ. إِلَّا أَنَّ قَلْبَ الْوَاوِ هَمْزَةٌ جَائِزَةٌ. كَأَقْتَتُ، وَوَقَّتَتْ. وقال أيضاً:

والروق: الإعجاب به لشيء وقدراته: أعجبه، والصُّمُّ جَمْعُ أَصَمٍّ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كُشِفَتْ هَذِهِ الْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ، وَأُظْهِرَتْ سِرّاً عَلَى رَجُلٍ خُلِقَ أَغْمَى، لَعَدَا، أَي مَاتَ بصيراً من سَاعَتِهِ. كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِسَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ. فَإِنْ قُلْتُ: كَشَفُهَا يَقْتَضِي الْإِظْهَارَ وَالْجَهْرَ؛ وَهُوَ يُنَافِي فِي قَوْلِهِ سِرّاً.

قُلْتُ: هَذِهِ الْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ؛ هِيَ مَعَانِي لَطِيفَةٌ غَيْبِيَّةٌ. فَإِظْهَارُهَا لِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، هُوَ كَشَفُهَا وَجَلَاؤُهَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ بُرُوزَهَا لِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، يَكُونُ سِرّاً، وَيَكُونُ جَهْراً. فَتَعَبَّرَ النَّاطِمُ بِالسَّرِّ مُبَالِغَةً. لِيَكُونَ الْجَهْرُ أَوْلى. أَي قَلَوْ بَرَزَتْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ سِرّاً. لِعَادِ الْأَكْمَهْ بِصِيراً. حَتَّى يُبْصِرَ أَنْوَارَهَا. وَيُشَاهِدَ أَسْرَارَهَا. فَمَا بِالْكَ لَوْ بَرَزَتْ جَهْراً. وَمِنْ حُسْنِ صَفَاءِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وَجُودَةِ جَوْهَرِيَّتِهِ. تُسْمَعُ الْأَذَانُ الصُّمُّ، أَي تَصِيرُ سَامِعَةً، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ صَمًّا. أَوْ مِنَ الْإِعْجَابِ لِحُسْنِهَا، وَحُسْنِ الشَّيْبِ عَلَيْهَا، تَصِيرُ الْأَذَانُ الصُّمُّ سَامِعَةً. فَتَسْمَعُ تِلْكَ الْمَحَاسِنِ. بَعْدَ أَنْ كَانَتْ صَمًّا؛ وَهَذَا أَحْسَنُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْأَكْمَهْ. أَغْمَى الْبَصِيرَةِ. فَإِذَا صَحَبَ أَهْلَ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وَكَشَفُوا لَكَ شَيْئاً مِنْ حُسْنِهَا وَبِهَجَّتِهَا. انْفَتَحَتْ بِصِيرَتِهِ، وَصَارَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وَأَنْ يَرِيدَ بِالصُّمِّ؛ الَّذِينَ تَنْفَعُهُمُ الْمَوْعِظَةُ، وَلَا تَنْهَجُ فِيهِمُ التَّذْكَرَةُ، فَإِذَا سَمِعُوا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ شَيْئاً، مِنْ صَفَاءِ الْمَوْعِظَةِ. وَحُسْنِ التَّذْكَرَةِ. انْكَفَوْا وَانزَجَرُوا. وَقِيلُوا مَا سَمِعُوا. وَصَارُوا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمْشُوا تُزْبَ أَرْضُهَا وَفِي الرُّكْبِ مَلْسُوعٌ لَمَّا ضَرَّهُ السُّمُّ

قُلْتُ: الرُّكْبُ جَمْعُ رَاكِبٍ، كَصَخْبٍ وَصَاحِبٍ. وَقِيلَ: لَا مُفَرَّدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. وَتَيَمَّمَ: قَصَدَ. وَالْمَلْسُوعُ: الْمَلْدُوغُ مِنَ الْحَيَّةِ أَوْ الْعَقْرَبِ، وَالسُّمُّ مِثْلُ السَّيْنِ: الشَّيْءُ الْقَاتِلُ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ جَمَاعَةً قَصَدُوا تُزْبَ هَذِهِ الْخَمْرَةِ. الَّتِي تُثَبِّتُ كَرْمَهَا. وَفِي الرُّكْبِ مَنْ لَسَعَتْهُ الْحَيَّةُ أَوْ الْعَقْرَبُ، لَمَّا ضَرَّهُ سُمُّ ذَلِكَ اللَّسْعِ،

حَيْثُ قَصِدَ تُزْبِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ. فَمَا بِالْكَ لَوْ وَصَلَ إِلَيْهَا. أَوْ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ تُرَابِهَا. أَوْ رَمَاهُ عَلَى مَا لُسِعَ مِنْهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِالْمَلْسُوعِ، مَنْ لَدَغَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَالْمَعَاصِي. فَإِذَا كَانَ مَعَ قَوْمٍ قَاصِدِينَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا. أَوْ إِلَى مَحَلِّهَا. فَلَا يَضُرُّهُ الْوُقُوعُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا. إِذْ بَرَكَهُ مَحَبَّتُهُمْ تُذْهِبُ عَنْهُ الْإِضْرَارَ. وَتُزْعِجُهُ إِلَى الْإِقْلَاحِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الصُّخْبَةِ وَثُمَرَتِهَا. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ قَصَدَ زِيَارَةَ صَالِحٍ، لَا يَكْتُوبُ عَلَيْهِ مَلَكُ الشَّمَالِ شَيْئًا. مَا دَامَ فِي زِيَارَتِهِ. وَلَعَلَّهُ وَقَفَ عَلَى حَدِيثٍ فِي ذَلِكَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا عَلَى جَبِينِ مُصَابٍ جُنْ أَبْرَاهُ الرُّسْمُ

قلت: الرَّاقِي؛ هو المَعْوُذ. قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الرُّقِيَّةُ بِالضَّمِّ: الْعَوْدَةُ. وَالْجَمْعُ رُقَى. وَرَقَاهُ رَقِيًّا وَرَقِيًّا وَرَقِيَّةً؛ فَهُوَ رَقَاءٌ. نَفَتْ فِي عَوْدَتِهِ ه. وَالْجَبِينُ: قَالَ فِي الْقَامُوسِ: وَالْجَبِينَانِ حُرْفَانِ لِكَشْفِ الْجَبْهَةِ مِنْ جَانِبَيْهَا، فِيمَا بَيْنَ الْحَاجِبَيْنِ. مُصْعَدًا إِلَى قِصَارِهِ الشَّعْرِ. أَوْ حُرُوفِ الْجَبْهَةِ. مَا بَيْنَ الصُّدْغَيْنِ، مُتَصِلًا بِحِذَاءِ النَّاصِيَةِ. كُلُّهُ جَبِينٌ ه. وَجُنْ بِالضَّمِّ: جُنًا وَجِنًا وَجُنُونًا. وَاسْتَجِنُ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ. أَنَّى أَصَابَهُ الْجُنُونُ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ لِلْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. لِكُلِّ دُمُ: أَيِ هَدَرَ وَزَهَى: أَيِ تَكَبَّرَ. وَعَنِي بِحَاجَتِهِ. فَهَذِهِ الْأَفْعَالُ لَمْ يُسْمَعْ فِيهَا الْبِنَاءُ لِلْفَاعِلِ. وَأَبْرَاهُ اللَّهُ: شَفَاهُ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ رَسَمَ الْكَاتِبُ الْمَعْوُذَ، حُرُوفَ هَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، عَلَى جَبِينِ مُصَابٍ، أَصَابَهُ الْجُنُونُ، لِأَبْرَاهُ ذَلِكَ الرُّسْمُ مِنْ سَاعَتِهِ. وَحُرُوفُ هَذِهِ الْخَمْرَةِ هِيَ حُرُوفُ اسْمِ الْجَلَالَةِ: فَلَوْ كَتَبَهَا الْعَارِفُ عَلَى مَجْنُونٍ. بِحُضُورِ يَهْمِهِ، لَبَرَى الْمَصَابُ مِنْ حِينِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَذَا مَنْ جُنَّ قَلْبُهُ بِالْخَوَاطِرِ الشَّيْطَانِيَّةِ. وَالشُّكُوكِ الْوَهْمِيَّةِ. إِذَا لَقِنَهُ الْعَارِفُ هَذَا الْاسْمَ، وَرَسَمَهُ لَهُ فِي قَلْبِهِ، لَبَرَى مِنْ حِينِهِ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ التَّامِ. وَالطَّمَأْنِينَةِ الْكُبْرَى. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفَوْقَ لِيَوَاءِ الْجَبِينِ لَوْ رَقِمَ اسْمُهَا لِأَسْكَرَ مَنْ تَخَتَّ اللَّوَا ذَلِكَ الرُّقْمُ

قلت: اللواء بالمد: العلم. ويُجمع على ألوية. وَجَمْعُ الْجَمْعِ أَلْوِيَاتُ. والجيش: الجُنْدُ. أو السائرون لحرب أو غيرها وَرَقَمَ: كَتَبَ. والمِرْقَمُ بِكسر الميم: القَلَمُ، والرَّقَمُ: الكتابة والتخطيط.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كَتَبَ اسْمُ هَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. وَجُعِلَ فَوْقَ عِلْمِ الْجَيْشِ لِأَسْكَرِ ذَلِكَ الرَّقْمِ كُلِّ مَنْ تَحْتَ ذَلِكَ اللَّوَاءِ. وَصَارُوا كُلُّهُمْ نَشَاوَى مِنْ خَمْرَةِ الْمَحَبَّةِ. فَيَذَلُّونَ نَفُوسَهُمْ فِي مَرْضَاةٍ مَخْبُوبِهِمْ. اخْتِيَاراً مِنْهُمْ. فَهَذَا كُلُّهُ مَبَالِغَةٌ فِي هَذِهِ الْخَمْرَةِ. وَتَشْوِيقٌ إِلَيْهَا. وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي تَائِيَتِي فَقُلْتُ:

فِيهَا مِنْ نَشْوَى لَوْ هَبَّ نَسِيمُهَا عَلَى قُبُورِ الْأَمْوَاتِ أُخِيَتْ بِسُرْعَةٍ
وَلَوْ عَبَقَتْ أَنْفَاسُ طَيْبِهَا فِي الْوَرَى لِأَضْحَوْا سُكَارَى بِالْجَمِيعِ فِي لَحْظَةٍ
وَلَوْ بَيَعَتْ الْأَرْوَاحُ فِي قَبْرِ حَانِهَا لَكَانَ لَهَا بَيْنَاعاً رَخِيصاً بِصُفْقَةٍ
فِيهِمْ وَتَنَزَّهُ فِي كَمَالِ جَمَالِهَا وَلَا تُتَسَرَّفُ بِغَيْرِ الْحَبِيبِ بِنَظَرَةٍ
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ. ثُمَّ ذَكَرَ ثَمَرَةَ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا فِي الْبَاطِنِ.
فَقَالَ:

تَهْدَبُ أَخْلَاقَ النَّدَامَى فَيَهْتَدِي بِهَا لَطَرِيقِ الْعَزَمِ مَنْ لَا لَهُ عَزَمٌ
وَيُكْرِمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجُودَ كَفُهُ وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مَنْ لَا لَهُ حِلْمٌ
قلت: هَذَبَ الشَّيْءُ: نَقَّاهُ وَأَخْلَصَهُ، وَصَفَّاهُ وَأَصْلَحَهُ. قَالَ فِي الْقَامُوسِ.
وَالْأَخْلَاقُ جَمْعُ خُلُقٍ؛ وَهُوَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا. وَالنَّدَامَى
جَمْعُ نَدِيمٍ؛ وَهُوَ: الْمُنَاجِي لِصَاحِبِهِ فِي مَجْلَسِ الْخَمْرِ أَوْ غَيْرِهِ. أَطْلَقَهُ هُنَا عَلَى
الشَّارِبِ. وَيُكْرِمُ بِضَمِّ أَوَّلِهِ. وَكَسَرَ ثَانِيهِ. مُضَارِعٌ أَكْرَمَ. وَالْحِلْمُ: الْأَنَاءُ وَالْعَقْلُ.
قَالَ فِي الْقَامُوسِ. وَالْأَنَاءُ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ: الرِّزَانَةُ وَالثَّانِي. وَحَلَمَ بِالضَّمِّ، حُلُمًا:
عَفَا وَأَصْفَحَ وَلَمْ يُعَاجِلْ. وَتَحَلَّمَ: تَكَلَّفَ الْحِلْمَ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذِهِ الْخَمْرَةَ، تَتَّقِي وَتَخْلَصُ أَخْلَاقَ الشَّارِبِينَ لَهَا. فَتَبْدُلُ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ. فَتَبْدُلُ الْكَسَلَ بِالنَّشَاطِ؛ وَخِفَةَ الْأَعْضَاءِ. حَتَّى يَهْتَدِيَ لَطَرِيقَ الْعَزَمِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مَنْ لَا عَزَمَ لَهُ عَلَيْهَا. وَتَبْدُلُ الشَّخْ

والبُخل بالكُرم، والسُّخاء، حتَّى يصيرَ مَنْ لَا يَعْرِفُ السُّخَاءَ أَضْلاً، أَسْحَى النَّاسِ، وَأَكْرَمَ النَّاسِ. وتَبَدَّلَ الغَضَبُ والحقد والعجلة والبطش، بِالْحِلْمِ وسَلَامَةِ الصُّدْرِ، والسكينة والثاني والرَّزَانة. وتَبَدَّلَ الخوف والجَزَعُ والهَلَعُ، بِالسَّجَاعَةِ واليَقِينِ، والغِنَى بِاللَّهِ. وتَبَدَّلَ الشُّكُّ والاضطراب بالطَّمَأْنِينَةِ والسَّكُونِ. وتَبَدَّلَ كثرة التدبير والاختيار، بِالرَّضَى والتسليم، والسكون تَحْتَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ. وتَبَدَّلَ التَّكَبُّرُ وَحُبُّ الرِّفْعَةِ، والجاء والرياسة، بالتواضع والسكينة، والخمول وَحُبُّ السُّفْلِيَّاتِ، دُونَ الْعُلُويَّاتِ. وتَبَدَّلَ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْجِرْصِ وَالطَّمَعِ، بِالزُّهْدِ وَالْفَنَاءَةِ وَالْوَرَعِ. وَالْغِنَى بِاللَّهِ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ. وتَبَدَّلَ تعظيم الأغنياء والحلف لَهُمْ. بِالْإِغْرَاضِ عَنْهُمْ وَالزُّهْدِ فِيهِمْ. وَالتَّيَّهَ عَلَيْهِمْ. اِكْتِفَاءً بِعِلْمِ اللَّهِ. وَتَبَدَّلَ تحقير الفقراء، وَتَصْغِيرَهُمْ، بِتَعْظِيمِهِمْ وَرَفْعَتِهِمْ، وَالدَّنْوِ مِنْهُمْ. وَالْحُبِّ لَهُمْ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْحَصِرُ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: «لِلنَّفْسِ مِنَ النَّقَائِصِ. مَا لِلَّهِ مِنْ الْكَمَالَاتِ». فَتَنْقَلِبُ جُلَّ تِلْكَ النَّقَائِصِ كَمَالَاتٍ. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ. مَدْحُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ. إِذْ لَوْ كُنْتَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ، وَمَخَوِ دَعَاوِيكَ، لَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَبَدًا. وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ. عَطَى وَصَفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ. فَأَوْصَلَكَ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ. لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ؛ وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سِوَاءِ الطَّرِيقِ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَالَ قَرْمُ الْقَوْمِ لَشَمَّ قِدَامُهَا لَاكْسَبَهُ مَعْنَى شَمَائِلِهَا اللَّثْمُ

قلت: نَالَ الشَّيْءُ: أَعْطَاهُ وَأَخَذَهُ. وَالْقَرْمُ: السَّيِّدُ. وَقَرْمُ الْقَوْمِ سَيِّدُهُمْ. وَاللَّثْمُ: التَّقْبِيلُ. لَثَمَ كَضْرَبَ وَسَمِعَ، وَاللثام، كَكِتَابَ: مَا عَلَى الْعَمِّ مِنَ التَّقَابِ، وَالشَّمَائِلِ، جَمْعُ شَمَالٍ بِالْفَتْحِ بِمَعْنَى الطَّنْعِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ نَالَ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ، تَقْبِيلَ لثَامِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وَشَمَّ شَيْئاً مِنْ عِطْرِهَا لَأَكْسَبَهُ ذَلِكَ اللَّثْمُ، مَعْنَى طِبَاعِهَا الْحَسَنَةِ. فَتَهْدَبُ أَخْلَاقُهُ، وَتُزَيِّنُ أَشْكَالَهُ، فَيَصِيرُ حَلِيماً، كَرِيماً، رَحِيماً، شَفِيعاً مُتَوَاضِعاً، سَهْلاً لَيِّناً، إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمُ مِنَ الْأَخْلَاقِ تَقَلَّبَ الَّتِي تَكْسِبُهَا، لِمَنْ تَحَقَّقَ بِهَا. وَإِنَّمَا كَانَتْ الْخَمْرَةُ تَهْدَبُ الْأَخْلَاقَ، وَتَقَلَّبُ الْأَعْيَانُ؛ لِأَنَّهَا نَتِيجَةُ ذِكْرِ اللَّهِ. وَلَا

شَكَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ الْحَقِيقِي يُهَذَّبُ صَاحِبَهُ، وَيَخْلَصُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أَيْ
أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ، فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُجَرَّبٌ. قَدْ تَحَقَّقْنَا
بِهِ وَرَأَيْنَاهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ وَإِنَّمَا خَفَّ قَرَمُ الْقَوْمِ بِهَذَا الْأَمْرِ،
لَأَنَّهُ أَخْرَجَ إِلَى التَّهْذِيبِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ السِّيَاسَةَ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِأَهْلِ الْجِلْمِ
وَالصَّبْرِ. وَالتَّائِي وَالسَّكِينَةِ. وَإِلَّا فَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ. أَوْ تَعَبَتْ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا خَبِيرٌ أَجَلٌ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمٌ

يقول السامعون لي: صِفْ لَنَا هَذِهِ الْخَمْرَةَ الَّتِي شَوَّقْنَا إِلَيْهَا، وَبَالَغْتَ فِي
مَدْحِهَا فَقَالَ لَهُمْ: أَجَلٌ، أَيْ نَعَمْ. عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا وَنَعْوَتِهَا، عِلْمٌ وَتَحْقِيقٌ، ثُمَّ
وَصَفَهَا لَهُمْ فَقَالَ:

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَا
وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ
تَقْدَمُ كُلُّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا
قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمٌ
وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ
بِهَا اخْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لَالَهُ فَهَمٌ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَصْفِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَالذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ
الْأَصْلِيَّةِ. هِيَ ذَاتٌ مُوجُودَةٌ. خَفِيَّةٌ لَطِيفَةٌ، كُلُّطِفِ الْهَوَاءِ وَلَا هَوَاءَ لَهَا صَفَاءٌ
كَصَفَاءِ الْمَاءِ، وَلَا مَاءٌ نَوْرَانِيَّةٌ كَنُورِ النَّارِ وَلَا نَارٌ. رُوحَانِيَّةٌ كَرُوحِ الْأَجْسَامِ وَلَا
جِسْمٌ. أَيْ مُتَصَفَّةٌ بِالْحَيَاةِ الْأَصْلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُهَا أَيْ نَعْوَتِهَا
وَوُجُودُهَا كُلُّ الْكَائِنَاتِ: لِأَنَّ وَجُودَهَا قَدِيمٌ أَزَلِي. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جِزْمٌ صَغِيرٌ وَلَا
كَبِيرٌ. فَالْأَجْرَامُ الْكَبِيرَةُ، كَالْعُرْشِ وَالْكُرْسِيِّ، وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، شَبِيهَةٌ
بِالرُّسُومِ، أَيْ الْحُرُوفِ. وَالْأَجْرَامُ الصَّغِيرَةُ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْآدِمِيِّ وَسَائِرِ
الْمَخْلُوقَاتِ الرَّقِيقَةِ، كَالْأَشْكَالِ لِتِلْكَ الْحُرُوفِ. وَلَا شَكٌّ أَنَّ قَائِدَةَ الرُّسُومِ
وَالْأَشْكَالِ، هِيَ قَبْضُ الْمَعَانِي مِنْهَا وَفَهْمُهَا. فَإِذَا قَبْضَتِ الْمَعْنَى اسْتَعْنِي عَنِ
الرُّسُومِ وَمُجَيِّ. كَذَلِكَ الْكَائِنَاتِ، مَا نُصِبَتْ إِلَّا لِتَرَى فِيهَا مَوْلَاهَا. فَإِذَا عَرَفْتَهُ.
طَاحَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ وَالْأَشْكَالُ. وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. وَأَنْشَدُوا:

وَطَاحَ مَقَامِي فِي الرُّسُومِ كَلَامُهَا فَلَسْتُ أَرَى فِي الْوَقْتِ قَرَبًا وَلَا بُعْدًا

فَنَيْتُ بِهِ عَنِّي قَبَاتٍ بِهَا غَيْبِي فَهَذَا ظُهُورُ الْحَقِّ عِنْدَ الْفَنَاءِ قَصْدًا
 أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَعَادَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ مِمَّا يَلِي الْعَبْدَا

وفي الحديث الصحيح: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ»^(١). زَادَ بَغُضَ
 الْمُحَقِّقِينَ: وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. وفي حديث الترمذي، عن أَبِي رَزِينِ
 الْعُقَيْلِيِّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟» قَالَ: «كَانَ
 فِي عَمَدٍ مِثْلَ قَوْفَةِ هَوَاءٍ. وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ». قُلْتُ: الْعَمَدُ هِيَ الْخَفَاءُ. قَالَ تَعَالَى:
 ﴿فَقَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾. [الفصص: ٦٦] أَيِ خَفِيتَ. أَيِ إِنَّ الْحَقَّ تَعَالَى؛
 كَانَ فِي خَفَاءٍ لَطَافَةٍ؛ لَا يُدْرِكُ وَلَا يُعْرَفُ. أَيِ كَانَ خَفِيًّا لَطِيفًا. لَيْسَ فَوْقَهُ
 هَوَاءٌ. وَلَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ. بَلْ عَظَمَتُهُ أَحَاطَتْ بِكُلِّ فَوْقٍ، وَبِكُلِّ تَحْتٍ. وَبِكُلِّ
 هَوَاءٍ. وَلَا فَوْقَ وَلَا تَحْتٍ، وَلَا هَوَاءٍ. وَإِنَّمَا الْوُجُودُ لِلْعَالِي الْأَعْلَى فِي الْأَزَلِ،
 وَفِيمَا لَا يَزَالُ. وَقِيلَ لِسَيِّدِنَا عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ. يَا بَنَ عَمَ رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ
 كَانَ رَبُّنَا؛ أَوْ هَلْ لَهُ مَكَانٌ؟ فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَسَكَتَ سَاعَةً. ثُمَّ قَالَ: قَوْلُكُمْ أَيْنَ اللَّهُ.
 سَوَالٌ عَنْ مَكَانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلَا مَكَانَ. ثُمَّ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ؛ وَهُوَ الْآنَ كَمَا
 كَانَ. دُونَ زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ. وَسُئِلَ أَبُو الْحَسَنِ الثُّورِيُّ فِي مَنْحَةِ الصُّوفِيَّةِ. أَيْنَ
 اللَّهُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. فَقَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَا أَيْنَ. وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي عَدَمٍ. فَكَانَ حَيْثُ
 هُوَ. وَهُوَ الْآنَ حَيْثُ كَانَ. إِذْ لَا أَيْنَ وَلَا مَكَانَ. وَفِي بَغْضِ الْأَخْبَارِ: «كُنْتُ
 كَنْزًا لَمْ أُعْرَفْ فَأُخْبِنْتُ أَنْ أُعْرَفَ. فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ فَتَعَرَّفْتُ لَهُمْ. فَبِي
 عَرَفُونِي»^(٢). وَقَوْلُهُ. وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ. يَغْنِي أَنْ الْخُمْرَةَ الْأَزَلِيَّةَ؛ أَظْهَرَتْ
 أَنْوَارَهَا. وَأَبْرَزَتْ حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا فِي مَظَاهِرِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ عَبْدِ
 الْكَرِيمِ الْجَبَلِيِّ صَاحِبِ الْعَيْنِيَّةِ:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَاتِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرَأَى لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ

(١) أوردته العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١١) [١٧١/٢] رواه البخاري بلفظ
 كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء...
 حديث رقم (٢٠١٩) [١١٦٦/٣].

(٢) سنن الترمذي، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩) [٢٨٨/٥] وأحمد في
 المسند، عن أبي رزين، حديث رقم (١٦٢٣٣) [١١/٤] ورواه غيرهما.

فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسْمَى بِأَسْمَاءٍ فِيهِنَّ مَطَالِحُ
وَقُلْتُ فِي تَائِيْتِي الْخَمْرِيَّةِ :

تَجَلَّتْ عَرُوسَةٌ فِي مَرَاتِي جَمَالِهَا وَأَزَحَتْ سُتُورَ الْكِبَرِيَاءِ لِعِزَّةِ
فَالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا قَامَتْ بِالْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ . وَلَا وُجُودَ لَهَا بِدُونِهَا ، بَلْ لَا نِسْبَةَ
لَهَا مَعَهَا :

مُنْذُ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
قَالَ بَغْضُ الْمُحَقِّقِينَ : لَوْ كُلفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِيعْ ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ
مَعَهُ حَتَّى أَشْهَدَهُ : ثُمَّ اخْتَجَبَتْ هَذِهِ الْخَمْرَةُ ، بَعْدَ ظُهُورِهَا لِحِكْمَةِ أَزَلِيَّةٍ . سَتَرَتْ
أَسْرَارَ الرُّبُوبِيَّةِ . وَأَسَدَلَتْ حِجَابَ الْكِبَرِيَاءِ عَلَى الْعِظَمَةِ الْأُصْلِيَّةِ . فَخَفِيَتْ تِلْكَ
الْخَمْرَةُ بَعْدَ ظُهُورِهَا . وَاسْتَرَتْ بَعْدَ بُرُوزِهَا . وَحُجِبَتْ عَمَّنْ لَا فَهْمَ عِنْدَهُ . وَلَا
بَصِيرَةَ لَهُ إِذْ لَوْ انْفَتَحَتْ بِبَصِيرَتِهِ لَمْ يَرْ غَيْرَهَا . قَالَ فِي الْحِكْمِ : شِعَاعُ الْبَصِيرَةِ ،
يُشْهِدُكَ قُرْبَ الْحَقِّ مِنْكَ . وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ ، يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ . وَحَقُّ
الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَ الْحَقِّ ، لَا عَدَمَكَ وَلَا وَجُودَكَ . كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ؛
وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ . وَقَالَ الْمَجْذُوبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مَنْ شَهِدَ الْكَوْنَ بِالْكَوْنِ عَزَّةٌ فِي عَمَّا الْبَصِيرَا
وَمَنْ شَهِدَ الْكَوْنَ بِالْمُكَوْنِ ذَاكَ صَادَفَ عِلَاجَ الشَّرِيرَا

وَقَدْ أَشْرَتْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ ، فِي تَائِيْتِي الْخَمْرِيَّةِ فَقُلْتُ :
فَإِنْ تَسْأَلُونِي عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهَا فَإِنِّي خَبِيرٌ عَنْ شُهُودِ وَخَبَرَةِ
تَقْدَمُ كُلُّ الْكَوْنِ نُورَ بَهَائِهَا لَطِيفٌ خَبِيرٌ فِي صَفَاءٍ وَقُدْرَةِ
وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ حِينَ تَكْتَفَتْ وَعَنْ كُلِّ ذِي جَهْلٍ خَفِيَتْ لِحِكْمَةِ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَفْهَمُ هَذِهِ الْخَمْرَةَ ذَوْقاً وَعِلْماً . إِلَّا إِذَا صَحِبْتَ أَفْهَامَهَا : وَهُمْ
الْعَارِفُونَ بِذَلِكَ أَهْلُ الْجَذْبِ وَالسَّلُوكِ . وَإِنَّمَا إِنْ لَمْ تَصْحَبْهُمْ ، فَلَا تَطْمَعُ فِي
فَهْمِهَا . وَلَوْ طَالَعْتَ أَلْفَ مَجَلَّدٍ . وَصَحِبْتَ أَلْفَ عَالَمٍ ؛ أَوْ عَابِدٍ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ .

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَتْ بِعَادَاً لَا جِزْمَ تَخْلُلُهُ جِزْمُ

قال في القاموس. الهَيَام بالضم. كالجُنُون مِنَ الْعَشَقِ. وقال أيضاً: هَامَ يَهِيْمُ هِيَمًا، وَهِيْمَانًا: أَحَبَّ امْرَأَةً. ثم قال: وَرَجُلٌ هَائِمٌ: مُتَحَيِّرٌ. وَتَمَارَجٌ: اخْتَلَطَ. وَالْإِتْحَادُ: يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: اخْتِلَاطُ جِزْمَيْنِ. حَتَّى يَصِيرَا جِزْمًا وَاحِدًا. وَهَذَا مُحَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى، وَهُوَ كُفْرٌ لِمَنْ اغْتَفَدَهُ. وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَحْدَةِ الْحَقِيقِيَّةِ يُقَالُ: اتَّحَدَ الشَّيْءُ إِذَا صَارَ وَاحِدًا؛ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى. قَالَ الْقُطُبُ بْنُ مَشِيْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَشَرَابُ الْمَحَبَّةِ: مَزْجُ الْأَوْصَافِ بِالْأَوْصَافِ. وَالْأَخْلَاقُ بِالْأَخْلَاقِ. وَالْأَنْوَارُ بِالْأَنْوَارِ. وَالْأَسْمَاءُ بِالْأَسْمَاءِ. وَالنُّعُوتُ بِالنُّعُوتِ. وَالْأَفْعَالُ بِالْأَفْعَالِ وَالْجُرْمُ: الْجِسْدُ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَجْرَامٍ. وَجُرْمٌ، وَجُرْمٌ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ هَامَتْ رُوحِي أُنَى طَاشَتْ وَانْجَذَبَتْ، بِسَبَبِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ. مُحَبَّةٌ وَعَشْقًا. فَمَا زَالَتْ تَتَعَطَّشُ إِلَيْهَا. وَتَطْلُبُ الْوَصُولَ إِلَيْهَا بِالتَّخْلِيعِ وَالتَّضْفِيَةِ. فَلَمَّا تَجَوَّهَرَتْ وَتَطَهَّرَتْ مِنْ بَقَايَا الْجِسِّ. اتَّصَلَتْ بِهَا وَامْتَزَجَتْ مَعَهَا. فَوَجَدَتْ نَفْسَهَا كَانَتْ فِي الْحَضْرَةِ وَهِيَ لَا تَشْعُرُ. وَإِنَّمَا حَاجِبُهَا عَنْهَا الْجَهْلُ وَالْوَهْمُ. فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْجَهْلُ. وَثَبَتَ الْعِلْمُ. وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي الْحَضْرَةِ. فَغَرَّقَتْ فِي عَيْنِ بَخْرِ الْوَحْدَةِ. وَارْتَفَعَ عَنْهَا الشُّرْكُ الْخَفِيُّ وَالْجَلِيُّ. وَهِيَ هَذَا الْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ الْمَشَارِقَةِ:

كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَخْجُوبًا بِالْوَهْمِ مُقْبِدًا بِقُيُودِ الْبَيْنِ
مُفْرَدِي وَاحِدٌ وَأَنَا أَحْسِبُهُ اثْنَيْنِ فَلَمَّا تَبَدَّى جَمَالُ وَارْتَفَعَ الضِّينِ
وَقَعَ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ وَصِرْتُ عَيْنِ الْعَيْنِ

وقال في الحِكْمِ: مَا حَاجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودَ مَوْجُودٍ مَعَهُ. إِذَا لَا شَيْءَ مَعَهُ. وَإِنَّمَا حَاجَبَكَ تَوَهْمٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ.

وقال أيضاً: وَضُوكَ إِلَى اللَّهِ، وَضُوكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ. وَإِلَّا فَجَلَّ رَبَّنَا أَنْ يَتَّصَلَ بِشَيْءٍ، أَوْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ. وَهَذَا مَعْنَى الْإِتْحَادِ؛ إِذَا أُطْلِقَ عِنْدَ الصُّوفِيَةِ. أَغْنَى بِثَبُوتِ الْعِلْمِ بِالْوَحْدَةِ. بَعْدَ الْجَهْلِ بِهَا. أَوْ بِثَبُوتِ الْعِلْمِ بَعْدَ حُضُورِ الْفَرْقِ. وَمِنْهُ قَوْلُ صَاحِبِ الْعَيْنِيَّةِ: الشَّيْخُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَلِيلِيِّ.

وَعُصْ فِي بَحَارِ الْإِتْحَادِ مُنْزَهَا عَنِ الْمَزْجِ بِالْأَعْيَارِ إِنْ أَتَتْ سَاجِعُ

وإِيَّاكَ وَالتَّشْبِيهَ فَهُوَ مُخَادِعٌ
وَقَالَ أَيْضاً فِي مَذْحٍ آخَرٍ:

فَكُنْتُ أَنَا وَهِيَ كَأَنْتُ أَنَا وَمَا
فَنِيْتُ بِهَا فِيهَا وَلَا شَيْءَ بَيْنَنَا
وَقَالَ أَيْضاً:

فَنِيْتُهَا حَتَّى فَنُتْ وَهِيَ لَمْ تَكُنْ
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا
نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَانِ

فَلَا يَفْهَمُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ؛ لِأَنَّهُمْ مُبَرَّأُونَ مِنْهُ. وَإِنَّمَا أَرَادُوا إِظْهَارَ التَّغَزُّلِ بِإِثْبَاتِ الْمَحْبُوبَةِ وَالْمَحَبِّ، وَحُصُولِ الْعَشْقِ مِنَ الْمَحَبِّ لَهَا، فَإِذَا حَصَلَ الْوُصُولُ، لَمْ تَبْقَ هَذِهِ الْإِشَارَةُ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْحِكْمِ: مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ، لِفَنَائِهِ فِي وَجُودِهِ. وَانْطَوَاهِ فِي شَهْوَدِهِ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى اخْتَرَسَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: وَلَا جِزْمَ تَخْلُلُهُ جِزْمٌ. لِثَلَا يَفْهَمُ السَّامِعُ أَنَّهُ الْإِتِّحَادُ الْمَذْمُومُ، وَقَدْ اتَّهَمَهُمْ كَثِيرٌ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مُرَادَهُمْ. فَرُبَّمَا هُمْ بِمَا لَمْ يَحِطْ بِهِ عِلْماً، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَنْزِيهِ الشَّيْخِ نَفْسَهُ عَنِ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَأْيِيدِهِ: نَظْمُ السُّلُوكِ. وَكَلَامُ الشُّشْتَرِيِّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَابْنِ الْعَرَبِيِّ، مَصْحُوباً بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ. وَهُمْ أَوْلِيَاءُ مُحَقِّقُونَ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَقَدْ أَشْرَفْتُ فِي تَأْيِيدِ الْخُمْرِ الْأَزَلِيَّةِ، عَنِ الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ، فَقُلْتُ:

تَنَزَّهْتَ عَنِ حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَضْفِهَا
فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حَلَّتْ
تَجَلَّتْ عَرُوساً فِي مَرَائِي جَمَالِهَا
فَأَزَحْتَ سُثُورَ الْكِبَرِيَاءِ بِعِزَّةٍ
فَمَا ظَهَرَ فِي الْكَوْنِ غَيْرَ بَهَائِهَا
وَمَا اخْتَجَبَتْ إِلَّا لِحُجْبِ شَرِيرَةٍ
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَخُمِرَ وَلَا كَزَمَ وَأَدَمَ لِي أَبٌ
وَكَزَمَ وَلَا خُمِرَ وَلِي أُمُّهَا أُمٌ

وَقَدْ وَقَعَ التَّفْرِيقُ وَالْكُلُّ وَاجِدٌ فَأَزَاحَنَا خَمْرٌ وَأَشْبَاخُنَا كَرْمٌ
 قُلْتُ: شَبَّهَ الشَّيْخَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرُّوحَ السَّارِيَةَ فِي الْبَدَنِ: بِالْخَمْرِ
 الْمُسْتَتَرِّ فِي الْكَرَمِ. وَشَبَّهَ الْبَشَرِيَّةَ الظَّاهِرَةَ: بِالْكَرَمِ الْمَحْتَوِي عَلَى الْخَمْرَةِ،
 وَالْمَرِيدِ فِي حَالِ سَيْرِهِ تَارَةً يَغْلِبُ جَذْبُهُ عَلَى سُلُوكِهِ. وَسَكَّرَهُ عَلَى مَحْوِهِ.
 فَتَكُونُ الرُّوحَانِيَّةُ غَالِبَةً عَلَى الْبَشَرِيَّةِ. مُسْتَوْلِيَةً عَلَيْهَا. فَلَا يَبْقَى لِلْبَشَرِيَّةِ أَمْرٌ.
 وَتَارَةً يَغْلِبُ سُلُوكُهُ عَلَى جَذْبِهِ، وَمَحْوُهُ عَلَى سَكَّرِهِ. فَتَكُونُ الْبَشَرِيَّةُ غَالِبَةً عَلَى
 الرُّوحَانِيَّةِ. مُسْتَوْلِيَةً عَلَيْهَا. فَإِذَا غَلَبَتِ الرُّوحَانِيَّةُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، كَانَ كَوُجُودُ خَمْرٍ
 بَلَا كَرَمٍ. وَإِذَا غَلَبَتِ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ، كَانَ كَوُجُودُ كَرَمٍ بَلَا خَمْرٍ لِبُطُونِهَا
 حِينَئِذٍ.

فَبَيَّنَ الشَّيْخَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَالَهُ فِي حَالِ سَيْرِهِ فَقَالَ: فَأَنَا تَارَةً خَمْرٌ وَلَا
 كَرْمٌ، وَذَلِكَ فِي حَالَةِ جَذْبِي وَسُكْرِي. وَأَنَا حِينَئِذٍ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عَلَى قَدَمِ
 أَبِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّ الْجَذْبَ عِنَايَةً. فَإِنَّ الرُّوحَ إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ،
 اسْتَوْلَتْ عَلَى الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ. فَيَكُونُ هُوَ آدَمَ الْأَكْبَرُ، خَلِيفَةُ عَنِ اللَّهِ، وَهَذَا مَعْنَى
 قَوْلِهِ: وَآدَمُ لِي أَبٌ؛ لِأَنَّ الْإِبْنَ خَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ. فَيَكُونُ هُوَ حِينَئِذٍ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي
 كَوْنِهِ. وَتَارَةً أَكُونُ كَرْمًا وَلَا خَمْرًا. وَذَلِكَ حِينَ يَغْلِبُ سُلُوكِي عَلَى جَذْبِي.
 فَتَكُونُ بَشَرِيَّتِي حَاكِمَةً عَلَى رُوحَانِيَّتِي. كَحَلْمِ الْأُمِّ عَلَى وَلَدِهَا. وَهَذَا مَعْنَى
 قَوْلِهِ: وَلِي أُمُّهَا أُمٌّ. وَأُمُّ الْخَمْرِ هِيَ الْكَرْمُ. وَالْكَرْمُ شَبِيهٌ بِالْبَشَرِيَّةِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: وَآدَمُ لِي أَبٌ. إِشَارَةً إِلَى أَنَّ جَذْبَهُ مَمْرُوجٌ
 بِسُلُوكِهِ؛ لِأَنَّ الْمَصْطَلَحَ، خَرَجَ عَنْ طَوْرِ الْبَشَرِ. فِيمَا أَنَّ يَلْتَحِقُ بِالرُّوحَانِيَّتَيْنِ، أَوْ
 بِالْبَهَائِمِ. بِخِلَافِ مَنْ كَانَ سَالِكًا فِي جَذْبِهِ، فَظَاهِرُهُ سُلُوكٌ، وَبَاطِنُهُ جَذْبٌ. لَكِنْ
 تَارَةً يَغْلِبُ الْجَذْبُ، فَتَنْخَسِ الْبَشَرِيَّةُ، وَتَبْطُنُ. وَتَسْتَوْلِي الرُّوحَانِيَّةُ عَلَيْهَا.
 كَاسْتِيلَاءِ النَّارِ عَلَى الْفَخْمَةِ. لَكِنْ الْبَشَرِيَّةُ مَلْحُوظَةٌ. فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَآدَمُ لِي
 أَبٌ. أَنِّي وَأَنَا بَشَرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، لَمْ تَخْرُجْ عَنْ طَوْرِ الْآدَمِيَّةِ؛ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ
 الْكَمَالِ وَتَارَةً يَغْلِبُ السُّلُوكُ، فَيَبْطُنُ الْجَذْبُ فِي الرُّوحَانِيَّةِ. وَتُظْهِرُ أَوْصَافَ
 الْبَشَرِيَّةِ عَلَى السَّالِكِ. فَتَكُونُ الرُّوحَانِيَّةُ تَمْتَدُّ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهَا.
 كَمَا قَالَ التَّسْتَرِي:

مِثِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤُوسِي فَتَكُونُ الْبَشَرِيَّةُ كَالْأُمِّ
وَالرُّوحَانِيَّةُ وَلِدَا. رَضِعَ مِنْ لَبَنَهَا. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَلِي أُمُّهَا أُمٌّ. أَيِ
حِينَئِذٍ أُمُّ الْخَمْرِ؛ وَهِيَ الْكَزْمُ أُمٌّ. وَالْمُرَادُ بِهَا الْبَشَرِيَّةُ، الْمُسْتَوَلِيَّةُ عَلَى
الرُّوحَانِيَّةِ، اسْتِيْلَاءُ الْكَزْمِ عَلَى الْخَمْرِ. وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ أَحْسَنُ وَأَظْهَرُ. وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَهَذَا التَّعْرِيفُ كُلُّهُ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى التَّحْقِيقِ. وَإِلَّا امْتَحَقَ الْحَسُّ وَثُبَّتْ
الْمَعْنَى. فَالْكُلُّ وَاحِدٌ. فَلَا قِيَامَ لِلْبَشَرِيَّةِ إِلَّا بِالرُّوحَانِيَّةِ. وَلَا ظَهْوَرُ لِلرُّوحَانِيَّةِ إِلَّا
بِالْبَشَرِيَّةِ. بَلْ إِذَا سَقَطَتِ الْمَعَانِي، سَقَطَتِ الْأَوَانِي، فَلَا كُؤُوانَ ثَابِتَةً بِإِثْبَاتِهِ.
مَمْحُوءَةً بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ. فَلَا بَشَرِيَّةَ وَلَا رُوحَانِيَّةَ. وَإِنَّمَا الْوُجُودُ لِلْفَرْدِ الصَّمَدِ. لَا
شَرِيكَ لَهُ. وَأَنْشُدُوا:

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ فَمَائِمٌ مَوْجُودٌ وَلَا تَمَّ بَائِنٌ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى بَعَيْنِي شَيْئاً غَيْرَهُ إِذْ أَعَايِنُ
تَنْبِيهِ: مَا ذَكَرَهُ النَّاطِمُ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، مِنْ تَشْبِيهِ الْجَذْبِ بِخَمْرِ وَلَا
كَزْمٍ. وَتَشْبِيهِ السُّلُوكِ بِكَزْمٍ وَلَا خَمْرِ. مَثَلُهُ وَقَعَ لِلجَّنِيدِ فِي شَعْرِهِ الْمَشْهُورِ،
حَيْثُ سُئِلَ عَنِ التَّوْحِيدِ، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

رَقَّ الرُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدْخُ وَكَأَنَّمَا قَدْخٌ وَلَا خَمْرُ
فَتَشَبَّهَ الْبَشَرِيَّةُ بِالزَّجَاجَةِ. وَالرُّوحَانِيَّةُ بِالْخَمْرِ. فَإِذَا غَلَبَتِ الرُّوحَانِيَّةُ عَلَى
الْبَشَرِيَّةِ، وَذَلِكَ فِي حَالَةِ الْجَذْبِ، فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدْخُ، إِذَا غَلَبَتِ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى
الرُّوحَانِيَّةِ، وَذَلِكَ يَكُونُ فِي حَالِ السُّلُوكِ، فَكَأَنَّمَا قَدْخٌ وَلَا خَمْرُ. وَقَدْ أَوْضَحْتُ
هَذَا الْمَعْنَى فِي تَأْيِيْتِي الْخَمْرِيَّةِ. فَقُلْتُ:

لِرِقَّةِ خَمْرِ فِي الْأَوَانِي تَلَطَّفَتْ لِلطُّفِّ مَعَانِي الْخَمْرِ فِي أَضْلِ نَشَاتِي
فَطَوْرًا تَغَيَّبَ الْخَمْرُ فِي جِزْمِ كَأْسِهَا وَطَوْرًا تَغَيَّبَ الْكَأْسُ فِي خَمْرِ نَشْوَةِ
وَعُيْبِ الْأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحَقَّقِ فَنَاءِ الْأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ
فَأَشْبَاحُنَا كَأْسٌ وَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ وَسَاقٍ لَهَا جَذْبُ الْعِنَايَةِ حَفَّتْ

والله تعالى أعلم.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلُطْفِ الْأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعُ لِلْطُفِّ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

قُلْتُ: لَطُفَ كَكَرَمٍ. لَطُفًا وَلَطَافَةً: صَغُرَ وَدَقَ؛ فَهُوَ لَطِيفٌ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ. وَسَمَّا الشَّيْءَ سُمُورًا: اِزْتَفَعَ. وَالْأَوَانِي هُنَا: الْكَائِنَاتُ بِأَسْرِهَا. وَالْمَعَانِي: أَسْرَارُ الرُّبُوبِيَّةِ الْقَائِمَةُ بِهَا؛ وَهِيَ الْخُمْرَةُ الْمَتَقَدِّمَةُ. فَأَصْلُهَا لَطِيفَةٌ دَقِيقَةٌ. وَالْأَنْوَارُ الظَّاهِرَةُ حِينَ تَحَسَّسْتَ، صَارَتْ كَثِيفَةً. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ كَثَافَتِهَا. كَانَ جَاهِلًا بِاللَّهِ. مَخْجُوبًا عَنْ شَهِيدِهِ. وَمَنْ نَقَدَ إِلَى بَاطِنِهَا وَجَدَهَا حَامِلَةً لِلْمَعَانِي ظُرُوفًا لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَغَابَ عَنِ الْأَوَانِي، بِشُهُودِ الْمَعَانِي. فَكَانَ عَارِفًا مُقَرَّبًا مَخْجُوبًا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشُّشْتَرِيُّ: لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي، وَخُضْ بِخَرِّ الْمَعَانِي. لَعَلَّكَ تَرَانِي. وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَطَاءِ اللَّهُ السَّكَنْدَرِيُّ فِي الْحُكْمِ: الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غُرَّةٌ. وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ. فَالْنَفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غُرَّتِهَا. وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا. وَتَكْثِيفُ الْأَوَانِي عَارِفٌ. وَالْأَصْلُ فِيهَا اللَّطَافَةُ. إِذِ الْأَوَانِي أَصْلُهَا مَعَانِي. لَكِنْ اسْمُهُ تَعَالَى الظَّاهِرُ، اقْتَفَى ظُهُورَهَا فِي الْحِسِّ فَبَيَّ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالثَّلْجَةِ، بَاطِنُهَا مَاءٌ، وَظَاهِرُهَا ثَلْجٌ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلَانِيُّ فِي عَيْنِيهِ:

وَمَا الْكُونُ فِي الثَّمَالِ إِلَّا كَالثَّلْجَةِ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ تَابِعُ

فَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ وَغَيْرَانِ فِي حُكْمِ دَعْتِهِ الشَّرَائِعُ

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّيْخِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلُطْفِ الْأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ، تَابِعَةٌ لِلطُّوفِ الْمَعَانِي. قَالَ الْمَعَانِي فِي الْحَقِيقَةِ أَصْلُهَا مَعَانِي. وَالْمَعَانِي لَطِيفَةٌ. وَلُطْفُ الْأَوَانِي تَابِعٌ لِلطُّفِّ. وَإِنَّمَا تَكْثُفَتْ وَتَحَسَّسَتْ، فِي حَقِّ مَنْ وَقَفَ مَعَهَا، وَاعْتَزَّ بِزُخْرَفِ ظَاهِرِهَا. وَاشْتَغَلَ بِجِسَّتِهَا، حَتَّى انْطَبَعَتْ صُورُ ظَاهِرِهَا فِي مِرَاةِ قَلْبِهِ. فَعَمِيَ وَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَعَانِي اللَّطِيفَةِ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الْمَعَانِي: كُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ الْحِسِّ زَادَ فِي الْمَعْنَى. وَكُلُّ مَا زَادَ فِي الْحِسِّ نَقَصَ فِي الْمَعْنَى. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: الْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو. أَيُّ بِالطُّفِّ الْأَوَانِي. وَرَدَّهَا إِلَى أَصْلِهَا، تَرْتَفِعُ الْمَعَانِي وَتَسْمُو. وَإِنَّمَا تَنْلُطُّفُ الْأَوَانِي بِالْغَيْبَةِ عَنْ جِسَّتِهَا. وَالْإِعْرَاضِ عَنْ

شَوَاعِلِهَا، وَعَوَائِقُهَا. فَرُغَ قَلْبِكَ مِنَ الْأَغْيَارِ.

تملاه بالمعارف والأسرار.

وَكَتَبَ إِلَيَّ شَيْخُ شَيْخِنَا مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا نَصُّهُ بَعْدَ كَلَامٍ:
وَقُلْ لَهُمْ أَيْضاً: اثْرَكُوا ذُبْلَةَ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِكُمْ، تَتَّقُوا مَعَانِيَكُمْ: أَوْ نَقُولُ
نُورَانِيَّتَكُمْ. إِذْ بِتَقْوِيَةِ الثُّورِ؛ يَتَّقُوا الْيَقِينَ. وَبِتَقْوِيَةِ الْيَقِينَ، تَعْلُو الْهِمَّةُ. وَبِعَلْوِ
الْهِمَّةِ، يَخْضُلُ الْوُضُوءُ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ هـ. وَالدُّبْلَةُ: رَأْسُ الْفَتِيلَةِ حِينَ تَتَرَمَّدُ.
فَإِذَا قَطَعْتَهَا تَشْتَعَشِعُ نُورُهَا. كَذَلِكَ هُمُ الدُّنْيَا. يُطْفِئُ نُورَ الْيَقِينَ مِنَ الْقَلْبِ. فَإِذَا
قَطَعْتَهُ تَشْتَعَشِعُ نُورُهُ.

وَقُلْتُ لِبَعْضِ الْفُقَرَاءِ: مَادَّةُ الْمَعَانِي ثَلَاثَةٌ أُمُورٍ: الْأَوَّلُ الْمَذَاكِرَةُ مَعَ أَهْلِ
الْفَنِّ، وَالْحَلُّ مَعَهُمْ. وَالثَّانِي: الْفِكْرَةُ وَجَوْلَانُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ التَّوْحِيدِ، حَتَّى
تَمْتَحِيَ الْأَكْوَانَ مِنْ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ. وَالثَّالِثُ: ذِكْرُ اللِّسَانِ جَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى؛ وَهُوَ
أَضْعَفُهَا مِنْ جِهَةِ الْإِمْتِدَادِ. وَتَقْوِيَةُ الْمَعَانِي. وَإِنْ كَانَ هُوَ الْبَابُ فِي الدُّخُولِ
إِلَيْهَا. لَكِنْ إِذَا حَصَلَ ذِكْرُ الْقَلْبِ اكْتَفَى عَنْهُ: فَضَعُفُ تَأْثِيرِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفِكْرَةِ.
وَقُلْتُ لَهُمْ: مَادَّةُ الْحَسِّ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ: شُغْلُ الْجَوَارِحِ بِالْحَسِّ فِي طَلَبِ
الْحُظُوظِ. وَالثَّانِي: خَوْفُ اللِّسَانِ فِي الْحَسِّ مَعَ أَهْلِهِ. وَالثَّالِثُ: الْفِكْرَةُ فِيهِ،
وَاشْتِغَالُ الْقَلْبِ بِالْخَوْفِ فِيهِ. فِيهِذِهِ الْمَوَادُّ الثَّلَاثُ، يَتَّقُوا الْحَسَّ. وَتَضَعُفُ
الْمَعَانِي. حَتَّى يَنْطَفِئَ نُورُهَا. نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. قُلْتُ لَهُمْ أَيْضاً: أَرْكَانُ
الْوِلَايَةِ وَمَوَادُّهَا ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ: تَفْرِيقُ الْقَلْبِ مِنَ الْحَسِّ، وَتَعْظِيمُ الشَّيْخِ وَالْأَدَبِ
مَعَهُ. وَدَوَامُ الذِّكْرِ بِالْحَضُورِ. كُلُّ وَاحِدٍ مَا يَلِيقُ بِهِ لِسَانِي أَوْ قَلْبِي أَوْ سِرِّي.
وَقَدْ قُلْتُ فِي ذَلِكَ أَيْتَاتًا وَهِيَ هَذِهِ:

يَا مَنْ يُرِذُّ مَرَاتِبَ الرُّجَالِ	يَفْنَى عَنِ الْحَسِّ فِي كُلِّ حَالٍ
يُفْرِغُ قَلْبَهُ مِنَ الْأَغْيَارِ	يُمْلَأُ بِالْأَنْوَارِ وَالْأَسْرَارِ
يُعَظِّمُ الشَّيْخَ بِصَدَقٍ وَافِرٍ	وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ بِقَلْبٍ حَافِرٍ
فَهَذِهِ مَرَاتِمُ الْوِلَايَةِ	وَمُظْهَرُ الْعِزِّ وَالْعِنَايَةِ

وَسَمِعْتُ صَاحِبَنَا الْعَارِفَ الرَّبَّانِي، سَيِّدِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ الرَّحْمَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: الْحَسُّ هُوَ كُلُّ مَا يَقْوِي مَادَّةَ وَجُودِكَ. وَالْمَعْنَى هُوَ كُلُّ مَا يَفِينِكَ عَنْ

وُجودك. ويغيبك عنك. فالإشغال بِالْحَسَنِ إِذَا كَانَ سَبَبًا فِي تَقْوِيَةِ الْمَعَانِي، كَخِدْمَةِ الْأَشْيَاخِ وَالْإِخْوَانِ. وَكُلُّ مَا يُوْدِي إِلَى تَصْفِيَةِ الْمَعْنَى. كَمَا قَالَ سَيِّدِي عَبْدُ الْوَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خِدْمَةُ الرَّجَالِ، سَبَبُ الْوَصَالِ، لِمَوْلَى الْمَوَالِي. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَا قَبْلَهَا قَبْلُ وَلَا بَعْدَهَا بَعْدُ وَقَبْلِيَّةُ الْأَبْعَادِ فَهِيَ لَهَا خْتَمُ
وَحَضَرُ^(١) الْمَدَى مِنْ قَبْلِهِ كَانَ عَصْرَهَا وَعَهْدُ آبِينَا بَعْدَهَا وَلَهَا الْيَتَمُ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية قديمة باقية، فَلَيْسَ قَبْلَهَا زَمَانٌ يَكُونُ قَبْلًا لَهَا وَلَا بَعْدَهَا زَمَانٌ يَكُونُ بَعْدًا لَهَا. وَالْقَبْلِيَّةُ الَّتِي ثَبَّتَ لَهَا قَبْلَ ظَهْوَرِ الْأَشْيَاءِ؛ وَهِيَ الْأَوَّلِيَّةُ بِلاُ بَدَايَةِ. هِيَ خَتَمُ لَهَا بَعْدَ ظَهْوَرِ الْأَشْيَاءِ؛ وَهِيَ الْآخِرِيَّةُ بِلاُ نِهَايَةِ. فَتَرْتَّبُ الْأَزْمَانُ زَمَانٌ بَعْدَ زَمَانٍ؛ هِيَ سَابِقَةٌ عَلَيْهِ. وَبَاقِيَةٌ بَعْدَهُ. هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَقَبْلِيَّةُ الْأَبْعَادِ هِيَ لَهَا خَتَمُ. أَيَّ وَعْدِ النِّهَايَةِ السَّابِقَةِ عَلَى الْأَكْوَانِ؛ هِيَ خَتَمُ لَهَا بَعْدَ ظَهْوَرِ الْأَكْوَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فَالْأَسْمَاءُ مُتَعَدِّدَةٌ، وَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ؛ وَهِيَ الذَّاتُ الْمُقَدَّسَةُ؛ فَالْأَوَّلُ هُوَ عَيْنُ الْآخِرِ. الْآخِرُ هُوَ عَيْنُ الْأَوَّلِ. وَالظَّاهِرُ هُوَ عَيْنُ الْبَاطِنِ. وَالْبَاطِنُ هُوَ عَيْنُ الظَّاهِرِ. وَإِلَى هَذَا أَشَارَ صَاحِبُ الْعَيْنِيَةِ فَقَالَ:

وَأَبْرَزَ مِنْهُ فِيهِ آثَارَ وَضْفِهِ فَدَلَّكَ بِالْآثَارِ مَا هُوَ صَانِعُ
فَأَوْصَافُهُ وَالْإِسْمُ وَالْآثَرُ الَّذِي هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللَّهُ جَامِعُ
فَمَا تَمَّ شَيْءٌ سِوَى اللَّهِ فِي الْوَرَى وَلَا تَمَّ مَسْمُوعٌ وَلَا تَمَّ سَامِعُ

وقوله: وحضر المدى... الخ يَغْنِي أَنَّ وجود هذه الخمرة، كَانَ قَدِيمًا قَبْلَ حَضَرِ الزَّمَانِ، وَعَدَهُ وَتَرْتِيبَهُ. وَزَمَانٌ وَجُودِ آبِينَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَهْدِ حَيَاتِهِ كَانَ بَعْدَهَا: لِأَنَّ ظَهْوَرَهُ حَادِثٌ. وَوُجُودُهُ قَدِيمٌ. فَثَبَّتَ لَهَا الْيَتَمُ، أَيَّ الْإِنْفِرَادِ، وَالْغِنَى عَنِ الْمَادَّةِ الْقَبْلِيَّةِ وَالْبَعْدِيَّةِ. فَلَيْسَ لَهَا أَبُّ سَابِقٍ عَلَيْهَا. وَلَا وَلَدٌ لَاحِقٌ بَعْدَهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا

(١) وفي نسخة [عصر] بدل [حضر].

أَحَدٌ [الأخلاص: ٧٦٦].

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَحَاسِنُ تَهْدِي الْمَادِحِينَ لَوْصِفِهَا فَيُخَسِّنُ فِيهَا مِنْهُمْ النَّثْرُ وَالنُّظْمُ
وَيَطْرُبُ مَنْ لَمْ يَنْدِرْهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا كَمُشْتَقِ نَعْمٍ كُلَّمَا ذُكِرَتْ نَعْمٌ

قُلْتُ: الطرب: الفرح. ويطلق على الحزن كما في القاموس. يقال: طرب طرباً. كَفَرَحَ فَرَحاً. بالمضارع مفتوح العين. ونَعْمُ بِضَمِّ الْعَيْنِ. اسم امرأة. كَمَا فِي الْقَامُوسِ. وَأَرَادَ هُنَا اسْمَ الْمَحْبُوبَةِ. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأوصاف التي ذكرت للخمرة، هي محاسن لها. تهدي أي تُرشد المَادِحِينَ لَوْصِفِهَا. فَيَمْدَحُونَهَا بِقَدْرِ طَاقِيهِمْ. فَيُخَسِّنُ مِنْهُمْ كُلَّ مَا يَمْدَحُونَهَا بِهِ نَظْماً أَوْ نَثْراً؛ لأنها فوق ما يُقال فيها: فَلَوْ بَقِيَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَمْدَحُونَهَا مَدَّةَ عُمُرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَا بَلَّغُوا مَعَارِ حُسْنِهَا وَبِهَائِهَا. ويفرح عند ذكر هذه الأمواج من لم يعرفها، شوقاً ومحبةً. فكيف لمن يعرفها؛ فهو أَبْ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا. ولكنه مشتاق إليها، كمشتاق محبوبته التي اسْمُهَا نَعْمٌ. فلما ذكرت هذه المحبوبة، اهتَزَّ لَهَا. واشتاق لرؤيتها. وَأَمَّا مَنْ عَرَفَهَا وَاتَّصَلَ بِهَا، وَتَمَكَّنَ مِنْ شُهُودِهَا. فلا يَهْزُهُ سماع مدحها. لقُوَّتِهِ وَتَمَكُّنِهِ؛ فَهُوَ مَالِكٌ لِلْأَحْوَالِ. وليست مالكة له؛ فهو كالجبل الراسي، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَقَالُوا شَرِبْتَ الْإِنَّمْ كُلًّا وَإِنَّمَا شَرِبْتَ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الْإِنَّمْ
قُلْتُ: كَلًّا عِنْدَ النِّحَاةِ حَزَفَ زَجَرٍ وَرَذَعِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال لي العواذل واللؤم: شَرِبْتَ مَا يُوجِبُ لَكَ الْإِنَّمْ؛ لِأَنَّكَ تَسَبَّبْتَ فِي هَتْكَ عِرْضِكَ. وتخريب ظاهرِكَ. وتَلَفَ مَالِكَ. فَقُلْتُ لَهُمْ: كَلَّا. بَلْ شَرِبْتَ الَّتِي فِي تَرْكِ شَرْبِهَا هُوَ الْإِنَّمْ؛ لِأَنَّهَا تُهْدَبُ أَخْلَاقُ النَّدَامَى. فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهَا، لَا يَخْلُو مِنْ ذَنْبٍ. وَلَا يَضْفُو مِنْ غَيْبٍ. ولذلك قال [حجة الإسلام أبو حامد] الْغَزَالِيُّ: عِلْمُ التَّصَوُّفِ قَرَضُ عَيْنٍ. إِذْ لَا يَخْلُو الْإِنْسَانُ مِنَ الْغُيُوبِ. وقال الشيخ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذَلِيُّ: مَنْ لَمْ يَتَغَلَّغَلْ فِي عِلْمِنَا هَذَا؛ مَاتَ مُصِراً عَلَى الْكِبَائِرِ؛ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وقال آخر^(١): مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يَتَّصِفْ فَقَدْ تَفَسَّقَ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. لِمَا وَرَدَ فِي مَذْهِبِ التَّصَوُّفِ وَأَرْبَابِهِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.
ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هَنِيئًا لِأَهْلِ الدِّيَرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَكِنَّهُمْ هُمَا

قلت: الْهَنَى وَالْهَنَاءُ: مَا أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ. هُوَ هَنِي سَائِغٌ. قَالَ فِي الْقَامُوسِ، وَيُعْرَبُ حَالًا عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ وَجُوبًا. أَيُ ثَبَّتَ الْخَيْرُ هَنِيئًا. أَيُ سَهْلًا بِلا مَشَقَّةٍ. وَالذِّيْرُ: الصُّومَةُ الَّتِي يَتَعَبَّدُ فِيهَا الرُّهْبَانُ. فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِأَهْلِ الدِّيَرِ هُنَا: الْعُبَادَ وَالزُّهَادَ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْجِبَالِ. حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ. كَمَا حَبَسَتِ الرُّهْبَانُ أَنْفُسَهُمْ فِي الذِّيُورِ، طَلَبًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ. فَلَمْ يَنَالُوا مِنْهَا شَيْئًا. لَتَرْكُهُمُ الشَّرِيعَةَ الَّتِي هِيَ بَابُ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَدْبَاهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] بِخِلَافِ الْعُبَادِ وَالزُّهَادِ، وَالْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ. قَدْ قَصَدُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ. فَقَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُبَشِّرًا لَهُمْ وَمُغْتَبِطًا لِحَالِهِمْ: هَنِيئًا لِأَهْلِ الدِّيَرِ. أَيُ ثَبَّتَ لَهُمُ الْخَيْرُ الْعَظِيمُ سَهْلًا بِلا مَشَقَّةٍ. فَكَمْ سَكِرُوا بِهَا. أَيُ كَثِيرًا مَا سَكِرُوا بِهَذِهِ الْخَمْرَةِ، حَتَّى تَاهُوا، وَرَفَضُوا الْأَهْلَ وَالْأَوْلَادَ. وَتَرَكُوا الْأَوْطَانَ وَالْبِلَادَ. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَقَعْ لَهُمْ شَرْبُ مِنْهَا. إِذْ لَمْ يَتَّصِلُوا بِأَرْزَابِهَا؛ وَهُمْ الْعَارِفُونَ أَهْلَ التَّريَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. إِذْ لَوْ اتَّصَلُوا بِهِمْ: لَسَكِرُوا فِي مَوْضِعِهِمْ وَبَيْنَ أَوْلَادِهِمْ. وَلَكِنَّهُمْ هُمَا بِشَرِبِهَا، فَتَاهُوا فِي طَلَبِهَا. فَسَكِرُوا قَبْلَ الشُّرْبِ. فَمَا بَالُكَ لَوْ شَرِبُوا. وَمَا بَالُكَ لَوْ زُوُوا مِنْهَا. فَسُكِرَ الْعُبَادُ وَالزُّهَادُ؛ هُوَ الْفِزَارُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، لَغَيْبَتِهِمْ عَنْ شُهُودِ مَكُونِهَا. وَلَوْ شَهِدُوا مَكُونِهَا فِيهَا لَمْ يَفِرُّوا مِنْهَا. قَالَ فِي الْحِكْمِ: إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعُبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. لَغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلَوْ عَرَفُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. مَا اسْتَوْحَشُوا مِنْ شَيْءٍ. هـ. فَسُكِرْهُمْ نَاقِصٌ. بِخِلَافِ مَنْ اتَّصَلَ بِأَهْلِ الْخَمْرَةِ، فَسَقَوْهُ مِنْهَا فَإِنْ سَكِرَ مَمْزُوجٌ بِصَخْوِهِ. فَكُلَّمَا شَرِبَ أَزْدَادَ صَخْوًا. وَكُلَّمَا غَابَ، أَزْدَادَ حُضُورًا. لَا يَحْجِبُهُ صَخْوُهُ عَنْ سُكْرِهِ. وَلَا سُكْرُهُ عَنْ صَخْوِهِ. وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ

(١) هُوَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

قَسَطَهُ.

ويَحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِأَهْلِ الدَّيْرِ؛ الرُّهْبَانَ المنقَطِعِينَ فِيهِ مِنَ النَّصَارَى. أَيْ لَوْلَا الْمَحَبَّةُ الَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ مَا صَبَرُوا عَلَى تِلْكَ الْمَشَاقِّ. مِنَ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ. فَلَوْلَا خَمْرَةُ الْمَحَبَّةِ الَّتِي شَمَتَهَا أَرْوَاحُهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ. مَا انْقَطَعُوا هَذَا الْإِنْقِطَاعَ. فَإِنْ قُلْتُ: لَا يَصِحُّ قَوْلُهُ فِي حَقِّهِمْ هَنِيئًا. إِذْ لَا خَيْرَ عِنْدَهُمْ. قُلْتُ: لِلْعَارِفِينَ نَظَرٌ رَقِيقٌ، يَشْهَدُونَ الْأَنْوَارَ الْبَاطِنَةَ. وَيَغْيِبُونَ عَنِ الظُّلْمَةِ الظَّاهِرَةِ. يَشْهَدُونَ الْقُدْرَةَ، وَيَعْرِفُونَ الْحِكْمَةَ. فَهُمْ كَالْخُلَّةِ، تَزْعَى مِنْ كُلِّ نُوْرٍ. حُلُوًّا أَوْ مُرًّا. وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا الْعَسَلُ الْحُلُوُّ. وَلِذَلِكَ قَالَ شَيْخُ أَشْيَاخِنَا. سَيِّدِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمَجْدُوبُ:

الْخُلُقُ نَوْرٌ وَأَنَا أَزَعْتُ فِيهِمْ
هُمُ الْحُجُبُ الْأَكْبَرُ وَالْمَذْخَلُ فِيهِمْ
وَفِي هَذَا الْمُنْرَعِ يَقُولُ الرَّقَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَأْدَبُ بِبَابِ الدَّيْرِ وَاخْلَعْ بِهِ الثَّغْلَا وَسَلَّمْ عَلَى الرُّهْبَانِ وَاخْطُطْ بِهِمْ ثَغْلَا
وَعَظَمَ بِهِ الْقَيْسِيَّ إِنْ شِئْتَ حَظْوُهُ وَكَبَّرَ بِهِ الشَّمَّاسَ إِنْ شِئْتَ أَنْ ثَغْلَا
وَدُونِكَ أَمْوَاتُ الشَّمَامِينَ فَاسْتَمْعْ لِأَلْحَانِهِمْ وَاخْذَرِكْ أَنْ يَسْلُبُوا الْعَقْلَ
بَدَتْ فِيهِمْ أَقْمَارُ شُمُوسٍ طَوَالِغُ يَطُوفُونَ بِهِ الصُّلْبَانِ وَاخْذَرِكْ أَنْ تَبْلَا
فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْمَعَ لَهُنَّ بِخُلَّةٍ وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعَ لَهُنَّ بِكَ الشُّمْلَا
إِلَى أَنْ قَالَ فِي أَثْنَاءِ الْقَصِيدَةِ:

فَلَمَّا أَتَيْتُ الدَّيْرَ أَمْسَيْتُ سَيِّدَا وَأَصْبَحْتُ مِنْ زُهْدِي أَجْرُ بِهِ الدُّيْلَا
سَأَلْتُ عَنِ الْخَمَارِ أَيْنَ مَحَلُّهُ وَهَلْ لِي سَبِيلٌ لِلْوُصُولِ بِهِ أَمْ لَا
فَقَالَ لِي الْقَيْسِيُّ مَاذَا تُرِيدُهُ فَقُلْتُ أُرِيدُ الْخَمْرَ مِنْ عِنْدِكُمْ أَمْ لَا
فَقَالَ: وَرَأْسِي وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَدِينِي وَلَمْ بِالْدَّمِ تُبَدِّلُهُ بَدْلَا

إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلِلْعَارِفِينَ مَنْرَعٌ غَرِيبٌ، وَنَظَرٌ عَجِيبٌ. لَا يَذُوقُهُ إِلَّا مَنْ صَحِبَهُمْ. وَإِلَّا فَشَأْنُهُ التَّسْلِيمُ. فَإِنْ اغْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، أَضْحَجَ مِنَ الْبُكْمِ الصُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَةَ مِنْ وَرَاءِ الشَّرِيعَةِ؛

الشهوة فيها أقرب وأظهر. ولذلك قال:

بَدَتْ فِيهِمْ أَقْمَارُ شُمُوسِ طَوَالِيعٍ وَلَا يَذُوقُ هَذَا إِلَّا أَزْيَابُ الْفَنِّ
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَعِنْدِي مِنْهَا نَشْوَةٌ قَبْلَ نَشَائِي مَعِيَ أَبَدًا تَبْقَى وَإِنْ بَلِيَ الْعَظْمُ
قلت: النَشْوَةُ: السُّكْرَةُ. يُقَالُ: نَشَأَ نَشْوَةً: سَكَّرَ. قَالَ فِي الْقَامُوسِ. يَقُولُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِنْدِي مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ نَشْوَةٌ لِرُوحِي فِي الْأَزَلِ، قَبْلَ نَشَاةِ
الْبَشَرِيَّةِ. فَمَا ظَهَرَ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ إِلَّا مَا سَبَقَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ. فَلِلرُّوحِ سَكْرَةٌ.
لِمَا عَلِمْتُهُ مِنْ سَبْقِ السَّعَادَةِ، وَالْعِنَايَةِ، قَبْلَ ظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ. ثُمَّ تَبْقَى تِلْكَ النَشْوَةُ لَهَا
بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا هَذِهِ الْبَشَرِيَّةَ الْلطِيفَةَ، وَإِنْ بَقِيَ عَظْمُهَا، وَاضْمَحَلَّ رَسْمُهَا؛ فَإِنَّ الرُّوحَ
لَا فَنَاءَ لَهَا. فَإِذَا فَارَقَتْ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةَ. بَقِيَتْ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ
وَالْعِلْمِ. بَلْ لَمْ تَزَلْ تَتَرَقَّى فِي الْمَقَامَاتِ، كَمَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا سَرْمَدًا. يَمُوتُ
الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ. وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى
الَّذِي قَالَهُ الشَّيْخُ، فِي تَائِيَتِي الْخَمْرِيَّةِ. فَقُلْتُ:

سَكِرْنَا بِهَا قِذَاً وَبَعْدَ نَشَائِي وَفِي النَّشَاةِ الْآخَرَى تَدُومُ مَسَرَّتِي
ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفًا وَإِنْ شِئْتَ مَرْجَهَا فَعَذْلُكَ عَنْ ظَلَمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ
قلت: الصَّرْفُ بِكَسْرِ الصَّادِ: الْخَالِصُ مِنَ الْخَمْرِ وَغَيْرِهَا. قَالَ فِي
الْقَامُوسِ. وَالْمَرْجُ: الْخَلْطُ. وَعَذْلٌ عَنْ كَذَا: انصَرَفَ عَنْهُ. وَالظُّلْمُ، ضَبَطَهَا
بِفَتْحِ الطَّاءِ. وَفَسَرَهُ بِالرِّيقِ. وَقَوْلُهُ فِي الْقَامُوسِ. الظُّلْمُ بِالضَّمِّ: وَقَعَ الشَّيْءُ فِي
غَيْرِ مَحَلِّهِ. وَالْمُضَدَّرُ الْحَقِيقِيُّ: الظُّلْمُ بِالْفَتْحِ، ظَلَمَ يَظْلِمُ ظُلْمًا بِالْفَتْحِ فَهُوَ ظَالِمٌ
وَمُظْلُومٌ. ثُمَّ قَالَ: وَالظُّلْمُ: الثَّلَجُ بِهَذِيلِ الثَّعْلَبِيِّ. وَمَاءُ الْأَسْنَانِ هـ. فَإِنْ أَرَادَ
بِمَاءِ الْأَسْنَانِ الرِّيقَ، وَافَقَ مَا قَالَهُ الْبَغُضُ. وَيَكُونُ حَيْثُذُ كِنَايَةٍ عَنْ خَمْرِ الْمَحَبَّةِ.
لِكُنْهَا بَعِيدَةً لَغَرِبَةِ الْإِنْتِقَالِ، مِنَ الرِّيقِ إِلَى الْخَمْرِ. وَالَّذِي يَظْهَرُ. أَنَّهُ الظُّلْمُ
الْمَعْلُومُ، أَطْلَقَهُ عَلَى التَّصَرُّفَاتِ الْقَهْرِيَّةِ الْجَلَالِيَّةِ. إِذْ لَا سَبِيلَ لَشَرْبِ خَمْرِ

المحبة على الوفاء والصفاء، إلا بعد مرور هذه التصرفات الإلهية عليه. وإلا كَانَ كاذباً. لقول أبي المَوَاهِب: مَنْ ادَّعى شهود الجَمَالِ، قَبْلَ تَأْذِيهِ بِالْجَلَالِ، فَارْضُهُ فَإِنَّهُ دَجَالٌ. فَهُوَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

الْحُبُّ دِينِي فَلَا أَبْغِي بِهِ بَدَلًا وَالْحُسْنُ مِلْكٌ مُطَاعٌ جَارَ أَمِّ عَدَلَا
وَالْتَفْسُ عُرْتُ لَكِنْ فِيكَ أَبْذُلُهَا وَالذُّلُّ مُرٌّ وَلَكِنْ فِي رِضَاكَ حَلَا
يَا مَنْ عَذَابِي عَذَبٌ فِي مَحَبَّتِي لَا أَشْتَكِي مِنْكَ لَا صُدَاً وَلَا مَلَلًا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليك أيها الشارب للخمرة الأزلية بها صِرْفاً. أي صافية، خالصة من السلوك. بل استغرق في تعاطي أسباب شربها، حتى تغيب عن الحسن بالكلية. وإن شئت فامزجها بشيء من السلوك إعطاءً لحق العبودية؛ التي هي كَمَالٌ. فَإِنْ تَعَرَّفَ إِلَيْكَ الْحَقُّ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ الْقَهْرِيَّةِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الشُّرْبِ وَشُرْبُ هَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ. فَعَمَلُكَ عَنْهَا، وَانْصِرَافُكَ عَنْ نِيَرَانِهَا؛ هُوَ الظُّلْمُ الْكَبِيرُ. الْحَقُّ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ: هَاتِ تَسْقِيكَ خَمْرَتِي بِشَمْنِ تَصَرُّفَاتِي. وَأَنْتَ تَهْرَبُ مِنْهُ. الْحَقُّ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَطْوِي عَنْكَ مَسَافَةَ الْبُعْدِ. وَأَنْتَ تَفْرُ مِنْهُ إِلَى الْبُعْدِ. وَفِي الْحُكْمِ: إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَهُ، مِنْ التَّصَرُّفِ، فَلَا تَبَالِي مَعَهَا إِنْ قُلَّ عَمَلُكَ. فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ؛ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ فِيهَا هـ.

وَكَانَ شَيْخٌ شَيْخَنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنَ الْفَقِيرِ يَقُولُ: يَا رَبِّ عَرِّفْنِي بِكَ. فَإِذَا تَعَرَّفَ الْحَقُّ تَعَالَى إِلَيْهِ قَرَّ مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ جَنَّةَ الْمَعَارِفِ؛ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ شُرْبِ الْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ. مَخْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾. [البقرة: ٢١٤] الْآيَةُ: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُلْزَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] الْآيَةُ، فإِطْلَاقُ الشَّيْخِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ ظُلْماً مَجَازً. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَّبُّكَ أَحَدًا﴾. [الكهف: ٤٩] لَكِنْ ذَكَرَ الْحَبِيبُ هُنَا لَيْسَهْلَ هَذَا الْإِطْلَاقِ. إِذْ كُلُّ مَا يَصْدُرُ مِنَ الْحَبِيبِ كُلِّهِ حُلُوٌ مُسْتَعَذَّبٌ. إِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ ظُلْماً. فَبَاطِنُهُ صَوَابٌ وَتَقْرِيبٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَدُونُوكَهَا فِي الْحَانِ وَاسْتَجْلِهَا بِهِ عَلَى نَعْمِ الْأَلْحَانِ فَهِيَ بِهَا عُثْمُ

قُلْتُ: دُونَكَ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى خُذْ. اللَّحْنُ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمَصْنُوعَاتِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى مِيزَانِ الشَّغْرِ. وَالْجَمْعُ أَلْحَانٌ وَلِحُونٌ وَالْعُثْمُ بِالضَّمِّ: الْفَوْزُ بِالشَّيْءِ بِلَا مَشَقَّةٍ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَظْفَرَ بِهَذِهِ الْخَمْرَةِ، فَخُذْهَا مِنْ مَحَلِّهَا. وَاسْتَجْلِهَا مِنْ خَائِنِهَا؛ وَهُوَ الْإِجْتِمَاعُ مَعَ أَزْيَابِهَا. وَالصُّخْبَةُ لَهُمْ. وَالْأَدَبُ مَعَهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ، وَالْمُذَاكِرَةُ فِيهَا مَعَهُمْ. وَإِنْشَادُ الْأَشْعَارِ الَّتِي تَشْتَبِلُ عَلَى ذِكْرِهَا. عَلَى نَعْمٍ حَسَنَةٍ. وَأَلْحَانٌ مُسْتَحْسَنَةٌ؛ فَهِيَ السَّبَبُ فِي الْفَوْزِ بِحَصُولِهَا. وَالظَّفَرُ بِالسُّكْرِ بِهَا. كَأَلْحَانِ الشَّشْتَرِيِّ وَالنَّازِمِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْخَمْرِ أَوْ الْبَحْرِ. وَلِذَلِكَ اتَّخَذَتِ الصُّوفِيَةُ مُنْشَدًا لِيُنْشَدَ فِي حَلَقَةِ الذِّكْرِ وَبَعْدَهَا؛ لِأَنَّهَا تُهَيِّجُ الْحُبَّ. وَتُسْتَجْلِبُ السُّكْرَ. وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ صَيِّتًا عَارِفًا بِصِنَاعَةِ الْإِنْشَادِ. يَذْكُرُ فِي كُلِّ مَحَلٍّ مَا يَنْاسِبُهُ، بِدَايَةٍ وَنَهَايَةٍ. جَذْبًا وَسُلُوكًا. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَمَا سَكَنْتُ وَالْهَمُّ يَوْمًا بِمَوْضِعٍ كَذَلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّعْمِ الْغَمُّ
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ، مَنْ شَرِبَهَا وَسَكَّرَ بِهَا وَتَمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ مَغْرِفَتُهَا. وَأَشْرَقَتْ عَلَى مِرْوَةِ أَنْوَارِهَا. لَا يَسْكُنُ مَعَهَا فِي قَلْبِهِ هَمٌّ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْوُضُولَ إِلَى هَذِهِ الْخَمْرَةِ، هُوَ الْوُضُولُ إِلَى الْحَبِيبِ، وَالْجُلُوسُ فِي بَسَاطِ حَضْرَتِهِ. وَمُشَاهَدَةُ أَنْوَارِ طَلْعَتِهِ. وَمَنْ كَانَ مَعَ الْحَبِيبِ لَا يَغْتَرِبُهُ الْهَمُومُ. وَلَا يَطْرُقُ سَاحَتُهُ الْغُومُ. كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

هَنِيئًا لِمَنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ وَخِلَافَ بِشْرِكَ الْغَيْرِ أَكْرَمَ مَوْرِدِ
نَعِيمٍ بِلَا حَلٍّ لَدَيْهِ مُجَدِّدٍ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَأَيْضًا: لَا تَطْرُقُ الْهَمُومُ وَالْأَحْزَانُ، إِلَّا مَنْ وَجُودِ الْإِنْسَانِ. وَأَمَّا مَنْ تَحَقَّقَ زَوَالُهُ؛ كَانَ أَمْرُهُ كُلُّهُ بِاللَّهِ. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وَالْحَقُّ مُنْزَعٌ عَنِ النَّقَائِصِ. وَإِنْ شُئْتَ قُلْتَ: الْهَمُّ وَالْأَحْزَانُ لَا يَتَصَوَّرَانِ إِلَّا فَقْدَانِ شَيْءٍ أَوْ قَوَاتِهِ. وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ. بَلْ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ كَانَتْ أَوْقَاتُهُ كُلُّهَا مَوَاسِمَ وَأَعْيَادَ. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

الدَّهْرُ لِي مَآثِمٌ إِنْ غَبَتْ يَا أَمَلِي وَالْعَيْدُ مَا كُنْتُ لِي مَرءًا وَمُسْتَعِيمًا

وقال آخر:

قالت: هن العبدَ بالبشرى فقلت لها العيْدُ والبشرى عندي يومَ لُفْيَاكَ

اللَّهُ يَغْلُمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ قَرِحُوا بِهِ وَمَا قَرَحَتِي إِلَّا بِرُؤْيَاكَ

وإن شئت قلت: إنما كانت هذه الخمرة لا يسكن معها ألهم والغم، لأن هذه الخمرة لا تسكن إلا في قلب تقى. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَلَا تَسْكُنْ أَيْضًا. إِلَّا فِي قَلْبٍ مُخْسِنٍ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وَلَا تَسْكُنْ أَيْضًا إِلَّا فِي قَلْبٍ صَبُورٍ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، [الفر: ١٥٣] وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ مَاذَا يَقُوته؟

وإن شئت قلت: إنما تطرق الهموم والغموم، مَنْ عَدِمَ الثَّقةَ بِالْحَيِ الْقَيُومِ. وَأَمَّا مَنْ صَلَحَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ. فَقَدْ كَفَاهُ اللَّهُ رَأَوَاهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٣] وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيَهُ، كَيْفَ تَغْتَرِبُهُ الْهُمُومُ؟

إِنْ شِئْتَ قُلْتَ: إِنَّمَا تَطْرُقُ هَذِهِ الْغُمُومُ. مَنْ عَدِمَ التَّحَقُّقَ بِالْقَضَاءِ الْمَخْتُومِ. وَأَمَّا مَنْ تَحَقَّقَ بِسَابِقِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ. أَرَاخَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ وَالْكَدَرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢] الْآيَةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. [الحديد: ٢٣] حُكِي أَنَّ رَجُلًا فَاقَ حَالَهُ. وَتَعَطَّلَ أَجَلُهُ. فَخَرَجَ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ. وَدَخَلَ الصَّحْرَاءَ، فَوَجَدَ قَصْرًا دَارِسًا مُتَخَرِبًا. قَدْ كَشَفَ الرِّيحُ عَنْهُ الرَّمْلَ. وَفِي حَائِطِ ذَلِكَ الْقَصْرِ، لَوْحٌ مِنَ الرُّخَامِ. مَكْتُوبٌ فِيهِ بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ هَذَا الشَّعْرُ:

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِسًا مُسْتَقْبِلًا أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
مَا لَا يُقْدَرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مَتَعُوبٌ مَخْزُونُ
يَجْرِي الْحَرِيصُ وَلَا يَنَالُ بِحَرْصِهِ شَيْئًا وَيَضْحَى عَاجِزًا مُهِينُ

دَعِ الْهُمُومَ وَتَعَرِّ مِنْ أَثَوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
 هَوْنٌ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا فَأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
 طَرَحَ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مَضْمُونُ
 وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ ظُلُمَاتُ. وَالْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ أَثَوَارُ
 مُشْرِقَاتُ. فَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الظُّلُمَاتُ وَالثُّورُ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْتَمِعُ الْكَآبَةُ وَالسُّرُورُ؟
 وتعبير الشيخ بالسُّكْنَى يَفْتَضِي أَنْ خَطُو الْهَمِّ عَلَى الْقَلْبِ وَمُرُورِهِ عَلَيْهِ. لَا يَنَافِي
 وَجُودُ الْخَمْرَةِ. وَهُوَ كَذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ
 الْأَشْيَاءِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠١] فهذه الآية، تحكّم على أهل
 الْبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ مُحَاطِبًا لِّسَيِّدِ الْعَارِفِينَ. ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ
 مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الاعراف: ٢٠٠] الآية. أَوْ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الطَّيْفَ لَا
 يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ. وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ مَعْصُومًا مِنْ إِصْرَارِهِ، لَكِنْ فِيهِ تَنْبِيْهُ لِبَعْضِهِ.
 وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا وَلَوْ عُمُرُ سَاعَةٍ تَرَى الدَّهْرَ عَبْدًا طَائِعًا وَلَكَ الْحُكْمُ
 يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَفِي سَكْرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَلَوْ سَاعَةٍ مِنَ
 الْعُمُرِ، تَرَى الزَّمَانَ طَائِعًا لَكَ. وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا عِنْدَ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ. وَأَنْتَ حَاكِمٌ
 عَلَيْهَا. مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ السَّكْرَةِ. لِأَنَّكَ حُرٌّ عَنْهَا، غَنِيٌّ بِشُهُودِ مُكُونِهَا. الْأَشْيَاءُ
 كُلُّهَا تَشْتَاقُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ مَوْلَاهَا. أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ. مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمَكُونِ. فَإِذَا
 أَشْهَدْتُهُ، كَانَتْ الْأَكْوَانُ مَعَكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: «اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلَى عَلِيِّ وَعَمَارٍ،
 وَضَهَبِ بِلَالٍ»^(١). وَبِالْجُمْلَةِ، فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الْأَشْيَاءِ كَانَ حُرًّا. وَالْأَشْيَاءُ
 كُلُّهَا عَبِيدُ لَهُ. يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِاللَّيْلِ. مُرَادُهُ مَعَ مُرَادِ مَوْلَاكَ. لَا يَشْتَهِي إِلَّا مَا
 يَقْضِي، وَلَا يُرِيدُ إِلَّا مَا يُرِيدُ. صَارَ الْمَنْعُ عِنْدَهُ عَيْنَ الْعَطَاءِ. وَالذَّلَّ عَيْنَ الْعِزِّ.

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدى من مصادر ومراجع والذي ورد: «اشتأقت الجنة إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان» (رواه الحاكم برقم (٤٦٦٦) (١٤٨/٣) وفي الاستيعاب لابن عبد البر: «اشتأقت الجنة إلى علي وعمار وسلمان وبلال» رضي الله عنهم. [ج/ ١١٣٨].

وَالْفَقْرَ عَيْنَ الْغِنَاءِ. وَالْقَبْضُ عَيْنَ الْبَسْطِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَارِدِ الْأَصْدَادِ. فَلَا يَفْدَحُ فِي حَقِّ الْعَارِفِ تَعَذُّرُ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ، فِي أَمْرِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ. مَتَّعُهُ أَوْ أَعْطَاهُ. وَتَقْيِيدُنَا كَلَامَ الشَّيْخِ. بِوَقْتِ الْخَمْرَةِ لَا بُدَّ مِنْهُ. وَأَمَّا مَنْ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَشَهْوَدِ حِسِّهِ. فَلَا تَبْقَى لَهُ هَذِهِ الْمَرْيَةُ. لَعَلَّيْهَا أَخْكَامُ الْعُبُودِيَةِ عَلَيْهِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

نَحْنُ إِنْ كُنَّا بِهِ دَلَالًا تَهْنَأُ عَنْ سَائِرِ الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ
وَإِنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَيْنَا عَطَّلَ دُلْنَا دُلَّ الْيَهُودِ

فَمَنْ دَامَ سُكْرُهُ فِي الْبَاطِنِ. وَتَحَقَّقَ بَقَاؤُهُ وَفَنَائُؤُهُ. وَسَكَنَ عِنْدَ مَوْلَاهُ، كَانَ خِرًا عَلَى الدَّوَامِ. مَالِكًا عَلَى الدَّوَامِ. وَالْأَشْيَاءُ مَمْلُوكَةٌ لَهُ عَلَى الدَّوَامِ. يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِاللَّهِ. خَلِيفَةً عَنِ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ وَالزَّامِيهِ. مَغْزُولٌ عَنْ رُؤْيَا نَفْسِهِ وَوُجُودِهِ. يَتَظَاهَرُ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ إِلَى سَابِقِ الْقَضَاءِ، فَيَحْكُمُ بِهِ. قَدْ ذَهَبَ رُؤْيَا الْكَوْنِ عَنْ نَظَرِهِ. فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا مَكُونَهَا. فَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ هَكَذَا. يَكُونُ الدَّهْرَ خَادِمًا لَهُ. وَالْأَنَامُ عَبِيدٌ. فَكُلُّ يَوْمٍ عِنْدَهُ الْعَبِيدُ. حَقَّقْنَا اللَّهُ بِهِذَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَ. يَجْلِسُ سَيِّدُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَلَا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ هَاشَ صَاحِبًا وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْرًا بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ
قُلْتُ: الصُّخْرُ: ذَهَابُ الْعَيْنِ، وَالسُّكْرُ. يُقَالُ: صَجِيَ السَّكَرَانُ. كَرَضِي. وَأَضْحَى: ذَهَبَ سُكْرُهُ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ:

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ فَاتَهُ السُّكْرُ بِهَذِهِ الْخَمْرَةِ، وَعَاشَ سَالِكًا مَخْضًا. لَا يَرَى إِلَّا الْأَكْوَانَ. وَلَا يَجُولُ فِكْرَهُ إِلَّا فِيهَا. فَعَيْشُهُ عَيْشُ الْبَهَائِمِ. فَلَا عَيْشَ لَهُ عِنْدَ الْأَكْيَاسِ؛ لِأَنَّ عَيْشَهُ مُكْدَّرٌ. وَرَزَقَهُ مِنَ الْعُلُومِ مُقْتَرٌ. مُسْجُونٌ بِمَحِيطَاتِهِ، مَحْضُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ. لَمْ يَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينَ الْغُيُوبِ. وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قَضَاءِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ. قَدْ بَانَ غَبْنُهُ، وَدَامَ حُزْنُهُ. وَقَدْ قُلْتُ فِي تَائِيْتِي فِي هَذَا الْمَعْنَى:

فَيَا غَبْنَ مَنْ لَمْ يَشْفِ مِنْهَا غَلِيلُهُ لَقَدْ كَسَاكَ الْجِرْمَانُ ثَوْبَ مَذَلَّتِي
وَيَا قَوْرَ مَنْ أَضْحَى لَهَا مُتَضَلِّعًا عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ

هَنِيشًا لَهُ قَالَ أَمْرٌ عِنْدَ مُرَادِهِ وَعَبْدًا يَصِيرُ الدَّهْرُ فِي كُلِّ خِدْمَةٍ
فَمَنْ عَاشَ وَلَمْ يَسْكُرْ مِنْهَا حَتَّى مَاتَ فَقَدْ فَاتَهُ الْحَزْمُ وَكَانَ حَظُّهُ النَّدَمُ
كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَضَلَّ حَظُّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمُّهُ تَسْمُو بِهِ الْهِمَمُ
وَاعْلَمْ أَنَّ الصُّخْرَ عَلَى قِسْمَيْنِ: صَخَوٌ بَعْدَ الشُّكْرِ: وَهَذَا عَيْنُ الْكَمَالِ.
وصحو قبل السكر؛ وهذا هو المذموم؛ لأن صاحبه محجوب عن الله؛ وهو
الذي أَرَادَ الناظم هُنَا، كَمَا أَنَّ السكر على قسمين: سكر يَكُونُ مَعَهُ سلوك أو
بعده. وهذا هو الْكَمَالُ. وسكر لَا يصحبه سلوك معه وَلَا بعده. وَهَذَا نَاقِصٌ؛
لَا يَصْلُحُ للتربية النبوية. كَمَا أَنَّ السُّلُوكَ المَخْض لَا يَصْلُحُ أَيْضًا للتَّزْيِيَةِ. وَمَنْ
سَكِرَ ثُمَّ صَحَا كَانَ شَيْخًا مُرَبِّيًا، كَامِلًا مَكْمَلًا؛ وَهَذَا لَا يَنْقَطِعُ، مَا دَامَ الْجُودُ
قَائِمًا. وَلَا يَقُولُ بِخِلَافِ هَذَا، إِلَّا مَنْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ. نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ
بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ:

ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكْ مَنْ ضَاعَ عُمرُهُ وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلَا سَهْمُ
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ ضَاعَ عُمرُهُ فِي الْبَطَالَةِ وَالتَّقْصِيرِ، وَالتَّخْلِيطِ
وَالْتَكْدِيرِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ خَمْرَةِ الْأَفْرَاحِ قَلِيلٌ وَلَا كَبِيرٌ. فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْكِيَ
عَلَى نَفْسِهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ. وَيَلْتَجِئَ إِلَى الْعَارِفِينَ الْأَطْهَارِ وَالصَّالِحِينَ
الْأَبْرَارِ فَعَسَى أَنْ تَهَبَّ عَلَيْهِ نَفْحَاتُ مِنَ الْكَرِيمِ الْعَفَّارِ. لَعَلَّ يَلْتَحِقَ بِهِمْ،
وَيَنْخَرِطَ فِي سِلْكِهِمْ. وَإِلَّا بَقِيَ مَغْبُونًا عِبَادَتُهُ؛ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْحَسْرِ؛ فَهِيَ قَلِيلَةٌ
فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ، وَصُولُ ثَمَرَتِهَا إِلَى الْقَلْبِ؛ وَهِيَ
خَمْرَةُ الْمَحَبَّةِ. فَمَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْخَمْرَةِ، فَعِبَادَتُهُ وَسِيلَةٌ بِلَا غَايَةٍ. وَلِذَلِكَ
قَالَ الْقُطُبُ بْنُ مَشِيشٍ - نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِهِ - مَنْ ذَلِكَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ. وَمَنْ
ذَلِكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ أَتَعَبَكَ. وَمَنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ. فَالدَّلَالَةُ عَلَى
اللَّهِ، هُوَ تَغْيِيبُ الْعَبْدِ عَمَّا سِوَاهُ، وَنِسْيَانُهُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْخَمْرَةُ
الْمَطْلُوبَةُ. فَعِبَادَةُ أَهْلِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كَثِيرَةٌ فِي الْمَعْنَى. وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً فِي
الْحَسْرِ؛ لِأَنَّ عِبَادَةَ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كُلَّهَا مُضَاعَفَةٌ بِأَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ؛ لِأَنَّهَا بَيْنَ فِكْرَةٍ

ونظرة. وشهود وعبرة. وفي الخبر: «تَفَكَّرُ سَاعَةً أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً»^(١). وَقَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْزِهِ كَأَلْفِ خَجَّةٍ
أي: سنة. وقال الشيخ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَرْزُوقِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوْقَاتُنَا كُلُّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. أَيِ كُلِّ وَقْتٍ عِنْدَنَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. يَشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى. وَقَالَ الْجَنِيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشْرَفَ الْمَجَالِسِ وَأَعْلَاهَا؛ مَعَ الْفِكْرَةِ فِي مِيدَانِ التَّوْحِيدِ، وَالتَّنَسُّمِ بِالْمَعْرِفَةِ. وَالشُّرْبِ بِكَأْسِ الْمَحَبَّةِ، مِنْ بَخْرِ الْوِدَادِ، وَالنَّظَرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى. ثُمَّ قَالَ: يَا لَهَا مِنْ مَجَالِسٍ. مَا أَجْلُهَا! وَمِنْ شَرَابٍ مَا أَلَذُّهُ! طَوْبَى لِمَنْ رَزَقَهُ هـ.

وقال ابن عطية رحمه الله: حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْمَشْرِقِ، قَالَ: كُنْتُ تَائِهًا فِي مَسْجِدِ الْأَقْدَامِ بِمِصْرَ. فَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ. فَرَأَيْتُ رَجُلًا قَدْ اضْطَجَعَ فِي كِسَاءٍ لَهُ. مَسْجِيًّا بِكِسَائِهِ حَتَّى أَصْبَحَ. وَصَلَّيْنَا فِي اللَّيْلَةِ وَسَهَرْنَا. فَلَمَّا أُقِيمَت صَلَاةُ الصُّبْحِ. قَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ. وَصَلَّى مَعَ النَّاسِ، فَاسْتَعْظَمْتُ جُرْأَتَهُ فِي الصَّلَاةِ بِغَيْرِ وُضُوءٍ. فَلَمَّا فَرَغَتِ الصَّلَاةُ، خَرَجَ قَتَبَتُهُ لِأَعْظَمِهِ. فَلَمَّا تَبَعْتَهُ سَمِعْتُهُ يُنْشِدُ:

مُنْسَجِنُ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ مُتَنَبِّهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذَاكِرٌ
مُنْقَبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُتَبَسِّطٌ كَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَارِفًا نَكِرٌ
قال: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِمَّنْ يَغْبُدُ اللَّهُ بِالْفِكْرَةِ. وَقَالَ أَبُو الْحَجَّاجِ الضَّرِيرُ فِي مَنْظُومَتِهِ:

وَالْفِكْرُ فِي عَجَائِبِ الْخَلِيقَةِ مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ فِي الْحَقِيقَةِ
لَأَنَّهُ بِهِ تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ وَإِنَّمَا يَخَافُهُ مَنْ عَرَفَهُ
وقال الششتري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع والذي ورد: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» (المصنوع للهروي [٩٣/١] وفي لفظ: «ستين سنة» وأورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (١٠٠٤) [٣٧٠/١]).

دَعِ السَّيْفَ وَالسُّبْحَةَ وَالسَّجَادَ وَاغْقِدْ سَكِيرَةً مِنْ خَمْرَةِ الْإِفْرَادِ
 أَيِ اتْرَكَ الْجِهَادَ الْحَسِّيَّ وَالْعِبَادَةَ الْحَسِيَّةَ. وَاشْتَغَلَ بِالْعِبَادَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ.
 وَلِلذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: الدُّرَّةُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ. أَفْضَلُ مِنْ أَمْثَالِ الْجِبَالِ
 مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّفَكُّرُ
 نَفْعٌ كُلِّ طَالِبٍ. وَثَمَرَةُ الْوُصُولِ، بِشَرْطِ الْعِلْمِ. فَإِذَا سَلِمَ الْفِكْرُ عَنِ الشَّوَابِ.
 وَزَدَ صَاحِبُهُ عَلَى مَنَاهِلِ التَّحْقِيقِ.

وَفِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ الْحَثِّ عَلَى التَّفَكُّرِ،
 وَالِإِغْتِبَاطِ بِهِ. مَا يَقْلُ بِهِ أَسْفَارُ. وَكَذَلِكَ أَخْبَارُ السَّلَفِ الصَّالِحِ. قَالَ تَعَالَى:
 ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾. [آل عمران: ١٩١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
 [يونس: ١٠١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]،
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. إِلَى غَيْرِ
 ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى. وَلَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الْخِ الْآيَةُ، قَالَ: «وَنُفِّلَ لِمَنْ
 قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا». وَقَالَ ﷺ: «لَا عِبَادَةَ كَالْتَفَكُّرِ». وَسُئِلَتْ زَوْجَةُ أَبِي ذَرٍّ
 عَنْ عِبَادَةِ زَوْجِهَا. فَقَالَتْ: كَانَ نَهَارُهُ أَجْمَعَ فِي نَاحِيَةِ يَتَفَكَّرُ. وَكَذَلِكَ ذَكَرَتْ
 زَوْجَةُ أَبِي بَكْرٍ. قَالَتْ: كَانَ لَيْلُهُ فِي نَاحِيَةِ يَتَفَكَّرُ. وَكَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 يَقُولُ: طَوْبَى لِمَنْ قِيلَ ذِكْرًا. وَصَمْتُهُ تَفَكُّرًا وَنَظَرُهُ عِبْرَةٌ. إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مَنْ
 دَانَ نَفْسَهُ؛ وَعَمِلَ لَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ^(١). وَقَالَ كَعْبٌ: مَنْ أَرَادَ شَرْفَ الْآخِرَةِ،
 فَلْيَكْثِرِ التَّفَكُّرَ. وَقِيلَ لَأُمِّ الدُّرْدَاءِ: مَا كَانَ أَفْضَلَ عَمَلِ أَبِي الدُّرْدَاءِ؟ قَالَتْ:
 التَّفَكُّرُ. وَقِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ: إِنَّكَ تُطِيلُ الْفِكْرَةَ. فَقَالَ: الْفِكْرَةُ مَخُّ الْعَقْلِ.

وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، كَثِيرًا مَا يَتَأَمَّلُ وَيَقُولُ: إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ.
 فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ كَلَامَهُ حِكْمَةً، فَهُوَ لَعُوفٌ.

(١) رَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمَتَدْرِكِ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ
 وَعَمِلَ لَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ». حَدِيثٌ رَقْمُ (١٩١)
 [١٢٥/١] وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، بَابُ ٢٥ بِرَقْمِ (٢٤٥٩) [٤/٣٣٨] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سَكَوتُهُ تَفْكَراً؛ فَهُوَ سَهْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ نَظَرُهُ اغْتِبَاراً، فَهُوَ لَهْوٌ.
وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي أَمْنَعُ قُلُوبَهُمُ التَّفَكِيرَ فِي أَمْرِي.

وَكَانَ لَقْمَانُ يُطِيلُ الْجُلُوسَ وَخُدَهُ. فَيَمُرُّ بِهِ مَوْلَاهُ. فيقول له: يا لقمان.
إنك تطيل الجلوس وحدك. فَلَوْ جَلَسْتَ مَعَ النَّاسِ، كَانَ أَتْسَرَ لَكَ. فيقول
لقمان: إن أطول الوحدة أَتَمُّ لِلْفِكْرَةِ.

وقال في الحكم: ما نفع الْقَلْبَ شيءٌ مثل عَزْلَةٍ، يَدْخُلُ بِهَا مِيدَانُ وَفِكْرَةٍ.
وقال أيضاً: الْفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ. فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ. وقال أيضاً: الْفِكْرَةُ
فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ. وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ. فالأَوَّلُ لِأَرْبَابِ الْاِغْتِبَارِ.
والثانية: لِأَرْبَابِ الشُّهُودِ، وَالِاسْتِبْصَارِ. فِكْرَةُ أَهْلِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ؛ هِيَ الَّتِي
تَسْتَلْزِمُ الْخَمْرَةَ؛ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ عِنْدَ الْعَارِفِينَ. وَهِيَ الَّتِي تَعَادِلُ أَلْفَ سَنَةٍ.
وَقَدْ مَنَّا خَيْرَ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. فَمَنْ فَقَدَهَا فَلَا عَيْشَ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَحَقٌّ عَلَى
نَفْسِهِ الْبُكَاءُ. وَمَنْ ظَفَرَ بِهَا وَنَالَهَا يَحِقُّ لَهُ الْهَنَاءُ. وَفِي أَمْثَالِهِ قَالَ الْقَائِلُ:

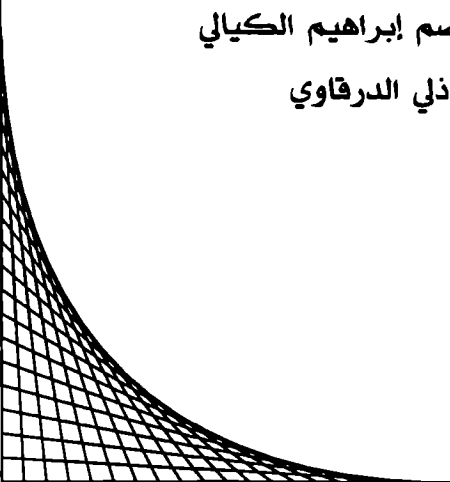
هُمُ الرِّجَالُ وَعَيْنُ لِمَنْ أَنْ يُقَالَ لَمْ يَتَصِفْ بِمَعَانِي فِي وَضْفِهِمْ رَجُلٌ
حَقَّقْنَا اللَّهُ بِمَا حَقَّقَهُمْ بِهِ. وَأَتَحَفَّنَا بِمَا أَتَحَفَّهُمْ بِهِ. آمِينَ. وسلام على
الْمُرْسَلِينَ. والحمد لله رب الْعَالَمِينَ.

هَذَا آخِرُ مَا قَصَدْنَا جَمْعَهُ عَلَى الْقَصِيدَةِ الْخَمْرِيَةِ الْفَرْضِيَّةِ: عَلَى يَدِ عَبْدِ
رَبِّهِ، أَقْلُ عَبِيدِهِ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَجِيَّةِ الْحَسَنِيِّ.

شرح نونية الإمام الششتري
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ. الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَدْ تَنَزَّهَتْ أَحَدِيَّتُهُ عَنْ مُزَاحِمَةِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ. وَتَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ ذَاتِهِ عَنْ وَفْقِ الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى قُطْبِ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ وَسَيِّدِ الْأَسْيَادِ، الَّذِي مِنْ نَوْرِ فَيْضِهِ الْأَوَّلِ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ الْإِبْجَادِ وَالْإِمْدَادِ، سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدُ الْمَبْعُوثِ بِالْعِزِّ الدَّائِمِ وَالشَّرَفِ الْفَاجِرِ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ.

وَيَعْدُ: فهذا شرح عجيب لنونية الإمام المحقق بحر زمانه. وفريد عصره وأوانه. إمام أهل الأذواق والوجدان. وقطب أهل التوحيد والعرفان أبي الحسن علي بن عبد الله الششتري. وَقَدْ سَبَقَ إِلَى شَرْحِهَا الْعَلَامَةُ الصُّوفِي، سَيِّدِي أَحْمَدُ زُرُوق. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى حَلِّ الْفَاطِهَا، وَبَيَّنَّ مَا انْغَلَقَ مِنْ بَعْضِ مَعَانِيهَا. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَخُضْ فِي تَيَّارِ بَحْرِ أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ مِنْهَا؛ عَلَى غَوَامِضِ أَنْوَارِهَا. وَلَا فَضَّ خَائِمِ أَسْرَارِهَا، وَلَا دَخَلَ بَعْرَائِسِ أَبْكَارِهَا. وَلَعَلَّهُ شَرَحَهَا قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ فِي أَسْرَارِ الْحَقِيقَةِ. فَقَدْ كَانَ شَيْخُ شَيْوَخِنَا سَيِّدِي عَلِيُّ الْعِمْرَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَا فَتَحَ عَلَى الشَّيْخِ زُرُوقَ إِلَّا فِي آخِرِ عُمُرِهِ. أَيْ بَحِيثٌ لَمْ يُولَفْ شَيْئًا بَعْدَ الْفَتْحِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكِتَابُهُ شَاهِدُهُ بِذَلِكَ. إِذِ الْكَلَامُ وَضْفُ الْمُتَكَلِّمِ. وَمَنْ تَكَلَّمَ عَرَفَ مِنْ سَاعَتِهِ. فَهُوَ فِي عُلُومِ الطَّرِيقَةِ إِمَامٌ. وَأَمَّا فِي عُلُومِ الْحَقِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْأَذْوَاقِ فَلَمْ يَتَلَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَكَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا صِفْرَ الْيَدَيْنِ. وَلِذَلِكَ كَثُرَ اغْتِرَاضُهُ عَلَى أَهْلِ اللَّهِ. وَظَهَرَ فِي كَلَامِهِ التَّشْدِيدُ وَالتَّضْيِيقُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي نَوْمِ كَالْيَقْظَةِ. فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ شَدَدْتُ عَلَى

أهل الله. في عدة مُريدِينَ فقال: وَمَا قُلْتُ فيها؟ فقلت له: قلت كذا كذا. وذكرْتُ له بعض ما انتقد عليهم. وما شدد فيها. فقال: ذَلِكَ الَّذِي يُنَاسِبُ مَذْهَبَ مَالِكٍ. فَقُلْتُ له: الصوفي الحقيقي لَا يُقْلَدُ مَالِكاً وَلَا غَيْرَهُ بل يأخذ الشريعة مِن أَصلِهَا. والحقيقة من مَعْدِنِهَا. فقال مَن بَلَغَ هذا، أَوْ صَحِبَ مَن بَلَغَهُ وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَهُ فقلت: وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغْتَاهُ. وَصَحِبْنَا مَن بَلَغَهُ. فغَاب عَنِّي.

وَكَانَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ يَقُولُ: الشيخ زروق مُحْتَسِبُ الصوفية. قُلْتُ: إِنَّمَا يَكُونُ مُحْتَسِبُ صوفية الظَّاهِرِ؛ أَهْلُ الْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ. وَالتَّنَسُّكِ الظَّاهِرِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْبَاطِنِ أَهْلُ التَّزْيِيَةِ. فَلَا اخْتِسَابَ لَهُ عَلَيْهِمْ. إِذْ لَمْ يُحِطْ عِلْماً بِمَا عِنْدَهُمْ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَ مَشَايخِ التَّزْيِيَةِ فِي زَمَانِنَا: مَوْلَايَ الْعَزْبِي الدَّرَقَاوِي الْحَسِينِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

الشَّيْخُ زُرُوقُ عِنْدَ أَهْلِ الظَّاهِرِ شَيْءٌ كَبِيرٌ. وَعِنْدَ أَهْلِ الْبَاطِنِ شَيْءٌ صَغِيرٌ. وَأَهْلُ مَكَّةَ أَغْرَفَ بِشِعَابِهَا.

لَا يَغْرِفُ الشُّوقُ إِلَّا مِنْ يُكَابِدُهُ. وَلَا الصَّبَابَةُ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا. وَمَرَاتِبُ الْأَوْلِيَاءِ، كَطَبَقَاتِ الْجَنَانِ. الْأَعْلَى يَغْرِفُ الْأَسْفَلَ. دُونَ الْعَكْسِ. وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

ترجمة الشيخ الششتري

قال في أَوَّلِ شَرْحِهِ لهذه القصيدة في التعريف بالشيخ: وَأَمَّا الشَّيْخُ فَهُوَ الْأُسْتَاذُ الْفَقِيهَ، الْمُقَرَّرُ الْمَحْدُوثُ. الصوفي العالم، العامل الكامل المحقق المدقق. أَبُو الْحَسَنِ عَلِي بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيرِي، ثُمَّ الشُّشْتَرِيُّ بِمَعْجَمَتَيْنِ. أُولَاهُمَا مَضْمُومَةٌ. وَبَعْدُهَا تَاءٌ فَوْقِيَّةٌ. كَذَلِكَ نَسْبَةٌ إِلَى شُشْتَرٍ. قَزِيَّةٌ بِالْأَنْدَلَسِ. عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ لَوْشَةٍ. وَبِالْعِرَاقِ أَيْضاً قَرْيَةٌ تَسْمَى بِذَلِكَ. قَالَ ابْنُ لَيْوَنَ: كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْراءِ، فَصَارَ مِنْ سَادَةِ الْفُقَهَاءِ. وَكَانَ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ بِالزَّوَايَاتِ. وَكَانَ عَارِفاً بِالْأَصُولِ السُّنَّةِ. وَأَنْوَاعِ الزَّوَاةِ. وَقَالَ الطَّوَامُ: كَانَ مِنَ التُّجَّارِ الشُّفَّارِ. ثُمَّ صَارَ مِنَ الشُّيُوخِ الْأَبْرَارِ. قَرَأَ الرَّأْيَ، أَيِ الْفَقْهِ ثُمَّ تَصَوَّفَ وَالتَّزَمَ طَرِيقَهُ فَمَا تَشَوَّفَ. وَكَانَ ذَا عَزْمَةٍ وَهَمَّةٍ. مَعَ مِشَارَكَةٍ فِي عُلُومِ جَمَّةٍ.

نَزَلَ طَرَابِلُسَ، فَأَخَذَ عَنْ أَهْلِهَا عِلْماً. ثُمَّ عَرَّضُوا عَلَيْهِ قَضَاءَهَا. فَلَمْ

يوافق عليه، وَلَا مَقَامَ حَوْلَهُ. فاستحمله. فقال في ذلك:

رَضِيَ الْمُتَيَّمُ فِي الْهَوَى بِجُنُونِهِ خَلَّوهُ يَفْنِي عُمْرَهُ فِي فُتُونِهِ
لَا تَغْذِلُوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَذْلُكُمْ لَيْسَ السُّلُوءُ عَنِ الْهَوَى مِنْ دِينِهِ
قَسَمًا بِمَنْ ذَكَرَ الْعَقِيقَ مِنْ أَجْلِهِ قَسَمَ الْمُحِبُّ بِحُبِّهِ وَيَمِينِهِ
مَالِي سِوَاكُمْ غَيْرَ أَنِّي تَائِبٌ مِنْ فَتْرَةٍ فِي الْحَبِّ أَوْ تَلْوِينِهِ
مَالِي إِذَا هَتَفَ الْحَمَامُ بِأَيْلَةٍ أَبَدًا أَحَنُّ لِشَجْوِهِ وَشُجُونِهِ
وَإِذَا الْبُكَاءُ بِغَيْرِ دَمْعٍ دَابَّهُ فَالضَّبُّ تَجْرِي دَمْعُهُ بِغُيُونِهِ

وإنما أَتَشَدَّ القصيدة اغْتِزَازًا عَنْ إغْرَاضِهِ عَنِ الْقَضَاءِ. وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَمْ أَتْرَكْهُ زُهْدًا فِيهِ. وَلَا رَغْبَةً عَنِ الشَّرِيعَةِ. إِلَّا أَنَّهُ يُوجِبُ التَّشْتِيتِ وَالتَّلْوِينَ. هَذَا ظَاهِرُ كَلَامِهِ. قَالَ الطَّوَامُ. كَانَ يَجِيزُ فِي الْمُتَصَفَّى وَالمَجْهَلِ؛ وَلَهُ طَرِيقَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْمَقَامَاتِ. وَلِكَلَامِهِ عُذُوبَةٌ. وَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ مَصْحُوبَةٌ، ثُمَّ قَالَ: وَكَانَ يُزَمُّ بِمَذْهَبِ شَيْخِهِ الْإِمَامِ الْوَلِيِّ الْكَامِلِ الْمُحَقِّقِ سَيِّدِي عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ سَبْعِينَ ثُمَّ حَمَلَ عَلَى الرَّجُوعِ عَنْهُ فِي حِكَايَةِ وَقَعَتْ لَهُ بِبَجَايَةِ. وَالَّذِي كَانَ يُزَمُّ ابْنُ سَبْعِينَ هَذَا الْقَوْلُ بِالْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْمِيلِ إِلَى الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ. مُعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ؛ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَالتَّمَسُّكِ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ. وَإِنْ كَانَتْ لَهُ ظَوَاهِرُ تَقْتَضِي ذَلِكَ. فَالْوَاجِبُ أَنْ يُوَكَّلَ عِلْمُهَا إِلَيْهِمْ. وَتَأَوَّلَ بِالْوَجْهِ الصَّحِيحِ عَلَيْهِمْ. وَالتَّنْسِلِيمِ أَنْجَى وَأَسْلَمَ. فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَرِّي الْفَقِيهَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ: الْإِعْتِقَادُ وَلَايَةٌ. وَالْإِنْتِقَادُ جِنَايَةٌ. فَإِنْ عَرَفْتَ فَاتَّبِعْ. وَإِنْ جَهِلْتَ فَسَلِّمْ.

وَسُئِلَ الشَّيْخُ الْغُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فَقَالَ: أَعَرَفْتُ بِكُلِّ فَنٍّ مِنْ أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ. قِيلَ: مَا سَأَلْنَاكَ عَنْ هَذَا. فَقَالَ: اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْقُطْبَانِيَةِ قِيلَ لَهُ: مَاذَا تُرَجِّحُ؟ قَالَ: التَّنْسِلِيمُ. وَأَخَذَ يَسْتَدِلُّ لَهُ.

وَسُئِلَ التَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فَقَالَ: الْكَلَامُ كَلَامُ صُوفِي. وَ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ [البقرة: ١٣٤] وَقَالَ الْقَرَّافِيُّ فِي أَجْوِبَتِهِ يَعْدُ نَقْلَ كَلَامِ النَّاسِ فِيهِ: الْأُولَى

أَنْ يُخَكِّمَ عَلَى الْكَلَامِ فَيَقَالَ: هَذَا الْكَلَامُ يَقْضِي كَذَا. وَيَدُلُّ عَلَى كَذَا. وَيُنَكِّرُ مِنْ كَذَا. وَلَا يَتَعَرَّضُ لِتَكْفِيرِ صَاحِبِهِ لِاخْتِمَالِ رَجُوعِهِ عَنْهُ. لَا سِيَّمًا وَقَدْ كَانَ عَالِمًا بِالسُّنَنِ وَالْأَثَرِ وَفِي كَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى اقْتِدَاءٍ كَثِيرٍ. هَذَا مَعْنَى كَلَامِهِ. وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُورِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْغَلَطُ فِي إِدْخَالِ أَلْفٍ كَافِرٍ بِشُبْهَةٍ. وَلَا الْغَلَطُ فِي إِخْرَاجِ مُسْلِمٍ وَاحِدٍ بِأَلْفٍ شُبْهَةٍ كُفْرٍ. نَقَلَهُ عَنْهُ عِيَّاضٌ فِي الشِّفَاءِ. انْتَهَى كَلَامُ زُرُوقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أسباب انتقاد أهل الباطن

قُلْتُ: وَسَبَبُ انتِقَادِ أَهْلِ الظَّاهِرِ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِنِ. أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِنِ لَمَّا اسْتَشْرَفُوا عَلَى بِحَارِ رَوَاجِرِ التَّوْحِيدِ الْخَامِ. رَاحَ بَعْضُهُمْ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ فَضَاقَتْ عِبَارَتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ. فَفَهِمُوا مِنْهَا غَيْرَ مَا أَرَادُوهُ فَرَمَوْا بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ. مَعَ تَنْزِهِمُ عَنْهُ. وَذَلِكَ كَابِنِ الْعَرَبِيِّ. وَالشَّشْتَرِيِّ وَابْنِ الْفَارَاضِ وَأَضْرَابِهِمْ. وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ لَا تَدْرِكُ بِالْعِبَارَةِ. وَإِنَّمَا تَنَالُ بِالصَّحْبَةِ وَالسَّرَايَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِإِشَارَةِ رَقِيقَةٍ. وَعِبَارَةٌ دَقِيقَةٍ. غَطَّاهَا بِنُوعٍ مِنَ التَّشْرِيعِ. فَقَبِلَ مِنْهُ. وَأَقْبَرَ فِي مَحَلِّهِ. كَابِنِ عَطَاءِ اللَّهِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَشْيَاخِهِ: الْمُزْبِسِيِّ. وَالشَّاذَلِيِّ. وَابْنِ مَشِيشٍ. فَسَلَمُوا مِنَ الْإِنْتِقَادِ عَلَيْهِمْ. وَكُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. هـ.

وَلَتَرْجِعَ لِمَا كُنَّا فِيهِ مِنْ تَعْرِيفِ الشَّيْخِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الشَّشْتَرِيَّ أَلْفَ كِتَابٍ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى. وَكِتَابُ الْمَقَالِيدِ الْوُجُودِيَّةِ. وَكِتَابُ الرِّسَالَةِ الْعِلْمِيَّةِ؛ وَهِيَ الَّتِي اخْتَصَرَهَا ابْنُ لَيْوَنَ التَّجْبِيئِيُّ فِي الْإِقَالَةِ. فِي الْإِنْتِقَادِ لِلطَّائِفَةِ الصُّوفِيَّةِ. وَلَهُ مَقْطَعَاتُ وَأَزْجَالُ فِي الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ. قَالَ ابْنُ لَيْوَنَ: دُفِنَ الشَّشْتَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالطَّيْنَةِ. عَنْ مَقَرَّةٍ مِنْ دُمِيَّاطٍ. وَقَدْ مَدَّتْ دُونَهَا بِشَمَانِيَّةٍ عَشْرَ مِيَلٍ. فَحَمَلَهُ الْفُقَرَاءُ عَلَى أَغْنَاقِهِمْ حَتَّى وَصَلُوهُ إِلَيْهَا. وَقَدْ سُئِلَ قَرَبَ ذَلِكَ: مَنْ الْفَقِيرُ؟ فَقَالَ: الَّذِي يَمُشِي بَعْدَ مَوْتِهِ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مِيَلًا. فَكَانَ كَمَا ذَكَرَ وَذَلِكَ سَنَةَ ثَمَانِيَةَ وَسِتِّينَ وَسِتْمِائَةَ ٦٦٨ هـ كَمَا ذَكَرَهُ الطَّوَامُ. قُلْتُ: فَكَانَ فِي عَصْرِ الشَّاذَلِيِّ وَتَأَخَّرَ مَوْتُهُ عَنْهُ بِنَحْوِ اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً.

قَالَ الشَّيْخُ زُرُوقٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَمَّا هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فَقَدْ اخْتَوَتْ عَلَى

مقاصد طريق العارفين . وتعريف أحوال الرِّجَالِ . وقد جزَّأها ثلاثة أجزاء : الجزء الأول في تعيين المطلوب وما يطلب به ، وما يقوم فيه . وَوَجْه المعاملة في ذلك نفيًا وإثباتًا . وهذا من أولها إلى قَوْلِهِ : أَمَامَكَ هَؤُلَ فاسْتَمِعْ لوصيتي . الجزء الثاني من هُنَا إلى قوله : فَكَمْ واقِفٍ أزدَى . وقد ذكر فيه آيات العَقْلِ . وتطويره بالمحاسن والقبائح . وما يعرف فيه . الجزء الثالث : في الأمور التي اكتسبها العَقْل لذويه من نَقْص أو كَمَالٍ أو تَضَمُّن ذلك تعريف جماعة من الرِّجَالِ وسيُذكر كلُّ في مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ :

وَهَذَا أَوَّلُ الْقَصِيدَةِ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَرَى طَالِباً مِنَّا الزِّيَادَةَ لَا الْحُسْنَى بِفِكْرِ رَمَى سَهْمًا فَعَدَى بِهِ عَدَنَّا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَرَى طَالِباً مِنَّا مَعَاشِرَ الصُّوفِيَةِ. بِسِيرِهِ وَمَجَاهِدَتِهِ، وَإِحْسَانِهِ فِي مَعَامِلَتِهِ. إِنَّمَا هُوَ الزِّيَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتًى زَيْدًا﴾ [يونس: ٢٦] لَا الْحُسْنَى الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ؛ الَّتِي فَسَّرَتْ بِهَا الْحُسْنَى. وَالزِّيَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ، هِيَ النَّظَرُ فِي وَجْهِهِ الْكَرِيمِ. وَدَوَامُ شَهْوَدِهِ. أَوْ الْمَعْرِفَةُ. وَزِيَادَةُ التَّرْقِي فِيهَا أَبَدًا سَرْمَدًا. وَإِنَّمَا كَانَ مَطْلَبُهُمْ ذَلِكَ لِمَسْكِهِمْ. وَرَفَعِيهَا عَنِ الْاِكْوَانِ بِأَسْرَهَا. فَالْجَنَّةُ كَوْنٌ مِنَ الْاِكْوَانِ. فَمَنْ رَحَلَ بِقَلْبِهِ عَنِ الدُّنْيَا. وَطَلَبَ الْجَنَّةَ وَزَخَّارَفَهَا. فَقَدْ رَحَلَ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَيَكُونُ كَحِمَارِ الرَّحَى مَا انْتَقَلَ عَنْهُ. هُوَ الَّذِي حَارَ إِلَيْهِ. وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الرَّحِيلُ مِنَ الْكُونِ إِلَى الْمَكُونِ. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُتَّهِنُ ۝١٧﴾. [النجم: ٤٢] قَالَ أَبُو مَدِينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ هِمَّتُهُ الْحُورُ وَالْقُصُورُ وَبَيْنَ مَنْ هِمَّتُهُ رَفْعُ السُّتُورِ، وَدَوَامُ الْحُضُورِ وَقَدْ مَدَحَ الْحَقُّ تَعَالَى أَهْلَ الصُّفَّةِ بِقَوْلِهِ: «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» أَيِ ذَاتِهِ. فَكَانَتْ عِبَادَتُهُمْ لِإِرَادَةِ مَعْرِفَةِ ذَاتِهِ. كَذَلِكَ الصُّوفِيَةُ بَرَفَعِ هِمَّتِهِمْ. لَا يُزَوِّمُونَ إِلَّا مَعْرِفَةَ الذَّاتِ، وَكَشَفَ الْحِجَابَ عَنْهَا. وَإِنَّمَا طَلَبُوا الزِّيَادَةَ الْمَذْكُورَةَ بِفِكْرِ دَلْهِمْ عَلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا أَرْفَعُ الْمَطَالِبِ فَكَانَتْ بِمِثَابَةِ قَوْسٍ رَمَى سَهْمًا؛ وَهُوَ نَظَرُهُ السَّيِّدِ. وَأَمَلَهُ الْمَدِيدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَجُولُ بِهِ حَتَّى انْتَهَى بِهِ لِأَرْفَعِ الْمَطَالِبِ، وَأَسْنَى الْمَارَبِ؛ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الذَّاتِ وَشَهْوَدُهَا. فَعَدَى بِتَشْدِيدِ الدَّالِيِّ. أَيِ جَاوَزَ بِذَلِكَ النَّظَرَ. عَدَنَّا: أَيِ جَنَّةٍ عَدَنٍ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا. وَلَا قَصَرَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا. بَلْ جَاوَزَ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا. إِنَّمَا مَقْصُودُهُ شَهُودَ الْحَبِيبِ؛ الَّذِي هُوَ نَعِيمُ الْأَرْوَاحِ: لَا

الجئة التي هي نعيم الأشباح. وفي ذلك يقول ابن الفارض:

لَيْسَ سُوْلِي مِنَ الْجَنَانِ نَعِيماً غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُهَا لِأَرَاكَ
وَلَا يَلْزُمُ مِنْ مَسْكَ الِهْمَّةِ عَنِ الشَّيْءِ، اختصار ما سَمَت عنه؛ لَأَنَّ اللَّهَ
عَظَّمَ شَأْنَ الْجَنَّةِ، وَأَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ مَعَامِلَتَهُمْ لَيْسَتْ فِي مُقَابَلَةِ
ذَلِكَ. إِنَّمَا هِيَ عِبُودِيَّةٌ وَمُحَبَّةٌ. وَطَلَبٌ لِمَا هُوَ أَوْلَى وَأَعْظَم. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَمَّا
كَانَ مَطْلِبُهُمْ رَفَعَ الِهْمَّةَ عَنِ الْكَوْنَيْنِ؛ وَهُمَا مِنْ جُمْلَةِ السَّوَى الْبَاطِلِ. كَمَا قَالَ
الشاعر ليبد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ^(١) وَكُلُّ نَعِيمٍ لَأَمَحَالَةٍ زَائِلُ
تَحَقَّقُوا بِالْحَقِّ. وَصَارُوا مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ فَعَبَّرُوا بِهِ عَنْ ذَاتِ الْحَقِّ. فَجَرَى
فِي مُخَاطَبَتِهِمْ اسْمَ الْحَقِّ. فَيَقُولُونَ: قَالَ الْحَقُّ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ
فِي مُحَاوَرَتِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ كَوْنَ الْمَطْلُوبِ هُوَ عَيْنُ الطَّالِبِ فِي
الْحَقِيقَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنَاءِ فَقَالَ:

طَالِبُنَا مَطْلُوبُنَا مِنْ وَجُودِنَا نَغِيبُ بِهِ عَنَّا لَدَى الطَّعْنِ إِذْ عَنَا
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَطَالِبُنَا. أَيِ وَالطَّالِبُ مِثْلُ تِلْكَ الزِّيَادَةِ الَّتِي هِيَ
الْمَعْرِفَةُ. هُوَ عَيْنُ مَطْلُوبِنَا. إِذْ لَيْسَ الْأَمْرُ خَارِجاً عَنْ ذَاتِنَا عِنْدَ تَحْقِيقِ الْفَنَاءِ.
فَالطَّالِبُ هُوَ الْمَطْلُوبُ وَالْمَطْلُوبُ هُوَ الطَّالِبُ فِي الْحَقِيقَةِ. إِذَا لَا إِثْنِيَّةَ، وَلَا
غَيْرِيَّةَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ:
لَقَدْ أَنَا شَيْءٌ عَجِيبٌ لِمَنْ تَرَانِي أَنَا الْمُحِبُّ وَالْحَبِيبُ مَا تَمُّ ثَانِي
يَا طَالِباً عَيْنَ الْخَبَرِ غِطَاهُ أَيْتُكَ الْخَمْرُ مِنْكَ وَالْخَبَرُ وَالسُّرُّ عِنْدَكَ
ارْجِعْ بِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ مَا تَمُّ غَيْرُكَ

وقال آخر:

(١) حديث الشريف رواه البخاري في أبواب عدة منها: باب أيام الجاهلية، حديث رقم (٣٦٢٨) [١٣٩٥/٣] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (٢٢٥٦) [٤/١٧٦٨] ورواه غيرهما. ونص رواية البخاري هو: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة ليبد
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»

لَا تَظُنُّ الْأَمْرَ عَنْكَ خَارِجاً هُوَ ذَوْقٌ لَمْ تُشْرَبْ لَمْ رَيَّ
وقال آخر:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
وليس هُنَا حُلُولٌ وَلَا اتِّحَادٌ؛ لنفي الغيرية والإنينية، حَتَّى يَتَّحِدَ بِالْآخِرِ.
كَأَنَّ اللَّهَ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ^(١). «فَيَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ
الوجود فِي الْعَدَمِ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَضْفُ الْقِدَمِ^(٢)». وقول
الشاعر:

نحن رُوحَانِ: أشار به إلى الرُّوحِ التي هي المَعْنَى الْقَائِمَةُ بِالأَشْيَاءِ. فَبِهي
قَائِمَةٌ بِالرُّوحِ. وَالرُّوحُ قَائِمَةٌ بِالْجِسْمِ. الْجِسْمُ مِنْ تَجَلِيَّاتِ الْحَقِّ تَجَلَى بِهِ وَبَطَّنَ
بَعْدَ تَجَلِيهِ: بما أظهر فيه مِنْ أوصافِ الْعُبُودِيَّةِ؛ ليتحقق فيه اسْمُهُ الظَّاهِرُ، واسْمُهُ
الْبَاطِنُ. ففِي الْحَقِيقَةِ لَا وُجُودَ لِلْعَبْدِ أَصْلًا. وَإِنَّمَا تُثَبِّتُ الْعَبْدَ فِي عَالَمِ الْفَرْقِ
جُحْمَةً. وَتَنْفِيهِ فِي عَالَمِ الْجَمْعِ قُدْرَةً. فَإِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْعَبْدِ الْجَذْبُ وَالْفَنَاءُ
أَصْلًا غَابَ عَنْ مَقَامِ الْفَرْقِ فَلَا عَبْدَ أَصْلًا؛ وصار الطالب عَيْنَ الْمَطْلُوبِ.
وَالْمَطْلُوبُ عَيْنَ الطَّالِبِ. وَالذَّاكِرُ عَيْنَ الْمَذْكُورِ وَهَذَا الَّذِي لَاحِظَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ:
وَطَالَيْتُنَا مَطْلُوبَيْنَا مِنْ وُجُودِنَا أَيُّهُ مِنْ عَيْنِ وُجُودِنَا لَا خَارِجًا عَنَّا نَغِيبُ بِهِ. أَيُّ
بَشْهოდِ مَطْلُوبِنَا عَنَّا عَنْ وُجُودِنَا عَنَّا لَدَى الطَّغْنِ. أَيُّ عِنْدَ الطَّغْنِ؛ وَهُوَ زَوَالُ
الْعَبْدِ وَفَنَائِهِ وَاضْمِحْلَالُهُ عِنْدَ سَطْوَةِ أَنْوَارِ الْقِدَمِ عَلَى ضَحْضَاحِ الْبَشَرِيَّةِ. فَيَفْقَى
مَا لَمْ يَكُنْ. وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ، وَقَوْلُهُ: «إِذْ عَنَّا» أَيُّ حِينَ عَرَضَ هَذَا الطَّغْنِ.
لِوُجُودِ الْعَبْدِ الْوَهْمِيِّ، نَغِيبُ عَنْ وُجُودِنَا. وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَفِي الْحِكْمِ^(٣):
«لَيْسَ الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ لَهُ. لِفَنَائِهِ فِي
وُجُودِهِ وَانْطَوَائِهِ فِي شَهْوَدِهِ». . . وَقَالَ أَيْضًا: «كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ وَالَّذِي
يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ» وَقَالَ^(٤) فِي التَّنْوِيرِ: «أَبَى الْمُحَقِّقُونَ

(١) حديث شريف سبق تخريجه.

(٢) جزء من حكمة لابن عطاء الله السكندري.

(٣) العطائية لابن عطاء الله السكندري.

(٤) الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري.

أَنْ يَشْهَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ».

لِمَا حَقَّقَهُمْ بِهِ مِنْ شُهُودِ الْقِيُومِيَةِ. وَإِحَاطَةِ الدِّيُومِيَةِ. وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَبَلِي فِي غَيْبَتِهِ:

هُوَ مُوجِدُ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ وَجُودُهَا وَعَيْنُ ذَوَاتِ الْكُلِّ وَهُوَ جَوَامِعُ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَفْهَمَ هَذِهِ الْأَسْرَارَ. إِلَّا بِصُخْبَةِ الرُّجَالِ، أَهْلِ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. وَإِلَّا بَقِيَتْ مَعَ أَهْلِ التَّنْكَرِ وَالْإِنْتِقَادِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَلَى الدَّوَامِ. فُتُبُوءَ بِالْخَبِيَةِ وَالْخُسْرَانِ. وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

ثُمَّ هَذَا الْمَطْلُوبُ إِنَّمَا يَنَالُ وَيُذَكَّرُ بِالْحُظُوظِ وَاللُّحُوظِ. كَمَا أَبَانَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

تَرَكْنَا حُظُوظَنَا مِنْ حَضِيضٍ لُحُوظًا مَعَ الْمَقْصِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَسْنَى قُلْتُ: الْحُظُوظُ: مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَتَهْوَاهُ. وَاللُّحُوظُ: الْإِلْتِفَاتُ إِلَى الْحَادِثِ. وَقَصْدُهُ بِالنَّظَرِ. وَالْحَضِيضُ: الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَرَكْنَا حُظُوظًا مِنْ حُظُوظِ أَنْفُسِنَا الَّتِي تَهْوِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ؛ بِسَبَبِ لِحُوظِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ. وَالتَّفَاتِ إِلَيْهِ. فَعَبَّرَ عَنْ حُظُوظِ النَّفْسِ بِالْحَضِيضِ. وَهُوَ التَّسَاقُطُ إِلَى الْمَرْكَزِ الْأَسْفَلِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُهَا؛ لِأَنَّ مَنْ انْهَمَكَ فِي اللُّحُوظِ قَطْعًا يَسْقُطُ إِلَى الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ. وَأَضَافَهُ إِلَى اللُّحُوظِ؛ لِأَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِاللُّحُوظِ مُسَبِّبٌ عَنْ لِحُوظِ الْغَيْرِ، وَالْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ. أَمَا لَوْ اشْتَغَلَ بِاللَّهِ لَنَسِيَ حُظُوظَهُ وَلِحُوظَهُ.

وَحَاصِلُ مَعْنَى الْبَيِّنَةِ: تَرَكْنَا حُظُوظًا مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ الَّتِي تَهْوِي بِنَا إِلَى الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ بِسَبَبِ لُحُوظِنَا إِيَّاهَا وَالتَّفَاتِنَا إِلَيْهَا. الَّتِي لَا يَرْضَى بِهَا ذُو هِمَّةٍ عَالِيَةٍ. وَلَا يَتِمَكَّنُ مَعَهَا فَتَوْحُ رَبَّانِيَةٍ.

وَالْحُظُوظُ ثَلَاثَةٌ: حُظُوظُ جِسْمَانِيَةٍ. وَحُظُوظُ قَلْبِيَّةٍ. وَحُظُوظُ رُوحِيَّةٍ. وَكُلُّهَا تَحْجُبُ عَنِ اللَّهِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهَا.

فَالْجِسْمَانِيَّةُ: كَتَمَتِ النَّفْسَ بِلَذَّةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاجِحِ وَمَا يَزْجَعُ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا تَتَمَتَّعُ بِهِ الْبَشَرِيَّةُ، وَيَزِيدُ فِي حَسَنَاتِهَا. إِذَا سَكَنَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي

القلب. لم يَزحل إلى الله أبداً ما دام ساكناً فيها.

والقلبية: كحُبِّ المَالِ والرياسة، والجاه والتقدم وحُبِّ المَدح والثناء والتعظيم، وإقبال الناس وكاتصافه بالكِبَر والحسد وغيرهما من مَصَائِبِ القلب.

وهذه أقبح من الأولى، وأصعب منها علاجاً.

واغْتَبِرَ بقصة آدم مع إبليس فكانت شهوة آدم في بطنه، فتداركه بالتوبة.

وكانت شهوة إبليس في قلبه، فطُرِدَ وأبعد.

والحظوظ الروحانية، كطلبِ الكَرَامَاتِ، والوقوف مع المقامات وحلاوة

الطاعات.

وغير ذلك من الخوارق. فكلها تقدم في العبودية التي هي سبب في شهود الرُّبُوبية. ولذلك قال الشيخ ابن عطاء الله في الحكم: «الحق ليس بمَحْجُوبٍ عَنْكَ. وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه». ثم قال: متصلاً بهذه الحكمة: «أخرج من أوصاف بشرتك عن كل وصفٍ مُناقِضٍ لعبوديتك. لتكون لنداء الحق مجيباً. ومن حضرته قريباً». فكأنه قال: إنما حجبك عن النظر إليه أوصاف بشرتك. أخرج عنها يحصل لك النظر إليه. وعلى هذا المسلك سلك النائم حيث قال: وطالبنا هو مطلوبنا. أقرب إلينا منّا من وجودنا. ثم قال: تركنا حظوظاً الخ. فكأنه يقول: مطلوبنا أقرب إلينا منّا. وإنما حجب الناس عنه، الاشتغال بحظوظهم ولحوظهم التي أهوت بهم إلى الخسيف، فقد تركنا ذلك، فوجدنا الطالب منّا عين المطلوب.

وقوله: لا مع المقصد الأقصى، أي مع ترك المقصد الأبعد: وهو نعيم الجنان من القصور والحدود التي هي الحسنَى. فهو وإن كان ليس من الحظ العاجل، فهو لحظ والتفات إلى الغير وسماء المقصد الأقصى؛ لأنه بعيد من حظوظ هذه الدار وعامة الناس يقصدونه بمعاملتهم.

وقوله: «إلى المطيب الأسمى»؛ وهو الزيادة، التي هي المشاهدة والترقي في أنوارها أبداً سزماً. جعلنا الله من هذا القبيل آمين. فتحصل أن العبد لا يدخل حضرة الشهود، حتى يترك الحظوظ كلها. ويبقى بقلب مفرد لله تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى﴾. [الأنعام: ٩٤] وقيل للجنيدي: كيف

الْوُصُولُ إِلَى الانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: «بِتَوْبَةٍ تُزِيلُ الْإِضْرَارَ، وَخَوْفٍ يَقْطَعُ التَّسْوِيفَ، وَرَجَاءٍ يَنْعِثُ عَلَى مَسَالِكِ الْعَمَلِ وَإِهَانَةِ النَّفْسِ بِقُرْبِهَا مِنَ الْأَجَلِ وَيُبْعِدُهَا مِنَ الْأَمَلِ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: بِقَلْبٍ مُفْرِدٍ يَزُورُ.

ثم ذكر نتيجة ترك الحظوظ واللُّحُوظ؛ وهو كشف حجاب الكائنات فقال:

وَلَمْ تُلَقْ كُنْهَ الْكَوْنِ إِلَّا تَوْهُمًا وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ثَابِتٍ هَكَذَا الْفَنَّا
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَمْ تُلَقْ بِضَمِّ الثُّونِ، أَيْ نَجِدْ كُنْهَ الْكَوْنِ، أَيْ حَقِيقَتَهُ، عِنْدَ انْكَشَافِ ظُلْمَةِ الْحَسِّ إِلَّا تَوْهُمًا، أَيْ عَدَمًا مَخْصُصًا؛ تَوْهُمُ النَّاسِ أَنَّهُ شَيْءٌ ثَابِتٌ مَعَ اللَّهِ، وَلَيْسَ شَيْئًا ثَابِتًا مَعَهُ إِلَّا مَا هُوَ كَالْهَبَاءِ فِي الْهَوَاءِ، إِنْ فَتَشْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا خَارِجًا عَنِ أَنْوَارِ الْأُلُوهِيَةِ، وَإِنَّمَا الْوُجُودُ لِلَّهِ وَخَدَهُ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ. وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. عَلَى هَذَا دَرَجَ أَهْلُ الْأَذْوَاقِ، مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ قَاطِبَةً. وَبِذَلِكَ غَنَوْنَا فِي أَشْعَارِهِمْ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُذْ تَجَمَّعَتْ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ فَمَا نَمُ مَوْصُولٌ وَلَا نَمُ بَائِنُ
بِهَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى بِعَيْنِي إِلَّا عَيْنُهُ إِذْ أَعَايِنُ

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَوَاجِدِهِمْ، وَأَذْوَاقِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي الْحَكَمِ: «مَا حَجَبَكَ عَنِ الْحَقِّ وَجُودٌ مُوجُودٌ مَعَهُ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ. وَإِنَّمَا حَجَبَكَ تَوْهُمُ مُوجُودٍ مَعَهُ». وَقَالَ فِي التَّنْوِيرِ: «فَمَا سَوَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يُوَصَفُ بِفَقْدٍ وَلَا بِوُجُودٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ. لِثُبُوبِ أَحَدِيَّتِهِ. وَلَا فَقْدَ لَعْنِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْقَدُ إِلَّا مَا كَانَ مُوجُودًا. وَلَوْ انْهَتَكَ حِجَابُ الْوَهْمِ، لَوَقَّعَ الْعِيَانُ عَلَى فَقْدِ الْأَعْيَانِ. وَلَا شَرَقَتْ نُورَ الْإِيمَانِ، فَغَطَّى وَجُودَ الْأَكْوَانِ.

وَقَالَ فِي لَطَائِفِ الْمِنَنِ: «وَأَشْبَهَ شَيْءٌ بِالْكَائِنَاتِ وَجُودَ الظَّلَالِ فَالْظُّلُّ لَا مَوْجُودَ بَاغْتِبَارِ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ، وَلَا مَعْدُومَ بَاغْتِبَارِ مَرَاتِبِ الْعَدَمِ». وَاعْتِبَارَ الْعَدَمِ

في الظاهر أقرب؛ لَأَنَّهُ خَيَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وَتَشْبُهُ الْكَائِنَاتِ بِالظِّلِّ؛ لِأَنَّهُ يُنْسَخُ وَيُعَدَّمُ عِنْدَ وُضُوعِ الشَّمْسِ إِلَى مَحَلِّهِ، فَكَذَلِكَ جِسُّ الْأَوَانِي يُعَدَّمُ وَيُفْقَدُ، عِنْدَ طُلُوعِ شَمْسِ الْعِرْفَانِ عَلَيْهِ. فَإِذَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْمَعَانِي، ارْتَفَعَ جِسُّ الْأَوَانِي. وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقِ أَهْلِ الْإِشَارَةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾. [الفرقان: ٤٥] أَيِ ظِلِّ الْكَائِنَاتِ. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا﴾. [الفرقان: ٤٥] أَيِ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَ ذَلِكَ الظِّلَّ سَاكِنًا. مَا ارْتَفَعَتْ ظِلْمَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾، [الفرقان: ٤٥] أَيِ شَمْسِ الْعِرْفَانِ ﴿عَلِيَّةً﴾ [:] أَيِ عَلَى ذَلِكَ الظِّلِّ ﴿دَلِيلًا﴾ [:] حَتَّى صَارَ ذَلِكَ الْعَارِفُ يَشْتَغِلُ بِاللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٦] عَلَى قُلُوبِ الْمُتَوَجِّهِينَ ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] شَيْئًا فَشَيْئًا. عَلَى حَسَبِ التَّصْفِيَةِ وَالتَّرْقِيَةِ حَتَّى يَنْقَطِعَ بِالْكَلِيَةِ. وَقَدْ أَشَارَ النَّاطِمُ فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ:

تَجَلَّتِ الْمَعَانِي وَعَابَتِ الظُّلَالُ كُسِّرَتِ الْأَوَانِي وَمُزِقَ الْمِثَالُ

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي الْحَكَمِ: «الْأَكَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، مَمْحُوءَةٌ بِأَحْدِيَةِ ذَاتِهِ. لَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهَا اسْتِقْلَالًا. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهُ أَظْهَرَ جِسْمَهَا لِيُعْرَفَ بِهَا ثُمَّ مَحَاهَا بِأَحْدِيَةِ أَسْرَارِ ذَاتِهِ؛ وَهِيَ الْمَعَانِي الْقَائِمَةُ بِهَا قِيَامُ الثَّلْجَةِ بِالْمَاءِ، فَإِذَا ظَهَرَ الْمَاءُ بَدُونَ الثَّلْجَةِ، فَلَا ثُلْجَةً كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْعَيْنِيَّةِ^(١):

وَمَا الْكَوْنُ فِي التَّمْنَالِ إِلَّا كَثُلْجَةٍ وَأَنْتَ بِهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ
وَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ فِي حُكْمِ دَعْنِهِ الشَّرَائِعُ

وَقَوْلُهُ: هَكَذَا الْفَنَاءُ: أَيِ هَكَذَا حَقِيقَةُ الْفَنَاءِ: مَحْوُ الْأَشْيَاءِ وَاضْمَحْلَالُهَا كَمَا قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْمَوَاهِبِ: «حَقِيقَةُ الْفَنَاءِ مَحْوٌ وَاضْمَحْلَالٌ. وَذَهَابُ عَنكَ وَزَوَالٌ وَمِنْ الْأَشْيَاءِ وَجُودِ النَّفْسِ، فَلَا يَحْقُقُ الْعَبْدُ الْفَنَاءَ حَتَّى يَغِيبَ عَنْ وُجُودِهِ، وَوُجُودُ الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ فِي شُهُودِ وَجُودِ مَحْبُوبِهِ». وَفِي نَسْخَةِ الشَّيْخِ زُرُوقٍ: «وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ثَابِتٍ هَكَذَا الْفَنَاءُ». قَالَ يَعْْنِي هَكَذَا وَجَدْنَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ

(١) هُوَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجِيلِي مِنْ صُوفِيَةِ الْقَرْنِ الثَّامِنَةِ الْهَجْرِيِّ مُؤَلِّفُ كِتَابِ «الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوَاخِرِ وَالْأَوَاتِلِ» تُوُفِيَ سَنَةَ ٨٠٥ هَجْرِيَّةً.

معرفةً منهم من طريق الذوق والمُنازلة لا من طريق العلم والمُحاولة. قلت: وهو غير جيد؛ لأنه يؤدي إلى نوع تكرار مع أول البَيِّنَاتِ لأنَّ قوله: وَلَمْ نَلَقْ، أي نَجِدْ صريحاً في الذوق والوجدان، فلا معنى لإِعَادَتِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثم ذكر ما أنتج هذا الوجدان فقال:

فَرَفُضَ السُّوَى فَرَضاً عَلَيْنَا لِأَنَّا بِمِلَّةِ مَخَوِ الشُّرْكِ وَالشُّكِّ قَدْ دَنَيْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَفُضَ السُّوَى، أي طَرَحَهُ وَالْعَيْنَةُ عَنْهُ فَرَضٌ وَاجِبٌ عَلَيْنَا معشر الموحدين. وهذا البَيِّنَاتِ مُرْتَبٌ عَلَى ما قبله؛ لِأَنَّ مَنْ وَجَدَ الْكَوْنَ تَوْهُماً لَا حَقِيقَةَ لِيُجُودِهِ - وَالْكَوْنَ كُلُّ ما سِوَى اللَّهِ - تَعَيَّنَ عَلَيْهِ رَفْضُهُ، وعدم اغتباره، نظراً واعتباراً. ومحبة واستناداً. فَلَا يَرَى فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهَ. وَلَا يَغْتَمِدُ فِي أُمُورِهِ إِلَّا عَلَيْهِ. كما قال الشَّاعِرُ:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَخَذَ اللَّهَ رَبًّا وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَخْتَضِيَ أَحَدًا رِفْدًا
فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وَفَقِّ أُمُوتْ بِهَا وَجُدْ وَأَخْيَا بِهَا وَجُدْ
وَقُلْ لِمَلُوكِ الْأَرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا قَدْ أَلْمَلَكُ مَلِكٌ لَا يُبَاغُ وَلَا يُهْدَى

وكذلك لا يميل لمحبة شيء من حُسن الكائنات، وإنما يَتَعَشَّقُ إِلَى أَسْرَارِ الْمَعَانِي؛ التي هي وَجْهُ الرَّحْمَنِ. فافهم؛ لِأَنَّ مَنْ سَابَقَتْهُ الْمَعَانِي، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى جَمَالِ صُورِ الْأَوَانِي. وَغَابَ عَنْهَا فِي جَمَالِ الْمُتَجَلِّي بِهَا فَيَغِيبُ بِحَلَاوَةِ لَذَّةِ الشُّهُودِ، عَنْ جَمَالِ كُلِّ مَشْهُودٍ.

ثم علَّلَ رَفْضَهُمُ السُّوَى بِقَوْلِهِ: لِأَنَّا بِمِلَّةِ مَخَوِ الشُّرْكِ وَالشُّكِّ قَدْ دَنَيْنَا؛ أي لِأَنَّا تَمَسَّكْنَا بِمِلَّةِ الْحَنَفِيَّةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ؛ التي جاء بها رسولنا عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وهي مُؤَسَّسَةٌ عَلَى مَخَوِ الشُّرْكِ وَرُؤْيَا الْغَيْرِ عَنْ عَيْنِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حِينَ رُجِّ بِه فِي الْمَنْجَنِقِ. وَرُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ، تَعَرَّضَ لَهُ جَبْرِيلُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا. وَأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَبَلَى. فقال جبريل: سَلُهُ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «عِلْمُهُ بِحَالِي يُغْنِي عَن سُؤَالِي». فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الْوَاسِطَةِ قَطْعاً. ولم يشرك في تَمَلُّقِهِ أَحَدًا، سِوَى مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ. وكذلك مَخَوِ الشُّكِّ وَالرَّيْبَةِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، طَلَبَ الْإِنْتِقَالَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ، الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُزَاجِمَهُ خَاطِرُ تَهْمَةٍ، إِلَى عَيْنِ

الْيَقِينِ؛ الَّذِي لَا يَبْقَى مَعَهُ وَهْمٌ، وَلَا رَيْبَةٌ أَضْلًا. إِذْ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ. وَذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُعْجِ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الْآيَةَ. فَأَسْعَفَهُ الْحَقُّ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، حَتَّى انْتَقَلَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ. إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: لَا نُنَّا بِمِلَّةٍ مَخْرُ الشُّرْكِ وَالشُّكِّ قَدْ دَنَا. أَيْ اتَّخَذْنَاهُ دِينًا، نَتَمَسَّكُ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَعَلَى هَذَا يَدُورُ فَلَكَ قُطْبُ التَّصَوُّفِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ رَيْبَةٌ، وَلَا تَهَمَةٌ فِي ظَهْرِ الْحَقِّ وَانْفِرَادِهِ بِالْوُجُودِ؛ لِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رُتْبَةَ الْعَيَانِ وَارْتَقَعُوا عَنْ مَقَامِ غَيْبِ الْإِيمَانِ. كَذَلِكَ الْأُمُورُ الْمَوْعُودُ بِهَا. صَارَتْ عِنْدَهُمْ كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ لَدَيْهِمْ حَتَّى صَارُوا بِحَيْثُ لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ عَنْهَا وَظَهَرَتْ، مَا أَزْدَادُوا يَقِينًا كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَكَمَا قَالَ حَارِثَةُ فِي قِصَّتِهِ ^(١) الْمَشْهُورَةِ حِينَ سُئِلَ عَنْ حَقِيقَةِ إِيْمَانِهِ. وَكَذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَا قَدَّمَاهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ نَفْيِ الْمُكُونِ مَعَ وَجُودِ رَفْضِهِ. وَرَأَى ذَلِكَ كَالْتَنَاقُضِ فَقَالَ:

وَلَكِنَّهُ كَيْفَ السَّبِيلُ لِرَفْضِهِ وَرَافِضُهُ الْمَرْفُوضُ نَحْنُ وَمَا كُنَّا

قلت: «رَافِضُهُ» مُبْتَدَأٌ. وَ«الْمَرْفُوضُ» خَبَرٌ، وَ«نَحْنُ» خَبَرٌ عَنْ مُضْمَرٍ يَعُودُ عَلَى الرَّافِضِ وَهُوَ «نَحْنُ»، وَمَا كُنَّا حَالٌ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ رَفْضَ السُّوَى فَرَضٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّهُ إِشْكَالٌ؛ وَهُوَ أَنَّ نَقُولَ: كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى رَفْضِهِ. وَالرَّافِضُ هُوَ الْمَرْفُوضُ. وَالْمَرْفُوضُ عَيْنُ الرَّافِضِ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ سِوَى، وَهُوَ مُصَدَّرٌ مُحَضَّرٌ. فَالرَّافِضُ هُوَ نَحْنُ. وَمَا كُنَّا شَيْئًا، بَلْ عَدَمًا مُحَضَّرًا لَا كُنَّا مِنْ جُمْلَةِ السُّوَى فَتَحْصُلُ: أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي فَعَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ، حَتَّى عَرَفَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ وَأَزَالَ الْمَوَانِعَ

(١) ونص القصة هو: عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له كيف أصبحت يا حارث قال أصبحت مؤمنًا حقًا فقال انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال قد عزفت نفسي عن الدنيا وأسهرت لذلك ليلي وأظمأن نهاري وكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثًا (المعجم الكبير للطبراني، [باب] ٢٨٢) الحارث بن مالك الأنصاري) حديث رقم (٣٣٦٧) (٣/٢٦٦).

عن ذاته بذاته وَيَجَابُ بِأَنَّ الحقَّ جلَّ جلاله، لَمَّا تَجَلَّى بِاسْمِهِ الظَّاهِر، من عَالَمِ
الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ تَجَلَّى أَيْضاً بِاسْمِهِ الْبَاطِنِ، فَبَطَنَ فِي ظَهْرِهِ، وَاخْتَفَى
فِي حَالِ تَجَلِّيهِ؛ وَذَلِكَ بِمَا أَسَدَلَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ رِْدَاءٍ كِبْرِيَائِيٍّ؛ وَهِيَ رِْدَاءُ
الْحُسْنِ، وَيُسَمَّى هَذَا الرِّدَاءُ، عَالَمُ الْحِكْمَةِ، وَعَالَمُ الْأَشْبَاحِ، وَعَالَمُ الْفَرْقِ وَإِنَّمَا
تَرَدَّى بِذَلِكَ؛ لِيَتَقَى الْكَثْرُ مَدْفُوناً وَالسَّرُّ مَصُوناً. فَسُبْحَانَ الْمُدَبِّرِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.
فَلَمَّا بَرَزَتِ الرُّوحُ مِنْ عَالَمِ اللَّطَافَةِ وَالصَّفَاءِ، إِلَى الْعَالَمِ الْحَسِّيِّ، انْسَدَلَ عَلَيْهَا
الْحِجَابُ، مِنْ جُمْلَةٍ مِنْ أَسَدَلِ عَلَيْهِمْ. فَمَا فَتَحَتْ عَيْنَاهَا إِلَّا فِي هَذَا الْعَالَمِ
الْحَسِّيِّ فَعَشِقَتْهُ وَمَالَتْ إِلَيْهِ وَتَاهَتْ فِي فُرُوقِهِ وَنَسِيَتْ أَضْلَهَا. وَجَهِلَتْ رَبَّهَا،
فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يُعَالِجُهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَخُلَفَائِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْفُحُولِ
فَأَمَرُوهَا بِالْأَدَبِ مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الظَّاهِرِ فَعَلَّمُوهَا ثُمَّ أَمَرُوهَا بِالْأَدَبِ فِي الْبَاطِنِ
مَعَهُ؛ وَهُوَ تَرْكُ الْحِظْوِظِ وَاللَّحُظِ، وَرَفْضُ كُلِّ مَا يَشْغُلُ عَنِ اللَّهِ؛ وَهُوَ الْمُعَبَّرُ
عَنْهُ بِالسُّوَى، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، رَجَعْتَ إِلَى أَضْلَهَا، وَشَاهَدْتَ أَسْرَارَ رَبَّهَا.
وَتَنَزَّهْتَ فِي جَمَالِ ذَاتِهِ. حِينَ اِرْتَفَعَ عَنْهَا رِْدَاءُ الْجِسِّ. فَظَهَرَ حِينَئِذٍ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ
الرَّافِضُ وَالْمَرْفُوضُ وَانْحَلَّ الْإِشْكَالُ الَّذِي تَوَهُمُوه. وَأَمَّا لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْاِعْتِبَارَ
لِبَطْلِ الْأَحْكَامِ وَالْحِكْمَةِ، وَهَذَا كُفْرٌ وَزَنْدَقَةٌ. فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَارِفِ أَنْ يَكُونَ
لَهُ عَيْنَانِ: عَيْنٌ تَنْظُرُ لِعَالَمِ الْجَمْعِ؛ وَهُوَ مَقَامُ الْفَنَاءِ فَلَا يَرَى إِلَّا الْحَقَّ مُتَجَلِّياً
بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ؛ وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ فِي عَيْنِ الْحَقِيقَةِ. فَيُنْبِئُ الْحِكْمَةَ وَالْأَحْكَامَ
وَيُسَمَّى هَذَا الْمَقَامُ مَقَامَ الْبَقَاءِ، فَيَكُونُ كَامِلاً مُجْمِوعاً فِي فَرْقِهِ. مَفْرُوقاً فِي
جَمْعِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ. وَيُؤْفِي كُلَّ ذِي قَسْطٍ قَسْطَهُ.

وبهذا الاعتبار غنى الشاعر شاكياً، لِمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

الْعَبْدُ حَقٌّ وَالرَّبُّ حَقٌّ يَا لَيْتَ شِغْرِي مِّنَ الْمُكَلَّفِ
إِنْ قِيلَ عَبْدٌ فَالْعَبْدُ مَيِّتٌ أَوْ قِيلَ رَبٌّ أَتَى يُكَلِّفُ

فأجاب شيخُ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي فقال:

نَعَمْ بِحَقِّ إِنْ بَاتَ عَبْدٌ بِنَعْتِ فَرْقٍ بِهِ يُكَلِّفُ
وَالْعَبْدُ مَيِّتٌ بِكُلِّ حَالٍ لِسِرِّ عَوْنٍ بِهِ مُكَلِّفُ

فَالْعَبْدُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا وَجُودَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ أَضْلاً. لَكِنْ لَمَّا تَجَلَّى سُبْحَانَهُ

بِمَظْهَرِ الرُّبُوبِيَّةِ، فِي قَوَالِبِ الْعُبُودِيَّةِ، سُمِّيَ ذَلِكَ الْمَظْهَرُ بِاعْتِبَارِ الْقَالِبِ عَبْدًا؛ وَهُوَ مَحْذُوفٌ بِاعْتِبَارِ الْمَظْهَرِ. فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى مَطْلُوقِ التَّجَلِّيِّ، رَأَيْتَ عَظِيمَةَ قَدِيمَةِ أَزَلِيَّةٍ وَلَا عَيْدٍ. وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى تَطْوِيرِ ذَلِكَ التَّجَلِّيِّ بِشَكْلِ الْعَبْدِ وَصُورَتِهِ. رَأَيْتَ عَبْدًا فَقِيرًا وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ فِي الْحُكْمِ بِقَوْلِهِ:

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ، فِي وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ. وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَرْبٌ وَعَبْدٌ وَنَفْسِي ضَيْدٌ قُلْتُ لَهُ لَيْسَ ذَاكَ عِنْدِي
فَقَالَ مَا عِنْدَكُمْ فَقُلْنَا وَجُودُ فَقَدٍ وَقَفْدُ وَجِدٍ
تَوْحِيدُ حَقٍّ بِتَرْكِ حَقٍّ وَلَيْسَ مِنْ سِوَايَ وَخِدي

فَإِنَّمَا أَنْكَرَ وَجُودَ الْعَبْدِ مُسْتَقْلَالًا مَفْرُوقًا كَمَا هُوَ اعْتِقَادُ عَامَّةِ أَهْلِ الدَّلِيلِ وَالنَّبَرَهَانِ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهُوَ مُحَالٌ مُنْكَرٌ عِنْدَ الْعَارِفِينَ الْمُقَرَّبِينَ وَإِنَّمَا أَطْلَقْتُ الْكَلَامَ هُنَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ خَفِيَّتٌ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ لِلْوُجْدَانِ وَالْعِزْفَانِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ نَهَى الْمُرِيدَ عَنْ نِسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى نَفْسِهِ مَعَ كَوْنِهِ لَا وَجُودَ لَهُ مَعَ رَبِّهِ بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ لَهُ. فَقَالَ:

فَيَا قَائِلًا بِالْوُضُلِ وَالْوَقْفَةِ الْحَيِّ حُجِبَتْ بِهَا ازْجَعٌ وَازْعَوِي بِمِثْلِ مَا أَبْنَا
قُلْتُ: إِزْعَوُ أَمْرٌ مِنْ ازْعَوَى، بِمَعْنَى انْزَجَرَ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَلَا ازْعَوَاءَ لَمَنْ وَلَّتْ شَيْبُهُ وَأَذْنَتْ بِمَشْيَبِ بَعْدِهِ هَرَمُ

وَإِثْبَاتِ الْبَيَاءِ فِي الْأَمْرِ لِلْوُزْنِ. وَمِثْلُ صِفَةِ لِمُضْدَرٍّ مَحْذُوفٍ. وَمَا مُضْدَرِيَّةٌ، وَأَبْنَا بِضَمِّ الْهَمْزِ مِنْ أَبٍ، أَيِ رَجَعَ كَقُلْنَا مِنْ قَالَ. أَيِ انْزَجَرَ وَازْجَعٌ عَنْ ذَلِكَ، رَجُوعًا مِثْلَ رُجُوعِنَا. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُنْكَرًا عَلَى مَنْ يَدْعِي الْوُصُولَ إِلَى اللَّهِ بِنَفْسِهِ، أَيْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَوْ بِمُجَاهَدَتِهِ وَرِيَاضَتِهِ. وَعَلَى مَنْ يَشْتَكِي الْوَقْفَةَ مِنْ نَفْسِهِ إِذْ كِلَاهُمَا عِلَّةٌ فِي الطَّرِيقِ وَشِرْكٌ كَادَ أَنْ يَكُونَ جَلِيًّا عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ. فَقَالَ: يَا قَائِلًا بِالْوُصُولِ إِلَى اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَبِمُجَاهَدَتِهِ. يَا قَائِلًا بِالْوَقْفَةِ، وَالْفَتْرَةَ عَنِ السَّيْرِ الَّتِي حُجِبَتْ بِهَا عَنِ الْوُصُولِ اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ فِي

نصيحتي، وازعِو. أي انزَجِرْ عن هذه المقالة. وازِجِعْ إلى الله بالتوبة والاستغفار رجوعاً مثل رُجُوعِنَا. فقد كنا في هذا المحلِّ ثم ثُبْنَا، وَرَجَعْنَا إلى الله عَنْهُ. فَإِنْ ادَّعَاءُ الوُصُولِ إلى اللَّهِ، مع وجودِ النَّفْسِ، دَعْوَى وكذب. واعتقاد الوصول بالعملِ علة وشرك. فيجب على العَبْدِ التَّوْبَةُ مِنْ جميع ذلك. فالواجب حينئذ الدَّخُولُ على اللَّهِ من بَابِ الْكَرَمِ لَا مِنْ بَابِ الْعَمَلِ فَمَنْ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْكَرَمِ وَجَدَ الْبَابَ مَفْتُوحاً. وَمَنْ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْعَمَلِ وَجَدَ الْبَابَ مَغْلُوقاً. وفي الْحَكَمِ: «لَوْ كُنْتُ لَا تَصِلُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ وَمَحُو دَعَاوِيكَ لَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ أَبَداً. ولكن إذا أَرَادَ أَنْ يُوصلَكَ إِلَيْهِ، عَطَى وَضَفَكَ بِوَضْفِهِ وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوصلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ. لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ».

وكذلك القائل بالوقف؛ وهي الْفَتْرَةُ التي تَغْتري المريد في السَّيْرِ، بحيث تَبْرُدُ قريحته وتَحُلُّ عَزيمته. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهَرَهَا إِلَّا لِشَيْخِهِ، وَلَا يَشْتَكِي بِهَا لِغَيْرِهِ. إِذْ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ امْتِحَاناً لِعَبْدِهِ. فَلْيَثْبُتْ فِي الطَّرِيقِ، وَيَلْزِمِ صُحْبَةَ أَهْلِ الْقُوَّةِ وَالتَّحْقِيقِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ، الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَقْفَةِ وَالْفَتْرَةِ. أَنَّ الْوَقْفَةَ تَرْدَدُ بِلِ حَتَّى يَمُنَّ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ. فَلِيَتَحَقَّقْ بَيْنَ الْأَقْوِيَاءِ مِنْ دَوِيِ التَّحْقِيقِ.

وقال بَعْضُهُمْ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَقْفَةِ وَالْفَتْرَةِ. أَنَّ الْوَقْفَةَ تَرْدَدُ فِي صُحَّةِ الطَّرِيقِ.

والْفَتْرَةُ: ضَعْفُ الْقَرِيحَةِ؛ وَالْعَزْمُ مَعَ الْجَزْمِ بِصُحَّةِ الطَّرِيقِ فَالْوَقْفَةُ أَفْبَحُ مِنَ الْفَتْرَةِ. فَإِذَا جَزَمَ بِعَدَمِ صُحَّةِ الطَّرِيقِ؛ فَهُوَ رُجُوعٌ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

وحاصل كَلَامِ النَّاظِمِ: تَحَقَّقِ الْفَنَاءَ عَنِ النَّفْسِ، وَالْغَيْبَةَ عَنْهَا بِالْكَلِيَّةِ. فَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا، وَضْلاً وَلَا وَقْفاً. وَلَا قُوَّةً وَلَا ضَعْفاً. إِذْ الْكُلُّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ الْأَكْبَرُ مُحْيِي الدِّينِ بِنِ عَرَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«مَنْ شَهِدَ أَنَّ الْخَلْقَ لَا فِعْلَ لَهُمْ فَقَدْ حَازَ، وَمَنْ شَهِدَهُمْ لَا حَيَاةَ لَهُمْ فَقَدْ فَازَ. وَمَنْ شَهِدَهُمْ بِعَيْنِ الْعَدَمِ فَقَدْ وَصَلَ». وَأَنْشُدُوا فِي ذَلِكَ:

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كَالسُّرَابِ فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الْجَبَابِ
إِلَى وُجُودِ يَرَاهُ رَتْقاً بِلا اِبْتِمَادٍ وَلَا اِفْتِرَابِ

وَلَمْ يُشَاهِدْ بِهِ سِوَاهُ هُنَاكَ يُهْدَى إِلَى الصَّوَابِ
 فَلَا خَطَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ وَلَا مُشِيرَ إِلَى الْخَطَابِ
 فَقَوْلُهُ: فَلَا خَطَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ: يشير إلى قولهم: مَنْ عَرَفَ اللَّهَ كُلَّ لِسَانُهُ،
 فَالضَّمِيرُ فِي مِنْهُ يَعُودُ عَلَى مَنْ أَبْصَرَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.
 ثُمَّ بَيَّنَّ أَضْلَ الْعِلَلِ فَقَالَ:

تَقَيَّدْتُ بِالْأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلْتُ عَلَيْكَ وَنُورَ الْعَقْلِ أَوْرَثَكَ السُّجْنَ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ الْإِسْتِذْلَالِ، وَقَفَعَ بِمَقَامِ الْإِيمَانِ: لَمَّا
 تَدَاخَلْتُ عَلَيْكَ الْأَوْهَامَ وَالشُّكُوكَ وَالْخَوَاطِرَ. تَقَيَّدْتُ بِهَا، وَحُجِبْتُ عَنْ مَقَامِ
 الْإِيمَانِ. وَالْمُرَادُ بِالْأَوْهَامِ وَهْمٌ وَجُودُ الْكُؤُنِ وَاسْتِقْلَالُهُ وَمَشَاهِدَةُ الْأَثَرِ فَوْقَ مَع
 ظِلْمَةِ جِسْمِهِ وَلَمْ يَشْهَدْ الْحَقُّ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، فَأَعْوَزَهُ وَجُودُ الْأَنْوَارِ وَحُجِبَتْ عَنْهُ
 شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحْبِ الْأَثَارِ وَوَهْمِ تَخَلُّفِ ضَمَانِ الرِّزْقِ، فَاشْتَغَلَ بِتَخْصِيلِ
 أَسْبَابِهِ، وَاجْتِهَادِهِ فِي جَمْعِهِ وَاجْتِكَارِهِ فَأَعْوَزَهُ أَنْوَارُ التَّوَكُّلِ، وَتَظَلَّمَ بِاطْنِهِ بِهِمْ
 الرِّزْقِ، وَخَوْفِ الْفَقْرِ وَوَهْمِ ضَرَرِ الْخَلْقِ، وَتَنَفَّعَهُمْ، فَاشْتَغَلَ بِاطْنِهِ بِتَخْصِيلِ
 أَغْرَاضِهِمْ، وَتَظَلَّمَ بِالْخَوْفِ مِنْهُمْ.

فهذه هي الأوهام التي تداخلت قلوب أهل الحجاب. فبقوا من وراء
 الباب. وتداخل الأوهام هو ترددها وترادفها على القلب حتى انحصرت فكرته
 فيها. وتقيّد قلبه معها. والوقوف أيضاً مع نور العقل يورث السُّجْنَ؛ وهو البقاء
 مع دائرة الأَكْوَانِ؛ لأنَّ الْعَقْلَ غَايَةُ مَذْرِكِهِ، يَذْرِكُ: أَنَّ الصَّنْعَةَ تحتاج إلى صَانِعٍ،
 وَلَا يَنْفُذُ نُورُهُ إِلَى تَرْقٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ، حَتَّى يَقْضِيَ إِلَى أَسْرَارِ الْمَعَانِي؛ وَشُهُودِ
 الْمُكُونِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَذَارِكِ الرُّوحِ وَالسَّرِّ. فَإِذَا رَجَعَتِ الرُّوحُ، وَغَلَبَ عَلَيْهَا
 ذِكْرُ اللَّهِ. فُتِحَتْ لَهَا مَيَادِينُ الْغُيُوبِ وَخَرَجَتْ فِكْرَتُهَا عَنْ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ إِلَى
 فَضَاءِ شُهُودِ الْمُكُونِ. وَإِلَى مَا ذَكَرَهُ النَّاطِمُ، أَشَارَ فِي الْحَكَمِ بِقَوْلِهِ: «الْكَائِنُ فِي
 الْكُونِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ. مَخْصُورٌ فِي هَيْكَلِ
 ذَاتِهِ». وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَهْلُ الْأَذْوَاقِ وَإِلَّا فَحَسْبُهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ،
 وَالتَّصَدِيقُ بِوُجُودِهِ عِنْدَ أَرْبَابِهِ.

وقد تُحْجَبُ الْقُلُوبُ بِالْأَنْوَارِ، كَمَا تُحْجَبُ بِالْأَغْيَارِ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ

يَقُولُهُ :

وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهَمْنَا أَصُولَهَا وَمَتَّبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا

وَقَدْ تَحَجَّبَ الْأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا تَقَيَّدَ مِنْ إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنًا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَمْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَحْجُوبُ عَنِ اللَّهِ، أَيِ يَهْتَ وَتَلَفْتَ عَنِ السَّيْرِ إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ وَشُهُودِهِ، بِأَنْوَارٍ قَدْ فَهَمْنَا نَحْنُ أَصُولَهَا. وَمِنْ أَيْنَ تَفَرَّعَتْ وَمَتَّبَعَهَا، وَمِنْ أَيْنَ نَبَعَتْ وَظَهَرَتْ. وَمِنْ أَيْنَ كَانَتْ. فَمَا هِمْنَا أَيِ فَمَا يَهْتَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ؛ بِالْوُقُوفِ مَعَهَا، وَالرُّكُوعِ إِلَيْهَا. وَذَلِكَ كَأَنْوَارٍ خَلَاوَةِ الطَّاعَاتِ، وَلَذَلِكَ الْمُنَاجَاةِ. وَظُهُورِ الْكَرَامَاتِ، وَالتَّنَزُّهِ فِي الْمَقَامَاتِ لِلْعُبَادِ وَالزُّهَادِ وَالصَّالِحِينَ. فَقَدْ وَقَفُوا مَعَهَا وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهَا وَرَأَوْا غَايَةَ الْوُصُولِ؛ وَهُمْ أَشَدَّ حِجَابًا عَنِ اللَّهِ. لَا يَخْرِجُهُمْ مِنْ ذَلِكَ. إِلَّا صُخْبَةُ شَيْخٍ كَامِلٍ، بَنُورٍ مُحَرَّقٍ، وَكَتْحَقِيقِ الْمَسَائِلِ وَتَحْرِيرِ النَّوَازِلِ. وَالتَّقَنُّنِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهَذَا حِجَابٌ كَبِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ يَرَوْنَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ فِي الْكَمَالَاتِ؛ وَهُمْ بِاعْتِبَارِ الرُّجَالِ فِي بَدَايَةِ الْبَدَايَاتِ. وَلَا يَخْرِجُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا حَطُّ رُؤُوسِهِمْ لِلْعَارِفِينَ مِنْ مَشَايخِ الثَّرْبِيَّةِ، وَكَتْحَقِيقِ الْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْلِيَّةِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِدْلَالِ؛ وَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ الْحِجَابِ لِعُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَقَسَّ عَلَى هَذَا سَائِرُ الْعُلُومِ وَالْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَارِ لَمْ تَنْفُذْ بِصِيرَتِهِ إِلَى شُهُودِ ذَاتِ الْحَقِّ؛ فَهُوَ مُحْجُوبٌ عَنْ رُؤْيَةِ الثَّوْرِ الْأَصْلِيِّ. فَقَدْ فَهَمْنَا هَذِهِ الْأَنْوَارَ، وَعَلِمْنَا أَصْلَهَا وَمَتَّبَعَهَا فَرَحَلْنَا عَنْهَا، وَمَا هِمْنَا بِالْوُقُوفِ مَعَهَا.

وفي بعض الإشارات عن الله تعالى يقول: «يَا عَبْدِي لَا تَرْكُزَنَّ إِلَى شَيْءٍ دُونَنَا فَإِنَّكَ إِنْ رَكَزْتَ إِلَى الْعِلْمِ جَهَلْتَنَّاكَ فِيهِ. وَإِنْ رَكَزْتَ إِلَى الْعَمَلِ رَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ. وَإِنْ رَكَزْتَ إِلَى حَالٍ وَقَفْتَنَّاكَ مَعَهُ. وَإِنْ رَكَزْتَ إِلَى مَعْرِفَةِ نَكْرَتِنَاهَا عَلَيْكَ فَأَيُّ حِيلَةٍ لَكَ؟ فَكُنْ لَنَا عَبْدًا حَتَّى نَكُونَ لَكَ رَبًّا». أَوْ كَمَا قَالَ تَعَالَى.

وقال في الْحِكْمِ: «لَا تَطْلُبْ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ عَلَيْكَ أَنْوَارَهَا. وَأَوْدَعْتَ عَلَيْكَ أَسْرَارَهَا فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ».

ومن هذا أيضاً، قَوْلُ الشَّيْخِ مَوْلَانَا عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

في شأن مقام الرضى والتسليم: «أَخَافُ أَنْ تَشْغَلَنِي حَلَاوَتُهُمَا عَنِ اللَّهِ وَبَعْدَ هَذَا فَمَنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِشَيْخِ التَّزْيِيَةِ لَا يَطْمَعُ فِي الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَبَدًا. وَلَوْ عَمِلَ مَا عَمِلَ».

وقوله: «وقد تُحَجَّبُ الأنوار للعبء» إلخ. هو تقرير لما قَبْلَهُ. والمراد بالأنوار ما تقدَّم مِنْ حَلَاوَةِ الطاعات، وتحقيق المقامات، وتتابع الأحوال والسكرات وفيض العلوم الرُّسُمِيَّاتِ. فقد تُحَجَّبُ هذه الأنوار للعبء إذا استخلَّها، وَوَقَفَ مَعَهَا وَتُسَمَّى أَنْوَارَ التَّوَجُّهِ. قال فِي الْحِكْمِ: «اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ. وَالوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ الْمُوَاجَهَةِ. فَالْأَوَّلُ لِلْأَنْوَارِ. وَهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ. لَا لَشَيْءٍ دُونِهِ. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١]

وأنوار المواجهة؛ هي أنوار الشهود؛ لأنها تواجه العبد، فيغرق فيها وَيَغِيبُ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَغْيَارِ؛ وهو مَا سِوَى اللَّهِ. وقوله: «مثل ما تَقَيَّدُ مِنْ إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنًا». أي تحجبه الأنوار، وتقيده عن النهوض إلى الله. مثل تقييده مِنْ أَجْلِ ظَلَمِ نَفْسٍ، حَيْثُ غَيَّبَ الْقَلْبَ بِظُلُمَاتِ الْهَوَى، والحفظ حين حَوَتْ ضِغْنًا، أي خبثاً فِي الْبَاطِنِ؛ وهي سائر الأمراض مِنَ الْحَسَدِ وَالْكِبْرِ، والحقدها وغيرها مِمَّا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَحَلِّهِ. وَحَوَى الشَّيْءُ: ضَمَّهُ وصار فِي حَوْزِهِ.

ثم نَهَى عَنْ دَعْوَى الْوِصَالِ وَالْأَمْنِ مِنَ السَّلْبِ وَالرُّجُوعِ فَقَالَ:

وَأَيُّ وَصَالٍ فِي الْحَقِيقَةِ يُدْعَى أَكْمَلُ مَنْ فِي النَّاسِ لَمْ يَدْعِ الْأَمْنَ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي قَضِيَةِ الْوِصَالِ وَالْإِنِّصَالِ؛ وَادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ بَلَغَ فِي ذَلِكَ الْعَايَةَ وَالتَّهْيَاةَ؛ وهو فِي ذَلِكَ تَالِفٌ وَمُخْطِئٌ. وَكَيْفَ يَدَّعِي التَّهْيَاةَ فِي الْعِلْمِ. وقد قال تعالى لِسَيِّدِ الْعَارِفِينَ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. [طه: ١١٤] فَلَوْ عَاشَ الْعَبْدُ عُمُرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. يَتَرَقَّى فِي الْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ مَا بَلَغَ مَعِشَارَ عَشْرَهَا. وَبَعْضُهُمْ ادَّعَى التَّمَكِينَ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ. وَالْأَمْنِ وَعَدَمِ الرُّجُوعِ. كَيْفَ يَدَّعِي فِي الْمَسْأَلَةِ الْأَمْنِ مِنَ السَّلْبِ. وَأَكْمَلُ مَا فِي النَّاسِ وَهُوَ سَيِّدُ الْوُجُودِ لَمْ يَدْعِ الْأَمْنَ، حَتَّى قَالَ: ﴿وَمَا آدَرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾. وَهَذَا مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ اتِّسَاعِ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْإِتِّسَاعِ لَا

يَقِفُ مَعَ وَغْدٍ وَلَا وَعِيدٍ. إِنَّمَا يَنْظُرُ مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرٍ كُلِّ لَخْطَةٍ، لَغَيْبِ الْمَشِيئَةِ. وَلِذَلِكَ كَانَ الْعَارِفُ لَا يَزُولُ اضْطِرَارُهُ. وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ. وَاعْتَبَرَ بِحَالِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. كَقَوْلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾. [الأنعام: ٨٠] فَاسْتَنْتَى مَعَ جَزْمِهِ بِعَدَمِ خَوْفِهِ مِنْ أَضْمَانِهِمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ الِاسْتِثْنَاءِ فَقَالَ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. [الأنعام: ٨٠] كَذَلِكَ سَيِّدُنَا شَغِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. [الأعراف: ٨٩] وَكَذَلِكَ قَضِيَّةُ نَبِيِّنَا ﷺ مَعَ الصَّدِيقِ مَعَ بَدْرِ، حَيْثُ بَاتَ يَتَضَرَّعُ، وَيَدْعُو مَعَ وَغْدِ اللَّهِ لَهُ بِالنُّصْرِ حَتَّى قَالَ لَهُ الصَّدِيقُ: «أَمْسِكْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ». فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ^(١). فَوَقَّفَ الصَّدِيقُ مَعَ ظَاهِرِ الْوَعْدِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى غَيْبِ الْمَشِيئَةِ لِاتِّسَاعِ عِلْمِهِ بِاللَّهِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَأْمُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. بِوَعْدِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَرَبُّكَ اللَّهُ نَحْمَدُكَ عَزِيزًا﴾. [الفتح: ٣] وَهَذَا بِاِغْتِبَارِ الدُّنْيَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. [الضحى: ٥] بِاِغْتِبَارِ الْآخِرَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. لِكَيْتُهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَظْهَرَ الْعُبُودِيَّةَ وَلَمْ يَقِفْ مَعَ شَيْءٍ ﷺ. وَكَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَقِفُونَ مَعَ وَغْدٍ وَلَا وَعِيدٍ لَغَيْبِ الْمَشِيئَةِ. وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

«يَا عَبْدِي لَا تَأْمَنْ مَكْرِي وَإِنْ أَمَنْتُكَ فَإِنَّ عِلْمِي لَا يَحِيطُ بِهِ مُحِيطٌ»^(٢). وَقَدْ يَبْلُغُونَ مِنَ التَّمَكِينِ مَعَ الْحَقِّ، مَقَامًا يَتَرَجَّحُ مَعَهُ الْأَمْنُ. بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. [الأنعام: ٨٢] فَمَنْ تَحَقَّقَ مَقَامَ الْإِيمَانِ، حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ مَقَامَ الْعِيَانِ. وَانْتَفَى عَنْهُ الشُّرْكُ الْجَلِي وَالْخَفِيُّ. فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْأَمْنُ بِنَصِّ الْآيَةِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) أوردته الطبري في الرياض النضرة، شدة بأسه ﷺ وثبوته يوم بدر [٣٥/٢] ورواه ابن حبان في الثقات، السنة الثامنة من الهجرة [١٦٧/١].

(٢) لم أجد هذا الخبر فيما لدي من مصادر ومراجع.

«يَبْلُغُ الْوَلِيُّ مَقَاماً يُقَالُ لَهُ: افْعَلْ مَا شِئْتَ، قَدْ أَصْحَبْنَاكَ السَّلَامَةَ، وَأَسْقَطْنَا عَنْكَ الْمَلَامَةَ». وقال في شأن تلميذه المُرْسِي: «قَدْ تَمَكَّنَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ مَعَ اللَّهِ تَمَكُّناً. لَوْ طَلَبَ الْحِجَابَ لَمْ يَجِدْهُ. وَيُسَمَّى مَقَامَ الْمُخْبُوبَةِ». وَيُعَصِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتَنِ أَوْ آتِيكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩: ص).

هَذَا؛ وَإِنْ كَانَ فِي مَقَامِ النُّبُوَّةِ، فَلِلْوِلَايَةِ قِسْطٌ بِحَسَبِ الْوَرَاثَةِ. وَبَعْدَ هَذَا كَلِمَةُ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ خَوْفُهُمْ. فَلَا يَزُولُ اضْطِرَارُهُمْ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُمْ لِاتِّسَاعِ دَائِرَةِ عِلْمِهِمْ. وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي التَّفْسِيرِ^(١) فِي سَوَرَتِي الْأَنْعَامِ وَالْأَحْقَافِ فَانْظُرْهُ إِنْ شِئْتَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي حَقِيقَةِ الْوُصُولِ. قَالَ فِي الْحَكَمِ: «وُصُولُكَ إِلَيْهِ، وَوُصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ. وَإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِشَيْءٍ، أَوْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ». وَأَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَقِيقَةِ الْوُصُولِ؛ أَنَّهُ فَنَاءُ الرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ بِظُهُورِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ فَيَفْتَى مَا لَمْ يَكُنْ؛ وَهُوَ الْوَهْمُ وَالْجَهْلُ. وَيَبْقَى مِنْ لَمْ يَزَلْ؛ وَهُوَ الْحَقُّ وَخُذْهُ. فَقَدْ كَانَ وَخُذْهُ لَأَشْيَاءَ مَعَهُ. وَقَدْ بَقِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ. فَالْوُصُولُ إِلَى اللَّهِ عِبَارَةٌ عَنْ تَحْقِيقِ الْعِلْمِ بِوَحْدِيَّتِهِ. وَغَيْبَةِ الْعَبْدِ عَنْ وَجُودِهِ فِي وَجُودِ مَعْبُودِهِ حَتَّى لَا يُشَاهَدَ إِلَّا عَظَمَتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. مُتَرَدِّباً بِرَدَائِ الْكِبَرِيَاءِ لِيَبْقَى السِّرُّ مَصُوناً. وَالكَثْرُ مَذْفُوناً.

ثُمَّ بَرَّهَنَ عَنْ كَوْنِ الْوُصُولِ لَا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الدَّغْوَى فَقَالَ:

وَلَوْ كَانَ سِرُّ اللَّهِ يُذْرَكُ هَكَذَا لَقَالَ لَنَا الْجُمْهُورُ مَا نَحْنُ مَا خَبِنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كَانَ سِرُّ اللَّهِ؛ وَهُوَ الْوِلَايَةُ وَالْمَعْرِفَةُ عَلَى سَبِيلِ الْبَيَانِ؛ وَهُوَ مَغْنَى الْوُصُولِ إِلَى اللَّهِ، يُذْرَكُ هَكَذَا، أَنِّي بِمُجَرَّدِ الدَّغْوَى مَعَ وَجُودِ النَّفْسِ، وَرَاحَةِ الْجَنْسِ، وَرُقُودِهِ تَحْتَ ظِلِّ الْجَدِي لَقَالَ جُمْهُورُ النَّاسِ أَيُّ عَامَّتُهُمْ: مَا نَحْنُ مَا خَبِنَا الْمَعْرِفَةَ، بَلْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا سَوَاءٌ. أَيُّ لَوْ كَانَتْ تُنَالُ

(١) تفسيره المسمى «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» الواقع في ثمان مجلدات طبعة دار الكتب العلمية بيروت، بتحقيق الشيخ عمر أحمد الراوي وتقديمنا.

بِلَا مُجَاهِدَةٍ وَلَا تَرْبِيَةٍ لَادْعَاهَا كُلُّ النَّاسِ، لَكُنْهَا لَا تَنَالُ إِلَّا بِذَنْحِ الثُّفُوسِ وَحَطَّ
الرُّؤُوسِ لِأَزْبَابِهَا. وَبَذَلِ الْفُلُوسُ زُهْدًا فِيهَا. وَازْتَكَا بِالشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ وَتَتَابَعَ
الْوَارِدَاتِ وَالْأَحْوَالِ، وَمُفَارَقَةِ الْأَوْطَانِ وَالْأَحْبَابِ، وَالْعَيْنَةِ عَنِ الْعَشَائِرِ
وَالْأَصْحَابِ.

قَالَ فِي الْحَكَمِ: «لَوْلَا مَيَادِينُ النُّفُوسِ، مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ». وَقَالَ
أَيْضًا: «كَيْفَ تُخَرِّقُ لَكَ الْعَوَائِدُ، وَأَنْتَ لَمْ تَخَرِّقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ». وَقَدْ بَيَّنَّ
ذَلِكَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ:

فَكَمْ دُونَهُ مِنْ فِتْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ وَكَمْ مَهْمَةٍ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَدْ جُبْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَمْ دُونَ الْوُصُولِ مِنْ فِتْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ أَيْ مِنْ امْتِحَانٍ
وَاجْتِبَارٍ لِلْمَرِيدِ؛ هَلْ هُوَ صَادِقٌ فِي الطَّلَبِ أَوْ هُوَ كَاذِبٌ. فَإِنْ ثَبَتَ وَصَبَرَ وَصَلَّ
وِلَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ. فَأَوَّلُ ذَلِكَ تَسْلِيطُ النَّاسِ عَلَيْهِ بِالْإِدَايَةِ وَالْإِهَانَةِ،
وَالْتَضْغِيرِ وَالْهَجْرَانِ. وَزَيْمًا وَصَلُّوا إِلَى ضَرْبِهِ وَسَجْنِهِ، وَتَطْوِيفِهِ وَقَتْلِهِ. فَإِنْ صَبَرَ
عَلَى ذَلِكَ، تَعَرَّضَ لَهُ إِبْلِيسُ بِالتَّخْوِيفِ وَالتَّسْوِيفِ وَتَبْعِيدِ الْفَتْحِ وَتَبْطِئِ السَّيْرِ
فَإِنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ تَعَرَّضَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِتَزْيِينِ زَخَارِفِهَا وَحُظُوظِهَا وَزَهْرَتِهَا، فَإِنْ
أَعْرَضَ عَنْهَا، تَعَرَّضَتْ لَهُ الْآخِرَةُ بِحُورِهَا وَقُصُورِهَا، وَسَائِرِ نَعِيمِهَا فَإِنْ أَعْرَضَ
عَنْهَا، تَعَرَّضَتْ لَهُ الْكَرَامَاتُ، وَصَوْلَةُ الْأَحْوَالِ وَحَلَاوَةِ الْمَقَامَاتِ. فَإِنْ أَعْرَضَ
عَنْ هَذَا كُلِّهِ. قَالَ لَهُ الْحَقُّ جَلُّ جَلَالِهِ: «مَرْحَبًا وَأَهْلًا هَذِهِ خَضِرَةٌ قُدْسِي. تَنْعَمُ
فِيهَا بِمَا شِئْتَ وَتَنْتَرُ بِفِكْرَتِكَ حَيْثُ شِئْتَ». وَيُقَالُ لَهُ حِينَئِذٍ:

لَكَ الدُّهْرُ طَوْنٌ وَالْأَنَامُ عَبِيدُ فَعِشْ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِكَ عَيْدُ

وَلِنْ وَقَفَ مَعَ شَيْءٍ مِنْ هَذَا، رَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ. وَأَمَّا مَنْ وَصَلَ فَلَا رُجُوعَ
عَلَيْهِ لَهُ؛ أَيْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَالْوُصُولُ هُوَ
تَحْقِيقُ الْفَنَاءِ، وَالتَّمَكُّنُ مِنَ الْبَقَاءِ. وَقَوْلُهُ: «وَكَمْ مَهْمَةٍ إِنْخِ». هِيَ الْمَفَازَةُ
الْبَعِيدَةُ. وَتُجْمَعُ عَلَى مَهَامِهِ. وَمَعْنَى جُبْنَا: قَطَعْنَا. وَالْجُوبُ: هُوَ الْقَطْعُ. أَيْ
كَمْ مِنْ مَفَازَةٍ لِلنَّفْسِ قَدْ قَطَعْنَاهَا بِالْمُجَاهِدَةِ وَالْمُكَابَدَةِ وَالزِّيَاذَةِ. كَمَشَاقِ الْأَسْفَارِ
إِلَى زِيَارَةِ الْمَشَايِخِ وَالْإِخْوَانِ وَكَقَطْعِ عَوَائِدِ النَّفْسِ. وَمَا رَكَنْتَ إِلَيْهِ مِنَ الْجَاهِ،
وَالرَّاحَةِ، وَإِقْبَالِ الْخَلْقِ بِتَحْمُلِ أَضْدَادِهَا مِنَ الذَّلِّ وَالتَّعَبِ. وَالْإِعْرَاضُ عَنْ

الخلق بالْعُزْلَةِ وَالْإِنْفِرَادِ، وَهَذَا هُوَ خَزَقُ عَوَائِدِهَا؛ وَهُوَ شَرْطُ فِي عِمَارَةِ الْبَاطِنِ.
 قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا يَنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِتَنْضِيحِ الْجُلُودِ، وَضِيْقِ الْكِبُودِ.
 وَقَالَ الشَّيْخُ زُرُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْمُرِيدَ لَا يَصِلُ لَعَيْنِ الْحَقِيقَةِ، حَتَّى يَرَى
 مِنَ الْمِحْنِ وَالْفِتَنِ وَالْبَلَايَا مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ. وَيَجُوبُ مَعَ ذَلِكَ مَهَامَةٌ، وَتَقْصُرُ
 فِيهَا الْخَطَى، فَمَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ نَفَذَ. وَمَنْ أَهَانَهُ رَجَعَ. فَإِنْ جَدَّ تَقَابِلُهُ الدُّنْيَا
 وَالْخَلْقَ بِالْإِدْبَارِ، وَالنَفْسَ بِالتَّعَصُّبِ، وَإِبْلِيسَ بِالتَّسْلُطِ. فَإِنْ صَبَرَ وَجَاهَدَ وَجَدَ
 وَالتَّرَمَّ، فَازَ وَوَصَلَ، وَإِلَّا هَلَكَ فِي بَغْضِ أَوْدِيَّتِهِ. ثُمَّ يُقَابِلُهُ كَذَلِكَ بِالْإِقْبَالِ
 وَالتَّخِيرِ، كَذَا فَإِنْ سَكَنَ كَذَا وَحَذَرَ نَجَى، وَإِلَّا ذَهَبَ فِي الْاِغْتِرَارِ وَالْاِسْتِرْسَالِ
 وَنَحْوِهَا، ثُمَّ يُقَابِلُهُ الْجَمِيعَ بِالتَّمْكِينِ. فَإِنْ ثَبَتَ وَإِلَّا انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ فِي اتِّبَاعِ
 الْهَوَى رَدًّا وَقَبُولًا.

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلِي فِي عَيْنِيَّتِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

وَإِيَّاكَ فَاصْبِرْ لَا تَمُلْ فَإِنَّمَا بِصَبْرِ الْفَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ الْمَطَامِعُ
 وَهُوَ عَلَى النَّفْسِ اِزْتِكَابًا لِيَهْزُلَهَا فَعَبِيرُ مُجِبٍّ مَنْ دَهَشَهُ الْفَجَائِعُ
 قُلْتُ: مَنْ اتَّصَلَ بِشَيْخِ التَّزْيِيَةِ، سَهَلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ كُلُّهُ إِنْ التَّرَمَّ وَتَأَدَّبَ. وَإِنْ
 لَمْ يَتَّصِلْ بِشَيْخِ التَّزْيِيَةِ، اتَّعَبَ نَفْسُهُ بِلَا طَائِلٍ كَمَا جَرَيْنَا ذَلِكَ وَذَقْنَاهُ. وَجَرَّبَ
 فِئِي التَّجْرِبِ عِلْمَ الْحَقَائِقِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

وَتَمَامَ ذَلِكَ كُلُّهُ إِدَامَةُ السَّيْرِ، وَعَدَمُ الْاِلْتِفَاتِ إِلَى الْغَيْرِ كَمَا أَبَانَ ذَلِكَ
 بِقَوْلِهِ:

فَلَا تَلْتَفِتْ بِالسَّيْرِ غَيْرًا وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنًا
 وَكُلُّ مَقَامٍ لَا تُقِمُ فِيهِ أَنَّهُ حِجَابٌ فَجُدْ السَّيْرَ وَاسْتَنْجِدِ الْعَوْنَا
 يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَا تَلْتَفِتْ فِي حَالِ السَّيْرِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَيًّا مَا
 كَانَ، سِوَاءَ كَانَ عِلْمًا أَوْ أَحْوَالًا، أَوْ مَقَامَاتٍ، أَوْ طَاعَاتٍ، أَوْ كَرَامَاتٍ، أَوْ
 اِقْبَالَ الْخَلْقِ، أَوْ اِدْبَارِهِمْ، أَوْ عِزًّا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ. فَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ،
 وَحِجَابٌ عَظِيمٌ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُ. فَالْمَقْصُودُ وَالْمَطْلُوبُ، هُوَ الْوَصَالُ إِلَى شَهُودِ
 عَظْمَةِ ذَاتِ الْحَقِّ عَيَانًا وَمَعْرِفَتِهِ دَوَامًا وَاتِّصَالًا. فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ بِقَلْبٍ حَصْنًا مِنْ

ذَلِكَ الْقَوَاطِعِ. وَ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الانعام: ٩١] وَلَا شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ حِضْنُ مَانِعٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَسَائِرُ الْقَوَاطِعِ. يَكُونُ أَوَّلًا بِاللِّسَانِ. ثُمَّ بِالْقَلْبِ، ثُمَّ بِالرُّوحِ، ثُمَّ بِالسَّرِّ. وَهُوَ مَقَامُ التَّمَكِينِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ. فَحَيْثُذْ يَحْصُلُ الْأَمَانُ مِنَ الْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ، وَمِنْ سَائِرِ الْقَوَاطِعِ فِي الْغَالِبِ.

وَمِنْ جَمَلَةِ الْقَوَاطِعِ، الْوُقُوفُ مَعَ الْمَقَامَاتِ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: «وَكُلُّ مَقَامٍ لَا تَقُمْ فِيهِ أَنَّهُ حِجَابٌ». وَلَا مَفْهُومٌ لِلْمَقَامَاتِ، وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ وَالْوَارِدَاتُ، لَا يَنْبَغِي اسْتِحْلَاؤُهَا، وَلَا التَّطَلُّعُ إِلَيْهَا. قَالَ فِي الْحِكَمِ:

«لَا تَطْلُبْنِ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بُسِطَتْ أُنُوَارُهَا. وَأُوْدِعَتْ أَسْرَارُهَا. فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ. تَطْلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ، دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ. وَاسْتِحْشَاكَ بِفُقْدَانِ مَا سِوَاهُ، دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلِكَ بِهِ» وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو هَادِي فِي صَبَاحِ يَوْمِ لِأَصْحَابِهِ: بِمَ يَرْتَفِعُ الْعَبْدُ مِنْ حَالَةٍ لَمَّا هُوَ أَرْفَعُ مِنْهَا؟ قَالُوا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، قَالَ: إِنَّمَا سَأَلْتُكُمْ عَنِ السَّبَبِ الْخَاصِّ بِهَذَا الْأَمْرِ، قَالُوا: مِنْ عِنْدِ الشَّيْخِ. قَالَ: يَخْلُقُ اللَّهُ لَهُ هِمَّةً أَعْلَى مِنْ هِمَّتِهِ. فِيرْفَعُهُ بِهَا إِلَى رُتْبَةٍ أَعْلَى مِنْ رَتْبَتِهِ. قُلْتُ: وَأَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الِازْتِفَاعِ، الْانْكَسَارُ وَالِاتِّضَاعُ. فَإِذَا انْكَسَرَ الْمُرِيدُ انْضَعَّ لِسِيْدِهِ، بِسَبَبٍ أَوْ بِغَيْرِ سَبَبٍ. حَصَلَ لَهُ التَّرَقُّيُّ إِلَى مَقَامٍ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ. ثُمَّ أَمَرَ الشَّيْخُ بِالْجَدِّ فِي السَّيْرِ وَالنَّهْوِ فَقَالَ: «فَجَدُّ السَّيْرِ» أَيُّ فَجَدُّ الْعَزْمِ وَدُمَّ عَلَى جِهَادِ نَفْسِكَ، وَمُخَالَفَتِهَا. فَلَوْلَا مَيَادِينُ الثُّفُوسِ، مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ. وَالزَّمُّ صُحْبَةُ الرِّجَالِ وَالْمَشَايِخِ، فَلَا عَوْنَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ. وَتَأَمَّلْ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عَيْنِيته:

فَسَمَّرَ وَلَذَّ بِالْأَوْلِيَاءِ فَبِإِنَّهُمْ	لَهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالْكَثْرُ لِلرَّجَا	وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبَّ مَنْ هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَا	بِهِمْ يُجْذِبُ الْعِشَاقُ وَالرَّبُّعُ شَاسِعُ

وَاسْتَنْجِدِ الْعَوْنَ، أَيِ اطْلُبْهُ مِنَ اللَّهِ، بَعْدَ تَحْصِيلِ مَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّهُ يُعِينُكَ عَلَى مَا تَرِيدُ. وَالِاسْتِنْجَادُ: الْإِلْحَاحُ فِي الطَّلَبِ. قَالَهُ فِي الْقَامُوسِ.

ثُمَّ ذَكَرَ وَجْهَ الْعَمَلِ فِي الْفِرَارِ مِنَ الْوُقُوفِ مَعَ الْغَيْرِ فَقَالَ:

وَمَهْمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتِبِ تُجْتَلَى عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِفْهَامِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ فَلَا صُورَةَ تُجْلَى وَلَا طُرْفَةَ تُجْنَى

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَهْمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتِبِ مِنْ مَرَاتِبِ أَهْلِ التَّخْصِصِ
وَالْتَقَرُّبِ تُجْتَلَى؛ أَي تَظْهَرُ عَلَيْكَ كَظْهَرِ الْكَرَامَاتِ، وَالْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِ
الْمَقَامَاتِ، وَخَلَاوَةِ الطَّاعَاتِ وَإِقْبَالِ الْوَرَى وَأَبْنَاءِ الْجِسِّ، فَحُلْ عَنْهَا؛ أَي تَحَوَّلْ
بِهِمَّتِكَ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا، وَعَنِ الْوُقُوفِ مَعَهَا، فَإِنَّ الْوُقُوفَ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ،
حِجَابٌ عَنِ شُهُودِ الْحَقِّ. قَالَ فِي الْحَكَمِ: «مَا أَزَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ
كُشْفِ لَهَا إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ؛ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ وَلَا تَبْرَجَتْ ظَوَاهِرُ
الْمَكُونَاتِ، إِلَّا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ».

وَالْمَرَاتِبِ الَّتِي تُجْتَلَى لِلْسَّائِرِ فِي سَبِيلِهِ ثَلَاثٌ: فَنَاءٌ فِي الْأَفْعَالِ وَفَنَاءٌ فِي
الْصِّفَاتِ، وَفَنَاءٌ فِي الذَّاتِ. فَإِذَا كُشِفَ لِلْسَّائِرِينَ عَنْ تَوْحِيدِ الْأَفْعَالِ وَذَاقَ
خَلَاوَتَهُ. وَأَزَادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَلِكَ الْمَقَامِ، نَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْفَنَاءِ فِي
الْصِّفَاتِ؛ الَّذِي تَطْلُبُهُ أَمَامَكَ. وَإِذَا تَرَقَّى إِلَى الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ، وَكُشِفَ لَهُ عَنْ
سِرِّ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ. فَاسْتَشْرَفَ عَلَى الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، وَأَزَادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ
مَعَ ذَلِكَ الْمَقَامِ نَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ؛ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ وَإِذَا تَرَقَّى إِلَى
الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، كُشِفَ لَهُ عَنْ سِرِّ تَوْحِيدِ الذَّاتِ. وَأَزَادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَعَ
ذَلِكَ. نَادَتْهُ هَوَاتِفُ حَقِيقَةِ الْبَقَاءِ وَبَقَاءِ الْبَقَاءِ. وَهَكَذَا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ
التَّرَقِّي. وَإِذَا تَبَرَّجَتْ، أَيِ ظَهَرَتْ بِزِينَتِهَا وَزَخَارِفِهَا ظَاهِرُ الْمَكُونَاتِ بِخَرْقِ
عَوَانِدِهَا. وَانْقِيَادِهَا لَهُ. وَتَصَرُّفِهَا فِيهَا بِهَيْمَتِهِ. كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ، وَالطَّيْرَانِ فِي
الْهَوَاءِ. وَطَيِّ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ فِي لَحْظَةٍ. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْكَرَامَاتِ الْحُسْنِيَّةِ.
وَأَزَادَتْ هِمَّةُ السَّالِكِ أَنْ تَقِفَ مَعَهَا، نَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ؛ وَهِيَ أَسْرَارُ الْمَعَانِي
الْبَاطِنِيَّةِ. إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ لَكَ، نَخْتَبِرُكَ هَلْ تَقِفَ مَعَ ظَاهِرِهَا فَتُخْجَبَ بِهَا، أَوْ تَنْقُذَ
إِلَى بَاطِنِهَا. فَتَعْرِفُ مَالِكِهَا وَالْمَتَجَلِّي بِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُثْمَانَ بْنِ عَاشُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ
أُرِيدُ الْمَوْصِلَ. فَأَنَا أَسِيرُ، فَإِذَا بِالدُّنْيَا قَدْ عُرِضَتْ عَلَيَّ بِعِزِّهَا وَجَاهِهَا، وَرَفَعَتْهَا،
وَمَرَكَهَا وَمَلَابِسَهَا. وَمَزِينَاتِهَا وَثِمَارِهَا وَمُسْتَهْيَاتِهَا. فَأَعْرَضْتُ عَنْهَا. فَعُرِضَتْ

عَلَيَّ الْجَنَّةُ بِحُورِهَا وَقُصُورِهَا، وَأَنْهَارِهَا وَثَمَارِهَا فَلَمْ أَشْتَغِلْ بِهَا. فَقِيلَ لِي يَا عُثْمَانُ، لَوْ وَقَفْتَ مَعَ الْأُولَى لَحَجَبْنَاكَ عَنِ الثَّانِيَةِ. وَلَوْ وَقَفْتَ مَعَ الثَّانِيَةِ لَحَجَبْنَاكَ عَنَّا. فَهَا نَحْنُ وَقَسْطُكَ مِنَ الدَّارَيْنِ يَا تَيْبُكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الْأَكْوَانِ. وَصَلَ إِلَى مُكَوِّنِهَا. وَمَنْ وَقَفَ بِهَيْمَتِهِ مَعَ شَيْءٍ دُونَ الْحَقِّ فَاتَهُ الْحَقُّ؛ وَهُوَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَرْضَى مَعَهُ بِشَيْءٍ. وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: فَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ أَيُّهَا الْمُرِيدُ صُورَةُ تُجَلَّى، أَيْ تَظْهَرُ لَكَ مِنْ نَوْعِ الْكَرَامَاتِ. وَلَا طَرَفَةَ تَجَنَّى، كَوُجُودِ الثَّمَارِ مِنْ غَيْرِ إِبَانِهَا. وَخِلَافَةِ الطَّاعَاتِ. فَإِنَّهَا سُمُومٌ قَاتِلَةٌ.

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْقَفْنِي الْحَقُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: تُرِيدُ الطَّرْفَ فَقُلْتُ لَا. فَقَالَ: تُرِيدُ الثَّرْفَ. فَقُلْتُ لَا. فَقَالَ: تُرِيدُ التَّحَقُّقَ فَقُلْتُ لَا. قَالَ: فَمَا تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ؛ لِأَنِّي أَنَا الْمُرَادُ وَأَنْتَ الْمُرِيدُ. وَحَكَى أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْحَقُّ تَعَالَى يَرِينِي الْكَرَامَاتِ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنِّي جَعَلَ لِي إِلَى مَعْرِفَتِهِ سَبِيلًا. قَالَ بَعْضُهُمْ: كُشِفَ لِي عَنْ أَرْبَعِينَ حُورًا، فَرَأَيْتُهُنَّ يَتَشَخَّصْنَ فِيِّي فَالتَفْتُ إِلَيْهِنَّ. فَحُجِبْتُ عَنْ مَقَامِي مَدَّةً. ثُمَّ كُشِفَ لِي عَنْ ثَمَانِينَ، فَسَجَدْتُ وَأَنَا أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَّمَا سِوَاكَ.

وَقَالَ شَيْخُ شَيْوِخَنَا سَيِّدِي عَلِيُّ الْعِمْرَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اشْتَقْتُ يَوْمًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَإِذَا أَنَا أَكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَأَقْطِفُ مِنْ أَزْهَارِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا. فَاشْتَغَلْتُ بِذَلِكَ عَنْ خِلَافَةِ الشُّهُودِ فَتَبْتُ إِلَى اللَّهِ فَأَخْرَجَنِي مِنْ سَجْنِهَا». وَقَالَ الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الطُّفُّ مَا يُخَادَعُ بِهِ الْأَوْلِيَاءُ، الْكَرَامَاتُ وَالْمَعُونَاتُ. وَيُحَكَّى أَنْ يَشْرَأَ الْحَافِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَأَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي النَّوْمِ. فَقَالَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَحْسَنَ عَطْفِ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ رَجَاءَ الثَّوَابِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: وَأَحْسَنَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، تَيْبَةُ الْفُقَرَاءِ ثِقَةٌ بِاللَّهِ».

قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ: وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، هِمَّةُ الْعَارِفِينَ، تَتَشَاكَى لَهُ فِيهَا جَمِيعُ الْمَقْدُورَاتِ، فَضْلًا عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ.

لَمَّا قَدِمَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْقُطَيْبِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشٍ، وَجَدَهُ فِي مَغَارَتِهِ يَدْعُو. فَكَرِهَ الدَّخُولَ عَلَيْهِ لَيْلًا، وَكَانَ فِي مَقْصَدِ

الشيخ أبي الحسن نَفَعَ النَّاسَ، وَجَلَبَهُمْ إِلَيْهِ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ. وَكَانَ يَتَرَدَّدُ فِي خَاطِرِهِ، هَلْ يَدْخُلُ لِلْمُذْنِ أَوْ يَنْقَطِعُ فِي الْجِبَالِ وَالْقِفَارِ، لِلْعِبَادَةِ، فَسَمِعَ الشَّيْخَ مِنْ دَاخِلِ الْمَغَارَةِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ قَوْمًا قَدْ طَلَبُوا مِنْكَ أَنْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقَكَ. فَسَخَّرْتَهُمْ لَهُمْ، فَرَضُوا بِذَلِكَ. وَأَنَا أَسْأَلُكَ اعْوِجَاجَهُمْ عَلَيَّ، حَتَّى لَا يَكُونَ مَلْجَئِي إِلَّا إِلَيْكَ.

فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ: يَا نَفْسِي مِنْ أَيْ بَحْرٍ يَغْتَرِفُ هَذَا الرَّجُلُ. فَلَمَّا دَخَلَ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ. قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي. قَالَ: أَشْكُو مِنْ بَزْدِ الرِّضَى وَالتَّسْلِيمِ، كَمَا تَشْكُو أَنْتَ مِنْ حَرِّ التَّذْيِيرِ وَالِاخْتِيَارِ. فَقَالَ: يَا سَيِّدِي أَمَّا شُكْوَاتِي مِنْ حَرِّ التَّذْيِيرِ وَالِاخْتِيَارِ، فَقَدْ دُفِّقَتْ وَأَنَا فِيهِ. وَأَمَّا شُكْوَاكَ أَنْتَ مِنْ بَزْدِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، فَلِمَذَا؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ تَشْغَلَنِي خَلَاوَتُهُمَا عَنِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ يَا سَيِّدِي: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ اعْوِجَاجَ الْخَلْقِ عَلَيَّ. قَالَ ابْنُ مَشِيشٍ: يَا أَبَا الْحَسَنِ: عِوَضَ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ يَا رَبِّ سَخِّرْ لِي خَلْقَكَ قُلْ يَا رَبِّ كُنْ لِي. أَفْتَرَى إِنْ كَانَ لَكَ، أَيْفُوتُكَ شَيْءٌ؟ فَمَا هَذِهِ الْجَبَانَةُ. انْتَهَى بِمَعْنَاهُ. فَهَذِهِ الْمَقَامَاتُ وَالْكَرَامَاتُ كُلُّهَا تَصْرَفُ الْمُرِيدَ إِلَى التَّعَلُّقِ بِاللَّهِ. وَعَدَمُ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى مَا سِوَاهُ كَأَنَّ مَا كَانَ.

وَلَمَّا حَرَّضَ عَلَى الْفَنَاءِ وَالْفِرَارِ إِلَى اللَّهِ. أَمَرَ بِالتَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ؛ وَهُوَ مَقَامُ الْبَقَاءِ، وَكَمَالِ الْكَمَالِ فَقَالَ:

وَسِرْ نَحْوَ أَغْلَامِ الْيَمِينِ فَلِئَلَّا سَبِيلٌ بِهَا يُنْمَنَ فَلَا تَتَرُكِ الْيَمْنَ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا أَفْرَدْتَ قَلْبَكَ لِلَّهِ، وَلَا حَتَّ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَنَاءِ. فَتَمَسَّكَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ. وَسِرْ نَحْوَ أَغْلَامِ الْيَمِينِ، وَاسْتَظِلَّ مَعَهُمْ تَحْتَ ظِلِّ لُؤَاءِ الشَّرِيعَةِ؛ وَأَعْلَامِهَا، فَإِنَّهَا طَرِيقٌ بِهَا يُنْمَنُ وَبِرَكَّةٍ وَنَجْدَةٍ وَغَنِيمَةٍ، فَلَا تَتَرُكِ الْيَمْنَ وَالْبِرْكَهَ فَتَقَعَ فِي الْخُسْرَانِ وَالتَّدَامَةِ. وَلِذَلِكَ قِيلَ:

«مَنْ تَصَوَّفَ وَلَمْ يَتَّقَهُ فَقَدْ تَزَنَّدَقَ. وَمَنْ تَفَقَّهَ وَلَمْ يَتَصَوَّفَ فَقَدْ تَفَسَّقَ. وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تَحَقَّقَ».

قَالَ الشَّيْخُ زُرُقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«تَزَنَّدَقَ الْأَوَّلُ لِإِفْعَالِهِ الشَّرِيعَةِ. وَقَدْ جَاءَ بِهَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ؛ فَهِيَ

باب الدُّخُولِ إِلَى اللَّهِ. وَتَفَسَّقَ الثَّانِي لِإِهْمَالِهِ الْحَقِيقَةَ، وَتَحَقَّقَ الثَّالِثُ، لَجَمْعِهِ بَيْنَهُمَا. قَالَ: وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَقْبَةَ الْحَضَرَمِيِّ كَثِيرًا مَا يَنْشُدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

اَتَّبَعَ رِيَّاحَ الصَّبَا وَدُزَّ حَيْثُ دَارَتْ وَسَلَّمْ لِسَلَمَى وَسِرَّ حَيْثُ سَارَتْ
وَمُرَّادُهُ سَلَمَى فِيمَا أَظْلُهُ: الشَّرِيعَةُ. وَاللَّهُ أَغْلَمُ. قُلْتُ: بَلَى الظَّاهِرُ، أَنَّهَا الْحَقِيقَةُ. إِذَا هِيَ الَّتِي يَكْنَى عَنْهَا أَهْلُ الْفَنِّ بِسَلَمَى. وَعِزَّةٌ وَلَيْلَى وَأَيْضًا: هِيَ الْمُتَصَرِّفَةُ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا فَيَجِبُ الْمِيلُ مَعَهَا أَيْنَ مَا ظَهَرَتْ. وَالسَّيْرُ بِسَيْرِهَا حَيْثُ سَارَتْ. وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَإِنَّهَا رِذَاءٌ لَهَا وَسِرٌّ لِأَسْرَارِهَا. وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

فَالْتَمَسْتُ بِرُسُومِ الشَّرِيعَةِ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ فَرَضَ لَازِمٌ. وَمَنْ أَحَلَّ بِهِ، رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ. وَلَا يُزَجَّى فَلَاخُهُ. وَقَالَ السَّاحِلِيُّ فِي بَغْيَتِهِ لَمَّا تَكَلَّمَ عَلَى آدَابِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ بَعْدَ كَلَامِ الثَّالِثِ: إِقَامَةُ رُسُومِ الشَّرِيعَةِ، أَحْسَنُ إِقَامَةٍ؛ فَهِيَ شِعَارُ الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ الْوَسَائِلُ إِلَى دَرْكِ الْحَقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ عِنْدَ مَوَارِدِ التَّحْقِيقِ؛ فَهُوَ مَغْبُوتٌ فِي حَقِيقَتِهِ. مَفْتُونٌ فِي وَجْهَتِهِ. رَاضٍ بِالْجِزْمَانِ وَالْهَوَانِ. وَمِنْ عَلَامَاتِ صِدْقِ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصَاتِ عَدَمُ حَلِّ الْيَدِ مِنْ عِزَّةِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ فِي اسْتِغْرَاقِهِمُ الْجَفْظَ عَلَيْهَا، فِي إِقَامَةِ الرُّسُومِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا أَنَّ مِنْ عَلَامَةِ الْخِذْلَانِ، حَلُّ الْيَدِ مِنْ عِزَّةِ الشَّرِيعَةِ، عِنْدَ وَرُودِ الْحَقَائِقِ، رِزْقَنَا اللَّهُ مِنْ جَفْظِهِ وَكَلَاءَتِهِ، مَا يَحْمِلُنَا عَلَى مَنَاجِجِ الْعَارِفِينَ.

قُلْتُ: وَرُسُومُ الشَّرِيعَةِ: هُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ، وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ. نَهَى تَحْرِيمًا، أَوْ نَهَى كَرَاهِيَةً. وَقَالَ أَيْضًا: فِي شُرُوطِ الْمَعْرِفَةِ: الثَّالِثُ: الْمَحَافَظَةُ عَلَى الرُّسُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَإِقَامَةُ الْوُظَائِفِ الرَّبَّانِيَّةِ اقْتِدَاءً بِإِمَامِ الْعَارِفِينَ، وَسَيِّدِ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِي تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ لِتَمَكُّنِ مَعْرِفَتِهِ، وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ، وَزَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ حِينَ ادَّعَوْا الْمَعْرِفَةَ. وَقَالُوا بَتَرَكَ الشَّرِيعَةَ، وَرَأَوْا ذَلِكَ مِنَ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى. وَلَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّ ذَلِكَ تَعْطِيلٌ وَكُفْرٌ وَخَاشَا الْمَعْرِفَةَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ إِمَامُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَسَيِّدُ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ أَبُو الْقَاسِمِ الْجَنِّيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْقَوْلُ بِإِسْقَاطِ الْأَعْمَالِ عِنْدِي عَظِيمٌ وَالَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي، أَحْسَنُ حَالًا عِنْدِي مِنَ الَّذِي يَقُولُ بِإِسْقَاطِ الْأَعْمَالِ؛ أَيِ الشَّرِيعَةِ».

قال النقشبندي: وقد صدق رضي الله عنه: فإن السارق والزاني عاصي بسرقة وزناه. ولا يصل إلى حد الكفر. وأما القائل بسقوط الفرائض. وتحليل المحرمات المعتقد لذلك فقد أنسل الإيمان منه إسلال الشجرة من العجين. ثم قال الجنيد: «فإن العارفين أخذوا الأعمال من الله». ثم قال: ولَوْ بقيت ألف عام لَمْ أنقض من الشريعة ذرَّةً.

ثم قال الساجلي في آداب المعرفة: الثالث: ملازمته الهيبة، والصعود إلى غايتها. فإن الهيبة من أمارات المعرفة، كلما ازدادت معرفته ازدادت هيئته. وقد يعبر عن الهيبة بالخشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. [فاطر: ٢٨] وقال ﷺ: «أنا أعرّفكم بالله وأشدكم له خشية»^(١). فإن قلت: كلامك يشير إلى أن المعرفة: محو مطلق. والمحو المطلق: فتاء عن الرسوم والصفات، والهيبة من الرسوم والصفات. فالجواب أن العارف، وإن كان بهذه المثابة من الاستغراق في معرفته. والاستهلاك في موجوده لشهوده. فحين علامات قربه، وإن اختطف عن إحساسه، أن تبقى رسوم الأدب محفوظة عليه، بحفظ الله تعالى إياها عليه. وإقامته فيها مقام الحمد، فيكن سره مستغرقاً في شهوده ورسمه. قائماً بوظائف معبوده من البغية. ولله در سيدي عبد الله الهبطي حيث قال في منظومته؛ التي سماها شمس الضحى:

وثالثُ الفُصولِ في الشريعة	لأنها إلى الهدى ذريعة
فكلُّ بابٍ دونها مسدود	ومن أتى من غيرها مزدود
قد اضطفاها ربنا عز وجل	بفضله وجوده على الملل
طريقة الرحمن للعذنان	مخفوفة بالثور والرضوان
طوبى لمن أتى بها للعرض	والوئيل للذي بها لم يفض
وإنما أطلت الكلام هنا؛	لأنني رأيت كثيراً من الفقراء خلوا يدهم من

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء بلفظ: «أنا أعرّفكم بالله وأخوفكم منه» حديث رقم (٦٠٧) [٢٣١/١] وفي صحيح البخاري باب أنا أعلمكم بالله... حديث رقم (٢٠) [١٦/١]: «إن أتاكم وأعلمكم بالله أنا».

الشريعة. وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْمَسْخُ وَالْبُعْدُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنَ السَّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ.
ثم حَدَّرَ الشيخ من الوقوف مع مُجَرِّدِ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّهُ مَعْقُولٌ عَنْ شُهُودِ
الْأَسْرَارِ فَقَالَ:

أَمَّاكَ هَوْلٌ فَاسْتَمِعْ لَوْصِيَّتِي عِقَالَ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي مِنْهُ قَدْ ثُبُنَا
قُلْتُ: عِقَالَ بَدَلٌ مِنْ هَوْلٍ. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُذِّمَكَ أَيُّهَا السَّائِرُ هَوْلٌ
عَظِيمٌ؛ وَهُوَ عِقَالٌ فِكْرَتِكَ عَنِ الثُّقُودِ إِلَى مَيَادِينِ الْغُيُوبِ، وَفَضَاءِ الشُّهُودِ. وَهَذَا
الْعِقَالُ هُوَ عَقْلُكَ، حَيْثُ وَقَفْتَ مَعَهُ. وَلَمْ تُدْرِكْ إِلَّا مَا أَدْرَكَهُ مِنْ صِنْعَةِ الْكَوْنِ.
وَافْتِقَارَهُ إِلَى صَانِعِهِ، وَلَمْ تَنْفُذْ إِلَى مَا وَرَائِهِ مِنْ شُهُودِ الْمَكُونِ فِي مَظَاهِيرِ
مُكُونَاتِهِ. فَإِنَّ أَسْرَارَ الْمَعَانِي خَارِجَةٌ عَنْ دَائِرَةِ الْعُقُولِ وَإِحَاطَةِ النُّقُولِ كَمَا قَالَ
سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض فِي تَأْيِيهِ:

وَلَا تَكُنْ بِمَنْ طَيَّسَتْهُ طُرُوسُهُ بِحَيْثُ اسْتَخَفَّتْ عَقْلُهُ وَاسْتَقَرَّتْ
فَتَمَّ وَرَاءَ الثَّقْلِ عِلْمٌ يَدُوقُ عَنْ مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السُّلَيْمَةِ
تَلَقِّيَتْهُ عَنِّي وَمِنِّي أَخَذَتْهُ وَنَفْسِي كَانَتْ مِنْ عَطَائِي مُجِدَّتِي
فَاسْتَمِعْ لَوْصِيَّتِي؛ وَهِيَ لَا تَقِفُ مَعَ تَوَهُّمَاتِ الْعَقْلِ، وَتَخَيَّلَاتِهِ الَّتِي ثُبُنَا
مِنْهَا. وَرَجَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَاشْتَغَلْنَا بِذِكْرِهِ، ذَكْرًا مُتَّصِلًا، وَتَرَكْنَا حُطُوطَنَا وَلُحُوظَنَا
فَأَشْرَقَتْ عَلَيْنَا الْأَنْوَارُ، وَلَاحَتْ عَلَيْنَا الْأَسْرَارُ، فَخَرَجْنَا عَنْ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ،
وَأَفْضَيْنَا إِلَى فَضَاءِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ بَعْدَ صَحْبَةِ الْمَشَايخ وَخِدْمَتِهِمْ وَامْتِنَالِ أَمْرِهِمْ،
وَلَوْ أَفْضَى إِلَى الْعَطَبِ وَتَضَدِيقِ قَوْلِهِمْ. وَلَوْ كَانَ مُحَالًا، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ أَبُو
الْحَسَنِ الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا جَالَسْتَ إِلَى الْكِبَرَاءِ، فَدَعْ مَا تَعْرِفُ لِمَا لَا
تَعْرِفُ؛ لَتَفُوزَ بِالسُّرِّ الْمَكُونِ».

ثُمَّ ذَكَرَ وَبَالَ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَقْلِهِ فَقَالَ:

أَبَادَ النُّورَى بِالْمُشْكِلَاتِ وَقَبْلَهُمْ بِأَوْهَامِهِ قَدْ أَهْلَكَ الْجِنُّ وَالنِّبَا
الْجِنُّ وَالْبِنُّ: قَبِيلَتَانِ مِنَ الْجِنِّ، عَمَرْنَا الْأَرْضَ قَبْلَ آدَمَ. هَكَذَا وَجَدَ بِحَطِّ
النُّوَيِّ مِنْهُمْ أَسْوَدَ الْبُهْمِ، أَوْ سَفَلَةَ الْجِنِّ وَضَعَفَاوَهَا، فَقَدْ ذَكَرَهُ فِي الْقَامُوسِ
وَنَصَّهُ: الْجِنُّ بِالْكَسْرِ: حَيٌّ مِنَ الْجِنِّ مِنْهُمْ الْكِلَابُ السُّودُ الْبُهْمُ أَوْ سَفَلَةُ الْجِنِّ

وَضَعَفَاوَهُمْ أَوْ كَلَابَهُمْ أَوْ خَلَقَ بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وَأَمَّا الْبِنُّ: فَقَالَ فِي الْقَامُوسِ أَيْضاً: الْبِنَّةُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ. ثُمَّ قَالَ: وَمَوْضِعُ بَيْكَاثِلَ، وَبَلَدُهُ بَيْغَدَادَ. وَحِصْنٌ بِالْأَنْدَلُسِ. فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ مِنْ قِبَائِلِ الْجِنِّ. لَكِنْ مَنْ أَثَبَّتْ حُجَّةً، وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي مَادَّةِ الْمَقْصُورِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي دَمِّ الْعَقْلِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُ. وَحَكَّمَهُ فِي أُمُورِ عَقَائِدِهِ: أَبَادَ الْوَرَى: أَيِ أَهْلِكَهُمْ وَأَتَلَفَهُمْ بِالشَّكَلَاتِ النَّظَرِيَّةِ. رَدّاً وَقَبُولاً إِذِ الْعَقْلُ إِذَا لَمْ يَتَأَيَّدْ بِأَنْوَارِ الشَّرِيعَةِ، وَلَمْ يَقِفْ مَعَ الْحِجَابِ الْأَعْظَمِ؛ وَهُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَلَّ وَأَضَلَّ. وَهَذَا سَبَبُ هَلَاكِ الْمُعْتَزِّلَةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْإِمَامِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ: الْإِنْسَانِ وَالسَّبْعِينَ الْمَفْتَرِقَةِ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ. وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ، وَالطَّبَائِعِيِّينَ وَأَضْرَابِهِمْ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلُوا بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، بَلِ اسْتَضْغَرُوهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، أَيِ وَتَهَاوَنُوا بِغَيْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَاكَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨] قِيلَ إِنَّهُ صَادِقٌ بِالْفَلَاسِفَةِ. وَإِنَّهُمْ اغْتَفَدُوا أَنَّ عِنْدَهُمْ مَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ عَنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَلَمَّا سَمِعَ بُقْرَاطُ الْحَكِيمُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قِيلَ لَهُ: لَوْ هَاجَزْتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «نَحْنُ قَوْمٌ مُؤَذَّبُونَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيَّ مِنْ يَهْدِينَا». وَرَأَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ ابْنِ سَيِّئَةٍ. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى اللَّهِ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، فَانْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ». وَعَلَى فَرَضِ وَقُوفِهِمْ بَعْدَ رِيَاضَةِ النَّفْسِ، وَتَهْذِيبِهَا عَلَى التَّجَرُّدِ وَانْكَشَافِ قُدْسِ حَضَرَةِ الْحَقِّ. فَلَا يَظْفَرُونَ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَلَا بِالْفَنَاءِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالتَّخْلِصِ مِنْ لَوْثِ وَجُودِهِمْ. وَالشَّأْنُ أَنْ تَكُونَ عَيْنُ الْأَسْمِ. لَا أَنْ تُغَرَّفَ الْأَسْمُ وَالْعَيْنُ، وَإِنَّمَا تُقْتَبَسُ مِنْ مَشْكَاةٍ مَهِيْطِ الْوُحْيِ. وَانْصِبَابِ أَنْوَارِ الْغَيْبِ. إِنَّمَا تَقْيِضُ بِوَاسِطَةِ دَرَّةِ الْوُجُودِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَتَظْهَرُ سِرُّ الْعِيَانِ الْأَحَدِيِّ الْأَخْمَدِيِّ. فَافْهَمْ. قَالَ شَيْخُ شِيُوخِنَا سَيِّدِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْقَاسِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَضِي بِهِ عَنَّا.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَجْرَدَ الْعَقْلِ لَا يُنْجِي صَاحِبَهُ. بَلِ يَضُرُّهُ إِنْ وَقَفَ مَعَهُ. وَلَا يَنْقُلُ السَّالِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالْغَيْبَةِ عَنْهُ فَيَتَلَقَّى فِي بَدَائِيَتِهِ مَا يَرُدُّ مِنْ قِبَلِ شَيْخِهِ بِالْقَبُولِ لَوْ كَانَ مُحَالاً فِي نَظَرِهِ. فَإِذَا أَدْخَلَهُ الْحَضَرَةُ، تَلَقَّى مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ

مِنْ رَبِّهِ. وَتَرَكَ عَقْلَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ؛ لِأَنَّ نُورَ الْعَقْلِ كَالْقَمَرِ، وَنُورُ الْمَعْرِفَةِ كَالشَّمْسِ وَلَا وُجُودَ لِنُورِ الْقَمَرِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ؛ وَهَذَا قَبْلَ كَمَالِ تَصْفِيَّتِهِ كَمَا يَأْتِي.

وَقَوْلُهُ: وَقَبْلَهُمْ قَدْ أَهْلَكَ بِأَوْهَامِهِ الْجِنَّ وَالْبَنَّا. يَغْنِي أَنَّ الْعَقْلَ قَبْلَ الْوَرَاءِ؛ أَيِ الْإِنْسَانَ أَهْلَكَ بِأَوْهَامِهِ وَتَزْيِينِهِ؛ قَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْجِنَّ. زَيْنَ لَهُمُ الْكُفْرَ وَالْفَسَادَ حَتَّى حَارَبَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَأَسَارَتْ أَبَاهُمْ إِبْلِيسَ فَأَسْلَمَ وَعَبَدَ فِي السَّمَاوَاتِ. فَلَمَّا أَمَرَ بِالسُّجُودِ لَهُ. فَهَمُّهُ التَّكْبِيرُ، فَطَرِدَ وَأُبْعِدَ. وَلَوْ خَرَجَ عَنْ رَأْيِ عَقْلِهِ مَا اسْتَعْمَلَ الْقِيَاسَ الْفَاسِدَ فِي تَفْضِيلِ النَّارِ عَلَى الطِّينِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

وَإِذَا كَانَ الْعَقْلُ مَهْلِكَةً فَعَزَلَهُ وَاجِبٌ. وَعَلَيْهِ السُّلُوكُ. كَمَا أَبَانَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

مَحَجَّتْنَا قَطْعَ الْحِجَابِ وَهُوَ حَجَّتَنَا وَحَجَّتُنَا تَشْلُوهُ بَاءً بِهَا تِهْنًا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَحَجَّتْنَا أَيِ طَرِيقَنَا الَّتِي نَسْلُكُهَا إِلَى رَبَّنَا هِيَ قَطْعُ الْحِجَابِ. أَيِ الْعَقْلِ وَالْغَيْبَةِ عَنْهُ بِالِاسْتِغْثَالِ بِذِكْرِ اللَّهِ. وَالْفَنَاءِ فِيهِ. حَتَّى تَفِيضَ عَلَيْنَا أَنْوَارَ الْمَوَاجَهَةِ وَالشُّهُودِ فَتَغِيِبَ عَنِ الشَّاهِدِ فِي الْمَشْهُودِ. فَلَيْسَتْ طَرِيقَتُنَا طَرِيقَةَ الْاسْتِدْلَالِ لِفَهْمِ الطَّرِيقِ، حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى الْعَقْلِ إِنَّمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَذْوَاقِ وَوُجُودَانِ، يَغِيِبُ الدَّلِيلُ فِي الْمَذْلُولِ، وَالذَّاكِرُ فِي الْمَذْكُورِ، وَالْأَصْلُ فِي الْمَوْضُوعِ فَتَسْتَدِلُّ بِاللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ فَلَا نَجْدُهُ؛ هَذَا هُوَ حَجَّتُنَا. وَغَايَةُ بُغْيَتِنَا. وَعَرَفَةُ وَتُوفِينَا. مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ تَمَّ نُسْكُهُ وَحَجَّهُ. وَمَنْ تَعَوَّقَ عَنْهُ خَابَ سَعْيُهُ. وَضَاعَ تَعَبُهُ. وَهَذَا أَيْضًا حَجَّتُنَا. وَبُرْهَانُ مَعْرِفَتِنَا. فَمَا دَامَ السَّالِكُ يُفْتَقِرُ إِلَى الْاسْتِدْلَالِ فَهُوَ فِي الطَّرِيقِ. فَإِذَا اسْتَغْنَى عَنِ الدَّلِيلِ بِشُهُودِ الْمَذْلُولِ عَلَيْهِ وَرُؤْيَاهُ فَقَدْ تَحَقَّقَ وَصُولُهُ. وَفِي الْحَكْمِ: «إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَنْ هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. أَيْكُونُ لِعَيْنِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ. مَتَى غِيَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ وَقَوْلُ الْحَكْمِ: بِمَنْ هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. يَشِيرُ إِلَى جِسِّ الْكَائِنَاتِ مَعَ أَنَّهَا لَا وُجُودَ لَهَا أَصْلًا. إِذِ الْمَعْرِفَةُ اسْتِهْلَاكُ الْجِسِّ فِي الْمَعْنَى. وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ يُعْرَفُ بِالْمَعَارِفِ. مَنْ بِهِ عَرِفَتِ الْمَعَارِفُ». وَأَنْشُدُوا:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً وَأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدُهُ كُلُّ شَاهِدٍ
وَفِكْرَةَ الاعتبار التي فيها شيءٌ مِنَ الْعَقْلِ تَغْمِشُ عَيْنَ البصيرة التي هي
مَبْنَى فِكْرَةِ الاستبصار. فَلَا تَخْلَفُ فِكْرَةَ الاستبصارِ إِلَّا بِقَطْعِ مَوَادِّ الْعَقْلِ
والاستبدلال. وقوله: تَتْلُوهُ بَاءً. أَيِ وَتَتْلُو مَا ذُكِرَ مِنْ حَجَّتَنَا وَحُجَّتَنَا بَاءَ الْوَحْدَةِ.
فَقَدْ تَهَنَّا بِهَا. وَغَبَّنَا فِي بَخْرِهَا عَنْ وُجُودِنَا وَرَسْمِنَا وَعَقْلِنَا وَفَهْمِنَا. وَلِلَّهِ دُرٌّ
سَيِّدِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمَجْدُوبُ حَيْثُ قَالَ:

يَا قَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هُنَا الْبُحُورُ الَّتِي تَغِيي
هَذَا مَقَامَ أَهْلِ التَّجَرُّيدِ الْوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّي

وَبَاءَ الْوَحْدَةِ تَشِيرُ إِلَى بِي كَانٍ، وَمَا يَكُونُ، فِي تَوْحِيدِ الْأَفْعَالِ، وَبِي
قَامَتِ الْأَشْيَاءُ فِي تَوْحِيدِ الذَّاتِ. فَإِذَا غَرَّقَ الْعَبْدُ فِي تَيَّارِ بَحْرِ الذَّاتِ. غَابَ عَنِ
حُكْمِ عَقْلِهِ. وَاسْتَعْنَى بِشُهُودِ رَبِّهِ، عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ بِعَقْلِهِ. إِذْ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْيَعْيَانِ.
وَنَقْطَةُ الْبَاءِ يُشِيرُونَ بِهَا إِلَى نَقْطَةِ الْكَوْنِ. فَإِنَّهُ مَظْهَرُ تَجَلِّيِ الذَّاتِ. وَمُعَرِّفِ لَهَا.
كَمَا عُرِفَتِ الْبَاءُ بِنَقْطَتِهَا. وَقَدْ سَأَلَ الْجَنِّيدُ الشُّبْلِيُّ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا نَقْطَةُ
الْبَاءِ. فَأَجَابَهُ الْجَنِّيدُ بِتَحْقِيقِ ذَلِكَ. إِذْ قَالَ:

«أَنْتَ لَشَاهِدِهِ مَا لَمْ تَجْعَلْ لِنَفْسِكَ قَدْرًا». أَنْتَ مُحَقِّقٌ لِمَعْرِفَتِي لِأَنَّهُ
شَيْخُهُ. مَا لَمْ تَثْبُتْ لِنَفْسِكَ وَجُودًا مَعَ الْحَقِّ لِأَنَّ النِّقْطَةَ لَهَا انْفِصَالٌ عَنِ الْبَاءِ.
وَلَا انْفِصَالٌ لِلْعَارِفِ عَنْ مُوجِدِهِ. وَلَا لِلْكَوْنِ بِأَسْرِهِ عَنِ التَّجَلِّيِ بِهِ. وَقَدْ أَشَارَ
النَّاظِمُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ. حَيْثُ قَالَ فِيهَا:

نُقْطَةُ الْبَاءِ كُنْ إِذَا شِئْتَ تَسْمُو أَوْ قَدْغَ ذِكْرُ قُرْبَانَا يَا مُوَلَّهَ

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ بِنَقْطَةِ الْبَاءِ هُنَا إِلَى الْعِبُودِيَّةِ؛ وَهِيَ التَّجَلِّيُّ بِالسُّفُلِيَّاتِ،
دُونَ الْعُلُويَّاتِ. فَإِنَّهَا سَبَبُ الْعِزِّ وَالْإِرْتِفَاعِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَمِنْ وَبَالِ الْوُقُوفِ مَعَ الْعَقْلِ أَنَّهُ يُبْطِئُ السَّيْرَ لَمَّا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبْطِئُ
عَنِ الصُّعُودِ لِأَنَّهُ، يَوْذُ لَوْ أَنَّ لِلصَّعِيدِ قَدْ أَخْلَدْنَا.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَأْنِ الْعَقْلِ، أَنَّهُ يُبْطِئُ؛ أَيِ يَعْرِفُنَا عَنْ الصُّعُودِ
عَنْهُ إِلَى أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ. بِالْوُقُوفِ مَعَ دَلَائِلِهِ. وَحُجَجِهِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ مَا

أذركه لَا غَايَةَ قُوَّةَهُ. وَأَسْرَارُ التَّوْحِيدِ الْخَاصُّ خَارِجَةٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ وَإِنَّمَا كَانَ يُبْطِئُنَا عَنِ الصَّعُودِ مِنْهُ إِلَى التَّرْقِيِّ فِي مَدَارِجِ الْأَسْرَارِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُجِبُّ أَنْ تُفَارَقَهُ. بَلْ يُجِبُّ بَقَاءَنَا فِي عَقَالِهِ أَبَدًا.

وكَذَلِكَ الْعَوَائِدُ الَّتِي تَعُوذُنَا بِهَا، لَا نَحِبُّ أَنْ تُفَارَقَهَا. وَحُظُوظِ النَّفْسِ لَا تُجِبُّ أَنْ تُخْرَجَ عَنْهَا. بَلْ جَمِيعُ ذَلِكَ يُجِبُّ أَنْ نَخْلُدَ لِلصَّعِيدِ؛ أَيْ نُقِيمَ فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ، وَهُوَ عَالَمُ الصَّلَصَالِ حَتَّى نَبْقَى فِي قِيَادِهِ مَزْهُونًا مَعَهُ. فَيَشْغَلُنَا الْعَقْلُ بِعِلْمِهِ وَفَهْمِهِ وَأَوْهَامِهِ وَأَحْكَامِهِ. وَتَشْغَلُنَا الْعَوَائِدُ بِالْوُقُوفِ مَعَهَا. وَالتَّفُوسُ بِالْعَكْفِ عَلَى حُظُوظِهَا. وَكُلُّ هَذَا مَانِعٌ مِنْ إِشْرَاقِ أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ. وَالْعُرُوجِ إِلَى أَسْرَارِ التَّفْرِيدِ. فَلَا بُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَقْلِ وَخَرْقِ الْعَوَائِدِ، وَمُخَالَفَةِ النَّفُوسِ، وَإِلَّا بَقِينَا فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ مَخْجُوبِينَ عَنِ عَالَمِ الْأَزْوَاجِ، مَسْجُونِينَ فِي ظُلْمَةِ الْأَكْوَانِ عَنْ شَهَادَةِ الْمَكُونِ.

تنبيه: مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مِنْ ذَمِّ الْعَقْلِ، إِنَّمَا هُوَ لِمُرِيدِ سُلُوكِ طَرِيقِ الْأَذْوَاقِ. فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْعَزِلَ أَوَّلًا عَنْ عَقْلِهِ وَعِلْمِهِ وَفَهْمِهِ، وَيَنْظُرَ مَا يُشِيرُ عَلَيْهِ شَيْخُهُ. فَإِذَا رُجِّعَ فِي نُورِ الْحَضَرَةِ، اسْتَغْنَى بِذَوْقِهِ عَنْ عَقْلِهِ، وَأَمَّا مَنْ قَنَعَ بِمَقَامِ الْإِيمَانِ، وَبَقِيَ فِي مَحَلِّ الْإِسْتِدْلَالِ وَالْبُرْهَانِ. فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِغْنَائِهِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ بِشَأْنِهِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالثَّقَلِيَّةِ. فَمَا عُرِفَ الْإِلَهَ إِلَّا بِهِ. وَلَا عُيِدَ إِلَّا بِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «قَوَامُ الْمَرْءِ عَقْلُهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ»^(١).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْمَغْبُوتُ مَنْ أَخْطَأَ حَظَّهُ مِنَ الْعَقْلِ. وَلَا تَوَصَّلَ النَّاسُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢). وَقَالَ أَيْضًا: «أَسَاسُ الدِّينِ الْعَقْلُ، وَسَيِّدُ النَّاسِ أَعْقَلُهُمْ»^(٣). وَقَالَ: «سَيِّدُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ الْمُرْسَلِينَ أَفْضَلُهُمْ عَقْلًا. وَأَفْضَلُ النَّاسِ أَعْقَلُ النَّاسِ»^(٤). وَقَالَ: «مَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ صَائِمِ النَّهَارِ قَائِمِ اللَّيْلِ أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَمَا أَحَلَّ لَهُ، وَمَا حَرَّمَ

(١) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٤٦٢٩) [٢١٧/٣] والبيهقي

في شعب الإيمان، حديث رقم (٤٦٤٤) [١٥٧/٤] ورواه غيرهما.

(٢) و(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٤) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٤٧٦) [٣٢٥/٢].

عَلَيْهِ وَانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَنَفَعَ بِهِ. وَإِنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَنِ الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَ عَلَيْهِ كَبِيرُ زِيَادَةٍ^(١).

وقال ﷺ: «قَسَمَ اللَّهُ الْعَقْلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمَلٌ عَقْلُهُ. وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلَا عَقْلَ لَهُ: حُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الطَّاعَةِ، وَحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِ»^(٢). وَالْعَقْلُ عَلَى قَسَمَيْنِ: عَقْلٌ مَوْهُوبٌ، وَعَقْلٌ مَكْسُوبٌ. فَالْمَوْهُوبُ هُوَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ صَاحِبُهُ فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ وَيُعَرِّفُهُ بِهِ. وَالْمَكْسُوبُ: الَّذِي يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بِالتَّجَارِبِ وَالْمِحَنِ. وَيَسْتَعْمِلُهُ صَاحِبُهُ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم أَخَذَ فِي ذِكْرِ تَطَوُّرَاتِهِ وَتَحْوِيلَاتِهِ فَقَالَ:

تَلُوحُ لَنَا الْأَطْوَارُ مِنْهُ ثَلَاثَةٌ كَرَاءِ مَرْئِي وَرُؤْيَا مَا قُلْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْعَقْلَ يَتَطَوَّرُ بِإِغْتِيَابِ كَمَالِهِ وَتَقْصَانِهِ بِهِ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَطْوَارٍ: فَتَارَةٌ يُنْظَرُ فِيهِ بِإِغْتِيَابِ الرَّائِي، أَيْ النَّاطِلِ بِهِ، فَيَتَطَوَّرُ بِوَضْفِهِ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِلُ بِهِ كَامِلًا، اتَّصَفَ عَقْلُهُ بِالْكَمَالِ، وَإِنْ كَانَ نَاقِصًا، اتَّصَفَ بِالنَّقْصَانِ فِي الرَّائِي، بِإِغْتِيَابِ عِزِّهِ وَإِتْقَانِهِ. وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ، وَصَلَاحِهِ وَكَمَالِ طَاعَتِهِ، وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ، أَوْ بِإِغْتِيَابِ جَهْلِهِ وَضَعْفِ يَقِينِهِ، وَجَرِصِهِ وَطَمَعِهِ، وَقَزَعِهِ وَفِسْقِهِ، وَبُعْدِهِ مِنْ رَبِّهِ.

فَالْعَقْلُ يَزْدَادُ نُورَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالتَّزَاهَةِ وَالْعِفَّةِ، وَالتَّفَرُّغِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ وَالْحَرَصِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا، وَالْحِظْوَظِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطُوعِ الْهَوَى وَعَقْلٌ عَاصِي الْهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرًا

وتارة يُنْظَرُ فِيهَا بِإِغْتِيَابِ الْمَرْئِي أَيْ الْمُنْظُورِ فِيهِ، فَيَتَطَوَّرُ بِنَعْيِهِ، فَإِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا، أَوْ أَحْوَالًا سَيِّئَةً، يُرِيدُ التَّجَلِّيَ بِهَا، فَيَنْظُرُ فِي سَبَبِهَا، أَوْ مَقَامَاتِهَا عَالِيَةً يُرِيدُ الرُّقْيَ إِلَيْهَا لِكَمَالِهَا، أَوْ مَعْرِفَةَ كَامِلَةِ يُرِيدُ الصُّعُودَ إِلَيْهَا. فَيَتَفَكَّرُ بِعَقْلِهِ فِي مَعَارِجِهَا. فَهَذَا الْعَقْلُ كَامِلٌ لِكَمَالِ الْمُنْظُورِ فِيهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْمَرْئِي. وَإِنْ كَانَ الْمَرْئِي أَيْ الْمُنْظُورُ فِيهِ نَاقِصًا كَعِلْمٍ حَدِيثَةٍ أَوْ فِلْسَفِيَّةٍ، أَوْ أَقْوَالٍ فَاسِدةٍ

تُسَوِّسُ بِذُرَّةِ الْإِيمَانِ، أَوْ أَنْظَارَ تَخْيِيلِيَّةٍ أَوْ وَهْمِيَّةٍ لَا حَقِيقِيَّةٍ. وَقَسَّ عَلَى هَذَا. فَهَذَا الْعَقْلُ نَاقِصٌ بِاعْتِبَارِ الْمَنْظُورِ فِيهِ.

وتارة النظر بِاعْتِبَارِ مَا قُلْنَا فِيمَا سَلَفَ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُرِيداً طَرِيقَ الْأَذْوَاقِ وَالْوُجْدَانِ فَالْتَّنَظُّرُ بِهِ نَقْصَانٌ، وَالْوُقُوفُ مَعَهُ خِذْلَانٌ. وَإِنْ كَانَ قَاصِداً تَصْحِيحَ مَقَامِ الْإِيمَانِ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِذْلَالِ وَالْبُرْهَانِ، فَالْتَّنَظُّرُ بِهِ كَمَالٌ. وَاعْتِبَارُهُ وَاجِبٌ فِي الْبَرَاهِنِ الَّتِي لَا تَذْرُكُ إِلَّا بِهِ فِي بَابِهِ. وَإِنْ أَيْدَهُ بِأَنْوَارِ الشَّرِيعَةِ مِنْ الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ، فَهُوَ كَمَالُ الْكَمَالِ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَلَوُّحٌ: أَيُّ تَظْهَرُ لَنَا الْأَطْوَارُ مِنْهُ ثَلَاثَةٌ. تَارَةً يَتَطَوَّرُ كِرَاءً بِهِ. وَتَارَةً كَمَرْنِي فِيهِ. وَتَارَةً كَرُوءِيَةً مَاءً. كَمَا قُلْنَا فِيمَا تَقْدَمُ مِنَ التَّفْصِيلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم ذكر له الناظم أطواراً باعتبار الرأي فقال:

وَيَنْبَصُرُ عَبْدٌ عِنْدَ طَوْرِ بَقَائِهِ وَيَرْجِعُ مَوْلًى بِالْفَنَاءِ وَهُوَ لَا يَفْنَى

يعني أَنَّ الْعَقْلَ يَتَطَوَّرُ أَيْضاً بِاعْتِبَارِ الرَّأْيِ فِي مَقَامِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ، وَالسَّلُوكِ وَالْجَذْبِ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ فِي مَقَامِ الْبَقَاءِ الْأَوَّلِ وَهُوَ مَقَامُ الْحِجَابِ، أَبْصَرَ الْعَقْلُ رَأْيَ عَبْدٍ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ عَبْدٌ مَا بَرَحَ عَنْ مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ؛ وَهُوَ السَّلُوكُ الْأَوَّلُ. وَحَقِيقَتُهُ: رُوءِيَةٌ خَلَقَتْ بِلاَ حَقٍّ. وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ فِي مَقَامِ الْفَنَاءِ، وَهُوَ: شُهُودٌ حَقٍّ بِلاَ خَلْقٍ عِنْدَ غَيْبِيَّتِهِ، وَيُسَمَّى مَقَامَ الْجَذْبِ، وَهُوَ: اخْتِطَافُ الْعَقْلِ مِنْ شُهُودِ الْكُؤْنِ إِلَى شُهُودِ الْمُكُؤْنِ، أَوْ مِنْ شُهُودِ الْخَلْقِ إِلَى شُهُودِ الْحَقِّ. فَالْعَقْلُ لَا يَفْنَى بِفَنَاءِ صَاحِبِهِ، وَإِنَّمَا يَتَغَطَّى نُورُهُ بِنُورِ شَمْسِ الْعِزِّقَانِ، كَنُورِ الْقَمَرِ مَعَ الشَّمْسِ، وَكَمَا أَنَّهُ يَتَغَطَّى نُورُهُ بِالْخَمْرَةِ الْحَسِيَّةِ، كَذَلِكَ يَتَغَطَّى بِالْخَمْرَةِ الْمَعْنُويَةِ الْأَرْلِيَّةِ. فَإِذَا صَحَا الْمُرِيدُ مِنْ سَكْرَتِهِ، وَخَرَجَ مِنَ الْفَنَاءِ إِلَى الْبَقَاءِ، رَجَعَ نُورُ الْعَقْلِ إِلَيْهِ، فَيَمِيزُ بِهِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْمَعْنَى، وَبَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، فَيَغْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَكُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. فَالْبَقَاءُ بَقَاءً أَوَّلًا: وَهُوَ بَقَاءُ النَّفْسِ. وَحَقِيقَتُهُ: شُهُودُ الْخَلْقِ بِلاَ حَقٍّ. وَبَقَاءً ثَانٍ بَقَاءً بِاللَّهِ: وَهُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِحَقٍّ. فَمَرَادُ النَّازِمِ: الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ عَبْدٌ مُحْضٌ. وَأَمَّا الْبَقَاءُ الثَّانِي، فَصَاحِبُهُ مُخَيَّرٌ. إِنْ نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ رَأَى نَفْسَهُ عَبْدًا، وَإِنْ نَظَرَ إِلَى مَعْنَاهُ: رَأَاهُ حُرًّا. فَهُوَ يَتَطَوَّرُ كَيْفَ يَشَاءُ، الْعِبُودِيَّةُ طَرِيقُ يَدِهِ،

والحرية طوع يده.

وهذا هو العارف الكامل يطور العقل لوحاً وقلماً، كما أبان ذلك الناظم

بقوله:

وَلَوْحاً إِذَا لَاحَتْ سَطُورُ كَيَانِنَا لَهُ فِيهِ وَهُوَ اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْأَدْنَى

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويبصر العقل أيضاً لوحاً، أي كاللوح المحفوظ إذا لاحت سَطُورُ الكَائِنَاتِ إذا صَفَا وَتَطَهَّرَ نوره حتى اتصل بالعقل الأكبر؛ وهو أَوَّلُ نور قِيَاضٍ من بَحْرِ الجبروت. وفي الحديث: «أَوَّلُ ما خلق الله العقل». فقال له: أَقْبَلْ، فَأَقْبَلَ ثم قال له: أدبر فأدبر. ثم قال: فوعزتي وجلالي لا أعطيك إلا لِمَنْ أَخْبَيْتُ مِنْ عِبَادِي^(١).

وهو حديث متكلم فيه بالوضع والضعف، وَيُسَمَّى أيضاً هَذَا الْعَقْلُ: الرُّوحُ الْأَعْظَمُ، فَإِذَا تَطَهَّرَتِ الرُّوحُ، وَكَمُلَ صَفَاؤُهَا، اسْتَوْلَى نُورُهَا عَلَى الكَائِنَاتِ بِأَسْرِهَا. فالعقل والروح إذا كُمِلَ تطهيرهما انطوى فيهما جميع الكائنات وصار كاللوح المحفوظ، وإلى ذلك أشار في المباحث الأصلية بقوله:

أَغْقِلْ فَأَنْتَ نَسْخَةُ الْوُجُودِ لَهُ مَا أَغْلَاكَ مِنْ مَوْجُودِ

أَلَيْسَ فَيْكَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْعَالَمُ الْعُلُوي وَالسَّفَلِي

وَمَا الْكُونُ إِلَّا رَجُلٌ كَبِيرٌ أَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرُ

وقال النظام في بعض أَرْجَائِهِ:

وَأَنْتَ مَرَأَى لِلنَّظَرِ قُطْبُ الزَّمَانِ وَفَيْكَ يَطْوِي مَا انْتَشَرَ مِنَ الْأَوَانِي

وقوله هنا: سَطُورُ كَيَانِنَا، أضله كواننا، فجمع على أَكْوَانٍ وَكِيَانٍ. أي

يصير لوحاً، إِذَا لَاحَتْ سَطُورُ أَكْوَانِنَا لصاحبه فيه: أي فِي عَقْلِهِ؛ وهو حينئذ اللَّوْحُ الْمُحْفَظُ الْأَدْنَى وَالْقَلَمُ الْأَدْنَى: أي الْأَصْغَرُ، إِذِ الْكَبِيرُ هُوَ اللَّوْحُ الْمُحْفَظُ؛ وَالْقَلَمُ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ. وَمِنْ تَصَرُّفِهِ بِالْقَلَمِيَّةِ فِي لَوْحِهِ مَا ذَكَرَ النَّازِلُ

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، ذكر حديث الأوائل، حديث رقم (٤)

في لوحه ما ذكر الناظم بقوله :

يَمُدُّ خُطُوطَ الدَّهْرِ عِنْدَ التَّفَاتِيهِ إِحَاطَتُهُ الْقُضُوى الَّتِي فِيهَا أَظْهَرْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا شَبَّهَ الْعَقْلَ بِالْقَلَمِ إِذَا اتَّصَلَ نُورُهُ بِالْعَقْلِ الْأَكْبَرِ يَمُدُّ هَذَا الْعَقْلَ خُطُوطَ الدَّهْرِ، فَيَجْلِي فِيهِ الْمَاضِي وَالْآتِي وَالْحَال. فَكَأَنَّ الْأَزْمَنَةَ قَدْ كَتَبَتْ وَسَطَرَتْ فِي مَرَاتِهِ، مِنْ مَدَدِ نُورِهِ عِنْدَ التَّفَاتِيهِ إِلَيْهَا فَيَرَى الْأَوَّلَ عَيْنَ الْآخِرِ، وَالْمَاضِي عَيْنَ الْحَالِ. إِذِ الْمُنْتَجَلِي فِي الْأَزْمَنَةِ وَاحِدٌ، وَهَذِهِ إِحَاطَتُهُ الْقُضُوى، وَغَايَةُ إِدْرَاكِهِ. وَأَمَّا تَفَاصِيلُ كَيْفِيَّتِهَا وَمَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ الْمَقْدُورَاتِ، فَمِنْ شَأْنِ الرَّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّا فِي هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ ظَهَرْنَا، وَظَهَرَ وَجُودُنَا، فَلَا نَعْرِفُ وَرَاءَهُ تَفْصِيلاً. وَهِيَ سِدْرَةٌ مَتْنَى الْعَقْلِ.

كَمَا أَبَانَ ذَلِكَ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ :

أَقَامَ دُونِ الدَّهْرِ سِدْرَةً دَاتِيَةً وَنَحْنُ وَوَضَفَ الْكُلَّ فِي وَصْفِهِ صِرْنَا

قُلْتُ: دُونِ: تَصْغِيرُ دُونَ؛ وَهُوَ ظَرْفٌ لِأَقَامَ، وَالدَّهْرُ عِبَارَةٌ عَنْ مَرُورِ الْفَلَكَ، وَسِدْرَةٌ مَفْعُولٌ أَقَامَ. وَنَحْنُ مَبْتَدَأٌ، وَصِرْنَا خَيْرٌ. وَفِي وَصْفِهِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَأْنِ الْعَقْلِ الْأَصْغَرِ، أَنَّهُ أَقَامَ سِدْرَةً دَاتِيَةً، وَمَتْنَى عِلْمِهِ، دُونَ إِحَاطَةِ الدَّهْرِ. وَمُرُورِ أَفْلَاكِهِ. فَلَا يَعْرِفُ مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْأَسْرَارِ اللَّطِيفَةِ؛ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا حَدَّ فَوْقًا وَلَا تَحْتَ، وَلَا طَوْلًا وَلَا عَرْضًا. وَرُؤْيِ أَنْ مَلَكًا اسْتَأْذَنَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَصْعَدَ فِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْعَرْشِ. فَأَذِنَ لَهُ؛ فَطَارَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَقَالَ أَيْنَ أَنْتَ يَا رَبِّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ»، فَتَابَ وَطَلَبَ الرُّجُوعَ ثُمَّ طَارَ ثَلَاثِينَ أُخْرَى، فَقَالَ: أَيْنَ أَنْتَ يَا رَبِّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ» فَتَابَ وَطَلَبَ الرُّجُوعَ إِلَى عُشِّهِ، فَالْعِظْمَةُ الْمُحِيطَةُ بِكُورَةِ الْكَوْنِ لَا نِهَايَةَ لَهَا.

فَالْعَقْلُ الْمَعْقُولُ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ مُحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِ صَاحِبِهِ. فَلَا يَرَى إِلَّا جِسْمَ الْكَائِنَاتِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، وَلَوْ تَكَمَّلَ نُورُهُ وَاتَّصَلَ بِنُورِ الْعَقْلِ الْأَكْبَرِ لَخَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنْ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ إِلَى شُهُودِ الْمَكُونِ فِي دَائِرَةِ مَكُونَاتِهِ. وَفِيمَا خَرَجَ عَنْهَا مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِأَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ. مَعَ كَوْنِ الْعَقْلِ عَاجِزًا عَنْ التَّفَوُّذِ إِلَى مَا وَرَاءَ أَفْلَاكِ الدَّهْرِ، فَقَدْ حَارَ النَّاسُ فِي أَفْلَاكِهِ، بَلْ وَصَفَهُ عَمُومًا

وَحُصُوصاً فَلَمْ يَقِفُوا عَلَى كُنْهِ حَقِيقَتِهِ وَلَا أَتَيْنَ مَحَلَّهُ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَنَحْنُ وَصَفَ الْكُلَّ فِي وَضْفِهِ جِزْئاً. وَأَقْرَبُ مَا قِيلَ فِيهِ: إِنَّهُ نُورٌ لَطِيفٌ يُدْرِكُ بِهِ الْعُلُومَ الْضَّرُورِيَّةَ وَالنَّظَرِيَّةَ. قِيلَ: مَحَلُّهُ الدِّمَاغُ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ الْفَلَّاسِفَةِ. وَقِيلَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُ لَمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٠٩]. وَجَمَعَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، بَأَن قَالُوا: مَحَلُّهُ الْقَلْبُ. وَيَتَّصِلُ شِعَاعُهُ بِالدِّمَاغِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ضُرِبَ فِي دِمَاعِهِ، اخْتَلَّتْ عَقْلُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم ذكر الناظم تطويراً آخر فقال:

يَقْبِذُ بِالْأَزْمَانِ لِلدَّهْرِ مِثْلَ مَا يَكْتِفِ لِلْأَجْسَامِ مِنْ ذَاتِهِ الْإِيْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَأْنِ الْعَقْلِ أَنَّ يَقْبِذَ الدَّهْرُ بِالْأَزْمَنَةِ: بِالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَالِ. فَالْحَرَكَةُ الَّتِي انْقَضَى مِنَ الْفَلَكَ زَمَانُهَا مَاضٍ، وَالْآتِيَةُ زَمَانُهَا مُسْتَقْبَلٌ، وَالْحَاضِرَةُ زَمَانُهَا حَالٌ، وَلَوْلَا الْعَقْلُ لَأَسْتَوَتْ الْأَزْمَنَةُ. أَلَا تَرَى أَنَّ غَيْرَ الْعَاقِلِ لَا شُعُورَ لَهُ بِهَذِهِ الْأَزْمَنَةِ. فَإِذَا صَفَا نُورُ الْعَقْلِ، وَتَوَجَّهَ لِمَوْلَاهُ، غَابَ عَنِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَاشْتَغَلَ بِعِمَارَةِ الْأَرْضِ الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ.

وَأَمَّا الْعَقْلُ الْأَكْبَرُ، فَمَا عِنْدَهُ زَمَانٌ وَاحِدٌ، لِرُؤْيَتِهِ لِلْمَتَجَلِّيِ بِهِ؛ وَهُوَ وَاحِدٌ. فَصَاحِبُ الشُّهُودِ غَائِبٌ عَنِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْذَّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِاسْتِفْرَاقِهِ فِي شُهُودِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَّقِدُ بِزَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ، بَلْ هُوَ عَيْنُ الْكُلِّ مُوجُودٌ فِي الْكُلِّ، فَافْهَمْ.

مِنْ كَلَامِ شَيْخِ شَيْخِنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ لَنَا: إِذَا حَصَلَتِ الرُّؤْيَا، غَابَ الرَّائِي، وَالْذَّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَغَابَ كُلُّ شَيْءٍ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمِنْ شَأْنِ ذَاتِ الْعَقْلِ أَيْضاً، أَنَّ يَكْتِفِ لِلْأَجْسَامِ الْأَمَاكِنَ وَالْهَيْئَاتِ. وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ وَالذُّوَاتِ، وَيَعْرِفُ مَا كَانَ مَجْمُوعاً فِي عَالَمِ الْغَيْبِ. وَمَا هُوَ بَاقٍ فِي جَمْعِيَّتِهِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ. إِذِ الْوُجُودُ كُلُّهُ ذَاتٌ وَاحِدَةٌ وَبَحْرٌ مُتَّصِلٌ فِي الْحَقِيقَةِ بِالْعَقْلِ الْأَصْغَرِ الَّذِي هُوَ فَرْقٌ مَا كَانَ مَجْمُوعاً؛ لِأَنَّهُ مُعْقُولٌ وَمَحْصُورٌ فِي عَالَمِ الْحِكْمَةِ فَلَا يَدْرِكُ مَا غَابَ عَنْهُ فِي عَالَمِ الْقُدْرَةِ. وَأَمَّا الْعَقْلُ الْأَكْبَرُ، وَيُسَمَّى أَيْضاً: الرُّوحُ الْأَعْظَمُ، فَإِنَّهُ يَرَى الْوُجُودَ كُلَّهُ ذَاتاً وَاحِدَةً، وَهَذِهِ الْأَشْكَالَ وَالرُّسُومَ، تَلَوِّنَاتٍ وَتَطْوِيرَاتٍ، لِلخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِبَعْضِهَا

بَعْضُ، وَهَذَا الَّذِي قَصَدَهُ الشَّاعِرُ فِي الشَّعْرِ الْمَتَقَدِّمِ بِقَوْلِهِ:

إِلَى وَجُودِ تِرَانِي رَتَقًا بِلَا ابْتِعَادٍ وَلَا اقْتِرَابٍ

إِلَى هَذَا التَّكْيِيفِ وَالتَّمْيِيزِ أَشَارَ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ: مِثْلُ مَا يَقِيدُ لِلْأَجْسَامِ أَيَّ يَقِيدُ الدَّهْرُ بِالْأَزْمَانِ تَقْيِيدًا شَبِيهًا بِتَكْيِيفِ الْأَجْسَامِ بِالْأَيْنِ، وَالْوَصْفِ.

وقوله: مِنْ ذَاتِهِ، أَيُّ مِنْ ذَاتِ الْعَقْلِ وَحَقِيقَتِهِ الضَّعِيفَةِ كَيْفَ الْأَجْسَامِ وَالْأَيْنِ وَالْجِهَاتِ؟ وَلَوْ قَوِيَ نُورُهُ، لَا تَصَلَ نَظَرُهُ بِكُلِّ الْجِهَاتِ. وَأَرَادَ بِالْأَيْنِ هُنَا مَا يَعُمُّ الدَّوَاتِ، وَالْأَمَاكِنِ، وَالصِّفَاتِ، وَسَائِرِ الْعَوَارِضِ الْجِسْمَانِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ومما يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ أَيْضًا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، بَعْضُ الْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ، كَمَا قَالَ النَّاطِمُ:

وَعَرْشًا وَكُرْسِيًّا وَبُرْجًا وَكَوْكَبًا وَحَشَوًا لِجِسْمِ الْكُلِّ فِي بَحْرِهِ عُمْنًا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ أَيْضًا مِنَ الْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ، الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ أَيُّ شَخْصُهُ. وَيُمَيِّزُهُ عَلَى مَا أَدْرَكَهُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ وَإِلَّا فَلَا مُدْرَكَ لَهُ لِهَذِهِ الْعَوَالِمِ الْغَيْبِيَّةِ، بِمَجْرُودِهِ. وَيَدْرِكُ أَيْضًا الْبُرْجَ وَالْكَوْكَبَ وَالْمَنَازِلَ؛ وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهِدٌ بِالْبَصَرِ. وَإِنَّمَا شَأْنُ الْعَقْلِ فِيهِ التَّفْصِيلُ، وَتَدْقِيقُ مَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْقُدْرَةِ، وَأَسْرَارِ الْحِكْمَةِ. وَيَدْرِكُ أَيْضًا الْحَشَوَ الَّذِي بَيْنَهُمَا؛ وَهُوَ الْفَضَاءُ الَّذِي بَيْنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ. وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ هُوَ الْهَوَاءُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ؛ وَحَشَوًا لِجِسْمِ الْكُلِّ. أَيُّ وَيَدْرِكُ حَشَوًا، الْمُنْسُوبَ لِكُلِّ جِسْمٍ؛ وَهُوَ الْهَوَاءُ الَّذِي بَيْنَ الْأَجْسَامِ الْعُلُويَّةِ، وَبَيْنَ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ دَائِمُونَ، وَسَابِحُونَ فِي بَحْرِ أَسْرَارِ الذَّاتِ. بِقَوْلِهِ: فِي بَحْرِهِ عُمْنًا. أَيُّ فِي بَحْرِ الْكُلِّ عُمْنًا؛ وَهُوَ بَحْرُ الْوَحْدَةِ؛ لِأَنَّ بَحْرَهَا مُتَّصِلٌ وَالْخَلْقُ فِيهِ كَالْحُوتِ فِي الْمَاءِ. وَإِنْ كَانُوا لَا شُعُورَ لَهُمْ بِذَلِكَ فَمَنْ شَعَرَ بِذَلِكَ وَاتَّسَعَتْ مَعْرِفَتُهُ حَتَّى خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنْ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ، وَاتَّسَعَتْ نَظَرَتُهُ، وَجَدَ الْأَفْلَاكَ تَدُورُ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَيَشْرُقَانِ فِي فَضَاءٍ قَلْبِهِ. كَمَا قَالَ النَّاطِمُ فِي بَعْضِ أَرْجَالِهِ:

الْفُلُكُ فِيكَ يَدُوزُ . . وَيَطْلَعُ وَيَلْمَعُ وَالشَّمُوسُ وَالْبُدُوزُ فِيكَ تَغِيبُ وَتَطْلَعُ
وقال غَيْرُهُ:

إِذَا كُنْتَ كُرْسِيًّا وَعَرْشًا وَجَنَّةً وَنَارًا وَأَفْلَاكًا تَدُورُ وَأَمْلَاكًا
وَكُنْتَ مِنَ السَّرِّ الْمَصُونِ حَقِيقَةً وَأَذْرَكَتَ هَذَا بِالْحَقِيقَةِ إِذْرَاكَ
فَفِيمَا الثَّانِي فِي الْحَضِيضِ تَبَطَّوْا مُقِيمًا مَعَ الْأَسْرَى أَمَا أَنْ إِسْرَاكَ

أَي إِذَا كُنْتَ أَيُّهَا الْأَدَمِي جَامِعًا لِهَذِهِ الْعَوَالِمِ، وَكُنْتَ مِنْ عَيْنِ السَّرِّ
الْمَصُونِ. وَعَيْنِ الْكَثْرِ الْمَذْفُونِ، وَعَرَفْتَ أَنَّ هَذَا كَامِنٌ فِيكَ، فَفِي أَيِّ شَيْءٍ هَذَا
التَّأخير والتَّوَانِي، عَنِ التَّهَوُّصِ إِلَى اللَّهِ، بِحَذْفِ عَوَائِدِكَ، وَجِهَادِ نَفْسِكَ، حَتَّى
تَعْرِفَ هَذَا دُوقًا وَكَشْفًا. وَإِلَى كَيْفِ تَبَقَّى فِي الْحَضِيضِ مِنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ تَبَطَّأَ
عَنِ الْعُرُوجِ إِلَى سَمَاءِ الْأَرْوَاحِ مُقِيمًا مَعَ الْأَسَارَى، فِي أَيْدِي نَفُوسِهِمْ تَلْعَبُ بِهِمْ
كَيْفَ شَاءَتْ فَمَا هَذَا إِلَّا الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، أَمَا أَنَّ إِطْلَاقَكَ مِنْ يَدِ نَفْسِكَ،
وَعُرُوجَكَ إِلَى فِضَاءِ شَهَوِّ رَبِّكَ. وَفِي الْحِكَمِ: «وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ
جِثْمَانِيَّتُكَ، وَلَمْ يَسْغَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثم ذكر النَّاطِمَ فِي تَطْوِيرِ الْعَقْلِ أَيْضًا:

وَفَشَّقْ لَأَفْلَاكِ جَوَاهِرَهُ الَّذِي يُشَكِّلُهُ سِرُّ الْحُرُوفِ بِحَرْفَيْنَا

قلت: فَتَقَّ: مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ مُحذُوفٌ، أَي مِنْ شَأْنِهِ فَتَقَّ. وَالْمَسَوِّغُ: الْعَمَلُ
وَجَوَاهِرُهُ مَفْعُولٌ بِهِ. وَالضَّمِيرُ لِلْأَفْلَاكِ. وَالْمُرَادُ بِهَا الْجِنْسُ. وَلَوْ قَالَ جَوَاهِرَهَا
الَّتِي يُشَكِّلُهَا لَكَانَ أَحْسَنَ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الْعَقْلِ: أَنْ قُلَّتْ الْأَفْلَاكُ الدَّائِرَةُ بِكَرَةِ
الْأَرْضِ جَوَاهِرَهَا. بِأَنَّ أَدْرَكَ مُحَاسِنَهَا، وَخَوَاصَهَا مِنْ مَنَافِعِهَا وَمُضَارِهَا. بِقُدْرَةِ
الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ لَا عَلَى مَا يَزَعُمُهُ أَهْلُ التَّنْجِيمِ. فَقَدْ جَعَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ
وَحِكْمَتِهِ لِكُلِّ فَلَكَ خَاصِيَّةٌ يَقَعُ بِهَا التَّصَرُّفُ فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ. وَفِي
الْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا التَّصَرُّفُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهَا أَمَارَاتٌ وَعَلَامَاتٌ،
كَمَا جَعَلَ فِي الْعَشْبِ، وَجَعَلَ لِنُزُولِ الْمَطَرِ أَمَارَةً، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي
عِلْمِ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّ عَالَمَ الْحِكْمَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَسْبَابِ، وَالْعِلَلِ، وَالْحِكَمِ. وَعَالَمٌ

القدرة في لحظة بغير علة، وَلَا سَبَبٍ لَكِنْ لِكُلِّ قَدْرَةٍ حِكْمَةٌ؛ وهي رداؤها وصوانها في هذه الدار؛ التي هي محلّ التكليف.

ويسمى في الاصطلاح عَالَمُ الْحِكْمَةِ عَالَمُ الْخَلْقِ، وَعَالَمُ الْقَدْرَةِ: عَالَمُ الْأَمْرِ. كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. [الأعراف: ٥٤] فَعَالَمُ الْخَلْقِ بالتدرج والأسباب. وعَالَمُ الْأَمْرِ كُنْ فيكون. لا يبرز شيء من عَالَمِ الْأَمْرِ إِلَّا بِرِذَائِ عَالَمِ الْخَلْقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْخَوَارِقِ، كالمعجزات والكرامات في هذه الدار. الحكمة ظاهرة والقدرة باطنة. وفي دار الآخرة بالعكس، القدرة ظاهرة والحكمة باطنة، لَا تَصْرَفُ لَهَا. فلذلك تظهر الخوارق للعالم والخاص؛ لأنها دار التصريف. وهذه دار التكليف. لتظهر مزية الإيمان بالغيب هُنَا.

وهذه الجواهر، أي الخواص التي فتقها العقل بالأفلاك إما يشكلها في الأفلاك ويبرز منها ما يبرز. فيبرز الحروف الهجائية وكذلك الدراري^(١) السبعة لها خَوَاصٌّ وطبائع، على ما زعمه أهل التنجيم؛ ولها حروف من حروف العَجَمِ، تتصرف في باب الحكمة، التي محلّها الظاهر. وأمّا في الباطن، فما تَمَّ إِلَّا اللَّهُ.

وقول الناظم يحزفينا، لعلّه يشير إلى حرف الألف والباء. فإن جُلَّ أسرار الحروف راجعة في المعنى إِلَيْنِهَا؛ لأنَّ الألف يشير إلى وحدة الذات والباء تشير إلى وحدة الصفات والأفعال: إني أنا الواحد الأحد بي كَانَ وبني يكون إلى الأبد. وقول الشيخ زروق، يشير إلى اسمه الظاهر والباطن لا مُنَاسَبَةٌ لَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فهو بعيد. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الناظم حكماً آخر للعقل فقال:

يُفَرِّقُ مَجْمُوعَ الْقَضِيَةِ ظَاهِراً وَتُجَمِّعُ فَرْقاً مِنْ تَدَاخُلِهِ فُرْناً

يقول رضي الله عنه: ومن شأن العقل أيضاً أَنَّهُ يُفَرِّقُ مَجْمُوعَ الْقَضِيَةِ، أي يُفَرِّقُ ما أضله مجموع في قضية الخَمَرَةِ الأزلية. ففي الحقيقة، الوجود كله

(١) جاء في كتاب الصحاح للشيخ إسماعيل الجوهري: «قال الفراء: والعرب تسمي الكواكب العظام التي لا تعرف أسماءها: الدراري.

مجموع، ذات واحدة، وبخَر واحد متصل أوله بآخِرِه وظاهره بباطنه وإنما جَاءَ تَفْرِيقُهُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَقْلِ، لِقَصْرِ إِذْرَاكِهِ. فَإِنَّمَا أَدْرَكَ الْفُرُوقَاتِ الْكُونِيَّةِ الْحُسِيَّةِ. وَفَاتِهِ الْمَعَانِي الْمَتَصِلَةُ الْقَدِيمَةُ الْأَزْلِيَّةِ. وَهِيَ الْمُرَادُ بِمَجْمُوعِ الْقَضِيَّةِ، فَفَرَّقَهَا ظَاهِرَةً. وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي فَرْقِهَا.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَتَجْمَعُ فَرْقًا» فَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ. وَفَرْقًا حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ تَجْمَعُ: أَيْ يُفَرِّقُ مَجْمُوعَ الْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ ظَاهِرًا، وَالْحَالُ أَنَّهَا تَجْمَعُ فِي حَالِ فَرْقِهَا، فَهِيَ مَفْرُوقَةٌ ظَاهِرًا مَجْمُوعَةٌ بَاطِنًا. وَمَنْ أَجَلُ تَدَاخُلِ فَرْقِهَا فِي جَمْعِهَا وَجَمْعِهَا فِي فَرْقِهَا فُزْنَا بِالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ، حَيْثُ مَيَّزْنَا بَيْنَهُمَا، فَأَنْزَلْنَا الْفَرْقَ فِي مَحَلِّهِ، وَهُوَ عَالَمُ الْحِكْمَةِ وَالْجَمْعِ فِي مَحَلِّهِ. وَهُوَ عَالَمُ الْقُدْرَةِ وَعَالَمُ الذَّاتِ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ التَّبَسُّ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ. فَوَقَفُوا مَعَ الْفَرْقِ الْمَخْصُصِ. وَحَجَبُوا بِهِ عَنِ الْجَمْعِ. وَبَعْضُهُمْ غَرِقُوا فِي بَخْرِ الْجَمْعِ، وَحَجَبُوا عَنِ الْفَرْقِ وَهُوَ نَقْصَانُ بِمَخْصُصٍ جَذْبِهِ، أَوْ زَنْدَقَتِهِ إِنْ كَانَ لَهُ سُلُوكٌ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. ثُمَّ قَالَ النَّاطِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَعَدَّدَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ غَيْرَ وَاحِدٍ بِأَلْفَاظِ أَسْمَاءٍ بِهَا شَتَّتَ الْمَعْنَى

قلت: هذا تقرير لما قبله، وتتميم له. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمِنْ شَأْنِ الْعَقْلِ الْمَعْقُولِ، أَنَّهُ عَدَّدَ شَيْئًا؛ وَهُوَ الْوُجُودُ الْحَقِيقِيُّ، وَكَثُرَ فُرُوعُهُ. مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا، أَوْ ذَاتًا وَاحِدَةً. قَالَ الشَّاعِرُ:

هَذَا الْوُجُودُ وَإِنْ تَعَدَّدَ ظَاهِرًا وَحَيَاتِكُمْ مَا فِيهِ إِلَّا أَنْتُمْ

ومعنى قوله: وَعَدَّدَ: أَيْ اعْتَقَدَ تَعْدِيدَهُ وَكَثْرَتَهُ. مَعَ كَوْنِهِ وَاحِدًا فِي الْأَزْلِ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. وَإِنَّمَا تَعَدَّدَ هَذَا الشَّيْءُ الْوَاحِدُ عِنْدَ الْعَقْلِ بِسَبَبِ ظُهُورِ أَلْفَاظِ الْأَسْمَاءِ لِمَسْمِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَالْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ، وَأَسْمَاءِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ، وَالْجَمَادَاتِ، فَلِكُلِّ شَخْصٍ جَزْئِيٍّ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ اسْمٌ يَخْصُهُ، لِيَتَمَيَّزَ بِهِ وَفِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ تَجْلِيَّاتٌ، وَمُظَاهَرٌ، لِلوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَفُرُوعٌ وَتَلْوِينَاتٌ لِلْخَمْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجِيلَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَفَعَنَا

بِبَرَكَاتِهِ:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَايِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرَأَى لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مَتَنُوعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَالِعُ

وقوله: بما شئتَ المَعْنَى أي بسبب تعدد هذه الأشياء، مع أن المسمى واحد. فَرَّقَ الْعَقْلُ الْمَعْنَى أي اعتقد تفرقها ظاهراً؛ وهي مجموعة متصلة باطناً. فبحر المعاني متصل، وأمواجه متفرقة؛ وهي مِنْهُ، بل عَيْنُهُ. والمراد بالمعنى: السِّرُّ الْأَزْلِي اللطيف القائم بالأشياء الحسية، السَّارِي فِيهَا. والأشياء الحسية، إنما هي تكلف للمعنى اللطيف، الذي هو الخمرة الأزلية، فلولا الحسن، ما ظهر المعنى. ولولا المعنى، ما قام للأشياء وجود فالأشياء الحسية، حاملة للمعاني، ولهذا قال النَّاطِمُ في بَعْضِ أَرْجَالِهِ:

لَا تَنْظُرُ لِلْأَوَانِي، وَخُضْ بِخَرِّ الْمَعَانِي، لَعَلَّكَ تَرَانِي. وقال ابن الفارض في خمريته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولطف الأواني في الحقيقة تابع لِلطُّفِّ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

والمعاني تَسْمُو أي تظهر وتزفع بالأواني، فلا ظهور لها منها فافهم واضحِبِ الرِّجَالَ. حتى يُدْخِلُوكَ بِلَادَ الْمَعْنَى، فتَفُورَ بِالْحَسَنِ وَالْمَعْنَى. وللشيخ زُرُوقٌ هنا خبطٌ يدلُّ على أنه لم يدخل به المَعَانِي وما فتح عليه فيها إلا في آخرِ عُمُرِهِ كما تقدَّم. وبالله التوفيق.

ثم قال النَّاطِمُ:

وَيَفْرُجُ بِالْمِفْرَاجِ مِنْهُ لِدَاتِهِ لَتَطْوِيرِهِ الْعُلُويِّ بِأَلْوَمِ أُسْرَيْنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأنِ الْعَقْلِ أيضاً، إذا اتَّصَلَ بِالطَّبِيبِ الْمَاهِرِ أَنْ يَفْرُجَ، وَيُفْرَعَ عَنْ عَالَمِ الْحَسَنِ إِلَى عَالَمِ الْمَعْنَى. ومن عَالَمِ الْأَشْبَاحِ، إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ. ومن شُهُودِ الْمُلْكِ إِلَى شُهُودِ الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ. وذلك بسببِ عُرُوجِهِ عَنْ رُؤْيَا حَسَنِهِ، إِلَى شُهُودِ مَعْنَاهُ. فالعروج والارتقاء إنما هو مِنْهُ إِلَيْهِ. وهذا معنى قَوْلِهِ: مِنْهُ لِدَاتِهِ أي من شُهُودِ حَسَنِهِ الظَّاهِرِ، لِرُؤْيَا ذَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ. فليس الأمرُ عنكَ خَارِجاً كَمَا قَالَ النَّاطِمُ فِي بَعْضِ أَرْجَالِهِ:

وَإِلَيْكَ وَأَنْتَ مَعْنَى الْخَبَرِ وَمَا دُونَكَ غَيْرِيَا مُحَلَّ الْفَقْرِ

أي الذات. وإنما جاءه هذا الرفع والعروج المذكور لتطويره بالمقام العلوي، وهو محل الشهود والعيان الذي هو مقام الإحسان. وإذا حققت الأمر لا تجد ارتفاعاً ولا عروجاً؛ لأن الحق كان وحده؛ وهو باقي وحده. لكن الوهم أثبت الغيرية والإثنية فإذا ارتفع الوهم، والجَهْلُ، لم تجد إلا الواحد الأحد في الأزل وفيما لا يزال. ما تجلّى به في الأزل، هو ما تجلّى في الأبد، من غير زيادة ولا نقصان. إذا وقعت الغيبة عن الأشكال والزسوم التي هي وراء الكبرياء. وهذا معنى قوله: بالوهم أسرّينا أي إنما أسرّينا وارتقينا، وثبت لنا ذلك بسبب الوهم. وأما لو ارتفع الوهم وثبت الحق، لم يبق لأحد ارتقاء ولا عروج، وهذا الوهم وإن كان عذماً فهو حاصل في عالم الحكمة، وثبوته حق به وقع الحجاب لجلّ الناس. فهو نوع من قهريه الحق الذي قهر بها عباده كما قال في الحكيم: «مِمَّا يَذْكَرُ عَلَى وجود قَهْرِهِ. أَنَّ حَجَبَكَ عَنْهُ تَعَالَى بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ». وبالله التوفيق.

ثم ذَكَرَ النَّاطِمُ نَزُولَهُ لِلْعُبُودِيَّةِ، بِالْقِيَامِ بِوُظَائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ فَقَالَ:

وَيَجْعَلُ سُفْلِيًّا وَيُوهِمُ أَنَّهُ لِسُفْلِيَّهِ الْمَجْعُولِ بِالذَّاتِ أَهْبِطْنَا

يعني أن العقل تارة يَرْتَقِي علوياً بعروجه، من أرض الأشباح، إلى عالم الأرواح، في مقام الفناء، وتارة يُجْعَل سُفْلِيًّا بنزوله من سماء الحقوق إلى أرض الحظوظ. للقيام بأداب العبودية، في مقام البقاء ويوهم إذا نَزَلَ إلى السفليات أنه المَجْعُول سُفْلِيًّا بالذات حقيقة. وليس كذلك. إنما هو تنزل وإظهار للعبودية مع كونه علوياً حقيقة ذاتية. لأنّ هذا إنما هو تلوين للخمرة الأزلية تظهر التنزيل منها إلهياً، فهي علوية في سفليها رقيقة في وضعها.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجَمَلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انظر يا أخي وتأمل هذه الخمرة كيف كملت فيها الأوصاف، وتوقّرت فيها الشروط، وكيف كُمل نقصانها، كما كُمل كمالها. سبحانه من أظهرها بالكمال في النقص والكمال حتى صار الكلّ كمالاً ولا نقص». وكذلك «انظر يا أخي ما أَقْرَبَهَا فِي بُغْدَهَا. وَمَا أَبْعَدَهَا فِي قُرْبِهَا، وَمَا أَزْفَعَهَا فِي سُفْلِيَّهَا. وَمَا أَوْضَعَهَا فِي عُلُوبِهَا. وَمَا أَكْبَرَهَا فِي صَغَرِهَا. وَمَا أَضْعَفَهَا فِي كِبَرِهَا. وَمَا أَقْوَاهَا فِي ضَعْفِهَا. وَمَا أَضْعَفَهَا

فِي قُوَّتِهَا. وَمَا أَغْنَاهَا فِي فَقْرَهَا. وَمَا أَفْقَرَهَا فِي غِنَاهَا. وَمَا أَعَزَّهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَمَا أَذْلَهَا لِنَفْسِهَا وَمَا أَعْظَمَ قُدْرَتَهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَمَا أَضْعَفَ عِزَّهَا عَنْ نَفْسِهَا» إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والمراد إنها تُسْتَرَّ فِي حَالِ تَجَلِّيْهَا فَتُظْهِرُ مِنْ نَفْسِهَا التَّقْصُّ؛ وهي في غَايَةِ الْكَمَالِ لِيَبْقَى السُّرُّ مَضُونًا. وَالكَثْرُ مَدْفُونًا.

وقوله أَهْبَطْنَا لَعَلَّه حَذَفَ قُلَّ أَيُ يُوْهِمُ أَنَّهُ الْمَجْعُولُ بِالذَّاتِ سُفْلِيًّا، وَيُوْهِمُ أَنَّهُ قَدْ أَهْبَطْنَا مِنْ عُشِّ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ إِلَى أَرْضِ الْحِظْوِظِ السُّفْلِيَّةِ. مَعَ أَنَّنَا لَمْ يَقَعْ لَنَا هُبُوطٌ. إِنَّمَا هُوَ شَرَفٌ، زِيَادَةٌ فِي الْإِزْتِقَاءِ؛ كَأَنَّ الْمُرِيدَ كُلَّمَا نَزَلَ لِأَدَاءِ الْحَقِّ، اِرْتَفَعَ وَارْتَفَى إِلَى دَوَامِ الشُّهُودِ، لِأَنَّهُ يُنْزَلُ بِالِإِذْنِ وَالتَّمَكِينِ، وَالرُّسُوحِ فِي الْيَقِينِ، لَا فِي الْمُنْتَعَةِ وَالشَّهْوَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِ الشَّيْخِ بِقَوْلِهِ: أَهْبَطْنَا، وَأَظْنَهُ تَضْحِيْفًا. إِذْ لَيْسَ فِي يَدِنَا إِلَّا نَسْخَةٌ مَصْحُفَةٌ وَمِنْ ظَهَرَ لَهُ غَيْرُ مَا قُلْنَا فَلْيَلْحَقْهُ بِالطُّرَّةِ^(١)، وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ.

ثم قال الناظم:

يُقَدِّرُ وَضْلًا بَعْدَ فَضْلٍ لِذَاتِهِ وَفَرَضَ مَسَافَةً يُحَدِّثُ لَهَا الذُّهْنُ

قلت: وفرض عطف على وضلاً. ويحدُّ بالذَّالِ المعجمة يقطع، الذُّهْنُ بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ وَيُقَصِّرُ: الفلات كما في القاموس. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمِنْ شَأْنِ الْعَقْلِ أَنَّهُ يَقْدِرُ الْوُصُولَ إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ بَعْدَ انْفِصَالٍ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا. وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ وَهْمِهِ. إِذْ لَا انْفِصَالَ وَلَا بَيْنُوْتَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَإِنَّمَا جَهْلُهُ هُوَ الَّذِي بَعْدَهُ فِي حَالِ قُرْبِهِ، وَقَصْلُهُ فِي حَالِ وَضْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٥﴾. [:] وَفِي الْحِكْمِ: «لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتَكَ. وَلَا قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَهَا وَضْلَتَكَ». وَقَالَ أَيْضًا: الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ. إِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَتَتْ عَنْ النِّظَرِ إِلَيْهِ. إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ. وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتَرٌ، لَكَانَ لَوْجُودُهُ حَاصِرًا. وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

(١) طُرَّةُ الثَّوْبِ: مَوْضِعُ هَدْبِهِ، وَهِيَ حَاشِيَتُهُ الَّتِي لَا هَدْبَ لَهَا، وَطُرَّةُ الْأَرْضِ أَحَاشِيَتُهَا. وَطُرَّةُ كُلِّ شَيْءٍ: طَرَفُهُ. وَمُرَادُ الْمَصْنَفِ هُنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ: الْحَاشِيَةُ.

[الأنعام: ١٨] وقال أيضاً: «كَيْفَ يَخْتَجِبُ الْحَقُّ تَعَالَى بِشَيْءٍ. وَالَّذِي اخْتَجَبَ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ. فَتَحْصُلُ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى لَا حَائِلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ. وَلَا فَضْلَ وَلَا بَيْنُونَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ فَمَا تَمَّ مَوْصُولٌ وَلَا تَمَّ بَائِنٌ
فَالْعَقْلُ لضعفه هو الَّذِي يُقَدَّرُ الْوَصْلُ، بَعْدَ الْفَضْلِ لِذَاتِهِ عَنْ خَضْرَا
الْحَقِّ. وَيُقَدَّرُ أَيْضاً: فَرَضَ مَسَافَاتٍ وَمَهَامِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَصُولِ إِلَى الْحَقِّ، يَقْطَعُ
لَأَجْلِهَا الْفَلَوَاتِ وَالْمَفَاوِزَ مِنَ الْأَرْضِ. وَهَذَا كُلُّهُ اسْتِعَارَةٌ وَكِنَايَةٌ عَنْ قِطْعِ
مَالُوفَاتِ النَّفْسِ وَعَوَائِدِهَا. وَالْخُرُوجُ عَنِ الطَّبَعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَحْجُبُ عَنْ شَهُودِ
الْحَقِّ، وَالنَّفُوزُ مِنْ شَهُودِ حَسِّ الْكَائِنَاتِ إِلَى مَسَافَةِ الْمَعَانِي. قَالَ الشَّطِيبِيُّ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ فِي شَرْحِ الْحِكْمِ: وَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ اللَّهِ تَعَالَى، لَيْسَ فِيهِ مَقَازَةٌ، وَلَا
مَتَاهَةٌ، بَلْ هِيَ مَنَازِلٌ وَأَحْوَالٌ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لْجَمِيعِهَا أَغْوَانًا وَأَنْصَارًا؛ هُوَ
سَبْحَانَهُ يَصْدُقُ وَعْدُهُ، وَيَنْصُرُ عَبْدَهُ. وَيَهْزِمُ الْأَحْزَابَ وَخَدَّهُ. وَإِنَّمَا الْمَقَاوِزُ
وَالْمَسَافَاتُ فِي الزَّكُونِ إِلَى الْمَالُوفَاتِ وَاتِّبَاعِ الْعَادَاتِ. وَفِي مَسَامِحَةِ النَّفْسِ فِي
الْوُقُوفِ مَعَ الْحَسِّ وَالْحَدَسِ. وَعَنْ كَشْفِ الْغَطَاءِ يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ. وَعَنْ قِطْعِ هَذِهِ
الْمَالُوفَاتِ وَرِيَاضَةِ النَّفْسِ عَبَّرُوا بِالسَّيْرِ وَالْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ، كَمَا قَالَ فِي
الْمُبَاحِثِ:

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونَ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِرُونَ
فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى ذَلِيلٍ ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَا لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَا
وَمِنْ شَأْنِ الْعَقْلِ أَيْضاً، إِبْثَاتُ الْمَعْيَةِ، وَالْإِثْنَيْنِيَّةُ، بِمُشْفَعَةِ الْآثَارِ. كَمَا قَالَ
النَّاطِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يُجْلِي لَنَا طَوْرَ الْمَعْيَةِ شَكُّهُ وَإِنْ لَمَعَتْ مِنْهُ فَتُلْجِقُهُ الْمَيِّنَا
وَيُلْجِقُهَا بِالشَّرِّكَ مِنْ مَشْوِيَةٍ يَلُوحُ بِهَا وَهُوَ الْمُلُوحُ وَالْمُثْنَا
قُلْتُ: شَكُّهُ: فَاعِلٌ يُجْلِي. وَأُطْلِقُ الشُّكَّ هُنَا عَلَى مُجَرَّدِ الْوَهْمِ، وَقَاعِلٌ
لَمَعَتْ مَخْدُوفٌ. أَيِ أَنْوَارِ الْخِلَاقِ. وَالْمَيِّنُ: الْكَذِبُ الْمُلُوحُ. اسْمُ فَاعِلٍ،

والمثنى بِضَمِّ الميم اسمُ مفعول. والجملة حال. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُجَلِّي
أَنِّي يُظْهِرُ نُورَ الْعَقْلِ لَنَا طَوْرَ الْمَعِيَةِ. أي وجودها وثبوتها وذلك أَنَّهُ لَمَّا أُبَيِّنَ
الْأَثَرُ، أُبَيِّنَ نَفْسَهُ مَعَ اللَّهِ لَزَمَهُ وُجُودُ الْمَعِيَةِ، وَالْأَثْنَيْنِيَّةِ. وهي حال عند
المحققين من أهل التوحيد الْخَاصِّ. قال في الْحَكَمِ: «ما حجبك عن الله وجود
موجود معه. إذ لا شيء معه. وإنما حجبك تَوَهُُّمُ موجودٍ معه». وقال أيضاً:
«الْأَكْثَوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِيهِ. مَمْحُوءَةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ». وَإِنْ لَمَعَتْ مِنَ الْعَقْلِ أَنْوَارُ تِلْكَ
الْحَقَائِقِ، مَحَتْ تِلْكَ الْمَعِيَةِ، وَأُثْبِتَتِ الْوُجُودَ لِلْوَاحِدِ الْأَحَدِ. فَتَلَحَّجَ الْمَنِينُ
وَالْكَذِبُ فِي اعْتِقَادِ الْمَعِيَةِ وَالْإِثْنَيْنِيَّةِ. وَتَثَبَّتِ الْوُتْرِيَّةُ لِلْوُتْرِ الْقُرْدِ. قال الناظم في
بغض أَرْجَالِهِ:

وَبِرَّوْجِ وَرَاحٍ عَادَ شَفْعِي وَتَرِي

أي وِبَرَّوْجِ الْوَصَالِ، وَشُرْبِ خَمْرَةِ الْأَزْلِ؛ صَارَ شَفْعِي؛ وهو اعتقاد
وجودي مع الحق وتري، حتى امتحى وُجُودِي فِي وُجُودِهِ. فَثَبَّتِ الْوُتْرِيَّةُ الَّتِي
كَانَتْ وَلَمْ تَزَلْ وَوَهُمُ الْعَقْلِ أُثْبِتَ ضِدَّهَا. فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ
أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. [الحديد: ٤] بِصَحْبَةِ الْمَعِيَةِ، سَوَاءٌ قُلْنَا بِالذَّاتِ أَوْ بِالْعِلْمِ قُلْنَا:
الْخُطَابُ وَارِدٌ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ، إِلَى عَالَمِ الْحِكْمَةِ وَهُوَ مَحَلُّ التَّشْرِيعِ. وَعَالَمُ
الْحِكْمَةِ هُوَ عَالَمُ الْأَشْبَاحِ وَيُسَمَّى عَالَمُ الْفَرْقِ، وَعَالَمُ الْأَثَرِ، وَعَالَمُ الْحَسِّ،
وَعَالَمُ الْمُلْكِ. أُثْبِتَهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ لِتَظْهَرُ فِيهِ آثَارُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَتَظْهَرُ فِيهِ
آدَابُ الْعِبُودِيَّةِ لِلرُّبُوبِيَّةِ إِذِ الْمَلِكُ بِلَا رَعِيَّةٍ نَاقِصٌ. فَأُثْبِتَهَا فَرْقًا، وَمَحَاها بِأَحَدِيَّةِ
ذَاتِهِ جَمْعًا. فَأَهْلُ الْحَقَائِقِ يَنْظُرُونَ لِعَالَمِ الْقُدْرَةِ، وَيُسَمَّى عَالَمُ الْمَعَانِي، وَعَالَمُ
الْمَلَكُوتِ، فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا اللَّهَ.

وأهل الشرائع يَنْظُرُونَ لِعَالَمِ الْحِكْمَةِ، فَيُثْبِتُونَ الْأَثَرَ وَالْمُؤَثِّرَ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ
الْخُطَابُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. [الحديد: ٤] قال العارف
الرُّبَائِّي، الْإِمَامُ الْوَرَنْجَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا نَصَّهُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَقَامَانِ: مَقَامُ
الْجَمْعِ، وَمَقَامُ إِفْرَادِ الْقِدَمِ عَنِ الْخُدُوثِ. فَمَنْ حَيْثُ الْوَحْدَةُ وَالْقِدَمُ، تَتَصَاغَرُ
الْأَكْثَوَانُ، فِي عِزَّةِ الرَّحْمَنِ مِنْ سَطَوَاتِ عَظَمَتِهِ، حَتَّى لَا يَبْقَى أَثَرُهَا. ثُمَّ قَالَ:
وَمِنْ حَيْثُ الْجَمْعُ، أَثَرُ نَوْرِ الصِّفَةِ، بِنُورِ الْعَقْلِ، وَنُورُ الصِّفَةِ قَائِمٌ بِالذَّاتِ.

فتجلى بنوره لفعله من ذاته وصفاته. ثم يتجلى من الفعل، فترى جميع الوجود ميزة وجوده، وهو ظاهر بكل شيء، من كل شيء، لِلْعُموم بالفعل، وللخصوص بالاسم والتثنية، وَلِلْخُصُوصِ الْخُصُوصِ بالصفات. ولِلْقَائِمِينَ بمشاهدة ذاته بالذات. وهو تعالى مُنْزَعٌ عَنِ الْبَيْنُونَةِ، والحلول، والافتراق، والاجتماع، وَإِنَّمَا هُوَ ذَوْقُ الْعَشْقِ، وَلَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

وحاصلُ كَلَامِهِ أَنَّ المعية بِذَاتِهِ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ. وَلَا يَفْهَمُهَا إِلَّا الْعَاشِقُونَ، أهل الفناء والبقاء. وقوله: ويلحقها بالشرك؛ أي يلحق العقل المعية التي أثبتها بَوَهِمِهِ بِالشَّرِكِ الْجَلِيِّ عند أهل الفناء من أهل الباطن. وبالشرك الخفي، عند أهل الظاهر من مشنوية، أي من أجل مشنوية الأثر؛ الذي أثبت مع الحق. يُلَوِّحُ أي يُظْهِرُ بِهَا ويعتقدها وهماً وجَهْلاً. وهذا في عَالَمِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ عَالَمُ الْفَرْقِ، وَعَالَمُ التَّشْرِيعِ. وَأَمَّا فِي الْحَقِيقَةِ؛ فهو الْمُلَوِّحُ أي المظهر للإنينية سرّ الأسرار رُبُوبِيَّتِهِ. أَنَّ تُبْتَذِلَ بِالْإِظْهَارِ. وَيُنَادِي عَلَيْهَا بِلِسَانِ الْاِشْتِهَارِ؛ وهو أَيْضاً الْمُثْنَى، الَّذِي صَارَ شَفْعاً بِإِغْتِبَارِ الْأَثَرِ؛ فَهُوَ الظَّاهِرُ فِي بُطُونِهِ، والباطن في ظَهْرِهِ، وبالله التوفيق.

ثم ذَكَرَ النَّازِمُ حِجَابَ الْعَقْلِ وَالزَّوْجَ عَنِ سِرِّ الْوَحْدَةِ. بعد أن كَانَتْ عَارِفَةً بِهَا فَقَالَ:

فَنَحْنُ كَدُودُ الْقَرِّ يَخْضَرُّنَا الَّذِي صَنَعْنَا لِدَفْعِ الْحَضَرِ سَدَنٌ لَنَا مِنَّا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فنحن كدود الْقَرِّ أي دود الحرير؛ لأنها تبدو أولاً ظاهراً مُطْلَقَةً لَأَحْجَابِ عَلَيَّهَا، ثم تنسج على نَفْسِهَا مِنْ حَرِيرِهَا. كذلك الْأَرْوَاحُ الْإِنْسَانِيَّةُ، تبرز لهذا الْعَالَمِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ لَأَحْجَابِ عَلَيَّهَا. وَلِلَّذَلِكَ تَرَى الضُّبِّيَّانَ يَنْطَقُونَ بِالْمَغْيِبَاتِ، وبالحكم الباهرة، فَإِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ وَكَمَلَتْ عَقْلُهَا نظرت إلى هَذَا الْعَالَمِ السَّفَلِيِّ. وعشقت فروقه. وتاهت في حُظُوظِهَا وشهواتِهَا، فكلما زَادَتْ فِي تِيَاهِهَا تَرَاكُمُ حِجَابِهَا. فمنها من يتراكم عليها حجاب الظلمة، كظلمة المعاصي والمساويء؛ وهم الْعَوَامُ. ومنها من يتراكم عليها حجاب الأنوار، كالاشتغال بالعلوم النقليّة والرُّسْمِيَّةِ، والعقليّة. فَتَتَغَلَّغَلُ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ وَتَرْسُخُ فِيهَا فَيَغْسُرُ انْتِقَالُهَا عَنْهَا؛ وهو أَشَدُّ الْحِجَابِ.

وكالوقوف مع خلاوة الطاعات، وظهور الكرامات، وتحقيق المقامات. كما هو شأن العباد والزهاد، والمستشرفين على علم الحقيقة، وهذا أيضاً حجاب عظيم؛ ولذا قيل:

أشد الناس حجاباً عن الله العلماء ثم العباد، ثم الزهاد، فهم يعملون في خلاص أنفسهم مما يظنون؛ وهم في الحقيقة يزيدون في حجابها، وهذا معنى قوله: يحصرنا الذي صنعنا، لدفع الحصر. أي يحصرنا عن ميادين الغيوب وفضاء الشهود الذي صنعناه من الطاعات لدفع ذلك الحصر. فهو أي ما صنعنا سدن، أي حجاب لنا منا لأنفسنا والخلاص من هذا الحجاب، التضرع إلى الله في العثور على الطبيب؛ وهو شيخ التربية النبوية فيلقي إليه زمام نفسه، ويلزم خدمته وصحبته، حتى يقول له: ها أنت وربك. فيخرجه من حصر الأكوان إلى فضاء العيان فتخرج فكرته عن دائرة الأكوان، ويسقط عنه الحجاب بالكلية. فلا يزال في الترقى أبداً على مرور الساعة والأيام. وأما من لم يسقط على صاحب التربية، فلا يزيد في مرور أيامه وأنفاسه إلا حجاباً، وغطاء عن أسرار غوامض التوحيد. وكل ما يفعله في علاج نفسه، عبث وضرب في حديد بارد.

وتأمل بعض ما قاله بغض الفقراء، وأظنه الشيخ زروق بنفسه. كما نقله عنه في كفاية المحتاج، في ترجمته، قال: طفت المشارق والمغارب في طلب الحق، واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس، وتخيّل بقدر الإمكان في مرضاة الحق. فما طلبت قرب الحق بشيء، إلا كان مبعدي عنه، لرؤية نفسي، ولا عملت في معالجة النفس بشيء إلا كان معيناً لها علي. ولا توجهت لإرضاء الخلق بشيء، إلا كان سبب عداوتهم لي. فعدت إلى الاستسلام، فخرج لي منه رؤية وجودي؛ وهو رأس العليل فطرح نفسي بين يدي الحق طراحاً لا يضحبه حول ولا قوة فصيح عندي أن السلامة في كل شيء، والتبري من كل شيء، وإنما الغنيمة مع كل شيء بالرجوع إلى الله بكل شيء، اعتباراً بالقدرة وإثباتاً للحكمة، وقياماً مع الطباع، بشواهد الانطباع إلى تمام كلامه. نقله هنا الشيخ زروق عن بغض الفقراء، وأظنه عن نفسه والله أعلم. كما نقله الشيخ أحمد بابا السوداني في ترجمته.

وإنما تَعَطَّلَ الفتح على الشيخ زروق، لقلَّةِ صُحْبَتِهِ لِشَيْخِهِ الْحَضْرَمِيِّ. فقد قال عن نَفْسِهِ إِنَّمَا صَحَبَهُ أَوَّلًا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، أَوْ نَحْوَهَا، ثُمَّ انْفَصَلَ عَنْهُ، ثُمَّ رَجَعَ لزيارَتِهِ. فَبَقِيَ مَعَهُ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ. فَكَانَ المَجْمُوعُ مِنْ صَحْبَتِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهَا. قال: وَانْتَفَعْتُ بِهِ انْتِفَاعًا لَا يَخْفَى. قُلْتُ: هَذِهِ الْمُدَّةُ لَا تَسْلُخُ المَرِيدَ مِنْ كُلِّ طَبِيعِهِ، وَلَا تَخْرِجُهُ عَنْ عِلْمِهِ وَعَوَالِمِهِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَ مُتَغَلِّغًا فِي الْعُلُومِ الثَّقَلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَسْلُخُهُ مِنْهَا إِلَّا طَوِيلُ الصَّحْبَةِ بِالصَّدَقِ وَالْخِدْمَةِ، وَالتَّجْرِيدِ، كَمَا هُوَ مُجَرَّبٌ فِي شَأْنِ أَمْثَالِهِ. وَقَدْ كَانَ شَيْخُهُ يَكَاتِبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ الْحَقَائِقِ؛ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تُؤْخَذُ بِمَجَرَّدِ الْعِلْمِ، إِنَّمَا تُؤْخَذُ بِالسَّرِيَةِ مَعَ تَحْقِيقِ الصَّدَقِ وَالتَّحْقِيقِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ صَحَبُوا الْمَشَايخَ الْعَارِفِينَ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ حَقَائِقِهِمْ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْحَبُونَهُمْ عَلَى نَظَرِ نَفْسِهِمْ، عَلَى نَظَرِ الْمَشَايخِ. فَإِذَا أَمَرُوهُمْ بِشَيْءٍ، أَوْ نَهَوْهُمْ عَنْ شَيْءٍ وَزَنَوْهُ بِمِيزَانِ شَرِيعَتِهِمْ. فَمَا وَافَقَ نَظَرَهُمْ قَبْلُوهُ. وَمَا خَالَفَ رَدُّوهُ. فَلَمْ يَغْرَقُوا فِي بَحْرِ أَسْرَارِهِمُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّازِظُ مَا يَفِيدُهُ الْعَقْلُ مِنْ تَقْصِيرِ وَكَمَالٍ، بِاِغْتِيَارِ صَاحِبِهِ فَقَالَ:
فَكَمْ وَاقِفٍ أَرْدَى وَكَمْ سَائِرٍ هَدَى وَكَمْ حِكْمَةٍ أَبَدَى وَكَمْ مِنْ مُخْلِقٍ أَغْنَى
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَأْنِ الْعَقْلِ: إِنَّهُ ظَهَرَتْ عَلَى الْخَلْقِ مِنْهُ آثَارٌ مُخْتَلِفَةٌ، فَمِنْهَا مَا هُوَ خُسْرَانٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ رِبْحٌ، فَكَمْ وَاقِفٌ مَعَهُ، وَلَمْ يَنْفِذْ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْأَسْرَارِ الْخَارِجَةِ عَنْ مَذَارِكِ الْعُقُولِ.

أَزْدَاهُ: أَيِ أَهْلَكَهُ وَأَوْقَعَهُ فِي الرَّدَى: وَهُوَ بِقَاوِهِ مَعَ الْحِجَابِ، أَوْ أَوْقَعَهُ فِي انْجِلَالٍ حَيْثُ وَقَفَ مَعَهُ وَحَكَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ، إِلَّا مَا أَدْرَكَهُ عَقْلُهُ، كَمَا فَعَلَتِ الْمَغْتَزِلَةُ، وَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا. فَقَدُّوا الْعَقْلَ عَلَى صَحِيحِ النُّقْلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَرَدُّوا الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، لَمَّا خَالَفَتْ قَوَاعِدَ عَقْلِهِمْ وَأَوَّلُوا آيَاتِ الصَّرِيحَةِ، لِتَطَابُقِ مَا أَدْرَكَتْهُ عَقُولُهُمْ، وَهُوَ زَنْغٌ وَإِلْحَادٌ.

وَكَمْ سَالِكٍ هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى طَرِيقِ الْوُصُولِ حَيْثُ مِيزَ بِهِ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ،

فترك ما يضره، وهو كل ما يشغل عن ربِّه واشتغل بما ينفعه. وهو كل ما يُقرِّبه من ربِّه. وإذا لآخ شيء منه، ورَّنه بالكتاب والسنة. فطبق بين المعقول والمنقول وإذا تعدَّر الوفاق بينهما، قدَّم ما ورَّد في الكتاب والسنة، وحكَّم على العقل بالضَّعِيف، وكَمَّ حِكْمَةَ أَبْدَى لصاحبه، حيث نوره بطاعة ربِّه، ومخالفة هواه فإنَّ العقل إنما عقل صاحبه عن الهوى، ونطق بينابيع الحكمة.

وفي الحديث: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَزْبَعَيْنَ يَوْمًا نَطَقَ بِالحِكْمَةِ»^(١). وقال أيضاً عليه السلام: «مَنْ أُعْطِيَ زُهْداً وصمناً حسناً فاقربوا منه، فإنه يُلْقَى الحِكْمَةُ»^(٢). أو كما قال عليه السلام.

والحِكْمَةُ الإصَابَةُ في الشيء. وقيل: إتقان الشيء وإبداعه ومحلها القلب وتظهر آثارها على الجوارح. ففي العبد مثلاً بالصَّنَائِعِ العجيبة، وفي اللسان بالمعاني الغريبة، ولذلك يُقال: نَزَلَتِ الحِكْمَةُ عَلَى ثلاثة أَعْضَاءٍ في الجسد: على قلوب اليونان، وعلى ألسنة العرب، وعلى أيدي أهل الصِّينِ فَإِنَّ اليونان قد أعطوا الأَنْظَارَ فِي العَقْلِيَّاتِ واستخرج البراهين المنطقيات.

والعرب قد أعطوا الحِكْمَةَ في أشعارها وخطبها، وأهل الصِّين قد أعطوا الصَّنَائِعَ البَدِيعَةَ فِي البُنْيَانِ والنَّقْشِ والأواني الرفيعة. وكَمَّ من مُمْلِكٍ أي فقير أغنى أي صَبْرَهُ غَنِيًّا؛ وَذَلِكَ حَيْثُ ذَلُّهُ عَلَى صَحْبَةِ الْعَارِفِينَ وَوَصْلُهُ لِلَّهِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُغْنُونَهُ بِالنَّظَرِ. وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْخُلُوةُ مَعَنَا نَفِيسَةٌ تَوْجِبُ غِنَى الدَّارِينِ». وقال أيضاً: «طَرِيقُنَا طَرِيقُ الْغِنَى الْأَكْبَرِ». وقال الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَرْسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ أَنْظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وكل زَمَانٌ له رِجَالٌ يَغْنُون. فَالْعَقْلُ الَّذِي جَرَّ صَاحِبَهُ لِلدَّخُولِ مَعَ الْأَعْنِيَاءِ بِاللَّهِ هُوَ الْعَقْلُ الْمَغْنِي.

(١) أورد نحوه الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال، حديث رقم (١٤٥٧) [٣٠٧/٥] والذهبي في ميزان الاعتدال، رقم (٥٢٦٠ - ٥٣٦٠) [٤١٣/٤].

(٢) روي نحوه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (١٠٥٢٩) [٣٤٦/٧] وابن أبي عاصم في الزهد، حديث رقم (٢٣١) [١١٧/١] ونصه: «إذا رأيت الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة».

وقال بَغْضُ الْحُكَمَاءِ: «خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الْمَرْءُ عَقْلٌ يَزْجُرُهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَمَالٌ يَسْتَرُهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَحَيَاءٌ يَمْنَعُهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَصَاعِقَةٌ تَحْرِقُهُ لِيَسْتَرِيحَ مِنْهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ». ولأجل ما ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، اغْتَنَى بِشَأْنِهِ كِبَارُ الْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ.

كما قال النَّاطِمُ:

وَتَبَيَّنَ أَلْبَابَ الْهَرَامِسِ كُلُّهُمْ وَحَسْبُكَ مِنْ بُقْرَاطٍ أَسْكَنَهُ الدُّنَا
وَجَرَّدَ أَمْثَالَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا وَأَبْرَأَ أَفْلَاطُونَ فِي أَمْثَلِ الْحُسْنَى
وَهَامَ رُسْطُو حَتَّى مَشَى مِنْ هَيَامِهِ وَبَثَّ الَّذِي أَلْقَى إِلَيْهِ وَمَا ظَنَّا
وَكَانَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ عَوْنًا عَلَى الَّذِي تَبَدَّى لَهُ وَهُمْ الَّذِي طَلَبَ الْعَيْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَتَبَيَّنَ الْعَقْلُ أَلْبَابَ الْهَرَامِسِ؛ أَيِ أَخَذَ قُلُوبَهُمْ، حَيْثُ صَرَفُوا عَنَّا عَنَّايتِهِمْ لِشَأْنِهِ. وَالْهَرَامِسُ: الْفَلَاسِفَةُ وَالْكَفَّارُ مِنْهُمْ، وَجُلُّهُمْ كَانُوا مِنَ الْيُونَانِ. وَفِي الْقَامُوسِ، الْهَرَامِسُ بِالْكَسْرِ: الْأَسَدُ الشَّدِيدُ الْعَادِي عَلَى النَّاسِ كَالْهَرَمَسِ وَالْهَرَامِسِ. وَلَعَلَّ تَسْمِيَةَ الْفَلَاسِفَةِ بِذَلِكَ لَشِدَّةِ عُقُولِهِمْ أَوْ لَعُدْوَانِهِمْ، إِذْ جُلُّهُمْ كَفَّارٌ. وَحَسْبُكَ مِنْ بُقْرَاطٍ أَنَّهُ أَسْكَنَهُ الدُّنَا أَيِ وَيَكْفِيكَ فِي الْعَقْلِ أَنَّهُ أَسْكَنَ بُقْرَاطُ الْحَكِيمِ الدُّنَا أَيِ الْجَزَّةَ: وَهِيَ الْآيَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تُغْرَسُ فِي الْأَرْضِ أَسْفَلِهَا ضَيْقٌ وَأَعْلَاهَا وَاسِعٌ وَيُقَالُ لَهَا: الرَّاكُودُ، وَفِي الْقَامُوسِ: الدُّنُّ: الرَّاكُودُ الْعَظِيمُ. ثُمَّ قَالَ: لَا يَقْصَدُ إِلَّا أَنْ يَخْصُرَ لَهُ. وَظَاهِرُ إِطْلَاقِهِ، أَنَّهُ بَفَتْحِ الدَّالِ كَمَا هُوَ اضْطِلَاحُهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بُقْرَاطَ دَخَلَ جَرَّةً وَجَلَسَ فِيهَا لِيَخْصُرَ فِكْرَهُ لِثَلَاثِ شِوْشِ عَقْلِهِ. وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ ذَهَبْتَ إِلَيْهِ لِتَأْخُذَ مِنْهُ الشَّرِيعَةَ. فَقَالَ: نَحْنُ قَوْمٌ مَهْذُبُونَ لَا نَحْتَاجُ إِلَى أَخْذِ. فَأَزَادَهُ عَقْلُهُ حَيْثُ صَرَفَهُ عَنِ التَّمَسُّكِ بِأَنْوَارِ الشَّرِيعَةِ فَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وَقَوْلُهُ: وَجَرَّدَ أَمْثَالَ الْعَوَالِمِ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْعَقْلِ، وَمِنْ شَأْنِ الْعَقْلِ، أَنَّهُ جَرَّدَ الْعَوَالِمَ الْعُلُويَّةَ وَالسُّفَلِيَّةَ، وَمَيَّزَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَزْجَعَ لِأَفْلَاطُونَ، فَإِنَّهُ تَكَلَّمَ عَنِ الْعَوَالِمِ الْحَسِيَّةِ بِعَقْلِهِ وَحَذَرِهِ. فَإِنَّ عِلْمَ النُّجُومِ وَالْأَفْلَاقِ جَلَّةٌ مَأْخُوذٌ عَنِ الْفَلَاسِفَةِ الْقَدَمَاءِ. يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ بَغْدَ الطُّوفَانِ بِقَرِيبٍ. وَلَعَلَّهُ تَمَسَّكَ بِشَّرِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَلِذَلِكَ قَالَ

النَّاطِلِ فِي حَقِّهِ، وَأَبْرَأَ أَيَّ أَنْشَأَ الْعَقْلُ أَفْلَاطُونُ فِي أَمَثَلِ الْحُسْنَى، أَيَّ فِي أَفْضَلِ الْحُسْنَى أَيَّ جَعَلَهُ نَاشِئاً فِيهَا وَمُلَازِماً لَهَا إِذَا كَانَ مُوَافِقاً لِلْحَقِّ بِاعْتِقَادِهِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ مَنْ عَرَّفَ بِهِ. قَالَ زُرَّوقُ.

وَذَكَرَ ابْنُ خَلْدُونِ فِي شِفَاءِ الْمَسَائِلِ؛ أَنَّ أَفْلَاطُونُ شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ، قَالَ الشَّيْخُ زُرَّوقُ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْأَبْنِيَّاتِ إِلَّا فَلَاسِفَةَ الْأَقْدَمِينَ. قُلْتُ: ثُمَّ رَأَيْتُ فِي الْإِنَالَةِ لِلتَّجِيبِ، أَنَّهُ شَيْخُ أَرِسْطُو. وَنَصُّهُ: وَأَفْلَاطُونُ قَالَ بِحُدُوثِ الْعَالَمِ، وَتَلْمِيزِهِ أَرِسْطُو بِقَدِيمِهِ. وَأَرِسْطُو مِنْ كِبَارِ الْفَلَاسِفَةِ، وَيُقَالُ لَهُ: أَرِسْطُو طَالِيسَ. وَهُوَ أَحَدُ الْمَشَائِينِ الَّذِينَ كَانَ مَشِيَهُمْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَطَلَبِ الزِّيَادَةِ فِيمَا بَدَأَ لَهُ. فَكَانَ مَشِيَهُ وَهِيَامُهُ طَرِباً مِمَّا حَصَّلَ وَطَالِباً مَا لَمْ يَحْصُلْ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ. وَهَامَ رِسْطُو حَتَّى مَشَى مِنْ هِيَامِهِ. وَيَقْرَأُهَا رِسْطُو بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ لِلْوَزْنِ. وَالْهِيَامُ نَوْعٌ مِنَ الْقَلْقِ فِي طَرِبٍ. وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ: الْهِيَامُ كَالْمَجْنُونِ مِنَ الْعَشَقِ.

وقوله: وَبَيْتُ الْخ. . أَيَّ أَنَّ أَرِسْطُو بَثَّ مَا أَلْقَى إِلَيْهِ عَقْلُهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكْمَةِ. فَعَلَّمَهَا لِلنَّاسِ وَمَا ضَنَّ أَيْ بَخَلَ بِشَيْءٍ مِنْهَا، لَهُ كُتِبَ فِي الطُّبِّ وَالْحِكْمَةِ. وَكَانَ وَزيراً لِدَيِّ الْقَرْنَيْنِ فَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ يَسْتَعِينُ بِهِ فِي أُمُورِ الْحِكْمَةِ، وَتَدْبِيرِ الْمَمْلَكَةِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَكَانَ لِدَيِّ الْقَرْنَيْنِ عَوناً عَلَى الَّذِي تَبَدَّى لَهُ. أَيَّ كَانَ عَوناً لَهُ عَلَى مَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ. مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ تَيْسِيرِ الْأَسْبَابِ الْمُبْلَغَةِ لِمَا قَصَدَهُ مِنَ الْأَوَابِي جَمْعُ أَوْبَةٍ. فَكَانَ يَسْتَعِينُ بِهِ فِي عَالَمِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ دِينِهِ؛ لِأَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الْأَكْبَرَ قَلِيلٌ كَانَ نَبِيّاً، أَوْ رَجُلًا صَالِحًا. وَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ، أَنَّهُ حَجَّ الْبَيْتِ، فَلَقِيَ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، وَأَخَذَ عَنْهُ الشَّرِيعَةَ الْحَنِيفِيَّةَ.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي طَلَبَ الْعَيْنَ». يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرِسْطُو هُوَ الَّذِي طَلَبَ عَيْنَ الْحَيَاةِ؛ وَهِيَ الَّتِي مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَمِتْ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَا الْقَرْنَيْنِ هُوَ الْمَشْهُورُ. فَقَدْ كَانَ يَطْلُبُ عَيْنَ الْحَيَاةِ هُوَ وَالْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَثَرَ عَلَيْهِمَا الْخَضِرُ وَحَرَّمَهَا ذُو الْقَرْنَيْنِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ. أَيَّ رَدُّ بَحْثِهِ عَنْهَا غَيْباً. بَلْ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ فِي

القرآن من جولانيه في الأرض، شرقاً وغرباً. وجوفاً وقبلة. ويبحث أيضاً عن عين الحياة، ويبحث عنها، وجزصه عليها حرمها، وتغطت عنه. وهذا معنى قوله: وبالبحث غطى العين إذ رده غينا. أي رد بحثه عنها غينا. أي غطاء وستراً عنها.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه. وبالبحث غطى ذو القرنين العين، أي الكشف الذي حصل له. فردّه غينا. أي غطاء وغشاء. أي: بحيث ظن الجاهل أن ملكه كان مقيداً بالأسباب، وما كان كذلك بل مؤيداً بالوحي إن كان نبياً وبالإلهام إن كان ولياً. ثم قال: تنبيه: ذكر رجالاً مرتبين على المواقف الأربعة. فبقراط من الواقفين مع العقل، وأفلاطون من السائرين به، وأرسطو من أهل الحكمة وذو القرنين من أهل الغنى الأكبر سواء قلنا إنه نبي أو ولي فتأمل ذلك. ثم ذكر الناطم رجالاً اهتموا بعقولهم إلى الحق، من الملة المحمدية فقال:

وَذَوَّقَ لِلْحَلَاजِ طَعْمَ اتِّحَادِهِ	فَقَالَ أَنَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى
فَقِيلَ لَهُ ازْجَعْ عَنْ مَقَالِكَ قَالَ لَا	شَرِئْتُ مُدَاماً كُلَّ مَنْ ذَاقَهَا غَنَى
وَأَنْطَقَ لِلشُّبْلِيِّ بِالْوَحْدَةِ الَّتِي	أَشَارَ بِهَا لَمَّا مَحَا عَنْدَهُ الْكُونا
وَكَانَ لِذَاتِ التَّوْفَرِّي مَوْلَهَا	يُخَاطَبُ بِالتَّوْحِيدِ صَيْرُهُ خِذْنَا
وَكَانَ خَطِيباً بَيْنَ ذَاتَيْنِ مَنْ يَكُنْ	فَقِيْرًا يَرَى الْبَحْرَ الَّذِي فِيهِ قَدْ غَصْنَا
وَأَضْمَتَ لِلْجِنِّي تَجْرِيدَ خَلْقِهِ	مَعَ الْأَمْرِ إِذْ صَارَتْ فَصَاحَتُهُ لُكْنَا

يقول رضي الله عنه: وذوق العقل حين تتور، واتصل نوره بالعقل الأكبر للحلاج وهو أبو غنيث الحسين بن منصور، صاحب الجنيّد والتوري وغيرهما؛ وهو من أكابر الأولياء المحققين، غير أنه غلب عليه الوجد، فعزبد في الحقيقة، حتى مات عليها. فقد ذوق له عقله طعم اتّحاده، أي طعم فتائه، فالانحداد يطلق على مغنيين، أحدهما اختلاط ذاتين، حتى تصير ذاتاً واحدة؛ وهذا محال في حقه تعالى. ومن اعتقده كفر، والثاني يطلق على الوحدة الحقيقية. يقال: اتّحد الشيء إذا صار واحداً؛ وهو الذي يعبر عنه الصوفية، ويذكرونه في أشعارهم.

فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ سَقُوطِ الْغَيْرِيَةِ الْإِثْنَيْنِيَّةِ، فَيَفْتَنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَنْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ. فقال الحَلَّاجُ حِينَ غَابَ عَنْ وُجُودِهِ فِي شُهُودِ مُحِبِّوهِ، أَنَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى. أَي أَنَا اللَّهُ الَّذِي لَا تَحْصُرُهُ مَعْنَى، وَلَا يَحِيطُ بِهِ وَهْمٌ وَلَا فِكْرٌ. وقال أَيْضاً مِنْ جُمْلَةِ الْكَلَامِ وَالَّذِي قُتِلَ بِهِ: أَنَا أَنتَ بِلَا شَكٍّ. سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي. تَوْحِيدَكَ تَوْحِيدِي، وَعِصْيَانَكَ عِصْيَانِي، وقال أَيْضاً: مَا فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللَّهُ، وَالَّذِي تَعْبُدُونَ تَحْتَ قَدَمِي. فقيل له: ارجع عن مَقَالِكَ، وَإِلَّا قَتَلْتُكَ سَيْفَ الشَّرِيعَةِ. فقال: لا، لَأَنِّي شَرِبْتُ مُدَاماً، أَنِي خَمْرَةٌ قَوِيَّةٌ. كُلُّ مَنْ ذَاقَهَا غَتَّى. لَا سَيْماً إِذَا شَرِبَ وَسَكَرَ، وَفِي هَذَا مَنْ عَبَّرَ عَنْ حَالِهِ:

سَقُونِي وَقَالُوا لَا تُغْنِي وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقُونِي لَعَنْتُ

وَالنُّطْقُ بِالْأَتَانِيَةِ صَارَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، فِي حَالِ فَنَائِهِمْ. قال بَعْضُهُمْ: لقد قال كثير من الأولياء في مقام الفَنَاءِ، أَنَا. وقال آخر في مقام البقاء: هُوَ. فَيُقَالُ لِلأَوَّلِ صَدَقْتُ وَمَا كَذَبْتُ. وَيُقَالُ لِلثَّانِي: أَحْسَنْتَ وَتَأَذَّبْتُ. وَلَمَّا حَبَسَ لِلْقَتْلِ، قال له الشُّبْلِيُّ، يَا أَبَا الْمُغِيثِ: مَا مَعْنَى التَّفَرُّدِ؟ فقال له: «هُوَ أَنْ يَنْفَرِدَ الْعَبْدُ بِالوَاحِدِ الْأَحَدِ الْفَرْدِ. فَإِذَا رَأَاهُ الْحَقُّ انْفَرَدَ عَنِ الْخَلْقِ، أَمْنَهُ مِنْ عَذَابِ الطُّرْدِ، فَيَصِيرُ لِلْحَقِّ مُشَاهِداً. وَالْحَقُّ عَلَى لِسَانِهِ شَاهِداً. فحِينَئِذٍ يَتَخَلَّصُ لِمَقَامِ الْمَعْرِفَةِ. وَيُوحَى إِلَى خَاطِرِهِ. وَيُحْرَسُ سِرُّهُ عَمَّا سِوَاهُ. فَلَا يَزْشَعُ مِنْهُ غَيْرُ الْحَقِّ، مِنْ حَضْرَةِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ».

وقال الشُّبْلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضاً لِلْحَلَّاجِ: مَا الْمَعْرِفَةُ؟ فقال الحَلَّاجُ:

«اسْتِهْلَاكُ الْحَسِّ فِي الْمَعْنَى». فقلت له: «مَا الْوُجُدُ؟ فقال: لِهَيْبٍ يَنْشَأُ عَنْ الشَّوْقِ فِي الْأَسْرَارِ وَتَطْرِبُ بِهِ الْجَوَارِحُ، ثُمَّ يَزُولُ لِأَنَّهُ مَقْرُونٌ بِالزُّوَالِ. وَيَبْقَى نَتِيجَتُهُ الْعِزْفَانِيَّةُ. لَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ. ثُمَّ قال يَا شُبْلِيُّ مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْدَ خُطَوَاتِ قَلْبِهِ عَصَمَهُ عِنْدَ حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ. ثُمَّ قال يَا شُبْلِيُّ: أَلَسْتُ تَحْفَظُ كِتَابَ اللَّهِ. فقال الشُّبْلِيُّ بَلَى. فقال: قد قال لَنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمَيْتَ». [الأنفال: ١٧] يَا شُبْلِيُّ: إِذَا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بِحَبَّةٍ مِنْ حُبِّهِ. نادى عليه مَدَى الْأَزْمَانِ بِلسَانِ الْعِتَابِ. فقلت له: مَا الْمُحَبَّةُ؟ فقال الحَلَّاجُ: الْغَيْبَةُ عَمَّا سِوَى الْمُحِبِّ. فقلت له: مَا الْإِنْسُ؟ فقال:

وجود الهيبة، مع ارتفاع الخشية وغلبة الرجاء على الخوف. ثم قتل شهيداً رضي الله عنه ببغداد، يوم الثلاثاء، لست بقين من ذي الحجة سنة ست وثلاثمائة هجرية (٣٠٦ هـ). وتأخرت وفاته عن الجنيد بتسع سنين. أما ما ذكر بعضهم أن الحلاج تصور به بيته، حتى ملأ البيت فلم يقدر أحد على إخراجِه، فذكروا ذلك للجنيد، فَأَتَى إِلَيْهِ، وقال: يا حسين، فتحت ثغراً لا يسدها إلا رؤيتك. فخرج وسلم. فَأَنْفَسَ بَدَنَهُ، وَخَرَجَ مُسَلِّماً، مُشَكِّكٌ فِيهِ لِأَنَّ الْجُنَيْدَ مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ (٢٩٧ هـ). في قول الأكثر ممن عَرَفَ بِهِ. فكيف يخضر قتلُه؟ وكذلك قول من قال في مخنة الصوفية إنه الأمر. قال للعلماء: قتلتم الحلاج، وهو وليُّ الله. وأنتم تريدون قتل الجنيد فلا يصح أيضاً. إلا أن يكون وَقَعَ الغلطُ في مَوْتِ الحلاج للشعراني في طبقاته فإني نقلته منه. ثم رأيت الشيخ ابن زكري وافق ما للشعراني. نعم ذكر الفقيه المسناوي في نصرته خلافاً ضعيفاً في وفاة الجنيد، فالله تعالى أعلم.

وقوله: أَنْطَقَ للشبلي. أي صيّر العقل الشبلي ناطقاً بالوحدة التي أشار في قوله: أَنَا النُّقْطَةُ التي تحت الباء كما مرَّ قريباً، لما مضى عن رؤية الكون. والإشارة بالباء إلى بَحرِ الجَبَرُوتِ التي تدفقت منه نقطة الكون. وفي معنى ذلك قيل:

بَيْنَ التَّذَلُّلِ وَالتَّذَلُّلِ نَقْطَةٌ فِي فَهْمِهَا يَتَحَيَّرُ التَّخْرِيرُ
هِيَ نُقْطَةُ الْأَكْوَانِ إِنْ جَاوَزَتْهَا كُنْتَ الْمُرَادَ وَعِنْدَكَ الْإِكْسِيرُ

والإمام الشبلي: هُوَ أَبُو بَكْرٍ، قيل اسْمُهُ جَعْفَرُ بْنُ يُونُسَ؛ وهو شيخ الصوفية. وإمام أهل الباطن. كَانَ صَالِحاً فقيهاً، على مَذْهَبِ مَالِكٍ ذُو الْأَنْبَاءِ الْبَدِيعَةِ، والأخبار العربية. وأحد المتصوفين في علم الشريعة والحقيقة. أضله من خراسان، من قزوة يُقال لها شَبْلَةٌ. وَنَشَأَ بِبَغْدَادَ. فَكُتِبَ الْحَدِيثُ، وَصَحِبَ الْجُنَيْدُ. وَمَنْ فِي وَفْقِهِ مِنَ الْمَشَائِخِ. وَرَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ، كَالْأَزْهَرِيِّ وَالرَّازِيِّ وَغَيْرِهِمَا. قَالَ الرَّازِيُّ: لَمْ أَرِ فِي الصُّوفِيَةِ أَغْلَمَ مِنَ الشَّبْلِيِّ. وقال الجنيد: هو عين العين. خَلَفَ أَبُوهُ سِتِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، سَوَى الضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ. قَالَ: فَأَنْفَقْتُهَا كُلَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ثم رجعت إلى الفقراء لا أرجع إلى داري وَلَا أَسْتَظْهَرُ

بمعلوم. وكان جسيماً بديناً. ف قيل له: إِنَّ المحبَّة تقضي، فأنشأ يقول:
 أَحَبُّ قَلْبِي وَمَا دَرَى بَدْنِي وَلَوْ دَرَى مَا أَقَامَ فِي السَّمَنِ
 وَرُئِي خَارِجاً مِنَ الْمَسْجِدِ يَوْمَ عِيدٍ وَهُوَ يَقُولُ:
 إِذَا كُنْتُ لِي عِيداً فَمَا أَضْعُ بِالعِيدِ
 جَرَى حُبِّكَ فِي قَلْبِي جَزَى المَاءِ فِي العُودِ
 وسئل الشبلي عن الزُّهد فقال: تحويلُ قلبك عَنِ الأشياءِ. وقال في
 التَّصَوُّف: ضبط حواسك، ومُرَاعَاة أَنْفَاسِكَ: أي أَوْقَاتِكَ. توفي رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ
 سنة ٣٣٤هـ (أربعة وثلاثين وثلاثمائة).

وقوله: وَكَانَ لذَاتِ النوفري مَوْلَهَا، أي وَكَانَ العَقْلُ لذَاتِ التوفري مَوْلَهَا.
 أي مُعْتَبِراً عَمَّا سِوَى الحقِّ. قال الشيخ زروق رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: النوفري لَا أعرف
 اسمَه، وَلَا أدري حقيقة مَا كَانَ عليه تعريفاً، لكن مَا قَالَ هُنَا يدلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ
 مُسْتَعْرِفاً فِي التَّوْحِيدِ، حَتَّى تَوَلَّاهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَخَاطَبُ وَلَا يَخَاطَبُ
 إِلَّا بِهِ. فَصَارَ لَهُ كَالْخَلِيلِ الْمَلَازِمِ؛ وَهُوَ الخَدْنُ، واللّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ النوفري أَيْضاً خَطِيباً بَيْنَ ذَاتَيْنِ، أي بَيْنَ عَالَمِ الْأَزْوَاحِ، وَعَالَمِ
 الْأَشْبَاحِ. وَهَذَا مِنْ تَمَكُّنِهِ فِي مَقَامِ الْبَقَاءِ. وَقَوْلُهُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقِيراً إلخ. كَلَامٌ
 مُسْتَأَنَفٌ، بَيِّنُ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ كَلَامَهُ، وَيُذَوِّقُهُ إِلَّا مِنْ دَخَلِ الْبَحْرِ الَّذِي دَخَلَ
 فِيهِ، أي مَنْ يَكُنْ فَقِيراً حَقِيقاً يَرَى الْبَحْرَ الَّذِي غُصِّنَاةُ، وَيَفْهَمُ الْأَسْرَارَ الَّتِي
 أَشْرَنَّا إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَغَيْرِهَا. وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ:
 سِرِّي لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ مِثْلِي.

قوله: وَاضْمَتَ لِلْجَنِيِّ: قَالَ الشَّيْخُ زُرُوقُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: أَظُنُّ أَنَّهُ يَغْنِي
 ابْنَ جَنِّي النَّحْوِي. فَإِنَّهُ أَلْفَ كِتَاباً سَمَاءَ: تَجْرِيدُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ. فَذَكَرَ فِيهِ مَا
 يَتَعَلَّقُ بِالْفَصَاحَةِ، وَالْعَقْلِ. أَيِ وَأَضْمَتَ الْعَقْلَ لِابْنِ جَنِّي، كِتَابُهُ الَّذِي سَمَّاهُ:
 تَجْرِيدُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ. وَإِنَّمَا أَضْمَتَهُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ يَقْتَضِي أَوْسَعَ مِمَّا ذَكَرَ فِيهِ. فَلَمَّا
 قَصَّ فِيهِ أَضْمَتَهُ عَقْلَهُ.

وقوله: مَعَ الْأَمِيرِ أَيِ مَعَ اقْتِضَاءِ الْأَمْرِ أَوْسَعِ مِنْ ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ

وَمَوَادِّهَا. واختلاف أسباب الفصاحة، والبلاغة والبيان. فصارت فصاحة ابن جني أكنأ أي خرساً. أو فصارت فصاحة الكلام أكنأ، أي عجمة. وفي القاموس: لكن كفرح، لكناً محرّكاً، ولكنة ولُكُونَةٌ فَهُوَ لَكِنْ، لا يفهم العربية لعجمة لسانه. وحاصل الكلام أن كتابه الذي ألفه في الفصاحة والعقل، لم يبلغ منه المُرَامَ فَأَضَمَّتْهُ عَقْلُهُ. وقال له: لَيْتَكَ سَكَتَ.

وابن جني: هو أبو الفتح، عثمان بن جني، الموصلي النحوي، كان إماماً في العربية، قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي، وَقَعَدَ لِلإِقْرَاءِ. قرأه شيخه أبو علي في حلقة، والناس حوله يأخذون عنه. فقال له: أَنْزَبْتَ وَأَنْتَ حِضْرَمٌ. فترك حلقة، وَلَازَمَهُ حَتَّى تَمَهَّرَ. وكان أبوه جنيّاً روميّاً، مملوكاً لسليمان الأزدي. توفي ابن جني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة هجرية (٣٩٢هـ). ثم ذكر الناظم جماعة أخرى فقال رضي الله عنه:

تَتَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ مِنْ شُرْبِ خَمْرَةٍ	فَكَانَ كَمِثْلِ الْغَيْرِ لِكِنَّهُ تَنَّى
وَقَدْ شَدَّ بِالشُّوْذِيِّ عَنْ نَوْعِهِ فَلَمْ	يَمَلْ تَحْوِ أَخْذَانِ وَلَا سَاكِنَ الْمُذْنَا
وَأَصْبَحَ فِيهِ السَّهْرُورِيُّ خَائِفاً	يُصِيحُ فَمَا يُلْقِي الْوُجُودَ لَهُ أَذْنَا
وَلَا يَنْ قُسِيَّ خَلْعُ نَعْلٍ وَجُودِهِ	وَلَبَسَ إِحَاطَةَ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ ثُبْنَا
أَقَامَ عَلَى شَأْنِ الْمَسْرَةِ تَجْلُهَا	لَمَّا رَمَزَ الْأَسْرَارَ وَاسْتَمَطَرَ الْمُزْنَا
وَلَاخَ سَنَا بَرْقٍ مِنَ الْقُرْبِ لِلنُّهَى	لِتَجْلِ ابْنِ سَيْنَاءَ الَّذِي ظَنَّ مَا ظَنَّا

يقول رضي الله عنه: تَتَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ: وهو رجل من أهل الشام، من أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ، كَانَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَجَائِبٌ وَعَرَائِبٌ. وهو ممن اختلف فيه بالقبول والرد. وكان خَرَّبَ ظَاهِرُهُ. فَكَانَ يَجْلِسُ بِالْمَزَابِلِ، وَرَبَّمَا تَجَرَّدَ مِنَ الثِّيَابِ، فَبَقِيَ غُرْيَانًا. وكان يتطور في صور متعددة. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: تَتَنَّى: أَي صَبَّرَ مِنْ ذَاتِهِ اثْنَيْنِ، مِنْ شُرْبِ خَمْرَةٍ، فَتَجَوَّهَرَ عَقْلُهُ، وَخَرَجَ عَنْ طَوْرِ الْفَضْلَاءِ فِي الظَّاهِرِ، فَكَانَ إِذَا تَطَوَّرَ، يَرَى كَمِثْلَ الْغَيْرِ وَهُوَ بِعَيْنِهِ. لِكِنَّهُ تَتَنَّى، أَي رَجَعَ اثْنَيْنِ. وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

والشُّوْذِيُّ هو العفيف التلمساني المعروف بالحاليوي، قاله زروق. ولم

أَفِيفٌ عَلَى تَعْرِيفِهِ. وَمَعْنَى شَذُّهُ، أَي خَرَجَ الْعَقْلُ بِالشَّوْذِيِّ عَنِ نَوْعِهِ وَجَنِّبِهِ مِنَ النَّاسِ. فَكَانَ مُنْفَرِدًا وَخِدَانِيًّا، فَازَّأَ مِنَ الْمُدْنِ وَالْقَرَى، لَمَّا صَقَلَتْ مَرَاةَ عَقْلِهِ تَأَنَسَ بِاللَّهِ، وَقَرَّ بِمَا سَوَاهُ. فَلَمَّ يَمِلُ لِأَصْحَابِ وَعِشَائِرِهِ. وَلَا سَاكِنِ الْمُدْنِ وَكِبَارِ الْمَدَاشِرِ؛ لِأَنَّ الْخُلْطَةَ تُشَوِّشُ الْفِكْرَةَ. سَيِّمَا هَرَجَ الْمُدْنِ فَلَا يَقْوَى عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ قَوِيَ نُورُ مَعْرِفَتِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَالسُّهُرُورِيُّ: قَالَ الشَّيْخُ زُرُوقُ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَقْتُولُ، صَاحِبُ خَوَاصِّ الْأَرْبَعِينَ الْإِدْرِيسِيَّةِ وَغَيْرِهَا، أَي صَاحِبُ الْعَوَارِفِ، أَي وَأَصْبَحَ السُّهُرُورِيُّ خَائِفًا مِنْ جِهَةِ عَقْلِهِ، فَلَمَّ يَطْلُقُ مَا تَجَلَّى لَهُ مِنْ أَسْرَارِ خَوَاصِّ الْأَسْمَاءِ. فَكَانَ يَصِيحُ فِي الْعَالَمِ بِمَا عِنْدَهُ، فَلَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ نِدَاءَهُ. وَلَا أَلْقَى إِلَيْهِ أَذْنًا. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: يَصِيحُ بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ. يُقَالُ: أَصَاحَ لِلأَمْرِ: اسْتَمَعَ لَهُ. وَهَذَا بَعِيدُ الْمُنَاسَبَةِ:

وَابْنُ قَسِيٍّ: هُوَ صَاحِبُ خَلْعِ الثُّغَلَيْنِ، وَاقْتِبَاسِ الثُّورَيْنِ مِنْ مَوْضِعِ الْقَدَمَيْنِ، قَالَهُ زُرُوقُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ تَعْرِيفًا. غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَرَفَ عَلَى النَّاطِمِ تَشْرِيعَهُ بِذَلِكَ، لِأَنَّ أَهْلَ الطَّرِيقِ قَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، أَي وَلَايْنِ قَسِيٍّ خَلْعَ نَعْلٍ وَجُودِهِ، وَغَابَ عَنْهُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ مَعْرِفَتُهُ بِاللَّهِ. وَلَعَلَّ كَلَامَ أَهْلِ الطَّرِيقِ، حَيْثُ لَمْ يَفْهَمُوا مُرَادَهُ. كَمَا تَكَلَّمُوا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ.

وَقَوْلُهُ: وَلِبَسَ إِحَاطَةً. أَشَارَ لِكِتَابِ سَمَاءِ بِذَلِكَ، أَي وَلَهُ لِبَسَ إِحَاطَةٍ. وَقَوْلُهُ: مِنَ الْجَجْرِ قَدْ ثُبْنَا: أَي ثُبْنَا مِنْ ثُبُوتِ الْجَجْرِ لِثُبُوتِ الْحَزِيَّةِ لَنَا، وَالتَّرْشِيدِ مِنْ أَشْيَاخِنَا. وَلَعَلَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى بِلِبَسِ الْإِحَاطَةِ، تَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى التَّحْجِيرِ، مِنْ جِهَةِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ حَصْرِ الْكَائِنَاتِ. فَقَالَ النَّاطِمُ: قَدْ ثُبْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَخَرَجْنَا مِنْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: أَقَامَ عَلَى شَأْنِ الْمَسْرَةِ. قَالَ الشَّيْخُ زُرُوقُ: ابْنُ الْمَسْرَةِ هُوَ ابْنُ سُرُورٍ؛ وَهُوَ فَقِيهٌ، صَاحِبُ يَدٍ فِي الْعُلُومِ الْقَدِيمَةِ، أَي أَقَامَ ابْنُ مَسْرَةٍ عَلَى مِثْنِ السَّرُورِ حَيْثُ ظَهَرَ بِمَا خَفِيَ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَكْنُونِ أَسْرَارِ الزَّمُوزِ؛ لِأَنَّهُ مَعْنَى اغْتَنَى بِحِلِّهَا وَفُكِّهَا، كَمَا فَعَلَ الْمُقَدَّسِيُّ وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: لَمَّا رَمَزَ الْأَسْرَارَ.

وَاسْتَمَطَرَ الْمُزْنَآ أَي دَامَتْ مَسْرَتُهُ، لَمَّا كَشَفَ الْأَسْرَارَ، وَاسْتَمَطَرَ: أَي

اسْتَنْزَلَ أَمْطَارَ الْمَعَانِي مِنْ سَحَابِ الْأَلْفَاظِ، أَوْ مِنْ سُحُبِ الْآثَارِ؛ وَهِيَ الْأَوَانِي. وَقَوْلُهُ: وَلَاخَ سَنَّا بَرْقِ الْخ. . . أَيِ ظَهَرَ ضَوْءُ بَرْقِ لَإِنْ سَيِّئًا، مِنْ حَقِيقَةِ عَقْلِهِ الْمُقَرَّبَةِ لِلْعُقُولِ مَا كَانَ بَعِيدًا عَنْهَا، فَإِنَّهُ شَرَحَ مِنْ أَمْرِ الْعَقْلِ مَا لَمْ يَشْرُحْهُ غَيْرُهُ.

وَابْنُ سَيِّئًا هَذَا، هُوَ الْمَتَأَخَّرُ، وَهُوَ أَحَدُ فَلَايَسَفَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهِ، وَاتَّهَمُوهُ بِالْكُفْرِ. قَالَ الشَّيْخُ السَّنُوسِيُّ فِي شَرْحِ الْكُبْرَى، وَلَقَدْ ضَلَّ ابْنُ سَيِّئًا، وَتَسَتَّرَ بِالْإِسْلَامِ، حَيْثُ قَالَ فِي الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعَةِ:

وَقَوْلُ بُفْرَاطٍ هُوَ الصَّحِيحُ مَاءٌ وَنَارٌ وَهَوًى وَرِيحٌ.

قُلْتُ: أَمَّا مُجَرَّدُ هَذَا الْقَوْلِ، فَلَا يَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِ؛ لِأَنَّ عَالَمَ الْحِكْمَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَسْبَابِ، وَالْعِلَلِ فِي الظَّاهِرِ. وَالْبَاطِنُ هُوَ اللَّهُ. فَقَدْ يَكُونُ تَكَلُّمٌ عَلَى مَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي عَالَمِ الْحِكْمَةِ مِنْ تَرْتِيبِ الطَّبَائِعِ وَالْأَسْبَابِ. نَعَمْ قَدْ قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ لِلْعَقْلِ تَابِعَةً، فَتَدُورُ مَعَهُ فِي عِلَلِ الْأَحْكَامِ. قَالَ الشَّيْخُ زُرُوقٌ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ فَاسِيْدٍ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ: الَّذِي ظَنُّ مَا ظَنَّا. أَيِ ظَنُّ أَنَّ الشَّرِيعَةَ تَابِعَةً لِلْعَقْلِ وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَقْلَ تَابِعٌ لِلشَّرْعِ فِي عِلَلِ الْأَحْكَامِ وَأَسْرَارِهَا. فَإِنْ أَذْرَكَ لَهَا عِلَّةً وَحِكْمَةً كَانَ عَيْنَ الْكَمَالِ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْ لَهَا حَكْمًا بِتَقْصِيرِهِ وَتَعَبُّدُ بَأَمْرِ سَيِّدِهِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّاطِمُ جَمَاعَةً أُخْرَى فَقَالَ:

وَقَدْ قَلَّدَ الطُّوسِيُّ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ وَلَكِنَّهُ نَحْوُ التَّصَوُّفِ قَدْ خَنَّا

وَلَايِنِ طُفَيْلٍ وَابْنِ رُشْدٍ تَيْقُظُ رِسَالَةً بِفُظْطَانٍ اقْتَضَى فَتَحَهُ الْحَيْنُ

كَسَى لِشُعَيْبٍ ثَوْبَ جَمْعٍ لِدَاتِهِ يَجْرُ عَلَى حُسَاوِهِ الذُّبُلِ وَالرُّدْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ قَلَّدَ الطُّوسِيُّ؛ وَهُوَ الْغَزَالِيُّ، أَيْ قَدْ تَقَلَّدَ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ مِنْ تَحْكِيمَاتِ الْعَقْلِ، وَاسْتِحْسَانَاتِهِ بِذَلِكَ، مِنْ عَجَائِبِ الْقَلْبِ، وَشَرْحِ أَسْرَارِهِ مَا يَقْضِي مِنَ الْعَجَبِ. وَكَذَلِكَ أَسْرَارُ الْعِبَادَاتِ، وَالْعَادَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِهِ، لَكِنَّهُ نَجَا مِنْ وَيَالِ الْعَقْلِ؛ حَيْثُ خَنَ إِلَى التَّصَوُّفِ، فَصَرَفَ عَقْلَهُ فِي اسْتِخْرَاجِ أَسْرَارِ سِرِّ الشَّرِيعَةِ، وَجِغَمِ الْأَحْكَامِ.

وَالْغَزَالِيُّ: هُوَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ، مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الْغَزَالِيِّ

الطوسي. وَيُكْنَى أَبَا حَامِدٍ حَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَرَآهِيهَا. اشْتَغَلَ أَوَّلًا بِالْعُلُومِ وَتَدْرِيسِهَا بِبَغْدَادَ. ثُمَّ تَرَكَ جَمِيعَ ذَلِكَ، وَسَلَكَ طَرِيقَ التَّجْرِيدِ وَالانْقِطَاعِ، وَخَدَّمَ الصُّوفِيَّةَ بِنَفْسِهِ سَنِينَ ثُمَّ قَعَدَ الْحُجَّ. فَلَمَّا رَجَعَ قَدِمَ إِلَى الشَّامِ، وَأَقَامَ بِنَيْتِ الْمَقْدِسِ مُجَاوِرًا، وَاجْتَهَدَ فِي الْعِبَادَةِ وَزِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ وَالْمَوَاضِعِ الْمَعْظَمَةِ. ثُمَّ عَادَ إِلَى دِمَشْقَ. وَاعْتَكَفَ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ مَنَارِ الْجَامِعِ، وَأَخَذَ فِي التَّصْنِيفِ، لِأَحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ؛ وَهُوَ مِنْ أَنْفُسِ الْكُتُبِ، لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا طَالِبُ الْآخِرَةِ. وَكَانَ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ فِي الْمَجَاهِدَاتِ، وَيُكَلِّفُهَا مَشَاقَّ الطَّاعَاتِ. ثُمَّ قَصَدَ مِصْرَ، وَأَقَامَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مَدَّةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ، وَعَقَدَ بِهَا مَجَالِسَ الْوُعُظِ، وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ. ثُمَّ عَادَ إِلَى وَطَنِهِ بَطُوسَ. وَزِعَ أَوْقَاتِهِ عَلَى وَظَائِفِ الْخَيْرِ، مِنْ خَتْمِ الْقُرْآنِ، وَمَجَالَسَةِ أَهْلِ الْقَبُولِ وَإِدَامَةِ الْعِبَادَةِ إِلَى أَنْ ثَقُلَ الْحَقُّ إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ، فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ، رَابِعَ جُمَادَى الثَّانِيَةِ، سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِمِائَةٍ (٥٠٥هـ). بَطُوسَ وَبِهَا دُفِنَ. وَقَبْرُهُ بِهَا مَشْهُورٌ. وَذَكَرَ التَّالِدي فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ: أَنَّ سَبَبَ تَجْرِيدِ الْغَزَالِيِّ وَانْقِطَاعِهِ، هُوَ أَخُوهُ. وَكَانَ مِنْ مُحَقِّقِي الصُّوفِيَّةِ. وَقَفَّ عَلَيْهِ فِي مَجْلِسٍ عَلَّمِيٍّ فَقَالَ لَهُ: إِلَى أَيْنَ تَحْتَبِسُ فِي هَذِهِ الْمَعَاوِلِ، وَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْهَضَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَذَكَرَ غَيْرَهُ، أَنَّهُ وَصَلَهُ بِشَيْخِهِ، وَكَانَ خِرَازًا، فَجَذَبَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَأَمَرَهُ بِتَخْرِيبِ ظَاهِرِهِ وَبِالتَّجْرِيدِ. فَحِينَئِذٍ ذَاقَ مَا ذَاقَتْ الرِّجَالُ.

وَالْغَزَالِيُّ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ نَسَبُهُ إِلَى الْغَزَالِ. عَلَى عَادَةِ أَهْلِ خَوَازِمِ وَجُرْجَانِ، فَإِنَّهُمْ يَنْسَبُونَ إِلَى الْقَصَّارِ، الْقَصَّارِيِّ، وَإِلَى الْعَطَّارِ الْعَطَّارِيِّ. وَقِيلَ: إِنَّ الزَّايَّ مُخَفَّفَةٌ نَسَبُهُ إِلَى غَزَالَةٍ. وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى طُوسَ؛ وَهُوَ خِلَافُ الْمَشْهُورِ وَطُوسَ بِضَمِّ الطَّاءِ، وَسَكُونِ الْوَاوِ: قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى بُخَارَى. وَمَا يُقَالُ إِنَّهُ مَدْفُونٌ بِتَرْعَةٍ، غُلِطَ فَاجَشَ. قَالَ الدَّمِيرِيُّ فِي حَيَاةِ الْحَيَوَانِ رَوَيْنَا بِالْسَّنَدِ الصَّحِيحِ عَنْ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ. وَقَدْ بَاهَى مُوسَى وَعِيسَى بِالْغَزَالِيِّ، فَقَالَ لَهُمَا: فِي أَمْتَكُمَا هَذَا الْخَبْرُ؟ وَأَشَارَ إِلَى الْغَزَالِيِّ. فَقَالَا: لَا. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمِزْسِيُّ: «إِنَّا لَنَشْهَدُ لَهُ بِالْغَوْثِيَّةِ الْعُظْمَى». وَقِيلَ الْقَائِلُ، هُوَ الشَّاذَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ثم قال الناظم: ولأَيْنَ طُفَيْلٍ وابنِ رُشدٍ تيقِظ. أمّا ابن طفيل فهو من فلاسفة الإسلام له عقل وتيقظ في الأمور العقلية، وَلَمْ أَفِ عَلَى تَعْرِيفِهِ. وَأَمَّا ابْنُ رُشدٍ، فالمراد به الحفيد؛ وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، الإمام المشهور. ولد سنة عشرين وخمسائة (٥٢٠هـ) قبل وفاة جدّه أبي الوليد بِشَهْرٍ وَاشْتَهَرَ بِالْحَفِيدِ، وهو من أهل قرطبة. وقاضي الجماعة بِهَا. أَخَذَ الفقه عن المازري وغيره. وَأَخَذَ الطبَّ عن أبي مزوان بن جريون. وكانت الدراية، أغلب عليه من الرّواية خلاف جدّه. ولم ينشأ في الأندلس مثله. حتى قيل فيه: كَانَ أَفْقَهُ من جَدِّهِ. وَصُنِفَ وَقِيْدٌ وَذهب ومال إلى علم الأوائل. وَكَانَتْ له فيها الإمامة دُونَ أَهْلِ عَصْرِهِ. وكان يفرع إلى فِتْيَاه في الطب، كما يفرع إلى فِتْيَاه في الفقه. له تأليف جليلة. منها: كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد. وذكر فيها أسباب خلاف المذاهب وعللها. وأفاد وأفنع فيه. وَلَا يُعْلَم في وقته أَفْنَعُ مِنْهُ. وله كتب أخرى ذكرها في الدِّبَاج. تُوفي رحمه الله سنة خمس وتسعين وخمسائة (٥٩٥هـ) بمراكش. كَانَ قَدِمَ على السلطان فمات، ثم دُفِنَ بِهَا، ثم نُقِلَ إلى قبرسلة بقرطبة. وفي قَبْرِهِ دُفِنَ الولي الشهير أبو العباس السبتي. وقيل في الحفيد، إنه اتَّهَمَ بالاعتزال وبالميل لمذاهب الفلاسفة، كما رمي بذلك ابن طفيل، ولذلك قَرِنَ مَعَهُ. ولم يَنْسُبَ لهما الناظم إلّا التيقظ في أمور العقل فقط. قال الشيخ زروق: وَأَمَّا ابن طفيل وابن رشد الحفيد فمن متفلسفة الإسلام. وقد رُمُوا بِأكْبَرِ الكفر والله أَعْلَمُ. قلت: كتب الحديث موشحة بالأحاديث النبوية، ليس فيها شيء مما رُمِيَ بِهِ. وقد عرّف به صاحب الدِّبَاج وغيره، فلم ينسبوا له شيئاً مِمَّا يُنْقَضُ. وعند الله تجتمع الخصوم. ويقظان هو ابن يقظان، وله رسالة في العقلیات. قال الشيخ زروق: وقد وقفت عليها وهي مبنية على القول بالطبيعة، وهو نوع من الكُفْرِ، ولذلك قال الناظم: اقْتَضَى فتح الحين؛ أي اقتضى فتح العقل له الحين؛ وهو الْهَلَاكُ.

كَسَى لَشُعَيْبٍ: المراد أبو مَدين الغوث الشهير بالولاية شرقاً وغرباً. كَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ، من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المُقَرَّبِينَ، واسمُه شعيب، وولده مَدِين مدفون بِمِصر، ببركة القرع، وقبره مشهور يُرَاز. وَأما أبو مَدِين،

فهو مدفون بمدينة تلمسان، في تربة العباد. مات وقد جاوز الثمانين سنة. كان مقيماً ببجاية. ثم إن سلطان تلمسان بلغه خبره، وما كان فيه من الشهرة، فأمر بإحضاره من بجاية ليتبرك به، لتعذر وصول السلطان إلى زيارته، خوفاً من اختلال رعيته. فأجاب بالسُّمع والطاعة. ثم قال بخفض صوته: ما لنا وللسلطان، الليلة نزور الإخوان، ثم نزور تلمسان، واستقبل القبلة ليلة دخوله، وتشهد ثم قال: ها قد جئت وعجلت إليك رب لترضى. ثم قال: الله الحي. وفاضت روحه. قال الشيخ عبد الرزاق: اجتمعت بالخضر عليه السلام، فسألته عن شيخنا أبي مدين. فقال: هو إمام الصديقين في هذا الوقت. وقد أعطاه الله مفتاحاً من السر المصون. فما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه. وقد أجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله. وكان جميلاً ظريفاً، متواضعاً زاهداً، ورعاً محققاً. قد اشتمل على كرم الأخلاق. وكان يقول ليس للقلب إلا جهة واحدة متى توجه إليها، غاب عن غيرها. وقال أيضاً: الفقر نور ما دمت تستره، فإذا أفضيته ذهب نوره. وقال أيضاً: كل فقير كان الأخذ أحب إليه من العطاء فهو كذاب، لم يشم للفقر رائحة. وقال أيضاً: من لم يصلح لخدمته، شغله بالدنيا. ومن لم يصلح لمعرفته، شغله بالآخرة. وقال أيضاً: من لم يخلع له العذار، لم ترفع له الأستار. ومكث في بيته سنة، لم يخرج إلا إلى الجمعة فاجتمع الناس على باب داره، وطلبوا منه أن يتكلم عليهم، فلما ألزموه خرج، فرأته العسافير التي على سور في الدار، فقرئت منه، فرجع، وقال: لو صلحت للحديث عليكم لم تغير مني الطيور. فجلس في البيت سنة أخرى، ثم جاؤا إليه، فلم تغير منه الطيور، فتكلم على الناس. ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها، حتى مات منها طائفة، ومات رجل من الحاضرين. وكان الحق تعالى قد أذل له الوحوش. فإذا رآه الوحش ارتعد من هيئته. ومر يوماً على حمار، والسبع قد أكمل نصفه، وصاحب الحمار ينظر إليه من بعيد لا يستطيع أن يقرب منه. فقال لصاحب الحمار: تعال. وذهب به إلى الأسد. وقال: أمسك بأذنيه. واستعمله مكان حمارك حتى يموت. فأخذ بأذنيه وركب. وصار يستعمله مكان حماره حتى مات الأسد.

تُوفِي رَضِيَّ اللّهُ عَنْهُ سَنَةً ثَلَاثَ وَتَسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةَ (٥٩٣هـ) عَنْ خَمْسِ
وِثْمَانِينَ . وَخَرَجَ مِنْ دَائِرَتِهِ ثَلَاثُمِائَةَ قُطْبِ دُونَ الصَّالِحِينَ . وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَنْ أَبِي
يَغْزَى وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَسَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ حَزْمِ رَضِيَّ اللّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
قَالَ النَّازِمُ فِي مَدْحِهِ : كَسَى لَشَعِيبِ ثَوْبَ جَمْعِ لَذَاتِ . أَيِ كَسَاهُ عَقْلُهُ
ثَوْباً جَامِعاً لَذَاتِهِ عَلَى رَبِّهِ . فَكَانَ دَائِماً مَجْمُوعاً عَلَى اللّهِ ، فِي بَسَاطَةِ الْحَضْرَةِ .
وَكَانَ كَثِيراً مَا يُنْشِدُ :

اللّهُ قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى إِنْ كُنْتُ مُرْتَضِياً بُلُوغَ كَمَالِ
يَجْرُ الذَّلِيلُ أَيَّ طَرَفِ الْإِزَارِ . وَالرُّذُنُ بِضَمِّ الرَّاءِ . أَضْلُ الْكَمِّ . أَيِ يَجْرُ
ذَيْلُهُ وَكَمُّهُ افْتِخَاراً لِمَوْلَاهُ . وَشُكْرًا لِمَا بِهِ أَوْلَاهُ . قَالَ الشَّيْخُ زُرُقُ : تَخْرَجُ عَلَى
يَدِهِ أَلْفَ وَلِيٍّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ طَعْنَ فِيهِ ، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .
وَنَفَعْنَا بِهِ ؛ وَهُوَ أُنْدَلَسِي .

ثم ذكر الناظم جماعة أخرى فقال :

وَعَنْهُ طَوَى الطَّائِي بِسَطَ كَيْانِهِ بِدَسْكَرَةِ الْخُلَاعِ إِذْ ذَهَبَ الْوَهْنَا
تُسَمَّى بِرُوحِ الرُّوحِ جَمْعاً فَلَمْ يَبْلُغْ وَلَمْ يَرْتَدَّ فِي الْمَقَامِ وَلَا خِذْنَا
بِهِ عُمَرُ بْنُ الْفَارِضِ النَّازِمِ الَّذِي تَجَرَّدَ لِلْأَسْفَارِ قَدْ سَهَلَ الْحَزْنَا
وَبَاحَ بِهَا نَجْلُ الْحَرَالِيِّ عِنْدَمَا رَأَى كَثْمَهُ ضُغْفَاءً وَتَلْوِيْعَهُ غَيْنَا
وَلِلْأَمْوِيِّ النُّظْمِ وَالنُّشْرِ فِي الَّذِي ذَكَّرْنَا وَإِعْرَابَ عَمَّا نَخْنُ أَعْرَبْنَا

المُرَادُ بِالطَّائِي : ابْنُ الْعَرَبِيِّ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَةِ حَاتَمِ الطَّائِي ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ ،
يَعْرِفُ بِابْنِ سُرَاقَةٍ . وَعِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ : مُحْيِي الدِّينِ . وَهُوَ الْإِمَامُ
الْمُحَقِّقُ ، رَأْسُ الْعَارِفِينَ ، وَإِمَامُ الْمُقَرَّبِينَ ، ذُو الثُّفَحَاتِ الْقُدْسِيَّةِ ، وَالْأَنْفَاسِ
الزُّوْحَانِيَّةِ ، وَالْمَعَارِفِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْحَقَائِقِ الزَّاهِرَةِ . لَهُ الْمَحَلُّ الْأَرْفَعُ فِي مَرَاتِبِ
الْقُرْبِ ، وَمَنَازِلِ الْأَنْسِ ؛ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ هَذِهِ الطَّرِيقِ . وَأَجَلُ أَثَمَةِ أَهْلِ
التَّحْقِيقِ . بَحْرُ زَمَانِهِ وَفَرِيدُ أَوَانِهِ . لَقَّبَهُ الشَّيْخُ أَبُو مَذِينٍ بِسُلْطَانِ الْعَارِفِينَ . وَكَلَامُ
الرَّجُلِ دَلِيلٌ عَلَى مَقَامِهِ . وَكُتِبَتْ مَشْهُورَةٌ بِأَيْدِي النَّاسِ . إِلَّا أَنَّهُ مَالٌ فِيهَا لِإِظْهَارِ
الْحَقَائِقِ ، وَكُشِفَ غَطَائِهَا . فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ غَيْرُهُ مِمَّنْ أَظْهَرَ . وَمِنْ كَشُوفَاتِهِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ صِفَةَ السُّلْطَانِ ابْنِ سُلَيْمَانَ الْأَوَّلِ، وَفَتَحَهُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي الْوَقْتِ الْفُلَانِي. فَجَاءَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَهُ. وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ نَحْوُ
مِائَتِي سَنَةٍ. فَكَبِيَ عَلَيْهِ قُبَّةٌ عَظِيمَةٌ بِالشَّامِ، وَرُتِبَ فِيهَا طَعَامًا وَخَيْرَاتٌ. بَعْدَ أَنْ
كَانُوا يَبُولُونَ عَلَى قَبْرِهِ. وَحَكَى الشَّيْخُ الصَّالِحُ سَيِّدِي أَحْمَدُ الْحَلَبِيُّ، أَنَّهُ كَانَ لَهُ
بَيْتٌ مُشْرِفٌ عَلَى ضَرْحِ الشَّيْخِ مُحِبِّي الدِّينِ، فَجَاءَ شَخْصٌ مِنَ الْمُنْكَرِينَ، بَعْدَ
صَلَاةِ الْعِشَاءِ بِنَارٍ يَرِيدُ أَنْ يَحْرِقَ تَابُوتَ الشَّيْخِ، فَخُفِيفَ بِهِ دُونَ الْقَبْرِ بِتِسْعَةِ
أَذْرَعٍ، فَعَابَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَا أَنْظُرُ فَقَدَهُ أَهْلُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَأَخْبَرْتَهُمْ بِالْقِصَّةِ
فَجَاءُوا وَحَفَرُوا رَأْسَهُ. فَكَلَّمَا حَفَرُوا نَزَلَ غَائِرًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ عَجَزُوا وَرَدُّوا
التُّرَابَ عَلَيْهِ.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوَّلًا يَكْتُبُ الْإِنْشَاءَ لِبَعْضِ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ تَزَهَّدَ
وَتَعَبَّدَ. وَسَاحَ وَدَخَلَ مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَالرُّومَ. وَلَهُ فِي كُلِّ بَلَدٍ دَخَلُهَا
مُؤَلَّفَاتٌ. وَكَانَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ يَحْطُ مِنْ قَدْرِهِ كَثِيرًا. فَلَمَّا
صَحَبَ الشَّيْخَ أَبَا الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَعَرَفَ أَحْوَالَ الرِّجَالِ، صَارَ يَتَرْجِمُهُ
بِالْوِلَايَةِ وَالْعِرْفَانِيَّةِ. مَاتَ شَهِيدًا سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْمِائَةَ (٦٣٨هـ). وَلَهُ مِنَ
الْمُؤَلَّفَاتِ نِيفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ، مِنْهَا التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ الَّذِي بَلَغَ فِيهِ إِلَى سُورَةِ الْكَهْفِ
عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾. [الكهف: ٦٥] ثُمَّ تَوَفَّى وَلَمْ يَكْمَلْ. وَهَذَا
التَّفْسِيرُ، كِتَابٌ عَظِيمٌ بَلَغَ ثَلَاثِينَ سِفْرًا. كُلُّ سَفَرٍ بَخَرٍ لَا سَاجِلَ لَهُ. فَقَالَ النَّازِمُ
فِي تَرْجُمَتِهِ: وَعَنْهُ طَوَى الطَّائِي بَسْطَ كِيَانِهِ، أَنَّى وَعَنْ عَقْلِهِ طَوَى الْحَاتِمِي الطَّائِي
بَسْطَ وَجُودِهِ، فَغَابَ عَقْلُهُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ بِخُرُوجِ مَا أَذْرَكَ عَنْ دَائِرَةِ الْعُقُولِ.
فَالْكِيَانُ بِمَعْنَى الْكَوْنِ، أَنَّى طَوَى عَنْ عَقْلِهِ بَسْطَ كَوْنِهِ. وَكَانَ ابْتِدَاءَ ذَلِكَ الطَّيِّ
بِدَسْكَرَةِ الْخُلَاعِ، أَيْ بِخَضْرَاءِ اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْخَمْرَةِ؛ وَهُمْ الَّذِينَ يَخْلَعُونَ عُذَارَتَهُمْ
فِي رِضَى مُحِبِّبِهِمْ، فَيُخَرَّبُونَ ظَوَاهِرَهُمْ، وَيَهْتَكُونَ أَعْرَاضَهُمْ، وَلَا يَبَالُونَ بِمَنْ
لَا مَهْمَ وَعَابَ عَلَيْهِمْ.

وَفِي الْقَامُوسِ الدُّسْكَرَةُ: الْقَرْيَةُ وَالصُّوْمَعَةُ، وَبُيُوتُ الْأَعَاجِمِ، يَكُونُ فِيهَا
الْخَمْرُ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا؛ لِأَنَّ الْخَمْرَ مَعْنَوِي، وَالْمَلَاهِي، كِنَايَةٌ عَنْ
التَّغَرُّلِ بِالْمَحْبُوبِ. وَتُعَبَّرُ عَنْهُ الصُّوفِيَّةُ بِالْخَانِ، أَيْ كَانَ ذَا الْفَتْحِ بِمُخَضَّرِ أَهْلِ

الأذواق الذين خَلَعُوا عُدَارَهُمْ، إِذْ ذَهَبَ الْوَهْنُ: أَي حِينَ ذَهَبَ عَنْهُ ضَعْفُهُ وَكَسَلُهُ، وَفَزَقَهُ بِخَلْعِ عُدَارِهِ، وَافْتِضَاحِ نَفْسِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي تَسْمَى بِرُوحِ الرُّوحِ فِي شِعْرِهِ الْمَعْلُومِ الَّذِي قَالَ فِيهِ:

أَنَا الْقُرْآنُ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي	وَرُوحُ الرُّوحِ لَأَرْوَحُ الْأَوَانِي
فُوَادِي عِنْدَ مَعْلُومِهِ مُقِيمٌ	تُنَاجِيهِ وَعِنْدَكُمْ لِسَانِي
فَلَا تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي	وَعُدْ عَنِ التَّنْعِيمِ بِالْأَوَانِي
فَأَسْرَارَ تَرَائِثٍ مُبْهَمَاتٍ	مُسْتَرَّةٍ بِأَنْوَاعِ الْمَعَانِي
وَمَنْ فِيهِمُ الْإِشَارَةُ فَلْيَصْنُهَا	وَالْأَسْوَفُ يُقْتَلُ بِالسَّنَانِ
كَحَلَّاجِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ	لَهُ شَمْسُ الْمَحَبَّةِ بِالتَّدَانِي
فَقَالَ: أَنَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا	يُغَيِّرُ ذَاتَهُ مِنَ الزَّمَانِ

وتأويله: أَنَّهُ غَابَ عَنْ وَجُودِهِ عِنْدَ مَحْسُوسِيهِ، فَشَاهَدَ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ. فَصَارَ عَيْنُ الْعَيْنِ فَقَالَ: أَنَا مُنْزَلُ الْقُرْآنِ، وَأَنَا رُوحُ الرُّوحِ وَالَّذِي هُوَ السِّرُ الْمَكْنُونُ؛ الَّذِي قَامَ بِالْأَرْوَاحِ وَالْأَشْبَاحِ. وَمَنْ كَلَامِهِ أَيْضاً: تَطَهَّرْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى مَا نَسَبَهُ أَبُو الْمَوَاهِبِ التُّونِسِيُّ حَسْبَمَا ذَكَرَهُ الشُّعْرَانِي. وَنَسَبَهَا غَيْرُهُ لِلْجَنِيدِ؛ وَهُوَ الْمَشْهُورُ. وَقَوْلُهُ لَمْ يُبَالٍ. هَكَذَا فِي نَسَخَتْنَا أَي لَمْ يُبَالٍ بِمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ مَقَالَتُهُ. وَلَمْ يَزَلْ لَهُ نَدَاءٌ، أَي شَبِيهَاً، وَلَا مَعَانِداً فِي زَمَانِهِ فِي مَقَامِ الْعِلْمِ وَالذِّيَانَةِ.

وَقَوْلُهُ: وَلَا خِدْنًا، أَي وَلِأَصْحَابِهِ يَقْرُبُ مِنْ خَالِهِ، بَلْ رَأَى نَفْسَهُ مِنْفَرِداً بِمَا حَصَلَ وَأَضَلَّ. وَلَا يَسْتَعْرِبُ مِنْ هَذَا فَإِنَّ الْبَاطِنَ يَقُلُّ فِي كُلِّ زَمَانٍ. ثُمَّ ذَكَرَ ابْنَ الْفَارُضِ فَقَالَ بِهِ: عُمَرُ بْنُ الْفَارُضِ، أَي بِالْعَقْلِ تَجَرَّدَ عُمَرُ بْنُ الْفَارُضِ الَّذِي اشتهر بالنظم للأشعارِ. فَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْحَزْنَ، أَي الصَّغْبُ مِنْهُ، وَتَحَمَّلَ مَشَاقَهُ لِلْمَحَبَّةِ الَّتِي اشْتَغَلَتْ فِي قَلْبِهِ الَّتِي هَدَاهُ إِلَيْهَا عَقْلُهُ مَعَ تَقَدُّمِ الْقُدْرَةِ وَالْاِقْتِدَارِ. وَفِي الْقَامُوسِ: الْحَزْنُ: مَا غَلِظَ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا سَهَّلَ مَا غَلِظَ مِنْهَا فَأَوَّلَى مَا كَانَ بَسِيطاً.

وابن الفارض: هو الولي الكبير والمحَبُّ الشهير إمام العُشَّاق أبو حفص

عمر بن الحسن بن علي بن المرسف الحُميري الأصل المصري الدَّار والمولد والوفاة. له ديوان في الشعر رائق في أُسلوب غريب فائق. وله قصيدة مشتملة على ستمائة بيت على اصطلاحاتهم ومناهجهم. وله قصيدتان تائيَتان، فيهما كَلَام غامض شرح إحداهما أبو سَعِيد الفِرغاني شرحاً جيداً. وُلِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦هـ)، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وستمائة (٦٣٢هـ). فعمره ست وخمسون. وقد ذكرت في شرحي لخمريته، مناقبه ومآثره ومُلاَقاته بالشيخ البقال وسياحته في نواحي مَكَّة. وَرَجوعه لَصَلَاتِهِ على شيخه عند مَوْتِهِ، واستقراره في مضر فراجعهُ إن شئت.

والحُرالي: قَالَ الشيخ زروق: هو أَبُو الحسن، علي بن محمد التجيبي الحُرالي بجائني الدَّار. ترجمه صاحب عنوان الدراية: بِالْعَالِمِ الْمَطْلِقِ. وقال: مَا مِنْ قَنْ إِلَّا وَأَلَّفَ فِيهِ.

ثم قوله: وباح بها: يحتمل أن يريد الْحِكْمَةَ بل المعقولية أو فوائدها المقصودة، أو الموجودة، أو المشهورة أي وَبَاحَ بِالْحِكْمَةِ أو بِفَوَائِدِ الْعَقْلِ ابن الحُرالي، ولم يقدِّر على كتْمِهَا إذ رأى كِتْمَهُ لَهَا ضِعْفاً في الْإِيمَانِ؛ إِنْ كِتْمَهَا على أَهْلِهَا، لقوله عليه السلام: «لَا تُؤْتُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتُظْلِمُوهَا، وَلَا تَمْنَعُوهَا عَنْ أَهْلِهَا فَتُظْلِمُوهُمْ»^(١). وَرَأَى أَيْضاً تَلْوِيحَهُ بِهَا، وإشارته بِهَا غِنياً أي غطاءً وسِتْراً فما أَمَكَّنَهُ إِلَّا التَّصْرِيحُ نفعاً للعباد.

والأموي: قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَعْرِفُهُ ثُمَّ غَابَ عَنْ ذَهْنِي، وللأموي النُّظْم والنثر في شَأْنِ الْعَقْلِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَإِعْرَاباً: أَي بَيَاناً كَمَا نَحْنُ أَعْرِفُنَا أَيْ بَيَّنَّا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثم ذكر شَأْنَ شَيْخِهِ وشَأْنَ نَفْسِهِ، وبهما وقع الختام. فقال:

وَأَظْهَرَ ابْنُ سَبْعِينَ لِي مِنْهُ مَا خَفَى وَكَشَفَ عَنْ أَطْوَارِهِ الْعَنِيمَ وَالْذُّجْنَ
وَبَيَّنَ أَسْرَارَ الْعُبُودِيَةِ الَّتِي عَنْ إِعْرَابِهَا لَمْ يَزَفَعُوا اللَّبْسَ وَاللُّحْنَ

(١) روي نحوه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب الأدب، حديث رقم (٧٧٠٧) [٣٠١/٤] وابن حميد في المسند، حديث رقم (٦٧٤) [٢٢٥/١] ورواه غيرهما.

ابن سبعين، هو الإمام العارف الرُّبَّانِي، المحقق القطب الصمداني، عبد الحي بن إبراهيم بن محمد بن سبعين. قال الغبريني: فقيه جليل، عارف نبيل فصيح، له حكمة ومعرفة، وبراعة وبَلَاغَة. مشارك في المعقول والمنقول. أخذ مشاهير الفضلاء، وله أتباع كثيرة، وموضوعات كثيرة في يد أصحابه، فيها ألغاز وإشارات، وله موشحات وأشعار في طريق القوم.

توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة تسع وستين وستمائة (٦٦٩هـ)؛ وهو ممن اختلف فيه أهل الظَّاهِرِ رداً وقبولاً. وأما أهل الباطنِ، فَأَجْمَعُوا على تحقيق ولأيته ومعرفته.

وفي طبقات الشعراني: كَانَ ابن سبعين من المشايخ الأكابر، مات بمكة، عن خمس وخمسين سنة (٥٥ سنة). وقال فِي الْمُقَدِّمَةِ: أخرجوه من بلادِ المغرب، وكتبوا فيه كتاباً. وقالوا فِيهِ: إِنَّهُ يقول: أَنَا هو، وهو أَنَا. وَلَمَّا قَدِمَ مكة وجد السلطان الذي فيها مريضاً قد ظَهَرَ مُخُهُ؛ فَصَنَعَ له رَأْساً من القَرْعِ، وَغَمَّ بِهِ مُخَهُ فشفاه اللَّهُ فَقَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَعَظَّمَهُ. فما زال مُعْظِماً، حتى مات بِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فقال النَّاطِمُ فِي تَرْجَمَتِهِ. أَظْهَرَ ابن سبعين مِنْهُ، أَي من أُمُورِ الْعَقْلِ فَأَخْفَى عن النَّاسِ، وَأَصَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لَأَنَّهُ شَيْخُهُ. قال الشيخ زروق: وَكَوْنُهُ أَظْهَرَ من حَقَائِقِ الْعَقْلِ وفوائدها ما خفي ظاهر من كِتَابِهِ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْبَذْوِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ. وَإِنْ كَانَتْ عِبَارَتُهُ تَحْتَاجُ إِلَى مُسَامَحَةٍ فِي مَحَلِّهَا. فَبِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُ التَّحْقِيقِ، فَلِللَّحْنِ نِسْبَةٌ فِي التَّعْبِيرِ. وقوله: وَبَيَّنْ أَسْرَارَ الْعِبُودِيَّةِ، يَغْنِي فِي كِتَابِهِ الْبَذْوِ، الَّذِي تَكَلَّمَ فِيهِ بِلِسَانِ الْمُتَكَلِّمِ وَالْفَيْلَسُوفِي، وَالْفَقِيهِ وَالْحَكِيمِ وَالْمُحَقِّقِ. وَأَعْطَى كُلَّ مَسْأَلَةٍ حَقَّهَا من كَلَامِهِمْ. وَكَشَفَ بِشَدِّ السَّيْنِ لِلْمَبَالِغَةِ أَي كَشَفَ عن إِطَارِ الْعَقْلِ وَمَرَاتِبِهِ الْغَيْمِ، أَي السَّحَابِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَغْطِي الشَّمْسَ وَالذُّجْنَ: أَي الظَّلَامَ. وَبَيَّنْ أَيْضاً أَسْرَارَ الْعِبُودِيَّةِ إِذْ هِيَ شَرَفُ الْإِنْسَانِ، الَّتِي لَمْ يَرْفَعُوا: أَي النَّاسُ وَالْحُكَمَاءُ، عن إِعْرَابِهَا: أَي عن بَيَانِهَا، اللَّبْسُ أَي الْإِخْتِلَاطُ وَالِاسْتِبَاهُ. وَفِي الْقَامُوسِ اللَّبْسُ بِالْفَتْحِ وَبِضْمٍ: الشُّبْهَةُ. وَاللَّحْنُ بِسُكُونِ الْحَاءِ. ثُمَّ ذَكَرَ شَأْنَ نَفْسِهِ فَقَالَ:

كَشَفْنَا غِطَاءً مِنْ تَدَاخُلِ سِرِّهَا فَأَصْبَحَ ظَهَرًا مَا رَأَيْتُمْ لَهُ بَطْنًا

هَذَا لِقَوْلِ الْحَقِّ مَا قَدْ تَوَلَّهَتْ لِعِزِّهِ أَلْبَابُنَا وَلَهُ هَذَا
فَمَنْ كَانَ يَنْغِي السَّيْرَ لِلْجَانِبِ الَّذِي تَقْدُسَ فَلَيَاتِ لِيَأْخُذَهُ عُنَا

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قد كشفنا عن العبودية غطاءً كَانَ حَاصِلًا من تداخل سِرِّهَا مع الحقيقة فَبَيَّنَّا محلَّ العبودية، من محلَّ الحقيقة. فَمَحَلُّ العبودية الظَّوَاهِرُ، ومحلَّ الحقيقة؛ وهو شهود الرُّبُوبية البواطن. وَذَلِكَ أَنَّ الحق تعالى تَجَلَّى بين الصُّدُوقِ، فتَجَلَّى بمظهرِ الرُّبُوبية، في قوالبِ العُبودية، ليتحقق اسمه الظَّاهر، واسمُه الباطن.

قال في الحِكَمِ: «سُبْحَانَ من سَتَرَ سِرَّ الخصوصية بظهور وصف البشرية. وَظَهَرَ بعظمة الرُّبُوبية، في إظهار العُبودية». فَمَنْ نظر لمطلق التجلِّي، رأى رُبُوبية ظاهرة أزلية، وَمَنْ نَظَرَ للقوالب رأى قوالب العبودية، فالعبد مأمور بالقيام بِحَقِّ القوالب؛ وهي آداب العبودية. وبحقِّ الظواهر، وهي شهود عظمة الرُّبُوبية. فَظَهَرَ التمييز بين العبودية والرُّبُوبية. فَأَصْبَحَ ظَاهِرًا مَا كَانَ بَاطِنًا خَفِيًّا. وهذا معنى قوله: فَأَصْبَحَ ظَهْرًا مَا رَأَيْتُمْ لَهُ بَطْنًا. فظَهَرَ خَبْرٌ أَصْبَحَ. وَمَا اسْمُهَا. وبطناً مفعولٌ ثانٍ لِرَأَيْتُمْ؛ أي فَأَصْبَحَ ما كنتم رَأَيْتُمُوهُ من العبودية بَطْنًا ظَهْرًا. هَذَا وَلَمْ نَزَلْ لِلنَّاطِمِ كَلَامًا مُسْتَوْفَى فِي العبودية. بل جَلَّ كَلَامُهُ فِي أَنْظَامِهِ فِي أَسْرَارِ الْحَقِيقَةِ. فَلَنَتَكَلَّمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا؛ فنقول، وبِاللَّهِ التوفيق: العبودية هي شَرَفُ الْإِنْسَانِ وَعِزُّهُ، وسبب ترقيه إِلَى كَمَالِ الْكَمَالِ؛ وهي مِفْتَاحُ الْفَتْوحَاتِ كُلِّهَا. فبقدرِ مَا يتحقق الظَّاهر بالعبودية يُشْرِقُ عَلَى الْبَاطِنِ أَنْوَارُ الْحَقِيقَةِ. وَمَرْجِعُهَا إِلَى تَحْقِيقِ الذَّلِّ فِي الظَّاهِرِ، يُظْهِرُ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَقْرَانِ؛ كَالْمَشِيِّ بِالْحَقِّ، وتعرية الرأس، والجلوس على التراب، وغير ذلك مما يثقل على النَّفْسِ، ويجمع ذلك كله السُّؤَالُ فِي الْأَسْوَاقِ؛ فهو يجهز عن النفس مرَّةً واحدةً إِنْ كَانَ يَافِظُ، وَلَعَنَ طَمَعُ، ويلحق بذلك التخلُّق بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، كَالتَّوَاضُعِ، وَالسَّخَاءِ، وَالْكَرَمِ، وَسَعَةِ الْقَدْرِ، وَتَرْكِ الْغَضَبِ لِلنَّفْسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْرِفَ الْعِبُودِيَّةَ، فَانْظُرْ إِنْ اشْتَرَيْتَ عَبْدًا مِنْ مَالِكَ، كَيْفَ تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ، فَكُنْ أَنْتَ مَعَ سَيِّدِكَ كَمَا تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَبْدُكَ مَعَكَ.

فَالْعَبْدُ لَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ سَيِّدِهِ حَتَّى يُحَرِّرَهُ سَيِّدُهُ إِلَّا فَقِيرًا ذَلِيلًا، وَلَا

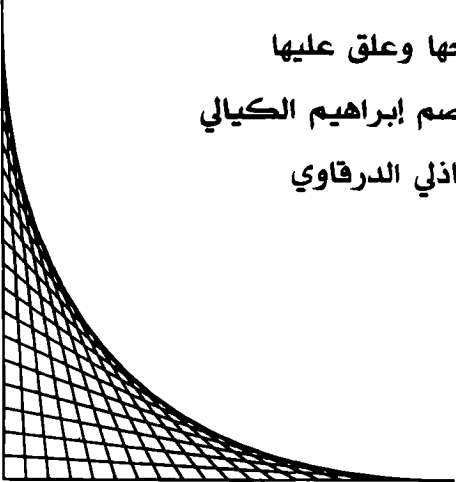
يَلْبَسُ إِلَّا لِبَاسَ الذَّلِّ؛ وَهِيَ ثِيَابُ الْخِدْمَةِ وَالْمِهْنَةِ. فَالْعَبْدُ الْمَتَأَدَّبُ لَا يَتَحَلَّى بِحِلْيَةِ سَيِّدِهِ حَتَّى يَحْزَرَهُ سَيِّدُهُ. وَالْعَبْدُ أَيْضاً لَا يُدَبِّرُ أَمْرَ نَفْسِهِ؛ وَهُوَ فِي مَمْلَكَةِ سَيِّدِهِ. إِذْ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ أَيْضاً.

وَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَيْضاً أَنْ يَخْطِي عِنْدَ سَيِّدِهِ، يَكُونُ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، سَمِيعاً مُطِيعاً بِالْفَهْمِ عَنْ سَيِّدِهِ فَيَفْعَلُ مَا يَشْتَهِي سَيِّدُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِهِ.

وَأَيْضاً: الْعَبْدُ الْمَحَبِّ لِسَيِّدِهِ، لَا يَخْدُمُهُ عَنْ غَرَضٍ، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ عَلَى سَيِّدِهِ شَيْئاً بَلْ يَخْدُمُهُ عِبُودِيَّةً وَمَحَبَّةً. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْأَجِيرِ السُّوءِ، إِذَا أُعْطِيَ عَمَلٌ وَإِلَّا لَمْ يَعْمَلْ». أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ: هَذَا اللَّهُ تَعَالَى أَوْ الْعَقْلُ بِإِذْنِ اللَّهِ لِقَوْلِ الْحَقِّ. فَقُلْنَا: فِيمَا نَظَمْنَا؛ وَهُوَ شَرْحُ مَا تَوَلَّهَتْ، أَيِ تَحَيَّرَتْ لِعِزَّتِهِ، أَيِ لِأَجْلِ صُغُوبَتِهِ وَعَظَمَتِهِ أَلْبَابُنَا؛ أَيِ عُقُولُنَا. وَلَهُ هَذَا؛ أَيِ رَجَعْنَا. بَعْدَ نُفُورِنَا عَنْهُ لَصُغُوبَتِهِ، أَيِ وَلِلَّهِ ثُبْنَا وَرَجَعْنَا إِنْ لَمْ تُصَادِفِ الصُّوَابُ. ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ كَانَ يَنْبَغِي السَّيْرَ وَالنُّهُوضَ إِلَى الْجَانِبِ الْأَقْدَسِ؛ وَهُوَ حَضْرَةُ الْقُدْسِ، مَحَلُّ الْأَنْسِ فَلْيَأْتِ إِلَيْنَا لِيَأْخُذَهُ عَنَّا. فَإِنْ طَرِيقَ السَّيْرِ لَا تَوْخِذُ إِلَّا عَنْ أَرْبَابِهَا؛ وَهُمْ الَّذِينَ سَارُوا مَعَهَا. وَعَرَفُوا وَغَرَّهَا وَسَهَّلَهَا. وَالْمَرَادُ: تَرْبِيَةِ النَفُوسِ وَتَهْذِيبِهَا، فَلَا تَوْخِذُ إِلَّا مِمَّنْ أَخَذَهَا عَنْ غَيْرِهِ. وَسَلَكَهَا بِنَفْسِهِ. وَخَافَ مَقَامَ الْجَذْبِ وَالسُّلُوكِ، وَحَازَ مَقَامَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. وَمَنْ لَمْ يَسْلُكْ ذَلِكَ فَلَا يَقْتَدِي بِهِ فِي سُلُوكِهَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ. هَذَا آخِرُ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ النُّونَةِ الشُّشْتَرِيَّةِ، عَلَى تَصْحِيفِ فِي مَتْنِهَا. فَمَنْ وَقَفَ عَلَى خَلَلٍ فَلْيَصْلَحْهُ مِنْهَا وَمِنْ شَرْحِهَا. إِذْ قَلَّ مَا يَخْلُصُ مُصَنِّفٍ مِنَ الْهَفَوَاتِ. أَوْ يَنْجُو مُؤَلِّفٌ مِنَ الْعَثَرَاتِ. كَمَا قَالَ الشَّيْخُ خَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَبْيِضِهِ، ضُخْوَةٌ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فَاتَحَ رَجَبَ سَنَةِ عَشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفَ هَجْرِيَّةٍ (١٢٢٠هـ) عَلَى يَدِ جَامِعِهِ، الْعَبْدُ الْفَقِيرُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَجِيْبَةِ الْحُسَيْنِيِّ.

شرح صلاة القطب ابن هشيش
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه



ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ، الْعَالِمُ الْعَلَامَةُ، الْوَلِيُّ الصَّالِحُ، الْعَارِفُ الرَّبَّانِي: سَيِّدِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَجِيبةِ الْحَسَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَفَعَّلَا بِهِ آمِينَ.

نَحْمَدُكَ يَا مَنْ تَجَلَّى لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، بِكَمَالِ جَمَالِهِ وَبِهَائِهِ. فَتَنَزَّهَتْ فِي رِيَاضِ مَلَكُوتِهِ الْأَفْكَارُ. وَنَشْكُرُكَ يَا مَنْ تَوَلَّى أَسْرَارَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، فَخَاضَتْ فِي بَحَارِ جَبَرُوتِهِ الْأَسْرَارُ. وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى بَذْرَةِ الرُّجُودِ، وَمَطْلَعِ شَمْسِ السُّعُودِ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي مِنْ سِرِّ نَاسُوتِهِ انشَقَّتْ الْأَسْرَارُ. وَمِنْ لَاهُوتِ صِفَاتِهِ؛ انْفَلَقَتْ الْأَنْوَارُ. صَلَاةً وَسَلَامًا يَلِيقَانِ بِمَا لَهُ مِنْ عَظِيمِ جَاهٍ وَمِقْدَارٍ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَطْهَارِ.

وَيَعْدُ: فَهَذَا شَرْحُ لَطِيفٍ، عَلَى تَضْلِيلَةِ الْقُطْبِ الْجَامِعِ، لِسَيِّدِي عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشٍ تَفَعَّلَا اللَّهُ بِذِكْرِهِ. وَأَفَاضَ عَلَيْنَا مِنْ صِيبِ فَيْضِهِ آمِينَ. نَدْبَنِي إِلَيْهِ شَيْخَنَا الْعَارِفُ، الرَّبَّانِي، قَدَوَةُ السَّائِرِينَ. وَمُرَبِّي الْوَاصِلِينَ، سَيِّدِي مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْبُوزْدِي الْحَسَنِيِّ. فَأَجَبْتُهُ إِلَى ذَلِكَ. رَجَاءَ التَّحْقِيقِ بِمَحَبَّتِهِ، وَالشُّرْبِ مِنْ قَيْضِ مَدَدِهِ. وَلِنَقْدُمَ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ، تَرْجَمَةَ الشَّيْخِ. وَذَكَرَ شَيْءٍ مِنْ كَلَامِهِ.

أما ترجمته: فهو الشَّيْخُ الْإِمَامُ، الْعَارِفُ الْوَاصِلُ، الْوَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَالْقُطْبُ الشَّهِيرُ، شَمْسُ زَمَانِهِ، وَفَرِيدُ عَصْرِهِ وَأَوَانِهِ. سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ مَشِيشٍ بِالْمِمْ. وَرَبْمَا قِيلَ بِالْبَاءِ. وَإِنْدَالَ الْبَاءِ بِالْمِمْ، لُغَةٌ مَازْنِيَّةٌ، وَمَعْنَاهُ الْخَادِمُ الْخَفِيفُ؛ الْحَاقِظُ اللَّيِّبُ، ابْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَلِيٍّ، بْنِ حُزْمَةَ، بْنِ عَيْسَى، بْنِ سَلَامٍ، بْنِ مِزْوَارٍ. وَمَعْنَاهُ بَلُغَةُ الْبَرِّيرِ، بَكْرُ أَبِيهِ. وَيَسْتَعْمَلُ فِي رَأْسِ الْقَوْمِ، ابْنُ عَلِيٍّ بْنِ حِينْدَرَةَ. وَهُوَ فِي الْأَصْلِ، اسْمُ الْأَسَدِ، ابْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِدْرِيسَ

الأزهر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي كرم الله وجهه، رضي الله عنهم أجمعين. توفي رضي الله عنه شهيداً سنة ٦٢٢هـ، أو فيما بعده بقليل. قال ابن خلدون: قتل في جبل العلم قوم، بعثهم لقتله، ابن أبي الطواجن الكتامي الساحر، المدعي النبوة. وبسبب هذه الدعوة، رَحَقَتْ إليه عساكر سبئة. وكان عند بني سعيد فقتل. ثم قلت: أخبرني من أئق به من بني سعيد، أنه قتل شاب منهم، وذلك أن الظالم كان فاسقاً. يتعمد بنات الناس كزهاً، فتزيًا شاب بزّي النساء، فلما اختلط به في خلوته قتل؛ لأن الظالم كان أراد أن يدخل بأخته، فتزيًا بزّي النساء وأهدي له، على أنه بنت. فقتله بخنجر. وكانت وفاته سنة خمس وعشرين وستمائة ٦٢٥هـ، أي القطب ابن مشيش، على قول ابن خلدون. ودُفِنَ رضي الله عنه، في قمة الجبل، المسمى بالعلم. قال في الميراث: وآثاره هنا كثيرة، من مغارة للخلوة والعبادة، ومسجده، جدرانه قصيرة، وموضع لازتقاب الفجر، وتحت ضريحه بنحو الميل، عين كان يتوضأ فيها، ومقتله فوقها بقرب يقال: إنه توضأ فيها عند الفجر. وقصد الصعود لمحل العبادة، وازتقاب الفجر، فقتلوه هناك. ومن الشائع، أنه ألقي عليهم الضباب الكثيف، ودفعوا إلى شوايق الجبال. فتردوا منها في مهاوي حقيقة. فمزقوا كل ممزق، ولم يزعج منهم مخبر. وتحت هذه العين، بمسافة أخرى، رسوم داره التي كان يسكنها. قلت: وقد وصلتها، وعليت في إثر مسجده، فزب العين التي يسمونها عين القشور عن يمينها، ولا ساكن هناك اليوم، وإنما العُمران في سفح الجبل، دائراً به، في مدائر وعُمران، يسكنها أهل هذا النسب الشريف، ومعهم غيرهم. وكان له من الأولاد أزيعة: محمد، وأحمد، وعبد الصمد، وعلال. ومن بني ولده محمد: بنو عبد الوهاب، وطائفة يستنون الرّحمونيين، بقرب شفشاون. ومن ولده علال أولاد الفنجج، منهم فرقة بمراكش.

وله أخوان: موسى وملاح. ومن بني موسى: الشفشائون القاطنون بفاس. ومن بني ملاح: سيدي عبد الله بن إبراهيم، نزيل وزان. وله من الأعمام ستة: يونس، وعليج، وملهي، وميمون، والفتوح، والحاج. ومن

أولاد يونس: أولاد ابن رئيسون. وأولاد ابن رخمون، وأولاد مزخو. ومن المنقول عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله عنه، أن روضة مولانا عبد السلام، مشتملة على ثلاثة قبور، الوسط منهم هو قبر الشيخ، والذي خلف ظهره، قبر ولده، سيدي محمد، والذي بين يديه، قبر خديمه ابن خدرمة رضي الله عنهم. ويروى أن الشيخ كان يوماً بإزاء خلوته، يتلو القرآن، ومعه تلميذه، الشيخ أبو الحسن الشاذلي، حتى وصل سورة الأنعام، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَقْدِرْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤَخِّدْ مِنْهَا﴾. [الأنعام: ٧٠] فورد عليه وارد إلهي، اقتطعه عن جسده، واستغرق فيه مدة، فلما أفاق رفع يده إلى السماء داعياً. فكان من دُعائه: اللهم من سبق له الشقاء منك فلا يصل إلي، ومن وصل إلي أكون له شقيقاً يوم القيامة. اللهم لا تبعث لنا من حكمت بشقائه.

وأما علو قدره، وجلالة منصبه، فذلك أمر شهير. وقد تغلغل في علوم القوم؛ التي مدارها علم التحقيق بأخلاق النبي ﷺ، فنال من ذلك الحظ الأوفر، وطريقه طريق الغنى الأكبر. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: دخلت العراق، واجتمعت بالشيخ الصالح، ابن الفتح، فما رأيت مثله، وكنت أطلب القطب. فقال لي بعض الأولياء: تطلب القطب وهو ببلادك. ارجع إلى بلادك تجده. فرجعت إلى المغرب، إلى أن اجتمعت بأستاذي رضي الله عنه، وقال أيضاً: كنت يوماً بين يدي أستاذي، فقلت في نفسي: ليت شِعري، هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم. فقال ولد الشيخ: يا أبا الحسن: ليس الشأن من يعلم وإنما الشأن من يكون هو عين الاسم. فقال الشيخ: أصاب وتقرس فيك ولدي يا أبا الحسن. وقيل: كان الولد المذكور من ثلاث سنين. وقال أيضاً: كنت في سياحتي في مبدأ أمري، حصل لي تردد، هل ألزم البراري والقفار لأتفرغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المدن، لصحبة العلماء والأختار. فوصف لي ولي هناك، وكان برأس جبل، فصعدت إليه ليلاً، وقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت: فسمعت وهو يقول: من دخل المغارة؟ اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا بذلك منك، اللهم وإني أسألك اغوجاج الخلق علي، حتى لا يكون منجاً إلا إليك.

والتفت إلى نفسي، وقلت: يَا نَفْسِي، انظري من أي بحر يَعْرِفُ هَذَا الشَّيْخ؟ فلما أَصْبَحْتُ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَارْتَعَبْتُ مِنْ هَيْئَتِهِ. فقلت: يَا سَيِّدِي، كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم، كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار. فقلت: أما شكواي من حرّ التدبير والاختيار، فقد دُفِئَتْ، وإنني الآن فيه، أما شكواك من برد الرضى والتسليم فما ذقتهما. فقال: أخاف أن تشغلني خلاوتهما عن الله. فقلت: يَا سَيِّدِي سمعتك البارحة تقول: اللَّهُمَّ إِنَّ قَوْماً... إلخ... فتبسّم ثم قال: يَا بَنِي عَوْضٍ أَنْ تَقُولَ: سَحَرَ لِي خَلْقَكَ، قُل: يَا رَبِّ كُنْ لِي. أترى إذا كَانَ لَكَ أَيْفُوتُكَ شَيْءٌ؟ فما هذه الجبانة؟ اهـ.

وأما كلامه في الحقائق والصايا، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: «الزَّمِ الطَّهَارَةَ مِنَ الشُّكُوكِ، كُلَّمَا أَخَذْتُ تَطَهَّرْتُ، وَمَنْ تَدَنَسَ الدُّنْيَا، كُلَّمَا مِلْتُ إِلَى شَهْوَةٍ، أَصْلَحْتُ بِالتَّوَجُّهِ مَا أَفْسَدْتُ بِالنَّوْهِمِ، أَوْ كَدْتُ، وَعَلَيْكَ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَلَى التَّوْقِيرِ وَالنَّزَاهَةِ، وَأَدْمِنِ الشَّرْبَ بِكَأْسِهَا، مَعَ السُّكْرِ، كُلَّمَا أَقْفَتَ أَوْ تَيَقَّظْتَ شَرِبْتُ، حَتَّى يَكُونَ سُكْرُكَ وَصُحُوكَ بِهِ. وَحَتَّى تَغِيبَ بِجَمَالِهِ عَنِ الْمَحَبَّةِ وَعَنِ الشَّرَابِ. وَالشَّرْبُ وَالْكَأْسُ بِمَا يَبْدُو لَكَ مِنْ نُورِ جَمَالِهِ، وَقُدُسِ كَمَالِ جَلَالِهِ، وَلَعَلِّي أَحَدْتُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْمَحَبَّةَ، وَلَا الشَّرْبَ، وَلَا الْكَأْسَ، وَلَا السُّكْرَ وَلَا الصُّخْرَ». قَالَ لَهُ الْقَائِلُ: أَجَلْ، وَكَمْ مِنْ غَرِيقٍ فِي الشَّيْءِ لَا يَعْرِفُ بِغَرَقِهِ. فَعَرَفَنِي وَتَبَنَّنِي عَلَى مَا أَنَا بِهِ جَاهِلٌ، أَوْ مَا مَرَّ عَلَيَّ وَأَنَا عَنْهُ غَافِلٌ. قُلْتُ: لَكَ نَعَمْ. الْمَحَبَّةُ أَخَذَةُ مِنَ اللَّهِ. قُلْتُ: مَنْ أَحَبَّ بِمَا يَكْشِفُ لَهُ مِنْ نُورِ جَمَالِهِ، وَقُدُسِ كَمَالِ جَلَالِهِ. وَشَرِبَ الْمَحَبَّةَ: مَزَجَ الْأَوْصَافَ بِالْأَوْصَافِ، وَالْأَخْلَاقَ بِالْأَخْلَاقِ، وَالْأَنْوَارَ بِالْأَنْوَارِ، وَالْأَسْمَاءَ بِالْأَسْمَاءِ، وَالتُّعُوتَ بِالتُّعُوتِ، وَالْأَفْعَالِ بِالْأَفْعَالِ. وَيَتَسَّعُ فِيهِ النَّظَرُ وَلِمَنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَالشَّرْبُ: سَقَى الْقُلُوبَ، وَالْأَوْصَالَ وَالْعُرُوقَ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ، وَيَكُونُ الشَّرْبُ بِالتَّذَرِيبِ بَعْدَ التَّذَرِيبِ، وَالتَّهْذِيبِ بَعْدَ التَّهْذِيبِ، فَيُسْقَى كُلٌّ عَلَى قَدَرِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى مِنْ جِهَةِ الْوَسَائِطِ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَكْبَارِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْكُرُ بِشَهْوَةِ الْكَأْسِ، وَلَوْ لَمْ يَذُقْ بَعْدَ شَيْءٍ. فَمَا ظَنُّكَ بَعْدَ الذَّوْقِ، وَبَعْدَ الشَّرْبِ، وَبَعْدَ الرِّيّ، وَبَعْدَ السُّكْرِ، وَبَعْدَ

بالمشروب. ثم بالصحو، ثم بغد ذلك على مصادر شتى. كالسكر أيضاً كذلك.

والكأس: مغرفة الحق، يُغرفُ بِهَا مِنْ ذَلِكَ الشَّرَابِ الطَّهَوْرُ الْمُحَضُّ الصَّافِي، لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ خَلْقِهِ. فتارة يشهد الشراب بذلك الكأس صورة، وتارة يشهدا معنوية، وتارة يشهدا علمية. فالصورة حَظُّ الْأَبْدَانِ وَالنَّفُوسِ، والمعنوية حَظُّ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ، والعلمية حَظُّ الْأَرْوَاحِ وَالْأَسْرَارِ. فَيَا لَهُ مِنْ شَرَابٍ مَا أَغْذَبَهُ! فَطُوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ وَدَامَ وَلَمْ يُقَطَّعْ عَنْهُ. نسأل الله من فضله، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَقَدْ تَجَمَّعُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُجِيبِينَ، فَيُسْقَوْنَ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ يُسْقَوْنَ مِنْ كُؤُوسٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ تَخْتَلِفُ الْأَشْرِبَةُ بِحَسَبِ الْكُؤُوسِ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ الشَّرْبُ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِنْ شَرِبَ مِنْهُ الْجَمُّ الْعَفِيرُ مِنَ الْأَجِبَةِ اهـ. قُلْتُ: وَقَدْ شَرَحْتَ هَذَا الْكَلَامَ، فِي شَرْحِنَا لخمريه ابن الفارض اهـ.

«وَمِنْ وَصَايَاهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِتَلْمِيزِهِ أَبِي الْحَسَنِ، قَالَ لَهُ: اللَّهُ اللَّهُ، وَالنَّاسَ نَزَّةً لِسَانِكَ عَنْ ذِكْرِهِمْ، وَقَلْبَكَ عَنِ التَّمَاثُلِ مِنْ قِبَلِهِمْ.. . . وَقُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَنَجِّنِي مِنْ شَرِّهِمْ، وَاعْنِي بِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِمْ، وَتَوَلَّنِي بِالْخُصُوصِيَّةِ مِنْ بَيْنِهِمْ. إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أَوْصَانِي حَبِيبِي، أَيِ أَسْتَاذِي مَوْلَانَا عَبْدَ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ: لَا تَنْقُلْ قَدَمَيْكَ إِلَّا حَيْثُ تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَلَا تَجْلِسْ إِلَّا حَيْثُ تَأْمَنُ غَالِباً مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَلَا تَضْحَبْ إِلَّا مَنْ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ. وَلَا تَصْطَفِي لِنَفْسِكَ إِلَّا مَنْ تَزْدَادُ بِهِ يَقِيناً، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ اهـ. وقال أيضاً: أَوْصَانِي أَسْتَاذِي فَقَالَ: «لَا تَضْحَبْ مَنْ يُؤْثِرُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَيْثٌ، وَلَا مَنْ يُؤْثِرُكَ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ قَلٌّ مَا يَدُومُ، وَاصْحَبْ مَنْ إِذَا ذُكِرَ، ذُكِرَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ يُغْنِي بِهِ إِذَا شُهِدَ، وَيُنُوبُ عَنْهُ إِذَا فَقَدَ ذِكْرَهُ نَوْرَ الْقَلْبِ، وَمُشَاهَدَتَهُ مِفْتَاحَ الْغُيُوبِ».

وَقَالَ أَيْضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ «اهْرَبْ مِنَ خَيْرِ النَّاسِ، أَكْثَرَ مَنْ أَنْ تَهْرَبَ مِنْ شَرِّهِمْ، فَإِنَّ خَيْرَهُمْ يَصِيبُكَ فِي قَلْبِكَ، وَشَرُّهُمْ يَصِيبُكَ فِي بَدَنِكَ، وَلَآنَ تُصَابَ فِي بَدَنِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَابَ فِي قَلْبِكَ، وَلَعَدُوُّ تَصِلُ بِهِ إِلَى رَبِّكَ خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يَقْطَعُكَ عَنْ رَبِّكَ».

وَقَالَ أَيْضاً: سَأَلْتُ أَسْتَاذِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَيَسْرُوا وَلَا تُنْقِرُوا». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَلُّهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا تَدُلُّهُمْ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ مَنْ ذَلِكَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ، وَمَنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ اتَّعَبَكَ، وَمَنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ.

وَقَالَ أَيْضاً: فَقَدْ سَأَلَنِي أَسْتَاذِي فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ: بِمَاذَا تَلْقَى اللَّهَ؟ فَقُلْتُ بِفَقْرِي، فَقَالَ: لَئِنْ لَقِيتَ اللَّهَ بِفَقْرِكَ لَتَلْقِيَنَّهُ بِالصُّمِّ الْأَعْظَمِ. وَإِنَّمَا يُلْقَى اللَّهُ بِهِ سُبْحَانَهُ، لَا بِشَيْءٍ سِوَاهُ. وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا سَيِّدِي وَظْفَ عَلِيٍّ وَظَائِفَ وَأُورَادَ أَعْمَلُ بِهَا. فَقَالَ لَهُ: أَرْسُولُ أَنَا! الْفَرَائِضُ مشهورة، والمحرمات معلومة، فَكُنْ لِلْفَرَائِضِ حَافِظاً، وَلِلْمَعَاصِي رَافِضاً، وَاحْفَظْ نَفْسَكَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا، وَحُبِّ النِّسَاءِ وَحُبِّ الْجَاهِ، وَإِثَارِ الشَّهَوَاتِ، وَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ. إِذَا أَخْرَجَ لَكَ مَخْرَجَ الرِّضَى، فَكُنْ فِيهِ شَاكِراً، وَإِذَا أَخْرَجَ لَكَ مَخْرَجَ السُّخْطِ، فَكُنْ عَلَيْهِ صَابِراً.

وَحُبُّ اللَّهِ قُطْبٌ تَدُورُ عَلَيْهِ الْخَيْرَاتُ، وَأَضَلُّ جَامِعٍ لِأَنْوَاعِ الْكَرَامَاتِ وَحَضَرُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي أَزْبَعِ: الْوَرَعِ، وَحُسْنِ النِّيَّةِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ، وَصُحْبَةِ الْعِلْمِ؛ وَلَا تَيْتَمُ لَهُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَّا بِصُحْبَةِ أَخٍ صَالِحٍ، أَوْ شَيْخٍ نَاصِحٍ.

أَخَذَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي مُحَمَّدٍ، سَيِّدِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَدَنِيِّ، الْمُلقَّبُ بِالزِّيَّاتِ، لُسْكَنَاهُ بِحَارَةِ الزُّيْدَتَيْنِ، وَكَانَ الشَّيْخُ سَيِّدِي عَبْدَ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشٍ فِي صُغْرِهِ، انْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ فِي مَغَارَةِ بَجَبِلِ الْعَلَمِ، بَعْدَ أَنْ أَذْرَكَهُ الْجَذْبُ؛ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ مُدَّةٍ رَجُلٌ عَلَيْهِ سِيمَا أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، فَقَالَ: أَنَا شَيْخُكَ الَّذِي كُنْتَ أُمْدَكَ مِنْ وَقْتِ الْجَذْبِ إِلَى الْآنَ، وَوَصَفَ لَهُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ وَمِنَ الْمُنَازَلَاتِ وَالْمَعَارِفِ، وَقَصَلَ لَهُ ذَلِكَ مَقَاماً مَقَاماً، وَحَالاً حَالاً، وَعَيَّنَ لِكُلِّ حَالٍ رَمَتَهُ، ثُمَّ سُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، هَلْ كَانَ يَأْتِيكَ أَوْ كُنْتَ تَأْتِيهِ؟ فَقَالَ: كُلُّ قَدِ كَانَ. فَقِيلَ لَهُ: أَطِياً لِمَسَافَةِ الْمَكَانِ، أَوْ سَفِراً. فَقَالَ: طِياً. وَأَخَذَ شَيْخَهُ الْمَذْكُورَ، عَنْ عَارِفٍ وَقِيهِ: الْقُطْبُ تَقِي الدِّينَ الْفَقِيرَ فِيهِمَا، وَهُوَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ، وَهُوَ عَنِ الْقُطْبِ فَخْرُ الدِّينِ، عَنْ الْقُطْبِ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ، عَنِ الْقُطْبِ تَاجُ الدِّينِ، عَنِ الْقُطْبِ شَمْسُ

الدِّين بَارِض التُّرْك، عَنِ الْقُطْب زَيْن الدِّين الْقَزْوِينِي، عَنِ الْقُطْب أَبِي إِسْحَاق،
إِبْرَاهِيمَ الْبُضْرِي، عَنِ الْقُطْب مُحَمَّدٍ أَبِي الْقَاسِمِ أَحْمَدَ الْيَزَوَانِي، عَنِ الْقُطْبِ أَبِي
مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ، عَنِ الْقُطْب سَعْدٍ، عَنِ الْقُطْب مُحَمَّدٍ فَتَحِ السَّعُودِ، عَنِ الْقُطْب
سَعِيدِ الْغَزَوَانِي، عَنِ الْقُطْب أَبِي مُحَمَّدٍ جَابِرٍ، عَنِ أَوَّلِ الْأَقْطَابِ، سَيِّدُنَا
الْحَسَنَ، عَنِ أَبِيهِ سَيِّدُنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، سَيِّدُنَا
وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَتَّصِلُ نَسَبُنَا بِهَذَا الشَّيْخِ، مِنْ طَرِيقِ شَيْخِنَا الْعَارِفِ الْبُرَيْدِي
الْحَسَنِيِّ، عَنِ شَيْخِهِ الْعَارِفِ، مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ الدَّرَقَاوِيِّ الْحَسَنِيِّ، عَنِ شَيْخِهِ
الْعَارِفِ، سَيِّدِي عَلِيِّ الْعِمْرَانِيِّ الْحَسَنِيِّ، عَنِ شَيْخِهِ الْعَارِفِ سَيِّدِي الْعَرَبِيِّ بْنِ
أَحْمَدَ، بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ أَبِيهِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ سَيِّدِي قَاسِمِ
الْخِصَاصِيِّ، عَنِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ، سَيِّدِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَاسِي، عَنِ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْكَبِيرِ، وَالِدِ سَيِّدِي أَحْمَدَ، وَهُمَا عَنِ الْقُطْبِ سَيِّدِي يُوسُفَ الْقَاسِي،
عَنِ الْعَارِفِ سَيِّدِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَجْذُوبِ، عَنِ شَيْخِهِ سَيِّدِي عَلِيِّ الصَّنَهَاجِيِّ؛
الْمَشْهُورِ بِالْأَدْوَارِ، عَنِ شَيْخِهِ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ أَفْحَامَ، عَنِ سَيِّدِي أَحْمَدَ زُرُوقَ،
عَنِ شَيْخِهِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ عَقْبَةَ الْحَضْرَمِيِّ، عَنِ سَيِّدِي يَحْيَى الْقَادِرِيِّ، عَنِ
الْقُطْبِ سَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ وَفَا، عَنِ وَالِدِهِ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بَحْرِ الصَّفَا، عَنِ سَيِّدِي
دَاوُدَ الْبَاخَلِيِّ، عَنِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ عَطَاءِ اللَّهِ، عَنِ الْقُطْبِ سَيِّدِي أَبِي الْعَبَّاسِ
الْمَرْسِيِّ، عَنِ الْقُطْبِ سَيِّدِي أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذَلِيِّ، عَنِ الْقُطْبِ الْكَبِيرِ الْعَارِفِ
الشَّهِيرِ صَاحِبِ التَّصْلِيَةِ؛ الَّذِي قَالَ فِي أَوَّلِهَا:

«اللَّهُمَّ». أَيَا اللَّهُ، حَذَفْتَ الْيَأْ إِزَالَةَ اللَّبُغِ الَّذِي تَدَلَّ عَلَيْهِ، وَغَوَضْتَ
عَنْهَا الْمِيمَ، دَلَالَةً عَلَى الْجَمْعِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ: مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ، كَأَنَّمَا دَعَا
اللَّهُ بِأَسْمَائِهِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ الْمِيمَ تَدَلَّ عَلَى الْجَمْعِ كَهُمْ «صَلَّ» أَي تَرْحُمُ وَتَعْطِفُ
«عَلَى» سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ «مَنْ» أَيِ الَّذِي «مِنْهُ» أَيِ مَنْ نُورِهِ؛ الَّذِي هُوَ بِذَرَّةٍ
الْوُجُودِ، وَالسَّبَبِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَنْ تَعْلِيلِيَّةً، أَيِ مَنْ
أَجَلَهُ ﷺ «انْشَقَّتْ» أَيِ لَاحَتْ وَظَهَرَتْ، أَوْ تَبَعَتْ وَانْفَجَرَتْ «الْأَسْرَارُ» أَيِ أَسْرَارِ
الذَّاتِ الْعَالِيَةِ. وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ ظُهُورِ نُورِهِ مُحْجُوبَةً بِاطْنِيَّةٍ، تَجَلَّى فِيهَا الْحَقُّ
تَعَالَى بِاسْمِهِ الْبَاطِنِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَتَجَلَّى بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ، أَظْهَرَ قَبْضَةً مِنْ نُورِهِ،

فقال: كوني محمدًا، فمن تلك القَبْضَةُ المُحَمَّدِيَّةُ، تَكُونَتِ الأَكْوَانُ، مِنَ العَرْشِ إلى الفرش، فما ظَهَرَت أسرار الدَّاتِ، إلَّا من تلك القَبْضَةُ النُّورَانِيَّةُ، فَظَاهَرُهَا ذات، وباطنها صفات، ويتلك الصفات، وقع التكثيف والتصوير، والتعبير، والتشكيل والتحجير. وإلى ذلك أشار بقوله: «وَانْفَلَقْتُ» أي من نوره ﷺ، انفَلَقْتُ، أي انفَلَقْتُ وَظَهَرَت «الأنوار» أي أنوار الصفات، وأنوارها: أي آثارها؛ التي ظهرت على ظاهر التجليات. مِنْ تَكثِيفٍ وتَلطِيفٍ، وتقييدٍ وتخصيصٍ، وتشكيل وتمييز، وإغزاز وإذلال، وخَفْضٍ وَرَفْعٍ، وقَبْضٍ وَبَسْطٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ اختلاف الآثار، وانتقالات الأطوار، فهذه كلها من آثار الصفات الأزلية، التي هي القدرة، والإرادة، والعِلْمُ، والحياة. والصفات لا تفارق الموصوف، لكن لما كانت الصُّفَاتُ لطيفة لا تُدْرِكُ أظهرت نَفْسُهَا فِي المحسوسات، والدَّاتِ عَيْنِ الصفات، والصفات عَيْنِ الدَّاتِ، أي مَحَلُّهَا وَاجِدٌ، فَحَيْثُ تَجَلَّتِ الدَّاتُ تَجَلَّتِ الصُّفَاتُ، وَحَيْثُ ظَهَرَتِ الصُّفَاتُ، ظَهَرَتِ الدَّاتُ، فَعَبَّرُوا عَنْ هَذَا الْكَلَامِ بِالِاتِّحَادِ، وَالْعَيْنِ.

فأهل الفَرْقِ وَهُمْ أَهْلُ الْحِجَابِ، لَا يَشْهَدُونَ إلَّا الصِّفَاتِ، أي أثرها؛ وهم محجوبون عن شُهُودِ الدَّاتِ. فَكُلُّ مَنْ دَخَلَ عَالَمَ التَّكْوِينِ، فَهُوَ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَظَاهِرُهَا الْخ... وَأَهْلُ الْجَمْعِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْجَذْبِ وَالْفَنَاءِ، لَا يَشْهَدُونَ إلَّا الدَّاتِ، وَيَغْيَبُونَ عَنْ أَثَرِ الصِّفَاتِ، وَأَهْلُ الْبَقَاءِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْكَمَالِ يَشْهَدُونَ الدَّاتِ فِي الصِّفَاتِ، وَالْجَمْعِ فِي الْفَرْقِ، لَا يَحْجُبُهُمْ جَمْعُهُمْ عَنْ فَرْقِهِمْ؛ وَلَا فَرْقُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، يَعْطُونَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيُوفُونَ كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. فَكَلَامُ الشَّيْخِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ بَابِ التَّرْقِي، فانشقاق الأسرار؛ لأهل الفناء في الدَّاتِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْجَذْبِ وَالسَّكْر. وانشقاق الأنوار لأهل البقاء؛ وَهُوَ الرُّجُوعُ إِلَى شُهُودِ الْأَثَرِ بِاللَّهِ، وَهُمْ أَهْلُ السَّلُوكِ بَعْدَ الْجَذْبِ وَالْفَنَاءِ.

ويحتمل أن يريد بقوله: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الجبروت، ومنه انفَلَقَتِ الأنوار، أي أنوار الملكوت. أو تقول: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الحقيقة، وانفَلَقَتِ الأنوار، أي أنوار الشريعة. أو تقول: منه انشقت الأسرار، أي أسرار الإحسان، وانفَلَقَتِ الأنوار، أي أنوار الإيمان والإسلام. أو تقول:

منه انشقت الأسرار: أسرار عالم الغيب، وانفَلَقَتِ الأنوار: أنوار عالم الشَّهَادَةِ. أَوْ تَقُولُ: مِنْهُ انشقت الأسرار: أسرار القدرة. وانفَلَقَتِ الأنوار، أنوار الحكمة.

ويحتمل أن يكون كلامه من باب التَّدْلِي، فيكون قَدْماً أولاً مقام أهل الإحسان، من أهل الشهود والعيان. ثم نَزَلَ إلى مقام أهل الدليل والبُزْهَان، وهم أهل شهود أثر الصفات، قبل شهود الذَّاتِ، فيكون قَوْلُهُ: انشقتِ الأسرار لأهل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. وانفَلَقَتِ الأنوار؛ لأهلِ الفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ؛ قبل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. فَإِنَّ عَامَّةَ المتوجهينَ، يَبْتَدِثُونَ بِشهودِ الأثرِ، ثم يَزْتَفُونَ إلى شهودِ المؤثرِ بالشرعية، ثم بالحقيقة وبالإسلام والإيمان، ثم بالإحسان، وبالعالمِ الشَّهَادَةِ، ثم عالمِ الغيبِ، وبالحكمة ثم القدرة، فيكون أولاً في توحيد الأفعال: لَا فاعِلَ إِلَّا اللهُ؛ وهو نهاية الصالحين، ثم في توحيد الصفات: لَا حَيَّ وَلَا قَادِرَ وَلَا مُرِيدَ، وَلَا سَمِيعَ، وَلَا بَصِيرَ، وَلَا مُتَكَلِّمَ إِلَّا اللهُ، ثم في توحيد الذَّاتِ: لَا موجودَ إِلَّا اللهُ، ثم يزدون إلى مقام البقاء، وإلى ذَلِكَ أشار بعضهم بقوله:

وَيَفْتَى ثُمَّ يَفْتَى ثُمَّ يَفْتَى فَكَانَ فَنَاؤُهُ عَيْنَ الْبَقَاءِ

ولقد سمعتُ شيخنا البوزيدي رضي الله عنه يَقُولُ: طريقنا ليس فيها إِلَّا فَنَاءَانِ: فناء الأفعال، وفناء الذات. وأما فناء الصفات فهو معنوي في فناء الذَّاتِ؛ وهو كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأن طريق الشاذلية مختصرة، صاحبها أول قدم يضعه في مقام الإحسان فيفتى أولاً في الاسم، ثم في الذَّاتِ فنهاية الصالحين، بداية العارفين، وكلامنا كله مع مَنْ وجد شيخ التربية، أمّا من لم يجد فَلَا كَلَامَ مَعَهُ، إذ لَا سِرَّ لَهُ.

تنبيه: إنما خَصَّ تجلّي الذَّاتِ بالأسرار، وتجلّي الصفات بالأنوار؛ لأن تجلّي الذَّاتِ لَا يدركه إِلَّا الخواص، أو خواص الخواص. ومن شأن السرّ أن لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الأفراد، نجد في تجلّي الصفات؛ وهو الأثر، فيُدْرِكُهُ العام والخاص. كما أَنَّ النور كذلك، لَا يخفى على أحد، وإنما خَصَّ أَيْضاً السرّ بالشقّ، والثور بالفلق، لأنَّ الشق يكون أولاً، ثم يقع الفلق ثانياً. تقول: انشقت الإناء إِذَا لَمْ تَنْفَصِلْ. فاحتجبتِ بِلَا حجاب، والله دَرُّ القائل:

وَمَا اخْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسْتُرُ
وفي مشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مشاهدة الأكوان؛ وهم أهل.

فإذا انفصل، تقول انفلق، كذلك انشقت الأسرار، يكون أولاً لأهل
الفناء، وانفلاق الأنوار يكون ثانياً لأهل البقاء بعد الفناء. واعلم أن الأنوار
الحسية ثلاثة: نور النجوم، ونور القمر، ونور الشمس. والأنوار المعنوية
كذلك: نور الإسلام، كنور النجوم، ونور الإيمان كنور القمر، ونور الإحسان
كنور الشمس، أو تقول: نور الفناء في الأفعال كنور النجوم، ونور الفناء في
الصفات، كنور القمر، ونور الفناء في الذات، كنور الشمس. فأول ما يكشف
للمريد، نور ضعيف كنور النجوم، فتراه يسقط ويقوم، لخفاء الطريق، تختفي.
ثم يبدو له قمر التوحيد. فيقل عثاره. ثم تطلع عليه شمس العرفان، فلا يخفى
عليه مكان، وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه:

طَلَعَ النَّهَارُ عَلَى الْأَقْمَارِ وَلَا يَبْقَى إِلَّا رَبِّي النَّاسُ زَارَتْ مُحَمَّدٌ وَأَنَا سَكَنَ لِي فِي قَلْبِي
وقال أيضاً:

طَلَعَ النَّهَارُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى نَظَرْتَهُ بِعَيْنِيَا
وقال آخر:

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِلَيْلٍ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ
وقلت في قصيدتي الرائية، في سر الروح:

لَطِيفَةٌ نُورٍ فِي كَثَافَةِ ظُلْمَةٍ وَلَكِنْ بَذَرَ الثَّامِ فِي لَيْلِهِ يَجْرِي
فَإِنْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغَيَّبَتْ غَيَّاهُ لَيْلٍ عَنْ سَمَاءِ قَلْبِكَ الدُّرِّي
أَلَا إِنَّ شَمْسَ الْحِسِّ تَغْرُبُ لَيْلَهَا وَلَيْسَ لِشَمْسِ الْحَقِّ مِنْ أَفْلٍ يَجْرِي

واعلم أن هذه الأنوار؛ التي انفلقت من نوره عليه السلام، انحجبت بسر
الحكمة في حال ظهورها، إذ لا بُدَّ لِلْحَسَنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، وللشمس من سحاب،
فَاخْتَجَبَتْ بِلَا حِجَابٍ، والله در القائل:

وَمَا اخْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسْتُرُ

وَالنَّاسُ فِي مُشَاهَدَتِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قسم يشهدونها بعد مُشَاهَدَةِ الْأَكْوَانِ؛ وهم أَهْلُ الْجَذْبِ وَالْمَنَاءِ، مِنْ أَهْلِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: مَا رَأَيْتُ شَيْئاً، إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ، وَلَمْ أَرَهُ حَدِيثاً، وَإِذَا هُوَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الْعَارِفِينَ، كَالَّذِي قَبْلَهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَالَ الشَّيْخُ مَوْلَانَا عَبْدُ السَّلَامِ لِتَلْمِيذِهِ أَبِي الْحَسَنِ: «حَدِّثْ بَصَرَ الْإِيمَانِ، تَجِدِ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَحْتَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرِيباً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَحِيطاً بِكُلِّ شَيْءٍ، بِقُرْبِ هُوَ وَضَعُهُ، وَبِإِحَاطَةِ هِيَ نَعْتُهُ. وَعُدُّ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ وَالْحُدُودِ، وَعَنِ الْأَمَاكِينِ وَالْجِهَاتِ، وَعَنِ الصَّحْبَةِ، وَالْقُرْبِ فِي الْمَسَافَاتِ، وَعَنِ الدُّورِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَإِامْنَحُ الْكُلَّ، بِوَضْعِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَهُوَ هُوَ هُوَ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. وَقَوْلُهُ: حَدِّثْ بِحَاءِ مَهْمَلَةٍ، أَيِ صِفٍ، وَقَوْلُهُ: وَامْحُ، هُوَ بِالْمِيمِ مِنَ الْمَحْوِ؛ وَهُوَ الْمَحْوُ وَالْإِضْمِخْلَالُ، وَبَاقِي كَلَامِهِ ظَاهِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْأَذْوَاقِ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِهِمْ، وَخَرَطَنَا فِي سِلْكِهِمْ آمِينَ.

ثم قال رضي الله عنه: «وفيه»: أي في سَمَاءِ قَلْبِهِ الصَّافِي «ارْتَفَعَتْ»: أي ارتفعت وأشرقت شمسُ «الْحَقَائِقِ» العِزْفَانِيَّةِ؛ والأسرار الرُّبَانِيَّةِ، والعلوم اللُّدُنِيَّةِ. شَبَّهَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِسَمَاءٍ صَاحِبَةٍ، أَشْرَقَتْ فِيهَا شَمْسُوسُ كَثِيرَةٌ، فَاغْتَلَّتْ بِالْأَنْوَارِ. وَلِذَلِكَ جَمَعَ الْحَقِيقَةَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ وَاحِدَةً؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحَقَائِقِ، مَا افْتَرَقَ فِي غَيْرِهِ. فَكَانَ بَاطِنُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَعْمُوراً بِأَنْوَارِ الْحَقَائِقِ، وَظَاهِرُهُ مَعْمُوراً بِأَنْوَارِ الشَّرَائِعِ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَعْطَاهُ اللَّهُ الْقُوَّةَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ: ظَاهِرُهُ مَعْمُورٌ بِالشَّرَائِعِ، وَبَاطِنُهُ مَعْمُورٌ بِالْحَقَائِقِ. وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْ لِمَنْ كَانَ عَلَى قَدَمَيْهِ ﷺ، مِمَّنْ أَهْلُهُ اللَّهُ لِلْإِقْدَاءِ بِهِ. وَيَكُونُ هَذَا بَعْدَ التَّمْكِينِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَ شَيْخِنَا مَوْلَايَ الْعَرَبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَا تَجْتَمِعُ مَجَاهِدَةٌ وَمُشَاهَدَةٌ، إِلَّا فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى قَدَمَيْهِ ﷺ، وَاعْتَرَفَ قَوْلُ الشَّيْخِ الْيُوسُفِيِّ فِي بَعْضِ أَدْعِيَتِهِ: وَزَيْنُ الظَّاهِرِ بِالْمَجَاهِدَةِ، وَزَيْنُ الْبَاطِنِ

بالمشاهدة. إذ لا مُجاهدة في الظاهر، قبل مشاهدة الباطن، كما تقدّم.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الوليُّ الكامل؛ هو الذي يكون ظاهره معموراً بالشرائع، وبباطنه معموراً بالحقائق. قُلْتُ: وهذا قليلٌ. وعلى تقدير وقوعه: تكون عِبَادَةُ الله معمولاً فيها بالقدرة، فلا مجاهدة له فيها البتّة. والغالب على أهل الباطن خفاء أَعْمَالِهِمْ؛ لأنّها قَلْبِيَّةٌ بين فِكْرَةٍ ونَظَرَةٍ، وشهودٍ وعِبْرَةٍ، لا يزدون على الفرائض إلّا ما تيسّر. ثم يستغرقن في الفِكْرَةِ والنظرة التي هي أفضل العبادات، ساعة منها تَفْضُلُ عبادة سنّة، كما في الحديث. وفي رواية سَبْعِينَ سَنَةً. والجمع بَيْنَهُمَا، أَنَّ الأول في فِكْرَةِ أهل الحجاب، والثاني في فِكْرَةِ أهل العزفان. وفيه قال الشاعر:

كُلُّ وَفِيٍّ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ

أي: سنة. وقال أبو العباس المُرْزِي، رضي الله عنه: قَوْمٌ أَقَامَهُمُ اللهُ لِعِزْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّصَهُمْ لِمَحَبَّتِهِ. ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] فأهلُ الْمَحَبَّةِ، هم أهلُ الْفِكْرَةِ، وأهلُ الْخِدْمَةِ، هم أهلُ الْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ. أو تقول: أهلُ الْمَحَبَّةِ هُمُ أَهْلُ الْعِبَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ. وأهلُ الْخِدْمَةِ؛ هم أهلُ الْعِبَادَةِ الْخَارِجِيَّةِ. أو تقول: أهلُ الْمَحَبَّةِ، هم أهلُ الْعِبَادَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وأهلُ الْخِدْمَةِ هم أهلُ الْعِبَادَةِ الْحِسِّيَّةِ.

والحاصل: أَنَّ عملَ الشريعة، لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَغْتَبِرَ الْحَقِيقَةَ. وَالْحَقِيقَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَغْتَبِرَ الشَّرِيعَةَ. إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ. وَمَنْ قَالَ خِلَافَ هَذَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْبَاطِنِ. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي قَوِيّ الْقُلُوبِ؛ لِأَبِي طَالِبِ الْمَكِّي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ بَعْضَ الْعَارِفِينَ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ الَّذِي يَكْتُبُ أَعْمَالَهُ: يَا سَيِّدِي، فَرَحْنَا بِشَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِكَ، أَيَ ظَهْرَةٍ لَنَا، نَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى رَبِّنَا. فَقَالَ لَهُ: أَمَا يَكْفِيكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَاَنْظُرْ قَوْلَ الشَّاعِرِ؛ وَهُوَ الْحَلَّاجُ:

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عِيُونٌ	تَرَى مَا لَا يَرَى لِلنَّاطِقِينَ
وَالسَّيِّئَةُ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِي	تَغِيبُ عَنِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ
وَأَجْنَحَةٌ تُطِيرُ بِغَيْرِ رِيَشٍ	إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَقَدْ دَلَّلْنَاهُ بِبَيِّنَاتٍ آخَرِينَ فَقُلْتُ:	

وَأَفْئِدَةٌ تَهِيْمُ بِعَشْقِي وَجِدَ إِلَى جَبَرُوتِ ذِي حَقٍّ يَقِينَا
فَإِنْ أُرِدْتَ ذَلِكَ ذِي الْمَعَانِي فَبَدِّلْ رُوحَكَ قَلِيلًا فِينَا

فهذه عبادة العارفين المحققين، باطنية خفية. ولذلك اخْتَفَوْا عن كثير من الناس. فَلَا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعْرِفَهُمْ بِهِمْ.

ثُمَّ أَشَارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْعِلْمِ الظَّاهِرِ؛ الَّذِي عِلْمُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: «وَتَنَزَّلَتْ» فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ «عُلُومُ آدَمَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ تَعَالَى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» [البقرة: ٣١] أَيْ أَلْهَمَهُ اللَّهُ، وَأَلْقَى فِي فِطْرَتِهِ مَعْرِفَةَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَلِغَاتِ الْأَلْسُنِ كُلِّهَا، مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَسِيزْيَانِيَّةٍ وَغَيْرِهِمَا، مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ أَوْلَادُهُ، وَكَذَلِكَ نَبَّيْنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، عِلْمَهُ اللَّهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ وَمُسْمِيَاتِهَا وَزَادَ مَعْرِفَةَ خَوَاصِّهَا وَمَنَافِعِهَا. وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعْرِفُ لُغَاتِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَغَيْرِهِمَا، فَكَانَ يُخَاطِبُ كُلَّ قَوْمٍ بِلُغَتِهِمْ، وَيَكْتُبُ إِلَيْهِمْ بِعُزْفِ كَلَامِهِمْ. وَقَدْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى، عَلَى عُلُومِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَشَرَائِعِهِمُ الدَّارِسَةِ، وَأَخْبَارِهِمُ الْمَاضِيَةِ، وَعَلِمَ مَا يَكُونُ فِي أُمْتِهِ مِنَ الْأَخْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ. وَمَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْفَجَائِعِ، وَخَصَّهُ اللَّهُ بِأَسْرَارٍ، لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ. وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَخْصُ قَوْمًا بِأَسْرَارٍ لَمْ يَفْشِهَا لغيرِهِمْ. حَتَّى قَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَذْخُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُمَا يَتَكَلَّمَانِ فِي عِلْمِ السِّرِّ، وَفِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ، فَأَكُونُ بَيْنَهُمَا كَالزَّنَجِيِّ، لَا أَعْرِفُ مَا يَقُولَانِ. قَالَ سَيِّدِي عَبْدُ الْوَارِثِ، فِي شَرْحِ الْمَبَاحِثِ: كَانَا أَوَّلَ مَرَّةٍ يَتَكَلَّمَانِ فِي عِلْمِ السِّرِّ، فَإِذَا دَخَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمْسَكَ. ثُمَّ أَشْرَكَاهُ فِي الْمَذَاكِرَةِ. فَإِذَا دَخَلَ عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمْسَكُوا، ثُمَّ أَشْرَكُوهُ فِي الْمَذَاكِرَةِ، فَإِذَا دَخَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمْسَكُوا، ثُمَّ أَشْرَكُوهُ فِي الْمَذَاكِرَةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَفْهَمُ تِلْكَ الْأَسْرَارَ، قَبْلَ أَنْ يَشْرَكَوهُ فِي الْمَذَاكِرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وهذه الأسرار لَيْسَتْ مِنْ عِلْمِ الظَّاهِرِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ عِلْمِ الْبَاطِنِ، فَحَقُّهَا أَنْ تُذَكَّرَ عِنْدَ قَوْلِهِ: «وَفِيهِ اِزْتَفَّتِ الْحَقَائِقُ». لَكِنْ انْتَجَرَ الْكَلَامَ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ. فَالْأَمْرُ قَرِيبٌ، إِذْ إِنَّ عِلْمَ الْبَاطِنِ، لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ؛

وهو ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة.

فالعلوم ثلاثة: علم يتعلق بإصلاح الظاهر، ويُسمى علم الشريعة، وعلم الحكمة، وعلم يتعلق بإصلاح الباطن؛ ويُسمى علم التصوف، وعلم الطريقة. وهما كسبتيان، وعلم مؤهوب، ويُسمى علم الحقيقة؛ وهو الثمرة والغاية. فكل علم لا يُبلغ صاحبه لعلم الحقيقة؛ فهو ناقص. إذ ثمرة العلم العمل. وثمره العمل الحال. وثمره الحال الذوق والوجدان؛ وهو نهاية العزقان. ولا بد من شيخ مُربي، ينقل المُريد من علم الشريعة، إلى علم الطريقة، مع تحقيق الشريعة. والأبقي في أحدهما على الدوام. والشريعة تُصلح الظواهر، والطريقة تصلح الضمائر. والحقيقة تصلح السرائر. أو تقول: الشريعة أن تعبده. والطريقة أن تقصده. والحقيقة أن تشهد. أو تقول: الشريعة للطالبين. والطريقة للسائرين. والحقيقة للواصلين. أو تقول: الشريعة لطالب الأجور. والطريقة لطالب الحضور. والحقيقة لرفع الشئور. أو تقول: الشريعة للعوام. والطريقة للخواص. والحقيقة لخواص الخواص.

ومرجع الشريعة إلى امتثال الأمر، واجتناب النهي. ومزج الطريقة، إلى تخلية وتحلية. فالتخلي: التطهير من الرذائل. والتحلية: الاتصاف بالفضائل. وإن شئت قلت التحلية: هي التنزه عن أخلاق البهائم والشرطين. والتحلية: التخلق بأخلاق الروحانيين. فأخلاق البهائم: الإهتمام بالأكل والشرب والنكاح، وأخلاق الشياطين: الحسد والمكر، والخديعة، والغش، والكبر، والغضب، والحدة، والفلق، والشح، والفظاظة والقسوة، وحب الجاه، والمال، والرياسة وغير ذلك مما لا يخص. حتى قال بعضهم: «لنفس من النقائص، ما لله من الكمالات». والله أعلم.

وأخلاق الروحانيين: سلامة الصدر، وسخاوة النفس، وحسن الخلق، والتواضع، والجلم، والثاني، والسكينة، والطمأنينة، والشفقة والرحمة، والسهولة والليونة، وغير ذلك من الكمالات. فمن جمع هذه العلوم؛ فهو النجم الثاقب. ومن اكتفى بأحدها فهو ناقص وساقط. فمن تشرع ولم يتحقق فهو فاسق. إذ لا يخلو من منازعة المقادير. واعتراضه على الواحد القادر. ومن

تحقق ولم يتشرع، فهو زنديق، بإبطاله الأحكام، وتعطيل الحكمة، ومن جمَع بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقق، لقيامه بالقدرة مع الأدب والحكمة.

وفي التحقيق: ما تَمَّ إِلَّا الحقيقة. إِذْ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللهُ، وَلَا مَوْجُودَ سِوَاهُ. غَيْرَ أَنَّ مَا يَبْرُزُ مِنْ غُنْصِرِ القدرة، إِنْ كَانَ موافقاً للحكمة، سُمِّيَ شريعة وطاعة، ويسمى أيضاً حقيقة نورانية، وَإِنْ كَانَ مخالفاً، سُمِّيَ معصية. ويسمى أيضاً حقيقة ظلمانية، فالكل منه وإليه. قال تعالى وهو أَصْدَقُ القائلين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ [الفصص: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فالحقيقة عين الشريعة، والشريعة عين الحقيقة. إِذْ كُلًّا مِنْهُمَا مَأْمُورٌ بِهِمَا، والله دَرِ القائل في مَدْحِ النبي ﷺ حيث قال:

يَا زَيْنَ الْخَلَائِقِ يَا عَيْنَ الْحَقِيقَةِ حَقَّقْتَ الْحَقَائِقَ وَكَانَتْ وَثِيقَةً

فالإنسان كله، باطنه قدرة، وظاهره حكمة، فَإِنْ بَرَزَ مِنَ القدرة ما يوافق الحكمة كَانَ حقيقة نورانية، وَكَانَتْ علامة على سعادة العبد، وَإِنْ بَرَزَ مِنَ القدرة ما يخالف الحكمة كَانَ حقيقة ظلمانية، وكان علامة على عقوبة العبد، إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ جِلْمُهُ، وبالله التوفيق. وَحَيْثُ اجْتَمَعَ مع نبينا عليه الصلاة والسلام الحقائق، وعلم التشريع، وعلوم الأولين، والآخِرِينَ، عَجَزَ النَّاسُ عَنْ معرفته، وَلِذَلِكَ قَالَ: «فأعجز الخلاق» أي: صَيَّرَهُمْ عاجزين عَنْ فَهْمِهِ. فَوَجَبَ الإِذْعَانُ وَالإِنْقِيَادَ لِحُكْمِهِ، كَمَا انْقَادَتِ الملائكة بالسجود، حيث عَجَزَتْ عَنْ إِذْرَاكِ عِلْمِهِ. وقد قالت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَمَّا رَأَوْا الْعَنَمَ سَجَدَتْ لَهُ فِي قِصَّةِ الْبُسْتَانِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ لَكَ مِنْهَا. فقال ﷺ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لِأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»^(١). فَالسُّجُودُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلَّهِ. وَأَمَّا آدَمُ، فَكَانَ قِبْلَةً. والمقصود بالسجود هو الله الَّذِي أَمَرَ بِهِ. ثم قرَّر العَجَزَ المتقدم وبيَّنه بِقَوْلِهِ «وَلَهُ» أَيِ وَعَنَهُ «تَضَاعَلَتْ» أَيِ تَفَاصَرَتْ وَتَضَاعَرَتْ،

(١) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، کتاب البر والصلة، (٧٣٢/٥) [١٩٠/٤] وابن ماجه في سننه، باب حق الزوج على المرأة، حديث رقم (١٨٥٢).

أَوْ تَلَاثَتْ وَاضْمَحَلَّتْ «الْفُهُومُ»: جَمَعَ قَهُمَ. أَيِ قُهِومِ الْعِبَادِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَفْهَمَ مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَوَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا إِلَّا خَيَالَهُ الظَّاهِرَ. وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَلَمْ يَغْلَمْهُ إِلَّا خَالِقُهُ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «وَاللَّهُ مَا عَرَفْنِي حَقًّا غَيْرَ رَبِّي». وَاللَّهُ دَرِ الْبُوصِيرِي حَيْثُ قَالَ:

وَكَيْفَ يُذْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامَ تَسْلُوًا عَنْهُ بِالْحُلُمِ
وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَمْ يُذْرِكُهُ مِنَّا» مَغْشَرُ الْخَلَائِقِ.
«سَابِقٌ» عَلَيْهِ فِي مَظْهَرِهِ الشَّخْصِي. «وَلَا لَاحِقٌ» بَعْدَ وَجُودِهِ الْحِسِّي. بَلْ كُلُّهُمْ
كَلَّتْ قُهِومُهُمْ، وَتَقَاصَّرَتْ عُلُومُهُمْ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِالْحَقِيقَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ. وَيَحْتَمِلُ
بِالسَّبَاقِ: مَنْ سَبَقَ فِي زَمَانِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. كَالصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
بِالْآخِرِ. مَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ. إِذْ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ فِي الْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِهِ ﷺ. وَلِذَلِكَ قَالَ
أَبُو الْقَرْنِيِّ: «وَاللَّهُ مَا رَأَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِلَّا قَشْرَةَ الظَّاهِرِ،
وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَلَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ. فَقِيلَ لَهُ: وَلَوْ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ. قَالَ: وَلَوْ ابْنُ أَبِي
قُحَافَةَ. وَالْمَرَادُ: نَفْيُ الْإِحَاطَةِ بِمَعْرِفَةِ سِرِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَمَّا إِدْرَاكُ
الْبَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ، عَلَى قَدَرِ تَفَاقُوتِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ
الْأَوْلِيَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُذْرِكُ شَيْئًا مِنْ سِرِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْهُمْ
مَنْ يُذْرِكُ رُوحَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُذْرِكُ عَقْلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُذْرِكُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ. فَأَهْلُ الرُّسُوحِ وَالتَّمَكُّينِ، يُذْرِكُونَ سِرَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلَا
يَغِيبُ عَنْهُمْ طَرَفَةٌ عَيْنٍ. كَالْمُرْسِيِّ وَأَمْثَالِهِ. وَأَهْلُ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ مِنَ السَّائِرِينَ،
يُذْرِكُونَ رُوحَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَهْلُ الْمُرَاقَبَةِ مِنْ أَهْلِ الْاسْتِشْرَاقِ،
يُذْرِكُونَ عَقْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَهْلُ الْحِجَابِ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ،
إِنَّمَا يُذْرِكُونَ نَفْسَهُ وَمَظْهَرَهُ الشَّخْصِي. فَيُرُونَهُ مُحَيَّزًا فِي صُورَتِهِ الَّتِي كَانَ
عَلَيْهَا ﷺ فِي الدُّنْيَا، مَنَامًا أَوْ يَقْظَةً، عَلَى قَدَرِ فَنَائِهِمْ فِيهِ ﷺ؛ وَهُمْ عَلَى
مَرَاتِبٍ: وَأَمَّا تَمَثُّلُ بَعْضِهِمْ لَهُ، كَالْخُرُوفِيِّ، وَمَنْ تَبِعَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ، بِالصَّحَابَةِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَلَقُلْ ذَلِكَ كَانَ فِي زَمَانِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَ شَيْخِنَا مَوْلَايَ الْعَرَبِي يَقُولُ: لِقَبَيْتِي عَالِمَانِ مِنْ عُلَمَاءِ
فَاسٍ بِمَسْجِدِ الْقُرَوَيْنِ. فَقَالَ لِي: كَيْفَ يَقُولُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُرْسِيُّ: «مَا غَابَ

عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَةَ عَيْنٍ». كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ لَهُمْ: «يَا هَؤُلَاءِ، أُولَئِكَ السَّادَةُ، كَانَتْ أَفْكَارُهُمْ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، وَهُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ، وَفِيهِ أَزْوَاجُ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَمْ تَكُنْ أَفْكَارُهُمْ فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ، وَهُوَ عَالَمُ الْمُلْكِ. قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: وَهَلْ تَذَرُونَ أَيْنَ هُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ؟ عَالَمُ الْأَزْوَاجِ هُوَ حَيْثُ عَالَمُ الْأَشْبَاحِ، ثُمَّ قُمْتُ عَنْهُمْ» اهـ. قُلْتُ: الْآنَ الْمَحَلُّ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ النَّظَرَةُ، فَاهِلُ الْبَصِيرَةِ لَا يَرَوْنَ إِلَّا الْمَلَكُوتَ؛ وَهُوَ عَالَمُ الْأَزْوَاجِ وَاهِلُ الْبَصْرِ، لَا يَرَوْنَ إِلَّا الْمُلْكَ؛ وَهُوَ عَالَمُ الْأَشْبَاحِ.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ بقوله: «فَرِيَاضُ» جَمْعُ رَوْضٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ النَّزْهَةِ، لِإِسْتِمَالِهِ عَلَى نُورٍ وَأَزْهَارٍ، وَمِيَاهٍ وَخُضْرَةٍ. «الْمَلَكُوتُ» هُوَ فِي اضْطِلَاحِ الصُّوفِيَّةِ، مَا يُدْرِكُ بِالْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ. كَمَا أَنَّ الْمُلْكَ مَا يُدْرِكُ بِالْبَصَرِ وَالْوَهْمِ. أَوْ تَقُولُ الْمَلَكُوتُ: مَذْرُكُ أَهْلِ الْجَنِّعِ. وَالْمُلْكُ: مَذْرُكُ أَهْلِ الْفَرْقِ. أَوْ تَقُولُ: الْمُلْكُ مَا ظَهَرَ وَالْمَلَكُوتُ مَا بَطَنَ. فَالْمَلَكُوتُ: مَذْرُكُ أَهْلِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ. وَالْمُلْكُ: مَذْرُكُ أَهْلِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ. «بُزْهَرُ» جَمْعُ زَهْرَةٍ؛ وَهِيَ النُّورُ الَّتِي تُفْتَحُ فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ. «جَمَالِهِ» ﷺ «مُؤَنَّقَةٌ» أَيُّ مُعْجَبَةٍ، وَرِيَاضُ الْمَلَكُوتِ، مِنْ إِضَافَةِ الْمَشْبُوبِ بِهِ لِلْمُشَبِّهِ. شَبَّهَ الْمَلَكُوتَ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ نَزْهَةِ الْعَارِفِينَ بِرِيَاضٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَزْهَارٍ وَنُورٍ وَخُضْرَةٍ وَجَمَالٍ، لَا يَتِمُّ جَمَالُهَا، وَلَا يَظْهَرُ نُورُهَا إِلَّا بِاتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ. وَإِلَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ظُلْمَانِيَّةٍ، فَالْكُونُ الَّذِي هُوَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظَهْوَرُ الْحَقِّ فِيهِ، فَصَارَ كُلُّهُ نُورًا. وَمَنْ لَمْ يَذْرُكْ نُورَ الْحَقِّ فِيهِ، صَارَ فِي حَقِّهِ ظُلْمَةٌ. وَكَانَ مُلْكًا. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ الْحَقُّ فِيهِ إِلَّا بِالسُّلُوكِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى يَدِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِدَقَائِقِهَا وَأَسْرَارِهَا وَحَقَائِقِهَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَإِلَّا بَقِيَ مَعَ ظُلْمَةِ الْأَكْوَانِ. وَسَجَنُ الْأَوْهَامِ. «وَحِيَاضُ» جَمْعُ حَوْضٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ اجْتِمَاعِ الْمَاءِ كَالصُّهْرِيحِ. «الْجَبَرُوتُ»: وَهُوَ مَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، أَوْ بِالْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ. لَكِنْ فِي ثَانِي حَالٍ، أَيُّ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمَلَكُوتِ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْمُلْكَ وَالْمَلَكُوتَ وَالْجَبَرُوتَ مَحَلُّهَا وَاحِدٌ؛ وَهُوَ الْوُجُودُ الْأَصْلِيُّ؛ الْفَرْعِيُّ، لَكِنْ تَخْتَلِفُ التَّسْمِيَةُ، بِاخْتِلَافِ النَّظَرَةِ. وَتَخْتَلِفُ النَّظَرَةُ،

باختلاف التَّرقِي في المَعْرِفَةِ. فَمَنْ نَظَرَ الْكَوْنَ وَرَأَاهُ كَوْنًا مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ قَائِمًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُكْشَفْ لَهُ عَنْ رُؤْيِي صَانِعِهِ فِيهِ سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مُلْكًا؛ لظُهُورِ تَصَرُّفِ الْقُدْرَةِ فِيهِ، وَوُجُودِهِ؛ وَهُمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُمَا عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ. وَلِلذَلِكَ لَمْ يُذَكِّرْهُ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَكَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الرُّؤْيِيَةِ مَخْجُوبًا لِوُقُوفِهِ مَعَ الْوَهْمِ، وَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ بِصِيرَتِهِ، وَنَقَذَ إِلَى شُهُودِ الْمُكُونِ فِي الْكَوْنِ، أَوْ قَبْلَهُ، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مَلَكُوتًا. وَكَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الرُّؤْيِيَةِ عَارِفًا مَفْتُوحًا عَلَيْهِ. فَإِنْ نَقَذَتْ بِصِيرَتِهِ، إِلَى شُهُودِ أَضَلِّ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ؛ وَهِيَ الْعِظَمَةُ الْأَزَلِيَّةُ اللَّطِيفِيَّةُ، قَبْلَ أَنْ تَتَجَلَّى وَتُعْرَفَ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا ابْنُ الْفَارُضِ بِقَوْلِهِ:

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَىٰ وَنُورٌ وَلَا نَارٌ، وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ
تَقَدَّمَ كُلُّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمٌ
وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحْكَمَةٍ بِهَا اخْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لَا لَهُ فَهْمٌ

سُمِّيَ ذَلِكَ جَبَرُوتًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى نَفْوِذِ الرَّحْمَةِ السَّابِقَةِ، فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَهِيَ نِعْمَةُ الْإِبْجَادِ وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ. سُمِّيَ ذَلِكَ رَحْمُوتًا. فَصَارَتِ الْعَوَالِمُ أَرْبَعَةً: مُلْكًا وَمَلَكُوتًا، وَجَبَرُوتًا، وَرَحْمُوتًا. وَقَدْ نَظَّمْتُ قَصِيدَةَ تَلِيْقِ هُنَا، وَهَذَا بَعْضُ مِنْهَا، فَقُلْتُ:

إِذَا سُجِنَتْ نَفْسٌ فِي سِجْنِ الْهَوَى الَّذِي تَقَيَّدَ بِهِ الْعَقْلُ فِي قَهَرِ قَبْضَةٍ
وَأَشْغَلَهَا عِلْمُ الصَّوَانِ لِحْكَمَةٍ فَلَمْ تَرَ إِلَّا الْكَوْنَ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْمُلْكِ وَهُمْ ثُبُوتُهَا وَنَاطِرُهُ الْمَخْجُوبُ فِي سِجْنِ ظُلْمَةٍ
وَلَا تَقْدَتْ رُوحَ الْمُقَدَّسِ سِرُّهُ إِلَى دَرْكِ سِرِّ الذَّاتِ خَلْفَ الْأَيْبَةِ
وَتَغْنِي بِهَا سِرَّ الْمَعَانِي الَّذِي سَرَى فِي كُلِّ الْأَوَانِي عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ
فَذَا مَلَكُوتُ اللَّهِ يُسَمَّى لِوَسْعِهِ وَعَارِفُهُ يَخْطِئُ بِفَتْحِ بَصِيرَةٍ
وَلَا تَسَبَّحَتْ بِخَرِّ اللَّطَافَةِ وَالْهَنَاءِ وَأَضَلَّ الْأَصُولُ وَالْفُرُوعُ بِفِكْرَةٍ
فَذَا بَخَرٌ مَا لَا يَحِيطُ بِهِ الْفَتَى وَلَكِنْ يَخُوفُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ لُجَّةٍ

وَالْعَوَالِمُ إِنْ حَقَّقَتْهَا خَمْسَةٌ: مُلْكًا وَمَلَكُوتًا، وَجَبَرُوتًا، وَلاهُوتًا، وَرَحْمُوتًا. بِإِضَافَةِ الْفُرُوعِ إِلَى الْأَصُولِ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ:

وَأَنَّ الْحَقَّ كُلَّ الْفُرُوعِ بِأَصْلِهَا وَخَاضَتْ بِخَارِ الْجَمْعِ فِي كُلِّ لَخْظَةٍ
فَذَلِكَ الَّذِي يُسَمَّى بِلَاهُوتِ سِرِّهِ وَعَارِفُهُ حَقًّا يَهْتَأُ بِمِكَنَةٍ
وَأَنَّ نَظَرَتْ أَهْلَ الْإِلْحَادِ بِرَحْمَةٍ وَجَزَيْهَا فِي الْأَشْيَاءِ طُرًّا بِبِنْعَمَةٍ
فَذَلِكَ رَحْمَوَاتٍ فِيهِ يَذْرِيه عَارِفٌ تَخَلَّقَ بِاسْمِ الْحَقِّ فِي كُلِّ نِسْبَةٍ

والتحقيق: أَنَّ مَنْ دَخَلَ عَالَمَ التَّكْوِينِ؛ مَا ظَهَرَ مِنْ جِسْمِهِ، يُسَمَّى مُلْكًا، وَمَا بَطَنَ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي يُسَمَّى مَلَكُوتًا. وما لم يَدْخُلْ عَالَمَ التَّكْوِينِ مِنَ الْأَسْرَارِ الْبَاقِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا يُسَمَّى جَبْرُوتًا، وَلَا يَفْهَمُ هَذَا إِلَّا مَنْ دَخَلَ مَقَامَ الْإِحْسَانِ، وَخَاضَ بَخَرِ الْمَعَانِي، وَإِلَّا فَحِسْبُهُ التَّسْلِيمُ لِأَرْبَابِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ شُهُودَ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ يُحْجَبُ عَنْ شُهُودِ عَالَمِ الْمُلْكِ، وَشُهُودِ عَالَمِ الْجَبْرُوتِ يُحْجَبُ عَنْ شُهُودِ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ. وَكُلٌّ مِنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامٍ، غَابَ عَمَّا قَبْلَهُ، إِلَّا الرُّحُمُوتَ، فَيُمْكِنُ شُهُودُهُ مَعَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

والحاصل: أَنَّ بَخَرَ الْجَبْرُوتِ، فَيَاضُ بِأَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ. وَأَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ، أَضْلَاهُ الْقَبْضَةُ النُّورَانِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ. فَكُلٌّ مِنْ بَرَزَ مِنَ الْجَبْرُوتِ، فَالنُّورُ الْمُحَمَّدِيُّ وَاسِطَةٌ فِيهِ، وَأَضَلَّ فِيهِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَحِيَاضُ الْجَبْرُوتِ بِقَبْضِ أَنْوَارِهِ ﷺ مُتَدَفِّقَةٌ»: أَيُّ مُنْصَبَّةٍ بِقُوَّةٍ. فَالتَّدْفِيقُ: هُوَ الْإِنْصِبَابُ بِشِدَّةٍ، شَيْئًا فَشَيْئًا، إِنَّهُ شَيْءٌ بَخَرِ الْجَبْرُوتِ بِحِيَاضٍ مَمْلُوءَةٍ بِمَاءِ الْغَيْبِ. تَنْصَبُّ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، شَيْئًا فَشَيْئًا، عَلَى حَسَبِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ. وَلَمَّا كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ، هُوَ سَبَبٌ فِي إِبْرَازِ تِلْكَ الْأَنْوَارِ، أُضِيفَتْ إِلَيْهِ ﷺ، إِضَافَةٌ الْمُسَبَّبِ إِلَى السَّبَبِ. وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ جَبْرُوتِيًّا لَاهُوتِيًّا؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْوَاسِطَةَ، لَمْ يَشْكُرِ الْمَوْسُوطَ. وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ.

فَأَهْلُ الْجَذْبِ وَالْفَنَاءِ يَغْيِيوْنَ عَنِ الْوَاسِطَةِ فَلَا يَشْهَدُونَ إِلَّا الْجَبْرُوتَ. وَأَهْلُ الْبَقَاءِ لِكَمَالِهِمْ، يَشْهَدُونَ الْوَاسِطَةَ وَالْمَوْسُوطَ، وَيُعْطُونَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَلَا يُحْجِبُهُمْ قَرْفُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، وَلَا جَمْعُهُمْ عَنْ فَرْقِهِمْ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمْ، وَخَرَطَنَا فِي سِلْكِهِمْ آمِينَ. إِنَّمَا اخْتَارَ التَّشْبِيهَ بِالْحِيَاضِ، وَلَمْ يَشْبِهْ بِالْبَحَارِ، مُنَاسِبَةً لِلرِّيَاضِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا شَبَّهَ الْمَلَكُوتَ بِالرِّيَاضِ، نَاسَبَ أَنْ يَشْبَهَ الْجَبْرُوتُ بِالْحِيَاضِ إِذْ لَا يَقُومُ الرِّيَاضُ إِلَّا بِالْحِيَاضِ. كَمَا لَا يَقُومُ الْمَلَكُوتُ إِلَّا بِالْجَبْرُوتِ، بَلْ هُوَ عَنْهُ كَمَا

تقدم، لكن السالك يترقى به إلى الجبروت. فوجب إثباته ثم محوه. الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بإحدى ذاته.

والى إثبات واسطته ﷺ، أشار بقوله: «وَلَا شَيْءٌ» مِنَ الْكَائِنَاتِ «إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَتَوِّطٌ» أي متعلق ومتّصل اتصال المُوسُوطِ بِالْوَاسِطَةِ، فكلُّ مَنْ بَرَزَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، فَنَبِيُّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٌ ﷺ واسطة فيه. كما وَرَدَ فِي بعض الأخبار: «لَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتَ عَرْشاً وَلَا كُرْسِيّاً، وَلَا سَمَاءً وَلَا أَرْضاً، وَلَا جَنَّةً وَلَا نَاراً»^(١). وفي بُرْدَةِ البوصيري: لَوْلَا لَمْ تُخْرِجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ. ثم ذكر علة تعلق الأشياءِ بِهِ ﷺ فَقَالَ: «إِذْ لَوْلَا الْوَاسِطَةُ» الَّذِي هُوَ نَبِيُّنَا ﷺ. «لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ»: أي لَوْلَا تَوَسُّطُهُ ﷺ، بَيْنَ اللَّهِ وَخَلْقِهِ؛ لَذَهَبَ الْمَوْسُوطُ الَّذِي هُوَ الْكَوْنُ. أي لَبَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَمِ. فإذا تعليلة، والموسوطة فاعل لذهَب. والجملة: كما قيل معترضة بين الفعل والفاعل، لأجل القافية. إذ لو قَدِمَ عَلَى المجرور، لاختلَّ الْوَزْنُ بِالطَّاءِ. والتقدير: إنما تعلقَت الأشياءُ بِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ واسطة. ولَوْلَا الواسطة لَذَهَبَ الْمَوْسُوطُ. كما هو قول مشهور.

ثم ذَكَرَ معمول قوله ﷺ، وهو المصدر النوعي فقال: «صَلَاةٌ» أي صَلَّ صَلَاةٌ عَظِيمَةٌ كَامِلَةٌ «تَلِيْقٌ» أي بِعَظَمَتِكَ وَكَمَالِكَ؛ وَهَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَكُونُ هَذِهِ الصَّلَاةُ وَاصِلَةً «بِكَ مِنْكَ إِلَيْهِ» بِلَا واسطة أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلَا شَيْءٍ أَنْ الْهَدَايَا وَالتَّحَفُّ الَّتِي تَصِلُ إِلَى الْوُزَرَاءِ بِلَا واسطة، بَلْ مِنْ يَدِ الْمَلِكِ إِلَى الْوَزِيرِ، أَغْظَمُ وَأَتَمُّ مِمَّنْ تَصِلُ عَلَى يَدِ الْوَسَائِطِ.

ثم ذكر علة تعظيم هذه الصلَاة فَقَالَ: «كَمَا هُوَ أَهْلُهُ»: أي لِأَجْلِ مَا هُوَ مُسْتَحَقُّهُ ﷺ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، فَالْكَافُ تَعْلِيلِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُنَاكُمْ﴾. [البقرة: ١٨٩] ثم ذَكَرَ وَجْهَ اسْتِحْقَاقِهِ ﷺ، لِهَذِهِ الْكِرَامَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ» لَيْسَتْ هِيَ لِلدَّعَاءِ، إِنَّمَا هِيَ مُبَالِغَةٌ فِي الْإِقْرَارِ. كَقَوْلِهِ فِي الْجَوَابِ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». مَبَالِغَةٌ فِي تَمَكِينِ الْجَوَابِ فِي ذَهْنِ السَّامِعِ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَقْبُرُ

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، باب الباء، حديث رقم (٨٠٣١)

وأنحقق، أنه ﷺ «مِرْك» الخفي الذي اختصصت بِمَغْرِفَتِهِ، أَوْ سِرِّكَ الَّذِي أَوْدَعْتُهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، إِذْ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سِرُّ الْأَسْرَارِ، وَمَنْبَعُ الْأَنْوَارِ؛ وَمِنْهُ انْشَقَّتِ الْأَسْرَارُ، وَانْفَلَقَتِ الْأَنْوَارُ. «الجامع» لِمَا افترق في غيره. فَكَانَتْ رُوحَانِيَتُهُ ﷺ، جَامِعَةً لِأَوْصَافِ الْكَمَالَاتِ، وَبَشَرِيَتُهُ جَامِعَةً لِأَنْوَاعِ الْمَحَاسِنِ، وَشَرِيعَتُهُ جَامِعَةً لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ. وَكِتَابُهُ جَامِعاً لِسَائِرِ الْكُتُبِ؛ وَهُوَ أَيْضاً: يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ، وَيَذِلُّهُمْ عَلَى الْجَمْعِ، وَيَحْذَرُهُمْ مِنَ الْفَرْقِ؛ «الدَّالُّ عَلَيْكَ» بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْوَالِهِ ﷺ، فَكَانَتْ حُطْبُهُ وَمَوَاعِظُهُ تَرُقُّ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَتَذَرِفُ مِنْهَا الْعُيُونُ. وَمَا بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا دَالاً عَلَى اللَّهِ. وَمُعَرِّفاً بِهِ تَعَالَى. فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَجْمَعُ الْعِبَادَ عَلَى اللَّهِ، إِلَّا ذَالَهُمْ عَلَيْهِ، وَعَرَّفَهُمْ بِهِ. وَلَا رَأَى شَيْئاً يَقْطَعُ عَنْ اللَّهِ، إِلَّا حَذَرَ الْعِبَادَ مِنْهُ. لَمْ يَأَلْ جُهْداً فِي نَصْحِ الْعِبَادِ. وَهَدَاهُمْ إِلَى طَرِيقِ الرَّسَادِ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنْهُ أَحْسَنَ مَا جَزَى رَسُولاً عَنْ قَوْمِهِ، وَنَبِيّاً عَنْ أُمَّتِهِ.

وبعد أن كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَالاً عَلَى اللَّهِ، كَانَ حَاجِباً مِنْ حُجُوبِ الْحَضَرَةِ، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا عَلَى يَدَيْهِ. فَلِذَلِكَ قَالَ: «وَحِجَابُكَ» الَّذِي يَتَوَسَّطُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الدَّاخِلِينَ إِلَى حَضْرَتِكَ. فَكُلُّ مَنْ دَخَلَ عَلَى يَدَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَظَّمَهُ، وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ. أَذْخَلَهُ الْحَضَرَةُ عَلَى نَعْتِ الْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ وَالْأَدَبِ، فَاسْتَقَرَّ فِي الْحَضَرَةِ عَلَى الدَّوَامِ، وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ ﷺ، طُرِدَ وَغُوقِبَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ:

وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ أَيُّ امْرِئٍ وَافَى مِنْ غَيْرِ بَابِكَ لَا يَدْخُلُ

وأيضاً: هو ﷺ، حِجَابُ الْأَرْوَاحِ عَنِ الْهَلَاكِ، إِذْ مِنْ شَأْنِ الرُّوحِ أَنْ تَطْلُعَ الْخَوْفَ فِيمَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ بَحْرِ الْجَبَرُوتِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ بِالْخَوْفِ فِيهِ، زَاجَرَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَاقَلَهَا بِعُقَالِ الشَّرَائِعِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي مَاهِيَةِ ذَاتِهِ»^(١). إِذْ كُنْهُ الرُّبُوبِيَّةِ مُحْجُوبٌ عَنْ الْعَقُولِ. فَلَا سَبِيلَ إِلَى إِدْرَاكِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

(١) روى نحوه الدليمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٢٣١٨) [٥٦/٢] وابن السري في الزهد باب التفكير... حديث رقم (٩٤٦) [٤٦٩/٢] وروى نحوه غيرهما. ونصه: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره».

حُجِبَ لِقَوْمِهِمْ، وَلَكِنَّ الْمَصْطَفَى ﷺ، هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ وَصَفَهُ بِشِدَّةِ الْقُرْبِ وَالْأَدَبِ فَقَالَ: «الْأَعْظَمُ الْقَائِمُ، لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ» أَدَبًا وَتَعْظِيمًا، وَوَاسِطَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِكَ، وَتَرْجُمانًا فِي تَبْلِيغِ أَحْكَامِكَ.

ثُمَّ شَرَعَ فِي الدُّعَاءِ بِاللَّحَقِ بِهِ؛ يَكُونُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْوِلَايَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ الْحَقُّنِي بِنَسَبِهِ الطِّينِي وَالِدِينِي، وَأَرَادَ دَوَامَهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِلَّا، فَلَا يَنْفَعُ النَّسَبُ، مَعَ عَدَمِ الْأَدَبِ، «وَحَقَّقْنِي» أَيِ خَلْقْنِي «بِحَسَبِهِ» أَيِ بِخُلُقِهِ الْحَسَبِ؛ وَهُوَ مَا يَفْتَحِرُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَرَادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يَكُونَ عَلَى قَدَمَيْهِ ﷺ، فَإِنَّ الْأَوْلِيَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تُوحِيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِبْرَاهِيمِيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مُوسَوِيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عِيسَوِيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مُحَمَّدِيًا؛ وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ لِجَمْعِهِ مَا افْتَرَقَ فِي غَيْرِهِ. وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ رَجَاءَهُ، وَأَجَابَ دُعَاءَهُ. فَقَدْ تَغْلغلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ الَّتِي مَدَارُهَا عَلَى التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الرَّحْمَنِ، وَنَالَ مِنْ ذَلِكَ الْحِظِّ الْأَوْفَرَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَرْجَمَتِهِ مِنْ كَلَامِهِ مَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِ آمِينَ، إِنَّمَا عَبَّرَ بِالتَّحْقِيقِ، دُونَ التَّخَلُّقِ، لِأَنَّ التَّخَلُّقَ يَكُونُ مُجَاهِدَةً وَكُسْبًا، وَالتَّحَقُّقَ يَكُونُ غَرِيزَةً وَتَمَسُّكًا.

ثُمَّ طَلَبَ مَعْرِفَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمَعْرِفَةُ الْخَاصَّةُ فَقَالَ: «وَعَرَّفْنِي لِإِيَّاهُ». طَلَبَ مَعْرِفَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ، فَلَا يَدْخُلُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا مِنْ بَابِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمَعْرِفَةُ الْخَاصَّةُ، بَادَرَ إِلَى خِدْمَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَيَدْخُلُهُ عَلَى رَبِّهِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِشَيْخٍ يَهْدِيهِ إِلَيْهِ، وَآتَى الشَّيْخَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِضَمِيرِ النَّبِيِّ ﷺ مُتَفَصِّلًا، وَإِنْ كَانَ الْإِتِّصَالُ أَرْجَحَ عِنْدَ النَّحْوَةِ، أَدَبًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ لَوْ قَالَ: وَعَرَّفْنِيهِ، كَمَا هُوَ الْأَرْجَحُ، لَكَانَ ضَمِيرُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُتَصِلًا بِضَمِيرِ الشَّيْخِ، فَيَفُوتُهُ الْأَدَبُ، إِذِ الْمَصْطَفَى ﷺ يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ مُتَصِلًا بِهِ، لَا هُوَ مُتَصِلًا بِغَيْرِهِ. فَمَا أَحْسَنَ أَدَبَهُ! وَأَدَقَّ نَظَرَهُ!

ثُمَّ ذَكَرَ نَتِيجَةَ الْمَعْرِفَةِ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: «مَعْرِفَتُهُ كَامِلَةٌ، «أَسْلَمَ بِهَا» أَيِ بِسَبَبِهَا «مِنْ مَوَارِدِ الْجَهْلِ»: أَيِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْجَهْلِ. أَيِ جَهْلِ

كَانَ. فَأَلْوَرُودُ هُوَ الشُّرْبُ، وَالْمَوْرَدُ هُوَ مَحَلُّ الشُّرْبِ، وَيُجْمَعُ عَلَى مَوَارِدَ. شَبَّهَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْجَهْلَ بِمَاءٍ قَبِيحٍ، وَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّمَهُ بِمَعْرِفَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مِنَ الْوُقُوعِ فِي مَشْرِيبِهِ، أَوْ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ؛ وَهُوَ الشُّرْبُ مِنْ مَوَارِدِ الْعِلْمِ النَّافِعِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّهُ فَقَالَ: «وَأَكْثَرُ»: أَيِ أَشْرَبَ عَلَى قَمِيٍّ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ. فَالْكُرْعُ: هُوَ الشُّرْبُ عَلَى الْقَمِ، بِفَعْلِ الْمُتَعَطِّشِ اللَّهْفَانِ «بِهَا» أَيِ بِنَتِكَ الْمَعْرِفَةِ «مِنْ مَوَارِدِ» جَمَعَ مَوْرِدٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ الشُّرْبِ. أَيِ بِنَتِكَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ مَنَاهِلِ «الْفَضْلِ»؛ الَّتِي هِيَ الْعُلُومُ اللَّدْنِيَّةُ، وَالْأَسْرَارُ الرِّبَانِيَّةُ؛ الَّتِي تَكُونُ بِالْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ، لَا بِالْكَسْبِ وَالْخِدْمَةِ، وَلَا شَكَّ أَنْ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بِوَجِبِ حَقِّهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْهَلَ مِنْ مَنَاهِلِهِ؛ وَيَرِدَ مِنْ مَوَارِدِهِ، وَيَأْخُذَ قِسْطَهُ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي عَلِمَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْوَحْيِ أَوْ بِالْإِلْهَامِ لِأَنَّ «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَغْلُمُ، أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَغْلُمُ»^(١). شَبَّهَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِلْمَ اللَّدْنِيَّ بِأَنْحَرِ عَذْبَةٍ، يَرِدُ النَّاسُ مِنْهَا، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا بِلَا وَاسِطَةٍ، غَيْرِ وَاسِطَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى تَمْتَلِئَ عُرُوقُهُ وَأَضْلَاعُهُ وَأَوْصَالُهُ. «إِذِ الْقَتَاةُ مِنَ اللَّهِ حِزْمَانٌ». وَالْعِلْمُ لَا حَلَ لَهُ حَتَّى يُشَبَّعَ مِنْهُ. «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

ثُمَّ طَلَبَ السَّلُوكَ إِلَى خَضْرَةِ الْقُدْسِ، مَحَلِّ الْأَنْسِ فَقَالَ: «وَاحْمِلْنِي عَلَى سَبِيلِهِ»: أَيِ طَرِيقِهِ الْأَقْوَمِ، «إِلَى خَضْرَتِكَ»: أَيِ الْعُكُوفِ فِي مَشَاهِدَةِ جَمَالِ خَضْرَتِكَ. أَرَادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يَكُونَ فِي سَبِيلِهِ مُحْمُولاً عَلَى كَاهِلِ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، لَا حَامِلاً مُتَعَوِّباً؛ لِأَنَّ مِنْ حَمَلَتِهِ الْعِنَايَةَ الرِّبَانِيَّةَ، قَطَعَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يَقْطَعُهُ غَيْرُهُ فِي سِنِينَ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَلَيْسَ مَنْ كَانَ مُخْبَوِّباً، كَمَنْ كَانَ مُجَبِّباً، وَلَا مَنْ كَانَ مُجَذَّوِباً كَمَنْ كَانَ سَالِكاً. «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ». [الشورى: ١٣] «لَوْ كُنْتُ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَخَوٍ مَسَاوِيَتِكَ، وَقَطَعَ دَعَاوِيكَ، لَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَبَداً، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ، غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَتَغَتَّىكَ بِتَغَتِّيهِ، فَوَصَّلَكَ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لَا بِمَا مِنْكَ

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٤٢) [٢/٣٤٧].

إِلَيْهِ»^(١). وَالْحَضْرَةُ: هِيَ حُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ، أَوْ حُضُورُ الرُّوحِ أَوْ السِّرِّ مَعَ الْحَقِّ، فَهِيَ إِذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: حَضْرَةُ الْقَلْبِ لِلطَّالِبِينَ، وَحَضْرَةُ الرُّوحِ لِلسَّائِرِينَ، وَحَضْرَةُ الْأَسْرَارِ لِلوَاصِلِينَ. أَوْ تَقُولُ: حَضْرَةُ الْقُلُوبِ لِأَهْلِ الْمُرَاقَبَةِ، وَحَضْرَةُ الْأَرْوَاحِ لِأَهْلِ الْمَشَاهِدَةِ، وَحَضْرَةُ الْأَسْرَارِ لِأَهْلِ الْمُكَالَمَةِ. أَوْ تَقُولُ: حَضْرَةُ الْقُلُوبِ لِأَهْلِ الْبُرْهَانِ، وَحَضْرَةُ الْأَزْوَاجِ لِأَهْلِ الْعِيَانِ، وَحَضْرَةُ الْأَسْرَارِ لِأَهْلِ التَّمَكِينِ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْمُرِيدَ مَا دَامَ مُحْجُوباً عَلَى شُهُودِ نَفْسِهِ، وَهُوَ يُجَاهِدُ فِي حُضُورِ قَلْبِهِ مَعَ رَبِّهِ؛ فَهُوَ فِي حَضْرَةِ الْقُلُوبِ، وَإِذَا افْتَحَ عَلَيْهِ، غَابَ بِشُهُودِ رَبِّهِ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ. أَوْ تَقُولُ: غَابَ بِجَمْعِهِ فِي فَرْقِهِ؛ فَهُوَ فِي حَضْرَةِ الْأَرْوَاحِ. وَإِذَا تَمَكَّنَ وَرَجَعَ إِلَى الْبَقَاءِ بِحَيْثُ لَا يَحْجُبُهُ جَمْعُهُ عَنْ فَرْقِهِ، وَلَا فَرْقُهُ عَنْ جَمْعِهِ؛ فَهُوَ فِي حَضْرَةِ الْأَسْرَارِ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ، أَنَّ الرُّوحَ مَا دَامَتْ مِنْهُمْ كَمَا فِي الْعُقْلَةِ سُمِّيَتْ نَفْسًا. وَلَمْ تَدْخُلِ الْحَضْرَةَ قَط. فَإِذَا تَيَقَّظَتْ أَوْ اسْتَقَامَتْ، وَجَعَلَتْ تُجَاهِدُ نَفْسَهَا فِي الْحُضُورِ، سُمِّيَتْ قَلْبًا، لِتَقْلِبِهَا مِنَ الْعُقْلَةِ إِلَى الْحَضْرَةِ، وَمِنْ الْحَضْرَةِ إِلَى الْعُقْلَةِ، أَوْ لِتَقْلِبِهَا مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَمِنْ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَإِذَا وَصَلَتْ إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ، وَفُتِحَ عَلَيْهَا فِي مَقَامِ الْعِزِّاقَانِ، سُمِّيَتْ رُوحًا، لِرَاحَتِهَا مِنْ تَعَبِ الْحِجَابِ، وَدُخُولِهَا مَعَ الْأَخْبَابِ، وَإِذَا تَادَّبَتْ وَتَهَذَّبَتْ وَجَلِيَّتْ عَيْنَ بَصِيرَتِهَا، مِنْ غَبَشِ الْحَسَنِ، سُمِّيَتْ سِرًّا لِخَفَائِهَا عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ، أَوْ لَخَفَائِهَا صَاحِبِهَا عَنْ فَهْمِ النَّاسِ. إِذْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْوَلِيِّ، إِلَّا مَوْلَاهُ الْكَبِيرُ الْعَلِيِّ، أَوْ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الْوِلَايَةِ، فَأُضِيفَتْ الْحَضْرَةُ إِلَى الرُّوحِ، مَعَ اخْتِلَافِ تَسْمِيَّتِهَا، بِاخْتِلَافِ تَطَوُّرِهَا وَتَرْقِيَّتِهَا. فَقِيلَ حَضْرَةُ الْقُلُوبِ مَا دَامَتْ قَلْبًا، ثُمَّ حَضْرَةُ الْأَرْوَاحِ، مَا دَامَتْ رُوحًا، ثُمَّ حَضْرَةُ الْأَسْرَارِ، مَا دَامَتْ سِرًّا.

وَلَمَّا كَانَ الْحَمْلُ إِلَى الْحَضْرَةِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا إِذَا صَحِبَتْهُ النَّصْرَةُ، سَأَلَ ذَلِكَ الشَّيْخُ فَقَالَ: «حَمَلًا مَخْضُوفًا بِنُصْرَتِكَ»: أَيُّ يَكُونُ ذَلِكَ الْحَمْلُ مُدَوَّرًا بِنُصْرَتِكَ. أَيُّ حَفَّتْ بِهِ النَّصْرَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَحِبَتْهُ النَّصْرَةُ

والمعرفة في سَيرِهِ، بَلَغَ القصد والمأمُول، وَرَتَعَ في أَقرب سَاعَةٍ في حَضرة الوُصُول. والله ذُرُّ القَائِلِ:

إِذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ قَاصِرًا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ عَوْنٍ مُرَادُهُ
وَأَنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثُمَّ ذَكَرَ ثمرة الوُصُولِ؛ وَهِيَ الْغَيْبَةُ عَنِ السَّوَى، فَقَالَ: «وَأَفْذِفْ»: أي ازمِ
«بِي عَلَى الْبَاطِلِ»؛ وهو ما سوى الحق تعالى. وفي الحديث: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ
قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَيْبِدَ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَجِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ^(١)

شَبَّهَ السَّوَى الَّذِي هُوَ الْبَاطِلُ، بِحَيَوَانٍ لَهُ دِمَاعٌ، فَإِذَا أَصِيبَ دِمَاعُهُ مَاتَ.
وَلِذَلِكَ قَالَ: «فَأَذْمَعُهُ»: أي فَأصِيبُ دِمَاعَهُ. فَيَتَشَتَّى وَيَضْمَحِلُ. وَإِذَا زَهَقَ
الْبَاطِلُ جَاءَ الْحَقُّ. «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا
﴿٨١﴾. [الإسراء: ٨١] «فَلِلَّهِ رَبِّكَ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ». [يونس:
٣٢] وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مَفْقُودٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ. أَبِي الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ
يَشْهَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ. إِذْ مُحَالٌ أَنْ تَشْهَدَهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ. مَا حَبَبَكَ عَنِ
الْحَقِّ وَجُودِ مَوْجُودٍ مَعَهُ، إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا حَبَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ.

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ... وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعٌ

وَإِذَا ذَهَبَ عَنِ الْقَلْبِ شُهُودُ السَّوَى، غَرِقَ فِي بَحَارِ الْوَحْدَةِ. وَلِذَلِكَ
قَالَ: «وَرُجِّ بِي»: أي أَدْخِلْنِي. «فِي بَحَارِ الْأَحَدِيَّةِ»، فَالزُّجُّ فِي اللُّغَةِ: هُوَ
الْإِدْخَالُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَتَحْلِنِي الْحُبُّ فَلَوْ رُجِّ بِي فِي مُقْلَةِ النَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهْ

كَأَنَّ لِي فِيْمَا مَضَى خَتْمٌ وَالْآنَ لَوْ شِئْتُ تَمْنَطُفْتُ بِهِ

وَالْأَحَدِيَّةُ مُبَالِغَةٌ فِي الْوَحْدَةِ، أَيِ أَدْخِلْنِي فِي بَحَارِ أَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ

وَأَفْعَالِكَ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِالْجَمْعِ، إِذْ كُلُّ بَخْرٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، فَمَنْ غَرِقَ فِي بَخْرٍ تَوْحِيدِ الذَّاتِ، غَابَ عَنِ نَفْسِهِ عَنْ شُهُودِ السُّوَى، وَبَقِيَ بِجُودِ رَبِّهِ، وَمَنْ غَرِقَ فِي بَخْرٍ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ، غَابَ عَنْ صِفَةِ نَفْسِهِ، وَصِفَةِ غَيْرِهِ، وَبَقِيَ بِصِفَاتِ رَبِّهِ. وَمَنْ غَرِقَ فِي بَخْرٍ وَخِدةِ الْأَفْعَالِ غَابَ عَنِ فِعْله وَفِعْلِ غَيْرِهِ، وَخَرَجَ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَاخْتِيَارِهِ. إِذْ لَا يَدْبِرُ الْإِنْسَانُ مَا يَفْعَلُ غَيْرُهُ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْأَحَدِيَةِ الَّتِي هِيَ أَبْلَغُ مِنَ الْوَحْدَانِيَةِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا مِنَ التَّوْحِيدِ، مَا كَانَ ذَوْقاً وَحَالاً وَمَقَاماً، لَا مَا كَانَ عِلْماً وَاعْتِقَاداً، إِذْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْحِجَابِ: أَهْلِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ. وَفِي هَذَا الْمَقَامِ، قَالَ شَيْخُ شَيْخِنَا، سَيِّدِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمَجْدُوبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَا قَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هُنَا الْبُحُورُ إِلَيَّ تَغِيَّبِي

هَذَا مَقَامَ أَهْلِ التَّجْرِيدِ الْوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّي

إِذْ لَا يَخُوفُ هَذِهِ الْبُحُورَ، إِلَّا أَهْلُ التَّجْرِيدِ وَالْحُضُورِ. وَأَمَّا مَنْ تَنَسَّبَ ظَاهِرُهُ بِكَثْرَةِ الْأَسْبَابِ، فَلَا يَطْمَعُ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ هَذِهِ الْأَبْوَابَ. وَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنَا الْبُورْزِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَعْرِفَةُ الْمَتَسَبِّبِ، لَا تَقْرُبُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْمُتَجَرِّدِ. وَقَالَ أَيْضاً: الْمُتَجَرِّدُ الثَّاقِصُ، أَفْضَلُ مِنَ الْمَتَسَبِّبِ الْكَامِلِ، يَغْنِي الْمَتَهَذَّبُ. إِذِ الْمَتَسَبِّبُ لَا يَخْلُو بَاطِنُهُ مِنْ تَكْدِيرِ. وَسَمِعْتُ شَيْخَ شَيْخِنَا مَوْلَايَ الْعَرَبِي الدَّرَقَاوِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: فِكْرَةُ الْمُتَجَرِّدِ، أَمْنَعُ مِنْ فِكْرَةِ الْمَتَسَبِّبِ. أَيْ أَضْفَى وَأَبْلَغُ؛ لِأَنَّهَا نَاشِئَةٌ عَنِ الصِّفَاءِ، إِذْ صَفَاءُ الْبَاطِنِ، مِنْ صَفَاءِ الظَّاهِرِ، وَتَكْدِيرُ الْبَاطِنِ، مِنْ تَكْدِيرِ الظَّاهِرِ. وَهَذَا كُلُّهُ فِي حَقِّ السَّائِرِينَ.

وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ الْمُتَمَكِّنُونَ فَلَا كَلَامَ عَلَيْهِمْ. إِذْ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ بِاللَّهِ. وَعَلَيْهِ يُخْمَلُ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. إِذْ كَانَ فِيهِمُ الْمَتَسَبِّبُونَ، كَالصَّدِيقِ، وَالْفَارُوقِ، وَغَيْرِهِمَا. وَالْإِجْمَاعُ عَلَى تَفْضِيلِهِمَا، فَيُحْتَمَلُ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ كَمَالِ حَالِهِمْ. وَأَيْضاً: مُشَاهَدَتُهُمْ لِنُورِ النُّبُوَّةِ، مَنَعَتْهُمْ مِنَ الرُّكُودِ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهُ. فَنَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، تَخْرِجُهُ مِنْ عَوَالِمِهِ وَعَوَائِدِهِ فِي سَاعَةٍ وَاجِدَةٍ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَلَمَّا كَانَ رَاكِبُ الْبَحْرِ عَلَى خَطَرٍ، إِمَّا أَنْ يَسْلَمَ، وَإِمَّا أَنْ يَغْرُقَ، طَلَبَ

النجاة من العَرَقِ فِي بَحْرِ الْأَوْهَامِ، أَوْ فِي بَحْرِ الشُّكُوكِ وَالْخَوَاطِرِ، أَوْ فِي بَحْرِ الزُّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ فَقَالَ: «وَأَنْشُلْنِي»: أَيِ خَلَّصْنِي وَأَنْقِذْنِي «مِنْ أَوْحَالٍ» جَمَعَ وَحَلَ؛ وَهُوَ الْخَضْخَاضُ. أَيِ سَلَمْنِي مِنْ وَغِيضِ «التَّوْحِيدِ»، مِنْ إِضَافَةِ الْمَشْبَهِ بِهِ إِلَى الْمَشْبَه. أَيِ أَنْقِذْنِي مِنْ تَوْحِيدِ كَالْخَضْخَاضِ، بِأَنْ يَضْحَبَهُ تَكْدِيرٌ وَتَخْلِيضٌ، إِمَّا بِرُؤْيَا السُّوَى مَعَهُ؛ وَهُوَ تَوْحِيدِ الْعَوَامِّ؛ وَهُوَ مَكْدَرٌ بِالْأَوْهَامِ وَالشُّكُوكِ وَالْخَوَاطِرِ، وَإِمَّا بِأَعْيَادِ الْحُلُولِ وَالْإِتْحَادِ. فَإِنَّ بَغْضَ الْجَهْلَةِ، اعْتَقَدُوا السُّوَى، وَادَّعَوْا حُلُولَ الْأُلُوهِيَةِ فِيهِ. وَهُوَ مَذْهَبُ النَّصَارَى، وَبَغْضِهِمْ ادَّعَى وَجُودَ السُّوَى، لَكِنَّهُ اتَّحَدَ وَامْتَزَجَ مَعَ الْأُلُوهِيَةِ. وَهُوَ كُفْرٌ حَرَامٌ. جَاءَ فِي الْحُكْمِ يَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ؟ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَضْفُ الْقِدَمِ؟

أَهْلُ التَّحْقِيقِ لَمْ يَثْبُتُوا مَعَ الْحَقِّ سِوَاهُ، وَرَأَوْا الْكُلَّ مِنْهُ وَإِلَيْهِ، فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ، إِنَّ حَقَّقْتَهُ عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ. وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ: مَنْ لَا وَجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ^(١) فَإِنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَهُ الرِّجَالُ، فَحُطَّ رَأْسُكَ لِأَقْدَامِ الرِّجَالِ حَتَّى يَسْقُوكَ مِنْ التَّوْحِيدِ خُمْرَةَ صَافِيَةِ زُلِّلٍ، وَإِلَّا فَسَلِمَ لِأَهْلِ الْكَمَالِ

وَقَدْ شَبَّهُوا زَاكِبَ بَحْرِ التَّوْحِيدِ، بِزَاكِبِ الْبَحْرِ الْحَسِيِّ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُ السَّفِينَةِ رَئِيساً مَاهِراً أَوْى بِهِ إِلَى جَبَلِ السَّنَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَكَانَ مِنَ النَّاجِحِينَ

(١) هذا البيت من قصيدة للقطب شعيب بن الحسن الاندلسي التلمساني أبو مدين المتوفي سنة ٥٩٤ هجرية والقصيدة هي

إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
عدم على التفصيل والإجمال
لولاه في محو وفي اضمحلال
فوجوده لولاه عين محال
شيئاً سوى المتكبر المتعال
في الحال والماضي والاستقبال
شيئاً سوى فعل من الأفعال
نظراً تؤيده بالاستدلال
بلسان حال أو لسان مقال

الله قل وذو الوجود وما حوى
فالكل دون الله إن حققته
واعلم بأنك والعوالم كلها
من لا وجود لذاته من ذاته
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً
فالمح بعقلك أو بطرفك هل ترى
وانظر إلى علو الوجود وسفله
تجد الجميع يشير نحو جلاله

النَّاجِينَ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ السَّفِينَةِ جَاهِلًا بِالْبَحْرِ، آوَى بِهِ إِلَى جَبَلٍ عَقْلِهِ وَحَدْسِهِ، فَالْتَطَمَتْ بِهِ الْأَمْوَاجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُوقِينَ.

وَلَمَّا طَلَبَ النُّجَاةَ مِنَ الْعَرَقِ فِي بَحْرِ التَّخْلِيلِ، طَلَبَ الْعَرَقَ فِي بَحْرِ الصُّفَاءِ؛ وَهِيَ الْوَحْدَةُ الْحَقِيقِيَّةُ. فَقَالَ: «وَأَغْرَقْنِي فِي عَيْنِ»: أَيْ فِي حَقِيقَةِ «بَحْرِ الْوَحْدَةِ»: أَيْ فِي وَسْطِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ. وَالْمُرَادُ أَنْ يَغِيبَ فِي شَهْوَةِ الذَّاتِ وَحَدِّهَا. فَيَكُونُ مُتَهَمَكًا فِي الْحَقِيقَةِ، غَائِبًا فِي وُجُودِهِ بِوُجُودِ مَشْهُودِهِ، كَمَا قَالَ الْجُنَيْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ
وَأَنْ غَابَ فِي الْحَقِّ، كَانَ أَمْرُهُ كُلُّهُ بِهِ لَا يَنْفُسِيهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ: «حَتَّى لَا أَرَى» إِلَّا بِالذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، «وَلَا أَسْمَعُ» إِلَّا بِهَا وَمِنْهَا. كَمَا قَالَ الشُّشْتَرِي: أَنَا بِاللَّهِ أَنْطِقُ وَمِنَ اللَّهِ أَسْمَعُ وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «فَإِذَا أُخْبِتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»^(١) الْحَدِيثُ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «فَإِذَا أُخْبِتُهُ كُنْتُ». وَإِلَى تَمَامِهِ أَشَارَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا أَجِدُ» فِي بَاطِنِي، مِنْ فَرَحٍ أَوْ حُزْنٍ أَوْ قَبْضٍ أَوْ بَسْطٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُجْدَانِيَّاتِ الْبَاطِنِيَّةِ. «وَلَا أَحْسُ» مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ، أَوْ لَيُونَةٍ أَوْ حُرُوشَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ الظَّاهِرَةِ. «إِلَّا بِهَا»: أَيْ بِعَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ، وَعَبَّرَ بِهَا عَنِ الذَّاتِ الْعَالِيَةِ، فَيَكُونُ فِعْلُهُ كُلُّهُ بِاللَّهِ، وَمِنَ اللَّهِ. وَهَذَا هُوَ الْمُعْبَّرُ عَنْهُ بِمَقَامِ الْفَنَاءِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُرِيدَ بِعَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ، مَظْهَرِ الْإِنْسَانِ. فَبَحْرِ الْوَحْدَةِ؛ هُوَ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. [الإسراء: ٦٠] وَعَيْنُ ذَلِكَ الْبَحْرُ هُوَ وَجُودُ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّهُ جَوْهَرَةُ الصُّدْفِ، وَلَبَّ الْكَائِنَاتِ، فَإِذَا عَرَفَ اللَّهُ فِيهِ، وَغَرِقَ فِي بَحْرِهِ، فَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ فِي غَيْرِهِ، مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، عَرَفَ رَبَّهُ، فَتَأَمَّلْ.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَقَامِ الْفَنَاءِ فَقَالَ: «وَأَجْعَلِ الْحِجَابَ الْأَعْظَمَ». هُوَ النَّبِيُّ ﷺ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (٦١٣٥)
[٢٣٨٤/٥] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء... حديث (٣٤٧) [٥٨/٢] ورواه غيره ما.

وقد تقدّم من قوله: «وَجِبَابُكَ الْأَعْظَمُ»: أي اجعل شهودك الحجاب الأعظم. «حَيَاةَ رُوحِي». أي سبب حياتها؛ لأنّ مَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ الْوَحْدَةِ، وَأَنْكَرَ الْوَاسِطَةَ، وَأَثَبَتِ الْحِكْمَةَ، وَأَبْطَلَ الشَّرِيعَةَ، فَتَزَلَدَقَ وَالْحَدَّ، وَمَاتَتْ رُوحُهُ. وَمَنْ أَقْرَأَ الْوَاسِطَةَ، وَأَثَبَتِ الْحِكْمَةَ، حَيْثُ رُوحُهُ، وَبَقِيَتْ مَنَعَةً فِي خَضْرَا الشُّهُودِ، عَلَى نَعْتِ الْهَيْبَةِ وَالْأَدَبِ، مَعَ الْمَالِكِ الْمَعْبُودِ، فَيَكُونُ بَاطِنُهُ يَشَاهِدُ الْقُدْرَةَ، وَظَاهَرُهُ يَشَاهِدُ الْحِكْمَةَ. أَوْ تَقُولُ: بَاطِنُهُ حُرِّيَّةٌ، وَظَاهَرُهُ عِبُودِيَّةٌ. أَوْ تَقُولُ: بَاطِنُهُ جَذَبٌ، وَظَاهَرُهُ سُلُوكٌ. أَوْ تَقُولُ: بَاطِنُهُ حَقِيقَةٌ. وَظَاهَرُهُ شَرِيعَةٌ. فَهُوَ الَّذِي تَكُونُ رُوحُهُ حَيَّةً بَاقِيَةً، لَا تَفْتَرُ وَلَا تَبِيدُ. حَتَّى تَرِدَ يَوْمَ الْمَزِيدِ، وَاعْلَمْ أَنَّ إِنْكَارَ الْوَاسِطَةِ، قَدْ يَطْرُقُ بَعْضُ الْمُرِيدِينَ عِنْدَ اسْتِشْرَافِهِمْ عَلَى الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، وَعِنْدَ الْجَذْبَةِ الْأُولَى، لَكِنْ لَا يَدُومُ ذَلِكَ، إِلَّا لِمَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْخٌ، أَوْ خَرَجَ عَنْهُ قَبْلَ التَّرْشِيدِ. وَأَمَّا مَا دَامَ فِي حَضَانَةِ الشَّيْخِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُخْرِجَهُ إِلَى الْبَقَاءِ، كَمَا يُخْرِجُ فَصْلَ الشِّتَاءِ بِدُخُولِ فَصْلِ الرَّبِيعِ، وَفَضْلَ الرَّبِيعِ، بِدُخُولِ فَصْلِ الصَّيْفِ، وَهَكَذَا.

وَالْمُرَادُ بِالْوَاسِطَةِ: الْقَبْضَةُ الثُّورَانِيَّةُ الَّتِي تَكْتَفَتْ وَبَرَزَتْ مِنَ الْجَبَرُوتِ، وَسُمِّيَتْ مُحَمَّدًا ﷺ. فَمَنْ أَلْحَقَهَا بِأَصْلِهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ إِظْهَارِهَا، أَنْكَرَ الْوَاسِطَةَ، وَكَانَ نَاقِصًا أَوْ سَاقِطًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى حِكْمَةِ إِظْهَارِهَا، وَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، مَمْنُوءَةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ، أَقْرَأَهَا بِاللَّهِ، وَأَقَامَ بِحَقُوقِهَا، وَهِيَ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا وَجُودًا، وَالْعَيْتَةِ عَنْهَا شُهُودًا.

وَالْوَاسِطَةُ مِنْ عَيْنِ الْمَوْسُوطِ. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الْوَاسِطَةِ، وَحُجِبَ عَنِ الْمَوْسُوطِ، كَانَ جَاهِلًا بِاللَّهِ، غَيْرَ عَارِفٍ بِهِ، وَمَنْ حُجِبَ بِالْوَاسِطَةِ عَنِ الْمَوْسُوطِ، فَإِنْ كَانَ مَجْذُوبًا غَائِبًا، كَانَ نَاقِصًا، وَإِنْ كَانَ صَاحِبًا كَانَ سَاقِطًا. وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا كَانَ مُحَقِّقًا كَامِلًا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَلَمَّا طَلَبَ حَيَاةَ رُوحِهِ، بِشُهُودِ ظَاهِرِ الْحِجَابِ الْأَعْظَمِ؛ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ؛ طَلَبَ تَصْفِيَّتَهَا، حَتَّى تَنْقَلِبَ سِرًّا بِشُهُودِ بَاطِنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهُوَ رُوحُهُ فَقَالَ: «وَرُوحَهُ سِرٌّ حَقِيقَتِي»: أي واجعل شهود روجه، سبب سر حقيقتي، أي سبب انقلاب روعي سرًّا، فَحَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ هِيَ رُوحُهُ.

والحاصل: أن النظر إلى ظاهره عليه الصلاة والسلام يُفيد تحقيق الشريعة؛ وهو سبب حياة الروح. والنظر إلى باطنه عليه السلام، يُفيد تحقيق الطريقة، وبها تكون تصفية الروح، حتى تكون سراً، بعد أن كانت نفساً، ثم عقلاً، ثم قلباً، ثم روحاً، فإذا تهذبت صارت سراً.

وأما النظر إلى جملته عليه الصلاة والسلام يغني ظاهره وباطنه، فيُفيد تحقيق الحقيقة، وبها يكون تصفية السر، وإليه أشار بقوله: «وَحَقِيقَتُهُ وَجَامَعُ عَوَالِمِي»: أي واجعل شهود حقيقته كلها، بظاهرها وباطنها، بجميع عوالمها الباطنية؛ وهو العلم والفهم، والفكر والعقل، والنظر والاعتبار، فتكون عوالمها كلها منحصرة في الحقيقة المحمدية؛ وهي القبضة الجبروتية، أو المظهر الجبروتي، مع النظر إلى الجبروت الأصلي، كما يأتي بعدها.

والحاصل: أن ظاهره عليه السلام مُلك، وباطنه ملكوت والجمع بينهما جبروت. فطلب أولاً النظر إلى ملك ظاهره عليه السلام، لتحقيق شريعته. وطلب ثانياً النظر إلى ملكوت باطنه عليه السلام؛ لتحقيق طريقته، فتكون سلماً للإشراق نور حقيقته، وطلب ثالثاً النظر إلى جبروت جملته عليه السلام، لتكمل حقيقته.

وإن شئت قلت: طلب أولاً بقوله: واجعل الحجاب الأعظم، حياة رُوحِي - الافتداء بظاهره. إذ هو سبب لحياة الروح حساً ومعنى؛ وهو محل التشريع، فيكون كلام الشيخ حينئذ على حذف مضافين. أي واجعل شهود ظاهر الحجاب الأعظم، لكن إذا أطلق الكلام، إنما ينصرف إلى الظاهر، فلا يحتاج إلى تقدير المضاف الثاني، وطلب ثالثاً بقوله: وروحه سر حقيقي الاقتداء بباطنه عليه السلام. وهو محل تصفية الروح. إذ كل من نظر إلى باطنه عليه السلام ورأى ما كان عليه من كمال الأخلاق، انجز إلى الاقتداء به عليه السلام. وهو عمل الطريقة. وطلب ثالثاً بقوله: «وَحَقِيقَتُهُ وَجَامَعُ عَوَالِمِي». الجمع بين الاقتداء بالظاهر والباطن، وبذلك تتوزع الحقيقة، ويظهر سرها.

أو تقول: طلب أولاً تحقيق مقام الإسلام، بشهود ظاهره عليه السلام، وطلب ثانياً بتحقيق مقام الإيمان، بشهود باطنه عليه السلام. وطلب ثالثاً تحقيق

مقام الإحسان، بشهود حقيقته عليه السلام.

أو تقول: طلب أولاً شهوده عليه السلام من جهة ملكه. وثانياً: شهوده من جهة ملكوته. وثالثاً: شهوده من جهة جبروته، وهذا أحسن من ذلك إن شاء الله، لأن الشيخ رضي الله عنه، لما طلب الرجوع إلى البقاء، بشهود الواسطة، طلب أن يكون رجوعه إليها بشهود ملكها وملكوتها وجبروتها، ولذلك ضم جبروت الواسطة، إلى جبروت الموسوط فقال: «بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ» الباء للتغذية، والحق الأول: الشهود السابق في عالم الأرواح يوم «الْأَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: أي حَقُّهُ الْآنَ حتى استحضره، أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى دَوَامِ الشُّهُودِ، أو الباء للمعية. والحق الأول: هو شهود الربوبية والاستغراق في الوجدانية. أو الباء للقسَم، والحق الأول هو الله تعالى، إذ هو السابق على كل حق، ومنه كان كل حق.

وأعود إلى الْمَعْنَى: بتحقيق، أي مع تحقيق الحق الأول؛ وهو الجبروت الأصلي، فالْبَاءُ بِمَعْنَى مَعَ. كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ذَلَّلْنَا بِكُنُوفٍ أَلْمَاضِيَّةِ﴾ [المائدة: ٦١] أي مَعَهُ. فَطَلَبَ أَنْ تَكُونَ عَوَالِمُهُ مُنْصَرَفَةً إِلَى جَبَرُوتِ الْوَاسِطَةِ مَعَ النَّظَرِ إِلَى جَبَرُوتِ الْمَوْسُوطِ؛ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ؛ وَهُوَ الْحَقُّ الْأَوَّلُ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ جَبَرُوتِ الْوَاسِطَةِ، وَجَبَرُوتِ الْأَصْلِ أَنْ جَبَرُوتِ الْوَاسِطَةِ، مُحْجُوبٌ بِالْحِكْمَةِ، مُغْطًى بِرَدَائِ الْعِزِّ وَالْقَهْرِ، فَظَاهِرُهُ حِكْمَةٌ، وَبَاطِنُهُ قُدْرَةٌ، فَمَنْ ضَمَّ جَبَرُوتَ الْفَرْعِ، إِلَى جَبَرُوتِ الْأَصْلِ مُطْلَقاً، مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ الْحِكْمَةِ، وَرَدَائِ الْقَهْرِ، وَقَعَ فِي الزُّنْدَاقَةِ؛ لِإِبْطَالِهِ الْأَحْكَامَ وَالْحِكْمَةَ، وَخَزَقَهُ رَدَاءُ الْعِزَّةِ الْقَهْرِيَّةِ. وَمَنْ ضَمَّهَا مَعَ مُرَاعَاةِ الْحِكْمَةِ، وَرَدَائِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعِزَّةِ، كَانَ إِمَاماً كَامِلاً جَامِعاً، يَصْلُحُ لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّرْقِيَةِ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ، بِمَنْه.

«يَا أَوَّلُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ». «يَا آخِرُ، بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ». «يَا ظَاهِرُ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ». «يَا بَاطِنُ، دُونَ كُلِّ شَيْءٍ». هَكَذَا فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ. وَلَفْظُهُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أَقْضِ عَنِّي الدِّينَ» فَعَبَّرَ بِالْأَوَّلِيَّةِ عَنِ الْقَدَمِ، وَبِالْآخِرِيَّةِ عَنِ الْبَقَاءِ، وَبِالظُّهُورِ عَنِ

التجلي، وبالبطون عَنِ الحجاب بِالْحِكْمَةِ وَرَاءَ القهرية؛ فهو ظَاهِرٌ فِي بطونه، باطِنٌ فِي ظُهورِهِ، فَاسْمُهُ الظَّاهِرُ يَمْحُو ظُهُورَ السَّوَى وَيُطْنَهُ. إِذْ لَا ظَاهِرَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاسْمُهُ الْبَاطِنُ، يَقْتَضِي ظُهُورَ تَجْلِيَّاتِهِ، لِيَكُونَ بَاطِنًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى جِسْمِهَا الظَّاهِرِ. فَلَوْ بَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْبُطُونِ، مَا عُرِفَ وَلَا عَبْدٌ. وَفِي الْحِكْمِ^(١): لَا أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الْبَاطِنُ، وَطَوَى كُلَّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ الظَّاهِرُ.

وقال فِي آخِرِ الْمُنَاجَاةِ: كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ. وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْحَضَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. يَقْتَضِي انْفِرَادَهُ بِالظُّهورِ دُونَ غَيْرِهِ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: هُوَ الْأَوَّلُ، هُوَ الْآخِرُ، هُوَ الظَّاهِرُ، هُوَ الْبَاطِنُ دُونَ غَيْرِهِ. فَكُلُّ مَا ظَهَرَ فَهُوَ هُوَ، وَكُلُّ مَا بَطَنَ فَهُوَ هُوَ. أَوْ تَقُولُ: هُوَ ظَاهِرُ كُلِّ مَا بَطَنَ، وَبَاطِنُ كُلِّ مَا ظَهَرَ مِنَ الْأُلُوهِيَةِ، إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ، أَوْ تَقُولُ: هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ جِهَةِ التَّعْرِيفِ، وَالْبَاطِنُ مِنْ جِهَةِ التَّكْثِيفِ. إِذْ إِنْ كُنْهُ الرُّبُوبِيَّةُ لَا يُكَيِّفُ. أَوْ تَقُولُ: ظَاهِرُ بَقْدَرَتِهِ، بَاطِنٌ بِحِكْمَتِهِ. أَيْ سَبَبُ حِكْمَتِهِ، فَقَدْ أَظْهَرَ الْحِكْمَةَ، وَأَبْطَنَ الْقُدْرَةَ، إِلَيْهِ أَشَارَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ بِقَوْلِهِ:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمِهِ لَا يُبْصِرُ الْقَمَرَ

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحِكْمَةَ عَيْنُ الْقُدْرَةِ، وَالْقُدْرَةُ عَيْنُ الْحِكْمَةِ، إِذِ الْفَاعِلُ وَاحِدٌ. وَسَآذِرُكَ لَكَ شَيْئًا مِنْ بَخْرِ الْقُدْرَةِ، وَشَيْئًا مِنْ بَخْرِ الْحِكْمَةِ، لِيُظْهِرَ لَكَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا، مَعَ اتِّحَادِهِمَا مَحَلًّا، فَتَقُولُ: وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ:

بَخْرُ الْقُدْرَةِ، بَخْرُ زَاجِرٍ، وَأَمْرُهُ قَاهِرٌ، لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ، يُظْهِرُ وَيُطْنُ، وَيَحْرُكُ وَيَسْكُنُ، وَيَقْبِضُ وَيَذْفَعُ، وَيُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيَخْفِظُ وَيَرْفَعُ، بِإِيدِهِ مَقَادِيرُ الْأُمُورِ، وَعَلَى قُطْبِ دَائِرَتِهِ الْأَفلاكُ تَدُورُ، أَصْلُ الْفُرُوعِ، وَفُرُوعُ الْأَصُولِ، وَإِلَيْهِ يَنْتَهِي الْوُصُولُ. تُطِيرُ إِلَيْهِ قُلُوبُ الْمُشْتَاقِينَ، وَتَعُومُ فِي طَرَفِ لُجَّتِهِ أَرْوَاحُ السَّائِرِينَ، وَتَخُوضُ فِي بَخْرِ لُجَّتِهِ الْأَصَالِينَ، وَلَا تَعْرِفُ كُنْهَ

(١) العطائية للشيخ. أحمد بن عطاء الله السكندري.

عظمته قلوبُ العارفين؛ غايَةُ مُنتَهَاها الدَّهْش والحَيَرَة، ثم العكوف فهي الحَضَرَة.

وأما بخرِ الحِكْمَة؛ فهو أيضاً: بَخَرٌ زَاخِرٌ، وأمره ظَاهِرٌ، يُظْهِرُ الأسبابَ، وَيُسْذِلُ الحجابَ، يَرْبِطُ الأحكامَ بِالْعِلَلِ، وَيَقَرِّرُ الشَّرَائِعَ وَالْمِلَلِ، يُعْطِي مَا يَنْبَرُزُ مِنْ عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، وَيَسْتَرُ مَا يَبْدُو مِنْ أَسْرَارِ الرِّبَوِيَّةِ بِعِزِّ كِبَرِيَّائِهِ، يُنَوِّرُ الطَّرِيقَةَ، وَيَصُوِّقُ الحَقِيقَةَ، يُظْهِرُ العبوديةَ، وَيَبْطِنُ الحريةَ، مَنْ وَقَفَ مَعَهُ كَانَ مَخْجُوباً، وَمَنْ نَفَدَ مِنْهُ إِلَى بَحْرِ الْقُدْرَةِ، كَانَ وَاصِلاً مُجْذُوباً، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمَا مَعاً، كَانَ كَامِلاً مُحِبَّوياً، وبالعناية مصحوباً.

واعلم أَنَّ الْقُدْرَةَ وَالْحِكْمَةَ، كل واحدة تنادي على صَاحِبَتَيْهَا، بِلِسَانِ حَالِهَا. أمَّا القدرة فتقول للحِكْمَة: أَنْتِ تَحْتَ قَهْرِي وَمَشِيتِي، لَا تَفْعَلِي إِلَّا مَا أَسَاءُ، وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَّا مَا أُرِيدُ، فَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافِي رَدَدْتُكَ، وَإِنْ سَبَقْتَنِي أَدْرَكْتُكِ. وتقول الحِكْمَة للقدرة: أَنْتِ تَحْتَ حُكْمِي، وَعِنْدَ أَمْرِي وَنَهْيِي، فَإِنْ عَصَيْتَنِي أَذْبَتُكِ، وَرُبَّمَا قَتَلْتُكِ، فَإِنْ بَرَزْتَ الْقُدْرَةُ مُوَافِقَةً لِلْحِكْمَةِ، كَانَ ذَلِكَ علامةَ الجَمَالِ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، وَإِنْ بَرَزْتَ القدرة مخالفةً لِلْحِكْمَةِ، كَانَ علامةَ الجَلَالِ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً؛ لِأَنَّ الحِكْمَةَ مَنْوُطُ الشَّرِيعَةِ، وَالْقُدْرَةُ مُحَلُّ الحَقِيقَةِ. فَإِذَا خَلَقْتَ الحَقِيقَةَ الشَّرِيعَةَ، كَانَ مَعْصِيَةً؛ وَهِيَ سَبَبُ الجَمَالِ، وَالإِنْسَانُ دَائِرُ بَيْنِ قُدْرَةٍ وَحِكْمَةٍ، كَمَا هُوَ دَائِرُ بَيْنِ حَقِيقَةٍ وَشَّرِيعَةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ مَطْلُوبَهُ بِالنِّدَاءِ فَقَالَ: «اسْمَعْ نِدَائِي» سَمَاعٌ قَبُولٌ، أَيْ أَجِبْ دَعَائِي. «بِمَا سَمِعْتَ»: أَيْ بِأَلْوَجْهِ الَّذِي سَمِعْتَ «بِهِ نِدَاءَ عَبْدِكَ زَكْرِيَاءَ»؛ وَهُوَ سُرْعَةُ الإِجَابَةِ، عَلَى وَجْهِ خَزَقِ الْعَادَةِ، فَقَدْ وَهَبَ لَهُ وَلَدًا مِنْ صُلْبِهِ، مَعَ يَأْسِ أَهْلِهِ، وَكِبَرِ سِنِّهِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ لَطَلَبِ الْوَارِثِ الرُّوحَانِيِّ، فَكَانَ الشَّيْخُ خَافَ أَنْ يَنْقَطِعَ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ، حَيْثُ لَمْ يَتْرَكَ وَارِثًا لِسِرِّهِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، بِأَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ، فَأَخَذَ سِرَّهُ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَقَدْ انْتَشَرَتِ الطَّرِيقَةُ الشَّاذِلِيَّةُ، انْتَشَارَ الشُّمُسِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَكَثُرَ أَتْبَاعُهَا شَرْقاً وَغَرْباً، كُلُّ ذَلِكَ فِي صَحِيفَةِ الشَّيْخِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أَتْبَاعُهُ. فَأَقْدَرُ بِذَلِكَ قَدَرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثم كَمَلَ مطلوبه فَقَالَ: «وانصُرني»: أي قَوْنِي وَأَعِني فِي الظَّاهِر بِكَ، لَا بِوَاسِطَةِ شَيْءٍ، لِأَكُونَ عَبْدًا خَالصًا لَكَ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ إِذَا كَانَ بِوَاسِطَةٍ، رُبَّمَا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَى مَحَبَّةِ الْوَاسِطَةِ، فَتُحْجَبُ عَنِ الْمَوْسُوطِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ بِلَا وَاسِطَةٍ، أَوْ غَائِبًا عَنْهَا، كَانَ عَبْدًا حَقِيقًا، لَانْحِصَارِ الْمَحَبَّةِ فِي النَّاصِرِ الْحَقِيقِيِّ. «وَأَيْدِنِي» أَي قَوْنِي فِي الْبَاطِنِ «بِكَ» لَا بِرُؤْيَا غَيْرِكَ «لَكَ»: أَي لِأَكُونَ عَبْدًا خَالصًا لَكَ، فَتَقَرَّرَ أَنَّ النَّصْرَ فِي الظَّاهِرِ، بِمُوَافَقَةِ الْأَسْبَابِ، وَالتَّأْيِيدُ فِي الْبَاطِنِ، بِرَفْعِ الْحِجَابِ، وَمُوَافَقَةِ الصَّوَابِ. وَقِيلَ: النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ مُتَرَادِفَانِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا تَفْتُنٌ فِي الْعِبَارَةِ. وَالتَّحْقِيقُ: الْأَوَّلُ. وَيُؤَافِقُ النَّصْرُ: الْهِدَايَةُ. وَيُؤَافِقُ التَّأْيِيدُ: التَّوْفِيقُ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ النَّصْرَ وَالهِدَايَةَ وَالتَّأْيِيدَ وَالتَّوْفِيقَ مَحَلُّهَا الْقُلُوبُ. لَكِنِ النَّصْرُ وَالهِدَايَةُ، يَظْهَرُ أَكْثَرُهُمَا عَلَى الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ. فَتَهْدِي إِلَى الطَّهَارَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَتَقْوِي عَلَى الْمُوَاطَّاعَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ. وَالتَّأْيِيدُ وَالتَّوْفِيقُ: يَظْهَرُ أَثَرُهُمَا عَلَى الْعَوَالِمِ الْبَاطِنِيَّةِ، فَتَتَخَلَّى عَنِ الرَّذَائِلِ، وَتَتَحَلَّى بِأَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ؛ الَّتِي هِيَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، وَالرُّضَى وَالتَّسْلِيمِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَقْدَمُ ذِكْرُهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم ذَكَرَ ثَمَرَةَ النَّصْرِ، وَالتَّأْيِيدِ؛ وَهُوَ الْجَمْعُ عَلَى اللَّهِ، وَالْعَيْنَةُ عَمَّا سِوَاهُ، عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِغْرَاقِ وَالِدَّوَامِ فَقَالَ: «وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ» طَلَبَ دَوَامَهُ وَاتِّصَالَهُ، وَإِلَّا فَالْجَمْعُ حَاصِلٌ لَهُ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّدُ الْبَيْنَى أَيْقَى اللَّهُ﴾ [الاحزاب: ١].

وَالْجَمْعُ: شُهُودُ الرِّبَوِيَّةِ مُتَّصِلَةً عَلَى الدَّوَامِ. وَالْفَرْقُ: شُهُودُ الْعِبَادِيَّةِ مُنْفَصِلَةً عَلَى الدَّوَامِ. أَوْ تَقُولُ: الْجَمْعُ، شُهُودُ الْقُدْرَةِ وَحْدَهَا. وَالْفَرْقُ: شُهُودُ الْحِكْمَةِ وَحْدَهَا. فَأَهْلُ الْجَذْبِ وَالْفَنَاءِ: لَا يَشْهَدُونَ إِلَّا الْجَمْعَ، وَأَهْلُ السَّلُوكِ قَبْلَ رَفْعِ الْحِجَابِ، لَا يَشْهَدُونَ إِلَّا الْفَرْقَ، وَأَهْلُ الْبَقَاءِ يَشْهَدُونَ الْجَمْعَ فِي عَيْنِ الْفَرْقِ. وَالْفَرْقُ فِي عَيْنِ الْجَمْعِ، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ فِي فَرْقِهِمْ. مَفْرُوقُونَ فِي جَمْعِهِمْ، لَا يَحْجُبُهُمْ جَمْعُهُمْ عَنْ فَرْقِهِمْ، وَلَا فَرْقُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَلَمَّا طَلَبَ الْجَمْعَ عَلَى الدَّوَامِ، طَلَبَ نَفْيَ ضِدِّهِ؛ وَهُوَ الْفَرْقُ فَقَالَ:

«وَحُلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ غَيْرِكَ» شهود غيرك: هو الغفلة عَنِ المَعْرِفَةِ. وَإِلَّا فَلَا غَيْرَ. فَكَأَنَّهُ طَلَبَ الْحِيلُولَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَقْلَةِ؛ الَّتِي تُثَبِّتُ الْغَيْرِيَّةَ، أَوِ الْحِيلُولَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَهْمِ، إِذْ هُوَ الَّذِي يَثْبِتُ الْغَيْرِيَّةَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنَا الْبُوزِيدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرًا مَا يَقُولُ: «وَاللَّهُ مَا حَجَبَ النَّاسَ عَنِ اللَّهِ إِلَّا الْوَهْمُ، وَالْوَهْمُ: أَمْرٌ عَدِيمٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ». يَغْنِي أَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا وُجُودَ السَّوَى، وَلَا وُجُودَ لِلْسَّوَى. «اللَّهُ» هَذَا التَّحْقِيقُ لِلْجَمْعِ الَّذِي طَلَبَ. وَحُذِفَ النِّدَاءُ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْبُعْدِ، لَا بُعْدَ مَعَ الْجَمْعِ. وَكَرَّرَ (اللَّهُ) ثَلَاثَةً، عَلَى عَدَدِ الْعَوَالِمِ الثَّلَاثَةِ، «الْمُلْكُ، وَالْمَلَكُوتُ، وَالْجَبَرُوتُ». فَكُلُّ مَرَّةٍ يُفْنِي بِهَا عَالَمًا، وَيَرْتَقِي إِلَى آخَرٍ. حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِالثَّلَاثَةِ: فِي عَالَمِ الْجَبَرُوتِ. فَإِذَا قَالَ: اللَّهُ أَوَّلًا، أَفْنَى عَالَمَ الْمُلْكِ، وَإِذَا قَالَهَا ثَانِيًا، أَفْنَى عَالَمَ الْمَلَكُوتِ، وَإِذَا قَالَهَا ثَالثًا، خَافَ الْجَبَرُوتُ، وَاسْتَقَرَّ فِيهِ، وَسَمِعَتْ شَيْخَنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: اللَّهُ، فَصَمَ بِهِ الْكَوْنُ كُلُّهُ إِذَا تَلَقَّاهُ مِنَ الشَّيْخِ. وَالْقَصَمُ: الْهَلَاكُ وَالذَّهَابُ. وَكَانَ شَيْخُ شَيْوَخِنَا سَيِّدِي عَلِي يَقُولُ: مَا ظَنُّ أَحَدٍ، أَنَّ الْكَوْنَ يَذُوبُ إِذَا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

قلت: وما قاله الشَّيْخَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صَحِيحٌ، فَإِذَا قُلْتُ: اللَّهُ، وَتَوَجَّهْتَ بِقَلْبِكَ إِلَى الْكَوْنِ، مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرْشِ، ذَابَ وَتَلَاشَى، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ، فَجَزَّاهُمَا اللَّهُ عَنَّا خَيْرًا، وَيُؤْخَذُ مِنْ تَكَرُّرِ الشَّيْخِ لِهَذَا الْاسْمِ الْعَظِيمِ، جَوَازُ تَكَرُّرِ هَذَا اللَّفْظِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَيْهِ فِي الذِّكْرِ؛ وَهُوَ التَّحْقِيقُ، خِلَافَ مَا ذَكَرَ الْحَطَّابُ، عَنْ عَزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، وَلَعَلَّهُ قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِيَ بِالشَّيْخِ.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً في البداية والنهاية. والمنع مطلقاً. والتفصيل يجوز في النهاية، ولا يجوز في البداية. والمشهور الأول. قال في لطائف المِثْنِ: وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُرْسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْضُرُ عَلَيْهِ كَثِيرًا، وَيَقُولُ: هُوَ سُلْطَانُ الْأَسْمَاءِ. وَقَالَ الْيُوسُفِيُّ: ثَمَرَةُ هَذَا الْاسْمِ، مَعْرِفَةُ الذَّاتِ، وَقَدْ تَوَلَّاهُ أَبُو الْحَسَنِ التُّورِيُّ، فَبَقِيَ أَيَّامًا يَقُولُ: اللَّهُ. اللَّهُ. اللَّهُ. لَا يَفْتَرُ. وَلَا يَأْكُلُ، وَلَا يَشْرَبُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلْجَنِّيدِ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ تَقُولُهُ بِنَفْسِكَ فَأَنْتَ مُشْرِكٌ، وَإِنْ كُنْتَ تَقُولُهُ بِاللَّهِ فَلَنْتَ أَنْتَ الْقَائِلُ. فَمَا هَذَا التَّوَلُّهُ؟ فَسَكَتَ، وَقَالَ: نِعْمَ الطَّيِّبُ أَنْتَ.

ولمَّا كَانَ الجَمْعُ الحَقِيقِي، الَّذِي تَصَحُّبُهُ النَّصْرَةُ والسُّرُور، وَلَا تَغْتَرِيهِ غَفْلَةٌ وَلَا فَتَوْرٌ، إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ الْبَغْيِ وَالتُّشُورِ، ثَلَا عَلَى رُوحِهِ هَذِهِ الْآيَةُ، عَلَى مَذْهَبِ تَفْسِيرِ أَهْلِ الْإِشَارَةِ، تَسْلِيَةٌ لَهَا فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَاذُ﴾ [القصاص: ٨٥] أَيُّ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ لِرَأْدِكَ إِلَى مَعَادٍ عَظِيمٍ، فَتَصِلُ بِمَحْبُوبِكَ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَمَّا دَارُ الدُّنْيَا فَهِيَ دَارُ أَهْوَالٍ وَمَنْزِلِ فَرْقَةٍ وَانْتِقَالٍ، لَا تَسْتَغْرِبُ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ. فَإِنَّمَا أَتَرَزَّتْ مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَضَفَهَا، وَوَاجِبٌ تَغْتَهَا.

ثم ذكر دعاء أهل الكهف، تشبيهاً بهم في الثبوت والانقطاع إلى الله، والفرار مما سواه، فقال: «وَرَيْنَا آيَاتِنَا»: أَيِ أَعْطَيْنَا وَامْتَحَنَّا «مِنْ لَدُنْكَ»: أَيِ مِنْ مُسْتَبْطِنِ أُمُورِكَ؛ لِأَنَّ لَدُنْكَ، تَدُلُّ عَلَى الْإِتِّصَالِ وَالْقُرْبِ أَكْثَرَ مِنْ عِنْدِ. أَيِ هَبْ لَنَا مِنْ خَزَائِنِ قِيْضِكَ «رَحْمَةً» عَظِيمَةً تَضُمُّنَا وَتَوَحِّشُنَا مِنْ غَيْرِكَ. «وَهَبْنِي» أَيِ وَاجْعَلْ؛ «لَنَا مِنْ أَمْرِنَا» كُلُّهُ «رَشْدًا»: أَيِ صَوَابًا. وَالْمَعْنَى، وَاجْعَلْ أَمْرَنَا كُلَّهُ رَشْدًا، وَصَوَابًا لِمُوَافَقَتِهِ لِمَحَابَّتِكَ وَمَرْضَاتِكَ؛ وَهَذَا يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ: التَّجْرِيدَ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ إِذَا بِالْغَوَا فِي الشَّيْءِ، جَرَّدُوا مِنْهُ نَوْعًا آخَرَ مِنْ جَنْبِهِ. كَقَوْلِكَ: لَقِيتُ مِنْ زَيْدٍ أَسَدًا. مُبَالِغَةً فِي شَجَاعَتِهِ. وَقَوْلِكَ: لِي مِنْ فُلَانٍ صَدِيقٌ حَمِيمٌ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ هَمَمْنَا فِيهَا دَارُ الْمُجَلَّدِينَ﴾ [الفصل: ٢٨]. وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ كُلُّهُ رَشْدًا. حَتَّى كَأَنَّهُ جَرَّدَ مِنْهُ رَشْدًا آخَرَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَهَذَا آخِرُ التَّضَلُّعِ فِي التَّسَخُّعِ الْعَتِيقَةِ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وَفِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. حَيْثُ بَدَأَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ. وَثَنَى بِمَلَائِكَتِهِ قُدْسِهِ. وَثَلَّثَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَنْبِهِ وَإِنْسِهِ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. «إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ آدَمَ فَاسْجُدُوا لَهُ». وَفِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، وَلَهَا ثَمَرَاتٌ عَدِيدَةٌ، ذَكَرَهَا ابْنُ فَرَحُونَ وَغَيْرُهُ، فَلَا نَطِيلَ، بِذِكْرِهَا.

فَلَا يَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَنْ يُهْمَلَ نَفْسُهُ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ سَائِرًا خَتَمَ ذِكْرَهُ بِهَا، وَبَدَأَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مَتَمِّكًا اسْتَغْرَقَ أَوْقَاتُهُ فِيهَا بِالْفِكْرَةِ، ثُمَّ امْتَثَلَ أَمْرَ الْخَالِقِ فَقَالَ:

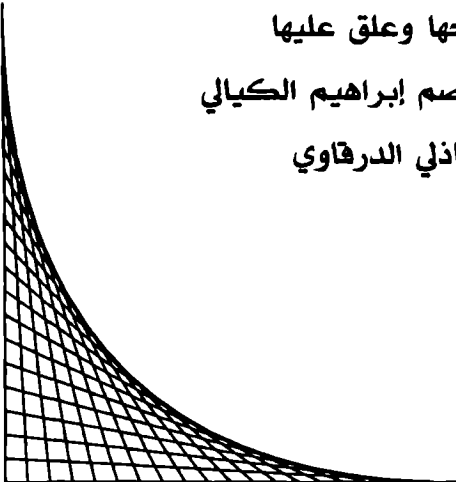
«صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً».

وفي وجوب الصلاة على النبي ﷺ وتذنبها خلاف المشهور. والمشهور أنها واجبة مرة في العمر، ثم يبقى الاستحباب، فلا يهمل نفسه منها إلا محروم.

ثم ختم بذكر ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الْأَوْفَى، فَلْيَكُنْ آخِرَ دَعَائِهِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». أي تنزيهاً لربك، رب العزة عما يصفه به الكفرة، من الشريك والولد. وفيه إشارة إلى عزه ونصره عليه السلام، لأن رب العزة، لا بد أن يعز عبده المختص به. وسلام، أي طيب وتحية، وإكرام على المرسلين المختارين لسيروحيه، والحمد لله رب العالمين، على نصر أحبائهم وجنودهم، جعلنا الله من جنده المنصورين؛ أهل الخبرة والسرور آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه وسلّم.

شرح قصيدة «يا من تعظم»
للإمام الرفاعي

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه



ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرعاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يقول العبد الفقير إلى مَوْلَاهُ الْغَنِيِّ بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني. لطفَ الله به وحبَّاهُ، ولحضرتِهِ اجْتَبَاهُ.

الحمد لله. نحمدكَ يَا مَنْ تَعَاظَمَتْ أَنْوَارُ جَمَالِهِ وَبَهَائِهِ. حتى حَفِيتَ مِنْ شِدَّةِ ظُهُورِهَا مَعَانِي صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ. وَنَشْكُرُكَ يَا مَنْ تَرَدَّى بِرِداءِ عِزَّتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ. حَمْدًا وَشُكْرًا يَقْتَضِيَانِ الْمَزِيدَ مِنْ عَظِيمِ نَوَالِهِ وَآلَائِهِ. وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى مَنْ انْشَقَّتْ مِنْ نَاسُوتِهِ الْأَسْرَارُ وَانْفَلَقَتْ مِنْ صِفَاتِ لَاهُوتِهِ الْأَنْوَارُ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٌ مَنبِيعُ الْأَنْوَارِ وَمَعْدَنُ الْأَسْرَارِ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَطْهَارِ.

أَمَّا بَعْدُ. فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ وَالْوِدَادِ مِنَ أَهْلِ التَّسْلِيمِ وَالْإِيمَانِ أَنْ أَضَعَّ تَقْيِيدًا عَلَى قَصِيدَةِ تَنْسَبُ لِلْإِمَامِ الرَّفَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الرَّفَاعِيِّ. نَسَبَ إِلَى بَنِي رِفَاعَةَ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ. وَسَكَنَ بِأَحْوَازِ مِصْرَ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ عُبَيْدَةٍ. بِأَرْضِ الْبَطَانِجِ إِلَى أَنْ مَاتَ بِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَتَ الظُّهْرِ، ثَانِي عَشَرَ جَمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَكَانَ شَافِعِي الْمَذْهَبِ. وَلَهُ أَخْوَالٌ غَرِيبَةٌ فِي التَّوَاضُعِ، وَتَعَاطِي السَّفَلِيَّاتِ، وَتَحْمُلِ الْأَذَى. كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشِي إِلَى حَارَةِ الْمَجْذُومِينَ، وَأَهْلِ الْأَوْسَاحِ، فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُمْ، وَيَقْلِبِي رُؤُوسَهُمْ وَلِحَاهُمْ. وَيَحْمِلُ لَهُمُ الطَّعَامَ وَيَأْكُلُ مَعَهُمُ اللَّبَنَ، وَيَجَالِسُهُمْ وَيَسْأَلُهُمُ الدُّعَاءَ، وَيَقُولُ: زِيَارَةُ هَؤُلَاءِ وَاجِبَةٌ لَا مُسْتَحَبَّةٌ. وَرَأَى مَرَّةً كَلْبًا أَجْرَبَ أَخْرَجَهُ أَهْلُ أُمِّ عُبَيْدَةٍ وَقَدَرُوهُ، فَخَرَجَ مَعَهُ إِلَى الْبَرِيَّةِ، وَضَرَبَ مِظْلَةً، وَجَعَلَ يَطْلِيهِ بِالذَّهْنِ، وَيُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ، وَيَحْكُ الْجَرْبَ بِخَرْقَةٍ. فَلَمَّا بَرِءَ، سَخَنَ لَهُ مَاءً وَغَسَلَهُ. وَقَالَ: خِفْتُ أَنْ يُوْخَذَ حُمَيْدٌ بِهَذَا الْكَلْبِ يَوْمَ

القيامة. ويقول الحق لي جَلَّ وَعَلَا يا حُمَيْدُ أما علمتَ أَنَّهُ خَلَقَ مِنْ خَلْقِي، أما أَمَرْتُكَ بِالرَّحْمَةِ أَظْلَمَ مَبْتَلَى.

وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العُمَيَّانَ ويقودُهُنَّ إلى مَكَانِهِنَّ. وإذا رأى شخصاً كبيراً يذهب إلى أهل حارة، ويُوصِيهِم عليه. ويقول: قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَكْرَمَ ذَا شَيْبَةٍ، سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ كِبَرِهِ»^(١). وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، وَقَرَّبَ مِنْ بَلَدِهِ يَشْدُو وَسَطَهُ، وَيُخْرِجُ حَبْلاً وَيَجْمَعُ حَطَباً ثُمَّ يَخْمِلُهُ عَلَى رَأْسِهِ إِلَى الدَّارِ، وَيَفْعَلُ كَذَلِكَ الْفُقَرَاءُ. فَإِذَا دَخَلَ الْبَلَدَ، فَرَّقَ ذَلِكَ عَلَى الْأَزَامِلِ وَالْعُمَيَّانِ وَالْمَسَاكِينِ. وَكَانَ يَتَحَمَّلُ أَذَى النَّاسِ مَا لَا يَخْمِلُهُ غَيْرُهُ.

وَيَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ. لَقِيَهُ مَرَّةً جَمَاعَةٌ فَسُبُّوهُ. وَقَالُوا لَهُ: يَا بَدْعُ. يَا مُسْتَحِلًّا لِلْحَرَامِ، يَا مَبْدَلًا لِلْقُرْآنِ، يَا مُلْحِدًا يَا كَلْبَ. فَكَشَفَ رَأْسَهُ، وَقَبَّلَ الْأَرْضَ. وَقَالَ: اجْعَلُونِي فِي حُلٍّ. وَجَعَلَ يَقْبَلُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ. فَلَمَّا أَعْجَزُهُمْ قَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَكَ فِي الْفُقَرَاءِ تَحْتَمِلُ مَنَا هَذَا الشُّتْمَ. فَقَالَ: هَذَا بِبِرِّكَاتِكُمْ. وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الشَّيْخَ الْبُوصْتِي كِتَاباً يُعَاتِبُهُ، وَيَحْطُّ مَرْتَبَتَهُ. فَقَالَ لِلرَّسُولِ اقْرَأْهُ، فَإِذَا فِيهِ: يَا مُبْتَدِعُ، يَا كَلْبُ، يَا جَامِعاً بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَلَمَّا فَرَّغَ الرَّسُولُ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ أَخَذَهُ سَيِّدِي أَحْمَدُ وَقَرَأَهُ، وَصَارَ يَقُولُ: صَدَقَ أَخِي فِيمَا يَقُولُ وَجَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا. ثُمَّ أَتَشَدَّ:

فَلَسْتُ أَبَالِي مَنْ رَمَانِي بِرَمِيَةٍ إِنْ كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَ مُرِيبٍ

وَكَانَ كَثِيراً مَا يَتَجَلَّى الْحَقُّ لَهُ بِالْعِظَمَةِ، فَيَذُوبُ حَتَّى يَصِيرَ نُقْطَةً. ثُمَّ يَتَذَكَّرُ اللَّطْفَ، فَيَصِيرُ يَكْبُرُ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّى يَرُدَّ إِلَى جَنْسِهِ الْمَعْتَادِ. وَيَقُولُ: لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ تَعَالَى مَا رَجَعْتُ إِلَيْكُمْ. وَلَهُ كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي الْحَقَائِقِ. فَمِنْ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«الرُّهْدُ أَسَاسُ الْأَحْزَالِ الْمَرَضِيَّةِ، وَالْمَرَاتِبُ السُّنِّيَّةِ». وَهُوَ أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّاضِينَ عَنْهُ، وَالْمُتَوَكِّلِينَ

(١) روى نحوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٥٣٤) ولفظه: «من أكرم ذا شيبة فقد أكرم نوحاً في قومه ومن أكرم نوحاً في قومه فقد أكرم الله».

عليه . فكل مَنْ لم يُحْكَمْ أساسه في الزُّهْدِ لَمْ يصلحْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الطريق .
ومن كَلَامِهِ أيضاً : «الْفُقَرَاءُ أَشْرَافُ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الْفَقْرَ لِبَاسُ الْمُزْسَلِينَ .
وَجَنِبَ الصَّالِحِينَ ، وَتَاجَ الْمُتَّقِينَ ، وَغَنِيمَةُ الْعَارِفِينَ ، وَمُنِيَّةُ الْمُرِيدِينَ ، وَرِضَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَكَرَامَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَأَهْلِ وَلَايَتِهِ» . وسأله شخص أن يذَّعُو لَهُ فقال :
«يَا أَخِي إِنَّ عِنْدِي الْيَوْمَ قُوْتُ يَوْمِي . ومن كَانَ عنده قوت يَوْمِهِ ، لَمْ يَقْبَلْ لَهُ
دُعَاءٌ . فإذا بَلَغَكَ يَا أَخِي أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي مَا يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ . فَسَلِّني الدُّعَاءَ . فَإِنَّ
لِي حَيْثُ إِسْوَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ» .

وَكَانَ يَقُولُ : «لَا يَصْخُ الْأَنْسُ بِاللَّهِ تَعَالَى . إِلَّا لَمَنْ كُمَلَتْ طَهَارَتُهُ ،
وَاسْتَوْحَشَ مِمَّا يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . فعِنْدَ ذَلِكَ يُؤْنَسُ اللَّهُ بِهِ» . وَكَانَ يَقُولُ :
«الشفقة على الإخوان ، مِمَّا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» .

وَقَالَ لِخَادِمِهِ : «يَا يَعْقُوبُ كُنْ ذَنْباً وَلَا تَكُنْ رَأْساً . فَإِنَّ الضَّرْبَةَ أَوَّلُ مَا تَقَعُ
تَقَعُ فِي الرَّأْسِ . وَإِيَّاكَ وَرُؤْيَا نَفْسِكَ عَلَى الْإِخْوَانِ . فَإِنَّهُ لَا يَقَالُ لَكَ عَشْرَةٌ ، وَلَا
يَسَاعِدُكَ أَحَدٌ . وانظر إِلَى النخلة كلما ارتفعت وأشرقت على الجيران ، جعل الله
ثِقْلَ حَمْلِهَا عَلَيْهَا وَلَوْ حَمَلَتْ مَا حَمَلَتْ لَا يَسَاعِدُهَا أَحَدٌ . وانظر إِلَى شجرة
اليقطين : «شجرة القرع» لما ارتفعت ، أَلْقَتْ حَذَّهَا عَلَى الْأَرْضِ ، كَيْفَ جَعَلَ
اللَّهُ ثِقْلَ حَمْلِهَا عَلَى الْأَرْضِ . وَلَوْ حَمَلَتْ مَا حَمَلَتْ لَا تَحْسُ بِهِ» .

وَكَانَ يَقُولُ : «أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ : الصَّدَقَةُ» . وَكَانَ يَقُولُ : «التَّوْحِيدُ
وَجَذَانُ عَظِيمٌ ، وَالْقَلْبُ يَمْنَعُ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ» «وَكَانَ يَكْرَهُ لِأَصْحَابِهِ الْخَوْفَ
فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ» . كَانَ يَقُولُ : «إِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ صَارَ مَهْبِطَ الْوَحْيِ
وَالْأَسْرَارِ ، وَالْأَنْوَارِ ، وَالْمَلَائِكَةِ . وَإِذَا فَسَدَ صَارَ مَهْبِطَ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ
وَالشَّيَاطِينِ» . وَكَانَ يَقُولُ : «إِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ أَخْبَرَكَ عَمَّا وَرَاءَكَ وَأَمَامَكَ . وَإِذَا
فَسَدَ حَدَّثَكَ بِبَاطِلٍ ، يَغِيبُ مَعَهَا الرَّشْدُ ، وَيَنْتَفِي مِنْهَا الْهُدَى» .

وَكَانَ يَقُولُ : «مِنْ شَرِّ الْفَقِيرِ أَنْ يَرَى كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ أَعَزَّ مِنَ الْكِبَرِيَّةِ
الْأَخْمَرِ ، فَلَا يَضَعُ فِي كُلِّ نَفْسٍ إِلَّا مَا يَضِلُّ لَهَا» . وَكَانَ يَقُولُ فِي حَدِيثٍ : «مَنْ
تَزَوَّجَ لِلَّهِ كَفَى وَوَفَى» . مَعْنَاهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْتِثَالاً لِلْأَمْرِ . لَا بِحُكْمِ الشَّهْوَةِ الْبَهِيمَةِ .
وَكَانَ يَقُولُ : «طَرِيقُنَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ لَا يَسْأَلُ ، وَلَا يَزُدُّ ، وَلَا يَذْخِرُ» .

وَكَاكَ يَقُولُ: «سَعَادَةُ الْمَرِيدِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِهِ شَيْخُهُ لِشِدَّةِ مُجَاهَدَتِهِ». وَكَانَ يَقُولُ: «مَنْ غَضِبَ لِنَفْسِهِ تَعَبَ. وَمَنْ سَلَّمَ أَمْرَهُ إِلَى مَوْلَاهُ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ وَلَا عَشِيرَةٍ». وَكَانَ يَقُولُ: «وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي خَيْرٌ إِلَّا فِي الْوَحْدَةِ. فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَعْرِفَ أَحَدًا، وَلَمْ يَعْرِفْنِي أَحَدٌ».

كَانَ يَقُولُ: «مِنْ شَرِّ الْفَقِيرِ أَلَّا يَكُونَ لَهُ نَظَرٌ فِي عُيُوبِ النَّاسِ». وَكَانَ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَتَعَاظِي أَسْبَابِ الشُّهْرَةِ، وَالْفَرَحِ بِالْمَحْبُوبِينَ وَالْمَعْتَقِدِينَ». وَكَانَ يَقُولُ: «مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا يَنْزِلُ فِيهَا نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ يَقْذِفُ فِي قُلُوبِ الْمُسْتَبْقِظِينَ».

وَكَاكَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «مَنْ تَشَيَّخَ عَلَيْكُمْ فَقَدُمُوهُ وَمَنْ قَدَّمَ لَكُمْ يَدَهُ لَتَقْبَلُوهَا فَقَبِّلُوا رِجْلَهُ». وَمَعْنَى تَشَيَّخَ عَلَيْكُمْ: نَصَبَ نَفْسَهُ لِلشَّيْخُوخَةِ. وَكَانَ يَقُولُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْقِيَ عَبْدَهُ إِلَى مَقَامَاتِ الرُّجَالِ؛ كَلَّفَهُ بِأَمْرِ نَفْسِهِ أَوَّلًا. فَإِذَا أَدَّبَ نَفْسَهُ وَاسْتَقَامَتْ مَعَهُ كَلَّفَهُ بِأَهْلِهِ. فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَسَاسَهُمْ كَلَّفَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ بَلَدِهِ. فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَسَاسَهُمْ، كَلَّفَهُ جِهَةً مِنَ الْبِلَادِ فَإِنْ هُوَ نَصَحَهُمْ وَسَاسَهُمْ، أَضْلَحَ سِرِّيَّتَهُ مَعَ اللَّهِ، كَلَّفَهُ رُتْبَةً مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فَإِنْ لِلَّهِ خَلْقًا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ. ثُمَّ لَا يَزَالُ يَرْتَفِعُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، حَتَّى يَرْتَفِعَ وَيَصِلَ إِلَى مَحَلِّ الْقُطْبِ الْغَوِيِّ؛ وَهُنَاكَ يُطْلَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى غَيْبِهِ، فَلَا تَنْبُتُ شَجَرَةٌ، وَلَا تَخْضِرُ زَرْقَةً إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَهُنَاكَ يَتَكَلَّمُ عَنِ اللَّهِ بِكَلَامٍ لَا تَسْعُهُ الْعُقُولُ، وَزَيْمًا ذَهَبَ بِهِ إِيْمَانُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَكِبِّينَ».

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا صَعِدَ الْكَرْسِي، يَسْمَعُ كَلَامَهُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، حَتَّى أَهْلَ الْقُرَى، حَوْلَ أُمِّ عَبِيدَةَ. وَيَعْرِفُونَ جَمِيعَ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ. مَعَ أَنَّ صَوْتَهُ كَانَ ضَعِيفًا. وَكَانَ الْأَطْرَشُ وَالْأَصَمُّ، إِذَا حَضَرََا يَفْتَحُ اللَّهُ أَسْمَاعَهُمَا لِكَلَامِهِ.

وَكَانَ مَشَايِخَ الطَّرِيقِ يَحْضُرُونَهُ. وَكَانَ جُلُوهُمْ يَسْطُ حُجْرَهُ. فَإِذَا قَرَعَ مِنْ وَغْظِهِ، ضَمُّوا حُجُورَهُمْ إِلَى صُدُورِهِمْ، وَقَصُّوا الْحَدِيثَ إِذَا رَجَعُوا إِلَى أَصْحَابِهِمْ عَلَى حَلِيَّتِهِ. قَالَ خَادِمُهُ يَعْقُوبُ: قُلْتُ يَا سَيِّدِي: أَنْتَ الْقُطْبُ. فَقَالَ: نَزَّ شَيْخُكَ عَنِ الْقُطْبَانِيَّةِ، فَإِنْ مَنْ كَانَ فِي حَضْرَةِ اللَّهِ لَا مَقَامَ لَهُ.

وَسُئِلَ مَرَّةً كَيْفَ كَانَ سُلُوكُكَ. فَقَالَ: مَرَزْتُ وَأَنَا صَغِيرٌ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجَزْبُوفِيِّ، قَالَ: يَا أَحْمَدُ. اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ: «مَنْ التَفَّتْ لَا يَصِلُ».

وَمِثْلُهُ لَا يُفْلِحُ. ولم يعرف من نفسه النقصان. فكل أوقاته نقصاناً. فخرجت من عنده. وجعلت أَكْرَزَهَا سَنَةً. ثم رَجَعْتَ إِلَيْهِ، فقلت: أَوْصِنِي. فقال: «مَا أَقْبَحَ الْجَهْلُ بِالْأَوْلِيَاءِ وَالْعِلَّةُ بِالْأَطْبَاءِ، والجفا بالأحبة. ثم خرجت وصرت أَكْرَمَهَا سَنَةً. فانتفعت بكلامه لكونه اخْتَصَرَ لِي الطريق» قلت: لم نطلع له على شيخٍ لَهُ في طريق التربية غير هَذَا. واللَّهُ أَغْلَمُ.

وهذا أول القصيدة التي أَرَدْنَا الكلامَ عليها:

يَا مَنْ تَعَاطَمَ حَتَّى رَفَى مَغْنَاهُ وَلَا تَرَدَّى رِذَاءَ الْكِبَرِ إِلَّا هُوَ

قُلْتُ: يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا مَنْ تَعَاطَمَ فِي شِدَّةِ ظُهُورِ أَنْوَارِهِ، وَتَجَلَّيَاتِ أَسْرَارِهِ، فما زال يظهر للبصائر، ويتجلى للسرائر، حتى خَفَا مَغْنَاهُ، ورق عن مدارك العقول نور جماله وَسَنَاهُ. فما احتجب إلا من شِدَّةِ ظُهوره، وما مَنَعَ الأبصار أن تَدْرِكَهُ إِلَّا قَهَارِيَّةُ نوره. والله دَرِّ الْقَائِلِ:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمَه لَا يُبْصِرُ الْقَمَرَا
لَكِنْ بَطْنَتْ بِمَا أَظْهَرَتْ مُخْتَجِباً وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا
قال آخر:

وَمَا اخْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسْتُرُ
وقول المشتري في هَذَا الْمَعْنَى:

يَا مَنْ بَدَا ظَاهِراً حِينَ اسْتَتَرَ ثُمَّ اخْتَفَى بِاطْنَاءِ لَمَّا ظَهَرَ
ظَهَرَتْ لَمْ تَخْفَ عَلَى أَحَدٍ وَغَبَتْ لَمْ تَظْهَرْ لِكُلِّ أَحَدٍ

وفي الْحِكْمِ الْعَطَائِيَّةِ: «يَا مَنْ اخْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ. وَيَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارُ، كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ. أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ». وقال أيضاً: إِلَهِي: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وَجُودِهِ، مَفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. أَيْكُونُ لَعْنِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ. حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ. مَتَى غَبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ. وَمَتَى بَعْدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ. إِلَهِي عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيباً. وَخَسِرْتَ صَفْقَةَ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ مِنْ حَبْكَ نَصِيباً». فالعارفون لَا

يَشْهَدُونَ سِوَى اللَّهِ. وَلَا يَزُونَ فِي الْكَوْنَيْنِ إِلَّا إِيَّاهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ كُفِّتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ، فَإِنَّهُ لَا غَيْرَ مَعَهُ، حَتَّى أَشْهَدَهُ.

وقال الشاعر:

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَنْشُوعٌ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعٌ

وبالجملة: فاسمُه الظاهر، يقتضي بظون الأشياء، وتلاشيها. إذ لا ظاهر معه، بذليل الحصر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. [الحديد:

١٣]

واسمُه الباطن: يقتضي ظهور الأشياء به، ليتحققوا من اسمه الباطن بالنسبة إلى ظاهر جسها؛ فهو الظاهر في حال بطونه. والباطن في حال ظهوره. قال في الحكم: أظهر كل شيء بأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر. ولا يذوق هذا على الكمال، إلا من من الله عليه بصحبة الرجال. ومن لم يصحب الرجال، بقي خفاشياً. كلما اشتد الثور. انطمس بصره. وها هنا احتمال آخر أرق من الأول وهو أن يقول:

يَا مَنْ تَعَاظَمَ فِي ظُهُورِ أَسْرَارِ ذَاتِهِ، وَأَنْوَارِ صِفَاتِهِ فِي مَظَاهِرِ تَجْلِيَاتِهِ. حَتَّى رَقَّتْ وَلَطَفَتْ مَعَانِي الذَّاتِ فِي أَنْوَارِ الصِّفَاتِ. فَأَنْوَارُ الصِّفَاتِ أَوَانِي، وَأَسْرَارُ الذَّاتِ مَعَانِي. فَالْمَعَانِي قَائِمَةٌ بِالْأَوَانِي، وَالْأَوَانِي حَاصِلَةٌ لِلْمَعَانِي. فَلَا قِيَامَ لِلْأَوَانِي، إِلَّا بِالْمَعَانِي وَلَا ظُهُورَ لِلْمَعَانِي فِي مَظَاهِرِ الْأَوَانِي. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ الْأَوَانِي، حُجِبَ عَنِ شُهُودِ الْمَعَانِي. وَمَنْ نَقَدَ إِلَى شُهُودِ الْمَعَانِي، غَابَ عَنِ شُهُودِ حَسَنِ الْأَوَانِي، وَلِذَلِكَ قَالَ الشُّشْتَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:

لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي، وَخُضْ بِخَرِ الْمَعَانِي، لَعَلَّكَ تَرَانِي. فَكُلَّمَا تَلَطَّفْتَ الْأَوَانِي بِالْغَيْبَةِ عَنْ جِسْمِهَا ظَهَرَتْ مَعَانِي الذَّاتِ فِي أَنْوَارِ الصِّفَاتِ. وَكُلَّمَا تَكَشَّفَتْ الْأَوَانِي بِاشْتِغَالِ الْقَلْبِ بِجِسْمِهَا الظَّاهِرِ، حُجِبَتْ الْمَعَانِي، وَرَقَّتْ وَخَفِيَتْ. وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْفَارِضِ فِي خَمْرِيَّتِهِ:

وَلَطَفُ الْأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعٌ لِلطَّفِ الْمَعَانِي، وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو. وَلَمَّا سَبَّلَ الْجَنِّيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ التَّوْحِيدِ أَنْشَأَ يَقُولُ:

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
وَقَلْتُ فِي تَائِيَتِي الْخَمْرِيَّةِ :

لِرِقَّةِ خَمْرٍ فِي الْأَوَانِي تَلَطَّفْتُ أَوَانِي مَعَانِي الْخَمْرَةِ فِي أَصْلِ نَشْأَةٍ
فَطَوَّرًا تَغَيَّبَ الْخَمْرُ فِي جِزْمِ كَأْسِهَا وَطَوَّرًا تَغَيَّبَ الْكَأْسُ فِي خَمْرَةِ نَشْوَءٍ
وَعُيِبَ الْأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحَقَّقٌ فَنَاءُ الْأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ

وفي القرآن العظيم تلويحات، وإشارات إلى هذه المعاني اللطيفة،
والأنوار الربانية. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وكَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾
[الأنعام: ٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ يَابِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]
وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١] قَالَ فِي
الْحِكْمِ: «أَمَرَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ. وَمَا أَمَرَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ دَوَاتِ
الْمَكُونَاتِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١] فَتَحَ لَكَ بَابَ
الْإِفْهَامِ، وَلَمْ يَقُلْ: انظروا السماوات. فبدلك على وجود الأجرام».

وقد حققنا هذا المعنى في شرحنا على الحِكْمِ. فأنظره إن شئت. وفي
الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ مَا يُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى. قَالَ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
«يَا عَبْدِي مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ،
فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَقَدْ مَرَضَ عَبْدِي فَلَنْ تَعُدَّهُ أَمَّا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ
لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»^(١). عَلَى مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ. وَلَا يَفْهَمُ هَذِهِ الْأَسْرَارَ إِلَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. وَتَرَبَّى عَلَى يَدِ شَيْخٍ كَامِلٍ مُحَقِّقٍ. وَإِلَّا فَحَسْبُهُ التَّسْلِيمُ
لِمَا رَمَوْهُ، وَأَشَارُوا إِلَيْهِ:

إِنْ لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ لِأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ
وَلِيَّاكَ أَنْ تَزِمِيَهُمْ بِمَا رَمَوْهُمْ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَقَامَهُمْ، وَلَمْ يَشْرَبْ مِنْ
مَشْرِبِهِمْ، كَالاتِّحَادِ وَالْحُلُولِ، فَإِنَّهُمْ مَنْزُهُونَ عَنْهُ. إِذْ لَمْ يَبْقَ لِلسَّوَى عِنْدَهُمْ

(١) رواه مسلم من صحيحه، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه...، حديث (٢٥٦٩) [٤/

وَجُودٌ. حَتَّى يَصْحَ الْإِتِّحَادُ وَالْحُلُولُ، إِلَى ذَلِكَ أَشْرُتُ فِي تَائِبَتِي الْخَمْرِيَّةِ، فِي وَضْفِ الْخَمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ بِقَوْلِي:

تَنْزَهَتْ فِي حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَضْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهَا حُلَّتِي
قال في الْحَكَمِ: «يَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ. أَمْ كَيْفَ يَثْبُتَ
الْحَدِيثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَضْفُ الْقَدَمِ». وقال رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ الْجُنَيْدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ،
وَلَمْ يَزِدْ رَبُّ الْعَالَمِينَ. فقال له الْجُنَيْدُ: كَمَلْهُ يَا أَخِي، فقال له الرَّجُلُ: أَيُّ قَدَرٍ
لِلْأَشْيَاءِ حَتَّى تُذَكِّرَ مَعَهُ. فقال الْجُنَيْدُ: كَمَلْهُ يَا أَخِي. فَإِنَّ الْحَادِثَ إِذَا قُرِنَ
بِالْقَدِيمِ تَلَأَشَى الْحَادِثُ وَبَقِيَ الْقَدِيمُ. انْتَهَى وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وقوله: وَلَا تَرْدَى رِذَاءَ الْكِبَرِ إِلَّا هُوَ. يُشِيرُ إِلَى اخْتِصَاصِهِ تَعَالَى
بِالْكِبَرِيَاءِ، وَغَايَةِ التَّعَالِي كَمَا اخْتَصَّ بِالْعِظَمَةِ وَكَمَالِ التَّجَلِّي. وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى
الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الْعِظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبَرِيَاءُ رِذَائِي
فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا قَصَصْتُهُ»^(١). فَالْعِظَمَةُ تَرْجِعُ إِلَى كَمَالِ أَنْوَارِ
الْمَلَكُوتِ وَالْكِبَرِيَاءُ تَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ أَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ؛ لِأَنَّ الْمَلَكُوتَ ظَهَرَتْ
أَنْوَارُهُ فِي التَّجَلِّيَّاتِ؛ وَهُوَ مَا ظَهَرَ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِ الْجَمِيعِ.
وَالْجَبَرُوتُ: مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ؛ وَهُوَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ؛ وَهُوَ الَّذِي
كَانَ كَثَرًا لَمْ يُعْرِفْ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ ابْنُ الْفَارِضِ بِقَوْلِهِ:

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَى وَثُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ
تَقْدَمُ كُلُّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمٌ
ولذلك خَصَّصَتِ الْعِظَمَةَ بِالْإِزَارِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ لِلْأَسْفَلِ. وَالرِّذَاءِ
لِلْأَعْلَى. وَأَنْوَارُ الْمَلَكُوتِ ظَهَرَتْ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَأَنْوَارُ الْجَبَرُوتِ أَخَاطَتْ
بِهَا، وَارْتَفَعَتْ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ؛ فَهِيَ أَرْفَعُ وَأَعْلَى مِنْهَا مَعَ كَوْنِهَا لَا تَنْفَكُ
عَنْهَا، إِذْ عَالَمُ الْمَلَكُوتِ قَائِمٌ بِأَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ. فَمَا اخْتَجَبَتْ أَسْرَارَ الْجَبَرُوتِ
إِلَّا بِأَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ. وَلَا قَامَتْ أَنْوَارُ الْمَلَكُوتِ إِلَّا بِأَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ؛ وَهُمَا فِي

(١) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه، حديث رقم (٢٦٥٧٨) [٣٢٩/٥] والقضاعي في مسند
الشهاب، حديث رقم (١٤٦٤) [٣٣١/٢]، ورواه غيرهما.

الحقيقة شيء واحد؛ وما افترقا إلا باختيار مدارك السالكين:

قَآوُلٌ مَا يُفْتَحُ لِلْمُرِيدِ عَنْ أَتَوَارِ الْمُلْكِ الْحَسِّي، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِيهِ وَاعْتَبَرَ أَذْرَكَ
عَظَمَةَ الصَّانِعِ، فَإِذَا تَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاعِلِ، وَتَطَهَّرَتْ مِرَاةُ قَلْبِهِ مِنَ الصَّدَا، أَشْرَقَتْ
عَلَيْهِ أَتَوَارِ الْمَلَكُوتِ. فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، وَبَلَغَتْ الرُّوحُ غَايَةَ الصَّفَاءِ.
أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَسْرَارُ الْجَبَرُوتِ. فَيَحْجُبُ حِينَئِذٍ عَنْ عَالَمِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ.
وَصَارَ لَا يُشَاهِدُ إِلَّا أَسْرَارَ الْجَبَرُوتِ. فَرِذَا الْكِبْرِيَاءِ: هُوَ الْاِخْتِجَابُ لِحِجَابِ
الْقَهْرِيَّةِ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ مَعَ كَمَالِ ظَهْوَرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي صِفَةِ
أَهْلِ الْجَنَّةِ: «مَا بَيْنَ الْقَوْمِ، وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِذَا الْكِبْرِيَاءِ عَلَى
وَجْهِهِ فِي جَنَابِ عَذْنٍ»^(١). وَالْمُرَادُ بِهِ: إِسْدَالُ حِجَابِ الْحَسِّ وَالْقَهْرِيَّةِ، عَلَى
وَجْهِ مَعَانِي أَسْرَارِ الذَّاتِ الْعَالِيَةِ. إِذْ لَا حِجَابَ بَيْنَ اللَّهِ، وَبَيْنَ خَلْقِهِ إِلَّا قَهْرِيَّةُ
نُورِهِ، وَشِدَّةُ ظُهُورِهِ. وَتَوَهُمُ وَجُودِ الْغَيْرِيَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنَا الْبُوزِينِي رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «وَاللَّهُ مَا حَجَبَ الْخَلْقَ عَنِ اللَّهِ إِلَّا الْوَهْمُ، وَالْوَهْمُ أَمْرٌ عَدِيمِي،
لَا حَقِيقَةً لَوْجُودِهِ». أَيْ مَا حَجَبَهُمْ عَنِ الشُّهُودِ، إِلَّا وَجُودُ الْغَيْرِيَّةِ. وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ
مُنْتَفِيَّةٌ. وَفِي الْحَكْمِ: «مَا حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ. إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ.
وَإِنَّمَا حَجَبَكَ تَوَهُمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ». وَقَالَ أَيْضاً: «الْحَقُّ لَيْسَ بِمَخْجُوبٍ عَنْكَ. إِنَّمَا
الْمَخْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ. إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ. وَلَوْ كَانَ لَهُ
سَاتِرٌ، لَكَانَ لَوْجُودُهُ حَاصِرٌ. وَكُلُّ حَاصِرٍ شَيْءٌ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ». قَالَ أَيْضاً: «مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وَجُودِ قَهْرِهِ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ
مَعَهُ».

وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى هَذَا فِي تَائِيَتِي، فِي وَصْفِ الْخُمْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، فَقُلْتُ:

تَجَلَّتْ عَرُوساً فِي مِرَائِي جَمَالِهَا وَأَزَحَتْ سُتُورَ الْكِبْرِيَاءِ لِعِزَّةِ
وَلَا يَذُوقُ هَذِهِ إِلَّا مَنْ كَحَلَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ بِإِثْمِدِ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ، حَتَّى

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب إثبات رؤية المؤمنين...، حديث رقم (١٨٠) [١/١٦٣]
والترمذي في سننه، باب ما جاء في صفة غرف الجنة) حديث رقم (٢٥٢٧) [٤/٦٧٣]
ورواه غيرهما.

تَفْتِيحَ بَصِيرَتُهُ، فَيُبَصِّرُ أَنْوَارَ الْمَعَانِي، خَلَفَ رِذَاءِ الْأَوَانِي. وَإِلَّا بَقِيَ أَرْمَدُ الْعَيْنِ،
كُلَّمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ انْطَمَسَ بَصَرُهُ كَمَا قَالَ الْبُوصِيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَتُنْكِرُ الْقَمُّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواءِ الطريق.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَاهُوا بِحُبِّكَ أَقْوَامٌ وَأَنْتَ لَهُمْ نِعْمَ الْحَبِيبُ وَإِنْ تَاهُوا وَإِنْ تَاهُوا

قُلْتُ: التَّيَّةُ هُنَا: هو التلف، والخروج عن الطريق المعتاد. والحبُّ هُوَ
الْمَيْلُ الدَّائِمُ بِالْقَلْبِ الْهَائِمِ، وَأَقْوَامٌ: فاعل تاهوا على لغة أزد شُوْءٌ. وَهَامَ عَلَى
وَجْهِهِ: إِذَا صَارَ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ أَقْوَاماً مِنْ خَوَاصِّ
الْمَحْبِبِينَ، لَمَّا أَطْلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَسْرَارِ عَظَمَةِ دَاتِهِ، وَكَشَفَ لَهُمْ شَيْئاً مِنْ رِذَائِهِ
كَبِيرَاتِهِ، تَاهَتْ عُقُولُهُمْ، وَهَامَتْ قُلُوبُهُمْ. وَطَاشَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي مَحَبَّتِهِ. فَفَارَقُوا
الْأَوْطَانَ وَالْدِّيَارَ، وَأَلْفُوا الْبَرَارِي وَالْقَفَارَ. وَتَأَسَّسُوا بِالْحَبِيبِ، وَاشْتَغَلُوا بِمُنَاجَاةِ
الْقَرِيبِ. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ وَمَجْدُوبٍ، وَمُحِبٍّ وَمَحْبُوبٍ.

فَمِنْهُمْ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ. وَمِنْهُمْ الْأَبْدَالُ وَالْأَوْتَادُ، عَمَرُوا قُلُوبَهُمْ بِمَحَبَّةِ
الْمَحْبُوبِ. وَرَفَضُوا مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَرْغُوبٍ. وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الطَّالِبِينَ، أَوْ
السَّائِرِينَ، مِنَ الْمُرِيدِينَ.

وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ إِلَى الْمَحْبُوبِ مِنَ الْعَارِفِينَ الْمُقَرَّبِينَ، سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ.
وَاطْمَأَنَّتْ بِمُشَاهَدَةِ الْحَبِيبِ، وَمُنَاجَاةِ الْقَرِيبِ؛ فَهُمْ يَشَاهِدُونَ الْحَبِيبَ فِي مَرَاتِي
تَجَلِّيَاتِهِ، وَأَثَارَ صِفَاتِهِ، فَلَمْ يَحْجِبْهُمْ الْخَلْقُ، عَنْ مُشَاهَدَةِ الْحَقِّ. بَلْ هُمْ
مَخْجُوبُونَ بِالْجَمْعِ عَنِ الْفَرْقِ، وَبِمُشَاهَدَةِ الْحَقِّ، عَنْ رُؤْيَةِ الْخَلْقِ. بَلْ، لَوْ
كُلَّفُوا أَنْ يَشَاهِدُوا غَيْرَهُ، لَمْ يَسْتَطِيعُوا. فَهَوْلَاءُ يَرُدُّهُمْ الْحَقُّ تَعَالَى إِلَى مُرَافَقَةِ
الْخَلْقِ وَمَخَالَطَتِهِمْ لِيَقَعَ الْإِنْتِفَاعُ بِصُخْبَتِهِمْ. فَهُمْ مُسْتَأْنِسُونَ بِالْحَقِّ فِي حَالِ
مُخَالَطَتِهِمْ لِلْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ.

أَشْبَاهُهُمْ بَيْنَ الْخَلَائِقِ تَسْعَى، وَأَرْوَاحُهُمْ فِي أَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ تَرْعَى، وَإِلَى
حَالِ الْفَرِيقَيْنِ أَشَارَ فِي الْحُكْمِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا اسْتَوْحِشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلَوْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا اسْتَوْحِشُوا مِنْ

شَيْءٍ». وقال أيضاً: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَأَى فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ فَتَى بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ أَحَبَّهُ آثَرَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

والحاصل: أَنَّ الْمَحَبَّةَ لَهَا بَدَايَاتٌ؛ وهي ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ فِي حَالِ الثَّائِبِينَ وَالنَّهَائِيِّينَ. وَنَهَايَاتٌ: وهي السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ فِي خُضْرَةِ الْمَحْبُوبِ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَحَبَّةُ: أَوَّلُهَا جُنُونٌ، وَوَسْطُهَا فُتُونٌ، وَآخِرُهَا سُكُونٌ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى، أَشَارَتْ رَابِعَةُ الْعُدُويَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

أَحِبُّكَ حُبِّينِ حُبُّ الْهَوَى وَحُبُّ أَنْتَ^(١) أَهْلُ لِيَاكِ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ حَتَّى أَلْقَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلُ لَهُ فَكَشْفُكَ الْحِجَابَ حَتَّى أَرَاكَ

أَشَارَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى ذِكْرِ الْمَقَامَيْنِ: بَدَايَةِ وَنَهَايَةِ أَوْ نَقُولُ: مَحَبَّةَ الْمُحِبِّينَ وَمَحَبَّةَ الْمَخْبُوبِينَ. أَوْ نَقُولُ: مَحَبَّةَ السَّائِرِينَ، وَمَحَبَّةَ الْوَاصِلِينَ. وَإِنَّمَا سَلَكَتِ الْأُمُورَ مَعاً. فَحُبُّ الْهَوَى هُوَ حُبُّ الْعِشْقِ وَالتَّعَلُّقِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ. وَعَلَامَتُهُ: اللَّهْجُ بِذِكْرِ الْمَحْبُوبِ، وَالِاسْتِغْثَالُ بِخِدْمَتِهِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الْخَلْقِ لِلْقَاءِ الْحَقِّ. وَأَمَّا حُبُّ الْوَاصِلِينَ، فَتَمَرَّتُهُ كَشْفُ الْحِجَابِ. وَالِدُخُولُ مَعَ الْأَخْبَابِ، وَمُشَاهَدَةُ الْحَبِيبِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ. كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْعَيْنِيَةِ:^(٢)

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مِرَائِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مِرْأَى لِلْحَبِيبِ طَلَايِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسْمَى بِأَسْمَاءٍ فَهِيَ مَطَالِغُ

وَعَلَامَةُ صَاحِبِ هَذَا الْمَقَامِ، سَكُونُ ظَاهِرِهِ مِنْ تَعَبِ الْخِدْمَةِ. وَعِمَارَةُ قَلْبِهِ بِنُورِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ أَوْ تَقُولُ: عَلَامَتُهُ: سَكُونُ الْقَلْبِ وَطَّمَأْنِينَتُهُ عِنْدَ مَيِّجَانِ رِيَّاحِ الْأَقْدَارِ وَوُزُودِ التَّعْرِيفَاتِ مِنَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَامَةُ الْمَحَبَّةِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

الْإِكْتِثَارُ مِنْ ذِكْرِهِ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِقَهْرِهِ.

(١) وفي نسخة [لأنك] بدل [أنت].

(٢) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة ٨٠٥ هجرية.

وَاعْلَمَ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى الْمَحَبَّةِ أَمْرَانِ: إِمَّا الذَّاتِي، أَوِ الْإِحْسَانَ الْفِعْلِي.
 وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي ذَاتِ الْحَقِّ تَعَالَى. وَأَمَّا الْجَمَالُ، فَلَا أَجْمَلَ مِنْ جَمَالِهِ تَعَالَى وَلَا
 أَعْظَمَ إِذْ جَمَالُهُ يُسَبِّحُ الْعُقُولَ وَيُذهِّشُ الْأَلْبَابَ. وَقَدْ وَرَدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِذَا تَجَلَّى
 لَهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ. ذَهَلُوا وَغَابُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْحَسِيِّ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى يَرُدُّهُمْ إِلَى حِسِّهِمْ بِإِسْدَالِ الْحِجَابِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَا تَنَعَّمُوا بِشَيْءٍ مِنَ
 النِّعَمِ الْحَسِيِّ. وَمَا ظَهَرَ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ مِنَ الْجَمَالِ. فَإِنَّمَا هُوَ رَشْحَةٌ مِنْ
 رَشْحَاتِ جَمَالِهِ الْأَصْلِيِّ. كَمَا قَالَ ابْنُ الْفَارِضِ:

عَيْنِي لِيُغَيِّرَ جَمَالِكُمْ لَا تَنْظُرُ وَسِوَاكُمْ فِي خَاطِرِي لَا يَخْطُرُ
 وَيَقْدِرُ مَا تَضْفُو الرُّوحَ مِنْ غَبَشِ الْجَسِّ، وَتَرْقَى إِلَى عَالَمِ الْمَلَكُوتِ،
 يُكْشِفُ لَهَا عَنْ جَمَالِ الْحَضْرَةِ. وَتَتَنَعَّمُ بِجَمَالِ الْحَبِيبِ. وَبِقَدْرِ مَا تَتَعَلَّقُ بِهَذَا
 الْعَالَمِ الْحَسِيِّ وَيُكْثِرُ شُغْلَهَا بِهِ، تَحْجُبُ مِنْ شُهُودِ جَمَالِ الْحَضْرَةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ
 بَعْضُهُمْ: حَضْرَةُ الْقُدُّوسِ مُحَرَّمَةٌ عَلَى أَهْلِ الثُّبُوسِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَيُّهَا الْعَاشِقُ مَعْنَى حُبِّنَا	مَهْرُنَا عَالٍ لِمَنْ يَخْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنَى وَرُوحٌ فِي الْعَنَا	وَجُفُونٌ لَا تَذُوقُ الْوَسْنَا
وَقُوَادٌ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُنَا	وَإِذَا مَا شِئْتَ أَذْ الثُّمْنَا
وَإِنِ إِنْ شِئْتَ فَنَاءَ سَرْمَدَا	فَالْفَنَّا يُذْنِي إِلَى ذَاكَ الْفَنَّا
وَإِخْلَعِ الثُّغْلَيْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَيَّ	ذَلِكَ الْحَيِّ فِيهِ قَدُسْنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُتَحَلِّعَا	وَأَزِلْ مَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنَنَا
وَإِذَا قِيلَ لِمَنْ تَهْوَى فَقُلْ	أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

وَأَمَّا الْبَاعِثُ الثَّانِي: وَهُوَ الْإِحْسَانُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ النَّفْسَ تَمِيلُ إِلَى مَنْ
 أَحْسَنَ إِلَيْهَا. وَلَا إِحْسَانَ إِلَّا مِنْهُ تَعَالَى. وَلَا نِعَمَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ
 تَعَالَى وَثَوَابِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾. [النحل: ٥٣] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. [لقمان: ٢٠] أَنْعَمَ أَوَّلًا بِنِعْمَةِ الْإِبْرَاهِيمَ،
 وَأَنْعَمَ ثَانِيَةً بِتَوَالِيهِ الْإِمْدَادِ. وَأَفْضَلَ النِّعَمِ وَأَعْظَمَهَا الْهِدَايَةَ إِلَى الْإِيمَانِ
 وَالْإِسْلَامِ. وَالْوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى وَالْإِطْلَاعَ إِلَى جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، فَهَذِهِ

التعنة المغتبرة عند الأكياس.

وَأَمَّا النَّعْمُ الحسنة فقد اشترك فيها البهائم وسائر الناس وبالله التوفيق.

وقوله: «وَأَنْتَ لَهُمْ نِعَمٌ الحبيب»، يعني أَنَّ أقواماً تاهوا في حُبِّ الحبيب. وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ بقرب القريب. وَخَرَبُوا ظَوَاهِرَهُمْ، وَعَمَرُوا بَوَاطِنَهُمْ. وَعَابُوا عَنِ الْأَسْبَابِ بمشاهدة مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ. كَانَ الحق تعالى نِعَمَ الحبيب، والمؤنس. أَنَسَهُمْ فِي بَوَاطِنِهِمْ. وَقَدَّمَ لَهُمْ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي ظَوَاهِرِهِمْ. قَامُوا بِخِدْمَتِهِ. وَقَامَ لَهُمْ بِإِصْصَالِ قِسْمَتِهِ. مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْزَنَتَهُ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. كما قال عليه الصلوة والسلام. وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] وقال بَعْضُهُمْ: «الْعِلْمُ كُلُّهُ مَجْمُوعٌ فِي كَلِمَتَيْنِ: لَا تَتَكَلَّفُ بِمَا كُفَيْتَ. وَلَا تُضَيِّعَ مَا اسْتَكْفَيْتَ». أَيِ لَا تَتَكَلَّفُ مَا كُفَيْتَ أَمْرَهُ مِنَ الرِّزْقِ الْمَقْسُومِ، وَلَا تُضَيِّعَ مَا اسْتَكْفَيْتَ الْفَرَضَ المحتوم.

وقوله: «وَإِنْ هَامُوا وَإِنْ تَاهُوا» نُشِيرُ إِلَى مَثْطُوقِهِ وَمَفْهُومِهِ إِلَى حَالِ الْفَرِيقَيْنِ. أَغْنَى حَالِ أَهْلِ الْبِدَايَةِ؛ وَهُمْ الْهَائِمُونَ التَّائِهُونَ؛ وَيُسَمُّونَ أَهْلَ السُّكْرِ، وَأَهْلَ الْخَمْرِ؛ وَهُمْ الْمَجْذُوبُونَ. وَحَالِ النِّهَايَةِ: وَهُمْ السَّالِكُونَ الْمُطْمَئِنُّونَ؛ وَهُمْ أَهْلُ الصُّخْرِ السَّالِكُونَ بَعْدَ السُّكْرِ الْجَذْبِ. فَأَخْبَرَ أَنَّ الحقَّ تعالى هُوَ حَبِيبٌ. وَنِعَمَ الحبيب لِلْجَمِيعِ. أَيِ وَأَنْتَ لَهُمْ نِعَمٌ الحبيب هَذَا إِنْ سَكَنُوا وَاطْمَأَنَّنُوا. بَلْ وَإِنْ هَامُوا، وَإِنْ تَاهُوا. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا قَبْلَ الْمُبَالِغَةِ أَوْ كَدُّ وَاعْظَمُ مِمَّا بَعْدَهَا. كما هُوَ مَفْهُومٌ مِنْ تَرَائِيكِ الْعَرَبِ. تقول: أَكْرَمَ زَيْدًا وَإِنْ جَاءَ عَاصِيًا. أَيِ هَذَا إِنْ جَاءَ طَائِعًا، بَلْ وَإِنْ جَاءَ عَاصِيًا. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُطْمَئِنِّينَ الرَّاسِخِينَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَاشِقِينَ التَّائِهِينَ: لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ وَاصِلُونَ. وَالْآخِرِينَ سَائِرُونَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

واعْلَمَنَّ أَنَّ الْمُخَصَّصِينَ بِالْمَحَبَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ سَالِكُونَ فقط. وَقِسْمٌ مَجْذُوبُونَ فقط. وَقِسْمٌ سَالِكُونَ مَجْذُوبُونَ: إِذِ الْجَذْبُ فِي بَوَاطِنِهِمْ، وَالسُّلُوكُ فِي ظَوَاهِرِهِمْ. فَالْأَوَّلُونَ لَا يَصْلُحُونَ لِلتَّزْيِيهِ. إِذْ لَا جَذْبَ فِي قُلُوبِهِمْ يَجْذِبُونَ بِهِ قَلْبَ الْمُرِيدِ إِلَى الْحَضَرَةِ. وَلَا هِمَّةَ عِنْدَهُمْ

تَنْهَضُ إِلَى الْخِدْمَةِ. قَالَ فِي الْحَكَمِ: «لَا تَضَحَبْ مَنْ لَا يَنْهَضُكَ حَالُهُ، وَلَا يَذُكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ».

والقسم الثاني أيضاً، لَا يَصْلُحُ لِلتَّزْيِيَةِ؛ لِأَنَّهُ مَطْمُوسُ الْأَثَرِ غَرِيقُ الْأَنْوَارِ. غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَى صَخْوِهِ. فَلَا يَعْرِفُ سُلُوكَ الطَّرِيقِ لَغَلْبَةِ سُكْرِهِ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ؛ وَهُوَ الْجَامِعُ بَيْنَ جَذْبٍ وَسُلُوكٍ؛ فَهُوَ الَّذِي يَصْلُحُ لِلتَّزْيِيَةِ لِكَمَالِهِ. لِكَوْنِهِ سَلَكُ الطَّرِيقِ. وَعَرَفَ وَغَرَّهَا وَسَهَّلَهَا وَجَذَبَهَا وَخَضَبَهَا. سَلَكُ طَرِيقَ الْجَذْبِ، وَذَاقَ أَسْرَارَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى طَرِيقِ السُّلُوكِ، وَحَقَّقَ آثَارَهَا. الْجَذْبُ فِي بَاطِنِهِ لَا يَزُولُ. وَالسُّلُوكُ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَحُولُ؛ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ جَذْبٍ وَسُلُوكٍ. مُعْتَدِلٌ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا. لَمْ يَغْلِبْ سُكْرُهُ عَلَى صَخْوِهِ. وَلَا صَخْوُهُ عَلَى سُكْرِهِ. وَلَا جَمْعُهُ عَلَى فَرْقِهِ. وَلَا فَرْقُهُ عَلَى جَمْعِهِ. وَلَا حَقِيقَتُهُ عَلَى شَرِيعَتِهِ. وَلَا شَرِيعَتُهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. وَيُؤْفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. نَعَمْنَا اللَّهُ بِرَكَاتِهِ. وَأَفَاضَ عَلَيْنَا مِنْ سِرِّهِ.

وقد أدركتناهم والحمد لله، وشهدناهم، وأخذنا عنهم وصحبناهم. فله المِنَّة والْفَضْلُ والعجب كل العجب، مَنْ يُنَكِّرُ وُجُودَهُمْ وَيَسُدُّ بَابَ الرَّحْمَةِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. [احج: ٤٦] وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ:

وَكَمْ عَائِدٍ لَيْلًا وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا فَقَالَ لَهُ الْجَزْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

وحقيقة الجذب: هُوَ شُهُودٌ حَقٌّ بِلَا خَلْقٍ، وَحَقِيقَةُ السُّلُوكِ الْمَخْصُصُ: هُوَ شُهُودٌ خَلْقٍ بِلَا حَقٍّ. وَحَقِيقَةُ السُّلُوكِ بَعْدَ الْجَذْبِ: هُوَ شُهُودٌ خَلْقٍ بِحَقٍّ أَوْ شُهُودٌ حَقٌّ مَعَ خَلْقٍ. وَلَا يَذُوقُ هَذِهِ الْمَعَانِي إِلَّا مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ عَلَى أَيْدِي الرُّجَالِ؛ ذَوْقًا وَكَشْفًا، وَإِلَّا فَشَاتَهُ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلِي حَبِيبٌ عَزِيزٌ لَا أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةً وَجْهِي يَوْمَ الْقَاءِ

الحبيب هُوَ الْمُحِبُّوبُ. إِلَّا أَنَّ فَعِيلَ، أَبْلَغَ مِنْ مَفْعُولٍ وَالْعَزِيزُ: يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ الْوُجُودِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ. وَيُطْلَقُ عَلَى الْغَالِبِ الْقَاهِرِ. وَلَعَلَّ الْمُرَادَ هُنَا غَيْرَ هَذَيْنِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بِالْعَزِيزِ هُنَا الْبَالِغَ فِي الْمَعَزَةِ وَالْمُحِبُّوبِيَّةِ؛ كَمَا تَقُولُ

العامة: فَلَا نَ عِنْدِي حَبِيبَ عَزِيزٍ قَدْ بَلَغْتَ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِي الْغَايَةَ الْقُضْوَى. فَلَمَّا عَشَقْتَهُ وَأَخْبَيْتَهُ، أَطْلَعَنِي عَلَى مَكْنُونِ سِرِّهِ، وَكَشَفَ لِي عَنْ أَسْتَارِ غَيْبِهِ. فَلَا أَبُوح بِسِرِّهِ. وَلَا أَطْلِعُ أَحَدًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنِّي إِنْ بَحْتُ بِسِرِّهِ، وَكَشَفْتُهُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. أَخَافُ أَنْ يَفْضَحَنِي يَوْمَ لِقَائِهِ. فيقول: يَا عَبْدِي، قَدْ أَطْلَعْتُكَ عَلَى سِرِّي، وَأَمْتَنْتُكَ عَلَى غَيْبِي، ثُمَّ أَفْشَيْتَهُ لِغَيْرِي فَالْيَوْمَ أَحْرَمَكَ مِنْ نَعِيمِ حَضْرَتِي، لَكُونْكَ لَمْ تَكْتَفِ بِعِلْمِي. وَلَمْ تَصُنْ سِرِّي. قُلْتُ: وَالْغَالِبُ أَنَّ هَذَا الْعِتَابَ يَقَعُ قَبْلَ اللَّقَاءِ فِي دَارِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَفْشَى سِرَّ الرُّبُوبِيَّةِ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَيْفَ الشَّرِيعَةِ. فَيَبْأَحُ دَمَهُ، وَيَهْتِكُ عِزَّهُ. كَمَا وَقَعَ لِلْحَلَّاجِ وَغَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

مَنْ شَهِدَ الْحَقِيقَةَ فَلْيَصُنْهَا وَإِلَّا سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسُّنَانِ
كَحَلَّاجِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِ
بِالسَّرِّ إِنْ بَاخُوا تَبَاحَ دِمَاؤُهُمْ وَكَذَا دِمَاءُ الْبَائِحِينَ تَبَاحُ
وَفِي السَّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ تُرَاقُ دِمَانًا جَهْرَةً لَوْ بِهَا بُخْنَا

قال بغض الصالحين: رَأَيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ. كَيْفَ سَلَّطْتَ عِبَادَكَ عَلَى وَلِيِّكَ الْحَلَّاجِ حَتَّى قَتَلُوهُ؟ فَقَالَ: «يَا عَبْدِي إِنِّي أَطْلَعْتُهُ عَلَى سِرِّ مِنْ أَسْرَارِي فَأَفْشَاهُ لِغَيْرِي. فَسَلَّطْتُ عَلَيْهِ عِبَادِي فَقَتَلُوهُ» انتهى بالمعنى.

وَمِنْ كَلَامِهِ الَّذِي قِيلَ بِسَبَبِهِ: «أَنَا أَنْتَ بِلَا شَكٍّ، فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي. فَتَوَحِيدُكَ تَوْحِيدِي وَعِضْيَانُكَ عِضْيَانِي». وَكَقَوْلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرًّا لَأَهْوَتِهِ الشَّاقِبِ.
ثُمَّ بَدَأَ فِي خَلْقِهِ ظَاهِرًا فِي سُورَةِ الْاِكْلِ وَالشَّارِبِ
حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقَهُ كَلِحَظَةِ الْحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وَلَمَّا تَقَدَّمَ لَهُ السَّيَافُ، لِيَضْرِبَ عُنُقَهُ. وَجَدَهُ يَقُولُ وَيَضْحَكُ:

نَدِيمِي غَيْرُ مُنْسُوبٍ إِلَى الْحَنِيفِ سَقَانِي مِنْ شَرَابِ الْخُبِّ كَسَقَنِي الصُّنَيْفِ لِلصُّنَيْفِ
فَلَمَّا دَارَتْ الْأَكْوَاسُ دَعَا بِالنُّطْعِ وَالسُّنَيْفِ كَذَلِكَ مَنْ يَشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ الْأَمِيرِ فِي الصُّنَيْفِ

ثُمَّ قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مُتَوَدِّدٌ لِمَنْ يُؤْذِيكَ. فَكَيْفَ لَا تَتَوَدَّدُ لِمَنْ يُؤْذِي فِيكَ. فَهِيَ أَنَا

فِي دَارِ الْعَجَائِبِ أَتَعَجَّبُ فِي الْغَرَائِبِ. ثُمَّ قَالَ:

يَا لَا إِلَهَ فِي هَوَاةٍ كَمْ تَلُومُ فَلَوْ عَايَنْتَ مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ لَمْ تَلُمِ
لِلنَّاسِ حُجٌّ وَلِي حُجٍّ إِلَى سَكْنِي تُهْدِي الْأَضَاجِي وَأَفِيدِي مُهَجِّي وَدَمِ
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَوْمٌ بِلاَ جَارِحَةٍ بِاللَّهِ طَافُوا فَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْحَرَمِ

قال له الشبلي: يا أبا المغيث: ما معنى التفرّد؟ فقال له: هو أن ينفرد العبد بالواحد الفرد. فإذا رآه الحق قد انفرد عن الخلق أمّنه من عذاب الطرد. فيصير للحق مشاهداً، والحق على لسانه شاهداً. فحينئذ يتخلّف لمقام المعرفة. ويوحى إلى خاطره ويخرس سره ممّا سواه. فلا يَرشَحُ فيه غير الحق من حضرة الحق بالحق. قال الشبلي رضي الله عنه فقلت له: ما المعرفة؟ قال: استهلاك الحس في المعنى. فقلت له: ما المحبة؟ قال: العيية عمّا سوى المحبوب. فقلت له: ما الوجود؟ فقال: لهيب ينشأ من الشوق في الأسرار. تضطرب به الجوارح ثم يزول؛ لأنه مَقْرُونٌ بالزوال، وتبقى نتيجته العرفانية لا تحول ولا تزول. فقلت له ما الأتس؟ فقال: وجود الهيبة مع ارتفاع الخشية وغلبة الرجا على الخوف. ثم قال يا شبلي: «مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْدَ خَطَرَاتِ قَلْبِهِ، عَصَمَهُ عِنْدَ حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ». ثم قال يا شبلي: أَلَسْتُ تَحْفَظُ كِتَابَ اللَّهِ. فقال الشبلي نعم. فقال: «قَدْ قَالَ لِبَيْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] يَا شَبْلِي: إِذَا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بِحَبَّةٍ مِنْ حُبِّهِ نَادَى عَلَيْهِ مَدَى الْأَرْمَانِ، بِلِسَانِ الْعِتَابِ». وأيضاً: «مَنْ أَفْشَى سِرَّ الْمَلِكِ كَانَ خَائِنًا وَمَنْ كَانَ خَائِنًا لَا يُؤْمَنُ عَلَى السِّرِّ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يُنَزَعَ مِنْهُ إِنْ أَفْشَاهُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. وَإِنَّمَا يُؤْمَنُ عَلَى السِّرِّ أَهْلُ الثِّقَةِ وَالصِّيَانَةِ». كما قال القائل:

لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا ذُو ثِقَةٍ فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومٌ
وَقَالَ آخَرُ:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقِي وَلَا أَثْرُ الدُّرِّ الثُّفَيْسَ عَلَى الْبَهْمِ
فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ يُلْطِفِيهِ وَلَا قِيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحُكْمِ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ وَإِلَّا فَمَخْرُؤُنْ لَدَيَّ وَمُكْنِيْمُ
وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلِي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ

يُكَذِّبُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». وقال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»^(١). وقال رجل لبعض العلماء، وقد سأله وَلَمْ يُجِبْهُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلُجَامٍ مِنَ النَّارِ». فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ: «اتْرُكِ اللَّجَامَ وَادْهَبْ. فَإِنَّ مَنْ جَاءَ يَسْتَحِفُّهُ وَكَتَمْتُهُ فَأَلْجَمْنِي». وَقَوْلُنَا لَغَيْرِ أَهْلِهِ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لَهُ، فَلَا بَأْسَ بِاطْلَاعِهِ عَلَيْهِ؛ وَهُوَ مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ وَفَلْسَهُ، وَزَهَدَ فِي جَنَسِهِ. وَخَطَّ رَأْسَهُ لِأَقْدَامِ الرِّجَالِ. كَمَا قَالَ سَيِّدِي عَبْدُ الْوَارِثِ الْيَلْبُهَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَذَلَ النَفْسَ، وَحَطَّ الرُّؤْسَ، وَصَفَّاءَ الْكُؤُوسَ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

يَا مَنْ يَلُومُ خَمَرَ الْمَحَبَّةِ فَخُذُوا عَنِّي هِيَ حَلَالٌ
وَمَنْ يُرِيدُ يُسْقَى مِنْهَا غِبًّا خَدُّهُ يَضَعُ لِأَقْدَامِ الرِّجَالِ
رَأْسِي حَطَطْتُ بِكُلِّ شَيْبَاهُمْ الْمَوَالِي سَقَوْنِي زُلَالٌ

فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَحِطْ رَأْسَهُ لِأَهْلِ السَّرِّ، وَلَمْ يَتَحَكَّمْ لَهُمْ، فَاطْلَاعُهُ عَلَى سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ حَرَامٌ. وَالْمُرَادُ بِسِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ: التَّوْحِيدُ الْخَاصُّ: الَّذِي هُوَ الشُّهُودُ وَالْعِيَانُ الْمَخْصُوصُ بِأَهْلِ الْعِرْفَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَتَفَعَّلَا بِهِمْ. وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ النَّاطِقُ بِقَوْلِهِ: لَا أَبُوحُ بِهِ. أَنِّي لَا أَبُوحُ بِسِرِّهِ وَلَا أَطْلِعُ عَلَيْهِ أَحَدًا غَيْرَ أَهْلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَعَالِطُ النَّاسَ طُرَافِي مَحَبَّتِهِ وَلَيْسَ يَغْلَمُ مَا فِي الْقَلْبِ إِلَّا هُوَ

الْمُغَالِطَةُ: إِظْهَارُ الْغُلُطِ، وَإِيقَاعُ الْغَيْرِ فِيهِ، مَعَ إِخْفَاءِ الصُّوَابِ. وَتُسَمَّى عِنْدَ الصُّوفِيَةِ التَّلْبِيسِ. كَمَا إِظْهَارُ الرُّغْبَةِ وَإِخْفَاءُ الزُّهْدِ. وَإِخْفَاءُ الْمَحَبَّةِ وَإِظْهَارِ السُّلْوَانِ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ صِيَانَةً لِلْسَّرِّ. وَتَحْقِيقًا لِمَقَامِ الْأَخْلَاقِ. وَمِنْهُ تَخْرِيبُ الظَّاهِرِ، وَتَغْمِيرُ الْبَاطِنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الصُّوفِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَالْمَحَبَّةُ: أَخَذَ جَمَالَ الْمَحْبُوبِ، بِمَحَبَّةِ الْقَلْبِ. حَتَّى لَا يُمْكِنَ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا الْعَمَلُ بِمَا فِيهِ رِضَاهُ، إِشَارًا لَهُ عَمَّا سِوَاهُ، يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَعَالِطُ النَّاسَ جَمِيعًا فِي مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ. فَأُظْهِرُ لَهُمُ السُّلْوَانَ عَنْهُ،

(١) أورد نحوه العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٥٩٢) (١/٢٢٥).

والاشتغال بغيره. وأخفي عنهم الاستغراق في شهوده، ودوام ذكره. اكتفاء بعلمه. وغيرة على سره. أن يظهر لغير أهله. وأظهر لهم الجهل، وأخفي عنهم العلم، والمعرفة له، وأظهر لهم الرغبة في الدنيا، وأخفي عنهم الزهد فيها. وأظهر لهم الحنق والسفَه. وأخفي عنهم العقل والسكينة. وأظهر لهم مخالطة أهل الدنيا، وأخفي عنهم العزلة في قلبي. فالقلب مع الحق. والجسم مع الخلق. وأظهر لهم محبة الملوك ومخالطتهم. وأخفي عنهم الغيبة عنهم بشهود ملك الملوك. وفي هذا المعنى قال الجنيد رضي الله عنه: لي أربعون سنة أناجي الحق، والناس يرون أنني أناجي الخلق. إلى غير ذلك من أحوال المحبة والمعرفة. وقد تكلم الناس في المحبة، وأكثروا الكلام فيها. كل على قدر مناله وشربه.

قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه: «المحبة أخذة من الله قلب من أحب بما يكشف من نور جماله. وقُدس كمال جلاله. وشراب المحبة: مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق. والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء، والثغوب بالثغوب، والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل. والشراب سقي القلوب والأوصال، والعروق من هذا الشراب حتى يسكر ويكون الشرب بالتدريب، بعد التذريب والتهديب. فيسقى كل على قدره. فمنهم من يسقى بغير واسطة. والله سبحانه يتولى ذلك. ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء، والأكابر من المقربين. فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً فما ظنك بعد الذوق، وبعد الشراب، وبعد الرئي، وبعد السكر بالسكر بالمشروبات. ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى. كما أن السكر أيضاً كذلك. والناس مغرفة الحق. يعرف بها من ذلك الشراب الطهور المخض الصافي لمن يشاء من عباده المخصوصين من خلق. فتارة يشهد الشارب ذلك الكأس صورة، وتارة يشهدا مغنوية. وتارة يشهدا علمية.

فالصورة حظ الأبدان والثفوس، والمغنوية حظ القلوب والعقول. والعلمية: حظ الأزواح والأسرار. فإنا له من شراب ما أعذبه فطوبى لمن شرب منه، ودام ولم يقطع عنه. نسأل الله من فضله، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾. [المائدة: ٥٤] وَقَدْ تَجْتَمِعُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحِبِّينَ، فَيُسْقَوْنَ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وَقَدْ يُسْقَوْنَ مِنْ كُؤُوسٍ كَثِيرَةٍ. وَقَدْ يُسْقَى الْوَاحِدُ بِكَأْسٍ وَيَكُؤُوسُ، وَقَدْ تَخْتَلِفُ الْأَشْرِبَةُ عَلَى حَسَبِ عَدَدِ الْأَكْوَاسِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ الشَّرْبُ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنْ شَرِبَ مِنْهُ الْجَمُّ الْعَفِيرُ مِنَ الْأَجْبَةِ. انْتَهَى كَلَامُ الْقُطْبِ ابْنِ مَشِيشٍ.

وقال تلميذه: الشيخ أَبُو الْحَسَنِ الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمَحَبَّةُ أَخْذَةُ مِنَ اللَّهِ قَلْبَ عَبْدِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ. فَتَرَى النَّفْسَ مَائِلَةً لَطَاعَتِهِ. وَالْعَقْلَ مُتَحَصِّناً بِمَعْرِفَتِهِ، وَالرُّوحَ مَأْخُودَةً فِي حَضْرَتِهِ، وَالسُّرَّ مَغْمُورَةً فِي مُشَاهَدَتِهِ، وَالْعَبْدَ يَسْتَزِيدُ مِنْ حُبِّهِ، فَيَزَادُ وَيَفْتَاحُ بِمَا هُوَ أَغْذَبَ مِنْ لَذِيذِ مُنَاجَاتِهِ. فَيَكُتْسِي حُلَّ التَّقَرُّبِ، عَلَى بَسَاطَةِ الْقُرْبَى، وَيَمَسُّ أَبْكَارَ الْحَقَائِقِ. وَثَبَّتَاتِ الْعُلُومِ. فَيَمُنْ أَجَلَ ذَلِكَ قَالُوا:

الْأَوْلِيَاءُ عَرَائِشُ وَلَا يَرَى الْعَرَائِشَ الْمُجْرِمُونَ. ثُمَّ قَالَ: الشَّرَابُ: هُوَ الثُّورُ السَّاطِعُ مِنْ جَمَالِ الْمَخْبُوبِ. وَالْكَأْسُ: هُوَ اللَّطْفُ الْمُوَصَّلُ ذَلِكَ إِلَى أَقْوَاهِ الْقُلُوبِ، وَالسَّاقِي: هُوَ الْمُتَوَلَّى ذَلِكَ لِمَخْصُوصِ الْكِبَرِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ؛ وَهُوَ اللَّهُ الْعَالِمُ بِالْمَقَادِيرِ، وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ. فَمَنْ كُشِفَ لَهُ عَنْ هَذَا الْجَمَالِ، وَخُطِّيَ بِشَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا أَوْ نَفْسَيْنِ أَوْ أَرْجَحِي عَلَيْهِ الْحِجَابُ؛ فَهُوَ الذَّائِقُ الْمُشْتَقِ. وَمَنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارِبُ حَقًّا. وَمَنْ تَوَالَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَدَامَ لَهُ الشَّرْبُ، حَتَّى امْتَلَأَتْ عُرُوقُهُ وَمَفَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ الْمَخْزُونَةِ؛ فَذَلِكَ هُوَ الرَّيُّ وَزَيْمًا غَابَ عَنِ الْمَحْسُوسِ وَالْمَعْقُولِ، فَلَا يَذَرِي مَا يُقَالُ وَلَا مَا يَقُولُ، فَذَلِكَ هُوَ السُّكْرُ. وَقَدْ تَدَوَّرَ عَلَيْهِمُ الْكَاسَاتُ. وَتَخْتَلِفُ لَدَيْهِمُ الْحَالَاتُ، وَيَرُدُّونَ إِلَى الذُّخْرِ وَالطَّاعَاتِ، وَلَا يُحْجَبُونَ عَنِ الصِّفَاتِ، مَعَ تَزَاحُمِ الْمَقْدُورَاتِ. فَذَلِكَ وَفَتْ صَخُومِهِمْ، وَاتَّسَاعَ نَظَرِهِمْ. وَمَزِيدَ عِلْمِهِمْ، فَهُمْ يَنْجُومُ الْعِلْمِ وَقَمَرِ التَّوْحِيدِ يَهْتَدُونَ فِي لَيْلِهِمْ. وَيَشْمُوسُ الْمَعَارِفِ يَسْتَضِيئُونَ فِي نَهَارِهِمْ، «أَوَّلِيَّتُكَ حَزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حَزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». [المجادلة: ٢٢] انْتَهَى كَلَامُ الْقُطْبِ الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«حقيقة المحبة أن تهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ» وقال أبو الحسين الوراق: «المحبة سُرُورُ بِاللَّهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالْمَحَبَّةُ فِي الْقَلْبِ نَارٌ تَحْرِقُ كُلَّ دَنْسٍ. وقال بغضهم:

«مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَوَرُّعٍ مَحَارِمِهِ؛ فَهُوَ كَذَّابٌ. وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ الْجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ إِنْتَاقٍ مُلْكِهِ فَهُوَ كَذَّابٌ، وَمَنْ ادَّعَى حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ حُبِّ الْفُقَرَاءِ فَهُوَ كَذَّابٌ، وَكَانَ كِرَابَعَةً تُشِيدُ:

تَغْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
إِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَا طَغَتْهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
وقال بغض الشعراء في هذا المَترَع:

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ حَالِ عَاشِقِهَا لِيْلِهِ صِفُهُ وَلَا تَنْقُضْ وَلَا تَزِدِ
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ زَهْنُ الْمَوْتِ مِنْ ظَمِإٍ وَقُلْتُ قِفْ عَلَى وَرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
وَقَالَ آخَرُ:

وَلَوْ عَذَّبْتَنِي فِي النَّارِ حَتْمًا دَخَلْتُ مُطَاوِعًا وَسَطَ الْجَحِيمِ
وقال آخَرُ:

إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ رِضَاكَ عَنِّي فَمَا ذَاكَ الْجَحِيمِ سِوَى نَعِيمِ
إِنْ كَانَ سَفْكَ دَمِي أَقْصَرَ مُرَادِكُمْ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِ

وقال سَخُونُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذَهَبَ الْمُحِبُّونَ لِلَّهِ بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَهُوَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى». وقال أبو يعقوب السوسي: لَا تَصْلُحُ الْمَحَبَّةُ، حَتَّى تَخْرُجَ عَنْ رُؤْيَا الْمَحَبَّةِ، إِلَى رُؤْيَا الْمَحْبُوبِ بَفَنَاءِ عِلْمِ الْمَحَبَّةِ، مِنْ حَيْثُ كَانَ الْمَحْبُوبُ فِي الْغَيْبِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا بِالْمَحَبَّةِ. فَإِذَا خَرَجَ الْمُحِبُّ إِلَى هَذِهِ، كَانَ مُجِبًّا مِنْ غَيْرِ مَحَبَّةٍ. وَسُئِلَ الشُّبْلِيُّ عَنِ الْمَحَبَّةِ فَقَالَ: كَأَسْ لَهُ وَهَجٌ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْحَوَاسِ، وَسَكَنَ فِي النَفُوسِ ثَلَاثُ شُت.

وقيل: لِلْمَحَبَّةِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ. ظَاهِرُهَا اتِّبَاعُ رَضَى الْمَحْبُوبِ. وَبَاطِنُهَا أَنْ يَكُونَ مَفْتُونًا بِالْحَبِيبِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا تَبْقَى فِيهِ بَاقِيَةٌ لِغَيْرِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ.

وقال في المعارف: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ

إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي، وَأَهْلِي وَمَالِي، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ^(١). فَكَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَبَ بِحُكْمِ الْعِلْمِ وَالْحِيلَةِ تَتَعَاظِدُهُ بِضِدِّ الْعِلْمِ. مِثْلُ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا. وَالْحِيلَةُ قَدْ تَنَكَّرَهُ، وَيَكُونُ النَّظَرُ إِلَى الْإِقْيَادِ بِالْعِلْمِ، وَإِلَى الْاسْتِقْصَاءِ بِالْحِيلَةِ. فَقَدْ يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحُكْمِ الْإِيمَانِ. وَيَحِبُّ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ بِحُكْمِ الصَّنِيعِ الْمُرَادِ مِنْهُ. فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ مُحَبَّةَ الْعَوَامِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ. وَمُحَبَّةَ الْخَوَاصِّ بِالذُّوقِ عَلَى نَعْتِ مُشَاهَدَةِ الْحَبِيبِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وقوله: «وَلَيْسَ يَغْلَمُ فِي الْقَلْبِ إِلَّا هُوَ». هَكَذَا فِي جُلِّ النُّسخِ بَعْدَ السَّطْرِ أَيْ لَا يَغْلَمُ مَا فِي قَلْبِي مِنَ الشَّغْفِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَّا الْمَحْبُوبُ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ بَعْدَ السَّطْرِ أَيْ لَا يَغْلَمُ مَا فِي قَلْبِي مِنَ الشَّغْفِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَّا الْمَحْبُوبُ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: وَفِي الْأَغَالِيطِ سِرٌّ رَقٌّ مَعْنَاهُ. يَشِيرُ إِلَى مَقَامِ الْإِخْلَاصِ. قَالَ السِّرُّ الَّذِي خَفِيَ مَعْنَاهُ هُوَ الْإِخْلَاصُ، إِذْ لَا يَتَحَقَّقُ ذَوْقًا، إِلَّا بِإِظْهَارِ مَا يُنَافِيهِ مِنَ الْأَغَالِيطِ، وَمَرْجِعُهَا إِلَى تَخْرِيبِ الظَّاهِرِ. إِذْ يَقْدَرُ مَا يَخْرُبُ الظَّاهِرَ، يُعْمَرُ الْبَاطِنُ. وَيَقْدَرُ مَا يُعْمَرُ الظَّاهِرَ، يُخْرَبُ الْبَاطِنُ. وَيَقْدَرُ مَا يُزَيِّنُ الظَّاهِرَ، يُقَبِّحُ الْبَاطِنُ. وَبِالْعَكْسِ يَنْتَوِرُ الظَّاهِرُ بِالتَّائْتِ فِي الثِّيَابِ، وَتُخْسِنُ الْهَيْئَةُ وَبِهِ يَتَظَلَّمُ الْبَاطِنُ. وَهَذَا مُجَرَّبٌ عِنْدَ أَهْلِ الْقَنِّ. لَا يُنَكِّرُهُ إِلَّا الْجَاهِلُ بِالطَّرِيقِ.

وَالْإِخْلَاصُ: إِفْرَادُ الْحَقِّ بِالطَّاعَةِ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَنْ يَرِيدَ بِطَاعَتِهِ الْقُرْبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، دُونَ شَيْءٍ آخَرَ؛ مِنْ تَصْنَعٍ لِمَخْلُوقٍ أَوْ اكْتِسَابِ مَخْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ وَمُحَبَّةٍ مَذْحِ الْخَلْقِ. أَوْ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي. سَوَى التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ الْقَشِيرِيُّ. وَأَحْسَنَ مِنْهُ تَفْسِيرُ الْحَقِّ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ، قَالَ الْحَسَنُ: سَأَلْتُ حُذَيْفَةَ عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ سَأَلْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ فَقَالَ: «سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِي أَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَخْبَيْتُ مِنْ عِبَادِي»^(٢)

(١) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم (٣٤٩٠) [٥٢٢/٥] والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٤٨١٠) [٢٧١/٣] ورواه غيرهما.

(٢) رواه أبو الفيض القاداني المكي في العجالة في الأحاديث المسلسلة، المسلسل بالسؤال عن الإخلاص [٨٨/١].

وقال الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإخلاصُ سرٌّ بين الله تعالى وبين العبد. لا يعلمه مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ وَلَا هَوًى فَيُضِلُّهُ». وله درجات: إخلاص العوام: وهو إفراد الحق بالطاعة، مع ملاحظة الجزاء في الدنيا والآخرة. وإخلاص الخواص: وهو إفراد الحق بالطاعة، مع ملاحظة الجزاء الأخروي فقط وإخلاص خواص الخواص وهو إفراد الحق بالطاعة، مع الغيبة؛ بَلْ مَحَبَّةٌ وَتَعْظِيمٌ وَعِبودية.

قال مكحول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(١)، وهو موقوف عليه. واللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَجُودُ فِي بَغْضِ التُّسَخ: أَرِيهِمْ أَنَّنِي بَغَيْرِهِ كَيْفَ؛ أَي أَظْهَرُ لِلنَّاسِ أَنَّنِي بِغَيْرِ الْمَحْبُوبِ كَيْفَ؛ أَي مُوَلَّعٌ وَمَتَكَلِّفٌ بِهِ، وَمَشْغُولٌ بِمَحَبَّتِهِ. وَلَيْسَ يَغْلُمُ مَا فِي قَلْبِي مِنْ مَحَبَّةِ الْحَبِيبِ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّنِي لَمَّا عَرَفْتُهُ، وَكَشَفَ الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، قُلْتُ: لَا يَحْجُبُنِي عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ. فَيُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَنَّنِي أَشَاهِدُ الْخَلْقَ. وَتُعْظَمُهُمْ، وَتَنَادِبُ مَعَهُمْ. وَأَنَا فِي الْبَاطِنِ لَا تُشَاهِدُ إِلَّا الْمَلِكَ الْحَقَّ. وَلَا تَنَادِبُ إِلَّا مَعَهُ. وَلَا تَتَكَلَّفُ إِلَّا بِهِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَلَهُ الشُّكْرُ.

قال الشيخ أَبُو الْحَسَنِ الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ بِبَصَرِ الْإِيمَانِ وَالْإِيقَانِ، فَأَعْنَانَا ذَلِكَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ. وَأَنَا لَا نَرَى أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ. فَهَلْ فِي الْوُجُودِ سِوَى الْمَلِكِ الْحَقِّ. فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ كَالْهَبَاءِ فِي الْهَوَى إِنْ فَتَشْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا» وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَالُوا أَتَنْسَى الَّذِي تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِي كَيْفَ أَنْسَاهُ
وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالْأَشْيَاءَ بِهِ حَسَنْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ يَنْسَى الْعَبْدُ مَوْلَاهُ

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ لِي قَوْمِي: أَتَنْسَى الْمَخْبُوبَ الَّذِي تَهْوَاهُ وَتَغْشَقُهُ حَتَّى تَغِيبَ عَنْ ذِكْرِهِ وَمَشَاهِدَةِ سِرِّهِ. فَقُلْتُ لَهُمْ: يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِي وَبِهِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (٣٤٣٤٤) [٨٠/٧] والقضاعي في مسند الشهاب، [باب] ٣٢٥ من أخلص لله أربعين...، حديث رقم (٤٦٦) [٢٨٥/١] ورواه غيرهما.

قَوَامِي وَنَشَاتِي، قَدْ سَرَى سِرُّهُ فِي سِرِّي، وَنُورُهُ فِي كَلْبِي دَاتِي، وَتَخَلَّلَتْ مَحَبَّتُهُ جَمِيعَ أَجْزَائِي كَيْفَ أَنْسَاهُ وَأَغْيَبَ عَنْهُ. وَكَيْفَ أَيْضاً أَنْسَاهُ وَأَغْيَبَ عَنْهُ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِهِ قَامَتْ، وَبِنُورِ جَمَالِهِ حَسُنَتْ وَابْتَهَجَتْ. فَمَا ظَهَرَ فِي الْكَوْنَيْنِ إِلَّا نُورُ بَهَائِهِ وَجَمَالِهِ. فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ قَبِيحٌ، وَلَا بَشِيعٌ؛ لِأَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ بِقُدْرَةِ الْحَكِيمِ الْبَدِيعِ. وَإِلَى هَذَا، أَشَارَ صَاحِبُ الْعَيْنَةِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أَتَشْكُ مَعَائِي الْحُسْنَ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكْمَلُ نُفْصَانُ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا تَمُّ نُفْصَانٌ وَلَا تَمُّ بَاشِعُ

ثُمَّ تَعَجَّبَ نِسْيَانُ الْعَبْدِ مَوْلَاهُ وَهُوَ مَعَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ، أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ قَائِماً بِأَمْرِ عَبْدِهِ، لَا يَنْسَاهُ مِنْ إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. وَالْعَبْدُ غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِهِ. مُشْغُولٌ بِذِكْرِ غَيْرِهِ. فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ، اسْتِفْرَاقُ طَاقَتِهِ وَجُهِدِهِ فِي ذِكْرِ سَيِّدِهِ؛ وَمُشَاهَدَةُ إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. [البقرة: ١٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [الأعراف: ٦٩] وَقَدْ رَأَيْتُ أَحَادِيثَ وَأَخْبَارَ فِي التَّرْغِيبِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي عَظَمَتِهِ، فَلَا نَظِيلَ بِسَرْدِهَا؛ لِأَنَّهَا مَقْرَرَةٌ فِي مَحَلِّهَا مِنَ الْمُطَوَّلَاتِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

ثُمَّ صَرَّحَ بِحَالِهِ مَعَ مَحْبُوبِهِ؛ وَهُوَ الْاسْتِفْرَاقُ فِي شَهْوَدِهِ فَقَالَ:

مَا غَابَ عَنِّي وَلَكِنْ لَسْتُ أَبْصُرُهُ إِلَّا وَقُلْتُ جِهَاراً قُلْ هُوَ اللَّهُ
يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا غَابَ عَنِّي مَحْبُوبِي طَرَفَةً عَيْنٍ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَبِهِ حَيَاتِي، وَقِيَامُ دَاتِي كَمَا قَالَ ابْنُ الْفَارُضِ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) العارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلي، وقد سبقت الإشارة إليه.

(٢) القائل هو القطب أبو مدين التلمساني شبيب بن الحسن الأندلسي التلمساني المتوفى في

سنة ٥٩٤ هجرية. وتتمة الأبيات هي:

يا من بهم قد طابت حياتي	وتبت فخرأ على الوجود
أنتم شموسي وعين ذاتي	ووجهكم قبلة السجود
خرجت عني وعن صفاتي	وجشتمكم اشتهى ورودي
وحقكم لم أزل عبيداً	حول حماكم ماوى الفقير
بكم أنادي رخاً وشدة	يا سادتي فاجبروا كسيري

أَنْتُمْ شُمُوسِي وَعَيْنُ دَاتِي وَوَجْهُكُمْ قَبْلَةُ السَّجُودِ
فَمَحْبُوبِي لَا يَغِيبُ عَنِّي قَطُّ. ولكن لست أَبصره، وَأَشَاهِدُهُ فِي مِرَائِي
جَمَالِهِ، وَتَجَلِّيَاتِ دَاتِيهِ، إِلَّا وَقُلْتُ جَهَاراً بِلِسَانِ الْحَالِ. قُلْ هُوَ اللَّهُ. إِذْ لَا
تُشَاهِدُ سِوَاهُ. وَلَا تَرَى إِلَّا إِيَّاهُ؛ لِأَنِّي مَحْجُوبٌ بِالْجَمْعِ عَنِ الْفَرْقِ. وَبِشُهُودِ
الْمُؤَثِّرِ عَلَى الْأَثَرِ. وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ رُؤْيَةِ الْأَثَرِ، فَيَرَاهُ قَائِماً بِهِ، وَنوراً مِنْ
أَنْوَارِهِ. لَا وُجُودَ لَهُ مَعَهُ. لِثَبُوتِ أَحَدِيَّتِهِ. فَلَا تُكُونُ ثَابِتَةً بِإِثْبَاتِهِ. مَفْحُوهَةً بِأَحَدِيَّةِ
دَاتِيهِ:

مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ دَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ
فَالْعَارِفُونَ فَنُوا وَلَمَّا لَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِي
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْآسِتِقْبَالِ
قَالَ الْقُطُبُ ابْنُ مَشِيشٍ لَأَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا أَبَا
الْحَسَنِ: «حَدِّدْ بَصَرَ الْإِيمَانِ. تَجِدِ اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ
شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَحْتَ كُلِّ شَيْءٍ،
وَقَرِيباً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَمُحِيطاً بِكُلِّ شَيْءٍ. بِقُرْبٍ هُوَ وَضْفُهُ. وَبِحِيطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ.
وَعُدَّ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ وَالْحُدُودِ، وَعَنِ الْأَمَّاكِينِ وَالْجِهَاتِ، وَعَنِ الصَّحْبَةِ وَالْقُرْبِ فِي
الْمَسَافَاتِ، وَعَنِ الدُّورِ بِالمَخْلُوقَاتِ. وَامْحَقِ الْكُلَّ بِوصْفِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ،
وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ؛ وَهُوَ هُوَ، هُوَ. «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ. وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا
عَلَيْهِ كَانَ». وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ، وَعُدَّ الْخ. إِلَى أَنَّ مَا جَرَى فِي كَلَامِهِ مِنَ الظُّرُوفِ
لَيْسَتْ بِزَمَانِيَّةٍ وَلَا مَكَانِيَّةٍ؛ لِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ. وَإِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ ذَوْقِيَّةٌ.
فَاعْتَزَّ كَمَالَ التَّنْزِيهِ، وَبُطْلَانَ التَّشْبِيهِ، وَتَمَسَّكَ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وَسَلَّمْ ذَلِكَ لِأَهْلِيهِ. فَإِنَّهُمْ
عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا رَمَزُوا إِلَيْهِ، فِيمَا ذَاقُوهُ وَوَجَدُوهُ. بَلْ هِيَ مِنْ مُحَضِّصِ الْإِيمَانِ،
وَخَالِصِ الْعِرْفَانِ؛ وَهُوَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ. وَصَفُوهُ الْإِيمَانِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ
الْعَارِفِينَ. قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْعَارِفِينَ:

الْحَقُّ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنِ الْأَيْنِ، وَالْجِهَةِ وَالْكَيْفِ، وَلَا جِسْمَ وَلَا جَوْهَرَ، وَلَا
عَرَضَ؛ لِأَنَّهُ لِلطَّيْفِ سَارٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلِنُورِيَّتِهِ ظَاهِرٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلَا إِطْلَاقَهُ

وَإِحَاطَتِهِ مُتَكَيِّفٌ بِكُلِّ كَيْفٍ غَيْرِ مُتَقَيِّدٍ بِذَلِكَ. وَمَنْ لَمْ يَذُقْ هَذَا، وَلَمْ يَشْهَدْ؛ فَهُوَ أَغْمَى الْبَصِيرَةِ. مَحْرُومٌ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْحَقِّ. وَمِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ ابْنِ الْفَارُضِ:

هُوَ الْحَقُّ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ	هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ
هُوَ الثَّوَرُ الْمُبِينُ بِغَيْرِ شَكٍّ	هُوَ الرَّبُّ الْمَحْبُوبُ فِي الْعَبِيدِ
هُوَ الْمَشْهُودُ فِي الشَّاهِدِ يَبْدُو	فِيخْفِيهِ الشُّهُودُ عَنِ الشَّهِيدِ
هُوَ الْعَيْنُ الْعَيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ	هُوَ الْمَقْعُودُ فِي بَيْتِ الْقَعِيدِ
جَمِيعُ الْعَالَمِينَ لَهُ ظِلَالٌ	سُجُودٌ فِي الْقَرِيبِ وَفِي الْبَعِيدِ
وَهَذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ	فَكَفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

ولابن عطاء الله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَالثَّوَرُ يَظْهَرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ	إِلَّا بِهِ وُجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلَا امْتِرَا
لَكِنَّهُ يَخْفَى لِقَرْطِ ظُهُورِهِ	حِسًّا وَيُذِرُكَ الْبَصِيرُ مِنَ الْوَرَا
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَا تَجِدُ	شَيْئًا سِوَاهُ عَنِ الذَّاتِ مُصَوِّرَا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ	فَيَزِيدُ جَهْلَكَ لَا تَزَالُ مُعْتَرَا

وهذه الأسرار لا يذوقها، إِلَّا مَنْ صَحِبَ أَهْلَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. وَمَنْ لَمْ يَضَحِّبْهُمْ، فَحَسْبُهُ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ اَعْلَمَ أَنَّ مِنْ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يَتَغَزَّلُوا فِي مَدْحِ الْحَبِيبِ. بِذِكْرِ الرُّقْبَا وَالْعَوَازِلِ إِذْ لَا تَخْلُو الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِوُجُودِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ مَدْحِهِ. كَمَا فَعَلَ كَغَبُ بْنُ زُهَيْرٍ، وَالْإِمَامُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي بُرْدَتِهِ؛ وَغَيْرُهُمَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمَلُهُ فِي آخِرِ مَدْحِهِ، كَمَا فَعَلَ النَّازِمُ حَيْثُ قَالَ:

مَاذَا يَقُولُ اللَّوَاخِي ضَلَّ سَبِيلُهُمْ	وَمَاذَا تَقُولُ الْأَعَادِي زَادَ مَعْنَاهُ
هَلْ غَيْرُ أَنِّي أَهْوَاهُ وَقَدْ صَدَّقُوا	نَعَمْ نَعَمْ أَنَا أَهْوَاهُ وَأَهْوَاهُ

قُلْتُ: التَّلَاجِي: هُوَ التَّخَاصُّمُ. وَتَلَاحَى فَلَانٌ وَفُلَانٌ تَخَاصَّمَا. وَاللَّوَاخِ: جَمْعُ لَانِئَةٍ أَيْ مُخَاصَّمَةٍ وَمَاذَا: إِذَا أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةٌ بُرْمَتِيهَا. أَوْ ذَا مَوْصُولَةٌ. وَمَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيبِ وَالتَّسْيِبِ: مَاذَا: أَيْ أَيُّ شَيْءٍ
تَقُولُ اللَّوَاخِي. فِي لُومِي وَعِتَابِي عَلَى مَحَبَّةِ الْحَبِيب. أَوْ مَا الَّذِي تَقُولُهُ الْعَوَازِلُ
وَالرَّقَبَا فِي عَذْلِي وَلُومِي عَلَى فَرْطِ مَحَبَّتِي، وَالتَّهَالُكِ فِي عَشْقِي أَضْلُ اللَّهُ
سَغِيهِمْ، وَحَيْبُ قَضَاهُمْ. فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا سُلُوكِي مِنْ عَشْقِي، وَبُعْدِي مِنْ حَبِيبِي.
فَلَا أَسْمَعُ قَوْلَهُمْ. وَلَا أَقْبَلُ نَصَحَتَهُمْ. وَمَا تَقُولُ الْأَعَادِي، أَيْ أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُهُ
الْأَعَادِي وَالْحُسَادُ فِي دُخُولِهِمْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَحْبُوبِي؛ بِالتَّخْلِيضِ وَالتَّخْوِيفِ. فَمَا
وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ. إِلَّا لَمَّا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ إِقْبَالِ الْمَحْبُوبِ عَلَيَّ. وَتَقْرِيبِهِ إِلَيَّ،
وَاعْتِيَاثِهِ بِشَأْنِي. فَاللَّهُ يَزِيدُنِي مِنْ تِلْكَ الْمَعْنَى وَيُحَقِّقُنِي بِذَلِكَ الْمَقْصِدِ الْأَسْتَى.
وَهَلْ يَقُولُونَ شَيْئًا؛ غَيْرَ أَنِّي أَهْوَاهُ وَأُحِبُّهُ. أَيْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَعْيُبُوا عَلَيَّ شَيْئًا.
إِلَّا أَنِّي أُحِبُّهُ وَأَهْوَاهُ. وَلَقَدْ صَدَّقُوا فِي دَعْوَاهُمْ. فَإِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ، وَأَفْصَحَ
بِالْجَوَابِ. فَنَقُولُ: نَعَمْ نَعَمْ. أَنَا أَهْوَاهُ. ثُمَّ أَهْوَاهُ وَلَا نَسْلُو عَنْهُ أَبَدًا. وَهَذَا
الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ مِنْ ذِكْرِ الْخُصُومِ وَالْأَعَادِي، لَا يَشْتَرِطُ تَحْقِيقَهُ فِي الْخَارِجِ. بَلْ
ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الشَّعْرَاءِ. أَوْ يُسَمَّى التَّغَزُّلُ وَالتَّشْبِيبُ وَالتَّسْيِبُ. يَحْسُنُ ذِكْرُهُ فِي
أَوَّلِ الْمَذْحِ، أَوْ فِي أَثْنَائِهِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقْصَدَ بِذَلِكَ مَنْ يَلُومُهُ عَلَى
التَّجْرِيدِ، وَتَرْكِ الْأَسْبَابِ، وَالانْقِطَاعِ إِلَى الْمَحْبُوبِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ لَهُ مَنْ يَتَعَلَّقُ
بِهِ مِنْ أَهْلِ وَأَوْلَادٍ. فَإِنَّ أَهْلَ الظَّاهِرِ لَا يُسَلِّمُونَ لِأَهْلِ الْبَاطِنِ فِي هَذَا الْمَعْنَى،
وَكَذَلِكَ تَخْرِيبُ الظَّاهِرِ، وَإِتْلَافُ الْمَالِ الَّذِي يَشْغُلُ الْبَاطِنَ. فَإِنَّ غَالِبَ النَّاسِ
يَعْيُونَ عَلَى مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْعَوَازِلَ وَالرَّقَبَا، وَالْأَعَادِي بِالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَالْهَوَى
وَالذَّنْبِ؛ وَكُلُّ مَا يَشْغُلُ عَنِ اللَّهِ. ذَكَرَهُ فِي شَرْحِ تَائِيَةِ ابْنِ الْفَارَضِ وَقَالَ: هَذَا
مَرَادُ الصُّوفِيَةِ بِالْعَوَازِلِ وَالرَّقَبَا وَهُوَ حَسَنٌ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعَوَازِلُ؛ وَهِيَ الْقَوَاطِعُ
الَّتِي تَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؛ هِيَ فِي الظَّاهِرِ قَوَاطِعُ. وَفِي الْبَاطِنِ مُحْسُوسَاتُ.
وَمَوْصَلَاتُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ ذَكَرَهُمْ صَاحِبُ الْحَكَمِ الْعَطَائِيَّةُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَقَالَ فِي شَأْنِ النَّفْسِ: «حَرَّكَ النَّفْسَ عَلَيْكَ لِيُدَوِّمَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ».
وَقَالَ فِي شَأْنِ الشَّيْطَانِ: «إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ
عَمَّنْ تَأْصِيكَ بِيَدِهِ». وَقَالَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا: «إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَكْثَادِ تَرْهِيدًا

لَكَ فِيهَا». وَقَالَ فِي شَأْنِ النَّاسِ: إِنَّمَا جَرَى الْأَذَى عَلَيْهِمْ كَنِي لَا تَكُونُ سَاكِناً إِلَيْهِمْ. أَرَادَ أَنْ يُزَعِّجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا يُشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

وَقَدْ كَانَ شَيْخٌ شَيْخَنَا مَوْلَايَ الْعَرَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي شَأْنِ النَّفْسِ إِذَا اسْتَكَى لَهُ أَحَدٌ بِنَفْسِهِ. جَزَاها اللَّهُ خيراً عَنِّي. وَاللَّهُ مَا رَبَّحْنَا إِلَّا مِنْهَا. يَغْنِي أَنَّهُ جَاهِدَهَا وَرَبِّضَهَا حَتَّى انْقَادَتْ، وَأَسْلَمَتْ وَتَرَوُحَتْ. فَجَعَلَتْ تَأْتِيهِ بِالْعُلُومِ وَالْمَوَاهِبِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، فَإِنَّ الرُّوحَ كَانَ أَضْلَاهَا عَلَامَةً دَرَاكَةً. فَمَا حَجَبَهَا إِلَّا الشَّهَوَاتُ، وَالْعَوَائِدُ الَّتِي تَعَوَّدَتْ بِهَا حَتَّى تَظَلَّمَتْ. فَسُمِّيَتْ نَفْساً. فَإِذَا مُنِعَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَعَوَائِدِهَا، رَجَعَتْ إِلَى أَضْلِيلِهَا. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى، أَشَارَ ابْنُ الْبَنَّا فِي مَبَاجِئِهِ حَيْثُ قَالَ:

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نَفُوسٍ الْأَخْيَا عَلَامَةً دَرَاكَةً لِلْأَشْيَا
وَأِنَّمَا تَعَوَّفُهَا الْأَبْدَانُ وَالْأَنْفُسُ النَّزَاغَ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَادَهُ أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَةِ
ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا مِنْ مَحَبَّتِهِ فَإِنَّهَا حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَإِنْ يَقُولُوا بِأَنَّ الْحُبَّ مَغْصِيَةٌ فَالْحُبُّ أَحْسَنُ مَا يُلْقَى بِهِ اللَّهُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ: أَيُّ أَطْلُبُ مَغْفِرَتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنِّي، قَوْلًا وَعَمَلًا وَعَقْدًا. إِلَّا مِنْ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهَا لَا يَدْخُلُهَا خَلَلٌ؛ لِأَنَّهَا مَحْمُودَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ. فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ فَتَقُولُ لَهُ: الْحُبُّ أَحْسَنُ مَا يُلْقَى بِهِ اللَّهُ. لِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١). وَلَا يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ، إِلَّا مَنْ تَمَكَّنَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ. فَظَهَرَ أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ، وَأَكْمَلُ الْحَالَاتِ، فَلَا تَفْتَقِرُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ وَلِذَلِكَ قَالَ الْقُطُبُ بْنُ مَشِيشٍ: «وَاعْلَمْ أَنَّ حُبَّ اللَّهِ قُطْبٌ تَدُورُ عَلَيْهِ الْخَيْرَاتُ. وَأَضَلُّ جَامِعٍ لَجَمِيعِ الْكَرَامَاتِ»، إِلَى آخِرِ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ...، حَدِيثٌ رَقْمُ (٦١٤٢) [٥]

[٢٣٨٦]. وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ...، حَدِيثٌ رَقْمُ (٢٦٨٣) [٤]

[٢٠٦٥] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

كَلَامِهِ فِي بَعْضِ وَصَايَاهُ.

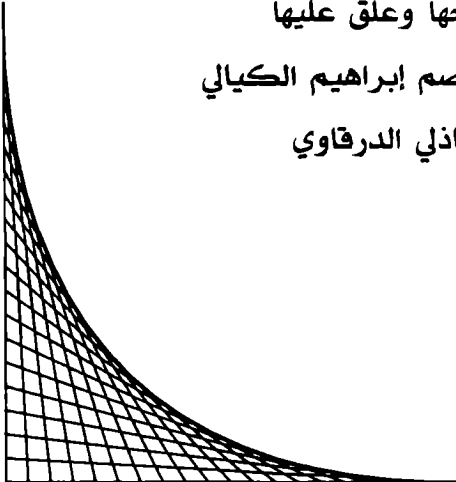
ثم اَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ؛ إِنَّمَا تَكُونُ مَعَ تَمَامِ الْمَعْرِفَةِ، إِذِ الْمَحَبَّةُ بِلَا مَعْرِفَةٍ، قَدْ يَضْدُرُّ مِنْ صَاحِبِهَا سُوءُ أَدَبٍ بِمَا يَضْحِكُهَا مِنْ الْقَلْقِ، أَوْ الْإِذْلَالِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ. فَيُطْرَدُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِخِلَافٍ مَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ الْمَعْرِفَةِ، بَعْدَ كَمَالِ الْمَحَبَّةِ. فَالْأَدَبُ مُحَقَّقٌ لَدَيْهِ. إِذِ الْمَعْرِفَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّهْذِيبِ وَالتَّأْدِيبِ. فَيَلْزِمُهُ الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ. وَالصَّبْرُ وَالتَّوَكُّلُ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَامَاتِ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ ضَمَّنَتْهُ لَجَمِيعِ ذَلِكَ. إِذِ لَا يَسْلُكُ لَهَا إِلَّا وَقَطَعَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ. بِخِلَافِ الْمَحَبَّةِ وَخَذَهَا: فَقَدْ تَوَجَّدَ مَعَ الْحِجَابِ. فَيَكُونُ صَاحِبُهَا غَيْرَ كَامِلٍ، كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُبَادِ وَالزُّهَادِ، وَالْعُشَّاقِ.

وَأَمَّا الْمَعْرِفَةُ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ التَّزْيِينِ وَالتَّأْدِيبِ، وَالتَّهْذِيبِ بَعْدَ التَّدْرِيبِ وَالتَّهْذِيبِ. فَصَاحِبُهَا مَأْمُونٌ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ فِي الْعَالَمِ. مَنَحَنَا اللَّهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ الْكَامِلَةِ أَوْفَرَ نَصِيبٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ. بِجَاهِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، أَفْضَلَ كُلِّ مُجِيبٍ وَحَبِيبٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَعِزَّتِهِ وَأَخْرَاجِهِ وَسَلَمَ تَسْلِيمًا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مِعْرَاجُ التَّصَوُّفِ
إِلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

١- الشرح الأول: مِعْرَاجُ التَّصَوُّفِ إِلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ.

قال الشيخ الإمام، بحر الهُمام. الصوفي الكامل، والعارف الواصل بحر الحقائق العِزْفَانِيَّة، وشمس المعارف العِيَانِيَّة، أَبُو العباس سيدي أحمد بن محمد بن عَجِيْبَةَ الحَسَنِي رضي الله عنه وأرضاهُ. وَجَعَلَ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ مُتَقَلِّبَهُ وَمُتَوَّاهُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَقَّقَ الْحَقَائِقَ، وَأَوْضَحَ الطَّرَائِقَ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَوْلَانَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْخَلَائِقِ. الْمَخْصُوصِ بِتَوَاتُرِ الْمُعْجِزَاتِ. وَتَظَاهِرِ الْخَوَارِقِ، وَرَضِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْأَعْلَامِ، الَّذِينَ أَظْهَرَ اللَّهُ بِهِمْ دِينَهُ الْقَوِيمَ، فِي أَقْصَى الْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِقِ.

وَيَعْدُ: فَعِلْمُ التَّصَوُّفِ هُوَ سَيِّدُ الْعُلُومِ وَرَئِيسُهَا، وَلُبُّهَا الشَّرِيعَةُ وَأَسَاسُهَا. وَكَيْفَ لَا وَهُوَ تَفْسِيرٌ لِمَقَامِ الْإِحْسَانِ، الَّذِي هُوَ مَقَامُ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ. كَمَا أَنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ، تَفْسِيرٌ لِمَقَامِ الْإِيمَانِ. وَعِلْمُ الْفِقْهِ تَفْسِيرٌ لِمَقَامِ الْإِسْلَامِ. وَقَدْ اشْتَمَلَ حَدِيثُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى تَفْسِيرِ الْجَمِيعِ. فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْعُلُومِ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِهِ أَفْضَلُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِكَوْنِهِ سَبَبًا لِلْمَعْرِفَةِ الْخَاصَّةِ، الَّتِي هِيَ مَعْرِفَةُ الْعِيَانِ. وَقَدْ اشْتَمَلَ عَلَى حَقَائِقِ عَرِيقَةٍ. وَعِبَارَاتٍ دَقِيقَةٍ، اصْطَلَحَ الْقَوْمُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا. فَيَنْبَغِي الْوُقُوفُ عَلَى مَعَانِيهَا. لِمَنْ أَرَادَ الْخَوْضَ فِيهِ. وَالْوُقُوفُ عَلَى مَعَانِيهِ.

وقد أردت بحول الله وقوته أن أجمع نبذة صالحة من حقائق هذا الفن

واضْطِلَاحَاتِهِ. لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ مَنْ يَرِيدُ الْوُقُوفَ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ. وَسَمَّيْتُهُ: مِفْرَاجُ التَّصَوُّفِ، إِلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ؛ وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ. وَسَأَذْكُرُ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ مَا يَتَّصِلُ بِهَا بَدَايَةٌ وَوَسْطَاءٌ وَنَهَايَةٌ.

التَّصَوُّفُ: عِلْمٌ يَعْرِفُ بِهِ كَيْفِيَّةَ السُّلُوكِ؛ إِلَى حَضْرَةِ مَلِكِ الْمُلُوكِ أَوْ تَصْفِيَةِ الْبَوَاطِنِ مِنَ الرِّذَائِلِ وَتَخْلِيَتِهَا بِأَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ أَوْ غَيَّةِ الْخَلْقِ فِي شُهُودِ الْحَقِّ، أَوْ مَعَ الرَّجُوعِ إِلَى الْأَثَرِ فِي أَوَّلِهِ عِلْمٌ. وَفِي وَسْطِهِ عَمَلٌ. وَآخِرُهُ مَوْهَبَةٌ.

وَاشْتِقَاقُهُ، إِمَّا مِنَ الصِّفَاءِ؛ لِأَنَّ مَدَارَهُ عَلَى التَّصْفِيَةِ، أَوْ مِنَ الصِّفَةِ؛ لِأَنَّهُ اتِّصَافٌ بِالْكَمَالَاتِ. أَوْ مِنْ صِفَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ؛ لِأَنَّهُمْ مُشَبَّهُونَ بِأَهْلِ الصِّفَةِ فِي التَّوَجُّهِ وَالْإِنْقِطَاعِ. أَوْ مِنَ الصُّوفِ. لِأَنَّ جُلَّ لِبَاسِهِمُ الصُّوفُ. تَعَلُّلاً مِنْ الدُّنْيَا وَزُهْداً فِيهَا. اخْتَارُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ لِبَاسَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. هَذَا الْاِشْتِقَاقُ أَنْسَبُ إِلَيْهِ لُغَةً، وَأَظْهَرُ نِسْبَةً؛ لِأَنَّ لِبَاسَ الصُّوفِ، حُكْمٌ ظَاهِرٌ عَلَى الظَّاهِرِ. وَنَسَبَتُهُمْ إِلَيْهِ أَمْرٌ بَاطِنٌ. وَالْحُكْمُ بِالظَّاهِرِ أَوْفَقُ وَأَقْرَبُ. وَيُقَالُ: تَصَوَّفَ، إِذَا لَبَسَ الصُّوفَ. كَمَا يُقَالُ: تَقَمَّصَ إِذَا لَبَسَ الْقَمِيصَ.

وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ صُوفِي. قَالَ سَهْلُ التَّسْتَرِي:

الصُّوفِي: مَنْ صَفَا مِنَ الْكَدَرِ. وَامْتَلَأَ مِنَ الْفِكْرِ. وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّبَشِيرِ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الذُّهَبُ وَالْمَدَرُ. أَيْ لَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شَيْءٍ دُونَ مَوْلَاهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْجُنَيْدُ: الصُّوفِي، كَالْأَرْضِ، يَطْرَحُ عَلَيْهَا كُلَّ قَبِيحٍ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا الْمَلِيحُ. وَقَالَ أَيْضاً: الصُّوفِي كَالْأَرْضِ، يَطْوِيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ. وَكَالسَّمَاءِ يُظَلُّ كُلُّ شَيْءٍ، وَكَالْمَطَرِ، يَسْقِي كُلَّ شَيْءٍ.

التَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ قَبِيحٍ، إِلَى كُلِّ فِعْلٍ مَلِيحٍ. أَوْ وَضْفٌ دَنِيٌّ، إِلَى التَّحَقُّقِ بِكُلِّ وَصْفٍ سَنِيٍّ. أَوْ عَنْ شُهُودِ الْخَلْقِ، إِلَى الْاِسْتِغْرَاقِ فِي شُهُودِ الْحَقِّ.

وَشُرُوطُهَا: التَّدَمُّ، وَالْإِنْقِطَاعُ وَنَفْيُ الْإِصْرَارِ. وَأَمَّا رَدُّ الْمِظَالِمِ، فَفَرَضٌ مُسْتَقْبَلٌ تَصِحُّ بِدُونِهِ. كَمَا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى آخَرٍ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهِ.

فَتْوَيَةُ الْعَامَّةِ مِنَ الذُّنُوبِ. وَتَوْبَةُ الْخَاصَّةِ مِنَ الْغُيُوبِ، وَتَوْبَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغُلُ السَّرَّ عَنْ عَلَامِ الْغُيُوبِ. وَكُلُّ الْمَقَامَاتِ تَفْتَقِرُ إِلَى

التَّوْبَةِ. فَالتَّوْبَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى تَوْبَةٍ أُخْرَى يَعمَدُ نَصُوحُهَا. وَالْخَوْفُ يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا، بِحُصُولِ الْأَمْنِ وَالْإِغْتِرَارِ. وَالرَّجَاءُ بِحُصُولِ الْقَنُوطِ وَالْإِيَّاسِ. وَالصَّبْرُ بِحُصُولِ الْجَزَعِ. وَالزُّهْدُ، بِخَوَاطِرِ الرُّغْبَةِ. وَالْوَرَعُ، بِتَتَبُعِ الرُّخْصِ. بِخَوَاطِرِ الطَّمَعِ. وَالتَّوَكُّلُ؛ بِخَوَاطِرِ التَّذْيِيرِ وَالْاخْتِيَارِ، وَالْإِهْتِمَامِ بِالرِّزْقِ، وَالرِّضَى، وَالتَّسْلِيمِ بِالْكَرَاهِيَةِ. وَالتَّبَرُّيُّ عِنْدَ نَزُولِ الْأَقْدَارِ. وَالْمَرَاqَبَةُ بِسُوءِ الْأَدَبِ فِي الظَّاهِرِ. وَخَوَاطِرِ السُّوءِ فِي الْبَاطِنِ وَالْمَحَاسَبَةِ بِتَضْيِيعِ أَوْقَاتٍ فِي غَيْرِ مَا يَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ. وَالْمَحَبَّةُ بِمِثْلِ الْقَلْبِ إِلَى غَيْرِ الْمَحْبُوبِ. وَالْمَشَاهِدَةُ بِالتَّغَاتِ السَّرِّ إِلَى غَيْرِ الْمَشْهُودِ. أَوْ بِاشْتِغَالِهِ بِالْوُقُوفِ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْحَسِّ وَعَدَمِ زِيَادَةِ التَّرْقِي فِي مَعَارِجِ الْأَسْرَارِ. وَلِذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَسْتَغْفِرُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ سَبْعِينَ مَرَّةً أَوْ مِئَةً. وَالتَّوْبَةُ التَّضَوُّفُ يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

الْإِسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ. وَعَدَمُ الْإِصْرَارِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سِئِ الْخِلَاقِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: عَلَامَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحُ أَرْبَعَةٌ:

الْقِلَّةُ، وَالْعِلَّةُ، وَالذَّلَّةُ، وَالغَرَبَةُ.

الْإِنَابَةُ: وَهِيَ أَخَفُّ مِنَ التَّوْبَةِ: لِأَنَّهُ رُجُوعٌ يَصْحَبُهُ إِنْكَسَارٌ، وَتُهْوِضٌ إِلَى السَّيْرِ. وَهِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: رُجُوعٌ مِنَ الذَّنْبِ إِلَى التَّوْبَةِ. وَمِنْ الْغَفْلَةِ إِلَى الْيَقَظَةِ. وَمِنْ الْفَرْقِ إِلَى الْجَمْعِ عَلَى اللَّهِ.

الْخَوْفُ: إِتْرَاعُجُ الْقَلْبِ مِنْ لِحَاقِ مَكْرُوهٍ، أَوْ قَوَاتِ مَرْغُوبٍ، وَتَمَرَّتُهُ: التَّهْوِضُ إِلَى الطَّاعَةِ. وَالْهَرُوبُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ. فإِظْهَارُ الْخَوْفِ مَعَ التَّقْصِيرِ دَعْوَةٌ. فَخَوْفُ الْعَامَّةِ مِنَ الْعِقَابِ، وَقَوْتُ الثَّوَابِ، وَخَوْفُ الْخَاصَّةِ مِنَ الْعِقَابِ، وَقَوْتُ الْإِقْتِرَابِ. وَخَوْفُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، مِنَ الْإِحْتِجَابِ بِعُرُوضِ سُوءِ الْأَدَبِ.

الرَّجَاءُ: سَكُونُ الْقَلْبِ إِلَى انْتِظَارِ مَخْبُوبٍ، بِشَرْطِ السَّغْيِ فِي أَسْبَابِهِ. وَلَا فَأَمْنِيَّةٌ وَعُرُورٌ. فَرَجَاءُ الْعَامَّةِ حَسَنُ الْمَآبِ بِحُصُولِ الثَّوَابِ، وَرَجَاءُ الْخَاصَّةِ: حُصُولُ الرُّوْضَوَانِ وَالْإِقْتِرَابِ. وَرَجَاءُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، التَّمَكُّنُ مِنَ الشُّهُودِ، وَزِيَادَةُ التَّرْقِي فِي أَسْرَارِ الْمَلِكِ الْمَغْبُودِ. وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ لِلْقَلْبِ، كَجَنَاحَيْ الطَّائِرِ. لَا يَطِيرُ إِلَّا بِهِمَا. وَزَيْمًا يُرَجَّحُ الرَّجَاءُ عِنْدَ الْعَارِفِينَ، وَالْخَوْفُ عَنِ

الصالحينَ .

الصَّبْرُ: حَبْسُ الْقَلْبِ عَنْ حُكْمِ الرَّبِّ. فَصَبْرُ الْقَلْبِ عَلَى مَشَاقِّ الطَّاعَاتِ . وَرَفْضُ الْمَخَالَفَاتِ . وَصَبْرُ الْخَاصَّةِ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْمَجَاهِرَاتِ . وَازْتِكَابُ الْأَهْوَالِ، فِي سَلُوكِ طَرِيقِ الْأَحْوَالِ . مَعَ مَرَاqِبَةِ الْقَلْبِ فِي دَوَامِ الْحُضُورِ، وَطَلَبِ رَفْعِ السُّتُورِ . وَصَبْرُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ: حَبْسُ الرُّوحِ وَالسَّرِّ فِي حَضْرَةِ الْمَشَاهِدَاتِ وَالْمُعَايِنَاتِ، أَوْ دَوَامِ النَّظَرَةِ، وَالْعُكُوفِ فِي الْحَضْرَةِ .

الشُّكْرُ: فَرَحُ الْقَلْبِ بِحُصُولِ النِّعْمَةِ، مَعَ صَرْفِ الْجَوَارِحِ فِي طَاعَةِ الْمُنْعِمِ، وَالاعْتِرَافِ بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الْخُضُوعِ، وَمَرْجَعِهِ لثَلَاثٍ:

شُكْرُ بِاللِّسَانِ: وَهُوَ اعْتِرَافُهُ بِالنِّعْمَةِ بِتَغَيِّتِ الْاسْتِكَانَةِ، وَشُكْرُ بِالْبَدَنِ . وَهُوَ اتِّصَافُهُ بِالْخِدْمَةِ . وَشُكْرُ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ شُهُودُ الْمُنْعِمِ عِنْدَ حُصُولِ النِّعْمَةِ .

الْوَرَعُ: كَفُّ النَّفْسِ عَنِ اِزْتِكَابِ مَا تُكْرَهُ عَاقِبَتُهُ . قَوَرَعُ الْعَامَّةُ: تَزَكُّ الْحَرَامِ وَالْمُتَشَابِهِ، وَوَرَعُ الْخَاصَّةِ: تَزَكُّ كُلِّ مَا يَكْدُرُ الْقَلْبَ، وَيَجِدُ مِنْهُ كِرَازَةً وَظُلْمَةً . وَيَجْمَعُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «دَغْ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ»^(١) . وَوَرَعُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ: رَفْضُ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَسَدُّ بَابِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِ اللَّهِ . وَعُكُوفُ الْهَمِّ عَلَى اللَّهِ . وَعَدَمُ الرُّكُودِ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهُ . وَهَذَا هُوَ الْوَرَعُ الَّذِي هُوَ مَلَكَ الدِّينِ . كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ حِينَ سُئِلَ . مَا مَلَكَ الدِّينِ؟ فَقَالَ: الْوَرَعُ . فَقِيلَ لَهُ: وَمَا فَسَادُ الدِّينِ؟ فَقَالَ: الطَّمَعُ . فَالْوَرَعُ الَّذِي يَقَابِلُ الطَّمَعَ، كُلُّ الْمُقَابَلَةِ . هُوَ وَرَعُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ . وَجُزْءٌ مِنْهُ يَغْدِلُ آلَافًا مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ . وَلِذَلِكَ قَالَ فِي التَّنْوِيرِ: «وَلَيْسَ يَدُلُّ عَلَى فَهْمِ الْعَبْدِ كَثْرَةُ عِلْمِهِ . وَلَا مُدَاوَمَتُهُ عَلَى وَرَعِهِ . وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى نُورِهِ وَفَهْمِهِ غِنَاءُ بَرِّهِ . وَالْخِيَاشَةُ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ . وَالتَّحَرُّرُ مِنْ رِقِّ الطَّمَعِ . وَالتَّحَلِّيُّ بِحُلِيَةِ الْوَرَعِ . يَغْنِي وَرَعَ الْخَاصَّةِ أَوْ خَاصَّةَ الْخَاصَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ، كِتَابُ الْبَيُوعِ، حَدِيثُ رَقْمِ (٢١٦٩) [٢/ ١٥] وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، ذَكَرَ الزُّجَرَ عَمَّا يَرِيبُ الْمَرْءَ مِنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الدُّنْيَا: حَدِيثُ رَقْمِ (٧٢٢) [٢/ ٤٩٨] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا .

الرُّهْدُ: خُلُوُّ الْقَلْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ الرَّبِّ. أَوْ بُرُودَةُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَلْبِ، وعزوف النفس عنها. فَرُهِدَ الْعَامَّةُ: تَرَكَ مَا فَضَّلَ عَنْ الْحَاجَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرُهِدَ الْخَاصَّةُ: تَرَكَ مَا يَشْغُلُ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ. وحاصل الجميع: بُرُودَةُ الْقَلْبِ عَنِ السُّوَى، وعن الرُّغْبَةِ فِي غَيْرِ الْحَبِيبِ؛ وهو سَبَبُ المحبة. كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُجِبْكَ اللَّهُ»^(١). الحديث؛ وهو سَبَبُ السَّيْرِ والوصول. إِذْ لَا سَيْرَ لِلْقَلْبِ إِذَا تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ سِوَى المحبوبِ.

التَّوَكُّلُ: ثِقَةُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ، حَتَّى لَا يَغْتَمِدَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ. أَوْ التَّعَلُّقُ بِاللَّهِ، والتعويل عليه فِي كُلِّ شَيْءٍ، علماً بأنه عالمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَأَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ، أَوْثَقُ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ. فَأَذْنَاهُ أَنْ تَكُونَ مَعَ اللَّهِ. كَالْمُتَوَكِّلِ مَعَ الْوَكِيلِ الشَّفِيقِ الْمَلَاطِفِ. ووسطه كالطفلٍ مَعَ أُمِّهِ، لَّا يَزْجَعُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ إِلَّا إِلَيْهَا. وَأَعْلَاهُ أَنْ تَكُونَ كَالْمَيِّتِ مَعَ الْغَاسِلِ. فالأول للعامة. والثاني للخاصة. والثالث لخاصة الخاصة. فالأول قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ تَهْمَةٌ. والثاني لَا إِتِهَامَ لَهُ. لكن يَتَعَلَّقُ بِأُمِّهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ، والثالث: لَا إِتِهَامَ، وَلَا تَعَلُّقَ لَهُ. لِأَنَّهُ فَإِنْ عَنِ نَفْسِهِ. ينظر كل سَاعَةٍ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ.

الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ: الرِّضَى تَلَقَّى التَّمَالِكِ بِوَجْهِ ضَاحِكٍ. أَوْ سُرُورٍ يَجِدُهُ الْقَلْبُ عِنْدَ حُلُولِ الْقَضَاءِ، أَوْ تَرَكَ الْإِخْتِيَارَ مَعَ اللَّهِ، فِيمَا دَبَّرَ وَأَمْضَى. أَوْ شَرَحَ الصُّدْرَ وَرَفَعَ الْإِنْكَارَ، لَمَّا يَرِدُ مِنَ الْوَاجِدِ الْقَهَّارِ.

والتسليم: تَرَكَ التَّذْيِيرَ وَالْإِخْتِيَارَ، بِالسَّكُونِ تَحْتَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ. فِيرَادُ الرِّضَا عَلَى الْحَدِّ الْأَخِيرِ، وَالرِّضَى أَعَمُّ عَنْهُ عَلَى الْأَوَّلِينَ. وَقِيلَ الرِّضَى يَكُونُ عِنْدَ التَّزَوُّلِ؛ وَهُوَ التَّفْوِيزُ بِعَيْنِهِ. فَبِدَايَتِهِمَا بِالصَّبْرِ وَالْمَجَاهِدَةِ. وَوَسْطَتُهُمَا بِالسَّكُونِ مَعَ خَوَاطِرِ التَّبَرُّمِ وَالْكَرَاهِيَةِ. وَنَهَايَتُهُمَا بِفَرَجٍ وَسَّكُونٍ مَعَ عَدَمِ التَّبَرُّمِ.

(١) رواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، کتاب الرقاق حدیث رقم (٧٨٧٣) [٤/ ٣٤٨] وابن ماجه فی سننه، کتاب الزهد، حدیث رقم (٤١٠٢) [٢/ ١٣٧٣] ورواه غیرهما.

فالأول للعامة، والثاني للخاصة، والثالث لخاصة الخاصة. ويُعْتَقَرُ الخاطر الأولُ عِنْدَ الجميعِ لضعفِ البشرية، إذ لَا يَخْلُو مِنْهُ بَشَرٌ.

المُرَاقِبَةُ: إِدَامَةُ عِلْمِ الْعَبْدِ بِاطْلَاعِ الرَّبِّ. أَوْ الْقِيَامُ بِحَقُوقِ اللَّهِ سِرًّا وَجَهْرًا. خَالصًا مِنَ الْأَوْهَامِ. صَادَقًا فِي الْإِخْتِرَامِ؛ وَهِيَ أَضَلُّ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَقْدِرُهَا تَكُونُ الْمَشَاهِدَةُ. فَمَنْ عَظُمَتْ مُرَاقِبَتُهُ، عَظُمَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مُشَاهَدَتُهُ.

فَمُرَاقِبَةُ أَهْلِ الظَّاهِرِ: حِفْظُ الْجَوَارِحِ مِنَ الْهَفَوَاتِ. وَمُرَاقِبَةُ أَهْلِ الْبَاطِنِ: حِفْظُ الْقُلُوبِ مِنَ الْاسْتِرْسَالِ مَعَ الْخَوَاطِرِ وَالْغَفَلَاتِ. وَمُرَاقِبَةُ أَهْلِ بَاطِنِ الْبَاطِنِ: حِفْظُ السِّرِّ مِنَ الْمَسَاكِنَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

المُحَاسَبَةُ: عِتَابُ النَّفْسِ عَلَى تَضْيِيعِ الْأَنْفَاسِ وَالْأَوْقَاتِ، مِنْ غَيْرِ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ. وَتَكُونُ آخِرَ النَّهَارِ كَمَا أَنَّ الْمَشَارِطَةَ، تَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ. يَقُولُ لِنَفْسِهِ فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ: هَذَا يَوْمٌ جَدِيدٌ؛ وَهُوَ عَلَيْكَ شَهِيدٌ. فَاجْتَهِدِي فِي تَعْمِيرِ أَوْقَاتِهِ، بِمَا يَقْرَبُكَ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ مِتَ بِالْأَمْسِ لَفَاتَكَ الْخَيْرُ الَّذِي تُفَوِّزِينَ بِهِ فِيهِ. وَكَذَلِكَ يَقُولُ لَهَا عِنْدَ إِقْبَالِ اللَّيْلِ، وَيُحَاسِبُهَا عِنْدَ إِذْبَارِهِ. هَكَذَا يَدُومُ عَلَيْهَا وَمَعَهَا حَتَّى تَتِمَّكَنَ مِنَ الْحَضَرَةِ. فَحَيْثُذْ يَتَحَدُّ الْوَقْتُ؛ وَهُوَ الْاسْتِغْفَاقُ فِي الشُّهُودِ. فَلَا يَبْقَى مَنْ يُحَاسِبُ، وَلَا مَنْ يُعَاقَبُ. فَتَحْصُلُ أَنَّ الْمَشَارِطَةَ أَوَّلًا، وَالْمُحَاسَبَةَ آخِرًا وَالْمُرَاقِبَةَ دَائِمًا، مَا دَامَ فِي السَّيْرِ. فَإِذَا حَصَلَ الْوُضُوءُ، فَلَا مُحَاسَبَةَ وَلَا مُشَارِطَةَ.

الْمَحَبَّةُ: مَيْلٌ دَائِمٌ بِقَلْبٍ هَائِمٍ، وَيَظْهَرُ هَذَا الْمَيْلُ أَوَّلًا عَلَى الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ بِالْخِدْمَةِ؛ وَهُوَ مَقَامُ الْأَبْرَارِ. وَثَانِيًا عَلَى الْقُلُوبِ الشَائِقَةِ بِالتَّصْفِيَةِ وَالتَّحْلِيَةِ. وَهُوَ مَقَامُ الْمَزِيدِ مِنَ السَّالِكِينَ. وَثَالِثًا عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَسْرَارِ الصَّافِيَةِ. بِالتَّمَكُّينِ مِنْ شُهُودِ الْمَحْبُوبِ؛ وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِينَ. فَبِدَايَةِ الْمَحَبَّةِ، ظَهَرَ أَثَرُهَا بِالْخِدْمَةِ. وَوَسَطُهَا ظَهَرَ أَثَرُهَا بِالسَّكْرِ وَالْهِيَامِ. وَنَهَايَتُهَا ظَهَرَهُ بِالسَّكُونِ وَالصَّخْرِ فِي مَقَامِ الْعِرْفَانِ. فَلِهَذَا انْقَسَمَ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ:

أَرْبَابُ الْخِدْمَةِ، وَأَرْبَابُ الْأَحْوَالِ، وَأَرْبَابُ الْمَقَامَاتِ. فَبِدَايَتُهَا سُلُوكٌ، وَخِدْمَةٌ، وَوَسَطُهَا جَذْبٌ وَفَنَاءٌ، وَنَهَايَتُهَا صَخَوٌ وَبَقَاءٌ.

المُشَاهَدَةُ وَالْمُعَايَنَةُ: الْمُشَاهَدَةُ: رُؤْيَا الذَّاتِ اللَّطِيفَةِ، فِي مَظَاهِرِ تَجَلِّيَاتِهَا

الكثيفة. فترجع إلى تكثيف اللطيف، فإذا تَرَقَّقَ الْوِدَادُ، وَرَجَعَتِ الْأَنْوَارُ الكثيفة لطيفة؛ فَهِيَ الْمُعَايَنَةُ، فترجع إلى تلطيف الكثيف. فالْمُعَايَنَةُ أَرْقَى مِنَ الْمُشَاهَدَةِ وَأَتَمُّ.

والْحَاصِلُ، أَنَّ شُهُودَ الذَّاتِ، لَا يُمَكِّنُ إِلَّا بِوَاسِطَةِ تَكْثِيفِ أَسْرَارِهَا اللطيفة في مَظَاهِرِ التَّجَلِّيَّاتِ. إِذْ لَا يُمْكِنُ إِذْرَاكَ اللَّطِيفِ، مَا دَامَ لَطِيفًا. فَرُؤْيَا التَّجَلِّيَّاتِ كَثِيفَةٌ مُشَاهَدَةٌ. وَرَدَّهَا إِلَى أَصْلِهَا بِانْطِبَاقِ بَحْرِ الْأَحْدِيدِ عَلَيْهَا مُعَايَنَةً، وَقِيلَ هُمَا سَوَاءٌ.

الْمَعْرِفَةُ: وَهِيَ التَّمَكُّينُ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ وَاتِّصَالِهَا؛ فَهِيَ شُهُودٌ دَائِمٌ، بِقَلْبٍ هَائِمٍ. فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا مَوْلَاهُ. وَلَا يَفْرُجُ عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ. مَعَ إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَحِفْظِ مَرَاسِمِ الشَّرِيعَةِ. فَهَذِهِ حُدُودُ مَقَامَاتٍ قَدْ انْتَهَتْ فِي الْمَعْرِفَةِ.

التَّقْوَى: وَهِيَ إِمْتِنَالُ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابُ الْمَنَآكِرِ، فِي الظَّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ. وَمَوَاصِلَةُ الطَّاعَاتِ. وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ. فَتَقْوَى الْعَامَّةُ: اجْتِنَابُ الذُّنُوبِ. وَتَقْوَى الْخَاصَّةِ: التَّخَلُّيُّ مِنَ الْعِیُوبِ. وَتَقْوَى خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ: الْغَيْبَةُ عَنِ السَّوْءِ بِهِ، بِالْعُكُوفِ فِي حَضْرَةِ عَالَمِ الْغُیُوبِ.

الِاسْتِقَامَةُ: إِسْتِعْمَالُ الْعِلْمِ بِأَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ. وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ، مِنْ غَيْرِ تَعَمُّقٍ وَلَا تَأَنُّقٍ. وَلَا مِيلَ مَعَ أَوْ عَدَمِ الْوَسْوَاسِ. أَوْ الْخُرُوجِ عَنِ الْمَغْهُودَاتِ، وَمِفَارِقَةِ الرُّسُومِ وَالْعَادَاتِ. أَوْ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى حَقِيقَةِ الصَّدَقِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ. وَهِيَ فِي الْأَقْوَالِ بِتَرْكِ الْغِيبَةِ، وَفِي الْأَفْعَالِ بِتَرْكِ الْبِدْعَةِ، وَفِي الْأَحْوَالِ بِعَدَمِ الْخُرُوجِ عَنْ سُنَنِ الشَّرِيعَةِ.

فَاسْتِقَامَةُ الْعَامَّةِ بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ. وَاسْتِقَامَةُ الْخَاصَّةِ، بِالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ. وَاسْتِقَامَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ بِالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الرَّحْمَنِ، مَعَ الْاسْتِغْرَاقِ فِي حَضْرَةِ الْعِيَانِ.

الِإِخْلَاصُ: إِخْرَاجُ الْخَلْقِ مَعَ مَعَامِلَةِ الْحَقِّ. وَإِفْرَادُ الْحَقِّ تَعَالَى فِي الطَّاعَةِ بِالْقَصْدِ. أَوْ غَيْبَةُ الْقَلْبِ عَنْ غَيْرِ الرَّبِّ. فَإِخْلَاصُ الْعَامَّةِ، تَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ عَنْ مِلَاحَظَةِ الْمَخْلُوقِينَ. وَإِخْلَاصُ الْخَاصَّةِ: تَصْفِيَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْعِوَضِ فِي الدَّارَيْنِ. وَإِخْلَاصُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ: التَّبَرِّيُّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَمِنْ رُؤْيَا الْغَيْرِ

في القصد والحركة حَتَّى يَكُونَ الْعَمَلُ بِاللَّهِ، وإلى اللَّهِ، غَائِباً عَمَّا سِوَاهُ.

الصُّدُقُ: إسقاط حظوظ النَّفْس، في الرَّجْهَةِ إلى اللَّهِ تعالى. تعويلاً على تَلَجِّ اليَقِينِ. أو استواء الظَّاهِرِ والباطن في الأقوال والأفعال والأحوال أو ملازِمَةَ الْكَتْمَانِ، غِيْرَةً عن أسرار الرَّحْمَنِ. وَحَاصِلُهُ: تصفية الباطن من الْإِلْتِقَاتِ إِلَى الْغَيْرِ بِالْكَلِيَّةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنُهُ وَبَيْنَ الْإِخْلَاصِ، أَنَّ الْإِخْلَاصَ يُنْفِي الشَّرْكَ الْجَلِيَّ وَالْخَفِيَّ. وَالصُّدُقُ يُنْفِي النِّفَاقَ والمُدَاهَنَةَ بِالْكَلِيَّةِ. فَمَثَالُ الصُّدُقِ مع الْإِخْلَاصِ، كَالْتَّشَجُّرَةِ لِلذَّهَبِ. فَهُوَ يُنْفِي عَنْهُ عَوَارِضَ النِّفَاقِ. وَيَصِفِيهِ من كدورة الْأَوْهَامِ. وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْإِخْلَاصِ، لَا يَخْلُو من مُدَاهَنَةِ النَّفْسِ، وَمُسَامَحَةِ الْهَوَى، بخلافِ صَاحِبِ الصُّدُقِ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ الْمُدَاهَنَاتِ، ويرفع الْمَسَامَحَاتِ. إِذْ لَا يَشَمُّ رَائِحَةَ الصُّدُقِ من ذَاهِنٍ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فِيمَا دُقَ أَوْ جُلَّ. وعلاقة الصُّدُقِ: استواء السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ. فلا يُبَالِي صَاحِبُ الصُّدُقِ بكشف ما يَكْرَهُ إِطْلَاعُ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَحْيِي من ظهوره لِغَيْرِهِ إِكْتِفَاءً بِعِلْمِ اللَّهِ بِهِ.

فِصْدُقُ الْعَامَّةِ، تصفية الأعمال، من طلب الإِعْرَاضِ. وَصِدُقُ الْخَاصَّةِ، تصفية الْأَحْوَالِ، من قِصْدِ غَيْرِ اللَّهِ. وَصِدُقُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ: تَصْفِيَةُ مُشْرَبِ التَّوْحِيدِ، من الْإِلْتِقَاتَاتِ إِلَى مَا سِوَى اللَّهِ. وَيُقَالُ لِمُصَاحِبِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ صَادِقٌ. وَالثَّانِي وَالثَّلَاثُ صِدِّيقٌ. وَأَمَّا التَّصْدِيقُ بِوُجُودِ الْحَقِّ أَوْ بِوُجُودِ الْخُصُوصِيَّةِ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ، وَتَعْظِيمُهُمْ لِأَجْلِهَا. فَهُوَ تَصْدِيقٌ لِأَصْدُقِ. خِلافَ مَا يَعْتَقِدُهُ بَعْضُ فُقَرَاءِ زَمَانِنَا هَذَا. وَيُقَالُ لِمَنْ عَظَّمَ تَصْدِيقَهُ: صَدِيقٌ أَيْضاً: فَالْصَّدِيقُ يَطْلُقُ عَلَى مَنْ عَظَّمَ صَدَقَهُ وَتَصْدِيقَهُ.

الطَّمَأْنِينَةُ: وهي سكون القلب إلى الله، عَارِياً عن التَّقَلُّبِ وَالِاضْطِرَابِ. نَفَقَةٌ بِضَمَائِهِ أَوْ اكْتِفَاءً بِعِلْمِهِ. أَوْ رِسْوَخاً فِي مَعْرِفَتِهِ. وَتَكُونُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، بِتَوَاتُرِ الْأَدِلَّةِ. وَاسْتِعْمَالِ الْفِكْرَةِ، أَوْ بِتَوَالِي الطَّاعَةِ، وَمُجَاهَدَةِ الرِّيَاضَةِ. وَتَكُونُ بَعْدَ زَوَالِ الْحِجَابِ، بِتَمَكِينِ النَّظَرَةِ، وَرِسْوَخِ الْمَعْرِفَةِ. فَيَقُومُ اطْمَأْنُونًا بِوُجُودِ اللَّهِ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ أَوْ الْبَيَّانِ. وَاقُومُ اطْمَأْنُونًا بِشُهُودِ اللَّهِ بَعْدَ ظُهُورِهِ مِنْ طَرِيقِ الْعِيَانِ. فَالْأَوَّلُ لِلْعُلَمَاءِ، وَالثَّانِي لِلْعِبَادِ وَالزُّهَّادِ وَالصَّالِحِينَ. وَالثَّلَاثُ لِلْعَارِفِينَ الْمُتَقَرِّبِينَ.

الشُّوقُ وَالْإِشْتِيَاقُ:

الشوق: إفراغ القلب إلى لقاء الحبيب.

والإشتياق: إرتياح القلب إلى دوام الاتصال به. فالشوق يزول برؤية الحبيب ولقاؤه. والإشتياق لا يزول أبداً بطلب الروح والزيادة في كشف الأسرار، والقرب إلى الأبد. فشوق العامة إلى زخارف جنائيه. وشوق الخاصة إلى ثيل رضوانه. وشوق خاصة الخاصة، إلى حضرة عيانه.

الغيرة: كراهية رؤية حبيبك عند غيرك. فيهيج التنافس في حيازته. قال الشبلي: الغيرة غيترتان: غيرة البشرية على النفوس، وغيرة الألوهية على القلوب. ومعناه: أن الطبع البشري يكره أن يرى محبوبه عند غيره. كالزوجة مثلاً. والحق تعالى يكره أن يرى قلوب أوليائه متعلقة بغيره. وفي الحديث النبوي، الذي رواه ابن مسعود، وخزجه البخاري، وأحمد والترمذي، قوله ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ». ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما في الوجود إلا الغيرة الإلهية، سرّت في مظاهر تجلياته. فغيرة النفوس للعامة؛ وهي غيرتهم على هتك حرمة حريمهم. وغيرة القلوب للخاصة؛ وهي غيرتهم على قلوبهم، أن تميل لغير محبوبهم. وغيرة الأرواح والأسرار، لخاصة الخاصة؛ وهي غيرتهم على أزواجهم، أن تلتفت إلى شيء دون محبوبهم. وغيرتهم على حبيبهم، أن يميل إلى غيرهم. وعلى هذا الأمر العظيم، حق للعبد أن يغار كما قول الشاعر:

إِذَا لَمْ أَنَا فِيسْ فِي هَوَاهُ وَلَمْ أَغَرْ عَلَيْنِكَ فَفِيمَنْ لَيْتَ شَعْرِي أَنَا فِيسْ
فَلَا تَمَقُّنَّ نَفْسِي فَأَنْتَ حَبِيبُهَا فَكُلْ أَمْرِي يَضْبُو إِلَيَّ مَنْ يُجَانِسْ

قد يغار الحق تعالى على أوليائه. فينتقم من أعدائهم إذا آذوهم. ومن غيرته أيضاً عليهم: ألا يظهرهم لجملة الخلق. فيصن بهم على خلقه، حتى يلقوه تحت أستار الخمول، وهم عرائس حضرته.

الفتوة: وهي الإيثار على النفس بما تحب. والإحسان إلى الخلق بما يجب. لذا قيل: لم تكمل الفتوة إلا لرسول الله ﷺ، حيث يقول في موضع: لا يذكر فيه أحداً حتى نفسه: «أمتي أمتي». وقيل: ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك. والفتى من لا خضم له، ومرجعها إلى السّماح والتواضع، والشجاعة في

مَوْطِنِ الاِضْطِرَابِ. ففتوةُ العامّةِ بالأموالِ، وفتوةُ الخاصّةِ بالنّفوسِ. وفتوةُ خاصّةِ الخاصّةِ بالأرواحِ وَبَذلِ المُهَجِّ في جَانِبِ المَحْبُوبِ.

الإِزَادَةُ: هي قَصْدُ الوصولِ إلى المَحْبُوبِ بِتَنْغِثِ المِجَاهِدَةِ. أو التَّحَبُّبِ إلى الله بِمَا يَرْضَى. والخلوصُ في نَصِيحَةِ الأُمّةِ، والأنسُ بالخلوةِ، والصَّبْرُ على مقاساتِ الأهوالِ، ومُتَازَلَاتِ الأخوالِ، والإِثَارِ لِأَمْرِهِ. والحياءُ من نظره. وَبَذلُ المَجْهُودِ في مَحْبُوبِهِ. والتعرّضُ لكلِّ سَبَبٍ يوصلُ إليه. ومَحَبَّةٌ من يَدْرُ عليه، والقناعةُ بالخمُولِ، وعدمُ سكُونِ القلبِ إلى شيءٍ دونِ الوُصُولِ؛ وهي أولُ منزلةِ القادِمين وطريقِ السَّالِكِينَ.

المُرِيدُ: من لا إِرَادَةَ له دونَ مَوْلَاهُ؛ وهي ثلاثةُ مراتبٍ: إِرَادَةُ التَّبرُكِ والحُرْمَةِ؛ وهي لَمَنْ ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ، أو كَثُرَتْ عِلَاقَتُهُ. وإِرَادَةُ الوُصُولِ إلى الحَضْرَةِ؛ وهي لِأَهْلِ التَّجْرِيدِ وقُوَّةِ العَزَمِ. وإِرَادَةُ الجِلَاقَةِ وَكَمَالِ المَعْرِفَةِ؛ وهي لِمَنْ ظَهَرَتْ نَجَابَتُهُ. وَكَمَلَتْ أَهْلِيَّتُهُ. وَصَرَخَ له بالخِلافةِ من شَيْخٍ كَامِلٍ. أو هَاتَفَ صَادِقٍ.

المُجَاهِدَةُ: وهي قَطْمُ النَّفْسِ عَنِ المَأْلُوفَاتِ، وحملُها على مَخَالَفَةِ هَوَاهَا في عُمُومِ الأَوَاقَاتِ. وَخَرَقَ عَوَائِدَهَا في جَمِيعِ الحَالَاتِ. قَالَ بَعْضُهُمْ؛ مَرْجِعُهَا إِلَى ثَلَاثٍ: لَا تَأْكُلُ إِلَّا عِنْدَ الْفَاقَةِ، وَلَا تَنَامُ إِلَّا عِنْدَ الْغَلْبَةِ. وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ. وَنَهَايَتُهَا المَشَاهِدَةُ، فَلَا مُجَاهِدَةَ بَعْدَهَا. فَلَا تَجْمَعُ مُجَاهِدَةً وَمَشَاهِدَةً. إِذْ نِهَايَةُ التَّعَبِ، تَمَامُ السُّقْرِ. فَلِذَا حَصَلَ الوُصُولُ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا الرَّاحَةُ. وَمُشَاهِدَةُ الحَبِيبِ مَعَ حِفْظِ الأَدَبِ، وهي ثَلَاثٌ: مُجَاهِدَةُ الظُّوَاهِرِ بِدَوَامِ الطَّاعَاتِ وَكَفِّ المَنْهِيَّاتِ. وَمُجَاهِدَةُ البَوَاطِنِ، بِنَفْيِ الخَوَاطِرِ الرَّدِیَّةِ، وَدَوَامِ الحُضُورِ فِي الحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ. وَمُجَاهِدَةُ السَّرَائِرِ بِاسْتِدَامَةِ الشُّهُودِ. وَعَدَمِ الِاتِّفَاتِ إِلَى غَيْرِ المَعْبُودِ.

الْوِلَايَةُ: وهي حُصُولُ الأَنْسِ بَعْدَ المَكَابِدَةِ. وَاعْتِنَاقِ الرُّوحِ بَعْدَ المِجَاهِدَةِ. وَحَاصِلُهَا: تَحْقِيقُ الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، بَعْدَ ذَهَابِ حَسِّ الكَائِنَاتِ. فَيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. فَأَوَّلُهَا التَّمَكُّينُ مِنَ الفَنَاءِ، وَنَهَايَتُهَا التَّحْقِيقُ بِالبَقَاءِ، وَبَقَاءُ البَقَاءِ. وَيَبْقَى التَّرَاقِي وَالاِتِّسَاعُ فِيهَا أَبَدًا سَرْمَدًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ لِرَجُلٍ: أَتُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ وَلِيًّا؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَا تَرْغَبْ

في شيءٍ من الدنيا والآخرة. وفرَّغ نفسك لله عزَّ وجلَّ. وأقبلْ بوجهك عليه. يرق عليك ويواليك. وقال غزيرة: الولي من كان همه الله، وشغله الله. وفناؤه دائماً في الله. وتطلق على ثلاث مراتب: ولاية عامة؛ وهي لأهل الإيمان والتقوى. كما في الآية؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [يونس: ٦٢]. وولاية خاصة؛ وهي لأهل الاستِشْرافِ على العلم بالله. وولاية خاصة الخاصة؛ وهي لأهل التمكن في معرفة الله على نعتِ العيان. قيل: مَنْ أولياء الله يا رسول الله؟ قال: «المتحابون في الله». وفي رواية: «الذين نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا، حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا».^(١) الحديث. فشمَل الحديث ولاية الخاصة، وخاصة الخاصة. والله تعالى أعلم.

الْحُرِّيَّةُ: وهي تصفية الباطن، من حُبِّ غَيْرِ الْحَقِّ، حتى لا تبقى فيه بقية لغير الله، وهذه الحرية الكسبية؛ وهي سبب الظفر بالحرية الوهبية؛ وهي غيبة العبد في مظاهر الرب. فتنتفي ظلمة الحدوث في نور القدم. وتختفي قوالب العبودية، فهي تجلِّي مظاهر الربوبية. فيبقى الخلق بلا خلق. فحينئذ يكتب للعبد عقد الحرية، فتكون عبادة وعبودية. شكراً لا قهراً. كما قال سيد

(١) قال الإمام السيوطي في الدر المنثور: «أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى أجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماوا منها ما يخشون أن يمتهم وتركوا ما عملوا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً وفرحهم بما أصابوا منها حزناً وما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليس يجدونها وخربت بينهم فليس يعمرونها وماتت في صدورهم فليس يحبونها يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين وباعوها فكانوا يبيعها هم المربحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلث فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا وليس يرون نائلاً مع ما نالوا ولا أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يحذرون.

العارفين عليه السلام: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١)، وقال إِمَامُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: الْجُنَيْدُ: «عبادة العارف تَأْجُ عَلَى الرَّؤُوسِ». يَغْنِي كَمَالُ الْكَمَالِ.

الْعُبُودِيَّةُ: وهي القيام بِآذَابِ الرَّبُوبِيَّةِ، مع شُهودِ ضعفِ البشريَّةِ. وقال بَعْضُهُمْ: هي القيام بِحَقِّ الطَّاعَاتِ، بِشَرْطِ التَّوْقِيرِ، والنَّظَرِ إِلَى مَا فِيكَ بِعَيْنِ التَّقْصِيرِ. أَوْ تَرْكُ الْإِخْتِيَارِ. فِيمَا يَبْدُو مِنَ الْأَقْدَارِ. أَوْ التَّبَرُّيِّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا يُولِيكَ وَيُعْطِيكَ مِنَ الْمِئْتَةِ.

وَأَجْمَعُ الْعِبَارَاتِ فِيهَا، مَا قَالَهُ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ: حَفَظَ الْحُدُودَ، وَالْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ، وَالرَّضَى بِالْمَوْجُودِ. وَالصَّبْرَ عَلَى الْمَفْقُودِ. قُلْتُ: وَأَحْسَنُ مَا فِي تَفْسِيرِ الْعُبُودِيَّةِ، أَنْ تَقْدَرَ أَنَّ لَكَ عَبْدًا اشْتَرَيْتَهُ بِمَالِكَ. فَكَمَا تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَبْدُكَ مَعَكَ، فَكُنْ أَنْتَ مَعَ مَوْلَاكَ. فَالْعَبْدُ لَا يَمْلِكُ مَعَ سَيِّدِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ مَالِهِ، وَلَا يَمْكُنُهُ مَعَ قَهْرِيَّةِ سَيِّدِهِ تَدْبِيرٌ وَلَا اخْتِيَارٌ. وَلَا يَتَزَيَّنُ إِلَّا بِزَيِّ الْعَبِيدِ أَهْلِ الْخِدْمَةِ، وَيَكُونُ عِنْدَ أَمْرِ سَيِّدِهِ وَنَهْيِهِ. وَإِذَا كَانَ حَازِقًا فَاهِمًا عَمِلَ مَا يُرْضِي سَيِّدَهُ، قَبْلَ أَنْ يَدْمُرَهُ، وَيَفْهَمُ عَنْ سَيِّدِهِ بِأَدْنَى إِشَارَةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدَابِ الْمَرْضِيَّةِ فِي الْعَبِيدِ الْمُؤَدِّبِينَ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْعُبُودِيَّةُ أَتَمُّ مِنَ الْعِبَادَةِ» فَأُولُ الْمَرَاتِبِ عِبَادَةٌ. ثُمَّ عُبُودِيَّةٌ، ثُمَّ عُبُودَةٌ. فَالْعِبَادَةُ لِلْعَوَامِ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِلْخَوَاصِّ. وَالْعُبُودَةُ لَخَوَاصِّ الْخَوَاصِّ. قُلْتُ: وَالْعُبُودَةُ هِيَ الْحَرِيَّةُ الْوُهِبِيَّةُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْقَنَاعَةُ: الْإِكْتِفَاءُ بِالْقِسْمَةِ وَعَدَمُ التَّشَوُّقِ لِلزِّيَادَةِ. وَالِاسْتِغْنَاءُ بِالْمَوْجُودِ. وَتَرَكَ التَّشَوُّقَ إِلَى الْمَفْقُودِ؛ وَهِيَ الْحَيَاةُ الطَّيْبَةُ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨]. أَيِ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ قِيلَ بَعْضُهُمْ أَوْ مَاتَ. لَيَرْزُقَنَّ اللَّهُ مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَهِيَ مِنْ ثَمَرَةِ الْغِنَى بِاللَّهِ. قَالَ وَهْبُ بْنُ مَثْبُغٍ: «إِنَّ الْعِزَّ وَالْغِنَى، خَرَجَا يَجُولَانِ، فَلَقِيْنَا الْقَنَاعَةَ، فَاسْتَقَرَّا فِيهَا». وَمَرَجَعُهَا إِلَى سَدِّ بَابِ الطَّمَعِ، وَفَتْحِ بَابِ الْوَرَعَ. وَهِيَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ..» حَدِيثُ رَقْمٍ (٤٥٥٦) [١٨٣٠/٤] وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، بَابُ إِكْثَارِ الْأَعْمَالِ وَالْإِجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ، حَدِيثُ رَقْمٍ (٢٨١٩) [٢١٧١/٤] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

مَطْلُوبَةٌ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَقَطْ. وَأَمَّا فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، أَوْ فِي زِيَادَةِ الْعِلْمِ. وَالتَّرْقِيَةِ فِي الْمَعْرِفَةِ فَمَذْمُومَةٌ؛ وَلِذَا قِيلَ: «الْقَنَاعَةُ مِنَ اللَّهِ جِزْمَانٌ».

الْعَافِيَةُ: وَهِيَ سَكُونُ الْقَلْبِ وَخُلُوهُ مِنَ الْإِنْزِعَاجِ وَالْاضْطِرَابِ وَالتَّقَلُّبِ. ثُمَّ إِنْ كَانَ بِالسَّكُونِ إِلَى اللَّهِ، وَالرَّضَى عَنْهُ؛ فَهِيَ الْعَافِيَةُ الْكَامِلَةُ. وَإِنْ كَانَ بِجَرَيَانِ الْأَسْبَابِ الْوَاقِفَةِ، فَهِيَ الْعَافِيَةُ الْعَادِيَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»^(١) فَعَافِيَةُ الْعَامَّةِ: سَكُونُهُمْ إِلَى الْأَسْبَابِ. فَلِذَا انْخَرَمَتْ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ وَتَزَلْزَلَتْ لِخَرَابِهَا مِنْ نَوْرِ الْيَقِينِ. كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «نَحْنُ كَالنُّجُومِ، كُلَّمَا اشْتَدَّتْ الظُّلْمَةُ، قَوِيَ نُورُنَا». وَقَالَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ كَانَتْ السَّمَاءُ مِنْ أَجَاجٍ، وَالْأَرْضُ مِنْ نَحَاسٍ، وَمِضْرُ كُلِّهَا عِيَالِي. مَا اهْتَمَمْتُ لَهُمْ بِرِزْقٍ». وَعَافِيَةُ خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ: سَكُونُهُمْ إِلَى شُهُودِ الْحَقِّ. غَائِبِينَ عَنِ الْأَسْبَابِ وَعَدَمِيهَا. غَزَقَى فِي بَخْرِ التَّوْحِيدِ؛ وَأَسْرَارَ التَّفْرِيدِ. لَا تَنْزِلُ الْهَمُومُ بِسَاحَتِهِمْ. وَلَا تَكْثُرُ صَفَاءُ شَرْبِهِمْ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

الْيَقِينُ: وَهُوَ سَكُونُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ بِعِلْمٍ لَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يُحَوِّلُ وَلَا يَتَقَلَّبُ، وَلَا يَزُولُ عِنْدَ هَيْجَانِ الْمَحْرَكَاتِ، وَازْتِفَاعِ الرُّؤْبِ، فِي مُشَاهَدَةِ الْغَيْبِ. وَعِلَامَتُهُ ثَلَاثُ:

رَفْعُ الْهَمَةِ عَنِ الْخَلْقِ عِنْدَ الْحَاجَةِ. وَتَرْكُ الْمَدْحِ لَهُمْ عِنْدَ الْعَطِيَةِ. وَالتَّنَزُّهُ عَنِ ذَمِّهِمْ عِنْدَ الْمُنْعَةِ. فَيَقِينُ الْعَامَّةُ بِتَوْحِيدِ أَفْعَالِهِ. فَسَكَنُوا إِلَيْهِ فِي الْمُنْعِ وَالْعَطَاءِ. وَيَقِينُ الْخَاصَّةُ بِتَوْحِيدِ صِفَاتِهِ. فَرَأَوْا الْخَلْقَ مَوْتَى، لَيْسَ بِيَدِهِمْ حَرَكَةٌ وَلَا سَكُونٌ. يَقِينُ خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ، بِتَوْحِيدِ ذَاتِهِ، فَشَاهَدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعَرَفُوهُ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ. وَلَمْ يَشْهَدُوا مَعَهُ شَيْئًا.

عِلْمُ الْيَقِينِ: وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ:

عِلْمُ الْيَقِينِ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ الْبُرْهَانِ. وَعَيْنُ الْيَقِينِ، مَا نَشَأَ عَنِ الْكَشْفِ وَالْبَيَانِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ: مَا نَشَأَ عَنِ الشُّهُودِ وَالْعَيَانِ. فَعِلْمُ الْيَقِينِ لِأَرْبَابِ الْعُقُولِ

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ، بَابِ الْأَلْفِ مِنْ اسْمِهِ أَحْمَدُ، حَدِيثٌ رَقْمُ (١٦٣)

[١١٣/١] وَرَوَاهُ غَيْرُهُ.

من أَهْلِ الْإِيمَانِ. وَعَيْنُ الْيَقِينِ لِأَزْبَابِ الْوُجْدَانِ، مِنْ أَهْلِ الْاسْتِشْرَافِ عَلَى الْعِيَانِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ، لِأَهْلِ الرِّسْوَخِ وَالتَّمَكُّينِ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ.

وَيُثَالِ ذَلِكَ: كَمَنْ سَمِعَ بِمَكَّةَ مَثَلًا وَلَمْ يَرَهَا. فَعِنْدَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ بِوُجُودِهَا، فَإِذَا اسْتَشْرَفَ عَلَيْهَا وَرَأَاهَا وَلَمْ يَدْخُلْهَا، فَعِنْدُهُ عَيْنُ الْيَقِينِ. فَإِذَا دَخَلَهَا وَعَرَفَ طُرُقَهَا وَأَمَّاكِنَهَا، فَهَذَا عِنْدَهُ حَقُّ الْيَقِينِ. وَكَذَلِكَ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ تَعَالَى. فَأَهْلُ الْحِجَابِ، اسْتَدَلُّوا حَتَّى حَصَلَ لَهُمُ الْعِلْمُ الْيَقِينُ بِوُجُودِ الْحَقِّ. وَأَهْلُ السَّيْرِ مِنَ الْمُتَرِيدِينَ الْمُشْرِفِينَ عَلَى الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ، حَصَلَ لَهُمُ عَيْنُ الْيَقِينِ، حِينَ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْوَارُ الْمَعَانِي. وَغَابَتْ عَنْهُمْ ظِلَالُ الْأَوَانِي. غَيْرَ أَنَّهُمْ بَاقُونَ فِي دَهْشَةِ الْفَنَاءِ، لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ دَوَامِ شَهُودِ الْحَقِّ. فَإِذَا تَمَكَّنُوا مِنْ دَوَامِ شَهُودِهِ، وَرَسَخَتْ أَقْدَامُهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِ. حَصَلَ لَهُمُ حَقُّ الْيَقِينِ. وَهَذِهِ نِهَايَةُ النُّعْمَةِ، وَغَايَةُ السَّعَادَةِ جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ آمِينَ.

النُّعْمَةُ: هِيَ مُلَازِمَةُ الْأَفْرَاحِ، وَمُبَاعَدَةُ الْأَتْرَاحِ، وَإِصَابَةُ الْأَغْرَاضِ، وَتَرْاهَةِ الْأَعْرَاضِ؛ وَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ: كَالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ. وَالْكِفَايَةِ مِنَ الْحَلَالِ. وَنِعْمَةٌ بَاطِنَةٌ، كَالْإِيمَانِ وَالْهَدَايَةِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَالنَّاسُ فِي النُّعْمَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قَوْمٌ فَرِحُوا بِالنُّعْمَةِ لِمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمُتَعَةِ، فَحُجِبُوا بِهَا عَنِ الْمُنْعِمِ. وَقَوْمٌ فَرِحُوا بِالنُّعْمَةِ: لِإِقْبَالِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ. حَيْثُ ذَكَرَهُمْ بِهَا. وَقَوْمٌ فَرِحُوا بِالْمُنْعِمِ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. [الأنعام: ٩١] فَشَكَرَ الْأَوَّلَيْنِ، يَزِيدُ بِزِيَادَتِهَا، وَيَزُولُ بِزَوَالِهَا. وَشَكَرَ الثَّالِثُ دَائِمًا فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ؛ وَهَذَا هُوَ شُكْرُ الْخَوَاصِّ.

الْفِرَاسَةُ: وَهِيَ خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ. أَوْ وَارِدٌ يَتَجَلَّى فِيهِ، لَا يُخْطِئُ غَالِبًا إِذَا صَفَا الْقَلْبُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِثُورِ اللَّهِ»^(١). وَهُوَ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْقُرْبِ وَالْمَعْرِفَةِ. فَكَلِمَا قُوَّةِ الْقُرْبِ، تَمَكَّنَتْ

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (٣١٢٧) [٢٩٨/٥] والطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر حديث رقم (٣٢٥٤) [٣١٢/٣] ورواه غيرهما.

المعرفة؛ وَصَدَقَتِ الْفِرَاسَةُ؛ لِأَنَّ الرُّوحَ إِذَا قَرُبَتْ مِنْ حَضْرَةِ الْحَقِّ، لَا يَتَجَلَّى فِيهَا غَالِبًا إِلَّا الْحَقُّ؛ وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ: فِرَاسَةُ الْعَامَّةِ. وَهِيَ كَشَفَ مَا فِي ضَمَائِرِ النَّاسِ، وَمَا غَابَ مِنْ أَخْوَالِهِمْ؛ وَهِيَ فِتْنَةٌ فِي حَقٍّ مِنْ لَمْ يَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ الرَّحْمَنِ. وَفِرَاسَةُ الْخَاصَّةِ: وَهِيَ كَشَفَ أَسْرَارِ الْمَقَامَاتِ وَالْمُنَازَلَاتِ. وَالْإِطْلَاقُ عَلَى أَنْوَارِ الْمَلَكُوتِ. وَفِرَاسَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ: وَهِيَ كَشَفَ أَسْرَارِ الذَّاتِ، وَأَنْوَارِ الصِّفَاتِ. وَالغَزَقُ فِي بَخْرِ أَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ.

وَقَالَ الْكُتَّانِيُّ: هِيَ مَكَاشِفَةُ الْحَقِّ، وَمُعَايِنَةُ الْغَيْبِ. وَقَالَ الْوَاسِطِيُّ: هِيَ سَوَاطِعُ أَنْوَارِ الذَّاتِ، وَتُمْكِينُ جَمَلَةِ السَّرَائِرِ فِي الْغُيُوبِ مِنْ غَيْبٍ إِلَى غَيْبٍ حَتَّى يَشْهَدَ الْأَشْيَاءَ، مِنْ حَيْثُ أَشْهَدَهُ الْحَقُّ إِثْبَاتًا. فَيَتَكَلَّمُ عَلَى ضَمَائِرِ الْخَلْقِ. قُلْتُ: قَوْلُهُ: فَيَتَكَلَّمُ، لَيْسَ بِشَرْطٍ فِي فِرَاسَةِ الْخَاصَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْخُلُقُ: وَهِيَ مَلَكَةٌ تَصْدُرُ عَنْهُ الْأَفْعَالُ بِسُهُولَةٍ. ثُمَّ إِنْ كَانَتْ الْأَفْعَالُ حَسَنَةً، كَالْجِلْمِ وَالْعَفْوِ وَالْجُودِ وَنَحْوَهَا، سُمِّيَ خُلُقًا حَسَنًا. وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً، كَالْعُصْبِ وَالْعَجَلَةِ، وَالْبُخْلِ، سُمِّيَ خُلُقًا سَيِّئًا. قَالَ وَهْبٌ: مَا تَخَلَّقَ عَبْدٌ بِخُلُقِي أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ طَبِيعَةً فِيهِ. فَالْخُلُقُ الْحَسَنُ يَكْتَسِبُ. وَالسَّيِّئُ يُجَاهَدُ حَتَّى يَزُولَ. وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ يَعْدِلُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ؛ وَهُوَ ثَمَرَةُ التَّصَوُّفِ. فَمَنْ لَمْ يُحَسِّنْ خُلُقَهُ فَتَصَوَّفَ أَشْجَارًا بَلَاءً يُعَارِ. وَمَرْجِعُ حُسْنِ الْخُلُقِ، إِلَّا تَغَضَّبَ، وَلَا تَبَخَّلَ، وَلَا تَحْقِدَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

الْجُودُ وَالسَّخَاءُ وَالْإِثَارُ: فَالْجُودُ: أَلَّا يَصْعَبَ عَلَيْهِ الْبَذْلُ. فَمَنْ أُعْطِيَ الْبَغْضَ وَأَبْقَى الْأَكْثَرَ؛ فَصَاحِبُ سَخَاءٍ. وَمَنْ بَذَلَ الْأَكْثَرَ، فَصَاحِبُ جُودٍ. وَمَنْ قَاسَى الضَّرَاءَ وَأَثَرَ غَيْرِهِ، فَصَاحِبُ إِثَارٍ. فَجُودُ الْعَامَّةِ بِالْأَمْوَالِ، وَجُودُ الْخَاصَّةِ بِالنَّفُوسِ. وَجُودُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْأَرْوَاحِ يَبْذُلُونَهَا لِلْمَوْتِ بِالْمُجَاهَدَةِ. ثُمَّ تَحْيَا الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ بِالْمُشَاهَدَةِ.

الْفَقْرُ: هُوَ نَفْضُ الْيَدِ مِنَ الدُّنْيَا، وَصِيَانَةُ الْقَلْبِ مِنْ إِظْهَارِ الشُّكُورِ. وَنَعْتَ الْفَقِيرِ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ: صِيَانَةُ فَقْرِهِ، وَحِفْظُ سِرِّهِ، وَإِقَامَةُ دِينِهِ. قَالَ جَعْفَرُ الْخُلْدِيِّ مَا غَمَضَ عَلَى النَّاسِ: خَدَمْتُ سِتْمَاةَ شَيْخٍ.. فَمَا وَجَدْتُ مِنْ شَفَا قَلْبِي مِنْ أَزْبَعِ مَسَائِلَ حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ عَنْ

مَسَائِلِكَ». فقلت يا رسول الله: ما الْعَقْلُ؟ فَقَالَ: «أَدْنَاهُ تَرْكُ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللَّهِ». قلت: وما التَّوْحِيدُ؟ فقال: «كُلُّ مَا أَتَى بِهِ الْوَهْمُ، أَوْ جَلَاءُ الْفَهْمِ، فَرُبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مُخَالِفٌ لِذَلِكَ». فقلت: وما التَّصَوُّفُ؟ فقال: «تَرْكُ الدَّعَاوِي، وَكُتْمَانُ الْمَعَانِي». فقلت: وما الْفَقْرُ؟ فَقَالَ: «سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ. يُودِعُهُ فِيْمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ. فَمَنْ كَتَمَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ. وَزَادَ اللَّهُ مِنْهُ. وَمَنْ بَاخَ بِهِ، نَفَاهُ اللَّهُ عَنْهُ». قلت: جواب كلِّ إِنْسَانٍ عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِ. كما قال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ»^(١). فقوله عليه الصلاة والسلام في العقل: أغلَاهُ تَرْكُ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللَّهِ. أما التَّفَكُّرُ فِي كُنْهِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَنَهَى عَنْهُ. إِذْ لَا يُدْرِكُ. وَأما التَّفَكُّرُ فِي أَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنْوَارِ صِفَاتِهَا، فَلَا عِبَادَةَ أَعْظَمَ مِنْهَا. وَقوله أَيْضاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي التَّوْحِيدِ، كُلُّ مَا أَتَى بِهِ الْوَهْمُ الْخ: الْوَهْمُ لَا يُدْرِكُ إِلَّا حَسَّ الْكَائِنَاتِ فَهُوَ قَصِيرٌ وَالْفَهْمُ بِلَا ذَوْقٍ، لَا يَدْرِكُ أَسْرَارَ التَّوْحِيدِ لِأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنِ الْوَهْمِ وَذَكَرَ الْعَقْلَ. فَظَهَرَ قَوْلُهُ ﷺ: كُلُّ مَا أَتَى بِهِ الْوَهْمُ الْخ. . وَقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فِي شَأْنِ الْفَقْرِ، مَنْ كَتَمَهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ. أَيْ فَيَكُونُ مِنَ السَّابِقِينَ. وَيَزِيدُهُ تَعَالَى مِنْ أَسْرَارِهِ وَأَنْوَارِهِ. وَهِيَ خِلَافَةُ الْمَعَامِلَةِ وَالْمَعْرِفَةِ. يَحْكِي عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الدِّقَاقَ، أَنَّهُ جَلَسَ يَوْمًا مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَكَانَتْ مِنْهُ غَفْلَةٌ، حَتَّى شَكَا ضَيْقَ حَالِهِ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ، نَامَ بَعْضُهُمْ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ وَقَالَ: يَا لِلَّهِ أَبْلَغَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الدِّقَاقَ، مَا أَقُولُ لَكَ. ثُمَّ أُنْشَدَ:

قُلْ لِلرُّؤْيُجِلِ مِنْ ذَوِي الْأَقْدَارِ الْفَقْرُ أَفْضَلُ شِيَمَةِ الْأَخْرَارِ
يَا مَنْ شَكَا لِلْخَلْقِ فِغْلَةً رَبِّهِ هَلَا شَكُوْتَ تَحْمُلَ الْأَوْزَارِ
إِنَّ الَّذِي أَلْبَسْتَ مِنْ حُلْلِ الثَّقَى لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ عَنْهَا عَارِ

الذِّكْرُ: هُوَ إِذَا أُطْلِقَ يَنْصَرِفُ لِذِكْرِ اللَّسَانِ؛ وَهُوَ زُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طَرِيقِ الْوُصُولِ. وَهُوَ مَنُشَوْرُ الْوِلَايَةِ. فَمَنْ أَلْهِمَ الذِّكْرَ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْمَنُشَوْرَ. وَمَنْ سَلِبَ الذِّكْرَ فَقَدْ عَزَلَ. فِذِكْرِ الْعَامَّةِ بِاللِّسَانِ. وَذِكْرِ الْخَاصَّةِ بِالْجَنَانِ. وَذِكْرُ

(١) لم أجده بهذا اللفظ وورد بالفاظ أخرى متقاربة منها: «أمرت أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (١٦١١) [٣٩٨/١]).

خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ بِالرُّوحِ وَالسِّرِّ؛ وَهُوَ الشُّهُودُ وَالْعِيَانُ. فَيَذْكُرُ اللَّهُ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ. وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ. أَيْ يَعْرِفُ اللَّهُ فِيهِ. وَهَذَا يَخْرُسُ اللِّسَانَ. وَيَبْقَى كَالْمَبْهُوتِ فِي مَحَلِّ الْعِيَانِ. وَيُعَذِّ ذِكْرُ اللِّسَانِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ضَعْفًا وَبِطَالَةً، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

مَا إِنْ ذَكَرْتِكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَعُنِي سِرِّي وَقَلْبِي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَهْتِفُ بِِي إِيَّاكَ وَنَحَكَ وَالتَّكْرَارَ إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ وَوَاصِلِ الْكُلِّ مِنْ مَغْنَاهُ مَغْنَاكَ

وقال السيوطي مشيراً لهذا المقام: الذَّاكِرُونَ فِي ذِكْرِهِ، أَشَدُّ غَفْلَةً مِنَ النَّاسِ لِذِكْرِهِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَهُ سَوَاءً.

الْوَقْتُ: قَدْ يَطْلُقُونَهُ عَلَى مَا يَكُونُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ. مِنْ قَبْضٍ أَوْ بَسْطٍ، أَوْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدُّقَاقُ: الْوَقْتُ مَا أَنْتَ فِيهِ فِي الْحَالِ. فَإِنْ كُنْتَ بِالذَّنْبِ، فَوَقْتُكَ الذَّنْبُ. وَإِنْ كُنْتَ بِالْعُقْبَى، فَوَقْتُكَ الْعُقْبَى. يُرِيدُ أَنَّ الْوَقْتُ مَا كَانَ الْغَالِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ. وَقَدْ يَعْنُونَ بِهِ الزَّمَانَ، الَّذِي بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ.

يقولون، الصوفي ابن وقته. يريدون أنه مشغول بما هو أولى به في الوقت، لا يُدَبِّرُ فِي مُسْتَقْبَلٍ وَلَا مَاضٍ. بَلْ يَهْمُهُ مَا هُوَ فِيهِ. وَكُلُّ وَقْتٍ لَهُ آدَابٌ تَطْلُبُ فِيهِ. فَمَنْ أَحْلَى بِأَدَبِهِ مَقْتَهُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: الْوَقْتُ كَالسِّيفِ، فَمَنْ لَا يَنْتَهُ سَلِمَ، وَمَنْ خَاشَنَهُ قُصِمَ. وَمَلَايَنْتُهُ، الْقِيَامُ بِأَدَبِهِ. فَوَقْتُ الْقَهْرِ، آدَابُهُ الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ تَحْتَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ. وَوَقْتُ النِّعْمَةِ، آدَابُهُ الشُّكْرُ، وَوَقْتُ الطَّاعَةِ: آدَابُهُ شُهُودُ الْيَمِينَةِ مِنَ اللَّهِ. وَوَقْتُ الْمَعْصِيَةِ: آدَابُهُ التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ.

الْحَالُ وَالْمَقَامُ: الْحَالُ مَعْنَى يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَلَا اجْتِلَابٍ؛ وَلَا تَسَبُّبٍ وَلَا اكْتِسَابٍ. مِنْ بَسْطٍ أَوْ قَبْضٍ، أَوْ شَوْقٍ أَوْ انْزِعَاجٍ، أَوْ هَيْبَةٍ أَوْ اهْتِجَاجٍ. وَيُظْهِرُ أَثَرَهُ عَلَى الْجَوَارِحِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ، مِنْ شَطْحٍ وَرَقْصٍ وَسِيرٍ وَهَيْامٍ؛ وَهُوَ أَثَرُ الْمَحَبَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَحْرُكُ السَّاكِنَ أَوَّلًا، ثُمَّ تَسْكُنُ وَتَطْمَئِنُّ. وَلِذَا قِيلَ فِيهَا: أَوَّلُهَا جُثُودٌ، وَوَسْطُهَا فَنُونٌ، وَآخِرُهَا سَكُونٌ. وَقَدْ يُكْتَسَبُ الْحَالُ بِنَوْعِ تَعْمَلٍ، كَحُضُورِ حَلْقِ الذِّكْرِ، وَاسْتِعْمَالِ السَّمَاعِ. وَقَدْ يَطْلُبُ اكْتِسَابَهُ بِخَرْقِ عَوَائِدِ النَّفْسِ، حِينَ يَعْتَرِيهَا بَرُودَةٌ وَفَتُورٌ. وَفَزَقٌ وَكَسَلٌ. فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي

تسخينها. مما يثقل عليها من خزق العوائد. وقد يطلق الحال على المقام. فيقال: فلان صار عنده الشهود مئة حالاً. ومنه قول المجذوب:

حَقَّقْتُ مَا وَجَدْتُ غَيْرُهُ وَأَمْسَيْتُ فِي الْحَالِ هَازِي

وأما المقام: فهو ما يتحققه العبد بمنازلة واجتهاد؛ من الأدب، وما يتمكن فيه من مقامات اليقين. بتكسب وتطلب. فمقام كل واحد موضع إقامته. فالمقامات تكون أولاً أخوالاً حيث لم يتمكن المريد منها؛ لأنها تتحول، ثم تصير مقامات بعد التمكن. كالتوبة مثلاً. تحصل ثم تنقص؛ حتى تصير مقاماً؛ وهي التوبة النصوح؛ وهكذا بقية المقامات.

وشرطه: أن لا يرتقي مقاماً حتى يستوفي أحكامه. فمن لا توبة له، لا تصح له إنابة. رجوع. ومن لا إنابة له، لا تصح له استقامة. ومن لا ورع له، لا يصح له زهد. وهكذا.

وقد يتحقق المقام الأول بالثاني، إذا ترقى عنه قبل إكماله؛ إن كان له شيخ كامل. وقد يطوي عنه المقامات، ويدسه إلى الفناء إن رآه أهلاً بتوقد قريحته. ورقية فطنته. فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. هذا معنى المقام بفتح الميم. وأما المقام بالضم، فمعناه الإقامة. ولا يكمل لأحد منازلة مقام، إلا بشهود إقامة الحق تعالى فيه. وفي الحكم العطائية: من علامات النجح في النهاية، الرجوع إلى الله في البداية. وقال أيضاً: «من كانت بالله بدايته، كانت إليه نهايته».

القبض والبسط: وهما حالان بعد الترقى من حال الخوف والرجاء. فالقبض للعارف، بمنزلة الخوف للطالب. والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمريد. والفرق بين القبض والخوف. وبين الرجاء والبسط. إن الخوف متعلقه مستقيل. إما فوات محبوب، أو هجوم مخذور. بخلاف القبض. فإنه معنى يحصل في القلب. إما بسبب أو لا. وكذلك الرجاء يكون لانتظار محبوب في المستقبل. والبسط شيء موهوب يحصل في الوقت. فحقيقة القبض: انكماش وضيق يحصل في القلب، يوجب التحرك والانبساط. ولكل واحد آداب مذكورة في المطولات.

الْخَوَاطِرُ وَالْوَارِدَاتُ: الخواطرُ خطابات ترد على القلوب، تكون بإلقاء مَلِكٍ أو شيطان. أو حديث نَفْسٍ. فإذا كان مِنَ الْمَلِكِ فَلِلْهَامِ. أو من الشيطان فوسواس. أو من النَّفْسِ فهو اجس. فما وافق الحق، ودعا إلى اتباعه فَمِنْ الْمَلِكِ. وما وافق الباطل. أو دَعَا إلى معصية، غالباً فَمِنْ الشيطان، وَقَدْ يَدْعُو إلى الطاعة حيث يَتَرْتَّبُ عليها معصية. كالرياء وحب المَدْح. وما دَعَا إلى اتباع الشهوة والدَّعة، أي الراحة، فَمِنْ النَّفْسِ.

قال أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ: مَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ، لَمْ يَفَرِّقْ بَيْنَ الْإِلْهَامِ وَالْوَسْوَاسِ. وكذلك مَنْ كَانَ وقته معلوماً. وفَرَّقَ الجَنِيدَ بَيْنَ هَوَاجِسِ النَّفْسِ، وَوَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ. بَأَن مَّا دَعَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ لَا تَنْتَقِلُ عَنْهُ فَلَا تَعَاوِدُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، إِلَّا بَعْدَ مُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ. ووسواس الشيطان ينتقل عنها، فإذا خالفته في معصية، انتقل لِأُخْرَى. وَرُبَّمَا ذَهَبَ بِالتَّعَوُّذِ وَنَحْوِهِ. وَلِذَلِكَ كَانَتِ النَّفْسُ أَخْبَثَ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا.

وأما الواردات: فهي مَا يَرِدُ على القلوب من التجليات القوية. أو الخواطر المحمودة. بما لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ تَكْسِبٌ. والفَرْقُ بَيْنَ الْوَارِدَاتِ وَالْخَوَاطِرِ: أَنَّ الْوَارِدَاتِ أَعْمُ مِنَ الْخَوَاطِرِ، لِأَنَّ الْخَوَاطِرَ تَخْتَصُّ بِنَوْعٍ، أَوْ مَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ. والواردات تكون واردة سُورٍ، ووارد حُزْنٍ، ووارد قَبْضٍ، ووارد بَسْطٍ، ووارد شَوْقٍ، ووارد خَوْفٍ، إلى غير ذلك من المعاني. وقد يختطفه شاهد حسي؛ وهو قريب من الحال. وقد يأتي الواردُ بكشف غيب، فيجب تصديقه. إن صَفَا الْقَلْبُ مِنْ كُدُورَةِ الْخَوَاطِرِ. والله تعالى أَعْلَمُ.

النَّفْسُ وَالرُّوحُ وَالسَّرُّ: النَّفْسُ عند القوم، عبارة عما يَدُمُ من أفعال الْعَبْدِ وَأَخْلَاقِهِ. فالأول ما كَانَ مِنْ كَسْبِ الْعَبْدِ كَمَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَتِهِ. والثاني من كَانَ مِنْ جَبَلَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ. كَالْكِبَرِ وَالْحَسَدِ وَالْعُصْبِ وَسُوءِ الْخُلُقِ. وقلة الاختِمَالِ وغير ذلك من الأخلاق الذميمة؛ يُنْسَبُ لِلنَّفْسِ أَدْبًا مَعَ الْحَقِّ.

وَالرُّوحُ عبارة عن محلّ التجليات الإلهية، وكشف الأنوار الملكوتية. وَالسَّرُّ عبارة عن محلّ تجليات الأسرار الجبروتية. فالنفس للمعوم، والروح للخواص، والسرّ لخواصّ الخواصّ. والنفس لأهل عَالَمِ الْمُلْكِ. والروح لأهل

عَالَمِ الْمَلَكُوتِ. وَالسِّرُّ لِأَهْلِ عَالَمِ الْجَبَرُوتِ. وَسَتَاتِي حَقَائِقُهَا.

وهل النفس والروح والسرّ متعدّدات في نفسها، أو متّحدة. وإنما تختلف التسمية، باختلاف التصفية؟ قال بَعْضُهُمْ: النفس لطيفة مودعة في هَذَا الْقَالِبِ، وهي محل الأخلاق المحمودة. ومحلها واحد: وهو الإنسان. فَالنَّفْسُ وَالرُّوحُ من الأجساد اللطيفة، كالملائكة والشياطين. وهما ساكنان في الإنسان. فكما أَنَّ الْبَصَرَ محل الرؤية. والأذن محلّ السمع. والأنف محلّ الشَّمِّ مِنْ ذَاتٍ واحدة. فكذلك محلّ الأوصاف الذميمة النفس. ومحلّ الأوصاف الحميدة الروح. وأما السِّرُّ؛ فهي لطيفة مودعة في القلب كالروح، إِلَّا أَنَّهُ أَشْرَفُ مِنَ الرُّوحِ، لكمال أوصافه. قال الساحلي: النفس والقلب والروح والسرّ والباطن، أسماء لمسمّى واحد، وهي اللطيفة الربّانية، التي كان بها الإنسان إنساناً. وتختلف أسماؤها باختلاف أوصافها. فإن مالت لجهة النقص سَمِيَتْ نَفْساً. وإن تخلصّت من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان سَمِيَتْ قَلْباً. وإن تخلصّت منه إلى مقام الإحسان، ولكن بقي بها أثر النقص، كأثر الجراحات بعد البُرْءِ سَمِيَتْ رُوحاً. وإن ذهبت تلك الآثار، وَصَفَتْ، سَمِيَتْ سِرّاً. وإن أشكل الأمر سَمِيَتْ بِالْبَاطِنِ.

والاختلاف في الروح شَهِيرٌ. قال بعضهم: هي الحياة. وقال بعضهم أَعْيَانٌ مودعة في هذه القوالب، أَجْزَى الله العادة بخلق الْحَيَاةِ في القوالب، ما دامت الحياة فيه. فالإنسان حي بالحياة. ولكنّ الأرواح مودعة في القوالب. ولها تَرَقُّ في حال النُّومِ. ومفارقة ورجوع. وهي التي وقع بِهَا النَّفْخُ. وأما النفس فهي مخلوقة في الجنين، قبل نفخ الروح، بها يقع التحرك. وهي ملازمة للبدن، لا تفارقه إِلَّا بِالْمَوْتِ. فتخرج الروح أولاً، ثم تنقطع النفس، فتقطع الحياة.

فالإنسان روح وَنَفْسٌ وَجَسَدٌ، والحشر للجملّة، كذلك العقاب والثوب. والأرواح، مخلوقة قبل الأبدان. سارية فيها سَرَياتُ الثَّارِ في الفَحْمِ، والماء في العودِ الرُّطْبِ. قلت: هذه الأعيان المودعة في القوالب، هي اللطيفة الربّانية اللاهوتية؛ وهي التي تتطور، وتختلف أسماؤها باختلاف تطورها، كما قال الساحلي، والله أعلم. وكوّن الأرواح حادثة، يجري على مذهب الفَرَقِ. وأمّا

أَهْلُ الْجَمْعِ فَلَا حَدَثَ عِنْدَهُمْ لِفَنَاءِ الْكَائِنَاتِ عَنْ نَظَرِهِمْ. قَالَ الْجُنَيْدُ: إِذَا اقْتَرَنَ الْحَادِثُ بِالْقَدِيمِ، تَلَاشَى الْحَادِثُ وَبَقِيَ الْقَدِيمُ. وَسَأَلَتْ بَعْضُ إِخْوَانِنَا الْعَارِفِينَ: هَلِ الْأَزْوَاحُ حَدَثَةٌ أَوْ قَدِيمَةٌ؟ فَقَالَ: الرِّجَالُ: الْأَشْبَاحُ عِنْدَهُمْ قَدِيمَةٌ. يَشِيرُ إِلَى مَقَامِ الْفَنَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ. لَكِنَّهُ سَرَّ مَكْتُومٌ.

النُّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ وَالْعِصْمَةُ: النَّصْرُ تَقْوِيَةُ الْجَوَارِحِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ. وَالتَّأْيِيدُ: تَقْوِيَةُ الْبَصِيرَةِ مِنْ دَاخِلٍ. فَالْبَاعِثُ الْبَاطِنِي تَأْيِيدٌ. وَالبَطْشُ وَمُسَاعَدَةُ الْأَسْبَابِ مِنْ خَارِجٍ نَصْرٌ، وَهُوَ جَامِعٌ لِلْهُدَايَةِ الَّتِي مَرَجِعُهَا لِلْبَصِيرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْكَاشِفَةِ، لِمَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ بِحَقِيقَتِهِ. وَالرُّشْدُ الَّذِي مَرَجِعُهُ إِلَى الْإِرَادَةِ الْبَاعِثَةِ، إِلَى جِهَةِ الْمُسَاعَدَةِ. وَالتَّسْدِيدِ، الَّذِي مَرَجِعُهُ إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَوْجِيهِ الْحَرَكَاتِ إِلَى نَحْوِ الْمَطْلُوبِ، وَتَيْسِيرِهَا عَلَيْهِ مِنَ التَّأْيِيدِ، وَيَقْرُبُ مِنَ التَّأْيِيدِ الْجَامِعِ لَمَّا ذَكَرَ الْعِصْمَةَ؛ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ وَجُودِ إِلَهِي يَسْبَحُ فِي الْبَاطِنِ. يَقْوَى بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى تَحْرِيزِ الْخَيْرِ. وَتَجَنُّبِ الشَّرِّ، حَتَّى يَصِيرَ كِمَانَعٍ فِي بَاطِنِهِ غَيْرَ مُحْسُوسٍ؛ قَالَ الْغَزَالِيُّ. فَهَذِهِ سِتُّ حَقَائِقَ. الْهُدَايَةِ، وَالرُّشْدِ، وَالْعِصْمَةِ، وَالتَّسْدِيدِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالتَّأْيِيدِ. وَقَدْ عَلِمْتَ كُلُّهَا مِنْ كَلَامِ الْغَزَالِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْهُدَايَةَ: هِيَ تَصْوِيبُ الْعَبْدِ إِلَى طَرِيقِ تَوْضُلِهِ إِلَى الْحَقِّ. وَقَدْ تَطَلَّقَ عَلَى بَيَانِهَا فَقَطْ. وَالرُّشْدُ: هُوَ تَوْجِيهِ الْقَلْبِ إِلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ. وَالتَّسْدِيدُ: هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى سَلَكِ طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَتَجَنُّبِ الشَّرِّ. وَالْعِصْمَةُ: هُوَ وَجُودُ إِلَهِي إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ.

الْحِكْمَةُ: وَهِيَ إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِبْدَاعُهُ. فِيهِ الْعِلْمُ: تَحْقِيقُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ. وَفِي الْقَوْلِ: إِبْجَازُهُ وَتَكْثِيرُ مَعَانِيهِ. وَفِي الْعَمَلِ: إِتْقَانُهُ وَإِكْمَالُهُ. وَيُقَالُ: تَرْتَبَتْ الْحِكْمَةُ عَلَى ثَلَاثِ فِرَاقٍ: عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، وَأَيْدِي الصُّيْنِ، وَعُقُولِ الْيُونَانِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْعَقْلُ: وَهُوَ نُورٌ يُمَيِّزُ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَيَحْجِزُ صَاحِبَهُ عَنْ ارْتِكَابِ الْأَوْزَارِ. أَوْ نُورٌ رُوحَانِي تُدْرِكُ بِهِ النَفْسُ الْعُلُومَ الضَّرُورِيَّةَ وَالنَّظَرِيَّةَ. أَوْ قُوَّةٌ مَهِيَّةٌ لِقَبُولِ الْعِلْمِ؛ سُمِّيَ عَقْلاً؛ لِأَنَّهُ يَغْفِلُ صَاحِبَهُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي؛ وَهُوَ عَلَى قَسَمَيْنِ: عَقْلٌ أَكْبَرُ، وَعَقْلٌ أَصْغَرُ.

أَمَّا الْعَقْلُ الْأَكْبَرُ، فَهُوَ أَوَّلُ نُورٍ أَظْهَرَهُ اللَّهُ لِلْوُجُودِ. وَيُقَالُ لَهُ: الرُّوحُ

الأعظم. وَبُسْمَى أَيْضاً: بِالْقَبْضَةِ المَحْمُودِيَّةِ؛ وَمِنْ نَوْرِهِ يَمْتَدُّ الْعَقْلُ الْأَضْعَرُّ. كَامِتِدَادِ الْقَمَرِ مِنْ نَوْرِ الشَّمْسِ فَلَا يَزَالُ نَوْرُهُ بِالطَّاعَةِ وَالرِّيَاضَةِ، وَالتَّطَهُّيرِ مِنَ الْهَوَى، حَتَّى يَدْخُلَ الْعَبْدُ مَقَامَ الْإِحْسَانِ. وَتَشْرُقُ عَلَيْهِ شَمْسُ الْعِرْفَانِ، فَيَنْطَوِي نَوْرُهُ فِي نُورِ الْعَقْلِ الْأَكْبَرِ. كَانِطَوَاءِ نَوْرِ الْقَمَرِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَيَرَى مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْغُيُوبِ، مَا لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ قَبْلُ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ الْأَضْعَرَ نَوْرُهُ ضَعِيفٌ لَا يَذْكُرُ. إِلَّا افْتَقَارَ الصَّنْعَةَ إِلَى صَانِعِهَا. وَلَا يَذْكُرُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بِخِلَافِ الْعَقْلِ الْأَكْبَرِ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ الصَّنَاعَةَ الْقَدِيمَةَ. قَبْلَ التَّجَلِّيِ وَبَعْدَهُ لَصَفَاءِ نَوْرِهِ، وَشِدَّةِ شِعَاعِهِ. وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ. فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَذْيَبْ، فَأَذْيَبَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْعُدْ، فَقَعَدَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: قُمْ، فَقَامَ. فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا حَلَلْتُ حَلَالاً أَجْعَلُكَ إِلَّا فَيَمَنْ أَحَبَّبْتُ مِنْ عِبَادِي، أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَالْحَدِيثُ مُتَكَلِّمٌ فِيهِ. فَالْعَقْلُ الْأَكْبَرُ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْمُحِبُّونَ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِمَعْرِفَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَأَمَّا الْعَقْلُ الْأَضْعَرُّ فَيُعْطِيهِ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ. وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: عَقْلٌ مَوْهُوبٌ، وَعَقْلٌ مَكْسُوبٌ. فَالْمَوْهُوبُ: هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ غَرِيزَةً. وَالْمَكْسُوبُ: هُوَ الَّذِي يَكْتَسِبُ بِالتَّجَارِبِ وَالرِّيَاضَاتِ وَازْتِكَابِ الْمَحَنِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَامَةُ الْعَقْلِ ثَلَاثٌ: تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَتَزَكُّ مَا لَا يَغْنِي. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَاتِ الْعَقْلِ: التَّجَافِيَّ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّزَوُّدَ لِسُكْنَى الْقُبُورِ، وَالتَّأَهُبَ لِيَوْمِ النُّشُورِ»^(١).

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ عَقْلٌ يَزْجُرُهُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَحَيَاءٌ يَمْنَعُهُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَمَالٌ يَسْتُرُهُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَصَاعِقَةٌ تَحْرِقُهُ، يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ. وَهَلِ الْأَرْوَاحُ قَبْلَ الْأَشْبَاحِ كَانَتْ لَهَا عَقْلٌ؟ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا كَانَتْ

(١) رَوَى نَحْوَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحِينَ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (٧٨٦٣) [٣٤٦/٤] وَنَصَهُ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ» فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لَدُنْكَ مِنْ عِلْمٍ يَعْرِفُ بِهِ قَالَ نَعَمْ: «التَّجَافِيَّ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ».

لها عقول مقتبسة من العقل الأكبر. لذلك أَقَرَّتْ بالزبونية. بل كانت عَلَامَةً دُرَاكَةً للأشياء. كما قال الشيخ ابن البنا. والمعرفة والإدراك، إنما يكونان بِالْعَقْلِ. فلما بَرَزَتْ لعالم الأشباح، أزالَ اللهُ منها ذلكَ الْعَقْلَ؛ الذي هو مِنَ الْعَقْلِ الْأَكْبَرِ. وَأَثَبَتْ فيها الْعَقْلَ الْأَصْغَرَ؛ عند اجتنانِ الْوَلَدِ في البطن. فما زالَ يَنْمُو إلى الْحُلُم. وقيل: إلى أَرْبَعِينَ سَنَةً. فإذا اتَّصَلَ الْعَبْدُ بِالطَّيِّبِ، عَالَجَهُ حَتَّى يُؤَهِّلَهُ إلى الْعَقْلِ الْأَكْبَرِ، فيكونُ صاحِبَهُ من الأولياء، وبالله التوفيق.

التَّوْحِيدُ: وهو على قَسَمَيْنِ: توحيد البُرْهَان. وَهُوَ إفراد الحق بالأفعال والصفات والذاتِ عن طريق البُرْهَان. وتوحيد الْعِيَان: وهو إفراد الحق بالوجود في الْأَزَلِ والأبد. وقال الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هو مَعْنَى تَضَمُّجٍ فِيهِ الرُّسُوم. وتندرج فيه العلوم. يكون الله كما لَمْ يَزَلْ، وَأُصُولُهُ خَمْسَةٌ أَشْيَاء: رفع الحدث، وإفْرَادِ الْقِدَم، وهجران الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما عِلِمَ وَجْهَل. قلت: وَالْمَعْنَى الَّذِي تَضَمَّجَلُ فِيهِ الرُّسُوم؛ هو ظهور أسرارِ الذَّات. فإذا قَعَّ الكَشْفُ عَنْهَا بِغَيْبَةِ حَسِّ الْكَائِنَاتِ، التي هي أَوَانِي لَتلك المعاني، انفردَ الحق بالوجود، ويكون فيما لَمْ يَزَلْ. كما كَانَ فِي الْأَزَلِ. كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، هو الآن على ما عليه كَانَ. فيرتفع الحدث، وينفرد الْقِدَم. ويهجُرُ صاحِبَ هَذَا الذَّوْقِ جميعَ الْإِخْوَانِ، إِلَّا مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى رَبِّهِ. ويفارق الأوطان في طلبِ الحق. لَأَنَّ الْهَجْرَةَ سَنَةٌ. وَيَنْسَى مَا عِلِمَ وَمَا جَهِل. أي يغيب عنه في جَنْبِ الْكَثَرِ الَّذِي ظَفِرَ بِهِ. وَسُئِلَ أَيْضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: لَوْنُ الْمَاءِ لَوْنُ إِنَائِهِ. وَمَعْنَى كَلَامِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ الذَّاتَ الْعَلِيَّةَ، كَانَتْ لَطِيفَةً خَفِيَّةً نُورَانِيَّةً، فَلَمَّا تَجَلَّتْ بِالرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ، تَكَوَّنَتْ بِتَكْوِينِهَا، فَافْهَمُ، وَسَلَّمْ إِنْ لَمْ تَدُقْ. ومقامات التوحيد غيرُ مُتَّاهِيَةٍ، لَأَنَّهَا تَتَزَايَدُ بِتَزَايِدِ الْكَشْفِ وَالتَّرْقِي. فَفَوْقَ التَّوْحِيدِ:

التَّفْرِيدُ: فَإِنَّهُ أَرْقَى مِنَ التَّوْحِيدِ وَأَعْلَى؛ لَأَنَّ التَّوْحِيدَ يَصْدُقُ عَلَى تَوْحِيدِ أَهْلِ الْعِلْمِ. والتفريد خاصٌّ بِأَهْلِ الذَّوْقِ، وفوق التفريد.

الْأَحَدِيَّةُ، وَالْإِبْحَادُ، وَالْفَرْدَانِيَّةُ وَالْوَحْدَانِيَّةُ، وَالْإِنْفِرَادُ: وَهَكَذَا رُبَّتْهُمْ فِي الْقُوَّةِ.

فالأحدية: مُبَالِغَةٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَالْإِيْحَادِ: مُضْدَرُّ أَوْحَدَ الشَّيْءِ إِذَا صَارَ وَاحِدًا. وَالْفِرْدَانِيَّةُ وَالْوَحْدَانِيَّةُ وَالْإِنْفِرَادُ مَعْنَاهَا: إِفْرَادُ الْحَقِّ بِالْوُجُودِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ انْطِبَاقِ بَحْرِ الْأَحْدِيَّةِ عَلَى الْكُلِّ، بِحَيْثُ لَمْ يَنْقُ وَجَدَ لَغَيْرِهِ قُطْ؛ وَهُوَ يَذُوقُ ذَلِكَ ذَوْقًا. وَيَغْرُقُ فِيهِ غَرَقًا. وَيُقَالُ لِأَهْلِ هَذَا الْمَقَامِ: الْأَفْرَادُ وَالْآحَادُ؛ وَهُمْ أَكْمَلُ مِنَ الْقُطْبِ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ، كَمَا قَالَ الْحَاطِمِيُّ. وَخَارِجُونَ عَنْ دَائِرَةِ تَعْرِفِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

حَقِيقَةُ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ: هِيَ ذَاتٌ عَلِيَّةٌ أَزَلِيَّةٌ، لَطِيفَةٌ خَفِيَّةٌ، مُتَجَلِّيَّةٌ بِالرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ. مُتَصِفَةٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ. وَاحِدَةٌ فِي الْأَزْلِ. وَفِيمَا لَا يَزَالُ هَذَا رَسْمُهَا بِالْخَوَاصِّ. وَأَمَّا كُنْهُ الْحَقِيقَةِ فَلَا يَحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ تَعَالَى.

الْعَمَاءُ: مَعْنَاهُ السَّحَابُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ صِفَةِ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ فِي الْأَزْلِ قَبْلَ التَّجَلِّيِّ. وَحَقِيقَتُهُ: صَفَاءٌ لَطِيفٌ خَفِيٌّ صَافِيٌّ، لَا حَدٌّ لِفَوْقِيَّتِهِ، وَلَا لَتَحْتِيَّتِهِ، وَلَا لَجَوَانِبِهِ الْأَرْبَعِ، وَلَا نِهَآيَةَ لِأَوَّلِيَّتِهِ، وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ. خَالٍ عَنِ الرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ. مُتَّصِفٌ بِأَوْصَافِ الْكَمَالِ، مِنْ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ، وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ. وَيَجْمَعُهُ قَوْلُ ابْنِ الْفَارُضِ فِي خَمْرِيَّتِهِ:

يَقُولُونَ لِي صِفَهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا خَبِيرٌ أَجَلُ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَا وَثُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ
تَقْدُمُ كُلِّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيمًا وَلَا شَكْلُ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ

ثُمَّ تَجَلَّتْ بِالرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ بِحَيْثُ صَارَ اللَّطِيفُ كَثِيفًا، وَالْخَفِيُّ ظَاهِرًا، وَالْغَيْبُ شَهَادَةً. فَمَا كَانَ فِي الْأَزْلِ، هُوَ عَيْنٌ مَا تَجَلَّى بِهِ فِي الْأَبَدِ. كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ؛ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. وَفِي حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ، عَنْ ابْنِ رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ؛ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ» أَيْ كَانَ فِي خَفَاءٍ وَلَطَافَةٍ، لَيْسَ فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَلَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ. بَلْ عِظَمَةُ ذَاتِهِ أَحَاطَتْ بِكُلِّ فَوْقٍ، وَبِكُلِّ تَحْتٍ، وَبِكُلِّ هَوَاءٍ. وَقِيلَ لِسَيِّدِنَا عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا؟ وَهَلْ لَهُ مَكَانٌ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَسَكَتَ سَاعَةً. ثُمَّ قَالَ: قَوْلَكُمْ أَيْنَ اللَّهُ سَوْأَلٌ عَنْ مَكَانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلَا مَكَانَ. ثُمَّ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ. وَهُوَ الْآنَ كَمَا

كَانَ دُونَ زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ. أَيْ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ. وَهُوَ الْآنَ شَيْءٌ مَعَهُ فَافْهَمُ.

الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ: إِذَا أُطْلِقَ الْفَنَاءُ: إِنَّمَا يَنْصَرَفُ لِلْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. وَحَقِيقَتُهُ: مَحْوُ الرُّسُومِ وَالْأَشْكَالِ بِشُهُودِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ. وَاسْتِهْلَاكِ الْحَسِّ فِي شُهُودِ الْمَعْنَى. قَالَ أَبُو الْمَوَاهِبِ. مَحْوٌ وَاضِعٌ خَلَّالٌ. وَذَهَابٌ عَنْكَ وَزَوَالَ. قَالَ أَبُو سَعِيدِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: هُوَ أَنْ تَبْدُو الْعَظَمَةَ وَالْإِجْلَالَ عَلَى الْعَبْدِ. فَتَنْسِيهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ. وَالْأَحْوَالَ وَالذَّرَجَاتِ، وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْأَذْكَارِ. يَغْنِيهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَعَنْ عَقْلِهِ وَعَنْ نَفْسِهِ، وَفَنَائِهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ. وَعَنْ فَنَائِهِ عَنِ الْفَنَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَفْرُقُ فِي التَّعْظِيمِ. أَيْ تَتَجَلَّى لَهُ عَظَمَةُ الذَّاتِ. فَيَغْنِيهِ عَنِ رُؤْيَا الْأَشْيَاءِ. وَمَنْ جَمَلَتْهَا نَفْسُهُ، فَيَصِيرُ عَيْنَ الْعَيْنِ. وَيَفْرُقُ فِي بَحْرِ الْأَحْدِيَةِ. وَقَدْ يُطْلَقُ الْفَنَاءُ عَلَى الْفَنَاءِ فِي الْأَفْعَالِ. فَلَا يَرَى فَاعِلًا إِلَّا اللَّهَ. وَعَلَى الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ. فَلَا قَدِيرَ وَلَا سَمِيعَ وَلَا بَصِيرَ إِلَّا اللَّهَ. يَغْنِي، أَنَّهُ يَرَى الْخَلْقَ مَوْتَى. لَا قُدْرَةَ لَهُمْ، وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَيَعْدُ هَذَا، يَقَعُ الْفَنَاءُ فِي الذَّاتِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

فِيَفْنِي ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى فَكَانَ فَنَازُهُ عَيْنَ الْبَقَاءِ

وَأَمَّا الْبَقَاءُ فَهُوَ الرَّجُوعُ إِلَى شُهُودِ الْأَثَرِ، بَعْدَ الْغَيْبَةِ عَنْهُ. أَوْ شُهُودِ الْحَسِّ بَعْدَ الْغَيْبَةِ عَنْ شُهُودِ الْمَعْنَى. لَكِنْ يَرَاهُ دَائِمًا بِاللَّهِ. وَنُورًا مِنْ أَتَوَارِ تَجَلِّيَاتِهِ. إِذْ لَوْلَا الْحَسُّ مَا ظَهَرَتِ الْمَعْنَى، وَلَوْلَا الْوَاسِطَةُ مَا عُرِفَ الْمَوْسُوطُ. فَالْحَقُّ تَعَالَى تَجَلَّى بَيْنَ الضُّدَّيْنِ: بَيْنَ الْحَسِّ وَالْمَعْنَى. وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَبَيْنَ الْفَرْقِ وَالْجَمْعِ. فَالْغَيْبَةُ عَنْ أَحَدِ الضُّدَّيْنِ فَنَاءٌ. وَرُؤْيَاهُمَا مَعًا بَقَاءٌ. فَالْغَيْبَةُ عَنِ الْحَسِّ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ، وَعَنِ الْفَرْقِ فَنَاءٌ. وَمُلَاحَظَتُهُمَا مَعًا بَقَاءٌ. فَالْبَقَاءُ اتِّسَاعٌ فِي الْفَنَاءِ، بِحَيْثُ لَا يَحْجُبُهُ جَمْعُهُ عَنْ فَرْقِهِ، وَلَا فَنَازُهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلَا شُهُودِ الْقُدْرَةِ عَنِ الْحِكْمَةِ. بَلْ يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ. وَيُوفَى كُلُّ ذِي قِسْطٍ قِسْطُهُ. وَقَدْ يُطْلَقُ الْفَنَاءُ عَلَى التَّخْلِيِ وَالتَّحْلِيِ. فَيُقَالُ، فَنَى عَنْ أَوْصَافِهِ الْمَذْمُومَةَ. وَبَقِيَ بِالْأَوْصَافِ الْمَحْمُودَةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْقُدْرَةُ وَالْحِكْمَةُ: الْقُدْرَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إِظْهَارِ الْأَظْهَارِ عَلَى وَفْقِ الْإِرَادَةِ. وَالْحِكْمَةُ عِبَارَةٌ عَنْ تَسْيِيرِهَا، بِوُجُودِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ. فَالْقُدْرَةُ تَبْزُرُ، وَالْحِكْمَةُ

تَسْتُرُ. والقدرة لَا تنفكُ عَنِ الحكمةِ إِلَّا نادراً؛ فِي مُعْجَزَةٍ أَوْ كَرَامَةٍ أَوْ شَعْوَذَةٍ. وقد تطلق القدرة على الذَّاتِ بَعْدَ تَجَلِّيَتِهَا. مِنْ إطلاقي الصِّفَةِ على الْمُؤَصِّفِ. والحكمة ما يسترها مِنَ الحسِّ، وَأوصافُ البشرية. وَأحكامُ العبودية. فظهوره تعالى بمقتضى اسمه الظاهرِ، يُسَمَّى قُدْرَةً. وبطوئه فِي ظهوره؛ بمقتضى اسمه الباطنِ، يُسَمَّى حِكْمَةً. فَتَجَلِّيهِ تعالى من عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ قُدْرَةٌ. وخفاؤه فِي ظهوره حِكْمَةٌ. وإليه يشير قول الحَكَمِ العطائيه. «سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ، بظهور وَضْفِ الْبَشَرِيَّةِ. وظهر بعظمة الربوبية، فِي إظهار العبودية.

الْفَرْقُ وَالْجَمْعُ: الْفَرْقُ عبارة عن شهودِ حَسِّ الْكَائِنَاتِ، والقيام بأحكامِهِ وآدَابِهِ، مِنَ الْعِبَادَةِ والعبودية. والجمع عبارة عن شهود الْمَعْنَى القائم بِالْأَشْيَاءِ، متصلاً بِالْبَحْرِ المحيط الجَبْرُوتِي. أو تقول: الْفَرْقُ شهود القوالب. والجمع شهود المظاهر. فالقوالب محلُّ الشرائع، والمظاهر، عين الحقائق. وقال أَبُو علي الدقاق: الْفَرْقُ مَا نُسِبَ إِلَيْكَ. والجمعُ مَا سُلِبَ عَنْكَ. فالْفَرْقُ بِلَا جَمْعٍ فسوق، وجمود وَجْهٌ بِاللَّهِ تعالى. والجمعُ بِلَا فَرْقٍ زَنْدَقَةٌ وَكُفْرٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ سُكْرًا؛ لِأَنَّهُ يُوْذِي إِلَى إِبْطَالِ الشَّرَائِعِ التي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وإلى إِبْطَالِ الْحِكْمَةِ. وَالْقُدْرَةُ لَا تَنْفَكُ عَنِ الْحِكْمَةِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُجْمُوعاً فِي فَرْقِهِ، مَفْرُوقاً فِي جَمْعِهِ. الجمع فِي الْبَاطِنِ موجود. والفرق على الظاهر مشهود.

الْحِسُّ وَالْمَعْنَى: الْحِسُّ عبارة عن تَكْثِيفِ لِلْأَشْيَاءِ ظَاهِراً. وَالْمَعْنَى عبارة عَنْ تَلْطِيفِهَا بَاطِناً. فَحِسُّ الْكَائِنَاتِ أَوَّانٍ حَامِلَةٌ لِلْمَعَانِي. قال التستري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَّانِي. وَخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي. . لَعَلَّكَ تَرَانِي. فمثال الْكُونُ؛ كَالثَّلْجَةِ، ظَاهِرُهَا ثَلَجٌ، وَبَاطِنُهَا مَاءٌ. كَذَلِكَ الْكُونُ، ظَاهِرُهُ حِسٌّ. وَبَاطِنُهُ مَعْنَى.

وَالْمَعْنَى هِيَ أَسْرَارُ الذَّاتِ اللَّطِيفَةِ الْقَائِمَةِ بِالْأَشْيَاءِ. فَقَدْ سَرَتْ الْمَعَانِي فِي الْأَوَّانِي سَرِيَانِ الْمَاءِ فِي الثَّلْجَةِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ قُطْبُ الْأَقْطَابِ: الشَّيْخُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمَا الْكَوْنُ فِي التَّمَثَالِ إِلَّا كَتَلْجَةِ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَائِعٌ
فَمَا التَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرُ مَا بِهِ وَعَيْرَانِ فِي حُكْمِ دَعْنَةِ الشَّرَائِعِ
فَلَا قِيَامَ لِلْحَسِّ إِلَّا بِالْمَعْنَى، وَلَا ظُهُورَ لِلْمَعْنَى إِلَّا بِالْحَسِّ. قَالَ الْمَعْنَى
رَقِيقَةٌ لَطِيفَةٌ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِتَحْسِسِهَا فِي قَوَالِبِ الْكَائِنَاتِ. فَظُهُورُ الْمَعْنَى بِلَا حَسٍّ
مُحَالٌ. وَشُهُودُ الْحَسِّ بِلَا مَعْنَى جَهْلٌ وَظُلْمَةٌ. وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْحُكْمِ: «الْكَوْنُ
كُلُّهُ ظُلْمَةٌ. وَإِنَّمَا أَنْارُهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ» الخ. . . فَلَا يُرَى الْحَقُّ تَعَالَى، إِلَّا
بِوَاسِطَةِ التَّجَلِّيَّاتِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

وَلَيْسَتْ تُنَالُ الذَّاتُ مِنْ غَيْرِ مَظْهَرٍ وَلَوْ هُتِكَ الْإِنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ الْجَرِصِ
الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَالْجَبَرُوتُ: الْمُلْكُ مَا ظَهَرَ مِنْ حَسِّ الْكَائِنَاتِ.
وَالْمَلَكُوتُ: مَا بَطَّنَ فِيهَا مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي. وَالْجَبَرُوتُ: الْبَحْرُ الْمَحِيطُ الَّذِي
تَدْفُقُ مِنْهُ الْحَسُّ وَالْمَعْنَى. وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْقَبْضَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ أَوَّلًا مِنْ قَضَاءِ
الْعَمَاءِ. حِسُّهَا الظَّاهِرُ مُلْكٌ. وَمَعْنَاهَا الْبَاطِنُ مَلَكُوتٌ. وَالْبَحْرُ اللَّطِيفُ الْمَحِيطُ
الَّذِي تَدْفُقَتْ مِنْهُ: جَبَرُوتٌ. فَأَسْرَارُ الْمَعَانِي رِيَاضُ الْعَارِفِينَ. لِأَنَّهَا مَحَلُّ نَزْهَةِ
أَزْوَاجِهِمْ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَعَانِي لَطِيفَةٌ، لَا تَظْهَرُ بِهَجْتِهَا إِلَّا فِي الْحَسِّ الَّذِي هُوَ
الْمُلْكُ. وَالْحَسُّ مِنْ حَيْثُ هُوَ، مُضَافٌ إِلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. لِأَنَّهُ مَا
ظَهَرَ إِلَّا لَهُ. وَمَا انْشَقَّتْ أَسْرَارُ الذَّاتِ إِلَّا مِنْ نُورِهِ. فَلِذَلِكَ قَالَ الْقُطْبُ بْنُ
مَشِيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرِيضُ الْمَلَكُوتِ بِزَهْرِ جَمَالِهِ مُوَبَّقَةٌ. أَيْ مُخَسَّنَةٌ
مُعْجَبَةٌ. فَقَدْ ذَكَرَ الْمُلْكُ بِالْإِلْتِزَامِ. لِأَنَّ جَمَالَ زَهْرِ الْمَعَانِي، لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي
حَسِّ الْكَائِنَاتِ؛ وَهُوَ الْمُلْكُ. وَقَوْلُهُ: وَجِياضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ.
الْأَمَلُ أَنْ يَقُولَ: وَيَخْرُ الْجَبَرُوتُ بِفَيْضِ نُورِهِ مُتَدَفِّقٌ. يُشِيرُ إِلَى ظُهُورِ الْقَبْضَةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ، مِنْ بَخْرِ نُورِهِ اللَّطِيفِ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْحِيَاضِ لِإِنْسَابِ الرِّيَاضِ، وَإِنَّمَا
جَمَعَ نَوْرَ الْقَبْضَةِ لِتَفَرُّعِهِ إِلَى أَنْوَارٍ كَثِيرَةٍ. كَمَا جَمَعَ الْعَالَمِينَ، مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ
وَاحِدٌ، لِتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. فَحَقِيقَةُ الْمُلْكِ: مَا يُدْرِكُ بِالْحَسِّ
وَالْوَهْمِ. وَحَقِيقَةُ الْمَلَكُوتِ، مَا يُدْرِكُ بِالْعِلْمِ وَالذُّوقِ. وَحَقِيقَةُ الْجَبَرُوتِ: مَا
يُدْرِكُ بِالْكَشْفِ وَالْوُجْدَانِ. فَالْوُجُودُ وَاحِدٌ. وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ النُّسْبَةُ بِاعْتِبَارِ الرُّؤْيَةِ
وَالْتَّرْقِيَةِ. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ حَسِّ الْكَائِنَاتِ، وَحُجِبَ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى، سُمِّيَ فِي

حَقَّهُ مُلْكًا، وَمَنْ نَفَذَ إِلَى شُهُودِ الْمَعَانِي، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مَلَكُوتًا. وَمَنْ نَظَرَ إِلَى أَصْلِ الْقَبْضَةِ الَّتِي بَرَزَتْ مِنْهُ، سَمَّاهُ جَبَرُوتًا. فَإِنْ ضَمَّ الْفِرْعَ إِلَى الْأَصُولِ، وَتَلَطَّفَتِ الْأَوَانِي، حَتَّى صَارَتْ كُلُّهَا مَعَانِي. وَانْطَبَقَ بَخْرُ الْأَحَدِيَةِ عَلَى الْكُلِّ. صَارَ الْجَمِيعُ جَبَرُوتًا، فَكُلُّ مَقَامٍ يَحْجُبُ عَمَّا قَبْلَهُ.

فَالْمَلَكُوتُ: يَحْجُبُ عَنْ شُهُودِ الْمُلْكِ. وَالْجَبَرُوتُ يَخْجُبُ عَنِ الْمَلَكُوتِ. إِلَّا بِالتَّنَزُّلِ فِي حَالِ السُّلُوكِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

النَّاسُوتُ وَاللَّاهُوتُ وَالرَّحْمُوتُ: النَّاسُوتُ: عِبَارَةٌ عَنِ حِسِّ الْأَوَانِي. وَاللَّاهُوتُ: عِبَارَةٌ عَنِ أَسْرَارِ الْمَعَانِي. وَمَرْجِعُ الْأَوَّلِ لِلْمُلْكِ. وَالثَّانِي لِلْمَلَكُوتِ. وَالرَّحْمُوتُ: عِبَارَةٌ عَنِ سَرَائِنِ اللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ: جَلَالِهَا وَجَمَالِهَا. قَالَ فِي الْحَكَمِ: «مَنْ ظَنَّ انْفِكَاكَ لَطْفِ اللَّهِ عَنْ قَدْرِهِ، فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ».

التَّوَّاجُدُ وَالْوُجْدُ وَالْوُجْدَانُ وَالْوُجُودُ:

التَّوَّاجُدُ: تَكْلُفُ الْوُجْدِ. وَاسْتِعْمَالُهُ كَاسْتِعْمَالِ الرَّقْصِ وَالشُّطْحِ وَالْقِيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلِّمٍ إِلَّا لِلْفُقَرَاءِ الْمُتَجَرِّدِينَ؛ فَلَا بَأْسَ بِتَكْلُفِ الْوُجْدِ وَاسْتِعْمَالِهِ. كَمَا يُطَلَّبُ الْحَالُ دَوَاءً لِلنَّفُوسِ. وَهُوَ مَقَامُ الضَّعْفَاءِ، وَقَدْ تَسْتَعْمَلُهُ الْأَفْوِيَاءُ مُسَاعَفَةً أَوْ خِلَاوَةً.

قِيلَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيِّ، مَا حَالُكَ فِي السَّمَاعِ؟ فَقَالَ: إِذَا خَضِرَ هُنَاكَ مُخْتَشِمٌ أَمْسَكَتُ وَجَدِي. فَإِذَا خَلُوتُ أَزْسَلْتُ وَجَدِي فَتَوَاجَدْتُ. وَأَمَّا الْجُنَيْدُ فَكَانَ أَوَّلًا يَتَوَاجَدُ، ثُمَّ سَكَنَ. فَقِيلَ لَهُ يَا سَيِّدِي: أَمَا لَكَ فِي السَّمَاعِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: «وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَايِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» [النمل: ٨٨] قُلْتُ: وَقَدْ حَضَرْتَ سَمَاعًا مَعَ شَيْخِنَا الْبُزْجِيدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يَتِمَايَلُ يَمِينًا وَشِمَالًا.

وَحَدَّثَنِي مَنْ حَضَرَ سَمَاعًا مَعَ شَيْخِهِ؛ مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ الذَّرْقَاوِيِّ. فَقَالَ: مَا زَالَ قَانِمًا يَرْقُصُ حَتَّى كَمَلَ السَّمَاعُ. وَلَا يُنْكَرُ السَّمَاعُ إِلَّا جَاحِدٌ جَاهِلٌ خَالٍ مِنَ أَسْرَارِ الْحَقِيقَةِ.

وَأَمَّا الْوُجْدُ: فَهُوَ الَّذِي يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ وَيُصَادِمُهُ بِلَا تَأَمُّلٍ وَلَا تَكْلُفٍ. إِمَّا شَوْقَ مَقْلَقٍ، أَوْ خَوْفَ مُزْعِجٍ؛ وَهُوَ بَعْدُ التَّوَّاجُدِ. وَيُقَالُ: التَّوَّاجُدُ ثَمَرَاتُ

الْمُنَازَلَةُ، فَهِيَ أَسْرَارُ الْحَقَائِقِ. كَمَا أَنَّ حَلَاوَةَ الطَّاعَاتِ ثَمَرَاتِ الْمُنَازَلَةِ فِي الطَّاعَةِ الظَّاهِرَةِ. فَكَلِمَا اشْتَدَّ التَّحَقُّقُ بِأَسْرَارِ الْحَقَائِقِ وَالتَّوْحِيدِ قُوَى الْوُجُدِ. كَمَا أَنَّهُ كَلِمَا اشْتَدَّ الدَّوَامُ عَلَى الطَّاعَةِ قَوِيَتْ حَلَاوَتُهَا.

وَأَمَّا الْوُجْدَانُ: فَهُوَ دَوَامُ حَلَاوَةِ الشُّهُودِ، وَاتِّصَالِهَا مَعَ غَلَبَةِ السُّكْرِ وَالذَّهْشَةِ، فَإِنْ اسْتَمَرَّ مَعَ ذَلِكَ، حَتَّى زَالَتِ الذَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ، وَصَفَّتِ الْفِكْرَةُ وَالنَّظَرَةُ، فَهُوَ الْوُجُودُ. وَإِلَيْهِ يَشِيرُ قَوْلُ الْجُنَيْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ بِمَا يَنْبَدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ
قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

التَّوَّاجِدُ يُوجِبُ اسْتِعَابَ الْعَبْدِ. وَالْوُجْدُ: اسْتِغْرَاقُ الْعَبْدِ. وَالْوُجُودُ: يُوجِبُ اسْتِهْلَاقَ الْعَبْدِ. فَهُوَ الْبَخْرُ. ثُمَّ رَكِبَ، ثُمَّ غَرِقَ.

وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ: وَتَرْتِيبُ هَذَا الْأَمْرِ، قَصُودٌ ثُمَّ وُزُودٌ، ثُمَّ شُهُودٌ، ثُمَّ وُجُودٌ ثُمَّ خَمُودٌ. فَالْمَقْصُودُ لِلْمُتَوَاجِدِينَ الْقَاصِدِينَ. وَالْوُجْدُ وَالْوُرُودُ لِلْمُوَاجِدِينَ الشَّارِبِينَ الْخَمْرَةَ. وَالشُّهُودُ لِأَهْلِ الْوُجْدَانِ السُّكَارَى. وَالْوُجُودُ وَالْخَمُودُ لِأَهْلِ الصُّخْرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الذُّوقُ وَالشُّرْبُ وَالسُّكْرُ وَالصُّخْرُ:

الذُّوقُ يَكُونُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بَرُوقِ أَنْوَارِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ عَلَى الْعَقْلِ. فَيَغِيبُ عَنْ رُؤْيَةِ الْحُدُوثِ فِي أَنْوَارِ الْقِدَمِ. لِكُنْهَ لَا يَدُومُ ذَلِكَ. بَلْ يَلْمَعُ نَازَةً وَيَخْفِي أُخْرَى. فَصَاحِبُهُ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ. فَإِذَا لَمَعَ غَابَ عَنْ جِسْمِهِ. وَإِذَا خَفِيَ، رَجَعَ إِلَى جِسْمِهِ، وَرُؤْيَا نَفْسِهِ؛ فَهَذَا يَسْمَى عَنْدهُمْ ذَوْقًا. فَإِنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ الثَّوَرُ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشُّرْبُ. وَإِنْ اتَّصَلَ وَدَامَ؛ فَهُوَ السُّكْرُ. وَمَرْجَعُهُ إِلَى فَنَاءِ الرُّسُومِ. وَيَسْمَى أَيْضًا الْفَنَاءُ. فَإِنْ رَجَعَ إِلَى شُهُودِ الْأَثَرِ وَقِيَامِهَا بِاللَّهِ، وَأَنَّهَا نُورٌ مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ، فَهُوَ الصُّخْرُ. وَيَسْمَى أَيْضًا بِالرَّيِّ وَبِالْبَقَاءِ. لِإِبْقَاءِ الْأَشْيَاءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا، وَيَسْمَى أَيْضًا: فَنَاءُ الْفَنَاءِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ شَيْءٌ بَعِيْنِهِ غَيْرُ الزَّوْهِمِ وَالْجَهْلِ؛ وَهُمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُمَا.

قَالَ الْقَشِيرِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّ الصُّخْرَ عُلُوُّ قَدْرِ السُّكْرِ. فَكُلُّ مَنْ كَانَ سَكْرُهُ بِحَقٍّ، كَانَ صَحْوُهُ بِحَقٍّ. وَمَنْ كَانَ سَكْرُهُ بِحَظٍّ مَشُوبًا كَانَ صَحْوُهُ بِحَظٍّ

مصحوباً. ومن كَانَ مُحِقّاً فِي حَالِهِ، كَانَ مَحْظُوطاً فِي سَكْرِهِ. ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ قَوِيَ حُبُّهُ تَسَرَّمَ لِشُرْبِهِ. وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ:

شَرِبْتُ كَأْسَ بَغْدَ كَاسٍ فَمَا نَفَذَ الشَّرَابُ وَلَا زَوَيْتُ

الْمَخْوُ وَالْإِفْبَاتُ: الْمَخْوُ: الْغَيْبَةُ عَنِ الْكَائِنَاتِ فَنَاءً. وَالْإِفْبَاتُ: إِبْتَائُهَا بَقَاءً. وَيُطْلَقُ عَلَى مَخْوِ الْأَوْصَافِ الدُّمَيْمَةِ. وَإِبْتَاتِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ؛ وَهِيَ ثَلَاثَةٌ: مَخْوُ الرُّؤْيَا عَنِ الظُّوَاهِرِ، وَمَخْوُ الْعَقْلَةِ عَنِ الْبَوَاطِينِ. وَمَخْوُ الْعِلَّةِ عَنِ السَّرَائِرِ. فَبَيْنَ مَخْوِ الرُّؤْيَا: إِبْتَاتِ التَّوْبَةِ. وَفِي مَخْوِ الْعَقْلَةِ إِبْتَاتِ الْبِقَظَةِ. وَفِي مَخْوِ الْعِلَّةِ: إِبْتَاتِ الصَّفَاءِ.

السُّتْرُ وَالتَّجَلِّي: السُّتْرُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ غَيْبَةِ الْعَبْدِ عَنْ رَبِّهِ، تَزْوِيحاً وَتَنَزُّلاً وَشُغْلاً، بِشَأْنٍ مِنَ الشُّؤُونِ. وَالتَّجَلِّي عِبَارَةٌ عَنْ كَشْفِ الْعَبْدِ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ. وَهَذَا قَبْلَ الزُّسُوحِ. وَأَمَّا بَعْدَ الزُّسُوحِ، فَلَا غَيْبَةَ لَهُ. فَالْعَوَامُّ فِي غِطَاءِ السُّتْرِ عَلَى الدَّوَامِ. وَالْخَوَاصُّ بَيْنَ كَشْفٍ وَغِطَاءٍ. وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ فِي دَوَامِ التَّجَلِّي. فَالسُّتْرُ لِلْعَوَامِّ عَقُوبَةٌ. وَلِلْخَوَاصِّ رَحْمَةٌ. إِذْ لَوْلَا أَنَّهُمْ يُسْتَرُّ عَنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، لَتَلَأَسُوا عِنْدَ سُلْطَانِ الْحَقِيقَةِ. وَلَكِنَّهُ كَمَا يَظْهَرُ لَهُمْ، يَسْتَرُّ عَنْهُمْ. فَالْخَوَاصُّ بَيْنَ عَيْشٍ وَطَيْشٍ. إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ طَاشُوا، وَإِذَا سَتَرَ عَنْهُمْ رَدُّوا إِلَيْهِمْ فَعَاشُوا.

الْمُحَاضَرَةُ وَالْمَكَاشِفَةُ وَالْمُسَامَرَةُ: الْحُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ. وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، إِمَّا بِتَوَاتُرِ الْبُرْهَانِ، أَوْ بِفِكْرَةِ الْإِغْتِبَارِ، أَوْ بِاسْتِيْلَاءِ سُلْطَانِ الذِّكْرِ عَلَى الْقَلْبِ. ثُمَّ بَعْدَهُ الْمَكَاشِفَةُ: وَهِيَ حُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ بِتَنْغِيَةِ الْبَيَانِ. غَيْرُ مُفْتَقِرٍ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَى تَأَمُّلِ الدَّلِيلِ. وَتَطَلُّبِ السَّبِيلِ. وَيَكُونُ أَيْضاً مَعَ الْحِجَابِ بِتَنْغِيَةِ الْقَرَبِ فِي مَقَامِ الْمُرَاقَبَةِ؛ وَهُوَ لِلْعُبَادِ وَالزُّهَّادِ وَنَهَايَةُ الْأَسْرَارِ. أَمَّا مَكَاشِفَةُ ضَمَائِرِ النَّاسِ، فَلَيْسَتْ بِمَقْصُودَةٍ عِنْدَهُمْ. بَلْ يُعْطَاهَا مَنْ لَمْ يَتَلَبَّسْ بِهَذَا الْمَقَامِ. وَبَعْدَ الْمُحَاضَرَةِ وَالْمَكَاشِفَةِ. الْمُسَامَرَةُ: وَهِيَ ظُهُورُ أَسْرَارِ الدَّاتِ، فَيَغِيبُ الْعَبْدُ عَنْ وَجُودِهِ. وَيَغْرُقُ فِي بَحْرِ الْأَحْدِيَةِ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى شَاهِدِهِ وَجِسِّهِ. كَمَا يَسْتَمِرُّ فِي عَوْمِهِ تَحْتَ الْمَاءِ سَاعَةً أَوْ أَكْثَرَ، ثُمَّ يَخْرُجُ؛ هِيَ مِنْ بَدَايَةِ الْوُجْدَانِ، وَلَمَعَانِ أَنْوَارِ الْمَشَاهِدَةِ. ثُمَّ بَعْدَهَا الْمَشَاهِدَةُ؛ وَهِيَ دَوَامُ شُهُودِ الْحَقِّ

بِلَا تَعَبٍ . أَوْ وَجُودِ الْحَقِّ بِلَا تَهَمَّةٍ .

وقال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : المشاهدة : وجود الحقِّ مع فقدانِكَ . وقد تقدَّم تفسيرُهَا . وإنما أُعيدتْ هُنَا ، لترتيبِهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا . قال القشيري : فصاحب المحاضرة مَرْبُوطٌ بِآيَاتِهِ . وصاحب المَكْاشِفَةِ ، مَبْسُوطٌ بِصِفَاتِهِ . وصاحب المشاهدة ملقى بِدَآئِهِ . قلتُ : وصاحب المُسَامَرَةِ . تارة بتارة . ثم قال القشيري : صاحب المحاضرة ، يهديه عقلُهُ . وصاحب المَكْاشِفَةِ ، يُدْنِيهِ عِلْمُهُ . وصاحب المشاهدة ، تَمْحُوهُ مَغْرَفَتُهُ . وأَجْمَعُ مَا قِيلَ فِي الْمَشَاهِدَةِ ، أَنَّهَا : تَوَالِي أَنْوَارِ التَّجَلِّيِ عَلَى الْقَلْبِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَخَلَّلَهَا سِتْرٌ وَانْقِطَاعٌ . كما لَوْ قَدَّرَ اتِّصَالُ الْبُرُوقِ ، فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ . فَإِنَّهَا تَصِيرُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ ، كَذَلِكَ الْقَلْبِ ، إِذَا دَامَ لَهُ دَوَامُ التَّجَلِّيِ ، فَلَا لَيْلَ . وَأَتَشَدُّوْا :

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارٍ
النَّاسُ فِي سَدَفِ الظُّلَا مِمْ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ
وَالسَّدَفُ بِالسَّيْنِ : الظُّلْمَةُ كَمَا فِي الْقَامُوسِ . وقال النوري : إِذَا طَلَعَ الصَّبَاحُ ، اسْتَغْنَى عَنِ الْمِضْبَاحِ . وقول الشاعر : ليلي إلخ . . ليل وجودي مشرق بوجودِ ذَلِكَ . فَقَدْ ذَهَبَتْ ظِلْمَةُ وَجُودِهِ ، فِي نَهَارِ وَجُودِهِ .

اللَّوَائِحُ وَاللَّوَامِعُ وَالطَّوَالِغُ : وَهِيَ أَلْفَاظٌ مُتَقَابِرَةٌ ؛ وَهِيَ أَضَلُّ الْبِدَايَاتِ ، حِينَ تَبْرُقُ عَلَيْهِمُ أَنْوَارُ الشُّهُودِ ، ثُمَّ تَسْتَرُ . فَتَكُونُ أَوَّلًا لَوَائِحَ ثُمَّ لَوَامِعَ ، ثُمَّ طَوَالِغَ . فَاللَّوَامِعُ أَظْهَرُ مِنَ اللَّوَائِحِ . وَالطَّوَالِغُ أَظْهَرُ مِنَ اللَّوَامِعِ . فَقَدْ تَبَقَّى اللَّوَامِعُ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ ، بِخِلَافِ اللَّوَائِحِ . فَإِنَّهَا أَخْفَى لِزَوَالِهَا بِسُرْعَةٍ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

افْتَرَقْنَا حَوْلًا قَلَمًا اجْتَمَعْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا

وقال آخر :

يَا ذَا الَّذِي زَارَ وَمَا زَارَ كَأَنَّهُ مُقْتَسِبٌ نَارًا
مَرَّ بِبَابِ الدَّارِ مُسْتَعْجِلًا مَا ضَرَّهُ لَوْ دَخَلَ الدَّارَ
وَأَمَّا الطَّوَالِغُ ، فَإِنَّهَا أَبْقَى وَقْتًا ، وَأَقْوَى سُلْطَانًا . وَأَذْهَبَ لِلظُّلْمَةِ . وَأَنْفَى لِلتَّهْمَةِ . لَكِنَّهَا عَلَى خَطَرِ الْأَقْوَالِ . لَمْ يَتِمَّ كُنْ صَاحِبِهَا مِنْ طُلُوعِ شَمْسِ عِرْفَانِهِ .

فَأَوْقَاتُ حُصُولِهَا وَشِيكَةِ الْإِرْتِحَالِ. وَأَحْوَالُ أَقْوَلِهَا طَوِيلَةُ الْأَذْيَالِ. لَكِنْ إِذَا غَرُبَتْ أَنْوَارُهَا، يَعْيشُ فِي بَرَكَاتِ آثَارِهَا، إِلَى أَنْ تَعُودَ ثَانِيًا. هَكَذَا تَطْلُعُ شَمْسُ نَهَارِهِ بِتَمَكُّنِهِ. فَلَا مَغِيبَ لَهَا حَيْثُذِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أَحْبَبَ بِلَيْلٍ وَاسْتَنَارَتْ فَمَا تَلَاهَا غُرُوبُ
إِنْ شَمَسَ النَّهَارُ تَغْرُبُ لَيْلًا وَشُمُوسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

الْبُودَاهُ وَالْهَجُومُ: الْبُودَاهُ مَا يَفْجَأُ الْقَلْبَ مِنْ نَاجِيَةِ الْغَيْبِ، عَلَى سَبِيلِ الْبَغْتَةِ. إِمَّا مَوْجِبُ فَرَحٍ، أَوْ تَرَجٍ. وَالْهَجُومُ، مَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ بِقَوْتِ الْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ تَقَنُّعٍ وَلَا تَكْسِبٍ. وَتَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُمْ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ. فَمِنْهُمْ مَنْ تَغَيَّرَ الْبُودَاهُ. وَتَتَصَرَّفُ فِيهِ الْهَوَاجِمُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فَوْقَ مَا يَفْجَأُهُ حَالًا وَقُوَّةً؛ لَا تَغْيِيرَ الْهَوَاجِمُ. وَلَا تَتَصَرَّفُ فِيهِ الْبُودَاهُ. وَلَا تُزْغِرُهُ الْهَمُومُ. وَلَا تَحْرُكُهُ الْمَخَافُ. أَوَّلِيكَ سَادَةُ الْوَقْتِ كَمَا قِيلَ:

لَا تَهْدِي نُوبَ الزَّمَانِ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَلَى الْخُطْبِ الْجَلِيلِ لَجَامُ
وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الرُّسُوحِ وَالتَّمَكُّينِ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ آمِينَ.

التَّلْوِينُ وَالتَّمَكُّينُ: التَّلْوِينُ هُوَ الْإِنْتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَمِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ. وَقَدْ يَسْقُطُ وَيَقُومُ. فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ صَرِيحُ الْعِزِّ فَإِنَّهُ وَتَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، فَصَاحِبُ تَمَكُّينٍ. فَصَاحِبُ التَّلْوِينِ أَبَدًا فِي الزِّيَادَةِ. وَصَاحِبُ التَّمَكُّينِ، وَصَلَ وَتَمَكَّنَ. فَانْتِهَاءُ سَيْرِهِمْ، الظَّفَرُ بِنَفْسِهِمْ، فَإِذَا ظَفَرُوا بِهَا فَقَدْ وَصَلُوا. فَانْخَسَتْ أَوْصَافُ الْبُشْرِيَّةِ. وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ. فَإِذَا دَامَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ؛ فَهُوَ صَاحِبُ تَمَكُّينٍ. وَقَدْ يَكُونُ التَّلْوِينُ بَعْدَ التَّمَكُّينِ. وَمَعْنَاهُ: النُّزُولُ فِي الْمَقَامَاتِ، كَنُزُولِ الشَّمْسِ فِي بُرُوجِهَا. فَيَتَلَوَّنُ الْعَارِفُ مَعَ الْمَقَادِيرِ، وَيَدُورُ مَعَهَا حَيْثُ دَارَتْ. وَيَتَلَوَّنُ بِتَلَوْنِ الْوَقْتِ. فَيَكُونُ بَيْنَ قَبْضٍ وَبَسْطٍ، وَقُوَّةٍ وَضَعْفٍ. وَمُنْعٍ وَعَطَاءٍ وَسُرُورٍ وَحُزْنٍ. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الْأَحْوَالِ. غَيْرَ أَنَّهُ مَالِكٌ غَيْرُ مَمْلُوكٍ. لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ. وَلَا يَتَأَثَّرُ بِالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ: الْقُرْبُ كُنَايَةٌ عَنْ قُرْبِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، بِطَاعَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ؛ وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ: قُرْبٌ بِالطَّاعَةِ وَتَرْكِ الْمُخَالَفَةِ. وَقُرْبٌ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمَجَاهِدَةِ. وَقُرْبٌ بِالْوُصُولِ وَالْمَشَاهِدَةِ. فَقُرْبُ الطَّالِبِينَ بِالطَّاعَةِ. وَقُرْبُ الْمُرِيدِينَ

بالمجاهدة. وقرب الواصلين بالمشاهدة. فأول البُعد: البُعد عن التوفيق. ثم البُعد عن سلوك الطريق. ثم البُعد عن التحقيق. وفي الحديث القدسي عن الله عزَّ وجلَّ، يقول: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ، بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْهِمْ. وَلَا زَالَ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا»^(١) الحديث. وفي حديث آخر: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ»^(٢). فقرب العبد من ربه: إِنْجِيَاشُهُ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ. وقرب الحق من عَبْدِهِ، تَغْيِيْبُهُ عَنْ وُجُودِهِ الْوَهْمِيِّ. وكشف الحجاب عن عَيْنِ بَصِيرَتِهِ حَتَّى يَرَى الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. ثم يغيب القرب في القرب. فَيَتَّحِدُ الْقَرِيبُ وَالْقَرَبُ وَالْمَحَبُّ وَالْحَبِيبُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

أَنَا مَنْ أَهْوَى، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

وكما قال التسري:

أَنَا الْمُحِبُّ وَالْحَبِيبُ مَا تَمُّ ثَانِي

الشَّرِيعَةُ وَالطَّرِيقَةُ وَالْحَقِيقَةُ: تَكْلِيفُ الظُّوَاهِرِ. وَالطَّرِيقَةُ: تَصْفِيَةُ الضَّمَائِرِ. وَالْحَقِيقَةُ شُهُودُ الْحَقِّ فِي تَجَلِيَّاتِ الْمَظَاهِرِ. فَالشَّرِيعَةُ أَنْ تَعْبُدَهُ. وَالطَّرِيقَةُ أَنْ تَقْصِدَهُ. وَالْحَقِيقَةُ أَنْ تَشْهَدَهُ. فَلَمَّا تَجَلَّى الْحَقُّ بَيْنَ الضَّادَيْنِ، فَتَجَلَّى بِمَظَاهِرِ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ. فِي قَوَالِبِ الْعُبُودِيَّةِ، ظَهَرَتِ الشَّرِيعَةُ وَالْحَقِيقَةُ. فَشُهُودُ الْعَظَمَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ: حَقِيقَةُ. وَالْقِيَامُ بِآدَابِ الْقَوَالِبِ عِبَادَةً. وَعُبُودِيَّةُ شَرِيعَةً. وَأَمَّا الطَّرِيقَةُ فَهِيَ إِصْلَاحُ الضَّمَائِرِ، لِنْتِهَاءِ لِإِشْرَاقِ الْحَقَائِقِ عَلَيْهَا.

فَالشَّرِيعَةُ لِإِصْلَاحِ الظُّوَاهِرِ، وَالطَّرِيقَةُ لِإِصْلَاحِ الضَّمَائِرِ، وَالْحَقِيقَةُ لِتَزْيِينِ السَّرَائِرِ. وَيُقَالُ: الشَّرِيعَةُ عَيْنُ الْحَقِيقَةِ. مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا وَجَبَتْ بِأَمْرِهِ. وَالْحَقِيقَةُ عَيْنُ الشَّرِيعَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَكْلَفٌ بِهَا مِنْ قَبْلِ الشَّرِيعَةِ. وَقَدْ تَطْلُقُ عَنْدهُمْ الشَّرِيعَةُ، عَلَى كُلِّ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى شَيْءٍ. أَوْ يَكُونُ سَبَبًا فِي إِدْرَاكِهِ. فَالْأَسْبَابُ كُلُّهَا شَرَائِعُ. وَالْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقَائِقُ. فَالْحِسُّ شَرِيعَةُ الْمَعْنَى. إِذْ بِهِ قُبِضَتْ، وَالْمَجَاهِدَةُ شَرِيعَةُ الْمَشَاهِدَةِ. وَالذَّلُّ: شَرِيعَةُ الْعِزِّ، وَالْفَقْرُ: شَرِيعَةُ الْغِنَى.

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

وهكذا. والحرث والغرسُ شريعة جَنِّي الثمار. ولذلك يقولون: مَنْ غَرَسَ الشرائع، أَثْمَرَتْ لَهُ الحقائق. وَمَنْ غَرَسَ الحقائق، أَثْمَرَتْ لَهُ الشرائع. أَي أَخْرَجَتْهُ إِلَى الرجوع إِلَى الشرائع. وفي ذَلِكَ يقول الشاعرُ:

ثِمَارَ مَا قَدْ غَرَسْتَ تَجْنِي وَهَذِهِ عَادَةُ الزَّمَانِ

الذَّاتُ وَالصِّفَاتُ: إَعْلَمُ أَنَّ الحقَّ جُلُّ جلاله، ذاتٌ وصفاتٌ في الأزلِ وفي الأبدِ. أَغْنِي قَبْلَ التَّجَلِّيِ وبعدهُ. إِذْ صِفَاتُهُ قَدِيمَةٌ بِقَدَمِ ذَاتِهِ. والصفة لا تفارق الموصوف. فحيثُ تَجَلَّتِ الذَّاتُ. فالصفاتُ لَازِمَةٌ لَهَا. فالذَّاتُ ظاهرةٌ، والصفاتُ باطنةٌ. والمراد بالصفات: صفات المعاني؛ وسائر أوصاف الكمال. فكل ما وقع به التَّجَلِّي والظهور، فهو بين ذاتٍ وصفات. الذَّاتُ لا تُفَارِقُ الصفات. والصفات لا تفارق الذَّات. وهذا التلازُّمُ الذي بينهما في الوجود؛ هو الذي قَصَدَ من قال: الذَّاتُ عَيْنُ الصفات. أَي مظهرهما واحد. كما قالوا: الحِسُّ عَيْنُ المَعْنَى. أَي اتَّحَدَ مظهرهما. قال بعضُ المشاركة، في بعضِ أَرْجَالِهِ:

يَا وَارِدَ الْعَيْنِ إِنْ حَقَّقْتَ زَالَ الشُّكُّ الذَّاتُ عَيْنُ الصفاتِ مَا فِي الْمَعَانِي شُكٌّ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ شُهُودِ الذَّاتِ رِذَاءُ الْحِسِّ الْمُنْشُورِ عَلَى وَجْهِ الْمَعَانِي. فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ مَدَارِكِ الْأَذْوَاقِ وَالْوَجْدَانِ. لَا مِنْ طَرِيقِ دَلِيلِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ. وَلِلَّهِ ذُرٌّ ابْنُ الْفَارِضِ حِينَ يَقُولُ:

فَتَمَّ وَرَاءَ الثَّقَلِ عِلْمٌ «يَدُقُّ عَنْ» مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

وإَعْلَمُ أَنَّ الذَّاتَ لَا تَتَجَلَّى إِلَّا فِي مَظَاهِرِ الصفاتِ. إِذْ لَوْ تَجَلَّتْ بِكَ مِنْ دُونِ وَاسِطَةٍ لَأَضْمَحَلَّتِ الْمُكَوِّنَاتُ وَتَلَاشَتْ. وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ: تَجَلَّى الذَّاتُ جَلَالِي. وَتَجَلَّى الصفاتُ جَمَالِي؛ لِأَنَّ تَجَلَّى الذَّاتِ بِوَاسِطَةٍ، يُنْحَقُ وَيُخْرَقُ، كما في الحديث. تَجَلَّى الصفاتُ يَكُونُ بِالْأَثَرِ. فَيَكُونُ مَعَهُ الشُّهُودُ وَالْمَعْرِفَةُ؛ فَهُوَ جَمَالِي. ثُمَّ تَوَسَّعُوا فَأَطْلَقُوا عَلَى كُلِّ مَا هُوَ جَلَالِي ذَاتَ. وَعَلَى كُلِّ مَا هُوَ جَمَالِي صِفَاتٌ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ. فَقَالُوا: الْفَقْرُ ذَاتَ. وَالْغِنَى صِفَاتٌ. الذُّلُّ ذَاتَ. وَالْعِزُّ صِفَاتٌ. الصُّنْتُ ذَاتٌ. وَالْكَلَامُ صِفَاتٌ. هَكَذَا. وَهَذَا الاصطلاحُ، ذَكَرَهُ شَيْخُ شَيْوَحْنَا، سَيِّدِي عَلِيّ الْجَمَلِ الْعِمْرَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ: وَلَا أَذْرِي هَلْ سَبَقَ بِهِ أَمَّ لَا.

الْأَنْوَارُ وَالْأَسْرَارُ: الأنوار عبارة عما ظَهَرَ من كثائف التجليات. والأسرارُ: عبارة عما بَطَنَ فيها من المَعَانِي اللطيفة. فالأسرار أَرْقَى مِنَ الأنوارِ لِلذَّاتِ. والأنوار للصفات؛ لأنها أَوْثَرُها. فالذَّاتُ بَعْدَ التَّجَلِّي، بين أنوار ظَاهِرَةٍ، وأسرارِ بَاطِنَةٍ. وأما في حال الكَنَزِيَّةِ، فَمَا كَانَ إِلَّا الأسرارِ. فَالْجَبَرُوتُ كُلُّهُ أَسْرَارٌ. وَالْمَلَكُوتُ أَنْوَارٌ. وَالْمَلِكُ أَعْيَارٌ وَأَخْدَارٌ.

فالجود واحد. فَمَنْ نظر إلى بَاطِنِهِ، لم يَرِ إِلَّا الأسرار وَمَنْ نظر إلى ظاهره بَعَيْنِ الْجَمْعِ، لم يَرِ إِلَّا الأنوار. وَمَنْ نظره بِعَيْنِ الْفَرْقِ، لم يَرِ إِلَّا الأَعْيَارَ. جَمْعُ غَيْرِ بالسكون. وَمَنْ شغله عن التوجه إلى الله بِتَشْغِيهِ وَأَهْوَالِهِ، كَانَ فِي حَقْلِ انْجِدَارٍ. وَإِنَّمَا سَمِيتَ تجليات الحق أنواراً على وجه التشبيه. لأنه من شأن النور أن يكشف الظلمة وَيُذْهِبُهَا. وكذلك تجلّي الحق، يكشف عن ظلمة الجَهْلِ، ويظهر العلم بِهِ. وَلِذَلِكَ قالوا: العلم نورٌ، والجهل ظلمة على وجه الاستعارة. وأما السِّرُّ فهو الأمر الخفي الذي لا يُدْرِكُ. فَلِذَلِكَ قالوا في حق الخمرية الأزلية. والمعاني القديمة أسراراً. وَسَمُّوا الأرواحَ بعد التصفية أسراراً. لأنها لَمَّا تَصَفَّتْ رَجَعَتْ لِأَصْلِهَا؛ وهي قطعة مِنَ السِّرِّ الجَبَرُوتِيِّ القديم. فإذا اسْتَوَلَّتْ على الأشباح، رَجَعَ الجميع قديماً. والله تعالى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الضمائر والأسرارُ، فقليل معنهما واحدٌ. وقيل السرائر أرق وأضفى. كَمَا أَنَّ الروح أرق من القلب؛ لِأَنَّ الضمائر: كل ما خفي في الباطن، خيراً أو شراً. والسرائر كَمَنْ فِيهِ المحاسن. والتحقيق: أنها شيء واحدٌ. عبارة عما كَمُنَ فِيهِ الْبَاطِنُ مِنَ العقائد والنيات بدليل الآية: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ۝﴾ [الطارق: ٩] والله تعالى أَعْلَمُ.

النَّفْسُ: بالتحريك: قال القشيري، يعنون بِهِ ترويح القلوب، بلطائف الغيب. فصاحب الأنفاس أرفع من صاحب الأحوال، ومن صاحب الوقت. فَكَأَنَّ صاحبَ الوقتِ مُبْتَدِئٌ. وصاحب الأنفاس منتهيٌ. وصاحب الأحوال بينهما. فالأوقات لصاحب القلوب. والأحوال لصاحب الأرواح. والأنفاس لأهل السرائر. قُلْتُ: النَّفْسُ: أَدَقُّ مِنَ الْوَقْتِ. فَحِفْظُ الْأَوْقَاتِ مِنَ التَّضْيِيعِ لِلْعِبَادِ وَالزُّهَادِ. وحفظ الأنفاسِ لِلْعَارِفِينَ الْوَاصِلِينَ، واستعمال الأحوال

للمريدين. والمراد بحفظ الوقت: حضور القلب فيه. وبحفظ النفس، حضور السر في مشاهدة الحق. يُقال، فلان طابَتْ أنفاسه، إذا صَفَا مشربُه من عين التوحيد؛ من كدورة الأغْيَارِ. فقولُه في حدِّ النَّفْسِ: ترويح القلوب، أي خروجها من تَعَبِ العِصَّة، ودوام المراقبة؛ إلى راحة المشاهدة. مما يَبْدُو لَهَا من لطائف أسرار التوحيد، وفضاء الشهود. ثم قال القشيري: وقالوا: أفضل العبادة حفظ الأنفاس. أي دوام الفكرة والنظرة. كما قال الشاعر:

مِنْ أَحْسَنِ الْمَذَاهِبِ سُكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ
وَأَكْمَلَ الرِّغَائِبِ وَضَلَّ بِأَلَا انْصِرَامِ

قال أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ: العارف لَا يَسْلُمُ لَهُ النَّفْسُ، أي تضييعه. إذ لَا مُسَامَحَةٌ تجري مَعَهُ. والمُحِبُّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النَّفْسِ، إذ لَوْلَا ذَلِكَ لتلاشى لَعْدَم طاقِيهِ. فالْعَارِفُ، لَمَّا اتَّسَعَتْ مَعْرِفَتُهُ، سَهَّلَ عَلَيْهِ حِفْظَ أَنْفَاسِهِ، لسهولة حُضُورِهِ، وَتَمَكَّنَ شُهُودِهِ، بخلافِ المُحِبِّ. فليُضَيِّقِ حاله، لَا يستطيع دَوَامَ حُضُورِهِ فِي خِدْمَتِهِ. وعلى تقدير سُهولها عليها، لفنائها فِيهَا. وقد تَخَلَّ بِشْرِيَتُهُ. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رَوْحُوا قُلُوبَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحِ»^(١). أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ لِحَنْظَلَةَ وَالصَّدِيقِ: «لَوْ تَدُومُونَ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ. وَلَكِنْ سَاعَةٌ بِسَاعَةٍ»^(٢).

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب فضل الذكر...، حديث رقم (٢٧٥٠) [٢١٠٦/٤].
ورواه غير مسلم ونصه: عن حنظلة الأسدي قال وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة نسينا كثيرا قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت يا رسول الله: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة نسينا كثيرا فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات.

الْفِكْرَةُ وَالنُّظْرَةُ: الْفِكْرَةُ جَوْلَانُ الْقَلْبِ، فِي تَجَلِّيَاتِ الرَّبِّ. وَقَالَ فِي الْحِكْمِ: هِيَ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ. وَهَذِهِ فِكْرَةُ الطَّالِبِينَ. وَفِكْرَةُ السَّائِرِينَ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَنْوَارِ، وَفِكْرَةُ الصَّالِحِينَ: سَيْرُ الرُّوحِ فِي مَيَادِينِ الْأَسْرَارِ. وَتَرْجِعُ إِلَى فِكْرَتَيْنِ: فِكْرَةُ تَصَدِيقِ وَإِيْمَانٍ؛ وَهِيَ لِأَهْلِ الْاِغْتِبَارِ، مِنْ عَامَّةِ أَهْلِ الْيَمِينِ، وَفِكْرَةُ شَهُودٍ وَعِيَانٍ. وَهِيَ لِأَهْلِ الْاِسْتِبْصَارِ، مِنْ نَجَبَاءِ الْمُرِيدِينَ، وَخَاصَّةُ الْعَارِفِينَ الْمُتَمَكِّنِينَ؛ وَهِيَ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ. وَهِيَ سَبَبُ الْغِنَا الْأَكْبَرِ؛ وَبِهَا يَتَحَقَّقُ السَّيْرُ، وَيَخْصُلُ الْوُصُولُ. فَمَنْ لَا فِكْرَةَ لَهُ. لَا سَيْرَ لَهُ. وَمَنْ لَا سَيْرَ لَهُ، لَا وُصُولَ لَهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا الْبُورْزَنْدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: الْفَقِيرُ بِلَا فِكْرَةٍ، كَالْخِيَاطِ بِلَا إِبْرَةٍ. وَأَمَّا النُّظْرَةُ؛ فَهِيَ أَرْقُ مِنَ الْفِكْرَةِ وَأَرْفَعُ. لِأَنَّهَا مَبْدَأُ الشَّهُودِ. فَالْجَوْلَانُ فِي الْأَكْوَانِ، وَهَدْمُهَا وَتَلْطِيفُهَا فِكْرَةٌ. وَالنُّظْرَةُ فِي نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ، مِنَ التَّجَلِّيَّاتِ، وَغَيْبَتِهَا عَنْهَا بِشَهُودِ الْحَقِّ نَظْرَةٌ. فَإِنْ تَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ وَدَامَ فِيهِ، سُمِّيَ الْعَكُوفُ فِي الْحَضْرَةِ. وَلِذَلِكَ يُقَالُ: أَوَّلُ الْمَقَامَاتِ ذِكْرٌ، ثُمَّ فِكْرَةٌ، ثُمَّ نَظْرَةٌ، ثُمَّ عَكُوفٌ فِي الْحَضْرَةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الشَّاهِدُ: قَالَ الْقَشِيرِيُّ: قَدْ يَجْرِي فِي كَلَامِهِمْ: فَلَانٌ بِشَاهِدِ الْعِلْمِ. وَفُلَانٌ بِشَاهِدِ الْوُجْدِ، وَفُلَانٌ بِشَاهِدِ الْحَالِ. وَيُرِيدُونَ بِلَفْظِ الشَّاهِدِ: مَا يَكُونُ حَاضِرَ قَلْبِ الْإِنْسَانِ. وَمَا هُوَ غَالِبٌ ذِكْرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ. وَإِنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهُ. وَكُلُّ مَا يَسْتَوَلِي عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ شَاهِدُهُ. فَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ ذِكْرُ الْعِلْمِ: فَهُوَ بِشَاهِدِ الْعِلْمِ. وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْوُجْدُ؛ فَهُوَ بِشَاهِدِ الْوُجْدِ. وَمَعْنَى الشَّاهِدِ: الْحَاضِرُ. فَكُلُّ مَا هُوَ حَاضِرٌ قَلْبِكَ؛ فَهُوَ بِشَاهِدِكَ.

الْخَمْرَةُ وَالْكَأْسُ وَالشَّرَابُ:

أَمَّا الْخَمْرَةُ، فَقَدْ يَطْلُقُونَهَا عَلَى الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ قَبْلَ التَّجَلِّيِ. وَعَلَى الْأَسْرَارِ الْقَائِمَةِ بِالشَّيْءِ بَعْدَ التَّجَلِّيِ. فَيَقُولُونَ: الْخَمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ تَجَلَّتْ بِكَذَا. وَمِنْ نَعْيِهَا كَذَا. وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ، تَسْتَرُّ عَلَى سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ. وَعَلَيْهَا عَنَى ابْنُ الْفَارُضِ فِي خَمْرِيَّتِهِ. وَإِنَّمَا سَمَّوْهَا خَمْرِيَّةً؛ لِأَنَّهَا إِذَا تَجَلَّتْ لِلْقُلُوبِ غَابَتْ عَنْ جِسْمِهَا، كَمَا تَغِيْبُ بِالْخَمْرَةِ الْحَسِّيَّةِ. وَقَدْ يَطْلُقُونَهَا عَلَى نَفْسِ السُّكْرِ وَالْوُجْدِ وَالْوُجْدَانِ.

ويقولون: كُنَّا فِي خَمْرَةٍ عَظِيمَةٍ، أَيْ فِي غَيْبَةٍ عَنِ الْإِحْسَاسِ كَبِيرَةٍ. وَعَلَى هَذَا غَنَى التَّسْتَرِي حَيْثُ قَالَ:

خَمْرُهُادُونَ خَمْرِي خَمْرَتِي أَرْزِيهِ
أَنِّي سُكَّرَ خَمْرَةَ الدَّوَالِي دُونَ خَمْرَتِي.

وَأَمَّا الْكَأْسُ الَّذِي تُشْرَبُ مِنْهُ هَذِهِ الْخَمْرَةُ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ سَطْوَعِ أَنْوَارِ التَّجَلِّي عَلَى الْقُلُوبِ، عِنْدَ هَيْجَانِ الْمَحَبَّةِ، فَتُذْخَلُ عَلَيْهَا حَلَاوَةُ الْوُجُدِ حَتَّى تَغِيبَ. وَذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِ أَوْ ذِكْرِ أَوْ مُذَاكِرَةٍ. وَقِيلَ: الْكَأْسُ هُوَ قَلْبُ الشَّيْخِ: فَقُلُوبُ الشُّيُوخِ الْعَارِفِينَ كَوُوسٌ لِهَذِهِ الْخَمْرَةِ، يَسْقُونَهَا لِمَنْ صَحِبَهُمْ وَأَحْبَبَهُمْ.

وَالشَّرْبُ حُضُورُ الْقَلْبِ، وَاسْتِعْمَالُ الْفِكْرَةِ وَالنَّظَرَةِ. حَتَّى تَغِيبَ عَنْ وَجُودِكَ فِي وَجُودِهِ؛ وَهُوَ السُّكْرُ. فَالشَّرْبُ وَالْكَأْسُ مُتَّصِلَانِ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ فِي هَذِهِ الْخَمْرَةِ، بِخِلَافِ خَمْرَةِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْقُطْبُ بْنُ مَشِيشٍ: الْمَحَبَّةُ آخِذَةٌ مِنَ اللَّهِ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ، بِمَا يُكْشَفُ لَهُ مِنْ نُورِ جَمَالِهِ، وَقَدْسٍ كَمَالِ جَلَالِهِ. وَشَرَابُ الْمَحَبَّةِ: مَرْجُ الْأَوْصَافِ بِالْأَوْصَافِ، وَالْأَخْلَاقِ بِالْأَخْلَاقِ، وَالْأَنْوَارِ بِالْأَنْوَارِ، وَالْأَسْمَاءِ بِالْأَسْمَاءِ، وَالنَّعَوَاتِ بِالنَّعَوَاتِ، وَالْأَفْعَالِ بِالْأَفْعَالِ. وَيَتَسَّعُ النَّظَرُ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَالشَّرَابُ يَسْقِي الْقُلُوبَ وَالْأَوْصَالَ وَالْعُرُوقَ مِنْ هَذَا الشَّرْبِ. وَيَكُونُ الشَّرْبُ بِالتَّدْرِيبِ بَعْدَ التَّدْرِيبِ، وَالتَّهْذِيبِ. فَيَسْقِي كُلَّ عَلَى قَدْرِهِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ. وَاللَّهُ يَتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْهُ. قُلْتُ: وَهَذَا نَادِرٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى مِنْ جِهَةِ الْوَسَائِطِ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْأَكَابِرِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. ثُمَّ قَالَ: وَالْكَأْسُ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ، يُغْرِفُ بِهَا مِنْ ذَلِكَ الشَّرَابِ الطَّهْوَرِ الْمَخْضِ الصَّافِي لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْصُوصِينَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ. وَقَدْ قَسَرْنَاهُ فِي شَرْحِ الْخَمْرِيَةِ.

الْمُرِيدُ وَالْفَقِيرُ، وَالْمَلَامِي وَالْمُقَرَّبُ:

أَمَّا الْمُرِيدُ: فَهُوَ الَّذِي تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَدَخَلَ تَحْتَ تَرْبِيَةِ الْمَشَائِخِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَأَمَّا الْفَقِيرُ: فهو الذي افتقر مما سِوَى هَذِهِ، وَرَفَضَ كُلَّ مَا يُشْغِلُهُ عَنِ اللَّهِ. وَلِذَا قَالُوا: الْفَقِيرَ لَا يَمْلِكُ وَلَا يُمْلِكُ. أَيَّ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ. فَهُوَ أَنْصَفُ مِنَ الْمَرِيدِ وَأَخْصُ؛ لِأَنَّ الْمَرِيدَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْأَسْبَابِ. وَقِيلَ: الْفَقِيرُ هُوَ الَّذِي لَا تُقَلِّهِ الْأَرْضُ، وَلَا تُظِلُّهُ السَّمَاءُ. أَيَّ لَا يَحْصِرُهُ الْكَوْنُ، لِرَفْعِ هِمَّتِهِ. وَنَفُوذِ بَصِيرَتِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شُرُوطُ الْفَقِيرِ أَرْبَعَةٌ: رَفْعُ الْهِمَّةِ، وَحَسَنُ الْخِدْمَةِ، وَتَعْظِيمُ الْحُرْمَةِ، وَتُقُودُ الْعَزِيمَةِ.

وَأَمَّا الْمُلَامِيتِي: فَقَالُوا: هُوَ الَّذِي لَا يُظْهِرُ خَيْرًا، وَلَا يُضْمِرُ شَرًّا. أَيَّ هُوَ الَّذِي يَخْفِي بَيْتَهُ، وَيُظْهِرُ مِنَ الْأَحْوَالِ، مَا يُنْفِرُ النَّاسَ عَنْهُ.

وَالْمُقَرَّبُ، هُوَ الْمُحَقِّقُ بِالْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَقْرُ وَالْمُلَامَةُ وَالتَّقَرُّبُ، أَنْوَاعٌ مِنَ التَّصَوُّفِ وَمَرَاتِبُ فِيهِ. فَإِنَّ الصُّوفِيَّ هُوَ الْعَامِلُ فِي تَصْفِيَةِ وَقْتِهِ، مِمَّا سِوَى الْحَقِّ. فَإِذَا سَقَطَ مَا سِوَى الْحَقِّ مِنْ يَدِهِ فَهُوَ الْفَقِيرُ. وَإِنْ كَانَ لَا يُبَالِي بِالنَّاسِ، وَلَا يُظْهِرُ خَيْرًا، وَلَا يُضْمِرُ شَرًّا، فَهُوَ الْمُلَامِيتِي. وَالْمُقَرَّبُ: مَنْ كُمِلَتْ أَحْوَالُهُ. فَكَانَ بِرَبِّهِ لِرَبِّهِ، وَلَيْسَ لَهُ عَنِ سِوَى الْحَقِّ إِخْبَارٌ، وَلَا مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارٌ.

الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ وَالْعَارِفُونَ: هَذِهِ أَلْفَاظٌ، مَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ. يَجْمَعُهَا مَعْنَى التَّصَوُّفِ فِي الْجُمْلَةِ؛ الَّذِي هُوَ قَصْدُ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. إِلَّا أَنَّ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ كَانَ عَابِدًا، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ التَّرَكُّ، كَانَ زَاهِدًا. وَمَنْ وَصَلَ إِلَى شُهُودِ الْحَقِّ وَرَسَخَ فِيهِ، كَانَ عَارِفًا. فَالْعِبَادُ وَالزُّهَادُ، شَغَلَهُمْ بِخِدْمَتِهِ. إِذْ لَمْ يَضْلُحُوا لَصَرِيحِ مَعْرِفَتِهِ. وَالْعَارِفُونَ شَغَلَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ. ﴿كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٨٢٠).

الصَّالِحُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ، وَالْبُدَلَاءُ، وَالثَّقَبَاءُ، وَالتَّجَبَاءُ، وَالْأَوْتَادُ، وَالْقُطُبُ: أَمَّا الصَّالِحُونَ، فَهُمْ مَنْ صَلَحَتْ أَحْوَالُهُمُ الظَّاهِرَةُ، وَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُمُ الْبَاطِنَةُ.

وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ: فَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ بِذَلِكَ، عَلَى نَعْتِ الْعِيَانِ مِنَ الْوَلِيِّ: وَهُوَ الْقَرَبُ، وَقِيلَ: مَنْ تَوَالَتْ طَاعَتُهُمْ، وَتَحَقَّقَ قُرْبُهُمْ، وَاتَّصَلَ مَدَدُهُمْ.

وَأَمَّا الْبُدْلَاءُ: فَهُمْ الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا الْمَسَاوِي بِالْمَحَاسِنِ. وَاسْتَبَدَّلُوا صِفَاتِهِمْ بِصِفَاتٍ مَخْبُورِيهِمْ.

وَأَمَّا التَّقْبَاءُ: فَهُمْ الَّذِينَ تَقَبَّوْا الْكَوْنَ، وَخَرَجُوا إِلَى فضاءِ شُهُودِ الْمَكُونِ.
وَأَمَّا الثُّجَبَاءُ: فَهُمْ السَّابِقُونَ إِلَى اللَّهِ، لِتَجَابِيهِمْ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْجِدِّ وَالْقَرِيحَةِ الْمُرِيدِينَ.

وَأَمَّا الْأَوْتَادُ: فَهُمْ الرَّاسِخُونَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ. وَهُمْ أَرْبَعَةٌ. كَانَهُمْ أَوْتَادُ لَأَرْكَانِ الْكَوْنِ الْأَرْبَعَةِ.

وَأَمَّا الْقُطْبُ: فَهُوَ الْقَائِمُ بِحَقِّ الْكَوْنِ وَالْمَكُونِ؛ وَهُوَ وَاحِدٌ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ تَحَقَّقَ بِمَقَامٍ. وَعَلَى هَذَا، يَتَعَدَّدُ فِي الزَّمَانِ الْوَاحِدِ أَقْطَابٌ فِي الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالْعُلُومِ. يُقَالُ: فَلَانِ قُطْبُ فِي الْعُلُومِ. أَوْ قُطْبُ فِي الْأَحْوَالِ أَوْ قُطْبُ فِي الْمَقَامَاتِ. إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا. فَلِذَا أُريدَ الْمَقَامُ الَّذِي لَا يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا وَاحِدٌ، عُبرَ عَنْهُ بِالْعَوْتِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَصِلُ مِنْهُ الْمَدَدُ الرُّوحَانِيُّ إِلَى دَوَائِرِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ نَجِيبٍ وَنَقِيبٍ، وَأَوْتَادٍ، وَأَبْدَالٍ. وَلَهُ الْإِمَامَةُ وَالْإِزْثُ، وَالْخِلَافَةُ الْبَاطِنَةُ، وَهُوَ رُوحُ الْكَوْنِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ. كَمَا يَسِيرُ إِلَى ذَلِكَ. كَوْنُهُ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانٍ الْعَيْنِ مِنَ الْعَيْنِ. وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَهُ قِسْطٌ وَنَصِيبٌ مِنْ سِرِّ الْبَقَاءِ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ بِالْعَوْتِ، فَمِنْ حَيْثُ إِغَاثَتُهُ الْعَوَالِمَ بِمَادَّتِهِ وَرُتْبَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَلَهُ عَلَامَاتٌ يُعْرَفُ بِهَا. قَالَ الْقُطْبُ الشَّهِيرُ، الْعَلَامَةُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِلْقُطْبِ خَمْسَةٌ عَشَرَ عَلَامَةً. فَمِنْ أَدْعَاهَا، أَوْ شَيْئاً مِنْهَا، فَلْيَبْرُزْ بِمَدَدِ الرُّحْمَةِ وَالْعِصْمَةِ وَالْخِلَافَةِ وَالنِّيَابَةِ، وَمَدَدِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَيَكْشِفْ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الذَّاتِ، وَاحْاطَةِ الصِّفَاتِ، وَيُكْرَمَ بِالْحُكْمِ وَالْفِعْلِ بَيْنَ الْوُجُودَيْنِ، وَانْفِصَالِ الْأَوَّلِ عَنِ الْأَوَّلِ. وَمَا انْفَصَلَ عَنْهُ إِلَى مُنْتَهَاهُ، وَمَا ثَبَتَ فِيهِ. وَحُكْمُ مَا قَبْلُ، وَحُكْمُ مَا بَعْدُ. وَعِلْمُ الْبَدْيِ؛ وَهُوَ الْعِلْمُ الْمَحِيطُ بِكُلِّ عِلْمٍ. وَبِكُلِّ مَعْلُومٍ. وَمَا يَعُودُ إِلَيْهِ.

فَالْعَلَامَةُ الْأُولَى: أَنْ يَكُونَ مُتَخَلِّقاً بِأَخْلَاقِ الرُّحْمَةِ، عَلَى قَدَمِهِ مَوْرُوثُهُ ﷺ، صَاحِبُ جِلْمٍ وَرَافِقَةٍ، وَشَفِيقَةٍ وَعَفْوٍ وَعَقْلٍ وَرِزَانَةٍ، وَجُودٍ وَشَجَاعَةٍ. كَمَا وَأَنْ مَوْرُوثُهُ ﷺ.

وَالْعَلَامَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يُمَدَّ بِمَدَدِ الْعِصْمَةِ؛ وَهِيَ الْحِفْظُ الْإِلَهِيُّ، وَالْعِصْمَةُ

الرَّبَّانِيَّةِ، كَمَا كَانَ مَوْرُوثُهُ ﷺ. غَيْرَ أَنَّهَا فِي الْأَنْبِيَاءِ وَاجِبَةٌ وَفِي الْأَوْلِيَاءِ جَائِزَةٌ. وَيُقَالُ لَهُ: الْحَفْظُ. فَلَا يَتَجَاوَزُ حَدًّا، وَلَا يَنْقُصُ عَهْدًا.

الثَّالِثَةُ: الْخِلَافَةُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، أَمِينًا عَلَى عِبَادِهِ، بِالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ، قَدْ بَايَعْتُهُ الْأَزْوَاحُ، وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ الْأَشْبَاحُ.

وَالرَّابِعَةُ: النِّيَابَةُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ نَائِبًا عَنِ الْحَقِّ، فِي تَصْرِيفِ الْأَحْكَامِ. حَسَبًا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ. وَفِي الْحَقِيقَةِ، مَا تَمَّ إِلَّا الْقُدْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ.

وَالْخَامِسَةُ: أَنْ يَمْدُدَ بِمَدَدِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مِنْ الْقُوَّةِ وَالْقَرَبِ، فَهُوَ حَامِلُ عَرْشِ الْأَكْوَانِ، كَمَا أَنَّ الْمَلَأَكَةَ حَامِلَةَ عَرْشِ الرَّخْمَنِ.

وَالسَّادِسَةُ: أَنْ يُكْشَفَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الدَّاتِ. فَيَكُونُ عَارِفًا بِاللَّهِ مَعْرِفَةَ الْعِيَانِ. وَأَمَّا الْجَاهِلُ بِاللَّهِ، فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْقُطْبَانِيَّةِ.

وَالسَّابِعَةُ: أَنْ يُكْشَفَ لَهُ عَنْ إِحَاطَةِ الصِّفَاتِ بِالْكَائِنَاتِ. فَلَا مُكُونٍ، إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ بِالصِّفَاتِ، وَأَسْرَارِ الدَّاتِ. وَمَعْرِفَةُ الْقُطْبِ بِإِحَاطَةِ الصِّفَاتِ، أَتَمُّ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهَا فِي حَقِّهِ دَوْقِيَّةٌ لَا عِلْمِيَّةٌ.

وَالثَّامِنَةُ: أَنْ يَكْرَمَ بِالْحُكْمِ وَالْفَضْلِ بَيْنَ الْوُجُودَيْنِ. أَيِ بَيْنَ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ قَبْلَ التَّجَلِّيِّ؛ وَهُوَ الْمَعْبُورُ عَنْهُ بِالْأَزَلِ. وَبِالْكَثَرِ الْقَدِيمِ. وَبَيْنَ الثَّانِي؛ وَهُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّجَلِّيُّ. وَالْفَضْلُ بَيْنَهُمَا أَنْ يُغْلَمَ، أَنَّ الْأَوَّلَ رَبُّوبِيَّةٌ بِلَا عِبُودِيَّةٍ، وَمَعْنَى بِلَا حَسٍّ، وَقُدْرَةٌ بِلَا حِكْمَةٍ. بِخِلَافِ الثَّانِي. فَإِنَّهُ مُتَّصِفٌ بِالضَّدِّينِ: رَبُّوبِيَّةٌ وَعِبُودِيَّةٌ، وَمَعْنَى وَحْسٍ، وَقُدْرَةٌ وَحِكْمَةٌ، لِيَتَحَقَّقَ فِيهِ اسْمُهُ الظَّاهِرُ، وَاسْمُهُ الْبَاطِنُ. فَالضَّدِّينِ خَاصَّةٌ بِالْقَبْضَةِ الْمُتَجَلِّى فِيهَا. وَأَمَّا الْعِظْمَةُ الْمُحِيطَةُ بِهَا، الْبَاقِيَّةُ عَلَى كَثْرَتِهَا؛ فَهِيَ بَاقِيَّةٌ عَلَى أَصْلِهَا. فَافْهَمْ.

وَالْتَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ: أَنْ يَكْرَمَ بِالْحُكْمِ، بِانْفِصَالِ الْأَوَّلِ عَنِ الْأَوَّلِ. وَالْمُرَادُ بِانْفِصَالِ الْأَوَّلِ، انْفِصَالُ نُورِ الْقَبْضَةِ، عَنِ النُّورِ الْأَزَلِيِّ الْكَثْرِيِّ، وَهُوَ بَحْرُ الْجَبَرُوتِ. وَالْمُرَادُ بِمَا انْفَصَلَ عَنْهُ: مَا تَفَرَّعَ مِنَ الْقَبْضَةِ إِلَى مُنْتَهَاهَا، مِنْ فُرُوعِ التَّجَلِّيَّاتِ. أَيِ فِي الْحَالِ، وَأَمَّا فِي الْمَالِ فَلَا انْتِهَاءَ لَهُ؛ لِأَنَّ تَجَلِّيَّاتِ الْحَقِّ لَا تَنْقُطُ أَبَدًا. فَإِذَا انْقَضَى هَذَا الْوُجُودُ الدُّنْيَوِيُّ، تَجَلَّى بِوُجُودٍ آخَرَ أُخْرَوِيٍّ وَلَا نِهَآيَةَ لَهُ.

وَالْحَادِيَةَ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ مَا ثَبَتَ فِي الْمَنْفَصَلَاتِ. مِنَ الْمَزَايَا وَالْكَرَامَاتِ. أَوْ ضِدَّ ذَلِكَ: يَغْنِي فِي الْجُمْلَةِ. وَأَمَّا التَّفْصِيلُ، فَمِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ.

وَالثَّانِيَةَ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ حُكْمَ مَا قَبْلَ. أَيْ مَا قَبْلَ التَّجَلِّيِّ. وَحُكْمُهُ: هُوَ التَّنْزِيلُ الْمَطْلُوقُ؛ لِأَنَّهُ بَاقٍ عَلَى كَثْرِيَّتِهِ. لَمْ تَدْخُلْهُ الضَّدَّانِ.

وَالثَّالِثَةَ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ حُكْمَ مَا بَعْدَ: أَيْ يَعْلَمُ مَا لَا قَبْلَ لَهَا وَلَا بَعْدَ لَهَا؛ وَهِيَ الْخَمْرَةُ الْأَزْلِيَّةُ. وَالذَّاتُ الْأَصْلِيَّةُ. كَمَا قَالَ ابْنُ الْفَارُضِ:

فَلَا قَبْلَ لَهَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ لَهَا بَعْدَ وَقَبْلِيَّةُ الْإِبْعَادِ هِيَ لَهَا حَاشِمٌ

وَالرَّابِعَةَ عَشَرَ: أَنْ يُطْلِعَ عَلَى عِلْمِ الْبَدْءِ، وَالْمُرَادُ عِلْمُهُ تَعَالَى الْأَزْلِي، السَّابِقُ لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ؛ وَهُوَ الْمَحِيطُ بِكُلِّ عِلْمٍ وَبِكُلِّ مَعْلُومٍ. إِذْ لَا يَخْرُجُ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، وَكُلُّ عِلْمٍ وَكُلُّ مَعْلُومٍ يَعُودُ إِلَيْهِ؛ وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْقَدْرِ. فَقَدْ يَكْشِفُ الْقُطْبُ عَلَى جُزْءٍ مِنْهُ، وَلَا يَشْتَرِطُ إِحَاطَتَهُ بِكُلِّيَّةِ الْأَشْيَاءِ وَجُزْئِيَّاتِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَإِنَّمَا يُطْلَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مِنْ نَوْعٍ مَخْصُوصٍ وَقَدْ أَشَارَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمِرْزِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: مَا مِنْ وَلِيٍّ لِلَّهِ كَانَ، أَوْ هُوَ كَائِنٌ، إِلَّا وَقَدْ أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى اسْمِهِ وَنَسَبِهِ، وَحَظَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ آخَرُ: مَا مِنْ نَظْفَةٍ تَقَعُ فِي الْأَرْحَامِ، إِلَّا وَقَدْ أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهَا؛ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أَنْثَى. وَهَذَا مِنْ جَمَلَةِ الْكَرَامَاتِ الَّتِي أَنْحَفَ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَائِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ قُطْباً وَهُوَ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا أَنَّهُ عَارَفَ بِاللَّهِ، رَاسِخَ الْقَدَمِ فِي الْمَعْرِفَةِ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُظَهِّرَ شَيْئاً فِي مَمْلَكَتِهِ أَطْلَعَهُ عَلَيْهَا. وَقَدْ لَا يُطْلَعُهُ. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاللَّهُ لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي»^(١) قَالَ ذَلِكَ حِينَ ضَلَّتْ نَاقَتُهُ. فَلَمْ يَذَرِ أَيْنَ ذَهَبَتْ، فَتَكَلَّمَ بَعْضُ الْمُتَأَفِّقِينَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا.

وَبِالْجَمْلَةِ. فَلَا إِطْلَاعَ عَلَى الْمُعْجِيَّاتِ، مِنْ جَمَلَةِ الْكَرَامَاتِ؛ وَهِيَ لَا تَشْتَرِطُ فِي الْوَلِيِّ، قُطْباً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ

(١) أوردته أبو محمد الأصبهاني في كتاب العظمة، [١٤٦٨/٤]:

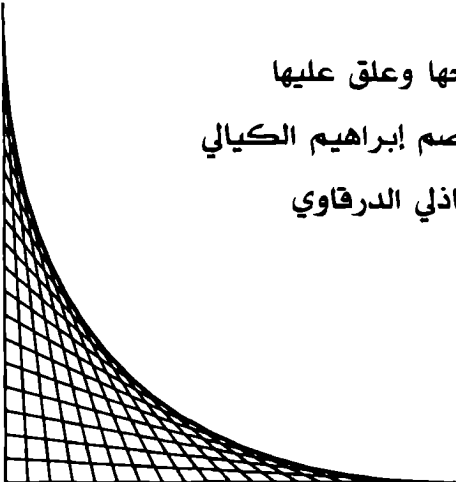
وَالِلهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

هَذَا آخِرُ مَا جَمَعْنَاهُ مِنْ حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ، وَشَرَحَ مَا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ حَقِيقَةٍ، جَعَلَهُ اللهُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ. وَأَدَامَ بِهِ النِّفْعَ الْعَمِيمَ. جَامِعُهُ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَجِيْبَةِ الْحُسَيْنِيِّ. لَطَفَ اللهُ بِهِ فِي الدَّارَيْنِ آمِينَ. وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لِلَّهِ دَرُ الْعَارِفِ الْجَلِيلِ، وَالصُّوْفِيِّ الشَّهِيرِ، الْقُطْبِ الْكَامِلِ، سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بِنَعِجِيْبَةِ الْحُسَيْنِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقُدْسَ سِرِّهِ، وَجَعَلَنَا عَلَى هَذِهِ آمِينَ. نَاقِلُهُ هُنَا عَبْدُ رَبِّهِ، وَرَاجِي عَفْوِهِ، عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ أَحْمَدَ الْعِمْرَانِيَّ الْخَالِدِيَّ. وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ نَقْلِهِ هُنَا، عَشِيَّةَ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ خَامِسِ شَوَّالِ عَامِ ١٣٩٩ هَجْرِيَّةً، الْمَوْافِقَ لثَامِنِ وَعَشْرِينَ غَسَتْ سَنَةَ ١٩٧٩ م.

شرح صلاة الشيخ الأكبر
محيي الدين بن عربي الحاتمي
رضي الله عنه

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه

ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّم تسليماً

شَرْحُ التَّضَلُّيَةِ عَلَى النَّبِيِّ، لابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ

يقول العَبْدُ الْفَقِيرُ، إِلَى مَوْلَاهُ الْغَنِيِّ عَمَّا سِوَاهُ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بِنَعِيجِيَّةِ الْحَسَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَفَعَنَا بِرَّكَاتِهِ آمِينَ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَتَجَلِّي بِكَمَالِهِ؛ الْوَاحِدُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى قُطْبِ دَائِرَةِ الْوُجُودِ، وَبَذَرَةِ التَّجَلِّي لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْكَرَامِ، وَآلِ بَيْتِهِ ذَوِي الثَّرَاةِ وَالْإِخْرَامِ، وَبَعْدُ:

فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ، أَنْ أَضَعُ تَقْيِيداً عَلَى صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، لِابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ، نُبَيِّنُ مَا انْفَلَقَ مِنْ مَعَانِيهَا، وَمَا أَشْكَلَ مِنْ مَبَانِيهَا، فَأَجَبْتُ سُؤْلَهُمْ، بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنْتُ شَيْخَنَا الْعَارِفَ الرَّبَّانِي الْبُوزِيدِي الْحَسَنِي؛ لِأَن سِرَّ الْإِذْنِ أَمْرٌ كَبِيرٌ. وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ فِي مَذْهَبِ ﷺ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ مَذْحُوا شَخْصَةَ الظَّاهِرِ، فَذَكَرُوا مَا يَتَعَلَّقُ بِجَمَالِهِ الْحَسِيِّ، وَمَا يَتَبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْكَمَالَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمَا يَلْتَحِقُ بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَالْخَوَارِقِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الظَّاهِرِ. وَقِسْمٌ مَذْحُوا سِرَّهُ الْبَاطِنِي، وَنُورَهُ الْأَصْلِي، فَذَكَرُوا نُورَهُ الْمَتَقَدِّمَ، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ مِنَ التَّجَلِّيَّاتِ الْحَسِّيَّةِ، كَالْقُطْبِ ابْنِ مَشِيشٍ وَأَصْرَابِهِ، وَمِنْهُمْ الْعَارِفُ الرَّبَّانِي، وَالْقُطْبُ الصُّمَدَانِي، بِحَرِّ زَمَانِهِ، وَفَرِيدِ عَصْرِهِ وَأَوَانِهِ، مُحْيِي الدِّينِ بَنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ، الْمَتَوَفَّى فِي حُدُودِ الْقَرْنِ السَّادِسِ حَيْثُ قَالَ:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُطَّلَسَمِ».

أَيُّ عَلَى الْكَثْرِ الْمَكْنُونِ. فَالْمُطَّلَسَمُ: هُوَ السَّاتِرُ لِلشَّيْءِ، وَالصُّوَانُ لَهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ كَانَ كَنْزًا لَمْ يُعْرِفْ، أَي سِرًّا خَفِيًّا غَيْبِيًّا، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُعْرِفَ، ظَهَرَ قَبْضَةٌ مِنْ نُورِ دَايَةِ، سَمَاهَا مُحَمَّدًا ﷺ، فَلَمَّا تَجَلَّتِ الْقَبْضَةُ مِنْ بَحْرِ الْجَبْرُوتِ، كَسَاهَا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ؛ وَهُوَ حِجَابُ الْحُسْنِ، إِذْ لَا بُدَّ لِلْحَسَنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، وَلِلشُّمُسِ مِنْ سَحَابٍ، لِيَبْقَى الْكَثْرُ مَذْقُونًا، وَالسُّرُّ مَصُونًا، فَحِجَابُ الْحُسْنِ الَّذِي اخْتَجَبَتْ بِهِ أَسْرَارُ الذَّاتِ هُوَ الطَّلَسْمُ. وَالْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بَاطِنُ الْقَبْضَةِ وَكَلِيَّتُهَا هُوَ الْكَثْرُ، وَهُوَ عَيْنُ الذَّاتِ فِي مَقَامِ الْجَمْعِ، فَالْقَبْضَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ لَمَّا كَانَتْ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا الذَّاتُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: عَلَى الذَّاتِ الْمُطْلَسَمِ. وَمِنْ هَذِهِ الْقَبْضَةِ تَفَرَّعَتِ الْكَائِنَاتُ كُلُّهَا. مِنْ عَرْشِهَا إِلَى قَرْشِهَا، بِذَوَاتِهَا وَأَزْوَاجِهَا. فَنُورُهُ ﷺ، هُوَ بَذْرَةُ الْوُجُودِ، وَالسَّبَبُ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، فَمِنْ سِرِّهِ ﷺ، انشَقَّتْ أَسْرَارُ الذَّاتِ، وَانْفَلَقَتْ أَنْوَارُ الصِّفَاتِ، فَكُلُّ تَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَّاتِ الْحَقِّ، إِنَّمَا يَبْرُزُ مِنْ نُورِهِ ﷺ، فَحِيَاضُ الْجَبْرُوتِ بِقَبْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ، مُنْذُ ظَهَرَتِ الْقَبْضَةُ، إِلَى مَا لَا يَهَيَاةَ لَهُ، حَتَّى إِنَّ أَنْفَاسَ الْجَنَانِ وَنَعِيمَهَا، بَارِزَةٌ مِنْ هَذَا الثُّورِ الْمُحَمَّدِيِّ؛ لِأَنَّهَا حَسِيَّةٌ، وَالْحُسُّ مِنْ حَيْثُ هُوَ، كُلُّهُ مِضَافٌ لِنَبِينَا ﷺ وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ؛ لِأَنَّ الْإِضَافَةَ لَا تُخْرِجُهُ عَنْ أَصْلِهِ، فَبِالْحَقِّ التَّحْقِيقِ: مَا تَمَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا شَيْءٌ سِوَاهُ.

تنبيه: إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْفُرُوعَ النَّاشِئَةَ مِنَ الْقَبْضَةِ، وَالْمُتَفَرِّعَةَ عَنْهَا، كُلُّهَا كُنُوزٌ مُطْلَسَمَةٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ حُكْمَ الْبَقْضِ، حُكْمُ الْكُلِّ، فَالْأَوَانِي طَلَائِمُ لِلْمَعَانِي، فَكُلُّ شَخْصٍ عِنْدَهُ كَنْزٌ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، حَاجِبَتُهُ عَنِ الْعُقْلَةِ وَالْوُقُوفِ مَعَ الْحُسِّ، وَالتَّنَظَّرِ إِلَى وُجُودِهِ، وَالْإِنْهَمَاكِ فِي حُظُوظِ نَفْسِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ التَّسْتَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَا قَاصِدًا عَيْنَ الْخَبَرِ غَطَّاهُ أَيْئُوكَ
الْخَمْرُ مِنْكَ وَالْخَبَرُ وَالسُّرُّ عَنْكَ
إِزْجِعْ لِدَايِكَ وَاعْتَبِرْ مَائِمٌ غَيْرُكَ

فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَرَبِّضَهَا وَأَدْبَهَا، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ، وَحَيَّتْ رُوحَهُ، ظَهَرَ لَهُ كَنْزُهُ، وَبَدَأَ لَهُ سِرُّهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

وَأَتَاهُمْ إِنْ كُنْتَ تَفْهَمُ لِأَنَّ كَنْزَكَ قَدْ عَدِمَ عَنْ كُلِّ طَلَسَمِ

وَقَالَ ابْنُ الْعَرِيفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِسَامُهُ وَلَا حَ صَبَاحٌ كُنْتَ أَتَتْ ظِلَامُهُ
فَأَتَتْ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ وَلَوْلَاكَ لَمْ يُطْبِعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
فَإِنْ غِيبَتْ عَنْهُ حَلٌّ فِيكَ وَطُفَتْ عَلَى مَوْكِبِ الْكَشْفِ الْمَصُونِ خِيَامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لَا يُمَلُّ سَمَاعُهُ شَهِي إِبْنِنَا نَشْرُهُ وَنِظَامُهُ
إِذَا سَمِعْتَهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمُعْنَى غَرَامُهُ

وَلَا بُدَّ مِنْ صُخْبَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ كَامِلٍ، يُعْرِفُكَ كَيْفِيَةِ الْحَفْرِ عَلَى هَذَا الْكَثَرِ. أَيْنَ مَوْضِعُهُ لِحَفْرِ عَلَيْهِ. وَلَا بَقِيَتْ جَاهِلًا بِهِ، فَقِيرًا عَلَى الدَّوَامِ، مَعَ كَوْنِ الْكَثَرِ بَيْنَ جَنَّتِكَ؛ وَهُوَ رُوحَكَ وَسِرَّكَ، فَإِذَا اسْتَوَلَتْ رُوحَانِيَّتُكَ عَلَى بَشَرِيَّتِكَ، وَمَعْنَاكَ عَلَى حَسِّكَ، ظَهَرَ كَنْزُكَ، وَصِرَتْ غَنِيًّا كَبِيرًا، تُتْبِعُهُ عَلَى الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ، وَتَتَعَرَّفُ فِيهِ بِهَيْمَتِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ، ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالْغَيْبِ الْمُضْمَضِمِ» أَيِ الْمَحْجُبِ الْمَسْتُورِ. يُقَالُ: ضَمَضَمَ كَذَا، إِذَا سَتَرَهُ وَاخْتَوَى عَلَيْهِ، فَهُوَ مُضْمَضَمٌ؛ أَيِ مَسْتُورٌ، وَانْظُرِ الْقَامُوسَ، فَهُوَ بِضَادَيْنِ مُعْجَمَيْنِ، لَا بِطَاءَيْنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ ﷺ، غَيْبٌ مِنْ غُيُوبِ اللَّهِ، وَسِرٌّ مِنْ أَسْرَارِهِ، لَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا رَبُّهُ؛ الَّذِي خَلَقَهُ وَأَظْهَرَهُ، وَعَنْهُ ﷺ: «وَاللَّهُ مَا عَرَفْنِي حَقِيقَةً غَيْرَ رَبِّي»^(١).

وَفِي تَصْلِيَةِ الْقُطْبِ ابْنِ مَشِيشٍ، أَيْ عَنْهُ «تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ». وَقَالَ أَوْسُ الْقُرْنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهُ مَا رَأَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا قَشْرَةَ الظَّاهِرِ. وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَلَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ». فَقِيلَ: وَلَا ابْنُ أَبِي قَحَافَةَ فَقَالَ: وَلَا ابْنُ أَبِي قَحَافَةَ. وَالْمَرَادُ: نَفْيُ الْإِحَاطَةِ بِسِرِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ رُوحَهُ. وَأَمَّا إِذْرَاكَ الْبَغْضِ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ، عَلَى قَدْرِ التَّوَجُّهِ وَالْمَعْرِفَةِ، كَذَلِكَ الْأَوْلِيَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَتَفَاوَتُونَ فِي إِدْرَاكِ بَاطِنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ، عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ شَيْئًا مِنْ سِرِّهِ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ رُوحَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ قَلْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ عَقْلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ نَفْسَهُ. فَأَهْلُ الرُّسُوحِ وَالتَّمَكُّينِ، يَدْرِكُونَ سِرَّهُ ﷺ؛ الَّذِي هُوَ سَارٍ فِي

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

كل شيء؛ فلذلك لا يغيبون عنه طرفة عين، وأهل التلوين قَبْلَ التمكين،
يدركون روحه، فيُشاهدونه في غَالِبِ الأوقات، وأهل السَّيرِ من المريدين،
يُذركون قلبه، فيحصل لهم كَمَالُ الإيقان، وتقل رؤيتهم له عليه السلام، وأهل
الحِجاب من عَامَّةِ الصَّالحين، يُذركون عقله أو نفسه، فيَرَوْنَ فِي المَنَام، وفي
اليقظة، شخصه الحسِّي، عَلَى قَدَرِ فَنَائِهِمْ فِيهِ، وأهل هَذَا المَقَام، هم أهل
حُضرة الأشباح، كما أَنَّ السَّابِقِينَ قَبْلَهُ، هم أهل حُضرة الأرواح والأسرار، والله
تعالى أعلم.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالْكَمَالِ الْمُكْتَنَمُ». وَلَا شَكَّ أَنَّهُ ﷺ، جَمَعَ
الْكَمَالَاتِ كُلَّهَا. فَكَانَتْ صورته الشريفة في غَايَةِ الْجَمَالِ، وروحه الْمُطَهَّرَةُ، في
غَايَةِ الْكَمَالِ. وَسِرُّهُ الْبَاهِرُ، في غَايَةِ الثَّمَامِ. وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْكَمَالَاتِ
والمَحَاسِنِ، مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي مخلوق قط، وكل كَمَالٍ ظَهَرَ فِي غَيْرِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ
مُعَازٍ مِنْهُ. وَرَشْحَةٌ مِنْ رَشْحَاتِهِ، وكل نُورٍ أَوْ سِرٍّ نَالَهُ غَيْرُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ
نُورِهِ، كما قال البوصيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكْمِ
فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضْلُهَا كَوَاقِبُهَا يُظْهِرُنْ أَثَوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

إِلَّا أَنَّ الْحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ كَتَمَ ذَلِكَ الْكَمَالَ، وَحَجَبَهُ، وَلَوْ أَظْهَرَهُ، لَعَبِدَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ، كَمَا عَبَدَ عِيسَى، فَكَانَ كَمَالُهُ وَجَمَالُهُ مُكْتَنَمًا، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ، إِلَّا مَنْ
صَقَلَتْ مِرَاةَ قَلْبِهِ. فَنَظَرَ إِلَى بَاطِنِهِ دُونَ ظَاهِرِهِ، كَالصَّدِيقِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى قَدَمَيْهِ،
وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ: «لَاَهُوُتُ الْجَمَالِ، وَنَاسُوتُ الْوِصَالِ» قُلْتُ: اللَّاهُوتُ عبارة عن
أَسْرَارِ المعاني الباطنية القائمة بالأشياء؛ وهي أَسْرَارُ الذَّاتِ. وَالنَّاسُوتُ عبارة عن
حَسِّ الْأَوَانِي الظَّاهِرَةِ. وَالْحَاصِلُ: اللَّاهُوتُ: مَا بَطَنَ. وَالنَّاسُوتُ: مَا ظَهَرَ.

وَمَعْنَى كَلَامِهِ: أَنَّ كُلَّ جَمَالٍ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، فَالْمُصْطَفَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ، أَضْلُهُ وَمَغْدَنُهُ وَسِرُّهُ وَلُبُّهُ؛ فَهُوَ مَغْدِنُ الْجَمَالِ، وَأَضْلُ الْكَمَالِ. فَمَا
تَبَهَّجَ رِیاضِ الْمَلَكُوتِ، إِلَّا بِزَهْرِ جَمَالِهِ، وَمَا ظَهَرَتْ بَهْجَةُ الْمُلْكِ إِلَّا بِحُسْنِ

كَمَالِهِ؛ وهو معنى قوله: لَاهُوتُ الجمالِ، أي أضله ومعدنُهُ، وباطنه ولبُّهُ. فَمِنْ مَعْدِنِ سِرِّهِ ﷺ، تَفَرَّعَتْ أنواعُ الجمالِ، وكأنه يشير إلى جمال المعاني؛ الذي ينسب إلى الأرواح، ويغيب العقول، كما قال الشاعر:

تَرَانِي غَائِباً عَنْ كُلِّ أَيْنٍ كَأَسِّ الْمَعَانِي حُلُوِّ الْمَذَاقِ

وَبِالْجُمْلَةِ: فجمال المعاني؛ هو من جمال سِرِّهِ ﷺ. فيه عُرفٌ، وفيه ظَهَرٌ، وَمَا ذَاقَ أَحَدٌ شَيْئاً مِنْ خِلَاوَةِ الْمَعَانِي، وَلَذَّةِ الشُّهُودِ، إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ ﷺ، فَهُوَ لَاهُوتُ جمال المعاني وَمَعْدِنُهَا، فَالْمَعَانِي الْبَاطِنِيَّةُ تُسَمَّى مَلَكُوتاً، وَالْحَسَنُ الظَّاهِرُ، يُسَمَّى مُلْكاً، وَالبَخْرُ المحيطُ: مِنَ الْأَسْرَارِ اللطيفة الباقية على أضلها؛ الذي تَتَدَفَّقُ أَنْوَارُ الْكَائِنَاتِ مِنْهُ، يُسَمَّى جَبَرُوتاً، فَجمال المعاني، إِنَّمَا عُرفَ وَظَهَرَ بِهِ ﷺ. وَجمال الحسِّ إِنَّمَا تَبَهَّجَ بنوره ﷺ؛ وَإِلَى هَذَا أَشارَ القُطْبُ ابنُ مَشِيشٍ رضي الله عنه بقوله: «فَرِيَاضُ الْمَلَكُوتِ يَزْهَرُ جَمَالِهِ مُونِقَةً، وَجِيَاضُ الْجَبَرُوتِ بِقَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةً».

وقوله: نَاسُوتُ الْوِصَالِ: يُشير إلى ظاهره ﷺ. كَانَ فِي مَحَلِّ الْوِصَالِ وَالْإِتِّصَالِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَحَلِّ الْفَرْقِ وَالْإِنْفِصَالِ. فَكَمَا أَنَّ بَاطِنَهُ كَانَ مَعْدِنَ الْأَسْرَارِ، كَذَلِكَ ظَاهِرُهُ مَحَلُّ الْأَنْوَارِ، فَكَانَ مُسْتَعْرِقاً فِي بَحْرِ الْأَحْدِيَّةِ، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طَلَعَةُ الْحَقِّ»: أَيِ أَوَّلِ تَجَلِّيهِ؛ وَظُهُورِهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، فَأَوَّلُ مَا طَلَعَ مِنْ أَسْرَارِ الذَّاتِ الْكَثْرِيَّةِ. الْقَبْضَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، فَمِنْهَا انشَقَّتْ أَسْرَارُ الذَّاتِ، وَظَهَرَتْ أَنْوَارُ الصِّفَاتِ. فَلَوْلَا هِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا ظَهَرَ الْوُجُودُ، وَلَا عَرَفَ الْمَلِكُ الْمَغْبُودُ؛ فَهُوَ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، فَلَوْلَا الْوَاسِطَةُ لَذَهَبَ الْمَوْسُوطُ.

ثم إِنَّ الْقَبْضَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ هِيَ عَيْنُ الذَّاتِ، بَرَزَتْ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ، لَكِنْ تُسَمَّى مَا تَكْشِفُ مِنْهَا وَتَحْسُسُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا مَا بَطَّنَ، فَبَاقٍ عَلَى أَضْلِهِ؛ مِنْ اللَّاهُوتِيَّةِ، فَالْقَدْرُ الَّذِي سَمَّاهُ مِنْهَا مُحَمَّدًا ﷺ. إِنَّمَا هُوَ جِسْمُهَا، وَجَوْهَرُهَا الظَّاهِرُ. وَأَمَّا مَا بَطَّنَ مِنَ الْمَعَانِي؛ فَهُوَ لَاهُوتِي؛ وَلَيْسَ هُوَ بِحُلُولٍ؛ لَتَنَفِي الْغَيْرِيَّةِ وَمَخَوِهَا عَنْ نَظَرِ الْعَارِفِينَ.

ولمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْقَبْضَةُ بِهَا ظَهَرَ الْكَثْرُ الْمَذْفُونُ، وَبِهَا انْكَشَفَ السَّرُّ الْمَصُونُ، شَبَّهَهَا بِثَوْبِ الثَّقَابِ؛ الَّذِي يُغْطَى بِهِ الْوَجْهُ الْحَسَنُ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُتُوبٌ عَيْنِ إِنْسَانِ الْأَزَلِ، فِي نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ»:

فَشَبَّهَ الْأَزَلَ، بِإِنْسَانٍ لَهُ عَيْنٌ حَسَنَى، كَانَتْ مَحْجُوبَةً مَصُونَةً، مُسْتَوْرَةً بِثَوْبٍ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَهَا، كَشَفَ ثَوْبَ نِقَابِهَا، وَظَهَرَتْ مُحَاسِنُهَا، وَبَاهَرُ جَمَالِهَا، كَذَلِكَ الْخِمْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ، كَانَتْ لَطِيفَةً خَفِيَّةً، فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَظْهَرَ، كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِ سِرِّهَا، فَأَظْهَرَتْ مِنْ جَمَالِهَا نُورَ الْقَبْضَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، ثُمَّ انْتَشَرَ مِنَ الْقَبْضَةِ سَائِرُ الْفُرُوعِ الْكُونِيَّةِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: نَشْرُ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أَيُّ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كُتُوبٌ عَيْنِ إِنْسَانِ الْأَزَلِ، وَيَزْجَعُ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِهِ: هُوَ كُتُوبٌ عَيْنِ الْأَزَلِ، الْمُنْشُورُ عَلَيْهِ، فَكَشَفَهُ فِي إِرَادَةِ نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أَيُّ عِنْدَ إِرَادَةِ إِظْهَارِهِ مَنْ لَمْ يَزَلْ مِنَ الْفُرُوعِ الْكُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَهَذَا مُجَرَّدُ اضْطِلَاحٍ: يَقُولُونَ فِي السَّرِّ الْأَزَلِيِّ فِي حَالِ الْكَثَرَةِ أَزَلَ. وَفِيمَا تَفَرَّعَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ. وَالْكَلِّ وَاجِدٌ. الْفَرْعُ عَيْنِ الْأَصْلِ. وَالْأَصْلُ عَيْنِ الْفَرْعِ. مَا تَجَلَّى بِهِ فِيمَا لَمْ يَزَلْ، كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ، وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ:

قَلَمَ يَبْقُ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَبْقُ كَائِنٌ فَمَا تَمَّ مَوْصُولٌ وَلَا تَمَّ بَائِنٌ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى بِعَيْنِي إِلَّا عَيْنَهُ إِذْ أَعَايِنُ

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَقَامَتْ بِهِ تَوَاسِيَةُ الْفَرْقِ، فِي قَابِ نَاسُوتِ الْوِصَالِ»: مَنْ بَدَأَ مِنَ الذَّاتِ، وَتَوَاسَيْتُ جَمْعُ نَاسُوتٍ: وَهُوَ مَا ظَهَرَ مِنْ الْحَسَنِ. كَمَا أَنَّ اللَّاهُوتَ مَا بَطَّنَ مِنَ الْمَعْنَى، وَقَابُ الْقَوْسِ: مَا بَيْنَ مَحَلِّ وَتَرِهِ وَطَرَفِهِ. وَالْمَعْنَى: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُطْلَسَمِ، الَّذِي أَقَامَتْ، أَيُّ دَامَتْ بِهِ، أَيُّ بِبَرَكَاتِهِ أَتْبَاعِهِ، أَشْبَاحُ أَهْلِ الْفَرْقِ، فِي مَقَامِ الْقُرْبِ، فَكَانُوا مِنْ حَضْرَةِ الْوِصَالِ، مَقْدَارَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَذْنَى، فَأَقَامُوا فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ بِهِ ﷺ، وَلَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ لَطَرَدُوا وَأَبْعَدُوا، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالتَّوَاسِيَةِ، دُونَ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ وَالْأَرْوَاحَ مَحَلَّهُمَا الْجَمْعُ بِنَاسُوتِ الْوِصَالِ كِنَايَةً عَنْ حَضْرَةِ الْوِصَالِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ تَبِعَهُ ﷺ، وَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ، نَالَ الْقُرْبَ بَعْدَ الْبُعْدِ، وَالْوِصَالَ بَعْدَ الْفِرَاقِ، فَإِنَّهُ ﷺ، بِأَبِ اللَّهِ وَحِجَابِهِ الْأَعْظَمِ؛

فَمَنْ رَامَ الدُّخُولَ عَلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ، طُرِدَ وَأُبْعِدَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ أَيُّ امْرِئٍ وَأَفَاءَهُ مِنْ غَيْرِكَ لَا يَدْخُلُ

كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْوَصُولَ إِلَى الْمُلُوكِ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَبَّبَ إِلَى وَزَرَائِهِمْ، وَيَهْدِيَ لَهُمْ، وَيَخْدُمُهُمْ، فَحِينَئِذٍ يُوصَلُونَهُ إِلَى الْمَلِكِ. فَكَذَلِكَ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ إِلَى اللَّهِ. لَا بُدَّ أَنْ يَخْدُمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَيُعْظِمَهُ، وَيُعْظِمَ مَا انتَسَبَ إِلَيْهِ، وَيُعْظِمَ خَلْفَاءَهُ؛ وَهُمْ الْأَوْلِيَاءُ، وَيُقْبَلُ التَّرَابُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، فَحِينَئِذٍ يُوصَلُونَهُ إِلَى الْحَضْرَةِ، وَإِلَّا بَقِيَ بَعِيداً مِنْ حَيْثُ يَنْظُرُ الْقُرْبُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثم قال: «الْأَقْرَبُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ»: أَيُّ الْأَقْرَبِ مِنْ غَيْرِهِ، مِنْ سَائِرِ الرُّسُلِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، فَكَانَتْ الرُّسُلُ كُلُّهَا تَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَتَبَيَّنُ الطُّرُقُ إِلَى الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ. فَبَيَّنَ مِنْ اسْمِ الطَّرِيقِ، وَمَعَالِمِ التَّحْقِيقِ، فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ، فَهَدَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ، مَا لَمْ يَهْدِ عَلَى يَدِ غَيْرِهِ، فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُتَطَاوِلَةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَلَى قَدَمِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْجَامِعِينَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ يَهْدِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْجَمَّ الْعَفِيفَ، فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ٨٠] أَيُّ وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ؛ وَهِيَ بَصِيرَةُ الْعِيَانِ، وَالذُّوقِ وَالْوُجْدَانِ، لَا بَصِيرَةُ التَّمْلِيدِ؛ الَّتِي هِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ.

ثُمَّ قَالَ: «فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ فِيهِ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ»: قُلْتُ: إِذَا فَتَى الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ وَجَسَدِهِ، لَمْ يَرَ إِلَّا أَتَوَارَ الثُّبُوءِ ظَاهِرَةً، وَأَسْرَارَ الرُّبُوبِيَّةِ بَاطِنَةً، فَإِذَا صَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَأَى نُورَهُ ﷺ، لَا هُوَ، وَإِذَا سَبَّحَ أَوْ هَلَّلَ، رَأَى أَنَّ الْحَقَّ جَلُّ جَلَالِهِ، سَبَّحَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَوَحَّدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَإِلَى هَذَا، أَشَارَ الْهَرَوِيُّ، حِينَ سُئِلَ عَنِ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ بِقَوْلِهِ:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ	فَكُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاوِدٌ
وَتَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ	تَثْنِيَّةُ ابْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ	وَتَوْحِيدُ غَيْرِهِ لَاجِدُ

وإلى هَذَا الْمَعْنَى، أَشَارَ الشُّشْتَرِي بِقَوْلِهِ:

إِنَّا بِاللَّوْنِ نَطُوقُ وَمِنَ اللَّوْنِ نَسْمَعُ

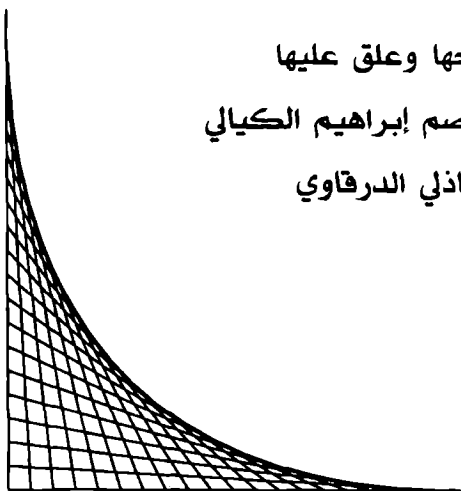
وهذه نتيجة محبة الحق للعبد، لقوله: «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَهُ»^(١). وَمَعْنَى كَلَامِ الشَّيْخ: فَصَلَ اللَّهُم بِهِ، لَا بِنَفْسِي، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ، قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ صَلَاةَ الْمُصَلِّينَ عَلَيْكَ فَمَنْ يَأْتِي بِعَدِكَ، مَا حَالَتْهُمْ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: «أَمَّا أَهْلُ الْمَحَبَّةِ فَاسْمَعُ صَلَاتَهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ، وَتُعَرِّضُ عَلَيَّ صَلَاةَ غَيْرِهِمْ عَرْضًا». وَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ؛ هُم أَهْلُ الْفَنَاءِ، الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَى سِرِّهِ، وَيُشَاهِدُونَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، كَمَا قَالَ الْمُزْسِي وَغَيْرُهُ؛ وَهُم أَهْلُ الْجَمْعِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْفَرْقِ، فَتُعَرِّفُ صَلَاتَهُمْ عَلَيْهِ عَرَفًا. وَقَوْلُهُ: مِنْهُ عَلَيْهِ؛ أَيُّ وَتَكُونُ تِلْكَ الصَّلَاةُ صَادِرَةً مِنْهُ، وَارِدَةً عَلَيْهِ، بِلَا وَاسِطَةٍ أَحَدٍ، فَالْعَارِفُ لَمْ تَبْقَ لَهُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَلْ يَأْخُذُ الْأَشْيَاءَ مِنْ مَعَادِينِهَا، فَالْحَقِيقَةُ يَأْخُذُهَا مِنْ مَعَادِينِهَا؛ وَهُوَ شُهُودُ الذَّاتِ الْأَقْدَسِ، بِلَا وَاسِطَةٍ حَسَّ الْأَكْوَانِ، بَلْ تُنْمَحَى الْأَكْوَانُ، وَتُنْمَحَى مِنْ نَظَرِهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا الْمَكُونُ، وَيَأْخُذُ الشَّرِيعَةَ مِنْ مَعَادِينِهَا؛ وَهِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ إِنْ كَانَ أَهْلًا، وَإِلَّا اسْتَفْتَى قَلْبَهُ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: الصُّوفِي لَا مَذْهَبَ لَهُ؛ أَيُّ لَا يَقْلُدُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ.

وَالسَّلَامُ: هُوَ التَّائِمُنْ، أَيُّ أَمَنَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُهُ عَلَى أَمْنِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْحَبِيبِ الْمَحْبُوبِ، وَالشَّفِيعِ الْمُقَرَّبِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اهـ.

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

سلك الدرر
في ذكر القضاء والقدر

لسيدي أحمد بن عجيته
رضي الله عنه



ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ، الْعَالِمُ الْعَارِفُ بِرَبِّهِ، الْكَامِلُ الصُّوفِي، الْوَلِيُّ الصَّالِحُ الْوَاضِل: أَبُو الْعَبَّاسِ، سَيِّدِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَجِيبَةَ الْحَسَنِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَفَعَنَا بِرَّكَاتِهِ آمِينَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْمَلِكِ الْقَدِيرِ، الْمُتَفَرِّدِ بِالْإِيجَادِ وَالتَّذْيِيرِ؛ الَّذِي أَبْدَعَ الْأَشْيَاءَ وَأَتَقْنَهَا عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ التَّقْدِيرِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ، وَالسَّرَاجِ الْمُنِيرِ، وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ، الَّذِينَ قَرَرُوا شَرِيعَتَهُ الْمَطْهُرَةَ أَيُّ تَقْرِيرِ.

وَبَعْدُ: فَبَخَّرُ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ، بَحْرٌ عَمِيقٌ، لَا يَخُوضُهُ إِلَّا أَهْلُ التَّحْقِيقِ، وَلَا يَقُودُهُ إِلَّا ذُو الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ. هَذِهِ تَبْذُةٌ يَسِيرَةٌ، تَعِينُ عَلَى الْخَوْضِ فِيهِ، تَسْكُنُ الْقُلُوبَ لِلرَّضَى بِمَجَارِيهِ. حَمَلَنِي عَلَيْهِ، أَنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. قَدْ ضَلَّ عَنْهُ وَأَضَلَّ، وَجَعَلَ يَدَافِعُ الْمَقَادِيرَ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْحِيلِ، وَقَدْ قِيلَ: زَلَّةٌ عَالِمٍ يَضِلُّ بِهَا عَالَمٌ. فَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ زَمَنَ الْوَبَاءِ، يَأْمُرُونَ بِغُلْقِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَيَفْرُونَ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى الْمَرْضَى خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ، وَهَذَا الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى تَقْيِيدِ هَذَا التَّأْلِيفِ، فَلَا عِزَّةَ بَعْلَمِ الْأَوْرَاقِ، إِذَا لَمْ يُوَيْدَهُ التَّوَجُّدَانُ وَالْأَذْوَاقُ. فَالْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قَنَاعُهُ، وَيَنْبَسِطُ فِي الصَّدُورِ أَنْوَارُ الْيَقِينِ وَشِعَاعُهُ، وَيَدُورُ عَنِ الْقَلْبِ الشَّكُّ وَالْاضْطِرَابُ، وَتَحْصُلُ لَهُ الطَّمَأْنِينَةُ بِشُهُودِ الْأَرْبَابِ، فَمَنْ لَا يَقِينُ عِنْدَهُ وَلَا تَحْقِيقَ، فَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا هِدَايَةَ وَلَا تَوْفِيقَ، فَشَاهِدِ الْعِلْمَ الْعَمَلَ. وَشَاهِدِ الْعَمَلَ الصَّحِيحَ هُوَ الْحَالُ. وَشَاهِدِ الْحَالَ هُوَ الذُّوقُ، وَغَايَةُ الذُّوقِ الشُّكْرُ؛ وَهُوَ

الغِيَّةَ عَمَّا سِوَى الْحَقِّ، وَغَايَةَ الشُّكْرِ الصَّحْوُ؛ وَهُوَ شُهُودُ الْآثَارِ بِالْحَقِّ، وَمِيزَانُ هَذَا هُوَ الْيَقِينُ، وَالشُّكُونُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَهُوَ السُّكُونُ عِنْدَ مُجَارِي الْأَقْدَارِ، وَتَزَكُّ الْخَوْضِ بِالتَّدْبِيرِ، وَالْإِخْتِيَارِ، وَالرِّضَى بِمَا يَبْرُزُ مِنْ عُثْصُرِ الْأَقْدَارِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَحْكَامِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَيَنْحَصِرُ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا التَّأْلِيفِ فِي خَمْسَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: في حقيقة القدر، وما يتعلق به. الباب الثاني: في الاستدلال عليه من الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح، ومن طريق الكشف. الباب الثالث: في بيان الحكمة التي هي كالرداء للقدر والقضاء، وبيان القدرية التي بها يقع الإظهار والإضمار. الباب الرابع: في إبطال العدوى والطيرة. الباب الخامس: في اكتساب اليقين، وذكر مواده ومواطنه.

وَسَمَّيْتُهُ سَلَكَ الدَّرَرِ فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: نَسَّأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رَبَّنَا، أَنْ يَنْقَعَ بِهِ مَنْ كَتَبَهُ، أَوْ كَسَبَهُ، أَوْ سَمِعَهُ، أَوْ طَالَعَهُ، بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ، وَأَنْ يُلْقِحَ فِي قَلْبِنَا وَقَلْبِهِ أَنْوَارَ الْيَقِينِ، وَيُشْرِقَ فِي سَمَاءِ أَسْرَارِنَا شَمْسُ الْعَارِفِينَ، بِجَآءِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَقُدْوَةِ الْمُرْتَبِينَ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدَ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَطْهَرِينَ.

البَابُ الْأَوَّلُ:

فِي تَفْسِيرِ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ؛ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ

الْقَدَرُ بِتَحْرِيكِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِهَا، مُصْدَرٌ، قُدِّرَتِ الشَّيْءُ إِذَا أَحْطَتْ بِمَقْدَارِهِ؛ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَعَلُّقِ عَيْنِ عِلْمِ اللَّهِ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَجُودِهَا؛ فَلَا يَظْهَرُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ شَيْءٌ مِنَ الْخِلَاقِ، إِلَّا وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ السَّابِقِ، وَلَا يُصْدِرُ مِنْ خَلْقِهِ قَوْلَ وَلَا فِعْلَ، وَلَا حَرَكَةَ وَلَا سَكُونًا، إِلَّا وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ كَيْفَ يَكُونُ، فَأَيَّامَ الْعَبْدِ مُحْصُورَةٍ، وَأَنْفَاسِهِ مَعْدُودَةٍ، وَخَطَوَاتِهِ مَكْتُوبَةٍ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

مَشَيْتَاهَا خَطَى كَتَبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ خَطَى مَشَاهَا

وَمَنْ قَسَمَتْ مَنِئْثَهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ بِأَرْضٍ سِوَاهَا

وما مثل العبد مع القدر السابق، إلا كالصبي الذي يتبع التحنيط، الذي

حُشِّه له الفقيه، فإذا كَمُلَ التَّخْنِيشُ الذي حُشِّه له الْعِلْمُ الْأَزَلِيُّ، على ما سبق به القدر والقضاء، رحل إلى مَوْلَاهُ. فالواجب على الْعَبْدِ أَنْ يَسْكُنَ تحت مجاري الْأَقْدَارِ، وينظر إلى ما يفعل الواحد القهار، فالقدر والقضاء والإرادة والمشية، شيء واحد عند أهل السُّنَّةِ، ومَرْجِعُهَا إِلَى سَبْقِ الْعِلْمِ الْأَزَلِيِّ بِالأَشْيَاءِ قَبْلَ ظُهورِهَا. ويستمرِّ العلم بها بعد ظهورها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ ۝﴾ [الحجر: ٢٤]. فتقول على هذا، قَدَّرَ اللهُ كَذَا، وقضاه وأراده، وشاءه بمعنى واحد. وأما الرُّضَى والمحبَّة في حقِّه تعالى، فهما أَخَصُّ مِنَ الإرادة والمشية؛ لاختصاص الرُّضَى والمحبَّة بالطاعة دون المعصية، فالطاعة قَدَّرَهَا وأرادها ورضيَّهَا. والمعصية قَدَّرَهَا وأَرَادَهَا وَلَمْ يَرْضَها، ولم يحبها شرعاً، هذا مقتضى الأدب، والله تعالى أَعْلَمُ.

البَابُ الثَّانِي

في الاستِذْلَالِ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَلَامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ

أما الاستِذْلَالُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝﴾ [الفرق: ٤٩] أي كل شيء أBRZNَاهُ هُوَ بِقَدَرٍ سَابِقٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. [الأنفال: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [الحديد: ٢٢]. أَيْ مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ مُصِيبَةٍ مِنْ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ فِي الْأَرْضِ بِالْجَدْبِ وَالْقَحْطِ، أَوْ الْعُرْقِ، وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ بِالْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ، إِلَّا فِي كِتَابٍ؛ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، أَيْ نَظَرَهَا.

ثم قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] لِأَنَّهُ أَمْرٌ قَدَرٌ فِي أَزَلِهِ، أَنَّهُ لَا يَكُونُ، أَوْ لَا يَدُومُ، فَلَا تَخْزَنُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ، أَوْ انْقَضَى أَجَلُهُ عِنْدَكَ. ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] لِأَنَّهُ سَبَقَ قَبْلَ ظُهورِهِ أَنَّهُ لَكُمْ، وَأَنَّهُ وَاجِبٌ إِنْثَائُهُ إِلَيْكُمْ، وَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْاِغْتِدَالُ فِي الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ، وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالْفَقْدُ وَالْوُجْدُ، وَالذَّلُّ وَالْعِزُّ، وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى، وَالصَّحَّةُ

والمَرَضُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَانْتِقَالَاتِ الْأَطْوَارِ، إِذْ جَمِيعُ ذَلِكَ، قَدْ جَرَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ، فَلَا يُظْهِرُ الْحُزْنَ عَلَى شَيْءٍ قَاتٍ وَلَا يُظْهِرُ الْفَرْحَ بِشَيْءٍ آتٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] أَيْ أَجَلًا مَعْلُومًا، وَوَقْتًا مَحْدُودًا. لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ لِحِظَةٍ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ سَاعَةٌ، وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ أَجَلِ الْمَوْتِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. أَيْ مُقَدَّرًا مَحْدُودًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. فَالْأَوَّلُ لِلْمَوْتِ. وَالثَّانِي لِلْبَعْثِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَنبَاءِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] أَيْ لِيَبْلُغَ الْمَتَيْقِظَ آخِرَ أَجَلِهِ الْمُسَمًّى عِنْدَ اللَّهِ فِي أَزْلِهِ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ [الأنعام: ٦١] أَيْ لَا يَتَجَاوَزُونَ مَا حُدِّدَ لَهُمْ مِنَ الْأَجَلِ. بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] أَيْ إِذَا جَاءَ مَوْتُهُمْ، بِالْعَذَابِ أَوْ بِغَيْرِهِ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعْمَّرُ مِنْ أُعْمَرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وَمَعْنَى الْآيَةِ، وَمَا يُعْمَّرُ مِنْ أَحَدٍ. أَيْ يُجْعَلُ عُمرُهُ طَوِيلًا، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ: أَيْ يُجْعَلُ عُمرُهُ قَصِيرًا إِلَّا فِي كِتَابٍ، أَيْ فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ، فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ شَخْصَيْنِ، أَحَدُهُمَا عُمُرٌ طَوِيلًا، وَالْآخَرُ نَقْصٌ مِنْ عُمرِهِ فِي أَجَلِهِ. فَكَانَ عُمرُهُ قَصِيرًا. كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

وَقِيلَ النِّقْصُ مِنَ الْعُمُرِ، بِاعْتِبَارِ عِلْمِ الْمَلَائِكَةِ فَإِذَا وَصَلَ رَجَمَهُ مِثْلًا، ظَهَرَتِ الزِّيَادَةُ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا عُمُرٌ وَاحِدٌ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمُوتُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]. فَمَعْنَاهُ: يَمُوتُ مَا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَيُثَبِّتُ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ أُمُّ الْكِتَابِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٧] هُوَ الَّذِي يُتَوَفَّى وَيُثَبِّتُ [غافر: ٦٧، ٦٨] الْآيَةِ، أَيْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ الشَّيْخُوخَةِ، وَيُوَخَّزُكُمْ لَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى، سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ الْقَدِيمُ. وَسَطَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَفَتَ

نَفَخَ الرُّوحَ، وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. فَتَعْرِفُونَ أَنَّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ. أَيُّ لَا تَأْثِيرَ لشيءٍ من الأسبابِ فِي الْمَوْتِ. كَالْوَبَاءِ وَغَيْرِهَا. بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨] أَيُّ لَا غَيْرَهُ، ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُكَ﴾ [غافر: ٦٨] من مَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤٠] فهذه الآيات صريحة في تحديد الأجل، وتقديره في الأزل. فَلَا يَتَأَخَّرُ وَلَا يَتَعَجَّلُ، لَا بِوَبَاءٍ وَلَا بِغَيْرِهَا. فَلَيْسَ كُنَّ الْإِنْسَانُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يَفْعَلُ رَبُّهُ بِهِ، فَلَا يَخَافُ وَلَا يَخْذَرُ، إِذْ لَا يَنْتَفِعُ خَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ.

وَأَمَّا الْاسْتِذْلَالُ بِالسُّنَّةِ: فَقَالَ لَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: اخْفِظِ اللَّهَ يَخْفِظَكَ، اخْفِظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ، يَغْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»^(١). زَادَ فِي رِوَايَةٍ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَ الصَّحْفُ، أَيُّ مَا أَخْطَاكَ فِي الْأَزْلِ، بَحِثْ لَمْ يَكْتُبْ لَكَ، لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبِكَ أَبَدًا، خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، وَمَا أَصَابَكَ فِي الْأَزْلِ، بَحِثْ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا: حَيَاةً أَوْ مَوْتًا، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جُفِّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»^(٢) الْحَدِيثُ. وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْرُ وَالْكَيْسُ». رَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّزْقَ

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، حَدِيثَ رَقْمٍ (٦٣٠٤) [٣/

٦٢٤] وَالْقُضَاعِيُّ فِي مُسْنَدِ الشَّهَابِ، حَدِيثَ رَقْمٍ (٧٤٥) [١/٤٣٤] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، بَابُ مَا يَكْرَهُ مِنَ التَّبَتُّلِ وَالْخِصَاءِ، حَدِيثَ رَقْمٍ (٤٧٨٦)

[١٩٥٢/٥]. وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ، مِنْ اسْمِهِ مُحَمَّدٌ، حَدِيثَ رَقْمٍ (٦٨١٤)

[٦٨١٤] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا.

ليطلب العبد كما يطلبُه أَجَلُهُ»^(١) الحديث. وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نَفْطَةٍ، يَا رَبِّ عَلَقَةٍ، يَا رَبِّ مَضْغَةٍ»^(٢) فإذا نفخ فيه الروح. قال: يا رب ما الرزق. وما الأزل؟ شقي أم سعيد. فيكتب ذلك في بطن أمه كله. أو كما قال عليه السلام، رواه البخاري ومسلم، وقال ﷺ في تفسير حقيقة الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». زَادَ فِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ: حُلُوهُ وَمُرُّهُ، فَالْخَيْرُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْإِحْسَانُ. وَالشَّرُّ: هُوَ الْكُفْرُ.

الحُلُوهُ: مَا يُلَاتِمُ الْإِنْسَانَ، كَالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ. وَأَنْوَاعُ الْجَمَالِ. وَالْمُرُّ: كُلُّ مَا يُؤْلِمُ الْإِنْسَانَ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ، وَالذُّلَّ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْجَلَالِ.

فكل هذا سبق به القضاء والقدر، فمن شك في هذا، فهو كافر إجماعاً، ومن اعتقده علماً، ولم يرض به عند نزوله ذوقاً فهو فاسق إجماعاً. ولذلك قال مالك رضي الله عنه: مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ، فَقَدْ تَفَسَّقَ. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «مَنْ لَمْ يَتَغَلَّغَلْ فِي عِلْمِنَا هَذَا مَاتَ مُصِيراً عَلَى الْكِبَائِرِ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَصْحَبْ أَهْلَ الصُّفَا، لَا يَطْمَعُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالصُّفَا. وَالصُّفَا هُوَ الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ بِكُلِّ مَا يُبْرَزُ مِنْ عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ» وقال عليه السلام: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ، نَفَثَ فِي رُوحِي، إِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(٣). وقال عليه السلام: «فَرَّغَ رَبُّكَ مِنْ أَرْبَعٍ: خَلْقِي، وَخُلُقِي، وَرِزْقِي، وَأَجَلِي» رواه الطبراني في الأوسط. وفي رواية أحمد: «فَرَّغَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ خَمْسٍ: مِنْ أَجَلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَآثَرِهِ،

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، [باب] ذكر الإخبار عما يجب على المرء من قلة...، حديث رقم (٣٢٣٨) [٣١/٨] ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن كثير من تفسيره، قوله تعالى «أنشأناه خلقاً آخر». [٢٤٢/٣] وفيه «أي رب» بدل يا رب» ورواه بلفظة أبو نعيم الأصبهاني، [ترجمة] حماد بن زيد، [٢٦٠/٦].

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب، (٧٢٨ إن روح القدس...)، حديث رقم (١١٥١) وعبد الرزاق في مصنفه، باب القدر، حديث رقم (٢٠١٠٠) ورواه غيرهما.

وَمُضْجِعُهُ، وشقي أو سعيد» والمُرَاد بالأثر: الخطوات التي يَمْشِيهَا، فإنَّهَا مكتوبة كما قدمنا. فقد قُسِّمَتِ الْأَرْزَاقُ فِي الْأَزَلِ: الْحَسَنَةُ وَالْمَغْنُونَةُ، كما قَسَمَتِ الْأَجَالَ وَالْخَطَوَاتُ، كَذَلِكَ الْمَرَاتِبُ وَالْمَقَامَاتُ، كُل ذَلِكَ جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: فَفِيمَ الْعَمَلِ؟ قَالَ ﷺ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مِيسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَسِرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَسِرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قرأ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَيَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ۝﴾^(١) [الليل: ٥، ١٠] فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الْقَدَرُ جَرَى بِمَا يَكُونُ، وَلَا مُحِيدَ لِلْعَبْدِ عَنْهُ، فَعَلَامَ يَحَاسِبُ الْعَبْدَ وَيُعَذِّبُ؟ قُلْتَ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ الْبَاهِرَةِ فِي الْعَبْدِ كَسْبًا فِيمَا يَظْهَرُ لَهُ، يُقْصَدُ بِهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَفِي الْحَقِيقَةِ: هُوَ مَجْرُورٌ بِسِلْسَلَةٍ، لَكِنِ الشَّرِيعَةُ تَنْسِبُ الْفِعْلَ إِلَيْهِ، بِسَبَبِ ذَلِكَ الْكَسْبِ، فَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٤٩]. قَالَمُلِكُ مَلِكُهُ، وَالْعَبِيدُ عَبِيدُهُ، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وَكَذَلِكَ أَمْرُ الرِّزْقِ، هُوَ مُقَسَّمٌ فِي الْأَزَلِ، مَضْمُونٌ بِكَفَالَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ، تَغْطِيَةَ أَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَفَرَّقَتْهُ بَوْجُودِ السَّبَبِ عِنْدَهُ، لَا بِهِ. فَلَا بُدَّ مِنْهُ وَجُودًا، وَالْعَيْنَةُ عَنْهُ شُهُودًا. نَعَمْ مَنْ تَحَقَّقَ بِالتَّقْوَى، وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ، رَزَقَهُ بِلَا سَبَبٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِلنَّاسِ أَسْبَابٌ، وَسَبَبُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، ثُمَّ قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الْآيَةِ. وَسَيَأْتِي زِيَادَةُ بَيَانٍ، فِي الْكَلَامِ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْقُدْرَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَأَمَّا كَلَامُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْقَدَرِ: فَمِمَّا اشْتَهَرَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ رَبَّنَا لَمْ يَكُنْ. وَقِيلَ: إِنَّهُ حَدِيثٌ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، بَابُ كَيْفِيَةِ الْخَلْقِ الْآدَمِيِّ، بَابُ قَوْلِهِ وَكَذَبَ بِالْحَصَنِ حَدِيثُ رَقْمٍ (٤٦٦٦) [١٨٩١/٤] وَرَوَاهُ غَيْرُهُ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصْبَحْتُ وَمَا لِي سُرُورٌ إِلَّا فِي مَوَاقِعِ الْقَدَرِ. وقيل لبعضهم: مَا تَسْتَهِي؟ قَالَ: مَا يَقْضِي اللَّهُ. وقال ابن عطاء الله فِي الْحَكَمِ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُبْذِرُهُ، إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يَمْضِيهِ». وقال أيضاً: «كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقِ، سَبِياً فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟ جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ، أَنْ يُضَافَ إِلَى الْعِلَلِ عِنَايَتُهُ فِيكَ، لَا لَشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ؟ حِينَ وَاجِهْتَكَ عِنَايَتَهُ وَقَابَلْتَكَ رِعَايَتَهُ. لَمْ يَكُنْ فِي أَزْلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ، وَلَا وَجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَخْصَصُ الْإِفْضَالِ، وَوُجُودُ النَّوَالِ»، يَغْنِي أَنْ قَضَاءَهُ لَكَ، السَّابِقِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، هُوَ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَمَلٌ تَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَطَاءَ، وَلَا حَالٌ، تَسْتَحِقُّ بِهِ التَّقْرِيبَ، أَوْ الْوُصُولَ، وَإِنَّمَا أَعْطَاكَ فَضْلاً مِنْهُ وَجُوداً، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ فِي النَّظَرِ إِلَى الْقَضَاءِ السَّابِقِ، وَالْحَكْمِ اللَّاحِقِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: قَسَمٌ نَظَرُوا إِلَى الْعَوَاقِبِ، لَعَلَّهُمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا. وَقَسَمٌ نَظَرُوا لِلْوَقْتِ، لَمْ يَسْتَغْلُوا بِالسَّوَابِقِ، وَلَا بِالْعَوَاقِبِ، غَيْرَ آدَاءٍ مَا كَلَفُوا بِهِ مِنْ حُكْمِ الْوَقْتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الْفَقِيرَ ابْنَ وَقْتِهِ، لَا يَرَى غَيْرَ الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَقَسَمٌ نَظَرُوا لِلَّهِ وَخَذَهُ، لَعَلَّهُمْ أَنَّ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَالِ، مُتَقَلَّبُونَ فِي قَبْضَةِ الْحَقِّ، مُتَصَرِّفُونَ بِحُكْمِهِ، وَالْأَوْقَاتُ كُلُّهَا قَابِلَةٌ لِلتَّغْيِيرِ، وَتَبْدِيلِ الْحَالِ، فَلَا يَرَوْنَهَا، وَإِنَّمَا يَشَاهِدُونَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ؛ وَهَذَا الْقَسَمُ قَدْ اسْتَرَّاحَ مِنْ كَدَرِ التَّنْذِيرِ، لَغَيْبَتِهِ عَنْ شُهُودِ الْمُدَبِّرِ، عَنْ سَابِقِ التَّقْدِيرِ، بِخِلَافِ الثَّلَاثِ الْأَوَّلِ، قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ شُهُودُ الْفَرَقِ. فَلِأَوَّلُ: أَذْهَلَهُ خَوْفُ السَّوَابِقِ. وَالثَّانِي: أَذْهَشَهُ خَوْفُ الْعَوَاقِبِ وَالْخَوَاتِمِ. وَالثَّالِثُ: غَشِيَهُ حُكْمُ الْوَقْتِ، وَشُهُودُ أَحْكَامِهِ، عَنْ شُهُودِ الْمَوْقِ. وَالرَّابِعُ: لَمَّا كُشِفَ عَنْهُ الْحِجَابُ، وَشَهِدَ رَبَّ الْأَرْبَابِ، شَغَلَهُ شُهُودُ وَاحِدٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يُشْغَلْهُ عَنْ اللَّهِ شَيْءٌ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: الصُّوفِيُّ مَنْ لَا يَرَى فِي الدَّارَيْنِ غَيْرَ اللَّهِ؛ وَلَا يُشَاهِدُ مَعَ اللَّهِ سِوَاهُ. قَدْ سُخِّرَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَمْ يُسَخَّرْ هُوَ لِشَيْءٍ، يَضْفُو بِهِ كَدْرُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكْدُرْ صَفْوَةُ شَيْءٍ، شَغَلَهُ وَاحِدٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يُشْغَلْهُ عَنْ الْوَاحِدِ شَيْءٌ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ أَرَادَ الرَّاحَةَ الدَّائِمَةَ، فَلْيَنْظُرْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَيَنْظُرْ فِي

كل وقت ما يترز من عند الله، ويسكن تحت مجاري الأقدار له، ولينعزل عن تدبيره واختياره، ويتأمل ما قاله القطب سيدي يقوت العرشي:

مَا نَمَّ إِلَّا مَا أَرَادَ فَاتْرُكْ مُمُومَكَ وَانْطَرِخْ وَاتْرُكْ شَوَاعِلَكَ الَّتِي اشْتَغَلَتْ بِهَا عَنْهُ تَشْرِخْ
وَأَمَّا دَلِيلُهُ مِنْ طَرِيقِ الْكُشْفِ وَالْوُجْدَانِ: إِنَّ مَنْ رَقَّ حِجَابُهُ، وَتَلَطَّفَتْ
بَشَرِيَّتُهُ، يُطْلِعُهُ اللَّهُ تَعَالَى، عَلَى مَوَاقِعِ الْأَقْدَارِ، قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ، إِمَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِهَا
فِي الْيَقَظَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَرَاهَا فِي النَّوْمِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ
جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءً مِنَ النَّبُوءَةِ، إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ، لَا تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ
تُخْطِئُ»^(١). وقد تحققنا هذا الأمر مِنْ أَنْفُسِنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا أَمْرٌ
جَلَالِي، أَوْ جَمَالِي، إِلَّا نَرَاهُ قَبْلَ نُزُولِهِ بِمُدَّةٍ. مِنْهُ مَا تَطُولُ مُدَّتُهُ، وَمِنْهُ مَا
تَقَرُّبُ، فَتَنْتَظِرُ وَقُوعَهُ، كَمَا يَنْتَظِرُ الْعَايِبُ الْقَادِمَ مِنْ سَفَرِهِ، فَإِذَا نَزَلَ، وَجَدَ
الْقَلْبَ قَدْ اسْتَعَدَّ لِنُزُولِهِ، وَتَوَطَّنَ لِهَجُومِهِ، فَلَا تَحْرَكُهُ صَدْمَاتُهُ، وَلَا تُدْهِشُهُ
وَارِدَاتُهُ، فَتَحَقَّقْنَا ذَوْقًا وَكُشْفًا: أَنَّ الْمَقَادِيرَ جَرَتْ فِي الْأَزَلِ، وَتَعَيَّنَتْ أَوْقَاتُهَا
وَمَقَادِيرُهَا، لَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ، لَكِنْ مِنْ حِكْمَةِ الْحَكِيمِ، أَنْ عَطَى هَذَا السَّرَّ
بِرْدَاءِ الْحِكْمَةِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَيُنْزِلُ الْقَدْرَ فِي وَقْتِهِ الَّذِي تَعَيَّنَ لَهُ فِي
الْأَزَلِ، وَيُعْطِيهِ بِوُجُودِ سَبَبِهِ، فَيُقَالُ: فُلَانٌ فَعَلَ كَذَا، فَجَرَى لَهُ كَذَا، وَفُلَانٌ
مَشَى إِلَى مَوْضِعِ الْوَبَاءِ مَثَلًا، فَمَاتَ بِهَا، أَوْ نَقَلَهَا إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَالْوُقُوفُ
مَعَ هَذَا، دُونَ النَّظَرِ إِلَى بَاطِنِ الْأَمْرِ وَتَضْرِيفِ الْقُدْرَةِ، حِجَابٌ غَلِيظٌ، وَجَهْلٌ
قَبِيحٌ، رُبَّمَا يُوَدِّي إِلَى الْكُفْرِ إِنْ اعْتَقَدَ التَّأْيِيرَ، وَاتَّكَرَ الْقَدَرَ، وَهُنَا زَلَّتْ أَقْدَامُ
كَثِيرٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا رَسْمُهُ، وَالْإِخْبَارُ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ،
أَمْرٌ مُتَوَاتِرٌ، مِنْهَا مَا كَانَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
[المائدة: ٩]. قَبْلَهُمْ وَقَدْ مَكَّنَ اللَّهُ الصَّحَابَةَ، مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،

(١) روى نحوه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم ١، حديث رقم (٩٥٥) [٢٩١/١] ونصه: «إذا تقارب الزمان لم تكدر رؤيا المؤمن تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه، والاحتلام من الشيطان؛ فإذا رأى أحدكم ما يكره فلا يحدث به».

وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الرؤم: ٢٢] وَقَدْ غَلَبُوا فَارِسَ زَمَانَ الْحَذِيْبِيَّةِ، وقوله تعالى: ﴿لَتَنفَعَنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَائِمَتِ الْمُحَلِّقِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وَقَدْ وَقَعَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَأَمَّا إِخْبَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمُعْتَبَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، فَلَا تَكَاذُ تُخْصَى، وَقَدْ حَذَّرَ ﷺ، مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهُ، كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، فَوَقَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَقَدْ وَجَدَ مَكْتُوباً بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى جِدَارِ قَصْرِ دَارِسٍ مَا نَصُّهُ:

مَا لَا يُقَدَّرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتَعَبٌ مَحْزُونُ
هُوَ عَلَىكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَائِقًا فَأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

فَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ تَبَرُّزُ اتِّفَاقِيَّةً، كَمَا تَقُولُهُ الرُّوَافِضُ وَالْقُدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لَمْ يَقَعِ الْإِخْبَارُ بِهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَقَعُ كَذَلِكَ، فَإِنْ قُلْتَ: مَا ذَكَرْتُهُ إِخْبَارًا بِمَعْلُومٍ، إِذَا الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَقْرَءُونَ هَذَا، قُلْتَ: لَيْسَ مُرَادُنَا الْاِكْتِفَاءُ بِمَجَرَّدِ الْعِلْمِ، بَلْ مُرَادُنَا تَرْبِيَةَ الْيَقِينِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ مَا يَقْوِيهِ مَطْلُوبٌ، وَهُوَ جُنْدٌ مِنَ جُنُودِ الْأَنْوَارِ؛ وَهُوَ التَّوْفِيقُ؛ وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

البَابُ الثَّالِثُ:

فِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ وَالْقُدْرَةِ

إِعْلَمْ فَهَمَكَ اللَّهُ سَبِيلَ رُشْدِهِ، وَجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِ مَحَبَّتِهِ وَوُدِّهِ، أَنْ بَخَرَ الْحِكْمَةَ بَخَرُ زَاخِرٍ، وَأَمَرَ ظَاهِرٍ، يُظْهِرُ الْأَسْبَابَ، وَيُسْدِلُ الْحِجَابَ، وَيَصُونُ السِّرَّ الْمَصُونُ، وَيَسْتُرُ الْكَثْرَ الْمَدْفُونُ، يَرْبِطُ الْأَحْكَامَ بِالْعِلَلِ، وَيُتَقَرَّرُ الشَّرَائِعُ وَالْمِلَلُ، يُعْطِي مَا يَنْبَرُزُ مِنْ عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، وَيَسْتُرُ مَا يَبْدُو مِنْ أَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِعِزِّ كِبَرِيَّائِهِ، يَصُونُ الْحَقِيقَةَ، وَيُظْهِرُ الطَّرِيقَةَ، يُظْهِرُ الْعُبُودِيَّةَ، وَيُبْطِنُ أَسْرَارَ الرُّبُوبِيَّةِ، مَنْ وَقَفَ مَعَهُ كَانَ مُحْجُوباً، وَمَنْ نَفَذَ مِنْهُ إِلَى شُهُودِ الْقُدْرَةِ كَانَ مُحْجُوباً، وَبِالْعَايَةِ مَصْحُوباً، وَبَخَرَ الْقُدْرَةَ أَيْضاً بَخَرُ زَاخِرٍ، وَأَمَرَهُ قَاهِرٍ، لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ، يَظْهَرُ وَيَبْطُنُ، وَيَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ، يُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيُخْفِضُ وَيَرْفَعُ، بِيَدِهِ مَقَادِيرُ الْأُمُورِ؛ وَعَلَى قُطْبِ دَائِرَتِهِ أَفْلَاقُ التَّصَارِيفِ تَدُورُ، فَإِذَا أَرَادَتْ الْقُدْرَةُ أَنْ تُظْهِرَ شَيْئاً مِنْ بَخَرِ الْقَدْرِ؛ الَّذِي سَبَقَ فِي الْأَزَلِ، عَطْنَتْهُ الْحِكْمَةُ بِرَدَائِهِ

الأسباب والعِلَل؛ لِيَتَقَيَّ الْكَثْرُ مَذْقُونًا، وَسِرُّ الرُّبُوبِيَّةِ مَصُونًا، وَتُظْهِرُ مَزِيَّةَ الْعَارِفِ عَلَى الْجَاهِلِ، وَيَتَمَيَّزُ الْبَاعِدُ مِنَ الْوَاصِلِ، وَالْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ، الْعَارِفُ الَّذِي لَا يَرَى إِلَّا تَصْرِيفَ الْقُدْرَةِ، وَيَعْرِفُ سِرَّ الْحِكْمَةِ، فَلَا يَحْجُبُ بِهَا عَنْ شُهُودِ الْقُدْرَةِ، وَالْجَاهِلُ يَقِفُ مَعَ شُهُودِ الْحِكْمَةِ، وَيَحْجُبُ بِهَا عَنِ الْقُدْرَةِ، الْعَارِفُ نَقْذَ إِلَى شُهُودِ اللَّبِّ الْخَالِصِ، وَالْجَاهِلُ وَقَفَ مَعَ الْقَشْرِ الظَّاهِرِ الْيَبَسِ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾. [الزمر: ٩].

الْعَارِفُ نَظَرَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، فَرَزَالَ عَنْهُ الْحِجَابُ، وَدَخَلَ مَعَ الْأَخْبَابِ، وَالْجَاهِلُ وَقَفَ مَعَ قَشْرِ الْأَسْبَابِ، وَقَنَّعَ بِالْوُفُوفِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، الْعَارِفُ مَوْصُوفٌ بِالْإِقْرَارِ فِيمَا يَبْدُو مِنْ نَوَازِلِ الْأَقْدَارِ، وَالْجَاهِلُ مَرْسُومٌ بِالْإِنْكَارِ لِمَا يَظْهَرُ مِنْ حَضْرَةِ الْقَهَّارِ، الْعَارِفُ يَتَلَقَّى مَا يَبِيرُزُ مِنْ غُنْصَرِ الْقُدْرَةِ، بِالْفَرَجِ وَالسُّرُورِ، لَشُهُودِهِ مَا بِيَدِهِ قُدْرَتِهِ تَصَارِيفُ الْأُمُورِ، وَالْجَاهِلُ مِنْ خُصَّامِ الْحَقِّ دَائِمًا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: «مَنْ عَامَلَ النَّاسَ بِالشَّرِيعَةِ، طَالَ خِصَامُهُ مَعَهُمْ، وَمَنْ عَامَلَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ عَذَّرَهُمْ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَعَامِلَهُمْ فِي الظَّاهِرِ بِالشَّرِيعَةِ؛ فَيَذْكُرُهُمْ، وَفِي الْبَاطِنِ بِالْحَقِيقَةِ فَيَعَذَّرُهُمْ، فَتَحْصُلَ مِنْ هَذَا، أَنَّ الْقُدْرَةَ تُبْرِزُ وَتُظْهِرُ، وَالْحِكْمَةَ تَغْطِي وَتَسْتَرُ، وَالْحِكْمَةُ عَيْنُ الْقُدْرَةِ، وَالْقُدْرَةُ عَيْنُ الْحِكْمَةِ، إِذِ الْفَاعِلُ وَاحِدٌ، فَاعِلُ السَّبَبِ؛ هُوَ فَاعِلُ الْمُسَبِّبِ، لَكِنْ لَا بُدَّ لِلشَّمْسِ مِنْ سَحَابٍ، وَلِلْحَسَنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، فَمَا أَظْهَرَتْهُ الْقُدْرَةُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ، سُمِّيَ حِكْمَةً، وَمَا أَبْطَنَتْهُ مِنَ الْإِبْجَادِ وَالْإِخْتِرَاعِ، سُمِّيَ قُدْرَةً، وَالْفَاعِلُ وَاحِدٌ، فَإِذَا سَبَقَ لِلْعَبْدِ شَيْءٌ مِنْ مَقْدُورَاتِ الْحَقِّ، جَلَالِيَّةٌ أَوْ جَمَالِيَّةٌ، وَوَصَلَ وَقْتُ نَزُولِ ذَلِكَ، حَرَّكَهُ اللَّهُ إِلَى سَبَبٍ فِي الْغَالِبِ، فَيَنْفِذُ ذَلِكَ الْمَقْدُورُ بِتَصْرِيفِ الْقُدْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، مُسْتَرْتَأً بِرِدَاءِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَالْجَاهِلُ يَقِفُ مَعَ قَشْرِ السَّبَبِ، وَالْعَارِفُ يَنْفِذُ إِلَى شُهُودِ مُسَبِّبِ ذَلِكَ السَّبَبِ، وَكَذَلِكَ إِذَا سَبَقَ فِي الْأَزَلِ، نَزُولُ بَلَاءٍ فِي بَلَدَةٍ، حَرَّكَهُمْ إِلَى سَبَبِ ذَلِكَ، رَغْمًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَمْضِيَ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١١). [١] وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرُ الْوَبَاءِ إِذَا سَبَقَ فِي قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، أَنْ يَنْزِلَ فِي مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ، فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ، جَعَلَ لِدَلِكِ الْحَقِّ بِحِكْمَتِهِ تَعَالَى سَبَبًا وَعِلَّةً، فَتَنْزِلُهُ الْقُدْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ

القديم، مسوراً بِرِداءِ الْحِكْمَةِ، وهو ذلك السَّبَب، لتظهر مزية الإيمان بِالْغَيْبِ؛
لأنَّ الدُّنْيَا دَارُ التَّكْلِيفِ، لا دار التعريف، بخلاف الآخرة. فيقول الجاهل: لَوْلَا
فُلَانٌ نَقَلَهُ مَا انْتَقَلَ. ويقول العارف: هَذَا مَا سَبَقَ فِي حُكْمِ الْأَزَلِ، كذلك إذا
نَقَلْتُهُ الْقُدْرَةُ إِلَى مَوْضِعِهَا ومات. يقول الجاهل: لَوْ لَمْ يَنْتَقِلْ مَا مَاتَ، هَذَا
اعتقاد من طبع الله على قَلْبِهِ مِنَ الْكُفَّارِ. وقد نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ التَّشْبِيهِ
بِهِمْ، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٩]. وَقَالَ اللهُ
أَيْضًا: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إلخ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ
عَلَى الْوَبَاءِ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللهُ. هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحِكْمَةِ وَالْقُدْرَةِ، لِمَنْ فَتَحَ اللهُ
بَصِيرَتَهُ، وبالله التَّوْفِيقُ، وَهُوَ الْهَادِي إِلَى سِوَاءِ الطَّرِيقِ.

البَابُ الرَّابِعُ:

فِي إِبْطَالِ الْعَدَوِي وَالطَّيْرَةِ

أَمَّا الْعَدَوِي: فهو انتقال الْمَرَضِ مِنْ مَحَلٍّ لِآخَرَ، كما يَزَعُمُهُ الْفَلَّاسِفَةُ،
وَالطَّبَّائِعِيُونَ؛ وهو باطلٌ عند أهل التوحيد. قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾
[الرعد: ١٦] وقال في شَأْنِ السُّحْرِ: ﴿وَمَا هُمْ بِصَّارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ ۝﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال تعالى: وهو حكمه ومشيئته، أَوْ قَدْرُهُ وَقَضَاؤُهُ. وقال
ﷺ: «لَا عَدَوِي وَلَا طَيْرَةَ، وَلَا صَفَرٍ وَلَا هَامَ»^(١). فمن اعتقد أنها تَعْدُو
بِطَبْعِهَا؛ فهو كَافِرٌ إِجْمَاعًا، وَمَنْ اعتقد أنها تَعْدُو بِقُوَّةٍ فِيهَا فهو عَاصٍ. وفي
كُفْرِهِ قَوْلَانِ. مَنْ اعتقد أنها تَعْدُو بِقُدْرَةِ اللهِ وَقَدْرِهِ عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ، وَسِيرِ
الْقُدْرَةِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ.

وَالْأَمْرَاضُ الَّتِي تَعْدُو عَنْهُمْ، هي: الْجَرَبُ، وَالْوَبَاءُ، وَالْجُذَامُ.

أَمَّا الْجَرَبُ فيكون في الإِبِلِ، وَالْعَنَمِ، وَالْكِلابِ وَالْآدَمِيِّ، وكل ذلك

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب الجذام، حديث رقم (٥٣٨٠) [٢١٥٨/٥] ومسلم في
صحيحه، حديث رقم (٥٣٨٠) [٢١٥٨/٥] ورواه غيرهما.

بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. قَدْ سَبَقَ فِي الْأَزَلِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِذَلِكَ الشَّخْصَ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ مَخْدُودٍ، لَا يَتَقَدَّمُهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، لَكِنْ مِنْ حِكْمَةِ الْحَكِيمِ، أَنْ قَرَنَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا عِنْدَهَا، لَا بِهَا، فَإِذَا وَصَلَ الْوَقْتُ الَّذِي سَبَقَ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِهِ ذَلِكَ الْمَرَضَ حَرَكُهُ، بِسَبَبِ تَغْطِيَتِهِ لِسِرِّ قَدَرِهِ، فَيَخْتَلَطُ مَعَ مِنْ فِيهِ، وَقَدْ يَنْزِلُ بِهِ ذَلِكَ الْمَرَضَ حَرَكُهُ، بِسَبَبِ تَغْطِيَتِهِ لِسِرِّ قَدَرِهِ، فَيَخْتَلَطُ مَعَ مِنْ فِيهِ، وَقَدْ يَنْزِلُ بِلَا سَبَبٍ، وَفِي الْحَدِيثِ؛ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا عَذْوَى وَلَا طِيْرَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِلْإِنْبِلِ تَكُونُ كَالضَّبَابِ، فَإِذَا نَزَلَ بِهَا جَمَلَ أَجْرَبُ، أَجْرَبَهَا كُلُّهَا. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلِ؟» أَيْ وَمَنْ أَنْزَلَ ذَلِكَ الدَّاءَ بِالْأَوَّلِ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَقْدِرُ اللَّهُ وَقَدَرَتِهِ، وَكَمَا غَطَّى سِرُّ إِنْزَالِهِ بِالْأَسْبَابِ؛ كَذَلِكَ غَطَّى سِرُّ رَفْعِهِ بِالتَّدَاوِي. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا نَزَلَ اللَّهُ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً» فَالتَّدَاوِي لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ، إِنْ كَانَ يَرَى الشِّفَاءَ مِنَ اللَّهِ، وَالدَّوَاءَ حِكْمَةً سَمَرَتْ الْقُدْرَةُ، فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ الْبَتَّةَ، فَمَنْ اغْتَفَدَ أَنَّ لَهُ التَّأْثِيرَ، فَهُوَ مُشْرِكٌ مَعَ اللَّهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الرُّومُ: ٣٣]. فَالدُّعَاءُ وَالتَّدَاوِي كِلَاهُمَا سَبَبٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْفَرْجُ عَلَى يَدِ أَحَدٍ بِدَوَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَجَّاهُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ، إِمَّا شِرْكَ اغْتِفَادٍ، أَوْ شِرْكَ اسْتِنَادٍ؛ وَهُوَ مِثْلُ الْقَلْبِ وَرُكُونُهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَاسِطَةِ؛ وَهُوَ قَذَحٌ فِي التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْخَوَاصِّ. وَلِذَلِكَ قَالَ الْقُطْبُ ابْنُ مَشِيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِأَبِي الْحَسَنِ: «أَهْرَبَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَهْرَبَ مِنْ شَرِّهِمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ، فَإِنَّ خَيْرَهُمْ بِصِيْبِكَ فِي قَلْبِكَ، وَشَرُّهُمْ بِصِيْبِكَ فِي بَدَنِكَ، وَأَنْ تَصَابَ فِي بَدَنِكَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَابَ فِي قَلْبِكَ، وَلَعَدُوٌّ تَصِلُ بِهِ إِلَى رَبِّكَ، خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يَقْطَعُكَ عَنْ رَبِّكَ». فَالْخَلْقُ مَخْدُوفُونَ مِنْ نَظَرِ أَهْلِ الْحَقِيقِ، يَشْكُرُونَهُمُ بِاللِّسَانِ، وَيَغْيَبُونَ عَنْهُمْ بِالْجَنَانِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»^(١). فَلَا بُدَّ مِنَ السَّبَبِ وَجُوداً وَالْعِيَّةِ عَنْهُ شُهُوداً،

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم (١٩٥٤)
[٣٣٩/٤] وأحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٤٩٥) [٢٥٨/٢] ورواه غيرهما.

فَالسَّبَبُ قِيَاماً بِحَقِّ الْحِكْمَةِ، وَالْعَيْنَةُ عَنْهُ قِيَاماً بِشُهُودِ الْقُدْرَةِ. فَمَنْ أَتَكَرَّرَ الْأَسْبَابُ فَهُوَ جَاهِلٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، وَالْقُدْرَةُ وَالْحِكْمَةُ كِلَاهُمَا مِنْ أَوْصَافِ الْحَقِّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ٤١]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّراً﴾ [الكهف: ٤٥] وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الْوَبَاءُ فَهُوَ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ فَسَادُ الْهَوَى وَالْوَحْمُ، وَعِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَخَزُّ الْجِنِّ، أَيْ طَعْنُهُ؛ وَهُوَ صَرِيحُ الْحَدِيثِ. فَقَبِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: «الطَّاعُونَ وَخَزُّ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ؛ وَهُوَ لَكُمْ شَهَادَةٌ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ. وَفِيهِ أَيْضاً: «الطَّاعُونَ رَجَزٌ وَعَذَابٌ، أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَاراً مِنْهُ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا، فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانُ وَالتِّرْمِذِيُّ. هَكَذَا رَمَزَ لَهُ. وَفِيهِ أَيْضاً: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالشَّيْخَانُ. وَفِيهِ أَيْضاً: «كَانَ عَذَاباً يَبْتَغِيهِ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونَ، فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِراً، مُخْتَسِباً، أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ، إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالبُخَارِيُّ. وَفِيهِ أَيْضاً: «الطَّاعُونَ غَدَةُ كَغَدَةِ الْبَعِيرِ الْمَقِيمِ بِهَا كَالشَّهِيدِ، وَالْفَارُ مِنْهَا كَالْفَارِ مِنَ الرَّخْفِ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ. وَقَدْ يُجْمَعُ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَقَوْلِ الْأَطِبَّاءِ، بِأَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَبْتَغِيَهُ عَلَى عِبَادِهِ، غَيَّرَ الْهَوَاءَ، وَأُرْسِلَ فِيهِ الْجِنُّ، فَيَهِيجُ الْجِنَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، فِي وَقْتِ فَسَادِ الْهَوَى بِقُدْرَةِ اللَّهِ. أَمَّا هَيْجَانُ الْجِنِّ، فَمُحَقَّقٌ بِالْمُشَاهَدَةِ، فَقَدْ رَأَى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَقْظَةً وَمَنَاماً، عَلَى صُورَةِ الْآدَمِيِّ، رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، وَقَدْ يَجْتَمِعُ مِنْهُ عَسْكَرًا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، فَيَرَاهُمْ الْآدَمِيُّ يَقْظَةً أَوْ مَنَاماً، وَقَدْ سَمِعْتُ الطَّبْلَ فِي قَبِيلَةِ أَنْجَرَةَ، بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، زَمَنَ الْوَبَاءِ، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ أَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» الْمَشْهُورُ فِي الْخُرُوجِ أَنَّهُ حَرَامٌ. وَالْمَشْهُورُ فِي الْإِقْدَامِ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ. وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ رُشْدٍ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهَا: لَا يَأْتُمُ إِجْمَاعاً. وَوَجْهُ النُّهْيِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهَا، وَوَافَقَ تَمَامَ أَجَلِهِ، فَمَاتَ بِهَا، فَرْتُمَا يَقَعُ فِي وَهْمِهِ، أَوْ وَهْمِ غَيْرِهِ، أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْدِمْ لَمَا مَاتَ، فَيَقَعُ فِي الْإِشْرَاكِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْبَيِّنَاتِ الثَّامَّةِ فَلَا كَرَاهِيَةَ فِي حَقِّهِمْ، لِإِتِّفَاقِ الْعِلَّةِ مِنْهُمْ، فَالْتَّهْيِ إِثْمًا هُوَ فِي حَقِّ الضَّعَفَاءِ. وَأَمَّا الْأَقْوِيَاءُ فَلَا يَشْمَلُهُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فِرٌّ مِنَ الْمَجْذُومِ

فِرَارِكَ مِنَ الْأَسَدِ»^(١) وثبت أَنَّهُ أَكَلَ مَعَهُ. وقال: «لَا عَدُوِّي وَلَا طَيْرَةٌ»^(٢). فَلِلْأَقْوِيَاءِ حُكْمٌ غَيْرُ مَا لِلضَّعَفَاءِ. وأما رجوع سَيِّدِنَا عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الشَّامِ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ فِيهِ الْوَبَاءَ، فَإِنَّ الْجَيْشَ مُخْتَلِطًا، فِيهِ الْأَقْوِيَاءُ وَغَيْرُهُمْ، فَأَشْفَقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الضَّعَفَاءِ؛ أَنْ يَخْتَلِجَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ، وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ لَا صُخْبَةَ لَهُ، لِكَوْنِهِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ. قُلْتُ: وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِنَا، تَقَدَّمُوا لَعَسَلِ الْمَوْتِ، وَمُبَاشَرَةِ الْمَرْضَى فِي مَدِينَةِ تَطْوَانَ، وَطَنْجَةِ، وَسَلَا وَالرِّبَاطِ، وَمَدَاشِيرِ الْقَبَائِلِ، لَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى ذَلِكَ غَيْرُهُمْ، فَعَسَلُوا وَكَفَّتُوا، وَبَاشَرُوا الْمَرْضَى، فَلَمْ يُصِيبْهُمْ شَيْءٌ، بَلْ بَعْضُهُمْ بَاقٍ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ أُعْطِيَ قَشَابَةً مَاتَ صَاحِبُهَا بِالْوَبَاءِ، فَلَبِسَهَا فِي الْحَيَاتِ، فَلَمْ يُصِبهُ شَيْءٌ، فَعَاشَ بَعْدَ الْوَبَاءِ زَمَنًا طَوِيلًا، وَرَأَيْتُ بَعْضَ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ أَنْجَرَةَ، قَدِمَ عَلَى الْبِلَادِ الَّتِي فِيهَا الطَّاعُونَ، فَبَقِيَ أَكْثَرُ مِنْ شَهْرٍ، يَغْسِلُ وَيَكْفُنُ، وَيُبَاشِرُ الْمَرْضَى بِهَا، ثُمَّ قَدِمَ سَالِمًا، فَعَاشَ بَعْدَ الْوَبَاءِ زَمَنًا طَوِيلًا، فَبَطَلَ الْقَوْلُ بِالْعَدُوِّ وَالْإِنْتِقَالِ، وَكَمَا نَقُولُ لِأَصْحَابِنَا: مَنْ أَرَادَ تَرْبِيَةَ الْيَقِينِ، وَتَعَلَّمَ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ. فَلْيَذْهَبْ إِلَى مَحَلِّهَا، مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ، مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلِ ابْنِ رُشْدٍ، مَعَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّفْصِيلِ. وَأَمَّا التَّحَصُّنُ مِنْهُ بِحَزْسِ الْأَبْوَابِ وَغَلْقِهَا، فَلَا فَايِدَةَ فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: «أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُسَيَّدَةٍ» [النساء: ٧٨] وَقَدْ يَتَأَخَّرُ الْوَقْتُ فِي الْأَزَلِ، فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ تَأْخِيرَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِرْصِهِ وَتَحَفُّظِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِذْ لَا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَإِنَّمَا الْوَقْتُ اقْتَضَى التَّأْخِيرَ. قَالَ تَعَالَى: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» [الطلاق: ٣]، «وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» [الحجر: ٢١].

حكاية مستظرفة: بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَنَا الْفَقِيهَ الْمَفْرَجَ، لَمَّا دَخَلَ الْوَبَاءُ طَنْجَةَ،

(١) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة حديث رقم (٩٧٢٠) [٤٤٣/٢] وابن أبي شيبة في مصنفه، (١٦٩) من رخص في الطيرة حديث رقم (٢٦٤٠٨) [٣١١/٥] ورواه غيرهما.
 (٢) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة، باب الطيرة، حديث رقم (٥٤٢١) [٥/٢١٧١] ورواه مسلم في أبواب عدة منها باب لا عدوى ولا طيرة...، حديث رقم (٢٢٢٠) [١٧٤٣/٤] ورواه غيرهما.

وقد كانوا أغلقوا الأبواب، ومنعوا من أتى من بلد الوباء من الدخول، أتى إلى البوابين؛ لما تحقق ظهورها في البلد فقال لهم: بيني وبينكم القائد، لم تتركتم الوباء يَدْخُل؛ رداً لِرْغَمِهِمْ، فإن قلت: قد وجد من سد باباً في زمنها، فسليم منها، قلت: الحكمة حق من تمسك بها، لا تُخرق في حق، لكنه يكون محجوباً بها عن ربه، مع التحقق، أن القضاء والقدر هكذا جرى في حق، فما تعاطى إلا ما جرى به القلم، لكنه محسوب من الضعفاء، لا نصيب له في مقام الأقوياء. ويدخل في قوله عليه السلام: «الفار منه - (أي الطاعون) - كالفار من الرخف»^(١) وأما التحصن بالدعاء فلا بأس به عبودية، مع اعتقاده أنه لا يزيد في العمر شيئاً.

وفائدته: التأييد واللفظ، ونزول الصبر، والرضى عند أوقات الشدة، وقد ذكر القسطلاني دعاء مخصوصاً، يقال عند هيجانها، أو يعلق تيممة، فإن الله يحفظه ببركته؛ وهو هذا: اللَّهُمَّ سَكُنْ فِتْنَةَ صَدْمَةِ قَهْرَمَانَ الْجَبْرُوتِ، بِالطَّافِكِ الْخَفِيَةِ، الْوَارِدَةِ، النَّازِلَةِ مِنْ بَابِ الْمَلَكُوتِ، حَتَّى تَنْتَبِتَ بِأَذْيَالِ لُطْفِكَ، وَتَنْعَصِمَ بِكَ مِنْ إِنْزَالِ قُدْرَتِكَ، يَا ذَا الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ، وَالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ اهـ.

وينفع في ذلك أيضاً جزب التووي، صباحاً مساءً بعد العشاء، فقد قيل: إن قارئه لا يتسلط عليه بر ولا فاجر، بحيث لا يتصرف فيه أحد، لا من جهة الهمة كأولياء، ولا من جهة الفعل الحسي، كالجبابرة من الإنسان والجن، وكذلك وظيفة الشيخ زروق رضي الله عنه، صباحاً ومساءً، مثل ذلك، آية الجرح: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ» [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة يكرزها سبعا، ومثل ذلك، الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، فإنها تكشف الكروب والهموم والغموم، مما كتب به إلينا شيخ شينخنا، مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه، ما نصه بعد كلام طويل: «ومهما ترؤغت من شيء،

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (٣١٩٣) [٣/٢٩٣] وأحمد في المسند، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حديث رقم (١٤٥١٨) [٣/٣٢٤] ورواه غيرهما.

فبادر إلى الطهارة إن كنت على غيرها، وصل ركعتين، واتل سورتين قصيرتين، أو صل على رسول الله ﷺ ولو عشر مرات، أو ثلاث مرات، وقل: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، مثل ذلك، وكُن لِرَبِّكَ هَكَذَا دَائِمًا، تَرَى عَجَبًا، وإياك أن تكون على غير هذا. إذ لا يفيدنا إلا الرجوع إلى ربنا، والسكون إليه عند الرخاء والشدة، ولا يفيدنا غيره قط.

وقولنا: تطهر إن كنت على غيرها، وجد كذا، واتل كذا، أو افعل الجميع. قلت: «وهو الذي نفعل، نُصَلِّي ركعتين، ونُتَلُّو سورتين قصيرتين، كَأَلَم نَشْرَحْ، ولإيلاف قرينش، ونُصَلِّي على رسول الله ﷺ عشرًا، ونقول: حسبنا الله ونعم الوكيل عشرًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عشرًا، ثم قال رضي الله عنه: فإن الشر يذهب والخير يأتي إذ في الرجوع إلى الله والسكون إليه من الفوائد وحزق العوائد، والله إن كُنَّا على ما قُلْنَا، حتى تكون لنا الطريق في السماء، كما هي لنا في الأرض، أكثر من ذلك وأقرب، ولَعَنَهُ اللهُ عَلَى مَنْ كَذَبَ والله إن اعتصمنا بربنا لما قررنا حتى تصحبنا نيايته في جميع أوقاتنا، ويصحبنا عونهُ وَفَضْلُهُ، وَكَرَمُهُ وَجِلْمُهُ، وَجُودُهُ وَعِطْفُهُ، وَنَوَالُهُ فِي حَرَكَاتِنَا وَسَكَاتِنَا، والله يأخذ بيدنا» انتهى كلامه رضي الله عنه.

ومِمَّا يَتَأَكَّدُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي زَمَنِ الْوَبَاءِ، الرَّضَى وَالتَّسْلِيمَ، وَالصَّبْرَ عَلَى مَفَارِقَةِ الْأَخْبَابِ، إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، فَبِإِذْنِ اللَّهِ خَلَقَ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ، لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الصَّغْبِ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يُفْرَحَ بِمَوْلُودٍ، وَلَا يُخْزَنَ عَلَى مَفْقُودٍ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا غُورَةُ النَّصَارَى، وَخُرُوجُ الدَّجَالِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَمَنْ أَخَذَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ خَلَصَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ، وَمَنْ بَقِيَ، فَلْيَتَحَصَّنْ بِالْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِخْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، إِخْفَظْهُ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ، يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ» الحديث (١).

وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَهُوَ الْفَقِيه الْعَالِمُ، الْوَلِي الصَّالِحُ،

سَيِّدِي مُحَمَّدُ بْنُ مَعْرُوفٍ الصَّحْرَاوِي، أَتَّهُ قَالَ لِي: رَأَيْتُ فِي كِتَابِ الْبُونِي^(١) (شمس المعارف). قَالَ فِيهِ: «إِذَا دَخَلْتَ النُّصَارَى مِصْرَ، وَظَهَرَ الْوَبَاءُ بِالْمَغْرِبِ، وَخَرَجْتَ النُّصَارَى بِالسَّوَاغِلِ، ظَهَرَ الْإِمَامُ الْمَهْدِي، وَنَزَلَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَنْ مَاتَ حَبِيبُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَلَا يَتَأَسَفُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ بِانْتِقَالِ رُوحِهِ إِلَى اللَّهِ، فَلْيَفْرَحْ بِإِلْقَاءِ اللَّهِ، وَمُلَاقَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَكَانَ بِلَاكٍ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَاطْرِبَاهُ، غَدَا أَلْقَى الْأَجْبَةَ: مُحَمَّدًا وَجِزْبَهُ، فَإِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ سِجْنِ الْبَدَنِ، تَصَوَّرَتْ عَلَى هَيْئَةِ صَاحِبِهَا، شَكْلًا كَامِلَ الْأَعْضَاءِ، لَطِيفًا رُوحَانِيًّا، كَالْمَلَائِكَةِ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْرِفُ، فَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ، كَسَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ثِيَابًا أَتَتْ بِهَا مِنَ الْجَنَّةِ، مَعَ حَنُوطٍ وَطِيبٍ، فَتَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَلَهَا رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: هَذِهِ رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَفْضِيَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: هَذَا عَبْدُكَ فُلَانٌ قَدْ أَتَيْنَاكَ بِهِ، فَيَقُولُ: «أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي عَلَمَيْنِ، وَأَرَوْهُ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَرَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى السُّؤَالِ، فَإِذَا وُضِعَ الْجَسَدُ عَلَى النَّعْشِ كَانَتْ فَوْقَهُ بِذِرَاعٍ، تَقُولُ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ التُّرَابُ، دَخَلَتْ فِي الْقَبْرِ، وَحَيَّيَ الْبَدَنُ حَيَاةً خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، أَشْبَهُ شَيْءٍ بِحَالَةِ النَّائِمِ، فَإِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ، وَثَبَّتَهُ اللَّهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، حَتَّى أَجَابَ رُسُلَ رَبِّهِ، صَعِدَتْ رُوحُهُ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨].

قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: رُوحُ الْوَصَالِ، وَرَيْحَانُ الْجَمَالِ، فَإِذَا انْفَصَلَتِ الرُّوحُ مِنْ هَذَا الْبَدَنِ، انْصَلَّتْ بِالْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّةِ؛ وَهُوَ الرُّوحُ، وَلَمْ تَرَ إِلَّا الْقَضَاءَ وَسَعَةَ الْجَمَالِ؛ وَهُوَ الرَّيْحَانُ، ثُمَّ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَتَتَنَعَّمُ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ، وَلَا تُخْصَرُ فِي الْجَنَّةِ، بَلْ تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ، وَفِي بَعْضِ الْأَثَرِ، إِذَا مَاتَ الْعَارِفُ: قِيلَ لِرُوحِهِ: إِذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ. وَقِيلَ لِلرُّوحِ: الْاسْتِرَاحَةُ مِنْ تَعَبِ

(١) هو الشيخ أحمد بن علي بن يوسف البوني المتوفى سنة ٦٢٢ هجرية.

الدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا، وَالرُّيْحَانِ: الرُّزْقُ الَّذِي يَلِيْقُ بِحَالِهَا، فَإِنَّ رُوحَ الشَّهَدَاءِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَتَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَرُوحُ الصَّادِقِينَ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْمَعَارِفِ، وَتَشْرَبُ مِنْ نَيْسَمٍ لَذَّةِ الشُّهُودِ وَالْمَعَايِنَةِ.

وقال التَّزْمِيزِيُّ: الرُّوحُ الرَّاحَةُ فِي الْقَبْرِ، وَالرُّيْحَانُ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وقال بَسَامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: الرُّوحُ السَّلَامَةُ. وَالرُّيْحَانُ الْكَرَامَةُ. وقال سَعْدُ: الرُّوحُ مَعَانِقَةُ الْأَبْكَارِ. وَالرُّيْحَانُ مُرَافِقَةُ الْأَبْرَارِ.

فَالْمُقَرَّبُونَ يَتَنَعَّمُونَ بِبَنَاحِ الْأَبْكَارِ، وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لظَاهِرِ الْآيَةِ. وقال الْخِرَازِيُّ: الرُّوحُ كَشَفُ الْغِطَاءِ. وَالرُّيْحَانُ الرُّوْيَةُ وَاللِّقَاءُ. وقيل الرُّوحُ: الرَّائِقَةُ، وَالرُّيْحَانُ: الثَّجَاعَةُ مِنَ الْآفَةِ. وقيل الرُّوحُ: الْمَوْتُ عَلَى الشَّهَادَةِ. وَالرُّيْحَانُ: بَدْءُ السَّعَادَةِ. وقيل الرُّوحُ: كَشَفُ الْكُرُوبِ. وَالرُّيْحَانُ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ. وقيل الرُّوحُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْإِيمَانِ. وَالرُّيْحَانُ: نَيْلُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ. وقيل الرُّوحُ: فَضْلُهُ. وَالرُّيْحَانُ: وَضْلُهُ. وقيل الرُّوحُ: عَفْ بِلاَ عِتَابٍ، وَالرُّيْحَانُ: رِزْقٌ بِلاَ حِسَابٍ، وقيل الرُّوحُ لِلْسَّابِقِينَ، وَالرُّيْحَانُ لِلْمُقْتَصِدِينَ، وَالْجَنَّةُ لِلظَّالِمِينَ. وقيل الرُّوحُ لِأَزْوَاجِهِمْ. وَالرُّيْحَانُ لِقُلُوبِهِمْ، وَالْجَنَّةُ لِأَبْدَانِهِمْ، وَالْحَقُّ لِأَسْرَارِهِمْ.

وَالْمُقَرَّبُونَ: هُمُ السَّابِقُونَ. وَالسَّابِقُونَ: هُمُ أَهْلُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ؛ الَّذِينَ سَبَقَتْ أَزْوَاجُهُمْ إِلَى الْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّةِ؛ وَهُمُ أَهْلُ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ. فَالْمَوْتُ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ، انْتِقَالٌ مِنْ وَطَنٍ إِلَى وَطَنٍ، وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْغَزَالِيُّ، بَعْدَ مَوْتِهِ، وَجِدْتُ تَحْتَ عِمَامَتِهِ:

لَا تَظُنُّوا الْمَوْتَ مَوْتٌ إِنَّهُ لَحَيَاةٌ وَهُوَ غَايَةُ الْمُنَى
لَا تُرَوِّعُكُمْ هَجَمَةُ الْمَوْتِ فَمَا هُوَ إِلَّا انْتِقَالٌ مِنْ هُنَا
فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ تُبْصِرُوا الْحَقَّ عَيَاناً بَيْنَا

وإلى آخِرِ قَصِيدَتِهِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ بِرُوحِهِ مَا تَقَدَّمَ، ثُمَّ تَرْجِعُ لِلسُّؤَالِ، فَإِنْ سُئِلَتْ بِأَهْلِهَا فِي عَالَمِ الْبَرْزَخِ، فَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهَا، وَيَسْأَلُونَهَا عَنْ أَخْوَالِ الْأَخْيَاءِ، ثُمَّ تَبْقَى مَحْضُورَةً فِي عَالَمِ الْبَرْزَخِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، بِخِلَافِ أَزْوَاجِ الْمُقَرَّبِينَ، فَإِنَّهَا مُطْلَقَةٌ تَذْهَبُ حَيْثُ

تَشَاءُ، وَتَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ الْأَحْيَاءِ. وَالْمُرَادُ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ: أَهْلُ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، الَّذِينَ خَصَرْتَهُمُ الْأَكْوَانُ. وَلَمْ يُفْضَوْا إِلَى قَضَاءِ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ، سِوَا كَانُوا عُلَمَاءَ أَوْ صَالِحِينَ، أَوْ عِبَادَ أَوْ زُهَّادَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنِ الْأَكْوَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِشُهُودِ الْمُكُونِ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَنْ بَقِيََتْ مَسْجُونَةً فِي الْأَكْوَانِ، لَمْ تُفْتَحْ لَهَا مَيَادِينُ الْغُيُوبِ؛ فَهُوَ مِنَ أَهْلِ الْيَمِينِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. وَبَقِيَ عَنْدهُمْ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْعَادِيَةِ، عَنْدهُمْ الْجَذَامُ؛ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي قَطْرِنَا هَذَا، فَلَا نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ وَالسَّلَامُ.

الْبَابُ الْخَامِسُ:

فِي احْتِسَابِ الْيَقِينِ، وَذِكْرِ مَوَادِّهِ وَمَوَاطِنِهِ

الْيَقِينُ: هُوَ سَكُونُ الْقَلْبِ وَاطْمِئْنَانُهُ بِزَوَالِ التَّوَدُّدِ وَالاضْطِرَابِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: يَبْقَى الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ، إِذَا سَكَنَ وَاسْتَقَرَّ فِيهِ. ثُمَّ يَتَفَاوَتْ الْيَقِينُ بِتَفَاوُتِ مَوَادِّهِ وَأَنْوَارِهِ، فَإِذَا سَكَنَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سَكُونًا تَامًا، لَكِنَّهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ الْأَكْوَانِ، يَسْتَدَلُّ بِالْآثَرِ عَلَى الْمُؤَثَّرِ، سُمِّيَ هَذَا الْمَقَامَ، عِلْمَ الْيَقِينِ. وَمَوَادِّهِ التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ، فَكَلِمَا قَوِيَّ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ، قَوِيَّ نُورِ الْيَقِينِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، وَتَفَكَّرَ فِي عَجَائِبِ صُنْعِهَا، وَاخْتِلَافِ أَشْخَاصِهَا وَأَنْوَارِهَا؛ وَتَعَدَّدِ أَفْرَادِهَا، وَكُلُّهَا فِي قَبْضَتِهِ تَعَالَى، وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، أَحَاطَ بِهَا عِلْمًا، وَسَمِعَ وَبَصَرَ، لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، عِلْمٌ عِلْمَ يَقِينٍ عَظِيمٌ خَالِقُهَا، وَبَاهِرٌ قُدْرَتِهِ، وَسِعَةُ عِلْمِهِ، فَإِذَا تَعَطَّشَتِ الرُّوحُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَاتِهِ، وَاشْتَاقَتْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى حَضْرَتِهِ، رَزَقَهَا الْحَقُّ تَعَالَى الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَشَهَا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَسَهَا بِهِ، وَأَشْغَلَهَا بِذِكْرِهِ، وَقَبَضَ لَهَا وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَلَا يَزَالُ يَسِيرُ بِهَا مِنْ مَرْحَلٍ إِلَى مَرْحَلٍ، مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، حَتَّى يَقُولَ لَهَا: هَا أَنْتَ وَرَبُّكَ، ذَلِكَ حَتَّى تَنْقَشِعَ ظُلْمَةُ الْأَكْوَانِ عَنِ الْقَلْبِ، فَيُشَاهِدَ أَنْوَارَ الْغَيْبِ حَاضِرَةً، وَأَسْرَارَ الذَّاتِ لَايَحْتَجُّ، فَيَغْرُقُ فِي الْأَنْوَارِ، وَيَغِيبُ عَنْ شُهُودِ الْآثَارِ، وَيُسَمَّى هَذَا الْمَقَامَ، عَيْنَ الْيَقِينِ، وَهُوَ مَقَامُ الْفَنَاءِ وَمَوَادِّهِ: الذِّكْرُ الْقَلْبِيُّ، وَجَوْلَانُ الْفِكْرَةِ فِي مَيَادِينِ الْغُيُوبِ، مَعَ دَوَامِ صُخْبَةِ الْعَارِفِينَ، وَخِدْمَةِ الْوَاصِلِينَ، وَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ شُهُودِ الْأَنْوَارِ، وَرَجَعَ إِلَى شُهُودِ الْآثَارِ يَرَاهَا

قَائِمَةٌ بِاللَّهِ، لَا وَجُودَ لَهَا مَعَ اللَّهِ، سُمِّيَ هَذَا الْمَقَامُ حَقُّ الْيَقِينِ. وَمَوَادُّهُ: الْفِكْرَةُ وَالنَّظَرَةُ، وَلُزُومُ الصُّحْبَةِ وَالْخِدْمَةِ.

وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا، إِلَّا التَّرْقِي فِي الْمَعْرِفَةِ أَبَدًا سَرْمَدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَفِي تِلْكَ الدَّارِ، إِذْ عَظُمَتِ الْحَقُّ لَا نِهَآيَةَ لَهَا، فَالتَّرْقِي لَا نِهَآيَةَ لَهُ. وَقَدْ تَكَلَّمَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ؛ أَغْنَى عِلْمُ الْيَقِينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ.

فَقَالَ: «عِلْمُ الْيَقِينِ مَا كَانَ بِشَرْطِ الْبُزْهَانِ. وَعَيْنُ الْيَقِينِ مَا كَانَ بِحُكْمِ الْبَيَانِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ مَا كَانَ بِتَغَيُّتِ الْبَيَانِ، فَعِلْمُ الْيَقِينِ لِأَرْبَابِ الْعُقُولِ. وَعَيْنُ الْيَقِينِ لِأَرْبَابِ الْعُلُومِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ: لِأَصْحَابِ الْمَعَارِفِ». وَأَحْسَنُ مِنْهُ، مَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْفَرَزْغَانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «الْيَقِينُ: هُوَ سُكُونُ الْقَلْبِ وَاسْتِقْرَارُهُ، فَإِذَا أُضِيفَ هَذَا السُّكُونُ إِلَى النَّفْسِ وَالْعَقْلِ بِنَاءً عَلَى حُجَّةٍ وَدَلِيلٍ يَدْلُهُمَا عَلَى الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ، سُمِّيَ عِلْمُ الْيَقِينِ، وَإِذَا أُضِيفَ إِلَى الرُّوحِ الرُّوحَانِيَّةِ، بِطَرِيقِ زَوَالِ الْحُجُبِ الْخَائِلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ، فَتَعَايُنُهُ وَتَشَاهِدُهُ كَمَا هُوَ فِي مَعْدِنِهِ، يُقَالُ لَهُ: عَيْنُ الْيَقِينِ. وَإِذَا أُضِيفَ ذَلِكَ السُّكُونُ إِلَى السَّرِّ، يُسَمَّى حَقُّ الْيَقِينِ». انْتَهَى مَخْتَصَرًا.

وَمِثَالُ ذَلِكَ فِي الشَّاهِدِ: عِلْمُنَا بِوُجُودِ مَكَّةَ مَثَلًا، فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمُ الْيَقِينِ، فَإِذَا اسْتَشْرَفَ عَلَيْهَا وَرَأَاهَا، حَصَلَ لَهُ عَيْنُ الْيَقِينِ، فَإِذَا دَخَلَهَا، وَعَرَفَ طَرَفَهَا حَصَلَ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ، وَكَذَلِكَ مَعْرِفَةُ الذَّاتِ الْعَالِيَةِ، فَمَا دَامَ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا بِالْغَيْبِ، يَشَاهِدُ الْأَكْوَانِ، وَيَسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَكُونِ، فَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي عِنْدَهُ بِاللَّهِ، يُسَمَّى عِلْمُ الْيَقِينِ، فَإِذَا انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ، وَاتَّصَلَ بِشَيْخِ التَّرْبِيَةِ، فَسَارَ بِهِ حَتَّى غَيَّبَهُ عَنْ شُهُودِ الْأَكْوَانِ، بِشُهُودِ الْمَكُونِ، بِحَيْثُ قَاضَتْ أَنْوَارُ الْمَعَانِي عَلَيْهِ، فَغَيَّبَتْهُ عَنْ شُهُودِ الْأَوَانِي، فَهَذَا يُسَمَّى عَيْنُ الْيَقِينِ، فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، وَرَسَخَ قَدَمُهُ فِي شُهُودِ الْمَلِكِ الْمَعْبُودِ، فَرَأَى الْمَعَانِي قَائِمَةً بِالْأَوَانِي، فَهَذَا يُسَمَّى حَقُّ الْيَقِينِ، وَإِلَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، أَشَارَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي الْحِكْمِ بِقَوْلِهِ: «شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قَرَبَ الْحَقِّ مِنْكَ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ، يُشْهِدُكَ وَجُودَ الْحَقِّ لَا عَدَمَكَ، وَلَا

وَجُودَكَ، كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

وهذه المقامات الثلاث: أغني علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين،
تجري في كل ما يطلب فيه تربية اليقين، كضماني الرزق، وعدم الخوف من
الخلق، وتحديد الأجل، وجريان مواقع القدر، كالبعث وما بعده، فأما ضمان
الرزق، فيحصل فيه علم اليقين، بالتفكير في الآيات التي وردت فيه، فكثيرة في
كلام الله في شأنه، وكالأحاديث التي وردت عن الصادق المصدوق في ضمانه.

فأما الآيات التي وردت، فكثيرة جداً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَوْمَ تُنْفَخُهَا وَسُوْدُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝﴾ [هود:
٦١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ
وَالْعَلَقَةُ لِلتَّقْوَى ۝﴾ [طه: ١٣٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ
يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. فوسطه بين الخلق والإماتة. فكما
لَا تَشْكُ أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَكَ؛ وهو الذي يملكك، ثم يحييك، فكما لَا تَشْكُ أَنَّ
اللهَ يَرْزُقُكَ، إذ كلها سواء. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالَتْ تُؤْفِكُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [٥١] مَا
أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝﴾ [٥٧] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ اللَّتِينُ
[الناريات: ٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝﴾ [١] وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝﴾ [الطلاق: ٤]. وأما الأحاديث النبوية،
فَقَدْ قَالَ عليه الصلاة والسلام: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقْتُمْ كَمَا
تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا». وقال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ
فِي رُوحِي، أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ، حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاجْمِلُوا فِي
الطَّلَبِ». وقال ﷺ: «إِنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الرَّجُلَ، كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ». إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَمْ نَسْتَخْرِجْهَا. وَأما قوله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَكْفُلُ بِرِزْقِ
طَالِبِ عِلْمٍ». فَالمراد به تكفل خاص؛ وهو إتيانه بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَلَا تَعَبٍ، وَأَنَّ
اللهَ قَدْ تَكْفُلُ بِرِزْقِ جَمِيعِ عِبَادِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَتَرَ ذَلِكَ بِرِذَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وهو

وجود الأسباب العادية.

وَمِنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ مُخْلِصاً فِيهِ، آتَاهُ رِزْقُهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، وَإِنَّمَا سَتَرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هَذَا الضَّمَانَ بِرَدَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَهُوَ وُجُودُ الْأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ إِبْرَارَ الرِّزْقِ، مِنْ عَيْنِ الْمِنَّةِ ظَاهِراً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ كَشَفَ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَنَكَ لِأَسْتَارِ عَظَمَةِ الْأُلُوهِيَّةِ. فِي هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي هِيَ دَارُ التَّكْلِيفِ، لَا دَارَ التَّعْرِيفِ لِيُظْهَرَ مَرْيَّةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، فَلَا بُدَّ مِنْ رَدَاءِ الْحِكْمَةِ أَنْ يُنْشَرَ عَلَى تَصَرُّفِ الْقُدْرَةِ، فَيَبْقَى السُّرُّ مَصُوناً، وَالْكَثْرُ مَذْفُوناً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، ظَهَرَتْ الْقُدْرَةُ، وَبَطِنَتِ الْحِكْمَةُ، فَظَهَرَتْ الْأَسْرَارُ بِأَدِيَةِ الْأَنْوَارِ، فَتَبَرَّزَ جَيِّدُ الْأَرْزَاقِ مِنْ عَيْنِ الْمِنَّةِ، بِأَدِيَةِ ظَاهِرَةٍ مِنْ غَيْرِ رَدَاءٍ وَلَا سِتْرِ؛ لِأَنَّهَا دَارُ التَّعْرِيفِ، لَا دَارَ التَّكْلِيفِ، فَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ، وَيَتَمَيَّزُ الرِّبْحُ مِنَ الْخُسْرَانِ، بِاِغْتِيَارِ مَا عَرَسُوا هُنَا.

فَعِلْمُ الْعَبْدِ بِهَذَا الضَّمَانَ، مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي قَدَّمْنَا، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، يُسَمَّى عِلْمَ الْيَقِينِ، فَإِذَا أَرَادَ تَحْصِيلَ عَيْنِ الْيَقِينِ، فَلْيَنْقَطِعْ إِلَى اللَّهِ انْقِطَاعاً كُلِّيًّا، وَيَتَجَرَّدْ عَنِ الْأَسْبَابِ قَلْباً وَقَالِباً، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِيهِ بِرِزْقِهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً...﴾ [الطلاق: ٤]. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ، كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مَوْئِنَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ، وَلَيْسَ كُنْ تَحْتَ قَهْرِيَةِ الْفَاقَةِ، حَتَّى يَذُوقَ أَسْرَارَهَا، وَيَحْصِلَ لَهُ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ»^(١). إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ بِالسَّبَبِ، وَبِلَا سَبَبٍ، فَإِذَا رَسَخَ فِيهِ هَذَا الْعِلْمُ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ خَضَمٌ وَلَا وَهْمٌ، سُمِّيَ ذَلِكَ حَقَّ الْيَقِينِ.

وَأَمَّا عَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الْخَلْقِ، فَيَحْصِلُ فِيهِ عِلْمُ الْيَقِينِ، فِي التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ الْأَفْعَالِ، وَأَنَّهُ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِعَصَايْنِ يَدَيْهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْتَهُمُ عَمَّنْ ءَامَنُوا وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

[١٥٣]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥] قلته تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «واعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْدِرْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، جُفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَطُبِيتِ الصُّحُفُ»^(١) إلى آخر الحديث المشهور، فإذا أَرَادَ تَحْصِيلَ عَيْنِ الْيَقِينِ، فليورد مواطنَ الْخَوْفِ والأماكن التي يخاف بها الناس من غَيْرِ تقرير. حتى يكتسب عَيْنَ الْيَقِينِ. فإذا دَامَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ، تَمَكَّنَ فِيهِ حَقُّ الْيَقِينِ. وتحقق حينئذ ذوقاً وكشفاً، أَلَا فَاعِلٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا فَاعِلٌ سِوَاهُ، ثم إذا وجد من يسير به إلى الله، حَصَلَ لَهُ تَوْحِيدُ الذَّاتِ، وَأَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللَّهُ، وهو النِّهَايَةُ. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَهَكَ الْمُنْتَهَى﴾ [نجم: ٤٢].

وَأَمَّا تَخْدِيدُ الْأَجَلِ، وَجَرَيَانُ مَوَاقِعِ الْقَدَرِ؛ فَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ. فإذا تَأَمَّلَ فِيهَا مُفَرِّغاً قَلْبَهُ، وَحَصَلَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ، فإذا أَرَادَ تَحْصِيلَ عَيْنِ الْيَقِينِ، فَلْيَرِدْ أَيْضاً مَوَاضِعَ الْخَوْفِ، ومواطنَ الْخَوْفِ؛ كَبَلَدِ الْوَبَاءِ، إِنْ كَانَ لَهُ يَقِينٌ فِي التَّوْحِيدِ، أَوْ الصَّبْرِ فِي بَلَدِهِ، حتى يحصل له عَيْنُ الْيَقِينِ. إِنَّ الْأَجَلَ مَخْدُودٌ، وقد يحصل عَيْنُ الْيَقِينِ، بِالنَّظَرِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَبِأَشْرِ الْحَتُوفِ، وَسَكَنِ مَوَاطِنِ الْهَلَكَةِ؛ وهو سَالِمٌ. فإذا دَامَ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ، حتى تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ الْعِلْمُ الْيَقِينِي، حَصَلَ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ.

وَأَمَّا الْبَعْثُ وَمَا بَعْدَهُ، فَأَمْرٌ شَهِيرٌ، وآيَاتُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَجُلُّ النَّاسِ حَصَلَ لَهُمْ فِيهِ عِلْمُ الْيَقِينِ، وَلَا يَحْصُلُ عَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ، حتى تقوم الساعة، ويراهَا النَّاسُ عَيْنَانَا، فحينئذ يحصل لَهُمْ عَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ، نَعَمْ، قَدْ تَنَوَّزَتْ الْأَنْوَارُ عَلَى الْقَلْبِ فَيَصِيرُ الْغَيْبُ فِي مَعَدِّ الْعِيَانِ، وَالْأَجَلُ فِي

(١) روى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (١٢٩٨٨) والترمذي في سننه حديث رقم (٢٥١٦) [٦٦٧/٤] وروى نحوه وغيرهما.

مَعَدَّ الْعَاجِلِ. وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، وَانْظَرُهُ إِلَى قَوْلِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَرُونَ فِيهَا»^(١) الْحَدِيثُ أَوْ كَمَا قَالَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَانْظَرُهُ كَيْفَ جَعَلَ الْآتِي وَاقِعًا، وَالْغَائِبَ شَاهِدًا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «الزَّمْ قَدْ عَرَفْتَ عَبْدًا دَخَلَ نُورُ اللَّهِ قَلْبَهُ»^(٢) أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وطريق اكتساب اليقين، هو صُخْبَةُ أَهْلِ الْيَقِينِ، وَاللَّهُ مَا أَفْلَحَ مَنْ أَفْلَحَ، إِلَّا بِصُخْبَةِ مَنْ أَفْلَحَ، وَمَنْ تَحَقَّقَ بِحَالَةٍ، لَا يَخْلُو حَاضِرُوهَ مِنْهَا. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ، فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ»^(٣). وَفِي بَعْضِ رِوَايَةِ أُخْرَى: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْيَقِينِ»^(٤). وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: «إِنَّ اللَّهَ رَجَالًا إِذَا نَظَرُوا أَغْنَوْا» وَكَانَ الشَّيْخُ الشَّاذِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي شَأْنِ تَلْمِيذِهِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُرْسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَ الرَّجُلُ أَبُو الْعَبَّاسِ، يَأْتِيهِ الرَّجُلُ الْبَدَوِيُّ يَبُولُ عَلَى سَاقِهِ، فَلَا يُنْسِي إِلَّا وَهُوَ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ». وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُرْسِيُّ نَفْسَهُ: «وَاللَّهُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ، إِلَّا أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». قُلْتُ: وَكُلُّ زَمَانٍ لَهُ رَجَالٌ يَغْتَوُّونَ بِالنَّظَرِ، وَقَدْ أَدْرَكْتَاهُمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَحْبِنَاهُمْ، أَظْهَرَهُمُ اللَّهُ ظُهُورَ نَارِ الْفَرَى عَلَى عِلْمٍ، بَلْ ظُهُورِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، لَكِنْ لَا بُدَّ لِلشَّمْسِ مِنْ سَحَابٍ، وَلِلْحَسَنَاءِ مِنْ نِقَابٍ:

وَكَمْ مِنْ غَائِبٍ لَيْلَى وَلَمْ يَرَوْجْهَا فَقَالَتْ لَهُ الْحِزْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

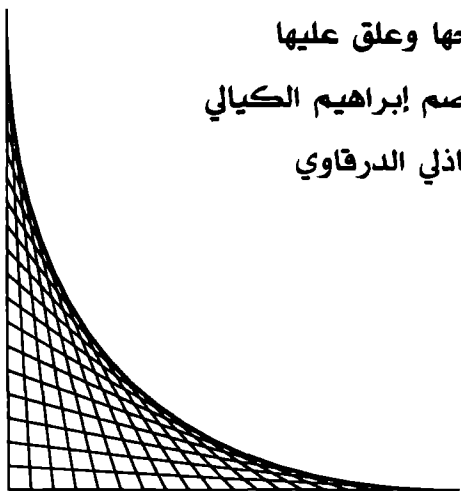
(١) و(٢) رواه ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار، فصل أحوال بعض الخائفين...
(٣٢/١) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول [١٤٥/١] ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن ثور بن يزيد، [٩٥/٦] ورواه علي بن الحسن الشافعي في تاريخ مدينة دمشق، كتاب الزواء [١٩٨/١٦] ونصه: «تعلّموا اليقين كما تعلّموا القرآن حتى تعرفوه فإنّي أتعلّمه».

(٤) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

شرح بعض مقتطفات
الشيخ علي الششتري

لسيدي أحمد بن عجيّة
رضي الله عنه



ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ مَنْ اخْتَصَّ بِالْحَمْدِ وَالثَنَاءِ مِنَ الْعِبَادِ. وَتَقَدَّسَ ذَاتَا وَصِفَاتَا عَنْ الشُّرَكَاءِ وَالنُّظَرَاءِ وَالْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ. خَصَّ أَقْوَاماً بِكَمَالِ الْمَحَبَّةِ وَالْوُدَادِ. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ وَمَجْدُوبٍ، وَمُحِبٍّ وَمَحْبُوبٍ. لَا يَطْرُق سَاخَةٌ قُلُوبُهُم الْأَغْيَارُ وَالْأَنْكَارُ.

واختصَّ أَقْوَاماً بِغَايَةِ الْخِدْمَةِ وَالْاجْتِهَادِ فَهُمْ بَيْنَ عُبَادٍ وَزُهَّادٍ، وَبُدَلَاءٍ وَنُجَبَاءٍ. صَالِحِينَ وَأَوْتَادٍ، يَقُومُونَ فِي دِيَارِ اللَّيْلِ بِمُنَاجَاةِ الْحَبِيبِ. وَالتَّعْلِقِ بَيْنَ يَدَيِ الْقَرِيبِ الْمَجِيبِ. وَإِذَا هُمْ عَلَيْهِمْ نَسِيمُ الْأَسْحَارِ. فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْبُكَاءِ وَالنَّجِيبِ. فَكُلَّ هَوْلَاءٍ كَانَ سَغِيهِمْ مَشْكُوراً. ﴿كَلَّا تُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَمَةِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَظَمَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾. [الإسراء: ٢٠] نَحْمَدُهُ تَعَالَى وَنَشْكُرُهُ حَمْدًا وَشُكْرًا يَقْضِيَانِ بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ. وَيُعْطِفَانِ عَلَى قَائِلِهِمَا بِالتَّعَرُّفِ وَالْوُدَادِ.

وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى مَنبَعِ الْأَنْوَارِ. وَمَعْدِنِ الْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ سَيِّدِ الْوُجُودِ، وَمَنْبِتِ الْكَرَمِ وَالْجُودِ. سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَفْضَلَ كُلِّ حَامِدٍ وَمَحْمُودٍ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ. وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَطْهَارِ.

أَمَّا بَعْدُ: كُلُّ شَيْءٍ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ. فَعَلِمَ الْبَاطِنُ عِلْمٌ كَبِيرٌ. وَقَضَلَهُ مِنْ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ شَهِيرٌ بِذَلِكَ الْمَهْجِ وَالْأَرْوَاحِ فِي نَيْلِهِ نَزَرٌ يَسِيرٌ وَرُكُوبٌ بَخْرُهُ الْهَائِلُ أَمْرٌ خَطِيرٌ. إِلَّا مَنْ رَكِبَهُ مَعَ رَئِيسِ عَارِفٍ كَبِيرٍ. عَالِمٍ بِأَحْوَالِ الْبَحْرِ وَأَهْوَالِهِ. عَارِفٍ بِاسْتِخْرَاجِ يَوَاقِيْتِهِ وَلَآئِنِهِ. إِذَا تَعَاصَفَتْ عَلَيْهِ الْأَمْوَاجُ وَالرِّيَاحُ. أَوْى إِلَى سَفِينَةِ السَّنَةِ وَالْأَخْبَارِ الصَّحَاحِ. وَمَدَّارِ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى تَرْبِيَةِ الْيَقِينِ وَتَحْقِيقِ شَهُودِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَبَدَايَتِهِ مُجَاهِدَةٌ. وَنَهَايَتُهُ مُشَاهَدَةٌ. وَمِمَّنْ خَافَ هَذَا الْبَحْرَ الْخَطِيرَ، وَتَضَلَّعَ مِنْ مَاءِ عِلْمِهِ الْغَزِيرِ الشَّيْخُ الْكَامِلُ الْمُحَقِّقُ الْوَاصِلُ بِحَرِيِّ

زمانه. ورئيس دهره وأوانه. أَبُو الْحَسَنِ سيدي علي بن عبد الله النميري الششتوري، الأندلسي الأصل. الرباطي الدار. وشُتِرَ بشيئَيْنِ مُعْجَمَتَيْنِ، أُولُهُمَا مضمومة، وثانِيَهُمَا ساكنة، بعدها تاء مضمومة فوقية، هِيَ قَرْيَةٌ بالأندلس. وشُتِرَ أَيْضًا. مدينة بالعراق.

سَكَنَ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرِّبَاط. ثُمَّ جَالَ فِي الْبِلَادِ. فَدَخَلَ فاس ومكناس، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَجَالَ فِي بِلَادِهِمَا. وَبِهَا تَوَفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّامِ. نَزَلَ بِسَاحِلِ دِمِياط؛ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَتَزَلَّ قَرْيَةً هُنَاكَ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ. يَضْطَاطُ فِيهَا السَّمَكُ. فَقَالَ: مَا اسْمُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ فَقِيلَ لَهُ: الطَّيْنَةُ. فَقَالَ: حُتَّتِ الطَّيْنَةُ إِلَى الطَّيْنَةِ فَوَضَى أَنْ يُدْفَنَ بِمَقْبَرَةِ دِمِياط. فَحَمَلَهُ الْفُقَرَاءُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَتَوَفَى بِهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ تَاسِعَ عَشَرَ صَفَرًا، سَنَةَ ثَمَانِيَةٍ وَسِتِينَ وَسَمِائَةَ (١٩ صَفَر سَنَةِ ٦٦٨هـ).

كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ، وَأَوْلَادِ الْأُمَرَاءِ. فَصَارَ مِنْ سَادَةِ الْفُقَرَاءِ. أَخَذَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَرِيقَ التَّجْرِيدِ وَالتَّخْرِيبِ، فَتَالَ غَايَةَ التَّفْرِيدِ وَالتَّقْرِيبِ. رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا التَقَى شَيْخَهُ ابْنَ سَبْعِينَ، وَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُ: قَالَ لَهُ الشَّيْخُ: لَا تَتَّأَلْ مِنْ عَلَمِنَا هَذَا حَتَّى تُنْصِقَ جَاهَكَ. وَتُفْنِي مَالَكَ. فَبَاعَ كُلَّ مَا عِنْدَهُ وَتَصَدَّقَ بِهِ. وَلَبَسَ قَشَابَةً، وَاتَى إِلَى الشَّيْخِ، فَقَالَ: خُذْ بِنْدِيرًا وَاذْخُلِ السُّوقَ. فَقَالَ لَهُ: مَا نَقُولُ؟ فَقَالَ: قُلْ: بَدَأْتُ بِذِكْرِ الْحَبِيبِ، وَهَمْتُ وَعَيْشِي يَطِيبُ. وَبَخْتُ بِسِرِّ عَجِيبٍ. لَمَّا دَارَ الْكَاسُ مَا بَيْنَ الْجَلَّاسِ. وَأَحْيَتْهُمُ الْأَنْفَاسُ. عَنْهُمْ زَالَ الْبَاسُ الْخِ كَلَامِهِ. هَكَذَا سَمِعْتُ الْحِكَايَةَ مِنْ شَيْخِنَا، وَسَمِعْتُهَا أَيْضًا مِنْ غَيْرِهِ. مِمَّنْ لَهُ اغْتِنَاءٌ بِكَلَامِهِ. وَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهَا. وَلَهُ تَأْلِيفٌ مِنْهَا: كِتَابُ الْعَزْوَةِ الْوُثْقَى، فِي بَيَانِ السُّنَنِ، وَإِخْصَاءِ الْعُلُومِ. وَمَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَغْلَمَهُ وَيَغْتَقِدَهُ إِلَى وَقَاتِهِ. وَمِنْهُ اخْتَصَرَ رِسَالَتَهُ، الَّتِي اخْتَصَرَهَا التَّجِيبِي فِي الْإِنَالَةِ، وَمِنْهَا الْمَقَالِيدُ الْوُجُودِيَّةُ فِي أَسْرَارِ إِشَارَاتِ الصُّوفِيَّةِ. وَلَهُ الرِّسَالَةُ الْقُدْسِيَّةُ، فِي تَوْحِيدِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَالْمَرَاتِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْإِيمَانِيَّةِ، وَالْإِحْسَانِيَّةِ. وَلَهُ أَشْعَارٌ وَأَزْجَالٌ وَمَقْطَعَاتٌ فِي غَايَةِ الثَّبَلِ. جَمَعْتُ فِي دِيْوَانٍ كَبِيرٍ. وَمِنْهَا قَصِيدَتُهُ الَّتِي أَرَدْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا. الَّتِي أُولَاهَا: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرُ، وَسَرَى فِي سَرِي... إِلَى آخِرِهَا. وَقَبْلَ هِيَ لِشَيْخِهِ

عبد الحق بن سبعين . لكني رأيته في ديوانه من جُفلة أشعاره . قاله أعلم . وتوفي شيخه ابن سبعين بعد وفاته بسنة . قال رضي الله عنه : «المقتطفة الأولى» .

صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرُ . . وَسَرَى فِي سِرِّي . . إِنَّ عَيْنَ النَّظَرِ . . عَيْنُ عَيْنِ الْفِكْرِ . .

أَغْمِضْ طَرْفَكَ تَرَى . . وَتَلُوحُ أَسْرَارَكَ . . وَافِنْ عَنِ الْوَرَى . . تَبْدُو لَكَ أَخْبَارَكَ . .

يقول رضي الله عنه : صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرُ وحقيقته . وَسَرَى فِي قَلْبِي وروحي وسِرِّي حتى ذقته وهو أن عين النظر ، التي أَمَرَ اللَّهُ باستعمالها ، والنظر بها في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . [يوسف : ١٠١] ويقول : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . [يوسف : ١٠٩] هي عَيْنُ الْقَلْبِ ؛ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْفِكْرِ وَالْإِغْتِبَارِ . لَا عَيْنَ الْبَصَرِ الْجِسْمِيِّ ؛ لِأَنَّ عَيْنَ الْقَلْبِ ؛ هِيَ عَيْنُ الْفِكْرِ . لَا تَرَى إِلَّا الْمَعَانِي الْقَدِيمَةَ وَالْأَنْوَارَ الْقَدْسِيَّةَ . وَتُسَمَّى الْبَصِيرَةَ بِخِلَافِ عَيْنِ الْبَصَرِ الْجِسْمِيِّ ، لَا يَرَى إِلَّا الْمَحْسُوسَاتِ الْحَدِيثَةَ الْمَفْرُوقَةَ . فَإِذَا انْفَتَحَتِ الْبَصِيرَةُ . وَهِيَ عَيْنُ الْفِكْرِ ، اسْتَوَلَتْ عَلَى الْبَصَرِ الْجِسْمِيِّ . فَلَا يَرَى الْبَصَرُ حِينَئِذٍ إِلَّا الْمَعَانِي الَّتِي تَرَاهَا الْبَصِيرَةُ . فَيَسْتَوْلِي الْمَعْنَى عَلَى الْجِسْمِ . وَالْجَمْعُ عَلَى الْفَرْقِ . وَتَسْتَوْلِي الزَّوْحَانِيَّةَ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ . فَتَخْسُ الْبَشَرِيَّةَ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ . فَيَغِيبُ الْأَثَرُ ، وَيَبْقَى الْمُؤَثَّرُ . وَحِينَئِذٍ يَقُولُ صَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ : طَلَعَ النَّهَارُ عَلَى الْأَقْمَارِ ، وَلَا بَقِيَ إِلَّا رَبِّي . وَيَقُولُ أَيْضاً :

مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلُ مَجْمُوعُ
وَيَقُولُ أَيْضاً :

لَوْ كُفِّتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتَطِعْ . فَإِنَّهُ لَا غَيْرَ مَعَهُ حَتَّى أَشْهَدَهُ فَمَشْهُدُ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ ضِدَّانِ ، يَحْجُبُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ . فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الْمَحْسُوسَاتِ الَّتِي هِيَ مَشْهُدُ الْبَصَرِ . وَاسْتَعْلَى بِجِسْمِيَّتِهَا . وَاعْتَزَّ بِزَخْرَفِهَا ، حُجِبَ عَنِ الْمَعَانِي اللَّطِيفَةِ ؛ الَّتِي هِيَ مَشْهُدُ الْبَصِيرَةِ وَصَارَ مَخْجُوباً عَنِ اللَّهِ . وَاقْفَا مَعَ الْقِشْرِ الظَّاهِرِ ، لَمْ يَنْفِذْ إِلَى اللَّبِّ الْبَاطِنِ . قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيُّ

في الحِكم: «الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غُرَّةٌ. وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ. فَالْنَفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غُرَّتِهَا. وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا» هـ.

وقيل لرسول الله ﷺ: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَتُونَ. فقال: «الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا، حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا وَاهْتَمَّوْا بِأَجْلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا. فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشَوْا أَنْ يَمِيتَهُمْ. وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرَكُهُمْ. فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا عَارِضٌ إِلَّا رَفَضُوهُ، وَلَا خَادِعُهُمْ مِنْ رَفْعَتِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ. خَلَقَتِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ فَمَا يُحَدِّدُونَهَا. وَخَرِبَتْ بَيُوتُهُمْ فَمَا يُعْمَرُونَهَا. وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَمَا يُحْيُونَهَا. بَلْ يُهْدِمُونَهَا، فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ. وَيَبْعِدُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَى لَهُمْ. نَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صَرَغَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَثَلَاتُ. فَمَا يَرَوْنَ أَمَانًا دُونَ مَا يَزُجُونَ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَا يَجِدُونَ» هـ. ويحتمل أن يريد بعين النظر محلّه أو ذاته. فيكون المَعْنَى جَيئِيذٌ: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرُ. إِنَّ مَحَلَّ النِّظَرِ، هُوَ مَحَلُّ الْفِكْرِ؛ وَذَلِكَ لِاتِّحَادِهِمَا عِنْدَ الْعَارِفِ؛ لِأَنَّ مَا كَانَ غَيْبًا يُذْرِكُ بِالْفِكْرِ، صَارَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ يُذْرِكُ بِالنَّظَرِ. فَصَارَ عَيْنُ النِّظَرِ. هُوَ عَيْنُ الْفِكْرِ. وَعَيْنُ الْفِكْرِ هُوَ عَيْنُ النَّظَرِ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَةَ إِذَا فَتَحَتْ، اسْتَوْلَتْ عَلَى الْبَصَرِ فَاتَّحَدَ مَذْرُكُهُمَا.

وأما غيرُ العارف، ففكرته في المعاني الغيبية، ونظره في الأشياء الحسية. قال في الحِكم: «الْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةٌ تَصْدِيقٌ وَإِيمَانٌ. وَفِكْرَةٌ شَهُودٌ وَعَيَانٌ فَالْأَوَّلَى لِأَزْبَابِ التَّصْدِيقِ وَالْآخِرَةُ لِأَزْبَابِ الشَّهَادَةِ وَالْإِيمَانِ». هـ.

والحاصل أنه كلما يغمضُ بصره عن النَّظَرِ إِلَى الْحُصِيَّاتِ الْفَانِيَةِ، تُشْرِقُ عَلَيْهِ أَنْوَارُ الْمَعَانِي الْبَاقِيَةِ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: اِغْمِضْ طَرَفَكَ، تَرَى وَتَلُوحُ أَسْرَارُكَ. أَيِ اِغْمِضْ طَرَفَكَ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ الْحَادِثَةِ الْفَانِيَةِ، تَرَى الْمَعَانِي الْقَدِيمَةَ الْبَاقِيَةَ. اِغْمِضْ طَرَفَكَ مِنْ وُجُودِكَ الْوَهْمِيِّ تَلُوحُ أَسْرَارُكَ الْحَقِيقِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ؛ وَهِيَ الْعِلْمُ الْوَهْبِيُّ. فَالْحَسُّ فِي الْحَقِيقَةِ عَيْنُ الْمَعْنَى. لَكِنَّهُ رَدَاءٌ وَحِجَابٌ لِلْمَعْنَى. فَإِذَا تَنَحَّى رَدَاءُ الصُّوْنِ عَنِ الْكَوْنِ. أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ الْقَدَمِ، عَلَى صَفَحَاتِ الْعَدَمِ. فَتَلَاشَى الْحَادِثُ، وَبَقِيَ الْقَدِيمُ. وَقَدْ أَشْرَزَتْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي عَيْنِي فَقُلْتُ:

تَنَحَّ رِذَاءُ الصُّوْنِ عَنْ كَوْنِ رَبَّنَا فَصِرْنَا إِلَى نُورِ الْحَبِيبِ نَسَارِعُ
فَقَالَ لَنَا أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا جَمَالِي حَقًّا فِيهِ تَمَتُّعُ
أَوْ نَقُولُ المحسوسات أَوَانِي، حاملة للمعاني، فإذا تَكَسَّرَتِ الأَوَانِي،
سقطت المعاني، وفي ذَلِكَ يقول الناظم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي وَخَضَ بِخَرِّ الْمَعَانِي لَعَلَّكَ تَرَانِي.

وَأَكْبَرُ الْحُجُبِ: النَّظَرُ إِلَى ظَاهِرِ الْخَلْقِ. والغيبة عن الْمَلِكِ الْحَقِّ.
والاغْتِرَارِ بما هُمْ فِيهِ. وَالْخَوْفُ مَعَهُمْ فِي جِسْمِهِمُ الَّذِي هُوَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ. فَمَنْ
فَتَى عَنْهُمْ، وَغَابَ عَنْ جِسْمِهِمْ، لَاحَظَ لَهُ أَنْوَارَ وَظَهَرَتْ لَهُ أَسْرَارُ، وَإِلَى ذَلِكَ
أَشَارَ بِقَوْلِهِ: وَافَنَّ عَنِ الْوَرَى، تَبْدُو لَكَ أَخْبَارَكَ. أَيِ افَنَّ عَنْ رُؤْيَا الْوَرَى؛
بِعَيْنِهِ الْفَرْقِ. تَبْدُو لَكَ أَخْبَارَكَ أَيِ غُلُومِكَ، حَتَّى تَرَاهُمْ بِعَيْنِ الْجَمْعِ. وَفِي هَذَا
الْمَعْنَى، قَالَ شَيْخُ شِيُوخِنَا الْمَجْدُوبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الْخَلْقُ نُورٌ وَأَنَارِعِيثُ فِيهِمْ هُمْ الْحُجُبُ الْأَكْبَرُ. وَالْمَدْخَلُ فِيهِمْ
وَهُمُ الْحُجُبُ الْأَكْبَرُ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِهِمْ. وَالْمَدْخَلُ فِيهِمْ، لِمَنْ نَقَدَّ
إِلَى شُهُودِ خَالِقِهِمْ فِي ظَاهِرِهِمْ. قَالَ فِي لَطَائِفِ الْمَنَنِ: فَمَا تُصِيبُ الْكَائِنَاتِ
لِتَرَاهَا، وَلَكِنْ لَتَرَى فِيهَا مَوْلَاهَا. فَمُرَادُ الْحَقِّ مِنْكَ أَنْ تَرَاهَا بِعَيْنٍ مَنِ لَا يَرَاهَا.
تَرَاهَا مِنْ حَيْثُ ظُهُورِهِ فِيهَا. وَلَا تَرَاهَا مِنْ حَيْثُ كَوْنِيَّتِهَا. قَالَ: وَلَنَا فِي هَذَا
الْمَعْنَى: مَا أَثْبَتَ لَكَ الْمَعَالِمَ إِلَّا لَتَرَاهَا بِعَيْنٍ مَنِ لَا يَرَاهَا.

فَارَقَ عَنْهَا رُفَى مَنْ لَيْسَ يَرْضَى حَالَةَ دُونَ أَنْ يَرَى مَوْلَاهَا هـ. فَالناظر
لِلْكَائِنَاتِ غَيْرُ شَاهِدٍ لِلْحَقِّ فِيهَا، غَافِلٌ. وَالْفَانِي عَنْهَا عَبْدٌ بِسَطَوَاتِ الشُّهُودِ
ذَاهِلٌ. وَالشَّاهِدُ لِلْحَقِّ فِيهَا عَبْدٌ مَخْصَصٌ كَامِلٌ. وَإِنَّمَا تُزْفَعُ الْهِمَّةُ عَنِ الْكَوْنِ مِنْ
حَيْثُ كَوْنِيَّتُهُ، لَا مِنْ حَيْثُ ظُهُورِ الْحَقِّ فِيهِ فَاغْضَاءُ الزُّهَادِ وَالْعِبَادِ وَأَهْلُ الْإِرَادَةِ
عَنِ الْكَوْنِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا ظُهُورَ الْحَقِّ فِيهِ. وَذَلِكَ لِعَدَمِ تَقْوِذِهِمْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ
شَيْءٍ لَا لِعَدَمِ ظُهُورِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ. حَتَّى إِنَّهُ ظَهَرَ فِيهَا
بِهِ اخْتَجَبَ بِلَا حِجَابٍ هـ.

وقال الشيخ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ
عَلَى أَنْبِيَائِهِ: «مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِهِجْرَانِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ أَطَاعْتَهُ فِي كُلِّ

شيء، بَأَنْ أَتَجَلَّى لَهُ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَرَانِي أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». قال: وهذه طريق أولى، وهي طريق السالكين. وطريق أخرى كُبرى: مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِإِقْبَالِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. لِحَسَنِ إِزَادَةِ مَوْلَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَطَعْتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ بَأَنْ أَتَجَلَّى لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَرَانِي كَأَنِّي كُلُّ شَيْءٍ هـ. قال ابن عطاء الله فِي لَطَائِفِهِ: وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمَا وَلِيَان. وَلِي يَفْتَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَشْهَدُ مَعَ اللَّهِ شَيْئاً. وَلِي يَفْتَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ. فيشهد الله في كل شيء. وَهَذَا أَتَمُّ: لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُظْهِرِ الْمَمْلَكَةَ إِلَّا حَتَّى يُشْهَدَ فِيهَا. فَالكَائِنَاتُ مِرَاةُ الصِّفَاتِ. فَمَنْ غَابَ عَنِ الْكُونَ، غَابَ عَنِ شُهُودِ الْحَقِّ فِيهِ هـ. وقال في الْحِكْمِ: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَأَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ فُتِيَ فِيهِ، غَابَ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ أَحَبَّهُ، آثَرَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» هـ.

وفي بَعْضِ الْأَثَرِ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئاً، إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ فِيهِ». وَلَا تَخْصُلُ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَّا لِمَنْ صَقَلَتْ مِرَاةَ قَلْبِهِ. وَتَطَهَّرَتْ مِنَ الْأَغْيَارِ وَحِينَئِذٍ تَتَجَلَّى فِيهِ الْحَقَائِقُ وَالْأَسْرَارُ وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

وَبِصْفَلِ الْمِرْآةِ.. بِهِ تَزُولُ أَغْيَارُكَ.. وَتَلُوحُ لَكَ أَسْرَارُ..

مِنْ أَغْيَانِكَ تَسْرِي.. وَالتَّفَتُّ إِِنْ ظَهَرَ.. فِي سَمَاكَ الدَّرِّي.

قلت: المِرْآةُ بِكَسْرِ الميم، هي المِرْآةُ التي تنطبع فيها الأشياءُ عِنْدَ مُقَابَلَتِهَا، إِذَا صُقِلَتْ مِنَ الصَّدَا. وَكَذَلِكَ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ؛ وَهِيَ عَيْنُ الْفِكْرِ أَوْ عَيْنُ الْقَلْبِ، مِثْلُ الْمِرْآةِ كُلَّمَا اشْتَدَّ صَقْلُهَا وَصَفَاؤُهَا. اشْتَدَّ ظُهُورُ الْأَنْوَارِ فِيهَا. وَصَقْلُهَا يَكُونُ بِذِكْرِ اللَّهِ بِالْحُضُورِ وَانْجِمَاعِ الْقَلْبِ، وَالتَّفَرُّغِ مِنَ الْإِشْتَغَالِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لِكُلِّ شَيْءٍ مِضْقَلَةٌ. وَمِضْقَلَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ»^(١)، وَقَالَ ﷺ أَيْضاً: «إِنَّ الْقُلُوبَ تَضْدِي كَمَا يَضْدِي الْحَدِيدُ. وَإِنْ الْإِيمَانُ يَخْلُقُ كَمَا يَخْلُقُ الثُّوبُ الْجَدِيدُ»^(٢). أَنِي يَبْلَى كَمَا يَبْلَى الثُّوبُ. فَإِذَا صُقِلَ الْقَلْبُ مِنَ الْأَغْيَارِ أَشْرَقَتْ فِيهِ شَمْسُ

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) القسم الأخير من الحديث رواه الديلمي في الفردوس بلفظ: «الإيمان يخلق في جوف أحدهم كما يخلق الثوب فاسألوا الله عز وجل أن يجدد الإيمان في قلوبكم» حديث رقم (٣٨٧) [١١٤/١].

المَعَارِف والأنوار. فرغ قلبك مِنَ الْأَغْيَارِ. يُملأ بالمَعَارِف والأسرار. فَأَسْرَارِ
الذَّاتِ العالية وأنوار الصفات الأزلية، ظَاهِرَةٌ بَادِيَةٌ. وَمَا مَنَعَ الْقُلُوبَ أَنْ تَشْهَدَ
إِلَّا انطباع صور الْأَكْوَانِ فِي مِرْآئِهَا. فتظلمت الْقُلُوبُ بِالْأَكْثَادِ. وَفِي الْحُكْمِ:
كَيْفَ يَشْرِقُ قَلْبٌ صُورُ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرْآئِهِ. أَمْ كَيْفَ يَزْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ
مُكْبَلٌ بِشَهَوَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ؛ وَهُوَ لَمْ يَنْتَظِرْ مِنْ جَنَابَةِ
غَفْلَاتِهِ. أَمْ كَيْفَ يَفْهَمُ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ؛ وَهُوَ لَمْ يَثْبُثْ مِنْ هَفَوَاتِهِ هـ. وقال
الشاعر:

إِنْ تَلَاشَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي شَاهَدْتُ غَيْبَهُ فِي بَيَانِي
فَاطْرَحَ الْكَوْنُ عَنْ غَيْتَاكَ وَامْحَ نُقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتُ تَرَانِي

وهَذَا مَعْنَى قول النَّازِمِ: ويصقل المِرْآةَ - أي مِرْآةَ - الْقَلْبِ بِهِ تَزُولُ
أَغْيَارُكَ. أَيْ بِذَلِكَ الصَّقْلِ يَزُولُ أَغْيَارُكَ. أَيْ مَا يُغَيِّرُ قَلْبَكَ عَنْ الشُّهُودِ. وَيَحُولُ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ رُؤْيَا الْمَلِكِ المعبود. جَمْعٌ غَيْرُ بِكْسَرِ الْغَيْنِ، وَغَيْرُ بِفَتْحِهَا وَهُوَ مَا
سِوَى الْحَقِّ. وَإِذَا زَالَتْ عَنِ الْقَلْبِ الْأَغْيَارُ. أَشْرَقَتْ فِيهِ الْأَنْوَارُ وَالْأَسْرَارُ. أَغْنَى
أَنْوَارُ الصِّفَاتِ، وَأَسْرَارُ الذَّاتِ. فَبَرَى الْوُجُودَ كُلَّهُ نَوْرًا مُتَصِلًا بِأَنْوَارِ الْجَبَرُوتِ.
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ. وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ. وَلَا يَذُوقُ هَذَا إِلَّا مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ
بِصَحْبَةِ شَيْخٍ كَامِلٍ يُرْقِيهِ مِنْ ظِلْمَةِ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ، إِلَى أَنْوَارِ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ. أَوْ
مِنْ ظِلْمَةِ الْمُلْكِ إِلَى نُورِ الْمَلَكُوتِ. وَمَنْ نُورِ الْمَلَكُوتِ إِلَى أَسْرَارِ الْجَبَرُوتِ.
وإِلَّا فَالْغَالِبُ عَلَيْهِ احْتِجَابُهُ بِظِلْمَةِ الْأَغْيَارِ. أَوْ وَقُوفُهُ مَعَ الْأَنْوَارِ. وَفِي الْحُكْمِ:
رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ، كَمَا حَجَبَتِ النُّفُوسُ بِكَثَائِفِ الْأَغْيَارِ. وَقَالَ
النَّازِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَوْنِيته:

تَقَيَّدَتْ بِالْأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ عَلَيْكَ وَتُورِ الْعَقْلِ أَوْزَنُكَ السَّجَنَاتُ
وَهَمَّتْ بِأَنْوَارِ فَهْمِنَا أَصُولَهَا وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تَحَجَّبَ الْأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا تَبْعَدُ مِنْ أَظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنًا
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: وَتَلَوُحُ لَكَ الْأَسْرَارِ، معطوفة على تَزُولُ. أَيْ وَيَسَبِّبُ صَقْلُ مِرْآةِ
قَلْبِكَ، تَزُولَ عَنْكَ الْأَغْيَارُ. وَتَلَوُحُ لَكَ الْأَسْرَارِ؛ وَهِيَ أَسْرَارُ الذَّاتِ. مُرْتَدِيَةٌ

بأنوار الصفات. أو تقول: تلوح لك أسرار الملكوت. فائضة من بحار الجبروت، جارية بالقُدرة. مُرتدية بحجاب الحكمة؛ التي مدارها على عالم الملك.

فالمُلك ما ظهر من التجليات. والملكوت ما بطن من أسرار الذات. والجبروت ما سبق قبل التجليات. فإذا ضُمت الفروع إلى الأصول، صار الجميع جبروتاً ولأهوتاً؛ وهذه الأسرار مجموعة فيك أيها الإنسان. فظاهرك مُلك. وباطنك ملكوت. فإذا تَلَطَّفت عوالمُك، وفنيت دائرة حسك، صرت جبروتاً. فتكون تلك الأسرار تسري منك إليك. ولهذا معنى قوله: من عُيونك تسري. أي تسري إليك من عيني وجودك والجمع للتعظيم. ولهذا كقوله في بغض أشعاره: مَنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤُوسِي. وكقوله أيضاً:

يا قاصداً عينَ الحَبَر غَطَّاهُ أَيْنُكَ
الخبر منك والخبر والسُّرُوءُ نَدَكَ
إزِجْ لَذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ مَائِمَ غَيْرِكَ
وكقول صاحب العينية^(١):

نَفْسُكَ تَخْوِي بِالْحَقِيقَةِ كُلِّهَا أَشْرْتُ بِجِدِّ الْقَوْلِ مَا أَنَا خَادِعُ

وقوله: والتفت إن ظهر في سما قلبك... الخ أي التفت إلى الوجود تجده ظاهراً في سَمَا قلبك الصَّافِي كَالدُّرِّ؛ لَأَنَّ الْقَلْبَ إِذَا صَفَا، اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ شُهُودِهِ، فانطَبَعَ فيه الوجود بِأَسْرِهِ مِنْ عَرْشِهِ إِلَى فَرْشِهِ. وصار فيك كَنُقْطَةِ مَنْ بَخِرَ وَلِذَلِكَ قَالَ بَغْضُهُمْ:

لَوْ كَانَ الْعَرْشُ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا قَلْبِ الْعَارِفِ. مَا أَحْسَسَ بِهِ. وقال آخر:
العرش والكرسي مُتَدَقَّانِ فِي تَرْسِي. وقال صاحب المباحث:

أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْشُ وَالْكَرْسِيُّ.. وَالْعَالَمُ الْعُلُويُّ وَالسُّفْلِيُّ.. مَا الْكَوْنُ إِلَّا

(١) الشيخ عبد الكريم الجبلي المتوفى سنة ٨٠٥ هجرية وقد سبقت الإشارة إليه وإلى عينيته.

رَجُلٌ كَبِيرٌ . . وَأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرٌ .

قُلْتُ: كَوْنُ الْكَوْنِ رَجُلًا كَبِيرًا وَالْإِنْسَانُ كَوْنًا صَغِيرًا. مَحَلَّهُ مَا لَمْ يَصِرْ عَارِفًا بِاللَّهِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَارِفًا؛ فَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ، وَالْكَوْنُ رَجُلٌ صَغِيرٌ لَا تَسَاعِ دَائِرَةُ شَهْوَدِهِ. فَتُشْرَحُ فِكْرَتُهُ. حَتَّى تَسْتَوِلِيَ عَلَى الْوَجْدِ بِأَسْرِهِ. وَمِمَّا يُنْسَبُ لِابْنِ عَبَّاسٍ الْمَرْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَا نَائِهًا فِي مَهْمَةٍ عَنْ سِرِّهِ انْظُرْ تَجِدُ فِيكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ
أَنْتَ الْكَمَالُ طَرِيقَةً وَحَقِيقَةً يَا جَامِعًا سِرَّ الْإِلَهِ بِأَسْرِهِ
وَقَالَ النَّاطِمُ أَيْضًا فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ:

وَأَنْتَ مَرَّةَ الْإِنْظَارِ قُطِبُ الزَّمَانِ
وَفِيكَ يَطْوِي مَا انْتَشَرَ مِنْ الْأَوَانِي
وَقَالَ أَيْضًا فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ: إِذَا رَأَيْتَ الْوُجُودَ قَدْ لَاحَ فِي ذَاتِكَ كَذَا وَلَا زَمَ الْجُحُودَ ذَاكَ صِفَاتِكَ وَاضْرِبْ بِتُرْسِكَ الْعُقُودَ. وَأَلْقِ عَصَاتِكَ. وَأَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ:

الْفُلُكُ فِيكَ يَدُورُ وَيُضِيءُ وَيَلْمَعُ . . وَالشُّمُوسُ وَالْبُدُورُ . . فِيكَ تَغِيْبُ
وَتَطْلُعُ . . فَافْتَرَأَ مَعْنَى السُّطُورِ . . الَّتِي فِيكَ اجْمَعَ . . لَا تُعَادِرُ سَطْرَ مَنْ سَطُورُكَ
وَأَذِرِي . . أَشْرُهُ مَعْنَى الْقَمَرِ . . الَّذِي فِيكَ يَسِرِّي . .

قُلْتُ: الْفُلُكُ شَيْءٌ مُسْتَدِيرٌ بِكَرَةِ الْأَرْضِ عِنْدَ أَهْلِ التَّنْجِيمِ؛ وَهُوَ عِنْدَهُمْ مُتَعَدَّدٌ إِلَى تِسْعَةِ أَفْلَاقٍ.

هَلْ هِيَ السَّمَاوَاتُ أَوْ غَيْرُهَا قَوْلَانِ عِنْدَهُمْ. فَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْحَسِّي؛ لِأَنَّ الْعَارِفَ اتَّسَعَ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ؛ فَلَا يَخْصُرُهُ الْكَوْنُ؛ لِأَنَّ رُوحَانِيَّتَهُ اسْتَوَلَتْ عَلَى الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ. مِنْ عَزِيزِهِ إِلَى فَرْشِهِ. فَالْأَفْلَاقُ تَدُورُ فِي جَوْفِهِ، بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا وَنَجُومِهَا؛ فَهِيَ تَغِيْبُ وَتَطْلُعُ فِي وَسْطِ رُوحَانِيَّتِهِ. وَتُضِيءُ وَتَلْمَعُ فِي عَيْنِ فِكْرَتِهِ. هَذَا بِإِغْتِبَارِ الرُّوحَانِيَّةِ. وَأَمَّا بِإِغْتِبَارِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَهِيَ مَحْصُورَةٌ بِالْأَكْوَانِ دَائِرَةً عَلَيْهَا. قَالَ فِي الْحَكَمِ: وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتُكَ، وَلَمْ يَسْغَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتِ رُوحَانِيَّتِكَ. وَلَا يَفْهَمُ هَذَا إِلَّا مَنْ غَلَبَتْ رُوحَانِيَّتُهُ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ.

وفي الْحَكَمِ أَيْضاً: الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ؛ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينَ الْغُيُوبِ، مَسْجُونٍ بِمُحِيطَاتِهِ. مَحْضُورٍ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ هـ. فَيَكُونُ حَيْثُذ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، يَسْتَدِلُّ بِوُجُودِهِ عَلَى وَجُودِ خَالِقِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَنشِئْنَاكُمْ أَفْلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣١﴾. [الذاريات: ٢١] وَإِلَى هَذَا الْقِسْمِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: فَاقْرَأْ مَعْنَى السُّطُورِ الَّتِي فِيكَ أَجْمَعِ. وَهُوَ مَا سَطَرْتَهُ الْقُدْرَةُ فِي ظَاهِرِ الْبَشَرِيَّةِ، مِنْ تَسْوِيَةِ الْأَعْضَاءِ، وَحُسْنِ التَّقْوِيمِ. فَقَدْ انْطَوَى فِي هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الْحَسِّيَّةِ مَا وَجَدَ فِي الْوُجُودِ الْحَسِّيِّ، مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرْشِ. وَالرَّأْسِ كَالْعَرْشِ. وَالصُّدْرُ كَالْكُرْسِيِّ وَالْأَمْعَاءُ كَالْأَفْلَاقِ. وَالْعِظَامُ كَالْجِبَالِ. وَاللَّحْمُ كَالثَّرَابِ. وَالشَّعْرُ كَالشَّجَرِ. وَالْقَمْلُ كَالدَّوَابِّ. وَالْعُرُوقُ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الدَّمُ، كَالْعُيُونِ وَالْأَنْهَارِ. فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. فَتَحْصُلُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرُّوحَ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِهَا، وَرَجَعَتْ إِلَى أَصْلِهَا، اسْتَوَلَّتْ عَلَى الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ. فَتَكُونُ الْأَفْلَاقُ تَدُورُ فِي بَاطِنِهَا. وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

الْفَلَكَ فِيكَ يَدُورُ إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ. وَإِنْ لَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهَا، وَبَقِيَتْ مَحْضُورَةً فِي هَيْكَلِ ذَاتِهَا اسْتَدَلَّتْ بِحُسْنِ صُورَتِهَا عَلَى وَجُودِ خَالِقِهَا. كَمَا يَسْتَدِلُّ الْقَارِئُ بِالرَّسْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْفُهْمِ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: فَاقْرَأِ السُّطُورَ، الَّتِي فِيكَ أَجْمَعِ لَا تَغَادِرْ... أَي لَا تَتْرَكَ سَطراً وَاحِداً مِنْ سَطُورِكَ الَّتِي سَطَرْتَهَا فِيكَ الْقُدْرَةُ الْأَزَلِيَّةُ. وَالْحِكْمَةُ الْبَاقِيَّةُ. وَادِرِ حَيْثُذِ مَعْنَى قَمَرِ التَّوْحِيدِ؛ الَّذِي نُورُهُ يَسْرِي فِي قَلْبِكَ. فَتَهْتَدِي بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّكَ. فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ عَارِفٍ. أَخْرَجَكَ مِنْ سَجَنِ نَفْسِكَ إِلَى فَضَاءِ شُهُودِ رَبِّكَ. فَتَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ؛ الَّذِينَ تَدُورُ الْأَفْلَاقُ فِي وَسْطِ رُوحَانِيَّتِهِمْ، وَتَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَتَغِيبُ فِي جَوْفِ فِكْرَتِهِمْ. فَبَدَأَ النَّاطِقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْقِسْمِ الْعَالِيِّ. ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْقِسْمِ الْأَسْفَلِ، مِنْ بَابِ التَّدْلِي. كَقَوْلِهِ ﷺ فِي تَفْسِيرِ الْإِحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١). فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ مِمَّنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَى. فَكُنْ مِنْ مِمَّنْ يَعْْبُدُ كَأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، عَلَى أَحَدِ التَّفَاسِيرِ. وَعِنْدَ أَهْلِ الْإِشَارَةِ فَإِنْ لَمْ

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب «لا تشرك بالله إنا الشرك لظلم عظيم» حديثه رقم (٤٤٩٩) [١٧٩٣/٤] ومسلم في صحيحه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٨) [٣٦/١] ورواه غيرهما.

تَكُنْ، فَحِيتُذْ تَرَاهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِالْفَلَكَ فَلَكَ الْحَقِيقَةُ؛ وَهِيَ الْأَنْوَارُ الْمَحِيطَاتُ بِالْأَغْيَارِ الْمَاحِيَةِ لِلْأَنْوَارِ. قَالَ فِي الْحَكَمِ: «مَحَقَّتْ الْأَنْوَارُ بِالْأَنْوَارِ. وَمَحَوَتْ الْأَنْوَارُ بِمَحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ.» هـ. فَالْأَنْوَارُ الَّتِي مَحَقَّتْ بِالْأَنْوَارِ؛ هِيَ الْأَنْوَارُ الَّتِي اخْتَوَى عَلَيْهَا الْعَرْشُ. فَإِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، كَحَلَقَةٍ فِي فَلَائِهِ. فَقَدْ مَحَقَّتْ فِي جَانِبِ الْعَرْشِ وَاضْمَحَلَّتْ. وَلِلْأَنْوَارِ الَّتِي مَحِيتْ بِمَحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ؛ هِيَ الْعَرْشُ وَمَا اخْتَوَى عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا وَجُودَ لَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ الْأَزَلِيَّةِ الْمَحِيطَةِ بِهِ. فَقَدْ مَحَقَّتْهُ وَأَفْنَيْتْهُ وَجُودَهُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: حَقِيقَةُ الْفَنَاءِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ مَحْوُ وَاضْمَحَلَالٍ وَذَهَابٍ عِنْدَكَ وَزَوَالٍ هـ. أَيْ يَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. وَالْمُرَادُ بِالشُّمُوسِ حِينَئِذٍ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ. وَبِالْبُدُورِ بُدُورُ التَّوْحِيدِ الدَّائِي وَالصِّفَاتِي وَالْفِعْلِي. فَإِذَا غَابَتْ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ، أَغْنَى الْأَذْوَاقُ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِمُ بُدُورُ التَّوْحِيدِ، وَنَجْمُ الْعِلْمِ. فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَتَرَقَّى إِلَى هَذَا الْمَقَامِ. فَاقْرَأْ مَعْنَى السُّطُورِ الَّتِي سَطَّرَتْهَا الْقُدْرَةُ فِي ظَاهِرِ بَشْرِيكَ. حَتَّى تَتَعَشَّقَ إِلَى صَانِعِكَ، فَإِذَا رَأَى تَعَطُّشَكَ زَرْقَكَ مَنْ يَأْخُذُ بِبَيْدِكَ إِلَى أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَى شُهُودِهِ. فَتَكُونُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الْأَعْلَى؛ الَّذِي تَدُورُ الْأَفْلَاكُ فِي وَسْطِ قُلُوبِهِمْ، وَتَشْرُقُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ عَلَى رُوحَانِيَّتِهِمْ، فَتَكُونُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَحَسَنَ أَوْلِيَائِكَ رَفِيقًا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ وَحْشَرَنَا مَعَهُمْ آمِينَ بِمِنْه وَكَرَمِهِ، وَبِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بَخْرُ فِكْرِي عَمِيقٌ.. رِيحُ مَسْكَ يَغْبِقُ.. مَنْ دَخَلُوا حَقِيقٌ.. لَأَشْ يَخَافُ أَنْ يَفْرُقُ.. يَذَرِي هَذَا الطَّرِيقَ.. مَنْ كَانَ عَبْدَ الْحَقِّ.

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَخْرُ فِكْرِي عَمِيقٌ. أَيْ لَا قَعَرَ لَهُ وَلَا حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا تَسَرَّحَتْ تَبَعَتْ الْمَعَانِي. وَمَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ لَا نِهَايَةَ لِأَوَّلِيَّتِهَا وَلَا لِآخِرِيَّتِهَا. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ. وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ ابْنُ الْفَارِضِ فِي حَمَرِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ:

فَلَا قَبْلَ لَهَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ لَهَا بَعْدَ وَقَبْلِيَّةِ الْأَبْعَادِ هِيَ لَهَا خْتَمٌ
فَإِذَا سَبَحَتْ الْفِكْرَةُ فِي بَخْرِ عَظَمَةِ الْأَزَلِيَّةِ وَجَدْتُهُ لَا سَاحِلَ لَهُ. وَإِذَا

سَبَحَتْ فِي بَحْرِ عَظَمَةِ الْأَحَدِيَّةِ. وَجَدْتَهُ لَا سَاحِلَ لَهُ. وَكَذَلِكَ بَحْرُ الْفُوقِيَّةِ وَالتَّخْتِيَّةِ. لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ، لَا تَحِيْطُ بِهِ الْأَفْكَارُ. وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَلَا تَكْتِفُهُ الْعُقُولُ. فَالْعَارِفُونَ يَعْزَمُونَ بِسُفْنِ أَفْكَارِهِمْ فِي بَحْرِ الْعَظَمَةِ الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ. فَإِذَا خَافُوا مِنَ الْغَرَقِ رَجَعُوا إِلَى عِشِّ الْعُبُودِيَّةِ. فَأَقْرَأُوا بِالْعَجْزِ وَتَأَدَّبُوا بَيْنَ يَدَيِ الرُّبُوبِيَّةِ. رُوي أَنَّ مَلَكًا اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يَطِيرَ إِلَى سَمَاءِ الْعَظَمَةِ الْعُلُويَّةِ. فَطَارَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَقَالَ يَا رَبِّ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا مَعَكَ. ثُمَّ طَارَ كَذَلِكَ، فَقَالَ يَا رَبِّ. أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا مَعَكَ. فَقَالَ: سُبْحَانَكَ. مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! فَطَلَبَ مِنَ الْحَقِّ تَعَالَى أَنْ يَرْدُّهُ إِلَى مَوْضِعِهِ فَرَجَعَ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ. وَكَذَلِكَ فِكْرَةُ الْعَارِفِينَ، تَعُومُ فِي بَحْرِ الْعَظَمَةِ الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ. وَالْفُوقِيَّةِ وَالتَّخْتِيَّةِ. فَلَا تَجِدُ لَهُ سَاحِلًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ. فَتَرْجِعُ إِلَى عِشِّ الْعُبُودِيَّةِ وَالْعَجْزِ. فَتَقُولُ حِينَئِذٍ الْعَجْزُ عَنِ الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكَ.

وقوله: رِيحُ مَسْكَ يَغْبِقُ: يَغْنِي أَنْ مَنْ دَخَلَ بَحْرَ الْفِكْرَةِ، وَعَامَ فِيهِ، هَبَّ عَلَيْهِ نَيْسِمُ الْوِصَالِ. وَرِيحَانُ الْجَمَالِ. حَتَّى يَلِجَ بِهِ جَنَّانُ الْكَمَالِ، فَيَسْكُنُ فِي رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ.

وقوله: مَنْ دَخَلُوا حَقِيقَ... الخ أَيُّ مَنْ دَخَلَ هَذَا الْبَحْرَ مَعَ رَئِيسِ عَارِفٍ كَالشَّيْخِ الثَّائِمِ وَأَمْثَالِهِ، لَا يَخَافُ أَنْ يَغْرُقَ؛ لِأَنَّ الرَّئِيسَ عَارِفَ بِأَهْوَالِ الْبَحْرِ، كَلِمَا هَاجَتْ عَلَيْهِمْ عَوَاصِفُ الرِّيحِ أَوَى بِهِمْ إِلَى سَفِينَةِ السَّنَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ: وَهِيَ مَضمُونَةٌ مِنَ الْغَرَقِ، كَسَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقوله: لَا شَيْءَ يَخَافُ. يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الشَّيْنُ زَائِدَةً. أَيُّ حَقِيقَ بِأَنْ يُقَالَ فِي حَقِّهِ: لَا شَيْءَ يَخَافُ أَنْ يَغْرُقَ؛ وَهُوَ مَأْمُونٌ إِنْ أَوَى إِلَى سَفِينَةِ النِّجَاةِ.

وقوله: يَذَرِي هَذَا الطَّرِيقَ... الخ يَغْنِي أَنْ طَرِيقَ اسْتِعْمَالِ الْفِكْرَةِ وَدُخُولِ بَحْرَهَا يَعْرِفُهَا مَنْ كَانَ عَبْدًا لِلَّهِ حَقِيقَةً حُرًّا مِمَّا سِوَاهُ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ عَبْدًا لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ. فَهُوَ ضَالٌّ فِي عِلْمِهِ. جَاهِلٌ بِحُكْمِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ لِلْهِمُ هَوَاهُ وَأَسْأَلُهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ﴾ [الْبَاقِيَةُ: ٢٣]... الْآيَةُ. فَإِنْ تَبَحَّرَ أَوْ دَخَلَ الْبَحْرَ وَخَدَّهُ، هَاجَتْ عَلَيْهِ الرِّيَّاحُ. وَتَلَاطَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمْوَاجُ. فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ فِي بَحْرِ الزُّنْدَقَةِ وَالْكَفْرِ. وَفِي قَوْلِهِ: عَبْدُ الْحَقِّ: إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى تَعْظِيمِ شَيْخِهِ:

عند الحق بن سبعين أي يذري هذا الطريق، مَنْ كَانَ مِثْلَ عَبْدِ الْحَقِّ. فِي مَعْرِفَتِهِ وَتَحْقِيقِهِ. وَإِنْ كَانَتْ الْقَصِيدَةُ لَشَيْخِهِ، فَيَكُونُ أَشَارَ إِلَى أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ، لَا يَذْرِهَا إِلَّا مَنْ عَلَا قَدَمُهُ، مِنَ التَّجْرِيدِ وَالتَّخْرِيبِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ص) إِنَّ ذَاكَ الْبَحْرَ... لِأَنَّ يُقَاسَ بِبَحْرِي..
بَحْرُ فِكْرِي دُرُّ.. وَالزُّهْرُ فِي بَرِّي.

(ش) قُلْتُ: الْإِشَارَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِلَى الْبَحْرِ الْحَسِّي. وَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرُ بِالْخُصُوصِ. أَيْ إِنَّ ذَاكَ الْبَحْرَ الْحَسِّي، لَا يَشِيءُ يُقَاسُ بِبَحْرِي أَوْ لَا يُقَاسُ بِبَحْرِي؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْحَسِّي مَحْدُودٌ مَخْصُورٌ. وَيَبْحَرِي عَمِيقٌ لَا نِهَآيَةَ لَهُ بَحْرِي كُلُّهُ دُرُّ الْحِكْمِ، وَيَوَاقِيتُ الْعُلُومِ بِخِلَافِ الْبَحْرِ الْحَسِّي. قَدَّرَهُ حَسِيَّةٌ حَجَرِيَّةٌ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ قَلِيلَةٌ نَادِرَةٌ. وَيَبْحَرِي أَيْضًا دَاخِلُهُ دُرُّ. وَظَاهِرُهُ أَزْهَارٌ أَغْنِي بَاطِنَهُ تَحْقِيقٌ. وَظَاهِرُهُ تَشْرِيعٌ. بَاطِنُهُ مَنُورٌ بِنُورِ الْحَقِيقَةِ الْأَزَلِيَّةِ. وَظَاهِرُهُ مُبْهِجٌ بِزَهْرِ جَمَالِ الشَّرِيعَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
فَالْتَفَتُ الْخِطَابَ.. وَسَمِعْتُ مِنِّي.. كُلِّي عَنْ كُلِّ غَابٍ.. وَأَنَا عَنِّي مَفْنِي.. وَارْتَفَعَ لِي الْحِجَابُ.. وَشَهِدْتُ أَنِّي...

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا دَخَلْتُ فِكْرَتِي مَيْدَانَ التَّوْحِيدِ، وَخَاصَّتْ فِي بَحَارِ التَّفْرِيدِ. حَصَلَ لِي الْجَمْعُ الْكُلِّي. حِينَ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلِي، فَاجْتَمَعَتْ الْفُرُوعُ بِالْأَصُولِ. وَصِرَتْ بِالْوُصُولِ نَصُولٌ. فَاتَّحَدَ عِنْدِي الْوُجُودُ وَصَقَلَ لِي غَايَةُ الشُّهُودِ. فَالْتَفَتُ إِلَى الْخِطَابِ الصَّادِرِ مِنَ الْأَحْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مِنِّي لِي. حِينَ صَارَ بَعْضِي كُلِّي. فَصِرْتُ بِاللَّهِ أَنْطَقُ. وَمِنْ اللَّهِ أَسْمَعُ. قَدْ غَابَ كُلِّي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فِي شُهُودِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. فَأَنَا عَنْ شُهُودِ نَفْسِي مَفْنِي. حِينَ غِبْتُ عَنْ وَجُودِي الْوَهْمِيِّ. فَارْتَفَعَ عَنِّي الْحِجَابُ. وَدَخَلْتُ مَعَ الْأَحْبَابِ. وَانْقَشَعَ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي الْعَيْنُ. وَشَهِدْتُ أَنِّي عَيْنُ الْعَيْنِ. فَإِنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَتِ النَّاسُ فِي الْهَوَى. فَلِلَّهِ يَا خَالِي الْحَسَا لَا تُعْتَفْنَا.. إِنْ لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ. لِأَنَّا رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ.. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَا بَقِيَ لِي أَثَرٌ.. غِبْتُ عَنْ أَثَرِي.. لَمْ أَجِدْ مَنْ حَضَرَ.. فِي الْحَقِيقَةِ

غَيْرِي.

أَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ غَابَ عَنْ جَسِّهِ، وشهود رَسْمِهِ. فَأَنْطَوَى وَجُودُهُ فِي وجودٍ مَخْبُوءٍ. وشُهودُهُ فِي شهودٍ مَغْبُودٍ؛ فَهُوَ غَرِيقُ الْأَنْوَارِ. مَطْمُوسِ الْأَثَارِ قَدْ اتَّحَدَ عِنْدَهُ الوجود، فَصَارَ وجوداً وَاحِداً. فَلَمْ يَجِدْ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرَ وجودِهِ؛ لِأَنَّ وجودَهُ صَارَ مَوْصُولاً بِالْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّةِ؛ وَالْأَنْوَارِ الْأَزَلِيَّةِ. فَلَمْ يَشْهَدْ فِي الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ. وَلَمْ يَرِ فِي الْكَوْنَيْنِ إِلَّا إِيَّاهُ. فَإِنْ قُلْتُ: الْعَيْنَةُ عَنِ الْأَثَرِ بِالْكُلِّيَّةِ، نَقُصُّ بِاعْتِبَارِ مَا بَعْدَهُ مِنْ شُهُودِ الْأَثَرِ وَالْمُؤَثِّرِ. كَمَا قَالَ فِي الْحِكْمِ وَأَكْمَلَ مِنْهُ رَجُلٌ شَرِبَ فَأَزْدَادَ صَخَواً، وَغَابَ، فَأَزْدَادَ حُضُوراً. فَلَا فَرْقَهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمِيعِهِ. وَلَا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ. وَلَا فَنَائِهِ يَصُدُّهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلَا بَقَاؤُهُ يَضْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. قُلْتُ: لَا طَرِيقَ لِشُهُودِ الْأَثَرِ وَالْمُؤَثِّرِ، إِلَّا الْعَيْنَةُ أَوَّلًا عَنِ الْأَثَرِ؛ فَهِيَ فَنَطْرَةٌ تُوْدِي إِلَيْهَا. وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ مَقَامَ الْفَنَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَقَامِ الْبَقَاءِ. إِنْ كَانَ لَهُ شَيْخٌ يُزَيِّيه، كَالثَّائِمِ وَأُمَثَالِهِ. فَلَعَلَّهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، كَانَ غَرِيقَ الْأَنْوَارِ ثُمَّ تَكَمَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ. فَالْفَنَاءُ ضَامِنٌ لِلْبَقَاءِ لَا مَحَالَةَ. بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَقَامَ الْفَنَاءِ، لَا يَطْمَعُ فِي مَقَامِ الْبَقَاءِ أَبَداً. وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيراً يَمُنُّ غُلُطٍ فِي نَفْسِهِ، فَادَّعَى الْمَقَامَ الثَّانِي؛ وَهُوَ الْبَقَاءُ، قَبْلَ سُلُوكِهِ مَقَامَ الْفَنَاءِ. بَلْ هُوَ ظَاهِرِي مَخْضُ، لَمْ يُعْجِبِ الرُّجَالُ، وَلَا سَلَكَ عَلَى أَيْدِي الْكُمَالِ وَهُوَ يَتَرَامَى عَلَى هَذَا الْمَقَامِ الرَّفِيعِ. فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فصل: وَقَدْ تَكَلَّمْتُ مَعَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَجَمِّدِينَ عَلَى ظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَقَالَ لِي: نَحْنُ هُمْ أَهْلُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ إِذْ هُوَ فِيهِمُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَا هُوَ الَّذِي تَفْهَمُ. ثُمَّ قُمْتُ عَنْهُ وَتَرَكْتُهُ فَاللَّهُ يَعَصِمُنَا مِنَ الْغَلْطِ وَالزَّلَلِ وَيُوفِقُنَا لِصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

سَادَتِي وَافْهَمُوا.. الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِي.. هَذَا لِأَشْ نَكْتُمُوا.. عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي.. سِرِّي لَا يَفْهَمُوهُ.. إِلَّا مَنْ هُوَ مِثْلِي..

أَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ سَمِعَهُ، أَنْ يَفْهَمَ الْمُرَادَ مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ، وَمَا وَرَاءَ تِلْكَ الْإِشَارَاتِ مِنْ دَقَائِقِ الْأَسْرَارِ. وَحَقَائِقِ الْأَنْوَارِ؛ فَإِنَّ عَلِمْنَا كُلَّهُ إِشَارَةً. فَإِذَا صَارَ عِبَارَةً خَفِي. ثُمَّ عَائَبَ مَنْ فُهِمَ تِلْكَ الْأَسْرَارَ ثُمَّ كَتَمَهَا عَنْ

أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا. لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تُؤْتُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا، فَتُظْلِمُوهَا وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتُظْلِمُوهُمْ»^(١). وَأَهْلُ هَذَا السَّرِّ: هُوَ مَنْ أُعْطِيَ كُلِّيَّتَهُ لِلَّهِ، أُعْطِيَ نَفْسَهُ وَفَلْسَهُ. وَزَهَدَ فِي جَنْبِهِ. وَتَجَرَّدَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَإِذَا فَعَلَ هَذَا حَرَّمَ كَثَمَ السَّرِّ عَنْهُ. كَمَا حَرَّمَ التَّصْرِيحَ بِهِ لِغَيْرِ أَهْلِهِ، لِقَوْلِ سَيِّدِنَا عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يَكْذِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». وَقَالَ الشَّاعِرُ: وَمَنْ مَنَعَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ..

وقد كان الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُلْقِي الْحَقَائِقَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: عَلِمْنَا مُحْفُوظٌ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ. أَوْ كَلَامَ هَذَا مَعْنَاهُ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّازِمُ بِقَوْلِهِ: سِرِّي لَا يَفْهَمُوهُ. إِلَّا مَنْ هُوَ مِثْلِي أَيْ مِمَّنْ دَخَلَ الْفَنَاءَ وَعَرَفَ مَقَامَ الْإِحْسَانِ وَإِلَّا لَمْ يَذُقْ مِنْهُ شَيْئًا. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ. ثُمَّ اعْتَذَرَ عَنْ إِظْهَارِ تِلْكَ الْحَقَائِقِ لِلنَّاسِ وَفِيهِمُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ. بِكَوْنِ الْسُّكْرِ غَالِبًا عَلَيْهِ فَقَالَ:

سِلْكَ عِقْدِي انْتَرِ.. وَبَدَا لِي دُرِي.. نَظْمُوهُ يَا جَوَارُ.. إِنِّي فِي سُكْرِي..
قُلْتُ: سِلْكَ الْعَقْدَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ: هُوَ الْخِيطُ الَّذِي انْتَضَمَتْ فِيهِ الْجَوَاهِرُ. وَانْتِشَارُهُ قِطْعُهُ. فَإِذَا قُطِعَ انْتَشَرَتِ الْجَوَاهِرُ وَسَقَطَتْ. يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْرَارُ الَّتِي نَطَقْتُ بِهَا فِي هَذَا النَّظْمِ: جَوَاهِرُ وَبَوَاقِيَّتِ فِي سِرِّي مُحْفُوظَةٌ، مَنَظُومَةٌ فِي سِلْكِهَا. فَلَمَّا غَلَبَ عَلَيَّ السُّكْرُ انْقَطَعَ عَقْدُهَا وَانْتَشَرَ. فَتَطَقَّتْ بِهَا وَالسُّكْرُ غَالِبٌ عَلَيَّ. فَانْظَمُوهَا أَيُّهَا السَّامِعُونَ وَصَوِّتُوهَا عَنْ غَيْرِ أَهْلِهَا. وَقِيدُوهَا، وَاحْفَظُوهَا كَيْ لَا تَضِيْعَ، فَإِنِّي غَائِبٌ فِي سُكْرِي. وَالْجَوَارِي بِكَسْرِ الْجِيمِ، جَمْعُ جَارٍ أَوْ جَارِيَةٍ، أَطْلَقَهُ عَلَى أَصْحَابِهِ الْمَجَارِرِينَ لَهُ. وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْجَوَارِي مَجَازًا وَتَلْمِيحًا: لِأَنَّ الشَّعْرَ يَحْسَنُ فِيهِ اسْتِعْمَالُ الْجَوَارِ وَالْمَغْنِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّنْ هُوَ مَقْرُونٌ بِالْخَمْرِ الْحَسِيِّ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) روى نحوه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب الأدب، حديث رقم (٧٧٠٧) وعبد بن حميد مسنده، عن ابن عباس حديث رقم (٦٧٥) [٢٢٥/١] ورواه غيرهما.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

هَذَا آخِرُ التَّقْيِيدِ الْمُبَارَكِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَبْيِضِهِ زَوَالَ يَوْمِ الْخَمِيسِ سَابِعِ صَفَرٍ عَامِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفَ بِمَنْزِلِ الشَّرِيبِيِّ مِنْ بَسَاتِينِ تَطْوَانَ. عَمَّرَهَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. وَبِالصَّالِحِينَ أَهْلَ الشُّهُودِ وَالْعِيَانِ آمِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هـ.

«المقتطفة الثانية: في الاسم المفرد»

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فِي قَصِيدَةٍ يَذْكُرُ فِيهَا الْاسْمَ الْمَفْرَدَ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَسْرَارِ، فَقَالَ:

أَلِفٌ قَبْلَ لَامَيْنِ.. وَهَاءٌ قَرَّةَ الْعَيْنِ..

أَيُّ هُوَ قَرَّةَ الْعَيْنِ وَقَرَّةُ الْعَيْنِ: بُرُودَتُهَا بِدَمْعِ الْفَرَحِ؛ لِأَنَّهُ بَارِدٌ. وَالْقُرَّةُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْبَرْدُ. وَهُوَ بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ. وَدَمْعُ الْفَرَحِ بَارِدٌ، كَمَا هُوَ مُجَرَّبٌ أَيُّ هَذَا الْاسْمِ، هُوَ قَرَحٌ قَلْبِي وَسُرُورُهُ، وَبِهِجَتِهِ وَحُبُورُهُ وَالْاسْمُ هُنَا عَيْنُ الْمُسَمَّى. إِذِ الْفَرَحُ إِنَّمَا هُوَ بِالذَّاتِ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَلْقَى أَوَّلَ الْاسْمِ.. وَلَامَانِ بِلَا جِسْمٍ.. وَهَاءٌ آيَةُ الرَّسْمِ... تَهَجُّا سِرّاً حَرْفَيْنِ.. تَجِدُ إِسْمًا بِلَا أَيْنٍ..

هَذَا تَقْرِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ وَتَوْضِيحٌ لَهُ. وَقَوْلُهُ: وَلَامَانِ: الصَّوَابُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، مَعْطُوفٌ عَلَى أَلْقَى. وَقَوْلُهُ: بِلَا جِسْمٍ. أَيُّ مُسَمَّى ذَلِكَ الْاسْمِ هُوَ بِلَا جِسْمٍ بَلْ مُتَزَّهِ عَنِ الْحَضَرِ فِي الْجِسْمِيَّةِ وَالْأَيْنِيَّةِ. وَقَوْلُهُ: آيَةُ الرَّسْمِ. أَيُّ عِلَامَةِ تَمَامِهِ فِي الرَّسْمِ وَالْخَطِّ. لَا فِي الْمَعْنَى. إِذْ لَا نِهَآيَةَ لَهُ.

قَوْلُهُ: أَتَهَجُّ سِرّاً حَرْفَيْنِ هِيَ الْهَاءُ وَالْوَاوُ. مِنْ هُوَ كَأَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَى الْمَفْرَدِ وَلَفْظُهُ هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْمَشَارَقَةِ. يَذْكُرُونَ إِسْمَ الْجَلَالَةِ مَفْرُوداً ثُمَّ يَذْكُرُونَهُ هُوَ هُوَ. حَتَّى يَسْتَغْرِقُونَ فِي الْهَوِيَّةِ. وَهِيَ الْحَقِيقَةُ. تَجِدُ إِسْمًا بِلَا أَيْنٍ. أَيُّ تَجِدُ مُسَمَّى ذَلِكَ الْحَرْفَيْنِ هَوِيَّةً وَحَقِيقَةً بِلَا جِهَةٍ وَلَا أَيْنِيَّةٍ. لَا زَمَانِيَّةً وَلَا مَكَانِيَّةً. كَأَنَّ قَبْلَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَقَدْ بَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى مَا كَانَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«حُرُوفُ كُلِّهَا تُتْلَى.. تَرَى الْقَلْبَ بِهَا يُجَلَّى.. وَيَسْلَى بَعْدَ مَا يَبْلَى... وَيُذْرَجُ بَيْنَ كَفْتَيْنِ.. بِرَمْزَيْنِ رَقِيقَيْنِ».

قلت: المراد بالحروف التي تُتْلَى: حروف اسمِ الْجَلَالَةِ. وَذَلِكَ إِذَا ذَكَرْتَ الحروف كلها، صار مدخولها: اللَّهُ. وَإِذَا حُذِفَتِ الهمزة واللامان صار: هُوَ وَلَا تَحْذَفُ الهاء؛ لأنها آية الرُّسْم. وعلامة كَمَا تَقْدُمُ فحُرُوفُ اسمِ الجلالة كلها تُتْلَى مَعَ صَحَّةِ الْمَعْنَى. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

وَقَوْلُهُ: تَرَى الْقَلْبَ فِيهَا يُجَلَّى؛ أَي يُصَفَّلُ وَتَنْجَلِي عَنْهُ عَظْمَةُ الْغَفْلَةِ وَصُورِ الْأَكْوَانِ: الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّهُودِ وَالْعَيَانِ. إِنْ دَامَ عَلَى مَذْكَرٍ مَدْخُولِ تِلْكَ الْحُرُوفِ، وَهُوَ اللَّهُ: أَوْ هُوَ لَمَنْ اسْتَعْرَفَتْ فِكْرَتُهُ فِي الْهَوِيَّةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لِكُلِّ شَيْءٍ مِصْقَلَةٌ وَمِصْقَلَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ»^(١).

وَقَوْلُهُ: وَيَسْلَى بَعْدَ مَا يَبْلَى؛ أَي وَيَتَسَلَّى عَنِ الْهُمُومِ وَالْأَكْدَارِ بِالْغَيْبَةِ عَنْهَا فِي ذِكْرِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ بَعْدَ مَا يَبْلَى وَيَخْتَبِرُ بِالْفِكْرَةِ فِيهَا، وَالْخَوْفِ فِي ظَلَمَتِهَا. فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ أَنْجَلَى عَنْهُ ذَلِكَ وَيَتَسَلَّى عَنْهَا. وَأَنْسَ بِاللَّهِ وَخَذَهُ. اسْتَوْحَشَ مِمَّا سِوَاهُ. وَقَوْلُهُ: وَيُذْرَجُ بَيْنَ كَفْتَيْنِ: الضَّمِيرُ فِي يُذْرَجُ يَعُودُ عَلَى الْقَلْبِ. وَالْمُرَادُ بِالْكَفْتَيْنِ: الْبَشَرِيَّةُ وَالرُّوحَانِيَّةُ؛ أَوْ الْجِسْمُ وَالْمَعْنَى أَوْ الْقُدْرَةُ وَالْحِكْمَةُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مَاتَ عَنْ حُطُوطِهِ وَشَهَوَاتِهِ. كُفِّنَ بِرِدَاءٍ مِنْ رِدَاءِ نُورَانِي رُوحَانِي، وَرِدَاءِ ظُلْمَانِي جِسْمَانِي؛ وَهُوَ مُقِيمٌ بَيْنَهُمَا. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. وَيُوفِي كُلَّ ذِي قَسْطٍ قَسْطَهُ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى جَعَلَ فِيهِ عَيْنَيْنِ: إِحْدَاهُمَا تَنْظُرُ لِلْبَشَرِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ. وَالْأُخْرَى تَنْظُرُ لِلرُّوحَانِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ. فَإِذَا نَظَرَتْ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ أَعْطَتْهَا حَقَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ. قِيَاماً بِرِسْمِ الْحِكْمَةِ. وَإِذَا نَظَرَتْ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ، أَعْطَتْهَا حَقَّهَا مِنَ الشُّهُودِ وَالْمَعْرِفَةِ. قِيَاماً بِحَقِّ الْقُدْرَةِ. فَإِذَا أَهْمَلَ الْقَلْبُ النَّظَرَ إِلَى إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ كَانَ أَغْوَرَّ، وَإِذَا أَهْمَلَهُمَا مَعاً كَانَ أَغْمَى وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. [الصدر: ٤٦].

وَقَوْلُهُ: بِرَمْزَيْنِ رَقِيقَيْنِ: أَي بِإِشَارَتَيْنِ رَقِيقَتَيْنِ لَطِيفَتَيْنِ؛ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا مَنْ

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

تَلَطَّفَتْ رُوحُهُ. وَرَقَّتْ بِشْرِيَّتِهِ. إِذْ لَا يَعْرِفُ الْبَشَرِيَّةَ وَالرُّوحَانِيَّةَ، وَالْقُدْرَةَ وَالْحِكْمَةَ، وَالْحَسَنَ وَالْمَعْنَى، إِلَّا مَنْ تَلَطَّفَتْ عَوَالِمُهُ، وَرَقَّتْ بِشْرِيَّتُهُ. وَفَنِيَتْ دَائِرَةُ حَسَنِهِ وَإِلَّا فَحَسْبُهُ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَرْبَابِ الْمَعْرِفَةِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

غَرَامِي فِي الْهَوَى قَدْ بَاخَ.. وَفَجَّرِي بَعْدَ لَيْلَى لَآخَ.. وَصِرْتُ لِلْوُجُودِ مِضْبَاخَ.. شَمْسٌ بَيْنَ قَمَرَيْنِ.. وَلَا أَذْرِي أَيْنَ أَيْنَ..

قلت: الْغَرَامُ: هُوَ الْعِشْقُ. وَالْهَوَى: مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَتَتَجَذَّبُ إِلَيْهِ، فِي الْحَقِّ أَوْ فِي الْبَاطِلِ. فَأَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عَشْقَهُ فِي هَوَى الْحَبِيبِ قَدْ بَاخَ. أَيُّ ظَهَرَ وَاشْتَهَرَ. وَفَجَّرَ وَصُولَهُ لِلْمُحْبُوبِ، بَعْدَ لَيْلٍ قَطِيعَتِهِ عَنْهُ قَدْ لَآخَ. أَيُّ طَلَعَ وَانْتَشَرَ. وَصَارَ مِصْبَاحَ أَهْلِ زَمَانِهِ. يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَيُهْتَدَى بِهِ فِي سُلُوكِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

وقوله: وَشَمْسٌ بَيْنَ قَمَرَيْنِ: يَوْجَدُ فِي النِّسْخِ بِالرَّفْعِ. أَيُّ وَأَنَا شَمْسٌ بَيْنَ قَمَرَيْنِ. وَيَصْخُ فِيهِ النَّضْبُ بِالْعَطْفِ عَلَى مِصْبَاحٍ لِأَنَّهُ مَنْصُوبٌ. وَوَقَفَ عَلَيْهِ بِالسُّكُونِ، عَلَى لَعْنَةٍ رَبِيعَةٍ لِلْوَزْنِ.

والمُرَادُ بِالْقَمَرَيْنِ: قَمَرُ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الظَّاهِرَةِ، وَقَمَرُ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ. أَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ صَارَ مِصْبَاحًا لِلْفَرِيقَيْنِ، يَقْتَبِسُ مِنْ نُورِهِ أَهْلُ الظَّاهِرِ، وَأَهْلُ الْبَاطِنِ كَمَا يَقْتَبِسُ الْقَمَرُ نُورَهُ مِنْ نَوْرِ الشَّمْسِ.

وقوله: لَا أَذْرِي أَيْنَ أَيْنِي. أَيُّ لَا أَذْرِي أَيْنَ وَجُودِي وَأَثَرِي لِغَلْبَةِ سُكْرِي. وَهَذِهِ حَالَةٌ شَرِيفَةٌ، وَمَرْتَبَةٌ مَنِيفَةٌ. وَلِلَّهِ دَرَجَاتُ الْفَارِضِ حَيْثُ قَالَ:

فَلَا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِبِيَا وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْرَانًا بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكْ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ وَلَيْسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ وَلَا سَهْمٌ فَالسُّكْرُ ضَامِنٌ لِلصُّخْرِ وَالْفَنَاءُ ضَامِنٌ لِلْبَقَاءِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْقَمَرَيْنِ: قَمَرُ تَوْحِيدِ الْأَفْعَالِ وَقَمَرُ تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ. أَوْ قَمَرُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَقَمَرُ أَهْلِ الْإِيمَانِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَمَعْنَى حُبِّي الْأَتَقَى.. بِأَنْ أَفْتَى فِيهِ عِشْقًا.. وَأَفْتَى فِي الْفَنَاءِ حَقًّا.. بِوُجُودِ دُونَ فَقْدَيْنِ.. حَيَاةٍ فِي فَنَاءَيْنِ.. قلت: الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَبِّ هُنَا هُوَ

النَّبِيِّ ﷺ. لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام: «أَنَا أَنْفَاكُم لِلَّهِ. وَأَنَا أَعْرَفُكُمْ بِهِ»^(١) أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام، حَسَبَ مَا هُوَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَلَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ قَبْلَ الْمَبْتَدَأِ. وَمَتَعَلَّقُ الْخَبَرِ قَبْلَ الْخَبَرِ. وَالتَّقْدِيرُ: فَشَهِدَ مَعْنَى حُبِّي الْأَتَقَى يَحْصُلُ بِأَنْ أَفْتَى فِيهِ عَشَقًا، فَيَكُونُ الشَّيْخُ أَخْبَرَ أَوَّلًا عَنْ جَذْبِهِ وَقَنَائِهِ. بِقَوْلِهِ: وَشَمْسُ بَيْنَ قَمَرَيْنِ. وَأَخْبَرَ ثَانِيًا عَنْ صَخْوِهِ وَبِقَائِهِ. بِشُهُودِ الْوَاسِطَةِ، بَعْدَ شُهُودِ الْمَوْسُوطِ بِقَوْلِهِ: فَمَعْنَى حُبِّي.. الخ. فَيَكُونُ كَقَوْلِ الشَّيْخِ ابْنِ مَشِيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَصْلِيَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: وَاجْعَلِ الْحِجَابَ الْأَعْظَمَ حَيَاةَ رُوحِي. أَيْ اجْعَلِ شُهُودَ الْحِجَابِ الْأَعْظَمِ؛ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَبَ حَيَاةِ رُوحِي. بَعْدَ أَنْ قَالَ: وَأَغْرَقْنِي فِي عَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ.. الخ.

وَقَوْلُهُ: وَأَفْتَى فِي الْفَنَاءِ حَقًّا. هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. أَيْ وَأَفْتَى فِي ذِي الْفَنَاءِ حَقًّا؛ وَهُوَ الْحَقُّ تَعَالَى. لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يَفْتَى، دُونَ غَيْرِهِ. خَافَ أَنْ يَقَعَ مَعَ الْوَاسِطَةِ، دُونَ شُهُودِ الْمَوْسُوطِ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَتَى فِي الذَّاتِ الْعَالِيَةِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى شُهُودِ الْوَاسِطَةِ. لَكِنْ عَلَى وَجْهِ بَحْثٍ لَا تَخْجُبُهُ عَنِ الْمَوْسُوطِ؛ وَهُوَ الْحَقُّ تَعَالَى فَهُوَ كَقَوْلِ الْقُطْبِ ابْنِ مَشِيشٍ أَيْضًا: بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ أَيْ اجْعَلِ شُهُودَ الْحِجَابِ الْأَعْظَمِ حَيَاةَ رُوحِي مَعَ تَحْقِيقِ شُهُودِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ؛ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ كَمَّلَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: بِجُودِ دُونَ فَقْدَيْنِ. فَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. وَالبَاءُ بِمَعْنَى مَعَ. أَيْ مَعَ شُهُودِ وَجُودِ قَدِيمٍ بَاقٍ دُونَ فَقْدٍ فِي أَوَّلِهِ، وَلَا فَقْدٍ فِي آخِرِهِ. بَلْ هُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ لَا يَتَصَوَّرُ فَقْدَهُ أَوَّلًا وَلَا آخِرًا. «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ». فَإِذَا تَحَقَّقَ وَجُوبُ شُهُودِ وَجُودِ هَذِهِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ الْبَاقِيَةِ.

(١) رَوَى نَحْوَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، بَابِ صَحَةِ صَوْمٍ مِنْ طَلْعِ عَلَيْهِ الْفَجْرِ.. حَدِيثُ (١١٠٨) [٧٧٩/٢] وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي الْمُدَرِّجِ، بَابِ وَجُوبِ الْقَضَاءِ عَلَى مَنْ...، حَدِيثُ رَقْمٍ (٨٧٩٤) [٢٣٤/٤] وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا وَنَصَّهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيْقَبِلُ الصَّائِمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلْ هَذِهِ لَأَمْ سَلَمَةَ فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ذَلِكَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَتَقَاكُمُ اللَّهَ وَأَخْشَاكُمُ لَهُ».

مَعَ شُهُودِ الْوَاسِطَةِ الْمَحْمُودِيَةِ . فَقَدْ حَصَلَتْ حَيَاةٌ فِي فَنَاءَيْنِ . فَنَاءٌ فِي ذَاتِ الْحَقِّ ؛ وَهُوَ الْمَوْسُوطُ . وَفَنَاءٌ فِي ذَاتِ الرَّسُولِ ﷺ ؛ وَهُوَ الْوَاسِطَةُ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ . وَالْعِيشَةُ الرَّاضِيَةُ . مَتَّعَنَا اللَّهُ بِهَا عَلَى أَكْمَلِ حَالٍ نَحْنُ وَأَجْبَاؤُنَا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِنَا آمِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مُنَائِي مَنْ بِهِ هِمْتُ . . وَقُوتِ الرُّوحِ إِنْ مِتُّ . . وَحَزَفِ الْبَيْنَ أَنْشَدْتُ . .
مَتَّى يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ . . أَرَى وَضَلًا بِلَا أَيْنِ .

الْمُنَا: هُوَ مَا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ وَيَقْعُدُهُ . وَالْبَيْنُ: هُوَ الْفَرْقُ وَالْبُعْدُ أَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ مُنَاهُ وَهَوَاهُ ؛ هُوَ مَا هَامَتْ بِهِ رُوحُهُ . وَانْجَذِبَ إِلَيْهِ سِرُّهُ ؛ وَهُوَ الْحَقُّ تَعَالَى . وَهُوَ قُوتُ الرُّوحِ ، لِمَنْ مَاتَتْ نَفْسُهُ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَحُظُوظِهَا ، فَقَدْ سَأَلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْقُوتِ فَقَالَ: هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . فَقِيلَ: إِنَّمَا سَأَلْتَاكَ عَنِ الْقِيَامِ فَقَالَ: الْقِيَامُ: هُوَ الْعِلْمُ فَقِيلَ: سَأَلْتَاكَ عَنِ الْغِذَاءِ فَقَالَ: هُوَ الذِّكْرُ ، فَقِيلَ: سَأَلْتَاكَ عَنِ طَعْمِ الْجَسَدِ . فَقَالَ: مَا لَكَ وَلِلْجَسَدِ دَغُ الَّذِي تَوَلَّاهُ أَوَّلًا يَتَوَلَّاهُ آخِرًا . إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِ عِلَّةً ، رَدُّهُ إِلَى صَانِعِهِ . أَمَا رَأَيْتَ الصَّنْعَةَ إِذَا عَيِثَ رَدَّوْهَا إِلَى صَانِعِهَا حَتَّى يُضْلِحَهَا هـ . وَأَنْشَدُوا:

كَمُلْ حَقِيقَتَكَ الَّتِي لَمْ تَكْمُلْ	وَالْجِسْمُ دَغُهُ فِي الْخَضِيضِ الْأَسْفَلِ
أَتَكْمُلُ الْفَانِي وَتَشْرُكُ بَاقِيَا	هَمَلًا وَأَنْتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفَلْ
فَالْجِسْمُ وَالنَّفْسُ النَّفِيسَةُ آيَةٌ	مَا لَمْ تَحْصُلْهُ فِيهَا لَمْ يَحْصُلْ
يَفْنَى وَتَبْقَى دَائِمًا فِي غَيْظَةٍ	أَوْ شَفْوَةٍ وَنَدَامَةٍ لَا تَنْجَلْ
أَعْطَيْتَ جِسْمَكَ خَادِمًا فَخَدَمْتَهُ	أَتَمَلَّكَ الْمَفْضُولَ رَقِّ الْأَفْضَلِ
شِرْكَكَ كُنْتُ أَنْتَ فِي حِبَالِهِ	مَا دَامَ يُمَكِّنُكَ الْخَلَاصُ فَعَجَلْ
مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ أَعْلَى مَنْزِلِ	مَا لَهُ يَرْضَى بِأَذْنَى مَنْزِلِ

هـ . وَقَالَ آخَرُ:

يَا خَدِيمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ	وَتَطْلُبُ الرِّيحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِالنَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضِيلَتَهَا	فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

وَالْمُرَادُ بِالنَّفْسِ الرُّوحُ ؛ لِأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ . وَإِنَّمَا تَفْتَرِقُ التَّسْمِيَةَ ، بِاِغْتِبَارِ

التَّضْفِيَةِ . فالرُّوحُ هِيَ الْمُنْعَمَةُ فِي عَالَمِ الْبَرَزَخِ وَمَا بَعْدَهُ . أَوْ مُعَذَّبَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ لَهَا . وَلِلْعَزَائِلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَصِيدَةٍ وَجَدَتْ تَحْتَ عِمَامَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَقِيلَ لَعَنِيهِ : قَالَ فِيهَا :

قُلْ لِإِخْوَانِ رَأُونِي مَيِّتًا	فَبَكُونِي وَرَأُونِي حَزَنًا
أَتَظُنُّونَ بِأَنِّي مَيِّتُكُمْ	لَيْسَ ذَلِكَ الْمَيِّتُ وَاللَّهُ أَنَا
أَنَا فِي الصُّورِ وَهَذَا جَسَدِي	كَأَنَّ لَبْسِي وَقَمِيصِي زَمَنًا
أَنَا كُنْتُ وَجَجَابَ طَلَسَمُ	مِنْ تُرَابٍ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْفَنَاءِ
أَنَا ذُرٌّ قَدْ حَوَانِي صَدَفُ	طَرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى وَهَنَا
أَنَا عُضْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي	كَأَنَّ سِجْنِي فَأَلِفْتُ السُّجْنَ
فَأَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَنِي	وَيَسَى لِي فِي الْمَعَالِي وَطَنًا
كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَيِّتًا بَيْنَكُمْ	فَحَيِّتُ وَخَلَعْتُ الْكَفَنَ
فَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَكًا	وَأَرَى الْحَقَّ جِهَارًا عَلَنًا
عَاكِفًا فِي اللُّوحِ أَقْرَأُ وَأَرَى	كُلَّمَا كَانَ أَوْ يَأْتِي أَوْ دَنَا
وَطَعَامِي وَشَرَابِي وَاجِدُ	وَهُوَ رَمَزٌ فَافْهَمُوهُ حَسَنًا
لَيْسَ خَمْرًا سَائِغًا وَعَسَلًا	لَا وَلَا مَاءً وَلَكِنْ لَبَنًا
هُوَ مَشْرُوبُ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ	كَانَ سِرُّ فِطْرَةِ قَطْرِنَا

انتهى المراد منها :

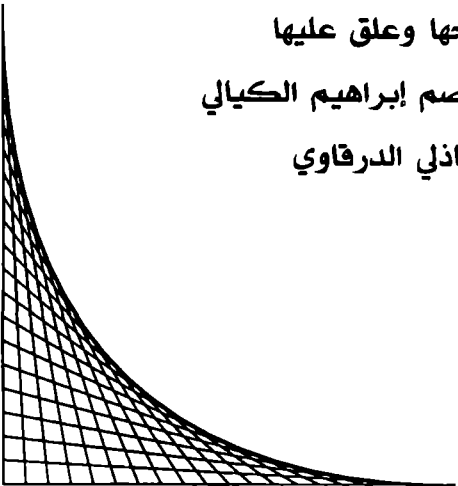
وقوله : وَحَزَفُ الْبَيْنِ أَتَشَدَّتْ : حَزَفُ الْبَيْنِ هُوَ يَاءُ النَّدَاءِ . لِأَنَّهُ يُنَادِي بِهَا الْبَعِيدَ . وَأَمَّا مَنْ كَانَ حَاضِرًا ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى نِدَاءٍ . وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، مَعَ كَوْنِهِ قَرِيبًا مِنَ الدَّاعِي تَنْزِيلًا لِلدَّاعِي مَنْزِلَةَ الْبَعِيدِ . تَحْقِيرًا لِشَأْنِ النَّفْسِ وَجِسْتِهَا . وَأَمَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحُضُورُ وَالْقُرْبُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى نِدَاءٍ ؛ وَهَذَا الْحَزَفُ الَّذِي أَتَشَدَّهُ الشَّيْخُ ، هُوَ قَوْلُهُ : مَتَى يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ الْخ . أَيْ يَا قُرَّةَ عَيْنِي ، مَتَى أَرَى وَضَلًا مُتَابِدًا . لَا يَصْحَبُهُ بَيْنٌ وَلَا فَرْقٌ . وَمُرَادُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَخْصُلُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ الرُّوحِ وَالرِّيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ ؛ وَهُوَ الشَّهُودُ الدَّائِمُ . وَالنَّعِيمُ الْمُقِيمُ . فَهُوَ كَقَوْلِ الشَّيْخِ ابْنِ مَشِيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مُخَاطِبًا لِرُوحِهِ

عَلَى اقْتِبَاسِ أَهْلِ الْإِشَارَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. [الفصص: ٨٥] وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِحَرْفِ الْبَيْنِ، مَا أُنْشِدَهُ فِي الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا مِنْ التَّعْزَلَاتِ وَالْإِشَارَاتِ؛ لِأَنَّ الْإِشَارَاتِ بِهَا تَدَلُّ عَلَى الْبَيْنِ وَالْبُعْدِ. قَالَ فِي الْحِكْمِ: «مَا الْعَارِفُ: مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ. بَلِ الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ، لَفَنَائِهِ فِي شَهْوِهِ. وَانْطَوَائِهِ فِي وُجُودِهِ». هـ. قَالَ: فَالْعَارِفُونَ حِينَ حَصَلَ لَهُمُ الْوُصُولُ. فَتَوَّأ عَنْ رُؤْيَا وَجُودِهِمْ، فِي وَجُودِ مَخْبُوبِهِمْ. فَلَا مُشِيرَ غَيْرَ الْمَشَارِ إِلَيْهِ قَدْ اتَّحَدَ الْوُجُودُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَلِكُ الْمَغْبُودُ؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَمَنَّاؤُ النَّاطِمِ بِقَوْلِهِ: مَتَى يَا قَرَّةَ الْعَيْنِ.. أَرَى وَضْلاً بِلَا أَيْنِ.. أَيِ بَغِيرِ وَجُودِي، وَلَا شَهْوٍ نَفْسِي. وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ بِلَا مَيِّنٍ. كَمَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ كَلَامُهُ فِي قَصَائِدِهِ وَأَرْجَالِهِ. إِذِ الْكَلَامُ صِفَةُ الْمُتَكَلِّمِ. وَمَا فَيْكَ، ظَهَرَ عَلَى فَيْكَ. وَكُلَّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرْشَحُ. فَاللَّهُ تَعَالَى يَمْنَحُنَا وَأَحْبَاءَنَا مَا مِنْهُمْ بِهِ، أَوْ أَعْظَمَ. بِمَنْهِ وَكَرَمِهِ. وَبِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَحَبِيبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

وَهَذَا آخِرُ التَّقْيِيدِ الْمُبَارَكِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وَتَوْفِيقِهِ وَحُسْنِ عَوْنِهِ. كَسَاهُ اللَّهُ جُلُبَابَ الْقَبُولِ. وَبَلَغَ بِهِ الْقَضْدَ وَالْمَأْمُولَ آمِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَافِقَ الْفَرَاغِ مِنْ تَبْيِيزِهِ زَوَالَ يَوْمِ الْخَمِيسِ أَوَاسِطَ صَفَرٍ. عَامَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ، وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفٍ فِي ثَغْرِ وَادِي اللَّيَّانِ. عَمَّرَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ الْإِحْسَانِ آمِينَ. سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

شَرْحُ الْأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةِ
لِأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ

لسيدي أحمد بن عجيبة
رضي الله عنه



ضبطها وصححها وعلق عليها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً إلى آخينا الفقيه الأجل السيد علي بن عبد الرحمن. أَوْلَحَكَ الله ورعاًكَ. وَأَعَانَكَ على الدين والدنيا. سلامُ الله تعالى عليك وبركاته. وبعد فقد وَرَدَ عَلَيْنَا كتابك ومسطورك. وتَأَمَّلْنَاهُ، فظهر لنا أنك تريد الجواب عن مسألة الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، وإمام الصوفية، ومُحِبِّي الحقيقة، الشيخ: أَبُو القاسم الجُنَيْد، نفعا الله ببركاته آمين:

تَوْضُأً بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ وَإِلَّا تَبَيَّنْ بِالضُّعْبِ أَوْ الصُّخْرِ
وَقَدْ مَ إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامُهُ وَصَلْ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ
فَهَذِ صَلَاةَ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

فَاغْلَمْ أَيُّهَا الْآخ: أَنَّ كَلَامَ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ، والعلماء العالمين، الَّذِي ليس بمنقول عَمَّنْ تَقَدَّمَ. وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا بِهِ مِنْ قَرِيحَةٍ أَنْفُسِهِمْ. فَيَكُونُ مَنْطَوِيّاً عَلَى أَسْرَارٍ مَصُونَةٍ، وجواهر مكنونة، لا يكشفها إِلَّا هُمْ. وَلَا تَبَيَّنْ حَقَائِقَهَا إِلَّا بِالتَّلَقِّي عَنْهُمْ. ومثل هذا يسأل عنه الأولياء العارِفُونَ. وَأَمَّا أَنَا بِمَعزِلٍ عَنْ هَذَا. وَبَعِيدٍ لِكثَرَةِ جَهْلِي، ومخالفة رَبِّي، وكثرة زَلَّتِي، وَعَمَى بِصِيرَتِي. ونقصان عَقْلِي. لَكِنْ لَمَّا أَتَانِي كِتَابُكَ. اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَهْمِلَهُ. وَلَمْ أُجِبْهُ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ يَثُوبُ عَلَى صَاحِبِهِ. وَأُجِيبُ عَلَى قَدْرِ مَا مَنَحَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ. فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وله الشكر.

على قَدْرِ فَهْمِنَا كَلَامَ الْمُتَقَدِّمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَاغْلَمْ أَيُّهَا الْآخ بِأَنَّ الطَّهَارَةَ طَهَارَتَانِ: طَهَارَةٌ حَسِيَّة، وطَهَارَةٌ مَعْنَوِيَّة. فالطهارة الحسية، صغرى

وكبرى، كما هي معلومة والطَّهارة المعنوية طهارتان: ظاهرية وباطنية. فالطهارة الظاهرة، طهارة الجوارح من المعاصي والباطنة، طهارة القلب من الأذناس والأغيار ومن مخالفة الديان الملك الجبار. وأن يمثل الإنسان بجميع جوارحه ما أمره به الواحد القهار فجمع المصنف رحمه الله تعالى في هذه الأبيات: الطهارة المعنوية كلها، وعلوم الصوفية. والحقيقة والشريعة.

فَقَوْلُهُ: «تَوَضُّأٌ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ» أي تَطَهَّرْ للدُّخُولِ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَةِ الإِلَهِيَّةِ؛ أَنِي تَطَهَّرْ مِنَ الْمَعَاصِي بِالتَّوْبَةِ وَالتَّجَرِيدِ مِنَ الْأَغْيَارِ وَالتَّذَمُّعِ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ، وَكَثْرَةِ الْاسْتِغْفَارِ، وَالنِّيَّةِ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ. كَمَا لَا تَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا بِالطَّهَارَةِ الْحَسِيَّةِ. فَكَذَلِكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِي حَضْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ. فَتَطَهَّرْ وَتَوَضُّأٌ بِمَاءِ الْغَيْبِ. أَيِ الْيَقِينِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا شَكَّ مَعَهُ. وَالنِّيَّةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْإِخْلَاصِ. وَدَلِيلُ مَاءِ الْغَيْبِ هُوَ الْيَقِينُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١، ٣] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أَيِ يُؤْمِنُونَ بِقُلُوبِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ غَيْبٌ. وَلَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ إِلَّا الْمُوقِنُونَ. فَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ: تَوَضُّأٌ بِمَاءِ الْغَيْبِ؛ الَّذِي هُوَ الْيَقِينُ، وَقَسَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] إِلَى قَوْلِهِ ﴿يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣]. بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. فَهَذِهِ مَزِيَّةُ هَذَا الْوُضُوءِ، وَأَيُّ مَزِيَّةٍ أَعْلَى، لِمَنْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بِالْهُدَى وَالْفَلَاحِ.

وقوله: «إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ». أَيِ إِنْ كُنْتَ صَاحِبَ سِرٍّ. وَالسِّرُّ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّهَا شَرْطٌ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ. فَإِذَا انْتَفَى الشَّرْطُ، انْتَفَى الْمَشْرُوطُ. وقوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. هُوَ سِرُّ الْأَسْرَارِ. وَأَصْلُ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْأَخْيَارِ؛ لِأَنَّ لَوْ قَرَضْنَا أَنْ أَحَدًا يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ كُلَّهَا؛ مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَقِرَاءَةٍ، وَيَأْتِي بِوَجْهِ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. أَوْ نَطَقَ بِهَا وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهَا، بَلْ نَطَقَ بِهَا خَاصَّةً، فَلَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا. وَإِنْ هَذِهِ

الكلمة الطيبة الْمُبَارَكَةُ؛ هِيَ أَصْلُ الْأَسْرَارِ الرِّبَانِيَةِ. وَالْمَوَاهِبُ الْإِلَهِيَّةُ؛ وَبِهَا يَسْتَحِقُّ الْمُؤْمِنُ رِضَاءَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَجْهَ الْمُنَاسِبَةِ بَيْنَهَا. وَبَيْنَ الْوُضُوءِ الْمَذْكُورِ. حَتَّى جَعَلَهَا شَرْطاً فِي صِحَّةِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ نَجَسٌ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكُونُ لِلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا أَكْمَلُوا مِنَ الْأَمْرِ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. الْآيَةُ. وَيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَذْكُورَةُ، يَظْهَرُ ذَلِكَ التَّجَسُّسُ مِنْ حِينِهِ. وَيَصِيرُ مِنْ نَفْسِ قَوْلِهَا وَاعْتِقَادِهَا وَلِيّاً لِلَّهِ تَعَالَى. وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ. فَهَذَا مُرَادُ النَّازِمِ بِقَوْلِهِ: «إِنْ كُنْتُ ذَا سِرٍّ». وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْأَسْرَارِ الرِّبَانِيَةِ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ ذِكْرَهَا مُفْتَاحُ الْوِلَايَةِ الْكُبْرَى. فَأَيُّ سِرٍّ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا السِّرِّ.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَيْمَمُ بِالصَّعِيدِ أَوْ الصَّخْرِ»: أَيُّ إِذَا عَدِمْتَ مَاءَ الْغَيْبِ؛ وَهُوَ الْيَقِينُ. وَكُنْتَ مِنْ أَصْحَابِ السِّرِّ. فَتَيْمَمُ بِالصَّعِيدِ أَوْ بِالصَّخْرِ؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْخُلُ الْحَضْرَةَ حَضْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا بِالطَّهَارَةِ الْمَغْنُوتِيَّةِ. كَمَا لَا تَدْخُلُ لِلصَّلَاةِ إِلَّا بِالْوُضُوءِ، أَوْ بِالتَّيْمُمِ إِنْ عُدِمَ الْمَاءُ كَمَا هُوَ الْمَقْرَرُ.

ومراده بِالصَّعِيدِ هُنَا: مُخَالَطَةُ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ. وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، أَهْلُ الْيَقِينِ. لِأَنَّ الطَّبَاعَ تَسْرُقُ الطَّبَاعَ. فَتَقْتَنِدِي بِأَهْلِ الْيَقِينِ. وَتَهْتَدِي بِهِمْ، حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ؛ وَلِذَلِكَ اتَّفَقَ أَهْلُ هَذَا الطَّرِيقِ عَلَى أَنَّ الشَّيْخَ لَا بُدَّ مِنْهُ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْقَاسِمِ الْخَلِيلُ: «مَنْ لَا شَيْخَ لَهُ فَالشَّيْطَانُ شَيْخُهُ». وَقَالَ: وَمُخَالَطَةُ الْأَخْيَارِ مُحِبَّتُهُمْ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَانَ جَنْباً. لِقَوْلِهِمْ: إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ، فَعَلَيْكَ بِمُحِبَّتِهِمْ؛ لِأَنَّكَ بِحُبِّكَ إِلَيْهِمْ تَصِلُ إِلَيْهِمْ. وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حَسَرَ مَعَهُمْ»^(١) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «مَنْ فَاتَتْهُ دَرَجَةُ الْوِلَايَةِ وَالصَّلَاحِ، فَعَلَيْهِ بِمُحِبَّةِ أَهْلِهَا؛ لِأَنَّ مُحِبَّتَهُمْ وَِلَايَةُ». وَمَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ جَنْباً، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَطَهَّرَ بِمُخَالَطَتِهِمْ فَهَذَا مُرَادُ النَّازِمِ بِالتَّيْمُمِ بِالصَّعِيدِ. وَالْمُرَادُ بِالْجَنْبَانَةِ: الْجَنْبَانَةُ الْمَغْنُوتِيَّةُ؛ وَهِيَ الْغَفْلَةُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ. وَالْإِنْهَمَاكُ فِي مَعَاصِي اللَّهِ؛ وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهَا فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَطَهَّرَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَسُوءِ فِعْلِهِ، بِتَوْبَتِهِ، وَرُجُوعِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَوُقُوفِهِ عِنْدَ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. إِنْ كَانَ

(١) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحین، کتاب الهجرة، حدیث رقم (٢٣٥٣) [٢]

عارفاً بذلك وكثرة اليقين. والتصديق، والنية والإخلاص. وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا
بذلك، وغلبه الأمرُ فَعَلِيهِ بِمَخَالَطَةِ الْأَخْيَارِ الْعَارِفِينَ، وَأَهْلِ الْيَقِينِ. نَسْأَلُ اللَّهَ
التَّوْفِيقَ لَنَا وَلَكُمْ:

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْ بِالصَّخْرِ». أَيِ أُنْكَ إِذَا لَمْ تَجِدْ مَاءَ الْغَيْبِ
الَّذِي يَرْفَعُ الْحَدَثَ الْأَكْبَرَ؛ وَهِيَ الْغَفْلَةُ، فَلَا غَيَّ لَكَ عَنِ التَّيَمُّمِ بِالتُّرَابِ؛ وَهِيَ
مَخَالَطَةُ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ. لِأَنَّ التُّرَابَ يَنْبِتُ فِيهِ كُلَّ نَبَاتٍ.
فكَذَلِكَ الْأَوْلِيَاءُ الْعَارِفُونَ كَلَامُهُمْ حِكْمَةٌ، يَنْبِتُ فِي الْقُلُوبِ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَالْإِنْتِفَاعُ
بِهِمْ حَاصِلٌ. نَقَعْنَا اللَّهُمَّ بِهِمْ. فَإِنْ لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ عَرَّاسٌ، وَالْعَرَّاسُ لَا
يَرَاهُمْ إِلَّا مَحْرَمٌ مِنْهُمْ فَعَلَيْكَ بِمَخَالَطَةِ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَالْمُنْتَسِبِينَ وَالْمُدْعِينَ؛ لِأَنَّكَ
رُبَّمَا تَسْمَعُ كَلِمَةً تَنْتَفِعُ بِهَا مِنْ نَيْتِكَ وَصِدْقِكَ؛ لِأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ الْخَيْرَ فِي صَخْرَةٍ
نَالَ مِنْهَا. وَمُرَادُ النَّازِمِ بِالصَّخْرِ: الْحَجَرُ لِكَوْنِهِ لَا يَنْبِتُ فِيهِ نَبَاتٌ فِي غَالِبِ
الْأَحْيَانِ، وَرَبَّمَا يَنْبِتُ فِي بَعْضِ بَكْثَرَةِ الْأَمْطَارِ. أَوْ بِكَثْرَةِ مُرُورِ الْمَاءِ عَلَيْهِ.
فكَذَلِكَ عُلَمَاءُ السُّوءِ، وَالْمُنْتَسِبُونَ، لَا يُنْتَفِعُ بِهِمْ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ، لَكِنْ إِذَا
دَامَ عَلَى مَجَالَسَتِهِمْ، قَرُبًا يَنْتَفِعُ بِهِمْ؛ أَيْ بِأَقْوَالِهِمْ: وَلِأَنَّ مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ
مِنْهُمْ. وَلِذَلِكَ أُمِرَ بِالْإِنْصَاتِ لِلْوَرَّاقِ، وَالْخَطِيبِ. وَقِرَاءَةِ كُتُبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ؛
لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَسْمَعُ كَلِمَةً فَيَتَعِظُ بِهَا. قَالَ الشَّيْخُ زُرُقُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صَدْرِ
شَرْحِهِ عَلَى الْمُبَاحِثِ الْأَصْلِيَّةِ، قَالَ:

تَشَاجَرَ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، فَغَلَبَهُ الْبَاطِلُ فَقَتَلَهُ. فَخَافَ أَنْ يَطْلُبَ بِهِ، فَأَخْرَقَهُ.
فَجَاءَ أَهْلُهُ وَفَرَّ مِنْهُمْ الْبَاطِلُ. وَجَمَعُوا رِمَادَ الْحَقِّ وَجَعَلُوهُ فِي الْمَحَابِرِ وَكَتَبُوا بِهِ
الْكِتَابَ. فَمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ فِي زَمَانِنَا هَذَا فَلَا يَجِدُهُ إِلَّا فِي الْكِتَابِ. فَهَذَا مُرَادُ
النَّازِمِ بِالصَّخْرِ لِكَوْنِهِمْ يَسْمَعُ مِنْهُمْ مَا كَانَ مُوَافِقًا، وَيَتْرَكَ فِعْلَهُمْ لِمَا قِيلَ: «إِجْنِ
الثَّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ». وَلِذَلِكَ قِيلَ وَرَبَّمَا يَسْمَعُ كَلِمَةً، يَنْتَفِعُ بِهَا سَامِعُهَا
وَيُخْرَمُ مِنْهَا قَائِلُهَا. وَاللهُ الْمَوْفِقُ بِمَنْهِ لِلصَّوَابِ.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَدَّمَ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ». فَإِلَامًا هُوَ الْمَتَّبِعُ،
وَالْمَأْمُومُ هُوَ التَّابِعُ. وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا. هُوَ النَّبِيُّ ﷺ. فَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ
يَتَّبِعَهُ، وَيُقَدِّمَهُ، وَيَتَّخِذَهُ إِمَامًا. بِإِتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُجُودُونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُونِي يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ . [آل عمران: ٣١] فهو إِمَامٌ بِاتِّبَاعِهِ لَهُ .

وقوله: «كُنْتُ أَنْتَ إِمَامَهُ» . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا كَانَ مُزْتَكِباً لِلْمَعَاصِي، والكِبَايِرِ، قبل التَّوْبَةِ فِي حَالِ الْمُؤْمِنِ الْعَاصِي . أَوْ حَالِ الْكَافِرِ، أَوْ الْمَشْرِكِ؛ لِمَنْ كَانَ كَافِراً قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ وَهُوَ يَفِرُّ مِنَ التَّوْبَةِ، وَالْإِسْلَامِ . وَدَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَتَّبَعُهُ . حَتَّى عَمَّتِ الْأَفَاقُ كُلُّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَى هَذَا الْمَتَّبِعِ هُوَ الْكَافِرُ، حَيْثُ قَرَّ مِنَ الْحَقِّ لِلْبَاطِلِ . فَأَلْمَتَبُوعُ: إِمَاماً . وَالتَّابِعُ الْمَأْمُومُ؛ وَهُوَ التَّابِعُ لَهُ؛ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَضَى حَيَاتِهِ بِالْمَعْجَزَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْحُجَّةِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالتَّنْذِرِ وَالْوَعْظِ، وَالْقِتَالِ وَهُمْ فَارُونَ مِنْهُ؛ وَهُمْ يَتَّبِعُهُمْ؛ حِرْصاً عَلَى هِدَايَتِهِمْ حَتَّى هَدَاهُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، فَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ . فَحِينَ كَانُوا مَتَّبُوعِينَ لَهُ كَانُوا أَئِمَّةً لَهُ . لَكُونِ الْمَتَّبُوعُ كُلُّهُ إِمَاماً لِتَابِعِهِ . وَالْآنَ أَمَرَهُمُ الشَّرْعُ الْعَزِيزُ بِأَنْ يَتَّبِعُوا النَّبِيَّ ﷺ . فَصَارَ إِمَامَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ لَهُ . وَكَذَلِكَ عَصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَزَالُوا هَارِبِينَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَطَاعَتِهِ . وَالْأَوْلِيَاءُ يَتَّبِعُونَهُمْ بِالْمَوَاعِظِ، مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ . وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ . وَلَمْ يَزَلْ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى يُخَاطِبُهُمْ وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَى أَنْ اسْتَيْقَظُوا مِنْ نَوْمِ الْعَفْلَةِ، وَسُكْرَةِ الْأَهْوَاءِ . وَبَادَرُوا إِلَى التَّوْبَةِ، بِالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، عَلَى قَدَرِ صِدْقِهِمْ فَيَعْزِلُونَ نَفُوسَهُمْ مِنْ هَذِهِ التَّبَعِيَةِ . وَيَكُونُونَ تَابِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعُلَمَاءِ، فَكَانُوا قَبْلَ التَّوْبَةِ مَتَّبُوعِينَ، وَالْمَتَّبُوعُ إِمَاماً لِمَنْ تَبِعَهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَالْآنَ حِينَ تَابُوا أَمَرُوا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا تَابِعِينَ لَهُمْ، صَارُوا مَأْمُومِينَ لِمَنْ كَانَ إِمَاماً لَهُمْ . وَهَذَا مُرَادُ النَّاطِمِ بِقَوْلِهِ: «وَقَدْ مَ إِمَاماً كُنْتُ أَنْتَ إِمَامَهُ» . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وقوله: «وَصَلِّ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ» . أَي مُرَادُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْفَجْرِ: الطَّاعَةِ فِي حَالَةِ الشَّبَابِ، وَالْعَصْرِ آخِرُ الْعَمْرِ .

وَلَمَّا كَانَ حَالُ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَأَوَانُ مَوْتِهِ مَجْهُولاً، لَا يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بِمَوْتِهِ . أَي يَوْمٍ أَوْ أَيِّ سَاعَةٍ . وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ صَغِيراً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ كَبِيراً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ شَابّاً . وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ شَيْخاً . صَارَ كُلُّ إِنْسَانٍ

صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا فِي عَصْرِ يَوْمِهِ. أَيِ آخِرِ عُمُرِهِ. وَيُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي حَالَةِ شَبَابِهِ. بَأَن يَطْبِيعَ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَتَوَبَّ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ، أَيِ فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ؛ لِأَنَّ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي كَلَامِ النَّاطِمِ: الطَّاعَةُ وَالتَّوْبَةُ، وَالتَّذَمُّمُ، وَالرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالَةِ الشَّبَابِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْعَصْرِ أَيِ أَوَّلِ الْعُمُرِ؛ لِأَنَّ عَصْرَ النَّهَارِ هُوَ آخِرُهُ. وَكُلَّ سَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ فَهِيَ آخِرُ عُمُرِهِ لَا يَذْرِي هَلْ يَفُوتُهَا أَمْ لَا. فَهَذَا مُرَادُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَضْبَحَ، فَلَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْمَسَاءِ. وَإِذَا أَمْسَى فَلَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالصُّبْحِ.

وَقَوْلُهُ: «فَهَذَا صَلَاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ»؛ لِأَنَّ الْعَارِفِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مَهْمَا تَفَكَّرُوا أَوْ تَقِظُوا مِنَ الْعَفْلَةِ، رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ. وَتَابُوا تَوْبَةً نَصُوحًا. خَوْفًا أَنْ يُذَكِّرَهُمُ الْمَوْتُ قَبْلَ الْقَوْتِ. وَيَنْدُمُونَ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِهِمْ. فَهَذِهِ حَالَةُ أَكَابِرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُوَفَّقِينَ فِي حَالِ شَبَابِهِمْ. بَلْ كَانُوا عُصَاةَ مُذْنِبِينَ. فَلَمَّا كَانُوا فِي آخِرِ عُمُرِهِمْ. تَذَارَكَهُمُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ. فَكَانَ أَوَّلُ عَصْرِهِمْ، وَصَلَاةُ فَجْرِهِمْ فَتَابُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وَبَلَّغَهُمْ حَضْرَةَ قَدْسِهِ فِي الْحَيِّ، بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ. كَالْفَضِيلِ بْنِ عِيَّاضٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَكَابِرِهِمْ مِنْهُمْ. بَلْ جُلُّهُمْ نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِمْ فَكَانَ الْوَقْتُ الَّذِي تَفَكَّرُوا فِيهِ، هُوَ صَلَاةُ فَجْرِهِمْ وَأَوَّلُ عَصْرِهِمْ. وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي أَوَّلِ الشَّبَابِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى التَّوْبَةِ. مَهْمَا تَفَكَّرَ وَتَقِظَ. سِوَاءٍ فِي حَالَةِ الشَّبَابِ. أَوْ فِي حَالَةِ الْكِهُولَةِ أَوْ الشَّيْخُوخَةِ. وَمِنْهُمْ نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِمْ، كَانَ مُوَافِقًا فِي حَالِ الصُّغَرِ، كَمَعْرُوفِ الْكَرَّخِيِّ، وَالشَّيْخِ الْجِيلَانِيِّ، وَالشَّيْخِ مَوْلَانَا عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ مَشِيشَ، وَأَمْثَالِهِمْ، فَقَلِيلُونَ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِمْ. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِمَنْنِهِ.

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ». التَّنْضُحُ: هُوَ الرُّشُّ بِالْيَدِ تَقُولُ: نَضَحْتُ الشَّيْءَ إِذَا رَشَيْتَهُ بِالْمَاءِ. وَالْبَرُّ: الشَّرِيعَةُ، وَالْبَحْرُ: الْمَرَادُ بِهِ الْحَقِيقَةُ. أَيِ كُنْ مُلْتَبِسًا بِالشَّرِيعَةِ. مُلَازِمًا لِلْحَقِيقَةِ.

الشَّرِيعَةُ هِيَ أَنْ تَعْبُدَهُ؛ وَهِيَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ. وَالْحَقِيقَةُ أَنْ تُشَاهِدَهُ؛ وَهِيَ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ الشَّرِيعَةِ فِي حَالِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَلَا تَخْرُجَ عَنْ

الحقيقة، في حال القضاء والقدر. ودُم على ذلك إلى أن يحين المَمَات.

القَشِيرِي: الشريعة: مُلَازمة العبودية. والحقيقة: مُشاهدة الرَبوبية. فكل شريعة غَيْر مقيّدة بالحقيقة غير مقبولة. وكل حقيقة غير مقيّدة بالشريعة؛ فهي غير محمودة. وهذا مُراد النّاظِم بِقَوْلِهِ: «فَانْضَحِ الْبَرُّ بِالْبَحْرِ». أي انْضَحِ الشريعة بالحقيقة. أي إجمَع بينهما.

قَالَ الشَّيْخُ الشَّرِيفِي:

وَلِلشَّيْخِ آيَةٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي لَيْالِي الْهَوَى يَسْرِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ فَاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ
فَعِلْمُ الشَّرِيعَةِ هُوَ عِلْمُ الظَّاهِرِ. قَالَ الشَّيْخُ: عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ. وَعِلْمُ
الْحَقِيقَةِ: هُوَ عِلْمُ الْبَاطِنِ الَّذِي قَالَ الشَّيْخُ: وَلَا بَاطِنٍ إِلَّا أَنْ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ
مَحْصُورٌ فِي خَمْسَةِ أَقْسَامٍ عَلَى مَا قَالَ الْمَطْرَفِيُّ. وَعَلَى مَا قَالَ ابْنُ السَّبْكِ بِسِتَةِ
بِزِيَادَةِ الْأُولَى. وَعِلْمُ الْحَقِيقَةِ مُوَاهِبٌ لَا تُحْصَى. وَهَذَا مَا حَضَرَ لِأَخِيكُمْ فِي
اللَّهِ فِي هَذَا الْجَوَابِ.

وَأَمَّا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ، فَقَدْ اخْتَوَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ لَوْ جَعَلْنَا عَلَيْهَا
الْمُجَلَّدَاتِ، وَالذَّوَاوِينَ وَالْأَسْفَارَ، مَا اخْتَوَتْ عَلَى أَحَدِهَا بِكَوْنِهِ كَلَامٌ مَثُورٌ،
صَدَرَ مِنْ شَيْخٍ كَامِلٍ جَلِيلٍ. فَكَيْفَ لِعَاجِزٍ مِثْلِي تَحْوُمُهُ وَكَيْفَ لِنَاقِصٍ بِطَاعَةِ
مِثْلِي يَتَسَوَّقُ سَوْقَهُ. فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِفَتْحِ بَصِيرَتِنَا، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ
عَنْ سَيِّئَاتِنَا بِجَاهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا.

فهرس المحتويات

٣	 تقديم
٧	 ترجمة الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني
١١	 شرح خمريه ابن الفارض رضي الله عنه
٦٧	 شرح نونية الإمام الششتري رضي الله عنه
١٤١	 شرح صلاة القطب ابن مشيش رضي الله عنه
١٨١	 شرح قصيدة يا من تعاظم للإمام الرّفاعي
٢١١	 مِعْرَاجُ التَّشَوُّفِ إِلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ
٢٥٧	 شرح صلاة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي رضي الله عنه ...
٢٦٧	 سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر
٢٩٥	 شرح بعض مقتطفات الشيخ علي الششتري
٣١٩	 شَرْحُ الْأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةِ لِأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ